عادل سعيد بشتاوي

الأمة الأندلسية الشهيدة

(تاريخ ١٠٠ عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)

الإهداء

إلى إيزابيلا الأندلسية قاطنة مدريد

. . . فلما شتمها إسباني بالقول : أنت كلبة العرب ! ، ردت عليه : نعم ! أنا عربية ؛ أبي وأمي كانا عربيين وماتا عربيين ، وأنا أيضاً عربية وسأموت عربية .



شكر

أود التقدّم بشكري وامتناني إلى جميع الإصدقاء والزملاء الذين ساهموا معي في إنجاز هذه الكتاب في سائر مراحله . وأخصّ من هؤلاء زوجتي التي قدّمت لي كل صبرها وعونها وتشجيعها ، والاستاذ الصديق وليد نويهض ، ووفيق قانصوه ودينا حامد وعلا السيلاوي وعبير السيلاوي ومحمد خالد بشتاوي ووليد طرابلسي وعبد المطلب الهوني ورامون أيالا .

تصدير

مضت سبع عشرة سنة على صدور الطبعة الأولى من كتاب «الأندلسيون المواركة»، وأكثر من ربع قرن على بدء اهتمامي البحثي بتاريخ الأندلس. وكنت عزمت على إعداد طبعة رابعة أتلافى فيها الأخطاء السابقة وأثري بحوثها بمعلومات جديدة جمعتها خلال زيارات عدّة الى إسبانيا وإيطاليا واسطنبول وبالمهم من مئات الدراسات المهمة الجديدة. إلا انني لم أجد الوقت الكافي، ولم استطع بعد ذلك الاستجابة إلى طلب ناشر صديق أراد إصدار طبعة جديدة عام ١٩٩٢ لمناسبة مرور ٥٠٠ سنة على تسليم غرناطة واكتشاف العالم الجديد.

ولما عدت قبل ثلاث سنوات إلى الكتاب وجدت أن ما كان محل اتفاق المؤرخين في نهاية السبعينات صار محل خلاف، وما كان جليّاً صار غامضاً، وما كان أكيداً مؤكّداً اعتورته الشكوك. وبدلاً من أن تجلو ملايين التفاصيل الجديدة في المراجع الأحدث التعقيد زادته تعقيداً، وضاع الجهد في الاجتهاد، وانتقلت من مهمة تنقيح الكتاب إلى وضع كتاب جديد مضيت فيه برحلة الأندلسيين بعد سقوط غرناطة إلى أبعد مدى اهتديت إليه.

إلا أن محاولة عرض التاريخ الأندلسي في كتاب واحد مغامرة إن لم تكن نوعاً من الرعونة الفكريّة، خصوصاً أن قرناً واحداً يمكن اجتزاؤه من بعض فترات التاريخ الأندلسي يوازي، بكثافة أحداثه وحضارته وزلزلاته العسكرية والاجتماعية، مجمل تاريخ بعض الشعوب. وكنت اختصرت على نفسي وعلى القارىء الكريم جهداً عظيماً لو أنّي تجاوزت الفصل الأول من هذا البحث ومقدمات معظم الفصول الأخرى، كما كان الغرض في البداية، وانتقلت مباشرة إلى ما يخص واقع الأندلسيين ونضالهم ومآلهم. لكن رأيت بعد المراجعة أن إدراج ما اخترته يدعم المتن ولا يضعفه، وأن إضافته أكثر فائدة من إسقاطه إذ لا يمكن في حالات كثيرة فهم تطور العلاقات بين الأندلسيين والإسبان في القرن السادس عشر من دون تسليط الضوء على علاقاتهم في القرن الثامن، ولا فهم أسباب تبدل طبيعة العلاقات الدينية في شبه جزيرة آيبرية من دون مدّ أفق البحث ليشمل ما يُعرف باسم الحروب الصليبية.

وسأعود بإذن الله في كتاب آخر إلى الحديث عن الأندلسيين في العالم الجديد، وإلى عرض تركتهم الحضارية، ومساهمتهم في الاكتشافات البحرية الكبرى ودورهم في صناعة عصر النهضة الأوروبي وبلورة معالم العصور الحديثة. ومع اعتقادي أن هذا الكتاب يسد ثغرة في التاريخ الأندلسي، إلا أنني لا أعرف إن كان تحقيق هذا الهدف يسوّغ الاجتزاء والاستعجال في العرض، وهما صفتان غالبتان في أي عمل مشابه. وأزلت من نصوص قليلة استبقيتها من الطبعات السابقة ما وجدته من أخطاء، وربما أضفت إلى النصوص الجديدة غيرها فعين الكاتب لا ترى خطأ يده. ولا يعفيني هذا من مسؤوليتي عن الأخطاء والسهو فيه كافة، وجلَّ من لا يخطىء ولا يسهو.

عادل بشتاوي

لندن (كانون الثاني) ٢٠٠٠

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

المحتويات

الفصل الرابع: الاندلسيون ومحاكم التحقيق

الفصل الخامس: تغريب الأندلسيين من اسبانيا

الملاحق والمصادر والجداول

مدخل تاريخي وعرض

نحن أبناء الماضي. وإذا كان الماضي هو التاريخ فنحن أبناء التاريخ أيضاً. وبما أن الرجل صنيعة الطفل الذي هو فيه فإننا، أو جزءاً كبيراً منّا على الأقل، صنيعة الماضي الذي هو في وجداننا. وكما يحاول الطفل أن يتعرّف على نفسه من خلال التعرّف على أبيه، فإن معرفة التاريخ فرسخ مهم في الطريق إلى معرفة أنفسنا، كما ستكون هذه المعرفة مهمة كي يعرفنا الآخرون عندما نصبح جزءاً من التاريخ المجبول بخلطة الأحداث التي كوّنت حضارات الأسرة البشرية. وقبل أن تصبح معرفة الماضي طريقنا إلى معرفة الحاضر يجب أن نتحقق من أن صورة التاريخ هي صورة الأحداث الحقيقية التي صنعته وليس المرآة التي نسج بعض المؤرخين على نولها ما قُدم لنا في المئة سنة الماضية على أنه التاريخ. إن هذا التحقق فقط هو الذي يجعل الماضي امتداداً صحيّاً للحاضر، ويجعل الحاضر امتداداً لأفق مستقبل صحّي. أما الخيار السهل الآخر فهو ليس خياراً مقبولاً لأن التاريخ المشوّه ينقل تشويهه إلى الحاضر وربما اجتمعا معاً ليصنعا المستقبل في صورته القديمة المشوهة.

وربما أصاب بعض من قال إن التشويه ينال التاريخ مرتين: الأولى عندما يكتبه الغالب، والثانية عندما يكتبه المغلوب، فيعكس الإثنان الوجه ونقيضه في صورة الحدث الواحد. إلا أن التشويه الأهم يحدث عندما تُقبل هذه الصيغة أو تلك بلا مساءلة، والأسوأ من الثلاث أن تترك الشعوب للشعوب الأخرى كتابة تاريخها ثم تعود فتقبله وهي في حال من الانبهار على أنه تاريخها الفعلي فيما هو حقيقة إعادة هندسة للتاريخ. إن التعميم مقتل البحث العلمي لكن بعض نتاج إعادة الهندسة تلك يجب ألا يخفي طبيعته الشريرة المصنوعة من فتات التجرّد وعلائق التحامل وأنصاف الحقائق والفجوات. وسنجد في هذا الكتاب غير حالة لم يهتد بعض المؤرخين إلى حقائقها فأحلّوا محلها المرويات والمحكيات والخرافات والجدليات الأكاديمية الخالصة التي لا يُخفي غنى تفاصيلها فقر استنتاجاتها. ومن المؤسف أننا لا نزال نجد إلى اليوم مؤرخين مشهورين يستغلون معرفتهم للدفاع عن مؤسسة إجراميّة مثل محاكم التحقيق التي سعت إلى إبادة الأندلسيين واليهود والبروتستانت، فيما نجد مؤرخين آخرين أقل

شهرة لا يزالون يبحثون عن منافذ جدلية لاستخدامها جسراً يعبرون عليه إلى ساحة الهجوم على الإسلام وتأجيج الروح الصليبية التي نريد أن نعتقد أننا انتهينا منها .

إن قراءة التاريخ، أي تاريخ، تكاد تقود إلى الاستنتاج المحزن بأن الحرب، لا السلم، هي قدر الإنسان وابتلاؤه . إلا أن الحرب لا تعني الاقتتال دائماً . وتحت صراع الأمم والشعوب على الأرض والثروة والعقيدة والهيمنة تطوّر صراع لا يقل أهمية بين حضاراتها كان فيه الفكر سلاحاً لا يقل فتكاً عن السيف، بل ربما كان أعتى لأن الكلمة الواهية تظل حيّة عندما يصدأ السيف ويبليه الزمن . وعلى الرغم من أن الحروب العظيمة هي التي صنعت التاريخ العظيم إلا أن سيلان الدم لم يكن الشيء الذي أبقى الحضارات وحفظها بل سيلان هذا السائل البسيط الذي هو الحبر . وخلال معظم القرون الأربعة الماضية تمكّن الأوروبيون ثم الأميركيون من البطش بأبناء الشعوب الأخرى لكن انتصارهم الحقيقي كان في البطش بحضارات الشعوب الاخرى عندما أعادوا كتابة معظم صفحات التاريخ في صورة تناسبهم، وسعوا إلى عملقة حضارتهم وتقزيم حضارات الآخرين وحققوا عندها فقط انتصارهم الحقيقي .

التأريخ والمؤرّخ

لا توجد زاوية واحدة يجب النظر من خلالها إلى أحداث التاريخ في الألفيّة الثانية فربما بدت للبعض صراعاً دينياً بين الإسلام والمسيحية، أو صراعاً على المجال الحيوي بين العرب وأوروبة، أو صراعاً حضارياً بين المغرب والمشرق، أو صراعاً على الثروة بين شمال أوروبي فقير كانت عملته الأساسية الفضة وجنوب عربي ثري كانت عملته الأساسية الذهب . ويمكن أيضاً ربط الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر بسقوط القسطنطينية وتسليم غرناطة في القرن الخامس عشر، ويمكن فصلهما، وما ينطبق على هذه الأحداث المهمة ينطبق على الكثير غيرها . وتجدد في نهاية القرن العشرين الحديث عن الحروب الصليبية لمناسبة اتصالها بمرور الذكرى الألفية الثانية على نشأة النصرانية، إلا أن الاهتمام الأكبر كان لاكتشاف العالم الجديد . وواكبت هذا الاهتمام إعادة تسليط الضوء على خلفيات هذا الحدث الدولي ومقدماته وتبعاته، وامتدت في صورة طبيعية إلى تسليم غرناطة وقيام محاكم التحقيق لاتصالهما باكتشاف العالم الجديد من جهة وارتباطهما بتطور المسيحية . وتشعبت البحوث المتصلة بكل هذا فشملت اللغات الأساسية كافة وصارت أكثر من أن تُعد أو أن تُتقصى، وها هي اكتسبت زخماً يتواصل قوياً منذ بداية العقد الماضي ويتّسع أفقه ليحتل مكانة مهمّة في المعلومات المتوافرة رقمياً

من خلال مواقع أكاديمية وبحثيّة لاحصر لها في شبكة انترنت التي تتحول بسرعة إلى أكبر مكتبة عرفها الإنسان حتى الآن وإن كانت لا تزال تعاني من الفوضى وضعف الصدقيّة.

ويتّسم كثير من المؤلّفات التي تناولت صراع الأندلسيين مع السلطة والكنيسة ومحاكم التحقيق في إسبانيا بقسط كبير من الموضوعية لكن بعضها خبيث هدفه إعادة ترتيب وقائع التاريخ وأحداث الماضي وتقديمها في إطار جديد أسبغ عليه طابع وهمي من الحداثة والعصرية والعلميّة مع انه في الحقيقة معطف قديم سعى مرتدوه على مدى ١٠٠ عام وأكثر إلى شدّ أبسطة التاريخ من تحت الحضارات الاخرى وفرده تحت حضارتهم وإلغاء حقوق الشعوب الاخرى ونضالها. ولا ينبغي التوقف عند مزاعم طريفة منها اعتبار ابن رشد الفيلسوف يهودياً لأن بعض دروسه العربية مكتوبة بحروف عبرية، وأن كولومبوس يهودي لأنه كان يتحدث القشتالية في جنوة، وأن الصراع بين الأندلسيين والإسبان كان صراعاً دينياً، وأن كل الحضارات البابلية والفرعونية والفينيقية المشرقية العالمية جاءت من وهم اسمه «حضارة ثولي» في أقصى شمال أوروبة أو حضارة «اطلانطيس» التي اخترعها أفلاطون. ومع ذلك يجب التساؤل عن الهدف من الكتب التي تسلّط الأضواء على معاناة اليهود في قشتالة على يد الملوك ومحاكم التحقيق وتتحدث في الهوامش عن معاناة الأندلسيين على يد الملوك أنفسهم ومحاكم التحقيق نفسها. وفي مثل هذا النهج مغالطة تاريخية لا تخدم في النهاية غرضها الآني بل تردّه إلى أصله الإسقاطي البعيد عن الحقيقة لأن تاريخ الأندلس أساساً هو تاريخ الأندلسيين وليس تاريخ الأقليّات التي عاشت في الأندلس. كما لا يمكن في أي حال من الأحوال اعتبار احراق أكثر من ٣٠ ألف أندلسي هامشاً في سجلات محاكم التحقيق الإسبانية فيما عدد اليهود الذين راحوا ضحايا تلك المحاكم نحو الفين.

وفي المكتبات الأوروبية والأميركية اليوم كتب ودراسات تفتقر إلى أدنى درجات روح النقد التاريخي كأن مؤلّفيها يحاولون الالتفاف على التاريخ ولي ذراعه علّه يحتمل وقائع جديدة ليست في التاريخ أصلا. ونجد في مثل هذه الكتب اتجاهاً واضحاً لاستبدال اغتصاب الشعوب خلال العهود الاستعمارية باغتصاب حضاراتها وحرمان العرب عموماً والأندلسيين خصوصاً من أي فضل في ممهدات اكتشاف العالم الجديد على رغم تأكيد مصادر كثيرة وصول الأندلسيين إلى ذلك العالم قبل كولومبوس بقرون عدّة. وتمتد أهداف هذه المحاولات إلى التقليل من تأثير تغريب الأندلسيين في

إضعاف الأمبراطورية الإسبانية، وإلى فرض مبدأ المشاركة على عدد من الإنجازات العربية العلمية المهمة مثل النظام العددي العربي الذي تنتشر الآن تسمية جديدة له هو النظام العددي الهندي-العربي لأن كلمة «سونيا» أو «شونيا» السنسكريتية تعني «لا شيء» ويمكن بالتالي أن تعني «الصفر» العربي الذي كان من أعظم الابتكارات التي عرفتها البشرية.

ودحض مثل هذه المزاعم والمغالطات مستمر فيما يعيد عدد من الكتّاب والمؤرخين تدقيق صفحات التاريخ العربي والأندلسي من خلال قنوات عدّة أهمها المصادر العربية التاريخية التي تظل أهم مصادر تاريخ شبه جزيرة آيبرية على الإطلاق، ومن أكثر المصادر موضوعية وأمانة على رغم كل نقائصها. ولا تبعث هذه المغالطات عموماً على القلق، إلا أن المقلق والمحزن في آن انتشار إنطباع لدى جمهور عريض من العرب المشارقة بأن الأندلسيين كانوا مستعمرين في شبه جزيرة آيبرية وآل وجودهم إلى الزوال المحتوم مثل باقي المستعمرين الآخرين. ويعكس هذا الانطباع جهلاً عميقاً بالتاريخ العالمي عامّة وتاريخ أوروبة خاصة. لذا لا نعرف كيف يمكن القول إن الأندلسيين الذين استوطنوا آيبرية منذ مطلع القرن الثامن الميلادي في ظل شرعيّة الفتح كانوا غزاة محتلين لكن قبائل الجرمان والفايكنغ التي استعمرت فرنسا وإيطاليا وصقليّة ومعظم باقي أوروبة الغربيّة والجنوبية كانوا مواطنين أصليين وخلفاءً شرعيين للأمبراطورية الرومانية المنهارة مع أن استيطان قسم من هؤلاء جاء بعد مرحلة استيطان العرب الأندلس. كما يعكس هذا الانطباع جهلاً أعمق منه بتاريخ الأندلس وتكوين شعبها. إنّ الأندلسيّة التي عاشت في قرطبة واشبيلية وجيّان وغرناطة كانت هي المواطنة في وطنها وليس القشتالية أو الفرنسية التي جاءت مع زوجها واستعمرت أرضها وسطت على بيتها وأملاكها وأحياناً أولادها في القرن الثالث عشر أو القرن الخامس عشر. وإذا لم يكن الأندلسي الذي عاش في الأندلس ٩٠٠ سنة حوّل البلاد خلالها إلى بساتين متصلة وعمارة لا تنقطع وحضارة رائعة مواطناً أصيلاً فلا نعرف من هو المواطن حقاً. ويزيد هذا الانطباع جهلاً وغرابة تفادي الإسبان على مر القرون إطلاق وصف «المستعمرين» على الأندلسيين. فاحتلال الأندلس بالنسبة لهم لم يكن تحريراً لأنه لم يكن تحريراً في يوم من الأيام، بل «إعادة للفتح» La Reconquista. ومن بين المؤرخين الإسبان الأحدث من يعطي الأندلسيين المواطنية الإسبانية ويعتبرهم جزءاً من أهل البلاد بل يفخر البعض بأن الأندلس في عصر الدولة الأموية الثانية كانت دار العلوم والتحضّر في الوقت الذي كانت فيه أوروبة دار الجهل والهمجية، وليس في هذا القول منّة ولا كرم بل اعتراف بالواقع.

ولا توجد اليوم في أي مدينة عربية إسلامية تماثيل علماء وفلاسفة وشعراء وحكام أندلسيين تفوق عدداً تلك الموجودة في قرطبة الإسبانية المسيحية حتى بعد الأخذ في الاعتبار القيمة الترويجية والسياحية لانتشار تلك التماثيل. ويعكس هذا الموقف نظرة إسبانية تختلف عن تلك التي ظلت سائدة حتى نهاية القرن التاسع عشر، إلا أنه يعكس أيضاً الحقيقة فليس في التاريخين الأندلسي والإسباني ما يدعم اقتراح بعض المؤرخين الغربيين الحديثين أن الممالك الشمالية المسيحية في شبه جزيرة آيبرية خاضت على مدى ثمانية قرون حروباً صليبية متواصلة لتحرير البلاد من المسلمين توّجتها بتسليم أبي عبدالله الصغير مفاتيح غرناطة للملكة إيزابيلا عام ١٤٩٢. وليس هناك ما يدعم الاقتراح بأن المسلمين فعلوا مثلهم فكم من زعيم شمالي مسيحي اعتلى عرش مملكة شمالية أو أخرى بمساعدة المسلمين، وكم مرة حدث العكس، وكم مرة نفذت فيها الحقيقة من بين محاولات غسل التاريخ لتكشف لنا ملوكاً وأمراء وزعماء مسلمين استقدموا المسيحيين للحرب ضد اخوانهم بدءاً من عبور شارلمان إلى ثغر سرقسطة بدعوة سليمان بن يقظان عام ٨٧٨ ميلادية، وحتى عبور السلطان المغربي المخلوع محمد المتوكل مع الملك البرتغالي سباستيان مضيق جبل طارق إلى المغرب بعد ٧٠٠ سنة بتمامها حيث لقي حتفه مع نصيره الكاثوليكي في معركة القصر الكبير التي دمّرت الأمبراطورية البرتغالية.

الدين والمصالح

إن وقوفنا على عتبة ألفيّة جديدة يجب أن يمكننا من النظر إلى أحداث الألفية الماضية ورؤيتها على حقيقتها اعتماداً على دراسات جديدة قلبت كثيراً من المفاهيم التي يعود بعضها إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين عندما بدأت عملية «اصلاح» أحداث الماضي وتاريخه. ويجب أن يكون في مقدورنا من مكاننا الحالي تفريغ صورة تاريخ الألفية الثانية من ملايين التفاصيل الجانبية الصغيرة التي أدّت إلى حجب الصورة الكبيرة فربما استطعنا عندها رؤية تلك الاحداث ليس من منظور صراع بين الكاثوليكية والإسلام انتهى بانتصار الكاثوليكية بل من منظور صراع سيادي بين الأمّة العربية التي سيطرت على الحركة التجارية والحضارية في القرون الأخيرة من الألفية الأولى وبين البرابرة الأوروبيين الذين اندفعوا وراء الأرض ومصادر الثروة في الجنوب والغرب. وقوّض هؤلاء البرابرة الأمبراطورية الرومانية في البداية ثم تابعوا زحفهم لتوسيع رقعة ما يمكن تسميته بـ«المجال الحيوي الأوّل» بعدما انضم إليهم جمهور جديد من برابرة

شمال أوروبة هم الفايكنغ الذين عرفوا في أوقات لاحقة باسم النورمان (الأردمان أو المجوس عند الأندلسيين لأنهم كانوا يحرقون كل شيء وراءهم).

ولا تلغي الأسباب السيادية والاقتصادية للصراع بين العرب وأوروبة أهمية العامل الديني الذي تطوّر من خلال زواج لم يكن دائماً كاثوليكياً بين القبائل البربرية والبابوية. وفي الحالات التي لم تستطع فيها البابوية نقل القبائل البربرية إلى الكنيسة نراها تحمل الكنيسة إليهم من خلال تعديلات وإضافات مكّنت تلك القبائل من التعرف في لون الكاثوليكية الجديدة على بعض السمات الطوطمية التي كانت سائدة في عصور الوثنيّة. وفي تلك الفترة كانت البابوية في حاجة إلى حماية وكانت القبائل البربرية في حاجة إلى الشرعية وخرجت من هذه المصلحة المتبادلة فكرة من أعظم الأفكار التي تفتق عنها الفكر البابوي هي اختراع منصب «الأمبراطور الروماني المقدس». وكان مفتاح أهمية هذا المنصب القدسيّة التي تمثلها البابوية. أما الأجر فهو اعتبار صاحب هذا اللقب ليس فقط حامياً للبابوية الرومانية (بسبب وجود حاضرتها في روما) بل أيضاً الوريث الشرعي للأمبراطورية الرومانية وحضارتها. وعندما استجاب شارلمان لمناشدة البابا ليو الثالث التدخل في إيطاليا لانقاذه من ملك قبائل اللومبارد الجرمانية استحق هذا اللقب، ونصّبه البابا أول أمبراطور روماني مقدس في كنيسة القديس بطرس في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) عام ٨٠٠. لكن هذه الحماية ليست السبب الوحيد لأن البابوية، ومعها الدول الأوروبية الناهضة، نظرت إلى الملوك الفرانكيين بالتقدير لجهودهم في وقف توغل المسلمين في أوروبة منذ هزيمة بلاط الشهداء في نهاية عام ٧٣٢ (رمضان ١١٤)، وسنجد الفرنسيين يحاولون الاستمرار في أداء هذه الدور خلال القرون الستة اللاحقة، ثم خلال نهاية القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين. ولم تنجح هذه المحاولات في النهاية لكن الثمن الذي دفعه الفرنسيون والعرب على حد سواء كان هائلاً.

وخلال القرنين التاسع والعاشر دعا بعض بابوات روما ملوك أوروبة إلى اثبات ولائهم للكاثوليكية، وبالتالي ولائهم للبابا، من خلال تنظيم الحملات التي استهدفت الإسلام على اعتبار أن هزيمة الإسلام انتصار للمسيحية عموماً والبابوية خصوصاً. لكن ليس في وقائع التاريخ ما يكفي لاعتبار تلك الحملات مقدمات للحروب التي بدأت في نهاية القرن الحادي عشر وعُرفت بعد فترة طويلة من تنظيمها باسم «الحروب الصليبية». ومفهوم «الحروب الصليبية» تفسير مسيحي لمبدأ الجهاد عند الإسلام لكنه محصور في معظم اشكاله بالكاثوليكية. ولو أننا اعتبرنا الحروب التي نشبت بين

المسلمين والنصارى حروباً صليبية لكان الأولى اطلاق هذه التسمية على حروب الصراع الطويل بين العرب والبيزنطيين. لكننا لا نجد هذه التسمية في التاريخ الأوروبي على الرغم من أن بعض جيوش بيزنطة ربما رفعت في معركة رئيسية واحدة صلباناً ورايات نصرانية يفوق عددها ما رفعه الأوروبيون في الحروب الصليبية كلها.

وإذا أخذنا في الاعتبار الخسائر البشرية والاقتصادية فلنا القول إن الصراع بين المسيحية والإسلام يكاد يكون ثانوياً مقارنة بالصراع بين أبناء المسيحية نفسها. إن أكبر حرب عرفها العالم حتى الآن هي الحرب العالمية الثانية التي لم تكن حرباً بين الإسلام والمسيحية بل بين المسيحية نفسها. وينطبق هذا إلى حد كبير على الحرب العالمية الأولى التي اشتركت فيها تركيا، وعلى حروب الخلافة على عرش إسبانيا بين القوى الأوروبية الأساسية. وفي تلك الحروب وغيرها تبادل معظم فرقاء النزاع المواقع. فالانكليز البروتستانت هم الذين ساعدوا الإسبان الكاثوليك على إخراج فرنسا الكاثوليكية من إسبانيا في بداية القرن التاسع عشر، ونابوليون بونابرت الكاثوليكي هو الذي سجن البابا بيوس السابع لأنه لم يوافق على طلاقه من جوزفين، وكانت أميركا البروتستانتية أساساً ومعها إنكلترا البروتستانتية أيضاً الدولتين اللتين قادتا المعارك النهائية ضد ألمانيا البروتستانتية في الفصل الأخير من الحرب العالمية الثانية.

وينبغي التفريق بين حقبة تاريخية وأخرى أبعد منها لكننا لا نبالغ إذا قلنا إن الصراع بين المسيحية والإسلام في شبه جزيرة آيبرية لم يكن في أوقات كثيرة أهم من الصراع بين الممالك المسيحية نفسها. وإذا أضفنا المغرب إلى فرقاء النزاع لن نبتعد عن الحقيقة إن قلنا إن هذا الصراع لم يكن في حالات كثيرة أقل أهمية من الصراع بين المسلمين أنفسهم. ويكشف تقليب صفحات التاريخ العربي تحالفات وسفارات بين الأندلسيين والبيزنطيين الذين وحّدهم النزاع مع الفاطميين، وبين العباسيين والفرانكيين (شارلمان) الذين وحّدهم نزاعهم المشترك ضد الأندلسيين. ونرى في أوقات لاحقة حالات كثيرة تحالف فيها المسلمون مع نصارى الشمال الأندلسي في حرب النصارى الآخرين أو عمل المسلمون في خدمة الجيوش الشمالية أو ساهموا في احتلال مدن كبيرة كما حدث عندما اشترك جيش محمد (الأول) بن يوسف بن الأحمر سلطان غرناطة مع قوات فرناندو الثالث في اكتساح مدينة إشبيلية عام ١٢٤٨ (٦٤٦). وعكس ذلك صحيح ومُثبت واستمر نهجاً مقبولاً حتى العقود الأخيرة من عمر الوجود العربي في الأندلس، فلطالما وجّه قسم من الشماليين الانتقاد إلى شماليين مثلهم عندما هاجموا الأراضي الأندلسية في مراحل السلام. ويمكن القول إن الحروب بين الشمال

والجنوب، على كثرتها وضراوة بعضها، كانت الاستثناء في قاعدة تميزت بفترات طويلة جداً من السلام والهدنة والعهود والمواثيق المتبادلة مكّنت الأندلس من بناء اقتصاد قوي وحضارة غنية. ولم يكن بعض الأندلسيين متأكّداً في حالات كثيرة أيهما أشق على النفس: غزو الشمال في الصيف أم صيد طيور الغرانيق في الشتاء.

مكانة الأندلس

يحتل الأندلسيون مكانة فريدة بين شعوب الأرض قاطبة إذ كانوا حلقة وصل فاعلة بين الشرق والغرب وجسراً حضارياً وتاريخياً مهماً بين الألفيتين الأولى والثانية، وسداً أوقف زحف البرابرة الجرمان والنورمان في اتجاه المغرب والجزر الرئيسية في البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية وكريت وقبرص. وأدى امتداد أفق تاريخ الأندلسيين إلى ارتباطهم الوثيق بأهم الأحداث التي عرفتها الألفية الثانية إذ كانوا معنيين أساسيين بما يُعرف بالحروب الصليبية وما يُصطلح على تسميته بعصر النهضة الأوروبي، والعثور على القارة الأميركية، ومحاكم التحقيق، وصعود البروتستانتية، وصراع السيادة على أوروبة بين فرنسا وإسبانيا، والنزاع الدولي بين العثمانيين والأوروبيين. وللأندلسيين دور مهم في أكبر حرب عصابات بحرية عرفها العالم إنطلاقاً من المرافىء والرباطات المغاربية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ومساهمة حقيقية في هبوط الأمبراطورية الإسبانية ونهوض انكلترا. وتقوّض الوجود السياسي للأندلسيين في آيبرية في نهاية القرن الخامس عشر لكن تأثيرهم لا يزال مهماً في إسبانيا الحديثة وممالكها القديمة في العالم الجديد وفي بعض الدول التي نزحوا إليها في القرن السابع عشر خصوصاً تونس والمغرب. كما أضحوا مادة ثريّة في الآداب والفنون الإنسانية كما تشهد على ذلك مئات الكتب والروايات والبحوث التي تصدر كل عام باللغات الرئيسية كافة ويتميز معظمها بتعاطف ملفت مع الأندلسيين وحضارتهم التي ظلّت أغنى وأعمق وأطول أثراً من أي شيء صنعه الإسبان.

وفي شبه جزيرة آيبرية وجد مدّ الفتح الذي أطلقه بنو أمية من دمشق حدوده الطبيعية الدفاعية المتمثلة بسلسلة جبال البيرينيه (البرت) التي حجبت القبائل الجرمانية عن البلاد الإسلامية. وأقام العرب هناك ثمانية قرون بنوا خلالها حضارة لا نزال نكتشف خباياها إلى اليوم، وسيظل تأثيرها باقياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومنذ قيام الدولة الأموية الثانية في قرطبة تحتّم على الأندلسيين الاعتماد على أنفسهم لرد كل القوى التي حاولت غزو الأندلس سواء جاءت من الشمال أو من المملكة

الكارولنجية (الفرنسية) أو من النورمان. ولعل من الصعب التطلع بغير الاعجاب إلى السلطة التي بناها عبدالرحمن الداخل في الأندلس، بغض النظر عن الأساليب التي اتبعها، إذ استمرت بمقدار ثلاثة أضعاف عمر الخلافة الأموية وفاقت في استمرارها السلطة الفعلية للخلافة العباسية. أما مملكة غرناطة فلم تسقط إلا بعد ٢٣٤ سنة من اجتياح المغول بغداد. وبعد ذلك استمر التأثير الأندلسي مهماً حتى بداية القرن السابع عشر، وها هو يعود إلى إسبانيا في صور شتى اعتباراً من بداية القرن العشرين بعد تجربة إسبانيا المريرة مع جاراتها الأوروبيات. ويمكن القول إن استمرار الأمارة، ثم الخلافة القرطبية بعدها، كل تلك السنوات، يضع معظم القلاقل الداخلية والأخطار الخارجية التي تهددتهما في فترات مختلفة ضمن الإطار الذي أمكن السيطرة عليه. لكن هذا لا يتعارض والقول إن بعض تلك الأخطار كاد في لحظات كثيرة أن يقوّض سلطة قرطبة ويعجّل تشتيت أهلها.

وفي الأندلس اشترك المسلمون والنصارى واليهود في صنع دولة كانت أقوى دول أوروبة وأكثرها سكاناً فهابها الجميع واسترضاها القاصي والداني. وإن كانت الأندلس فُتحت بالسيف فإنها استمرت على المساواة والسماحة، ونهضت بفضل جهد مواطنيها الذين صنعوا الثروة الاقتصادية الهائلة اعتماداً على الزراعة والتجارة والصناعة، وتضافرت عبقريات أبنائها فسقت من فيض المشرق المجبول بالحضارة اليونانية القديمة ما كان كافياً لصنع حضارة متميزة تطورت مع الزمن، فأصبحت قرطبة وطليطلة وسرقسطة وإشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية المراكز الحضارية التي نهل منها الجميع، وقامت على علومها الممررة من اليونان أو المطورة في المشرق والأندلس دعائم أساسية في النهضة الأوروبية. وخلال خلافة الحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦)، كان عدد الكتب الموجودة في مكتبة قرطبة يفوق عدد الكتب الموجودة في كل مكتبات أوروبة. ولم يكن بعض تلك الكتب مهماً فقط في الجامعات والمعاهد والمدارس الأوروبية بل كانت الكتب الوحيدة المتاحة للمدرسين والطلاب.

أما قرطبة فكانت «زينة الكون»، وثالث أكبر المدن في العالم بعد بغداد والقسطنطينية إذ ضمّت أكثر من نصف مليون شخص في وقت لم يتجاوز عدد سكان باريس ٤٠ ألف شخص. وفي هذه العاصمة الدولية انتشر أكثر من ٩٠٠ حمام عام وأكثر من ٧٠٠ مسجد، وسار مسلمها ونصرانيها ويهوديها آمنين على شوارعها المرصوفة بالحجارة والمنارة بآلاف المصابيح المصنوع بعضها من الفضة الخالصة يوم كانت لندن بيوتاً خشبية تفصل بينها أزقّة تغوص في وحولها الأقدام.

إلا أنه من الصعب إرضاء الجميع حتى في المجتمعات التي لا تميز عموماً بين صاحب هذا الدين أو ذاك. ومن الصعب أيضاً أن تخلو السلطة، أي سلطة، من الجور، لذا دفعت موجة الفتح الأولى إلى الشمال مجموعات من الفارين والمضطهدين، وتوافرت لواحد من القوط الغربيين (بلايو أو بلي) العزيمة والتصميم على الوقوف وجماعة صغيرة من اتباعه في وجه محاولات القضاء عليهم. وبنى بلايو مملكة صغيرة تقوّت بالناقمين على الأندلسيين، وتطورت بفضل وعورة المكان الذي التجأت إليه في أقصى شمال الأندلس، واستغلت المجاعات والخلافات التي نشبت في قرطبة لتوسيع رقعة ملكها. وخلال القرون الثلاثة التالية طورت الممالك الشمالية نُظمها الإدارية والعسكرية، وانفردت قشتالة بلغة خاصة، وبات عسيراً تمكّن الأندلسيين من استيعاب تلك المناطق الشمالية في الصورة التي استوعبوا بها الجنوب قبل ذلك. إلا أن تلك الممالك افتقدت الوحدة الضرورية. وإن كانت حققت بعض الانتصارات وتمكنت من مد سلطانها نحو الجنوب مستغلة النزاعات الداخلية التي عصفت بالأندلس والحاجة إلى إشباع رغبات سكانها المتزايدين، فإنها لم تشكل خطورة حقيقية على الأمارة أو الخلافة كما اتضح عندما قاد الحاجب المنصور جيوشه السنة تلو الأخرى ودكّ معاقل الشماليين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. ولم يكن الهدف من تلك الحروب ولا التي سبقتها إبادة الشماليين مع أن هذا كان ممكناً، بل اخضاعهم. وفهم ملوك الشمال هذه الغاية فعملوا على استرضاء المنصور وقدم إليه أحدهم ابنته التي انجبت له شنجول. كما ارتبط كثيرون منهم مع الأندلسيين بمعاهدات ومواثيق استمرت حتى المراحل الأخيرة من الوجود العربي السياسي في آيبرية.

لكن انتصارات المنصور على الشماليين لم تخف عوامل الانقسام الداخلي المتفاعلة منذ فتح الأندلس. إذ اندلع الصراع في البداية بين البربر والعرب، ثم اشتعل بين العرب أنفسهم، وبعدها بين العرب والمولودين. وذهب بعض الحكام يستكثر من العبيد الصقالبة والزنج فقوي نفوذهم وباتوا يشكّلون خطراً عظيماً. وجاء المنصور فقضى على نفوذ العبيد والمرتزقة لكنه استبدل شراً بشر آخر فبنى جيشه على أكتاف البربر والمماليك وأسرى الحرب، ونحّى زعماء القبائل العربية خوف المنافسة فابتعد العرب عن الجيش في فترة خطيرة تميزت بروحها العسكرية العالية التي ما لبثت أن انتقلت إلى الشمال. ويوم مات المنصور كانت كل عوامل الانفجار موجودة، لكن الانفجار ذاته تأجل خلال عهدي ابنيه المظفر وعبدالرحمن شنجول. ثم اتيحت

الفرصة أخيراً لقيام المنافسة بين البربر والعبيد والمرتزقة فدبت الفتنة، وخرّب البربر قرطبة وعاثوا في الأندلس فساداً. وفي السنوات اللاحقة اخفقت كل محاولات بعث الحكم الأموي والإبقاء على وحدة الأندلس، فتقسّمت البلاد وقام على أنقاض وحدتها نظام سياسي قديم جديد هو ممالك الطوائف التي عدّت في احدى الفترات ٣٩ مملكة أو أمارة.

وجاء انهيار الخلافة القرطبية في وقت حرج من تاريخ أوروبة والمشرق إذ سعت البابوية منذ النصف الأول من القرن التاسع إلى تدعيم سلطتها والبحث عن مخرج من الأزمات السياسية والاقتصادية التي عانت أوروبة منها. وتقوّت هذه الحركة في السنوات التالية إلى أن جاء البابا يوحنا العاشر فبدأ في الربع الأول من القرن العاشر الدعوة إلى حملة لإخراج المسلمين من إيطاليا. واستغل البابا الاسكندر الثاني الضعف الذي ألمّ بالأندلس والمغرب العربي فراح يحض النورمان على طرد المسلمين من صقلية والجزر الأخرى في البحر الشامي (الأبيض المتوسط) الذي كان بحيرة إسلامية في القرون الثلاثة السابقة. إلا أن هذه المساعي كانت محدودة على العكس من الحروب الصليبية التي بدأت في نهاية القرن الحادي عشر وشملت المشرق العربي مثلما شملت الأندلس أولاً ثم المغرب. ونحو نهاية القرن الحادي عشر بدأ الفرنسيون التدفق على ممالك شمال آيبرية لأسباب دينية ودنيوية شتّى. ولم يتمكن ملوك الطوائف من لجم الخطر القادم من الشمال لضعفهم وتفرقهم، فدفعوا الجزية إلى ملوك الشمال. لكن الجزية لم تستطع إبعاد شر الشماليين عنهم، بل قدّمت لملوك النصرانية الأموال التي ساعدتهم على استقدام المرتزقة وتقوية الجيش، ووفرت الحلقة الأخيرة في سلسلة الهزيمة فاستسلمت طليطلة عام ١٠٨٥.

وبسقوط عاصمة الثغر الأوسط بات واضحاً أن ميزان القوى مال إلى صالح الممالك الشمالية من دون رجعة فدبّ الرعب في قلوب الناس وتعالت أصوات تنادي بالرحيل عن الأندلس. وكانت الأصوات تصرخ بمخاوف حقيقية إلا أن أصحابها كانوا قلة لأن غالبية السكان لم تكن تعرف غير الأندلس موطناً. وهكذا اختار البعض أهون الشرّين وطلبوا من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين نجدتهم. وتمكن السلطان يوسف من هزيمة ألفونصو السادس في معركة الزلاقة التي وقعت بعد سنة من سقوط طليطلة. لكن شعور السلطان أن بعض ملوك الطوائف يميل إلى الإتفاق مع ألفونصو، وقناعته بأنه أحق بحكم الأندلس من أهلها، أدى إلى استيلائه على السلطة في تلك البلاد الغنية. وبعدها تحوّل المجير إلى جائر تحكّم في الأندلس وأهلها فلا هو تركهم

يقررون مصيرهم ولا هو حماهم في كل الأوقات، إذ سقطت بلنسية بعد ثلاث سنوات من بداية عهد المرابطين في الأندلس، ولم يتمكن من استعادة طليطلة على رغم حصارها، وأعطى ألفونصو السبب لحض الفرنسيين على مساعدته، وفتح للبابوية بوابة آيبرية.

الحروب الصليبية الغربيّة

ترك عام ١٠٩٥ تأثيراً كبيراً في تطورات التاريخ تالياً إذ تسبب ضغط السلاجقة (السلجوقيين) الأتراك على الأمبراطورية البيزنطية في إجبار الإمبراطور أليكسيوس كومينوس على طلب العون من البابوية على رغم القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربيّة. واستغل واحد من باباوين كانا آنذاك على رأس الكنيسة الكاثوليكية هو البابا إربان (إربانوس) الثاني دعوة كومينوس لإخراج أوروبة من مآزقها السياسية والعسكرية والدينية ودفع قسم منها في اتجاه البلاد الإسلامية بادئاً بذلك ما يُعرف باسم الحروب الصليبية. ولم يغفل إربان في خطبته الدعائية المشهورة أهمية نصرة المسيحيين الذين يحاربون المرابطين في الغرب لكن هدفه الأول كان المشرق. ولم يمض ٤٥ شهراً على الخطبة حتى كان الصليبيون يذبحون أهل بيت المقدس، مسلمين ونصارى، بعد اقتحام المدينة، ووجد العرب أنفسهم منذ ذلك التاريخ ضحايا حروب سلجوقية ثم عثمانية توسّعيّة لم تكن لهم فيها ناقة ولا جمل.

على الجبهة الغربيّة تمكن المرابطون من لجم أي تقدم حاسم للقشتاليين، إلا أن الدعم الفرنسي لمملكة أرغون ادى إلى احتلال سرقسطة عام ١١١٨ وتوج الفرنسيون بذلك تدخلهم الذي بدأه شارلمان قبل أكثر من ثلاثة قرون في ما عرف باسم الثغر الكارولنجي. غير أن صاحب نصر سرقسطة لم يتمكن من الاستفادة من نصره، فحاقت به الهزيمة في معركة قتندة. ولم يمض عقد على ذلك حتى كان المرابطون انهاروا مفسحين المجال لقوة مغربيّة جديدة قوضت سلطانهم في العدوة ثم الأندلس التي دخلت معاناتها مرحلة جديدة تحت حكم الأخوة في الإسلام. وفيما انشغل الموحدون بتصفية حساباتهم مع سابقيهم، كانت القوات الصليبية المتوجهة إلى المشرق تساعد البرتغالي ألفونصو إنريكيث على احتلال لشبونة، بينما قدم الفرنسيون المساعدة لاحتلال طرطوشة على الساحل الشرقي. في وسط البلاد تمكّن الموحدون والأندلسيون من إفشال محاولة ألفونصو السابع احتلال قرطبة وجيّان، ومني خليفته ألفونصو الثامن بهزيمة منكرة في وقعة الأرك عام ١١٩٥. إلا أن الرعب الذي دبّ في

أوصال الممالك الشمالية وأوروبة عموماً جاء عندما سقطت شلبطرة، حامية قشتالة، بعد ١٦ سنة من هزيمة الأرك. وعندها تولّت البابوية حملة جديدة فوحّدت الممالك الشمالية وأمرت أساقفة أوروبة بالدعوة إلى الجهاد ضد المسلمين وشحن العزائم وجمع الأموال فخرجت قوات شمالية وأوروبية كبيرة من طليطلة قاصدة جيش الموحدين والأندلسيين، وحققت عام ١٢١٢ انتصاراً ساحقاً في معركة العقاب.

القرن الأسود

عرفت الأمّة العربية قرنين من أسوأ القرون التي عاشتها في تاريخها الطويل. الثاني هو القرن السادس عشر عندما اجتاح العثمانيون بلاد الشام والحجاز ومصر، ومزّق البرتغاليون الخطوط التجارية الهائلة التي سيطر عليها العرب بين ميناء «تيانجين» في أقصى شمال الصين وميناء ممباسا على ساحل أفريقية الشرقي، وبدأ الإسبان ١٠٠ عام من الاضطهاد والمواجهة مع الأندلسيين نقلوا خلالها الحرب إلى المغرب. أما القرن الأسود الأول فهو القرن الثالث عشر عندما اجتاح القشاتلة والبرتغاليون والأرغونيون وسط الأندلس وأخذوا بياسة وأبدة وقرطبة وبلنسية وجيان واشبيلية وعدداً آخر من أهم المدن الأندلسية، ولم يبق بعدها إلا مملكة غرناطة في أقصى الجنوب. وحلّ هذا الانهيار الشنيع في وقت انهارت الخلافة العباسية في إثر اقتحام هولاكو بغداد والقضاء على المعتصم آخر خلفاء بني عباس. وخلال القرن المشؤوم ذاك جهد المشرق كله لصد سلسلة متلاحقة من الحروب الصليبية لم يتمكن من قصم ظهرها إلا عام ١٢٩١ فقوّض بذلك محاولات استمرت أكثر من ٢٠٠ عام لصنع الجمهورية المسيحية الدولية *republica christiana*. واعتباراً من نهاية القرن الرابع عشر لم يعد المسيحيون في حاجة إلى الذهاب إلى المشرق لأنهم نقلوا رموز المسيحية إلى بلادهم عندما عادوا من الحروب الصليبية بكمّ هائل من الذخائر المسيحية. كما لم تعد البابوية في حاجة إلى توجيه الجيوش إلى المشرق لقهر الإسلام لأن الإسلام جاء إليها على قدميه في صورة العثمانيين وبدأ يدق أبواب أوروبة ملغياً بذلك حلم احتلال بيت المقدس في حرب صليبية جديدة.

وخلّف القرن الثالث عشر في الأندلس مآسي إنسانية هائلة ونزوحات شملت أكثر من مليوني شخص. ومن قلب الأندلس المتقوّض ارتحل الملايين إلى مملكة غرناطة أو أرغون. وآثر قسم آخر اختصار المعاناة فقصد العدوة المغربيّة أو المناطق العربية الأخرى إلا أن آخرين بقوا حيث عاشوا في الحالات التي سُمح لهم بذلك، وتدجّنوا في

الأحياء التي خُصصت لهم في أكثر من ١٠٠ مدينة، وعاشوا مواطنين من الدرجة الثالثة بعد الإسبان والمهاجرين المسيحيين الأوروبيين، وأحياناً العبيد، في بلاد لم يعرفوا وأجدادهم من قبلهم غيرها على مدى ٦٠٠ سنة.

سقوط غرناطة

واعتباراً من منتصف القرن الخامس عشر بدأت مجموعة من التطورات المحلية والدولية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة. إذ أدى تمكّن العثماني محمد الفاتح من احتلال القسطنطينية إلى دفع البابوية للبحث عن انتصار سريع فراحت تحض قشتالة على تجديد الحرب ضد غرناطة. واندلعت المعارك هناك عام ١٤٦٢ وتمكن القشتاليون، بمعونة أوروبية مهمة، من احتلال جبل طارق. وطرأ تطور حاسم بعد سنة من ذلك عندما اعتلت إيزابيلا عرش قشتالة. وكانت إيزابيلا ملكة ناجحة سجّل لها التاريخ الإسباني والدولي انجازات مهمة فتمكّنت من إزالة آخر سلطة إسلامية سياسية في شبه جزيرة آيبرية، ولو بطرق لا تليق بكبار الملوك، وكانت الأداة التي مكّنت قشتالة من اكتشاف العالم الجديد من خلال توظيف الجنوي كريستوفر كولومبوس، وبدء جهد كثلكة أكثر من ٥٠٦ ملايين شخص في أميركا اللاتينية (أي الناطقة بلغات أصلها لاتيني أو روماني مثل الإسبانية والبرتغالية والفرنسية) ونحو ٥٨ مليوناً في الفليبين (٨٥ في المئة من السكان كاثوليك)، وإنطاق نحو ٣٥٠ مليون شخص بالقشتالية (الإسبانية). إلا أن تعصّب إيزابيلا كان مفرطاً لذا عملت على صب هذا التعصب الممزوج بالمنافع الاجتماعية والاقتصادية في إطار مؤسساتي رهيب تحوّل الى أكبر منظمة اضطهاد ديني في أوروبة وربما في العالم. ونقصد بهذه المؤسسة محاكم التحقيق الإسبانية التي قامت على الشرعية التي منحها البابا سيكستوس الرابع بعد أربع سنوات من اعتلاء إيزابيلا عرش قشتالة وتوابعها. وفي السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وجدت إيزابيلا، كما وجد كثير من الملوك قبلها وبعدها، أن أحد سبل وقف صراع النبلاء والانقسام الداخلي يكمن في شن الحروب. واستغلت رفض غرناطة الانصياع لمطالبها وأعلنت الحرب على المملكة الإسلامية عام ١٤٨١ بموافقة البابا ودعمه المالي الهائل، وسلّمت زوجها فرناندو قيادة الجيوش.

ولم يكن فرناندو يتوقع انتصاراً سريعاً إلا أنه لم يكن يتوقع أن تستمر الحرب ضد غرناطة ١١ سنة دارت خلالها معارك طاحنة كانت الأعنف والأشرس في كل أوروبة. وزجّ فرناندو في المعارك ضد الغرناطيين أكثر من ٥٢,٠٠٠ جندي وفتحت له البابوية

والأثرياء اليهود الإسبان الخزائن فغرف منها بلا حساب واستخدمها للحصول على أفضل المدافع الإيطالية في تلك الفترة، والإنفاق على المرتزقة الأوروبيين. وكان حصار مالقة من أصعب الأعمال العسكرية التي واجهها فرناندو بسبب صمود حاميتها التي ضمت عدداً كبيراً من المقاتلين المغاربة، إلا أن حصار مدينة بسطة Baza عام ١٤٨٩ كاد يدفعه إلى الإفلاس التام إذ انفق فقط على تأمين الحبوب للجنود أكثر من ٨٠ مليون (دينار) مرابطي. وكان هذا المبلغ أقل من عشرة في المئة من نفقات الحرب التي يُعتقد أنها زادت على ٨٠٠ مليون مرابطي تولّت البابوية جمعها من الضرائب وبيع صكوك الغفران لمسيحيي أوروبة وصلت قيمتها في عام ١٤٧٨ وحده إلى ٨٠٠,٠٠٠ دوقة ذهبية. وسقطت بسطة بعد ستة أشهر من الحصار لكن غرناطة ظلت صامدة على رغم سياسة الأرض المحروقة التي اتبعتها جيوش فرناندو بل حققت جيوشها انتصارات ملفتة. إلا ان تاريخ الأندلس الكبرى عاد وكرر نفسه في الأندلس الصغرى فعمل صراع الابن ضد أبيه وانقلاب العم على ابن اخيه على تمزيق تلك الوحدة الضرورية في ذلك الوقت الحرج. وفي النهاية لم تسقط غرناطة حرباً ولم تستسلم ولم يكن نصر إسبانيا وشيكاً عندما قبل أهل غرناطة معاهدة التسليم التي ضمنت فيها إيزابيلا للغرناطيين ما لم تضمنه لهم سلطتهم الإسلامية مع فارق أساسي هو أنها لم تكن تعتزم احترام بنودها.

بدء اضطهاد الأندلسيين

وفي الثاني من كانون الثاني عام ١٤٩٢ انتهت آخر معالم السلطة السياسية الإسلامية في شبه جزيرة آيبرية. وبعد ١١ سنة من المعارك الضارية ارتفع الصليب الفضي فوق برج الطلائع في قصبة الحمراء ودقت أجراس الكنائس في سائر أوروبة احتفالاً بهذه المناسبة التاريخية. وكان صعباً على غرناطة أن تستمر في صمودها إلى ما لا نهاية غير أن هذا الصمود كان يمكن أن يستمر فترة أطول لو حصلت غرناطة على مساعدة أفضل من العثمانيين الذين كانوا يومها قوّة عظيمة، وكذلك من العرب الذين دفعوا في ما بعد ثمناً باهظاً لهذا التقاعس لأن سقوط غرناطة أزال الحاجز الأخير الذي وقف دون تقدّم الإسبان عبر مضيق جبل طارق ومهاجمة المغرب والجزائر وتونس.

وبقي الملك الصغير في مملكته فترة ثم غادرها إلى المغرب وانتهت قصته عندما بدأت قصة اضطهاد الأندلسيين في قشتالة. وما حدث بعدها لا يختلف كثيراً عما يحدث عندما تُستضعف الشعوب إذ خُرقت معاهدة تسليم غرناطة واستمر السلام.

وانقضّ نبلاء قشتالة على أراضي الأندلسيين الغرناطيين واستمر السلام. وعدّل القشتاليون بنود المعاهدة لصالحهم حيثما تمكنوا واستمر السلام سبع سنوات طويلة انتظرت خلالها إيزابيلا أن يتنصّر الأندلسيون أو أن يرحلوا. ولم تكن الكنيسة تملك القدرة على تنصيرهم، ولم تكن لدى الأندلسيين الحاجة أو الرغبة في التنصّر أو الرحيل لذا تعالت الأصوات في بلاط الملكة القشتالية تطالب بالحزم ضد أهل المملكة الجديدة. وفي هذه المرحلة برزت شخصية الكردينال الصليبي فرانسيسكو دي سيسنيروس المعروف أيضاً باسم خيمينس أو خيمينيث وهي، كشخصية توركيماده المحقق العام الأول لمحاكم التحقيق الإسبانية قبله، ما كانت لتظهر إلا في دولة مثل قشتالة، وما كانت لتتفوق إلا في خدمة ملكة متعصبة مثل إيزابيلا.

وحاول خيمينس استمالة الأندلسيين بغية تنصيرهم لكنه أخفق فبدأ اتباع أساليب أخرى منها مصادرة الأراضي التي كانت عماد الاقتصاد الأندلسي. ثم وقعت حادثة مشهورة في حي البيازين في غرناطة قُتل في إثرها إثنان من عمال خيمينس واندلعت الثورة الأندلسية الأولى. وحفزت الانتصارات الأولية التي حققها الثوار الأندلسيون في جبل البشرة فرناندو على تسيير دفة المعارك بنفسه وتمكن من اخماد الثورة هناك بعد سلسلة من المعارك العنيفة. إلا أن الأعمال الوحشية التي ارتكبتها قواته أجبرت الأندلسيين في باقي أنحاء الجنوب على حمل السلاح لأنه كان الخيار الوحيد الذي ابقته لهم إيزابيلا مفتوحاً. وما كادت المعارك تخمد في البشرة حتى بدأ سكان الجبل الأحمر خوض معارك عنيفة قتل في إحداها ألونشو دي أغيلار، أحد كبار القادة العسكريين. وحين توجه الملك فرناندو بنفسه إلى الجبل الأحمر وجد مقاومة صلبة في تلك المناطق الوعرة فقبل الصلح حين عُرض عليه، وضمن الأمان لمن يريد الجواز إلى العدوة.

وفي ١٢ شباط (فبراير) عام ١٥٠٢ أصدرت إيزابيلا مرسوماً يخيّر الأندلسيين بين التنصّر والرحيل وأمهلتهم حتى نهاية شهر نيسان (إبريل). وخلال المهلة رحل إلى العدوة من غرناطة نحو ٣٠٠,٠٠٠ شخص لكن الباقين، في غرناطة أو في قشتالة، أُعتبروا متنصّرين بموجب المرسوم بل وتفننت السلطة في إعاقة رحيل «المفيدين» منهم بشتى الوسائل. وبين عامي ١٥٠٢ و١٥٢٥ صدرت ثلاثة مراسيم ملكية تلغي في غرضها النهائي الشخصية الأندلسية لذا شملت النساء والرجال والأطفال والأحياء والأموات أيضاً. لكن ذلك زاد الأندلسيين الجدد صمودا وتمسكاً بشخصيتهم ودينهم. وخلال تلك الفترة نشبت ثورة أهل المدن وقام رعاع بلنسية على الأندلسيين فنصّروهم

بالقوة عام ١٥٢١، إلا أنه كان تنصّراً شكلياً. كانت الكنيسة تعرف ذلك وكانت السلطة تعرف ذلك، غير أن إمساك الأندلسيين بزمام عجلة الاقتصاد البلنسي لجم رغبة السلطتين في التمادي في اضطهادهم، على عكس أهل مملكة غرناطة الذين كانوا يشكلون أقلية ناقمة على قشتالة ومستعدة لحمل السلاح ثانية في اللحظة المناسبة.

الأندلسيون والتطورات الدوليّة

وكان يمكن أن تستقر أحوال الأندلسيين على هذه الاوضاع غير أن التطورات الخارجية حملت للأندلسيين متاعب جديدة في كل من قشتالة وأرغون، وبات من الواضح أن الصدام قادم لا محالة. ويظهر استعراض صفحات التاريخ الأندلسي كيف دفعت الأندلس في مطلع القرن الحادي عشر ثمن تفرّق حكامها ومعاداة الواحد منهم الآخر، ثم كيف دفعت في نهاية القرن نفسه ثمن تفوق السلاجقة الأتراك على بيزنطة، وبعدها ثمن إخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بموطىء قدم في المشرق في نهاية القرن الثالث عشر. وعندما جاء دور غرناطة سنجدها دفعت في عهد إيزابيلا وزوجها فرناندو ثمن سقوط القسطنطينية ونهوض العثمانيين في منتصف القرن الخامس عشر، ثم وجد الأندلسيون أنفسهم في بداية القرن السادس عشر يدفعون ثمن نمو البروتستانتية في عهد كارلوس الخامس.

ولم يكن هذا الأمبراطور الذي ولد خارج إسبانيا متعصباً مثل إيزابيلا إلا أنه لم يجد غضاضة في اللجوء إلى محاكم التحقيق لمساعدته على حماية ممالكه الهائلة. وكانت المحاكم تلك وضعت حلاً «نهائياً» لليهود. وكان من الممكن تطبيقه على الأندلسيين لولا الروح الثائرة التي اشتهروا بها. وحين أمر كارلوس بتأسيس محكمة تحقيق في غرناطة عام ١٥٢٦ كان يقصد لجمهم لتكريس قواه لمقارعة أنصار البروتستانتية في ألمانيا وهولندا، إلا أنه كان مستعداً لغض الطرف عن ممارسات أندلسية عدّة خصوصاً إذا قدموا له ٨٠,٠٠٠ دوقة ذهبية سنوياً وفوقها ٢٠,٠٠٠ دوقة أخرى كضريبة خاصة كي يبعد عنهم شرور محكمة التحقيق في غرناطة. ووصل مجموع ما قدّمه الأندلسيون إلى أربعة ملايين دوقة ذهبية حين كانت أجرة العامل الماهر ٥٠ دوقة في العام. ومع ذلك لم ينجح الأندلسيون في حماية أنفسهم حتى بعد دفع جزية خلاصهم وسجّل التاريخ وقوع أول ضحية أندلسية في غرناطة بيد عمال محاكم التحقيق فأحرقت مع غيرها من المتهمين بالهرطقة ومخالفة المبادىء الكاثوليكية في احتفال شعبي (أو فعل إيماني كما يسميه الإسبان) جرى عام ١٥٢٩.

الثورة الأندلسية الكبرى

وعلى رغم الاضطهاد الذي عانى منه الأندلسيون في عهد كارلوس إلا أنه ينأى عن المقارنة بمثيله في عهد ابنه فيليب الثاني الذي كان ورث تعصب إيزابيلا وتقشفها، وبات يعتقد أن الحل الوحيد لمعالجة مشكلة الأندلسيين الجدد يكمن في مصادرة أراضيهم وأملاكهم وطمس هويتهم تماماً أو إنهاء وجودهم. واستمر الجدل في شأن السلوك الأفضل تجاه الأندلسيين في بلاط فيليب الثاني في الوقت الذي ساد في مملكة غرناطة نفسها جدل آخر أدى إلى زيادة الوضع المعقد أصلاً في غرناطة تعقيداً. ولهذا التعقيد أسباب عدّة أهمها الصراع على السلطة في المملكة ومحاولة كل جهة متنفذة هناك إعلاء مصالحها على الجهة الأخرى خصوصاً ما اتصل من تلك المصالح بالأراضي الأندلسية والتجارة والضرائب. وفي مملكة غرناطة كان الحاكم العسكري على خلاف مع محكمة التحقيق وكانت محكمة التحقيق على خلاف مع المجلس البلدي وكان المجلس البلدي ضد رئيس الأساقفة، وكانت المحكمة العليا تخالف الجميع لأنها تعتقد أن رأيها أصوب الآراء. وتفاقم الصراع بين هذه الأطراف كافة وضجّ الغرناطيون فاستنجدوا بفيليب الثاني. وانتظر فيليب طويلاً قبل أن يقرر تحرّي الوضع. ولما أرسل في نهاية التفكير مبعوثاً خاصاً لحل الخلافات بين القوى المتناحرة في غرناطة على الأراضي اشتبك المبعوث مع الجميع وبدا أن تدخلاً شخصياً من جانب فيليب الثاني هو الكفيل فقط بوضع حل لكل تلك المشاكل.

وفي مطلع عام ١٥٦٧ أصدر الملك فيليب الثاني مرسوماً جديداً «أمر الكفّار بهجر ملابسهم الوطنية المزركشة واعتمار قبعات النصارى وسراويلهم... ونبذ لغتهم وعاداتهم واحتفالاتهم». وحاول الأندلسيون فتح الحوار مع عمال الأمبراطور لإعادة النظر في هذه القيود ووقف متابعة مصادرة محاكم التحقيق والسلطات المدنية الأراضي الأندلسية لكن المحادثات انتهت إلى الإخفاق واندلعت الثورة الأندلسية الثانية. ولم تكن مقارعة فيليب الثاني أمراً سهلاً إذ كان صاحب أكبر مملكة في العالم وأقوى الجيوش التي عرفتها أوروبة في ذلك الوقت. ومع ذلك استمرت الثورة الأندلسية الكبرى نحو ثلاث سنوات، وشملت معظم مناطق الجنوب الأندلسي ولعبت النساء الأندلسيات خلالها دوراً مشهوداً. واحرز الثوار انتصارات عدة كما أبدوا بطولة نادرة وصموداً عظيماً، وقتلوا في احدى المعارك نحو ٦٠٠ جندي. وحيال إخفاق قادة فيليب الثاني في التغلب على ثورة الأندلسيين لجأ الأمبراطور إلى أخيه دون خوان النمسوي الذي زحف بأربعة جيوش لاخمادها. وما حدث بعدها

كـان فظيعـاً إذ نُظمت مـذابح بالجـملة، وحُوصـر الأندلسيـون في المغـاور فـأحـرقت الأغـصـان في مـداخلهـا فـمن بقي في الداخل اختـنق، ومن خـرج تلقـتـه السـيـوف والرمـاح، ولـم ينج من تلك المجازر الأطفـال والنسـاء. أمـا الأعداد القليلة التي قُبل استسلامها بعد ذلك فصارت عبيداً شأنها شأن عشرات الألوف من الأندلسيين الآخرين. وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٧٠ أصدر فيليب الثاني مرسوماً يخوّل الجنود قتل الأندلسيين وسبي نسائهم، ووعد دون خوان جنوده بمكافأة قدرها عشرون دوقة ذهبية لمن يجلب له رأس أندلسي أو قضيبه فنظمت حملات صيد الرؤوس في جبال الجنوب لهذه الغاية وكثر القتل والتشويه والتعذيب، وتدفق المرتزقة الأوروبيون على مملكة غرناطة فاعتقلوا الأندلسيين والأندلسيات أينما وجدوهم وباعوهم عبيداً.

ثمن الحرية

لم تشهد أوروبة في القرن السادس عشر حرباً بوحشية الحرب التي شنّها الإسبان والمرتزقـة على الأندلسـيين أو شـراسـتـهـا. وخـلال تلك المعـارك فـقـد الأندلسـيـون الغرناطيون نحو ٢٠,٠٠٠ شهيد، وربما أصيب ٦٠,٠٠٠ أندلسي آخر بجروح. وعندما انتهت المعارك تمثّلت السلطة حلاً نهائياً للأندلسيين في استعبادهم ونفيهم إلى قشتالة وتوزيع قسم كبير منهم على المدن والقرى في الشمال التي صارت بمثابة السجن لأكثر من ٨٥,٠٠٠ أندلسي. وكان من الممكن ألا تقوم بعد تلك الحوادث قائمة لأي شعب تعرض لمثل تلك الإبادة، إلا أن الأندلسيين صمدوا وبقيت روحهم المعنوية عالية، وظلوا في سوادهم محافظين على عاداتهم ودينهم حتى يئست الكنيسة من تنصيرهم، ويئست السلطة من إرهابهم. ولا شك في أن تمسك الأندلسيين بدينهم واستعدادهم في معظم الحالات للموت في سبيل معتقداتهم هو الذي وقف أمام محاولات التنصير الإسبانية الجماعية، إلا أن الأندلسيين ربما كانوا محظوظين لأن سعاة تنصيرهم في قشتالة كانوا على شاكلة خيمينس الذي جاء غرناطة وأهلها يصلّون ويصومون ويعتزّون بعروبتهم، وغادرها وهم لا يزالون يصلّون ويصومون ويعتزّون بعروبتهم، وسنجدهم يصلون ويصومون ويعتزون بعروبتهم علناً يوم جمعتهم السلطات القشتالية لنفيهم بعد مئة وسبع سنوات من صدور مرسوم تنصير الأندلسيين الأول بعد الثورة الأولى.

وكما أتقن اليهود التعامل بالمال وتفننوا في إكثاره بالطرق كافة، كان الأندلسيون ماهرين في التعامل مع الأرض فأحيوها في كل مكان حلوا فيه، وعرفوا فترات من

البحبوحة والأزدهار وعادوا اقتصادياً أقوى مما كانوا وتكاثروا في صورة كانت دائماً موضع حسد الإسبان وريبتهم. و«تسرّب» قسم منهم مع مرور الوقت وعاد من منافيه القديمة إلى مناطق الأندلس الصغرى وبنوا اقتصادهم من جديد. غير أن تجدّد الثروة جدّد النهب المنظّم أيضاً. وهكذا تقاسمت السلطة والكنيسة ومحاكم التحقيق أراضي الأندلسيين وأموالهم فسلبتهم أكثر من أربعة ملايين هكتار من الأراضي الزراعية الخصبة وصارت الكنيسة الإسبانية آنذاك من أغنى كنائس أوروبة. أما الغرامات المختلفة التي حصّلتها إسبانيا من الأندلسيين فوصلت هي الأخرى إلى أرقام خيالية إذ يقدّر الآن أن مجموع ما دفعه أهل غرناطة في نصف القرن الذي سبق الثورة الأندلسية الكبرى وصل إلى ٦٢١ مليون مرابطي فيما وصل ما دفعه الأندلسيون في قشتالة خلال الفترة نفسها إلى رقم مُذهل هو ٩٧٦, ٥ بليون مرابطي. إن استمرار انتزاع ثروة الأندلسيين وأراضيهم وحتى عيالهم، في بعض الحالات، كل تلك القرون يجعل ما حدث في الأندلس واحدة من أطول عمليات النهب المنظّمة التي عرفها العالم. وربما لم تخضع أمّة على مدى التاريخ غير الأمّة الأندلسية لمثل هذه السرقة والاضطهاد والتقتيل الذي استمر أكثر من خمسة قرون.

مأساة الأمّة الأندلسية

تتجلّى مأساة الأمّة الأندلسية الشهيدة في انقطاعها عن باقي الأمتين العربية والإسلامية خلال صدامها مع إسبانيا في مرحلة من بين أكثر مراحل التاريخ إضطراباً. وسيطر الصراع بين العثمانيين ومعظم الأوروبيين، بمن فيهم الإسبان، على أحداث القرنين السادس عشر والسابع عشر، إلا أن عين الإسبان، واسلحتهم أيضاً، كانت موجهة إلى الفرنسيين الواقفين للتوسع الإسباني بالمرصاد، وإلى البرتغاليين سعياً وراء فرصة يُمكن اقتناصها لأخذ بلدهم الصغير، وإلى عرب المغرب لاعتماد بعض مدن الساحل المغاربي نقاط دفاع متقدمة ضد العثمانيين، ثم جاءت حركة الإصلاح الديني اللوترية وبدأت تهدد ممالك إسبانيا في هولندا وألمانيا.

وكان الأندلسيون بالنسبة للقسم الأكبر من الإسبان القاسم المشترك الأعظم بين كل اعدائهم. فهم مسلمون مثل العثمانيين، وعرب مثل أهل العدوة، وانصار لفرنسا وفقاً للقول المشهور «عدو عدوي صديقي»، و«إخوان الشقاء» مع الهولنديين البروتستانت الذين خاضوا معركة دامية مع إسبانيا للحصول على استقلالهم استمرت ٨٠ سنة. وكان الأندلسيون في إسبانيا أقليّة كبيرة لا يُستهان بها وملكوا معرفة جيدة بأحوال

البلاد ومنافذها لذا كانوا في نظر الإسبان، وعلى حد قول واحد منهم هو الدكتاتور فرانكو، «طابوراً خامساً» مستعداً للتعاون مع أعداء إسبانيا للخلاص من الاضطهاد الذي عانوا منه فتحينوا فرصهم دائماً.

ويجب القول إن الذي كان يُناسب المجتمع القشتالي في المئة سنة التي تلت تسليم غرناطة لم يكن يناسب المجتمع الأندلسي. ويجب القول إن المجتمع القشتالي هو الذي استفزّ الأندلسيين لإعلان الثورة الأولى ثم لإعلان الثورة الكبرى. ويجب القول كذلك إن الملوك الإسبان الذين كتبوا مراسيم العفو عن الأندلسيين هم أنفسهم الذين كتبوا مراسيم العقوبات بالحبر نفسه، وان الكاهن الذي كان يحاول أن يقنع الأندلسي في الكنيسة بفضيلة إدارة الخد الأيسر ينتمي إلى نفس المؤسسة التي ينتمي إليها من كان يضرب الأندلسي في غرف تعذيب محاكم التحقيق على خده الأيمن ثم الأيسر، ثم يركله بهذه القدم ثم تلك قبل أن يبدأ التعذيب الحقيقي بعد ذلك. كيف كان الأندلسي المسكين يستطيع أن يتصوّر الشخصيتين في شخصية واحدة وهو يرى فيهما الشيء ونقيضه؟ كيف كانت الأندلسيّة ستقتنع بقول القسيس إن الكنيسة محل الرحمة فيما هي تعرف أن الدير القريب منها قصر محكمة التحقيق؟

ورافق هذا كلّه إصرار السلطة والكنيسة على استبقاء عناصر التنفير حيّة بين الأندلسيين والإسبان فلم يكن مثلاً توقيع عقوبة السجن بالمذنب الأندلسي أو مصادرة أملاكه كافيين، بل كانت السلطات المدنية والكنسية تجبره على ارتداء ملابس أو قبعات بعلامات مميزة معينة كي يعرفه الجميع ويحذروا منه ويتابعوا اضطهاده. أما بعض العقوبات الأخرى فكان نفسانياً وعلى مدى طويل. ومن ذلك اقتضاء بعض العقوبات على النساء منعهن من ممارسة انوثتهن بحرمانهن من التجمّل بالذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة أو حتى ارتداء الملابس الحرير والأقمشة الناعمة. وانتج المجتمع القشتالي المُسمم الآراء والمعتقدات المُسممة مثلها فبدا معظم ما يمكن أن يفعله الأندلسي مشبوهاً، وصار همسه صلاة محتملة وتمتمته تعرّضاً للكاثوليكية ووقوفه مع أبناء جلدته مؤامرة يجب الحذر منها. وفي هذا الجو المشحون بالتجسس والنميمة والترصّد والتسابق على الوشاية، بات ممكناً اتهام الزوجة القشتالية زوجها الأندلسي بمعاداة الكاثوليكية إن نفر من فراشها، واتهام القشتالي جاره الأندلسي بالعداء للدولة إن اشتكى من الضجيج، واتهام رب العمل عامله الأندلسي بالتوجه إلى الصلاة إن غاب يوم الجمعة، واتهام الأندلسي بمعاداة الملك إن اشتكى من ارتفاع الضرائب.

وينبغي القول إنه كان من بين الإسبان والإسبانيات من أحبّ الأندلسيين وحماهم

وتعاطف معهم وأخفاهم في بيته وتستّر على ممارساتهم بالكذب على السلطات الحكومية والكنسية وحتى على عمّال محاكم التحقيق، لكن يجب ألا تخفي هذه الاستثناءات قاعدة واسعة جداً ضمّت القسم الأعظم من الإسبان الذين ودّوا لو اختفى الأندلسيون فجأة، أو لو ملكوا وسيلة ما لمحقهم. ويمكن في حالات معينة فهم سبب مخاوف القشتاليين العميقة لأن الصراع مع الأندلسيين لم يكن فقط صراعاً دينياً وحضارياً بل أيضاً صراعاً على الأرض مردّه الخوف من أن يتمكن الأندلسيون يوماً من استرداد البلاد التي انتزعها الإسبان منهم.

محاكم الشيطان

«سوف تُفتح إسبانيا من جديد»، كان الأندلسيون يهتفون من عتمة الاضطهاد الذي أحاط بهم من كل جانب، «سوف تُفتح من جديد، وسوف يفتحها عرب المغرب، وساعة النجاة قريبة وسوف تأتي من شمال أفريقية ومن بجّاية ووهران. وسوف تُفتح سبتة أولاً ثم سوف تُغزى إسبانيا من جديد، وسيمشي الفاتحون في خطى طارق وسينفتح الطريق أمامهم كما لو بمعجزة. وفوق مضيق جبل طارق سوف يظهر جسر من الحديد وسوف يعبره العرب، وسوف يفتحون إسبانيا وسوف يصلون إلى جليقية». وقرب طرف المثلث الذي يجمع جليقية وقشتالة القديمة ونافار مدينة تقع على نهر إبرة اسمها لوغرونيو Logroño، يسكنها اليوم نحو ٨٢ ألف نسمة، وربما كان العدد نصف ذلك عام ١٥٧٦ عندما سلّم عمّال محاكم التحقيق إلى السلطات المدنية سيدة غرناطية اتهموها بالارتداد عن الكاثوليكية.

وفي ساحة لوغرونيو نصب الجلادون المشنقة لهذه السيدة المسلمة، ثم نقلوها بعد فيضان روحها إلى المنصة المعروفة وأضرموا فيها النار. وكان مضى على استشهاد هذه السيدة ١٨٠ سنة عندما ولد في تلك المدينة مؤرخ اشتغل مع محاكم التحقيق الإسبانية، ووضع قبل وفاته عام ١٨٢٣ مؤلفاً ضخماً عن محاكم التحقيق يُعتبر إلى اليوم مرجع مراجع تاريخ تلك المحاكم. ويرسم هذا المؤرخ صورة سوداء لمأساة الأندلسيين مع محاكم التحقيق فعدد الأندلسيين الذين قضت محاكم التحقيق بحرقهم كان ٣١,٩١٢ أندلسياً وأندلسية، وكان عدد الأندلسيين الذين أوقعت بهم محاكم التحقيق عقوبات وغرامات مختلفة ٢٧١,١٥٠ شخصاً فيما احرقت محاكم التحقيق تماثيل رمزية لـ ١٧,٦٥٩ أندلسياً تمكّنوا من الفرار خارج إسبانيا أو اختفوا داخل تلك البلاد الشاسعة. إن مجموع ضحايا الأندلسيين بين حرق وعقوبات يصل إلى

٣٠٣,٣٦٢ أندلسياً وأندلسية، أي واحد من بين كل ثلاثة أندلسيين كانوا يعيشون في الممالك المختلفة التي تألفت منها إسبانيا. أما مجموع الضحايا الذين احرقتهم محاكم التحقيق في كل من إسبانيا وهولندا ودول العالم الجديد فربما تجاوز ٣٠٠,٠٠٠ شخص، يجب أن يضاف اليهم ضحايا محكمة التحقيق التي أسستها البابوية في القرن السادس عشر. ولا شك في أن السرّية التامّة التي أحاطت بها هذه المحاكم عملها مسؤولة عن الفظائع المُسندة إليها، لكن المحاكم ارتكبت، على الأرجح، معظم تلك الفظائع. وكان حال تلك المحاكم مثل حال بعض أجهزة المخابرات الحديثة: الداخل إليها مفقود والخارج مولود، ولم يتمكن من الفرار من سجونها خلال عمرها الطويل سوى أربعة أشخاص أحدهم زير النساء الإيطالي المشهور كازانوفا.

تغريب الأندلسيين

خرجت قشتالة من معركتها العسكرية ضد الأندلسيين بانتصار كبير، لكنها خرجت من معركتها الحضارية والدينية مع الأندلسيين بهزيمة كبيرة. وبعد ١٠٠ عام من الاضطهاد والتنصير القسري والنهب المنظّم لم تستطع إسبانيا إقناع الأندلسيين بأن كاثوليكية القشاتلة أفضل من الإسلام، وبأن اللغة القشتالية أكثر تعبيراً من العربية، وبأن لحم الخنزير أفضل من لحم الضأن، وبأن السروال القشتالي أفضل من السروال الأندلسي، وبأن مسح المؤخرة بورقة أفضل من غسلها. واختارت إسبانيا طوال ١٠٠ عام تجاهل اخفاقها لكنّها اعترفت بهذا الاخفاق في النهاية فعادت ولجأت إلى الحل الوحيد الذي تعرفه جيداً وهو القضاء العضوي على خصومها بالقتل أو التغريب. وباختصار كانت قشتالة عملاقاً عسكرياً فيما الأندلسيون أقزاماً، لكنها كانت قزماً حضارياً جديراً بالاحتقار في عيون الأندلسيين الذين نظروا دائماً إلى القشاتلة كمستعمرين احتلوا أرضهم ولم يتمكّنوا من غرناطة إلا بالخديعة والمكر.

وفي بداية القرن السابع عشر سعت السلطة أيضاً إلى البحث عن انتصار سهل يغطي استمرار هزائمها أمام أعداء الكاثوليكية ويُبعد أنظار الناس عن إخفاق مغامراتها العسكرية وسياساتها الاقتصادية السيئة وديونها المتراكمة فقررت تغريب الأندلسيين الجدد عن البلاد، ووضع نهاية لشعب أيقنت الحكومة الإسبانية تلو الأخرى أنه لا يريد الذوبان في الوسط القشتالي أو الانصياع إلى الكنيسة أو السلطة. وعندما شعر حتى أشد أنصار معاقبة الأندلسيين أن الحكومة عازمة فعلاً على تنفيذ قرارها، انقلبوا ضد القرار وسعوا إلى ترغيب الأندلسيين بالبقاء. وهنا اشترط الأندلسيون السماح لهم

بممارسة دينهم الإسلامي علناً وإعطاءهم حرية مزاولة عاداتهم وتقاليدهم الأندلسية. ولم تستطع السلطات قبول الطلب تحت ضغط الكنيسة فتشدد الأندلسيون في مطالبهم وباتوا أكثر رغبة حتى من أعدائهم في الكنيسة والسلطة في النزوح عن البلاد والخلاص من أكثر من مئة عام من العذاب والتقتيل والاضطهاد القشتالي والأرغوني. ويوم بدأ الأندلسيون التجمّع استعداداً للرحيل عن البلاد اختفت كل فائدة أو جدوى من التستر على دينهم وعروبتهم. وسجّل أحد شهود عيان النفي من بلنسية موقف الأندلسيين بالقول: «لقد رفضوا ليس فقط العمل وجمع العنب وقطع قصب السكّر بل اعترفوا صراحة أنهم جميعاً مسلمون. وأكد أحدهم أن كل الأندلسيين في مملكة بلنسية عرب أيضاً شأنهم في ذلك شأن عرب الجزائر».

وخلال سنوات التغريب أعربت عامة إسبانيا عن ابتهاجها بنفي «أعداء الدين الكاثوليكي»، كما كانوا يسمّونهم. واعتبر الإسبان الأندلسيين أعداء في وطنهم ثم اعتبروهم أعداءً خارج الوطن أثناء التغريب فتركت السلطة اللصوص والقتلة وتجّار العبيد يتحكمون بمصير قسم كبير من المنفيين، وربما لم يصل أكثر من نصفهم إلى الوجهات المقصودة. ولم تستمر بهجة الإسبان بنفي الأندلسيين لأن هؤلاء لم يكونوا مجرد أقلية بل أقلية مهمة من الناحيتين الاقتصادية والصناعية في قشتالة، وأقلية حاسمة بالنسبة لمملكة أرغون خصوصاً في بلنسية. وكانت إسبانيا، بعملية النفي، تسدد طعنة أخيرة للوجود العربي والإسلامي فيها، لكنها كانت طعنة أدمت جسد الأمبراطورية مثلما أدمت المنفيين الأندلسيين. فهؤلاء انتقموا لنفيهم عن مساكنهم ومساكن أجدادهم وأجداد أجدادهم وهم خارج إسبانيا، وساهموا في توفير أحد الأسباب المهمة لسقوط الأمبراطورية الإسبانية. ولم تفتقد إسبانيا الأندلسيين على الفور إذ كانت لا تزال تعيش نشوة انتصارها الواهم، لكن عندما حاولت حكومة دوق أوليبارس حشد طاقات الأمبراطورية للتصدي للهولنديين البروتستانت وغيرهم من أعداء إسبانيا، اصطدمت باقتصاد منهار. وكتب أحد كبار المسؤولين فيها: «لم تمض إلا فترة قصيرة على طرد الأندلسيين الموريسكيين في خطوة عادت بضرر بالغ على هذه الممالك وباتت فكرة عودتهم طيبة لو قبلوا ديننا السماوي».

التركة الأندلسية

ربما دفع الإسبان نحو ثلاثة ملايين أندلسي خارج البلاد منذ بدء مرحلة التوغل الكبير في الأراضي الأندلسية مطلع القرن الثالث عشر وأحلّوا محلهم خليطاً هجيناً

من المواطنين الآيبريين والأوروبيين، لذا يمكن اعتبار الأندلسيين من أكثر الشعوب المنكوبة في ذلك الزمان. لكن على رغم ارتفاع عدد الأندلسيين المهاجرين أو المُهجّرين فإن من بقي منهم في إسبانيا ربما بلغ الضعفين إذ يُقدّر أن عدد الإسبان والبرتغاليين والأرغونيين لم يتجاوز في أي مرحلة من مراحل تاريخهم ثلث عدد سكان شبه جزيرة آيبرية وكان الباقي من الأندلسيين أو أحفادهم أو نتاج الاختلاط السكاني. ان تاريخ الأندلسيين ليس فقط تاريخهم القاتم مع الإسبان. وإذا كانت الأمم تُقاس بفتوحاتها العسكرية فالفخر ليس للاغريق أو الرومان أو العرب بل للمغول الذين أقاموا أكبر امبراطورية في العالم القديم امتدت حدودها من أقاصي الصين إلى تخوم وسط أوروبة الشرقية. أما إذا كانت الأمم تقاس بتركتها الحضارية فإن الحضارة العربية الأندلسية هي أهم ما عرفته شبه جزيرة آيبرية، وهي تأكيداً واحدة من أهم الحضارات التي عرفها العالم، ولا يقبل تاريخها الموسوعي الهائل مقارنة مع أي من العهود التي عرفتها إسبانيا بعد زوال سلطان الأندلسيين. وهناك استثناءات لكل شيء عرفه البشر على مر العصور إلا أن الحضارة الأندلسية العربية قدّمت مثالاً جيّداً على إمكان تلاقي الحضارات وتعايش الشعوب والديانات السماوية. ولا نعرف طبيعة الشكل الذي كان سيأخذه العالم لو ظلت مثل هذه الحضارة قائمة حتى الآن، إذ على الرغم من انقضاء ألف سنة على انهيار الخلافة القرطبية وأكثر من ٥٠٠ سنة على سقوط غرناطة لا يزال التاريخ الأندلسي والحضارة الأندلسية حيّين في صيغ ثقافية وإنسانية كثيرة. ويكاد المرء يجد في حضارتها ضرباً من العصرنة والحداثة لا يمكن تقديم سبب سهل لوجودها، وربما لن يتردد كثيرون في اختيار المقام بالأندلس القرطبية لو تصوّروا أنفسهم يعيشون في فترة ما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين.

ويقدم تاريخ الجزيرة، بسبب ثرائه وامتداداته واتساع آفاقه، سلسلة متصلة من التساؤلات التي لا تزال تبحث عن اجابات، كما يقدم تاريخ إسبانيا سلسلة من التناقضات التي لا يمكن العثور عليها في تاريخ أي من الأمم الأوروبية الأخرى. وفوق الاراضي الإسبانية ترسّب بعض أهم الحضارات في العالم من يونانية إلى رومانية إلى عربية. إلا أن الحضارة العربية كانت الأهم والأشمل والأكثر ديمومة وتأثيراً في العصور الحديثة قبل أن يأتي الإسبان ويفكّكوا مكوّنات هذه الحضارة في صورة منتظمة مقصودة. وفي حين تمكن معظم الدول الأوروبية من استغلال التركة الحضارية والعلمية العربية التي تطورت في الأندلس، فإن إسبانيا لم تحسن الاستفادة من تلك التركة واختارت حمل السيف لحل مشاكلها وزيادة ثرواتها في العالمين القديم والجديد فأزهقت روح حضارات العالم الجديد مثلما حاولت إزهاق الحضارة الأندلسية. وإذا

كان التوسع يتضمن تقويض الحضارة العربية في الأندلس أو حضارات المايا والأنكا والإزتك في العالم الجديد، فإن ذلك لم يكن مهماً بالنسبة لقشتالة التي كانت تريد الذهب والفضة بأي ثمن للصرف على حروب التوسع في أوروبة، والإنفاق على حماية المستعمرات الإسبانية في كل مكان.

لقد سيطر الإسبان في القرن السادس عشر على أراض لم يسيطر عليها أحد قبلهم نتيجة اسباب عدّة أحدها اكتساب الخبرات العسكرية التي راكموها خلال الحروب ضد الأندلسيين على مدى قرون عدة لانتزاع أرضهم وثروتهم واستغلال مهاراتهم. لكن في حين تمكن أصحاب الفتح من بناء حضارة هائلة بالاعتماد على سكان البلاد الأصليين، لم تستطع قشتالة السيطرة على المناطق التي سكنها الأندلسيون من دون إبعاد معظمهم. واتضح لفرناندو الثالث، كما اتضح لفيليب الثاني من بعده وللجنرال فرانكو في العصر الحديث، أن قشتالة لا يمكن أن تتحمل ديناً غير الكاثوليكية ولا شعباً غير الإسبان. إلا أن هذا الاعتراف جزء من الحقيقة فالقشتاليون في القرنين السادس عشر والسابع عشر لم يستطيعوا تقبّل فكرة التعايش مع غيرهم حتى في الجنة، وكانوا يعتقدون أن الوحيدين في العالم الذين يستحقون الفردوس هم الكاثوليك، خصوصاً الكاثوليك الإسبان ذوي الدم الإسباني النقي. لذا حملوا السيف ضد كل الأديان والمذاهب الأخرى، ووصلوا بغلوائهم وعنجهيتهم إلى عدم ائتمان الكاثوليكية حتى على البابا. وبعدما سيّروا الحملة الصليبية تلو الاخرى ضد الإسلام في غرناطة والعدوة لم يجدوا غضاضة في تسيير حملات صليبية مشابهة ضد المسيحية كما حدث عندما غزا قادة فيليب الثاني انتويرب في هولندا، وكما حدث عندما حاول فيليب الثاني غزو انكلترا بأسطوله الكبير المسمى «الأرمادا» بعد نزاعه مع إليزابيث الأولى التي دعمت بالسر حيناً والعلن حيناً آخر أعداء إسبانيا بمن فيهم الهولنديون البروتستانت والمغاربة العرب.

البطش بالحضارات

ولا شك في أن الإسبان وجدوا من المسوّغات ما يكفي للبطش بأعدائهم بالقسوة التي عُرفوا بها إذ كانوا يخشون أن يتحوّل الأندلسيون إلى طابور خامس يخدم فرنسا أو الدولة العثمانية، أو أن يدفع الاضطهاد الأندلسيين إلى تسريب البروتستانتية إلى إسبانيا. إلا أن بعض تصرفات الإسبان تبدو كأنها تتسم بالعصابية الشديدة التي يرافقها خوف لا يمكن بسهولة معرفة أسبابه لكن يمكن رصد تزايده مع تزايد قوة

أعدائهم. ولعل هذه العصابية الظاهرة والخوف الكامن كانا سببين من أسباب كثيرة أدت إلى اضطهاد الأندلسيين مع أنه كان من الاسهل استمالتهم لأن الأندلسيين لم يشكلوا في أي وقت من الأوقات خطراً حقيقياً يمكن أن يهدد مصير الأمبراطورية الإسبانية. ولم يكن الاضطهاد، بل حتى التصفية الجسدية، كافيين في بعض الأوقات لحماية إسبانيا من أي تيارات غير إسبانية فضربت حصاراً فكرياً على نفسها وأخضعت الكتب المُستوردة لرقابة محاكم التحقيق، وبدأت سياسة منظمة لا يزال الفكر الإنساني يعاني منها حتى اليوم. إلا أن الرقابة، على سوئها، كانت الجانب المُشرق فالإسبان الذين استخدموا النار لمساعدة الهراطقة والمرتدين والمذنبين على التوبة والخلاص الأبديين من خلال إحراق أجسادهم في الاحتفالات التي كانت تشهدها المدن الإسبانية الرئيسية، استخدموا النار أيضاً لتطهير حضارتهم من التأثيرات الحضارية الأخرى لذا لم يعرف العالم أمّة أحرقت كتب غيرها من الأمم أكثر من إسبانيا. ففي غرناطة وحدها أحرق الإسبان أكثر من مليون مخطوطة عربية وآلاف المخطوطات الأندلسية المكتوبة بالحروف اللاتينية (الأعجمية Aljamiado)، كما أضرموا النار في ألوف الكتب العبرية التي وضعها المفكرون اليهود خلال العصر الذهبي الوحيد الذي عرفه التاريخ اليهودي في الأندلس العربية، وفي أعداد كبيرة من الكتب التي ألّفها البروتستانت. ونقل الإسبان هذه الممارسة إلى العالم الجديد فعمد رجال الكنيسة عام ١٥٦٢ إلى إحراق مخطوطات حضارة المايا فلم يبق منها اليوم سوى أربع مخطوطات هي كل ما استطاع أبناء تلك الحضارة إخفاءه عن عيون الرهبان وعمال محاكم التحقيق التي نشطت في العالم الجديد.

يقول أديب إسبانيا الأكبر سيرفانتس: «الجشع يقهر الخوف» لذا كانت قشتالة القرن السادس عشر آلة حرب هائلة سيّرها قادة مظفّرون حققوا الانتصارات في معظم المعارك التي خاضها جنودهم. لكن الجيش لا يصنع الحضارة، والروح العسكرية لا تعرف كيف تطور الثقافة والعلوم وهي تستمر إلى أن تصطدم بآلة حرب أقوى منها فتتقوض ويتقوض معها الاساس الذي قامت عليه وتصبح دولة من الدرجة الثالثة ويحكم عليها التاريخ بما تستحقه. ويسجل تاريخ أوروبة لإسبانيا اليوم تمكّنها من إنهاء الوجود السياسي الإسلامي في ذلك القسم من أوروبة لكنه لا يغفر لها ممارسات محاكم التحقيق، ولا حملات صيد الرؤوس ضد الأندلسيين وإبادة شعب عريق انتهى إلى التقتيل والتهجير والحرق والاستغلال البشع والاستعباد والنفي. ولم يكتف الإسبان بالأندلسيين إذ نقلوا الحرب ومحاكم التحقيق إلى العدوة في مطلع القرن السادس عشر، ثم إلى ممالكهم الشاسعة في العالم الجديد قبل أن تنفصل وتتابع

طريقها المختلف عن طريق إسبانيا. وتحررت إسبانيا هي الأخرى من الديكتاتورية وباتت عضواً في الاتحاد الأوروبي إلا أنها لا تزال دولة وحيدة فالتة من عصر الاستعمار الراحل في ما يخص الوطن العربي فها هي شمس الألفية الثانية غربت وإسبانيا لا تزال مصرّة على استمرار احتلال مدينتي سبتة ومليلة المغربيتين.

الطيف الأندلسي

خرجت قشتالة إلى الوجود من تحت عباءة حربها مع الأندلس، وخرجت إسبانيا إلى العالم من تحت عباءة حربها مع غرناطة. وعلى مشارف غرناطة وأمام أسوارها وبواباتها تعلّم القادة العسكريون فنون القتال التي مكّنتهم من تحقيق الانتصارات على فرنسا. وخلال القرون الثلاثة التي لحقت بتسليم غرناطة، حاولت إسبانيا إثبات انفصالها التام عن تاريخها الأندلسي وابتعادها عن الدين الإسلامي الذي تعايشت معه لكن تكوينها لم يسمح لها فظلّت الدولة الأوروبية التي مزجت الدين بالدنيا والسياسة باللاهوت والكنيسة بالسلطة. وحتى عندما تصوّرت إسبانيا أنها تخلّصت نهائياً من ماضيها نجد أن الطيف الأندلسي عاد وأحاط بها من كل جانب.

وماذا بقي من الأندلس والأندلسيين في إسبانيا اليوم؟ من الوجود السياسي لم يبق شيء فذاك انتهى مع ابرام معاهدة تسليم غرناطة بين إيزابيلا والملك الصغير. من الوجود الحضاري الشيء القليل مقارنة بضخامة الأصل وفرادته وثرائه -بضعة آلاف مخطوطة في قصر الاسكوريال وعدد آخر في المدن الإسبانية الأخرى هي كل ما تبقى من الكتب العربية التي أحرق الإسبان معظمها لذا لا تمثّل سوى جزء بسيط من نحو نصف مليون مخطوطة موجودة اليوم في مكتبات دول العالم ومتاحفها ومقتنيات أثريائها. من العمارة قصر الحمراء ومعظم رباض (حي) البيازين والمسجد الكبير في قرطبة وبقايا مدينة الزهراء (وهي غير مدينة الزاهرة) والمئذنة في إشبيلية وقصرها وبقايا أقل قيمة تتناثر في إسبانيا الشاسعة، وتشكّل في مجموعها جزءاً يسيراً جداً من عمارة باهرة تقوضت مع الزمن أو أهملت ودخلت جدرانها وأعمدتها في هياكل المباني الإسبانية وأساساتها في الماضي ويدخل بعضها في الأساسات الجديدة إلى اليوم. ولا يزال عدد مهم من المساجد الأندلسية قائماً بعدما تحوّل منذ أمد بعيد إلى كنائس ودخلت على بعضه إضافات تبدو غاية في القبح والاستعجال كما بالنسبة للكنيسة الموجودة في حرم مسجد قرطبة (المزكيتا). من العمارة العسكرية الإسلامية بقي عدد قليل من نحو ٤٠٠ قلعة عمّرها الأندلسيون في سائر أرجاء شبه جزيرة آيبرية تعطي في

مجموعها صورة وافية عن فن العمارة المتطور، وآلاف المنابر والحصون والحمامات التي اندثرت أو تعاني من الإهمال. من التأثيرات الأندلسية استبقت إسبانيا أكثر مما يود الكثيرون الاعتراف به، وإن كان عمق التأثير متدرجاً في الاتجاهات التي يشملها. في الأندلس الصغرى (أندلوثيا) وبلنسية والمناطق الريفية حولها يستمر التأثير الأندلسي طاغياً إذ لا يزال عدد كبير من أزقتها وطرقها محتفظاً باسمه الأندلسي وشكله. كما لا يزال التأثير متفرقاً، لكن ملحوظاً، في وادي نهر إبرة وعلى طول الساحل الشرقي من البلاد وصولاً إلى المريّة ومالقة حتى أنه في الإمكان تقفّي خطوات الرحالة الأندلسي ابن جبير اعتماداً على أسماء المدن والحواضر التي ذكرها في كتابه.

وهل هذا كل شيء؟ لا! لماذا؟ لأن اليسير مما تقدم ذكره هو ما يمكن ان تقع عليه العين غير الخبيرة ذلك أن التأثيرات الأندلسية لا تعد ولا تحصى ويجدها الباحث مستورة تحت غطاء قشتالي أو أكثر، أو طرأ عليها الأحدث فطمس بعض معالمها الأصلية. والتأثيرات أيضاً موجودة في عمق الكينونة الإسبانية وفي الآداب والفنون وأساطير الفروسية وعشرات القصص الرومانسية المنسوجة على منوال قصة ليلى الأندلسية ومانويل القشتالي وفي لوحات الرسامين الإسبان. وهذا أيضاً ليس كل شيء لأن الإسبان الذين سعوا إلى تخليص شبه جزيرة آيبرية من الأندلسيين يجدون اليوم تاريخهم أسير تلك الحقب التي يحاولون التخلص منها بل أن انصع صفحات حضارة شبه الجزيرة لم يكن من صنع الإسبان بل من صنع الأندلسيين.

وما هو هذا الشيء الذي يتبادر إلى الذهن عندما تُذكر كلمة إسبانيا اليوم؟ ما هي الصور التي تقفز إلى الذاكرة عندما يحاول المرء أن يستعرض أهم ما يعرفه عن إسبانيا وأهم ما يريد أن يراه عندما تتاح له الفرصة لزيارتها؟ مدريد (مجريط) والاسكوريال وكانياس دي أونيس أم قرطبة واشبيلية والحمراء؟ أين في إسبانيا، بل وأوروبة كلّها، ما يماثل جامع قرطبة أو مأذنة إشبيلية؟ وماذا في إسبانيا غير قصر الحمراء في غرناطة اختارته الأمم المتحدة ذخراً وتراثاً يخص الإنسانية جمعاء ويشدّ اليوم أكثر من مليوني زائر من أصقاع الأرض كلّها؟

وماذا عن الإسبان اليوم؟ إذا صدّقنا ما ورد في كتاب السيَر المسمى «أنساب إسبانيا» فليس في شبه جزيرة آيبرية من يخلو من الدم العربي لذا يجب اعتبار الحديث عن نقاء الدم الإسباني ضرباً من الطرافة. وإذا تساءلنا أين اختفى عشرات الملايين من الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في شبه جزيرة آيبرية على مر العصور فلعلنا نسأل أنفسنا أيضاً أين ذهب الرومان الذين ضمّت أمبراطوريتهم في أوجها ما بين ٥٠ و٧٠

مليون شخص، أو أين الإغريق والبيزنطيون وكل أصحاب الحضارات الأسبق والحضارات اللاحقة؟ لقد تبعثر كل هؤلاء على مر الأزمان في أصقاع الدنيا وامتزجوا مع الآخرين وهم اليوم أجداد وجدّات مغربيين وجزائريين وتونسيين ومصريين وسوريين وفرنسيين وإيطاليين وأتراك. ولا نعرف عدد الأندلسيين الذين بقوا في إسبانيا بعد النفي الكبير، أو كانوا عبيداً وتحرروا عندما أصبح الفرنسيون سادة إسبانيا لكن لا بدّ ان يكون كبيراً إن لم يكن كبيراً جداً لأن بعض الرحالة لاحظوا كثافة العبيد في إسبانيا خصوصاً في الأندلس الصغرى. والدماء الأندلسية موجودة في سكان العالم الجديد الذي ذهبوا إليه عبيداً أو إكراهاً أو سخرة للتجذيف في مئات السفن التي كانت تنتقل بين إسبانيا وممالكها الجديدة، أو هرباً من سلطة الملوك وإرهاب عمال محاكم التحقيق. وهؤلاء ليسوا أجداد بعض العرب فقط بل هم أجداد وجدّات مكسيكيين وبيروفيين وأرجنتينيين وأميركيين والهنود الحمر والفليبينيين وعشرات الجنسيات الأخرى.

والدم الأندلسي موجود في كثير من الأميركيين وربما كان أيضاً في عروق أعظم رئيس عرفته الولايات المتحدة الأميركية هو ابراهام لنكولن. كما انه في مواطني الدول التي انتقل إليها أحفاد الأندلسيين الجدد في الأزمان اللاحقة. لكن من يريد أن يتقفّى أهم الأصول العرقية الأندلسية عليه ألا يذهب الى أبعد من إسبانيا والبرتغال فهناك عاش الأندلسيون وهناك امتزجت دماؤهم بدماء الآيبريين وصار من نسلهم العامة والنبلاء والسياسيون. ويُقال إن رئيس الجمهورية الإسبانية «القلعة سمورة» أندلسي الأصل وكذا «خوسيه ماريا أثنار» Jose Maria Aznar رئيس الوزراء وربما كان اسمه العربي «السانية». ومثلهما كثيرون يحملون أسماءً عربية مثل «رفال»، أي رحال، و«البوكيركيه»، أي البرقوقي، و«بوفيرا»، أي البحيرة، و«سراخ»، أي السرّاج. ووجد الأندلسيون المنفيون وطناً بديلاً في المغرب وتونس ومصر ودمشق والقسطنطينية وعشرات الدول والمدن لكن آخرين عانوا كثيراً، فيما لقي بعضهم نهايته على يد الإخوان في الدين والقومية كما يؤكد شيخنا المقري: «فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم. . . ووصلت جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصف، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين». [1]

[1] «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب». المقري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، (بيروت ١٩٦٨)، ج٤، ص ٥٢٨.

ملاحظات على متن الكتاب

بما أن الممالك الشمالية افتقدت في معظم تاريخها الوحدة والتماثل والرغبة التي كانت ستحقق لها الغلبة على الأندلسيين فإن توحيد تلك القوى عن طريق وصفها بأنها «إسبانية» يعني الوقوع في غموض التعميم لأن المدلول السياسي الوحدوي لهذه الكلمة لم يُستخدم إلا في نهاية القرن السابع عشر. أما قبل ذلك فكانت «إسبانيا» كلمة ذات مفهوم عام شاع استخدامه كوعاء جغرافي شمل قشتالة وأرغون وليون وقطالونيا ونافار وجليقية والبرتغال، وورثه الناس عن الرومان الذين أخذوه، كما يبدو، من الفينيقيين الذين سيطروا على القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط نحو ألف عام كان هذا البحر خلالها بحيرة فينيقية. وما ينطبق في عمومه على «إسبانيا» ينطبق على كلمة «الأندلس» التي كانت تعني في البداية كل شبه جزيرة آيبرية (الجزيرة) ثم تقلّص مفهومها بتقلّص السلطة الإسلامية فباتت تُعرف باسم «الأندلس الصغرى» إلى أن انحصرت السلطة الإسلامية في مملكة غرناطة التي ظلّت تُعرف باسم الأندلس. ولكلمة «الأندلس» (أندلوثيّا) اليوم مدلول جغرافي مُحدّد يشمل المنطقة الواقعة بين مرسية شرقاً وحدود إسبانيا مع البرتغال (البرتقال) غرباً. وهي مقسّمة إلى ثماني مقاطعات هي المرية وغرناطة وجيان وقرطبة ومالقة وقادس وإشبيلية وولبة، وتضم وادي النهر الكبير والرقعة الجنوبية التي أسماها الرومان بيتيكا Baetica.

ويسكن إسبانيا اليوم خليط من السكان المنحدرين من أصول متوسطية وأوروبية شمالية يعدّون نحو ٣٩,١ مليون نسمة طبقاً لتقديرات تموز (يوليو) ١٩٩٨. ويُلزم الدستور الإسباني السكان في مادته الثالثة استخدام اللغة «الإسبانية»، إلا ان هذا الوصف، مثل كلمة «إسبانيا» نفسها، مفهوم جديد نسبياً إذ استخدمه كتّاب ولغويون في القرنين السادس عشر والسابع عشر لكنّه لم يصبح نافذاً إلا بمرسوم أصدره الملك فيليب الخامس عام ١٧١٤. وظلت الأكاديمية الإسبانية الملكية *Real Academia Española* تستخدم كلمة «قشتالية» للدلالة على اللغة الإسبانية حتى عام ١٩٢٥. ولا يزال هذا الوصف شائعاً في أميركا اللاتينية ليعني اللغة الإسبانية الأمّ، أو لغة أهل إسبانيا. والقشتالية Castilliano مستمدّة من كلمة «قلعة» Castille، ويستخدمها نحو

٧٤ في المئة من سكان إسبانيا. ويعترف الدستور في إسبانيا الديمقراطية بحق السكان في مناطق الحكم الذاتي باستخدام لغاتهم الخاصة وأهمها: القطلانية Catalan المستخدمة في قطالونيا (تقع شمال شرقي شبه الجزيرة)، وجزر البليار (ميورقة ومنورقة واليابسة وهي معروفة عند العرب باسم الجزائر الشرقية لأنها تقع قبالة بلنسية) وينطق بها نحو ١٧ في المئة من السكان، واللغة الجليقية Gallego التي هي لسان أهل منطقة جليقية Galicia في الشمال الغربي وينطق بها نحو سبعة في المئة من السكان، والأوسكيرا Euskera وهي لغة ينطق بها نحو إثنين في المئة من أهل منطقتي الباسك ونافار، والبلنسية Valenciano وهي لغة المجتمع البلنسي المعروف باسم Comunidad Valenciana. وتطورت اللغات هذه على مر الأزمان إلى أن أخذت شكلها المعروف اليوم، وتعامل الأندلسيون معها في أشكال محدودة وعرفوها عموماً باسم «الأعجمية» حتى القرن السابع عشر، كما عرفوا أهلها بأسماء محددة مثل أهل نبارة أو جليقية أو أرغون أو أسماء شاملة عامّة مثل «الروم» و«الأعاجم» و«النصارى» و«المعاهدين»، وهؤلاء من التزم عهوداً ومواثيق متفقاً عليها.

وأطلق العرب على من بقي على دينه النصراني من أبناء البلاد بعد الفتح أسماء عدّة منها القوط Goths والمستعربون mosarabes والمعاهدون من دون أن تعني هذه التسميات أي تفرقة عنصرية، فيما عُرف من اعتنق الإسلام باسم المسالمة أو الأسالمة. واختارت أعداد كبيرة من الأندلسيين المسلمين البقاء في مواطنهم بعد احتلالها خصوصاً خلال القرن الثالث عشر وعُرف هؤلاء باسم «أهل الدجن» أو «المدجّنين» mudejares لأسباب عدّة منها استصغار شأنهم لأنهم لم يرحلوا إلى بلاد الإسلام كما ينبغي عليهم عملاً بالقرآن والمنطق. ثم زالت السلطة العربية عن شبه جزيرة آيبرية فتحكّم القشتاليون والأرغونيون بمن بقي من الأندلسيين في أرضه وصدرت مراسيم عدّة اعتبرت الأندلسيين مُنصّرين بحكم القانون فأكّد الواحد منها الآخر أحياناً أو ذكّر به أو أضاف إليه.

وأطلق الإسبان على الأندلسيين بعد صدور تلك المراسيم أسماء كثيرة مثل: «العرب المغاربة أو الأفارقة» moro أو المُدجنين mudejares أو المهجّرين hagarans أو المحمديين Muhammadans أو السراسينو sarraceno التي يعتقد البعض أن أصلها كلمة «صحراوي» Sahara أي عرب الصحراء. وظلت هذه التسميات سارية حتى نهاية الخمسينات من القرن السادس عشر عندما ورد اسمهم في مراسيم ملكية على أنهم «الأمّة الموريسكية» أو «موريسكيون» moriscos، أي النصارى الجدد أو النصارى

الصغار. ووسّع معظم المؤرخين، عرباً وأجانب، نطاق استعمال هذا الإسم فعادوا به إلى الفترة التي لحقت صدور مرسوم تنصير الأندلسيين الغرناطيين عام ١٥٠٢، وأحياناً منذ تسليم غرناطة عام ١٤٩٢. ومن الواضح وجود فرق كبير بين إطلاق الإسبان مثل هذه الصفات على الأندلسيين وبين غرض المؤرخين. فالإسبان سلطة وكنيسة وشعباً رموا من وراء هذه التسميات الى فصل الأندلسيين الجدد عن أجدادهم وحرمانهم من حقوق المواطنية في بلادهم وإظهارهم بمظهر من لا هوية له ولا اتصال ولا توحيد. أما هدف بعض المؤرخين من استخدام هذا الإسم المؤسف فهو التفريق بين الأندلسيين الذين بقوا في إسبانيا بعد تسليم غرناطة والأندلسيين في المراحل الأسبق. لذا لا يمكن أن تعني هذه الكلمة في أي حال من الأحوال أن هؤلاء «الموريسكيين» كانوا متنصّرين لأن قسماً كبيراً منهم ظل مسلماً وعربياً حتى النهاية، ولهذا عملت حكومة فيليب الثالث على تغريبهم عن بلادهم في مطلع القرن السابع عشر. ولا توجد ضرورة، بالنسبة لنا كعرب، لتفريق الأندلسيين بعد تسليم غرناطة عن الأندلسيين قبلها فجميع هؤلاء أبناء شعب واحد هو الشعب الأندلسي. والذي تغيّر هنا ليس الأندلسيون بل ظروفهم السياسية تحت حكم الإسبان المسيحيين. واستخدمتُ لتفريق هؤلاء عن الأندلسيين في العصور السابقة اسم «الأندلسيين الجدد» فمن الغريب مثلاً الحديث عن الأندلسي الجديد المسلم بالقول إنه «موريسكي مسلم» لأن هذا يعني أنه «مسيحي صغير مسلم!». ومع ذلك استخدمت وصف «الموريسكيين» في بعض الحالات الخاصة كما سيتضح في المتن. وتغيّر مفهوم كلمة «الموريسكيين» في العالم الجديد، وله مدلول مختلف تماماً في البرتغال حيث عُرف بعض الملوك باسم «الملوك الموريسكيين».

وفضّلت في هذا الكتاب استخدام «محاكم التحقيق» بدلاً من الاسم الشائع وهو «محاكم التفتيش» لأن مهمة تلك المجالس لم تكن التفتيش بل التحقيق مع المتهمين بالهرطقة أو الإساءة إلى الكاثوليكية، و«الاستعلام» منهم عما أسند إليهم من مخالفات قبل إحالتهم إلى السلطات المدنية لتنفيذ العقوبة الموقّعة في حال ثبوت الجرم حقيقة كان أو لبوساً. وأصل الكلمة لاتيني فعله بالقشتالية «inquirir»، أي التحقيق مع، أو الاستعلام من، ومنه الاسم «inquisición» ويُلفظ «إنكيسثيون» eenkeeseethyon، أي التحقيق في الشيء أو وسيلته. إلا أن اسم «محاكم التفتيش» صار شائعاً ومعروفاً الآن وللدارج والشائع حقهما الذي يتقدم أحياناً على اللغة والمعنى الحقيقي أحياناً لذا استبقيته في أماكن بعينها.

وإذا صعب انتهاج التحديد نظراً إلى التغيرات الكبيرة التي طرأت على شبه جزيرة آيبرية طوال قرون عدّة، فان التحديد سيكون الغالب حيثما أمكن فتكون الوقائع بأسماء الدول المعنية بها فيما سيرد اسم «الشماليين» أو «الممالك الشمالية» أو «أهل الشمال» للدلالة على القوى النصرانية ثم المسيحية التي حاربت المسلمين من ممالك في الشمال الأوسط أو الشمال الغربي. واقتضى النص في بعض المواقع إدراج اسماء المواضع كما عرفها الأندلسيون أو الشماليون حيناً والإشارة إلى الاسم القشتالي مع إيراده بالحروف اللاتينية في الأماكن المناسبة. ونظراً إلى اختلاف مهم في أسماء الأعلام التي ترد في المصادر العربية القديمة، ستكون الأسماء هذه في النص كما يلفظها أهلها اليوم باستثناء الشائع المألوف. واعتمد في النص التقويم المسيحي (الغريغوري) وما يقابله بالتقويم الهجري (بين قوسين) في الفترة الواقعة بين فتح الأندلس واستسلام غرناطة، ثم في ما بعد في الأماكن الملائمة. وفي الملاحق جداول بأسماء أهم المواضع والأعلام بالحروف اللاتينية وما يقابلها بالعربية أدرجتها في اتجاه من اليسار إلى اليمين لضمان تسلسلها وتسهيل متابعتها، وكذا ثبت بأسماء ولاة وملوك الأندلسيين والشماليين حتى بداية القرن السابع عشر الذي شهد نفي قسم كبير من الأندلسيين الجدد، وعدد من الخرائط والصور ذات الصلة بالنص.

الفصل الأول

لماذا سقطت الأندلس؟

١ - آيبرية قبل الفتح

الفينيقيون في آيبرية

كان هنيبعل يصغُر الإسكندر الأكبر بسبع سنوات عندما ركب إلى جانب والده هميلقار برقا ملك قرطاجة في أول معركة في حياته لاخضاع القبائل العاصية في شبه جزيرة آيبرية. وكانت المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة مألوفة لهميلقار لكن ليس لابنه الذي كان في التاسعة آنذاك. فمنذ نحو عام ١١٠٠ قبل الميلاد (ق.م) نزل الفينيقيون، أجداد القرطاجيين، تلك المناطق، وبنوا عدداً من المدن التي كانت عامرة في زمن هنيبعل مثل قادس وعدرة ومالقة وطرشيش التي ربما كانت أيضاً الإسم الذي أطلقه الفينيقيون على المنطقة التي نعرفها اليوم بالأندلس الصغرى أو «أندلوثيا».

وفي نحو عام ٨٥٠ ق.م أبحرت الأميرة ديدون (أو إليسا) من صور على ساحل الشام هرباً من جور أخيها الملك بغماليون وأسست قرطاجة قرب العاصمة التونسية حالياً فصارت مركزاً مهما انطلقت منه السفن لحماية المستوطنات الفينيقية التي كانت تنتشر في القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط. وواكب تراجع أهمية صور منذ القرن السادس قبل الميلاد تزايد أهمية قرطاجة فأصبحت أهم المستوطنات في المنطقة ومركزاً أساسياً لحماية عدد كبير من المستوطنات والمراكز التجارية التي انتشرت على السواحل المغاربية وفي جزر صقلية وسردينيا وميورقة ومنورقة والمناطق الجنوبية والشرقية من إسبانيا. وأضاف القرطاجيون إلى المدن الفينيقية القديمة في آيبرية عدداً من الحواضر الجديدة مثل قرطبة وإشبيلية وقرطيّة التي عرفت أيام الأندلس باسم «برج قرطجنة».

وخلال القرن الثاني من عمر قرطاجة (أصلها Gart Hadasht) بدأت قوتان أخريان تنموان متزامنتين تقريباً إلى الشمال الشرقي من تونس هما اليونان والرومان. وكانت اليونان الجبليّة الأسرع انتشاراً خارج حدودها بسبب حاجتها إلى المناطق الزراعية لإطعام عدد متزايد من السكان. وبين ٧٥٠ و٥٥٠ ق.م أنشأ الإغريق مستوطنات عدّة في جنوب إيطاليا وشرقي صقلية وبعض مناطق ساحل إسبانيا الشرقي خصوصاً

أمبرياس (أمبورش كما عرفها العرب) ودانيه (دانة)، وربما عُرفت البلاد آنذاك أو بعدها باسم آيبرية (أبارية). ونهضت في اليونان جمهوريات مدائنية متنافسة أشهرها أثينا واسبارطة وطيبة. ولم تتمكن هذه الدويلات أبداً من الاتحاد فاشتبكت أثينا مع اسبارطة نتيجة الخلاف حول صقلية فهُزمت أثينا، ثم جاء دور طيبة فهزَمت اسبارطة، ثم جاء الاسكندر المقدوني (الأكبر) فهزم طيبة واستعبد أهلها عام ٣٣٥ وبسط نفوذه على اليونان قبل أن يبدأ بعد عام من ذلك غزو فارس ويستطيب المكان فيظل فيه إلى أن يموت بالحمى أو مسموماً.

وكان مضى على تأسيس روما (من كلمة ruma الأترسكية) نحو ٥٠٠ عام عندما حاول التجار الرومان زيادة نشاطهم في البحر الأبيض المتوسط فاصطدموا على الفور بالقوة البحرية الهائلة التي ملكتها قرطاجة. وتطورت المنافسة بين الطرفين إلى حرب شاملة بدأت عام ٢٦٤ حول صقلية التي هي مفتاح الطرق البحرية بين شرق البحر الأبيض المتوسط وغربه. واتسع نطاق هذه الحرب المعروفة باسم الحرب البونيقية (البونيّة أو الفونيّة) الأولى، فبنى الرومان أسطولاً كبيراً نقل جنودهم إلى قرطاجة لكن القرطاجيين أنزلوا بهم هزيمة منكرة عام ٢٥٥. وبعد ١٤ سنة استطاع الرومان في معركة بحرية وقعت قرب صقلية تحطيم أسطول قرطاجة بفضل أسلوب قتالي استخدموا فيه الكلاليب لمنع السفن القرطاجية من الفرار. وانتهت الحرب عام ٢٤١ عندما رضخت قرطاجة لمطالب الرومان فتخلت لهم عن صقلية التي اصبحت أول أقليم روماني خارج إيطاليا، ودفعت لهم تعويضات قيمتها ٣٢٠٠ تالنت على مدى عشر سنوات، ووافقت على قصر الأسطول على عدد صغير من السفن.

وتعلم هنيبعل من والده فنون القتال لكنّه تعلّم منه أيضاً كره الرومان. ويُقال إن هميلقار استحلف ابنه أن يديم العداء لروما طول العمر. لكن سلوك روما وحده كان كافياً لاستمرار هذا العداء إذ خرقت الاتفاق مع قرطاجة باحتلال جزيرتي كورسيكا وسردينيا فسعى هميلقار إلى تعويض تلك الخسارة بمد سيطرته على شبه جزيرة آيبرية مما أعانه على دفع آخر قسط من تعويضات الحرب. وفي عام ٢٢٧ (أو ٢٢٣) أسس القرطاجيون مدينة قرطاجة الجديدة التي عرفها الأندلسيون باسم قرطاجنة الخلفاء Cartagena، وبدأوا احتلال الساحل الشرقي حتى حدود نهر أبرة الواقع في أقصى الشمال الشرقي.

وفي عام ٢٢١ اغتيل حسدروبال، صهر هنيبعل، فأصبح هنيبعل قائداً عاماً لقوات قرطاجة. ولما عبر هنيبعل نهر إبرة توجه إليه فريق من مملكة سغوانتم (ساقونته

Sagunto الحالية) الموالية للرومان لتذكيره بالاتفاق على عدم عبور النهر. وخلال عودة الفريق إلى المدينة الواقعة شمال بلنسية لقي عدداً من المستوطنين المتحالفين مع قرطاجة فقتلهم. ولما علم هنيبعل بذلك سار إلى المملكة واحتلها. وحاولت روما نجدة حليفتها فأخفقت فطالبت قرطاجة بالانسحاب من سغوانتم وتسليم هنيبعل، ولما رفضت اعلنت الحرب على قرطاجة.

ولم تأت روما إلى هنيبعل في آيبرية فقرر التوجه إليها. وفي ربيع عام ٢١٨ بدأ رحلة أسطورية قاد فيها جيشاً قوامه ٥٠ ألف راجل وتسعة آلاف خيّال و٣٧ فيلاً فسلك الطريق المحاذي لساحل شبه جزيرة آيبرية الشرقي ثم عبر جبال البيرينيه فجبال الألب وهبط إلى سهل بو Po شمال إيطاليا. وتفقّد هنيبعل جيشه فإذا به تقلّص إلى نحو ٢٦ ألف راجل وستة آلاف خيال وعدد قليل من الفيلة فيما هلك الباقون من البرد أو خلال الاشتباكات مع القبائل التي تعيش في مناطق عبوره. وفي الوادي المذكور استغل هنيبعل كره قبائل الغال للرومان فضم منهم إلى جيشه بين ١٥ ألفاً و٢٠ ألفاً.

وكان وصول هنيبعل إلى شمال إيطاليا مفاجأة للرومان فبعثوا إلى جيشهم في صقلية للعودة فوراً إلى البلاد لكن هنيبعل نصب له كميناً وهزمه، ثم هزم جيشاً رومانياً آخر وتقدم في اتجاه روما عام ٢١٧. وفي آب (اغسطس) عام ٢١٦ واجه جيش هنيبعل قرب كانايي Cannae الواقعة إلى الجنوب الشرقي من روما جيشاً من ٨٠ ألف جندي. وتقدم الجيش الروماني في اتجاه جيش هنيبعل المنتشر على شكل قوس، ولما اقترب من القلب تراجع مشاته فظنّ الرومان أن القلب انهزم فلحقوه فأطبق جناحا جيش هنيبعل المؤلف من القوات الأفريقية الشمالية على الجيش الروماني. وعاث فرسانه في المشاة الرومان فوقعت فيهم مقتلة رهيبة ولم ينته ذلك النهار إلا وخسر الرومان نحو ٥٠ ألف قتيل. وكانت تلك أعظم هزيمة عرفتها الأمبراطورية الرومانية في تاريخها، ولم يقف بينها وبين نهايتها على يد هنيبعل يوم ذاك سوى الحظ.

وتفادى الرومان بعد تلك الهزيمة محاربة هنيبعل فاستوطن جنوب إيطاليا ١٢ سنة عقد خلالها عدداً من التحالفات مع مقدونيا ومدينة سيراكيوز (سرقوسة) الصقلّية. إلا أنه لم يستطع خلال كل تلك الفترة حشد القوات الكافية لمهاجمة روما. وانشغل هؤلاء الحلفاء في ما بعد بحروبهم الخاصة في الوقت الذي بدأ فيه حلفاء روما في حشد قواتهم التي استهدفت ليس مواجهة هنيبعل بل تدمير قواعده الخلفية خصوصاً في آيبرية التي كانت مركزاً لتجنيد المرتزقة واستخراج الفضة. واعتباراً من عام ٢١٢ بدأت الجيوش الرومانية التوغل في آيبرية فوقعت معارك عدّة تمكن القنصل الروماني

سيبو في إثرها من إخراج القرطاجيين من شبه الجزيرة، ثم نقل الحرب عام ٢٠٤ إلى القواعد القرطاجية في شمالي أفريقية. وإزاء هذا التطور استدعت قرطاجة هنيبعل لكنّه كان أضعف من أن يقاوم الجيوش الرومانية فلحقت به هزيمة شنيعة في معركة زامه عام ٢٠٢ ق.م.

وتردّت أحوال هنيبعل بعد هذه الواقعة وانقلب عليه أهله وصحبه وحيكت ضده المؤامرات فأوصى جماعته بطلب الصلح، ثم أبحر من ميناء صغير لا تزال بقاياه موجودة في جزيرة قرقنة الواقعة قبالة مدينة صفاقس التونسية، وتوجه إلى سورية. وعمل هنيبعل في خدمة انطيوخس الكبير السلوقي (المقدوني الأصل)، ثم انتقل الى بيثينية Bithynie شمال غربي تركيا على البحر الاسود حيث مات مسموماً. وفي عام ١٤٩ أنزل الرومان جيشين في قرطاجة واستطاعوا بعد حصار دام ثلاث سنوات اقتحام المدينة وإحراقها وصار البعض يُطلق على أنقاضها اسم قرطاجنة وهي معروفة في تونس اليوم باسم قرطاجة أو قرطاج. وفي غير حكاية أن الرومان رشّوا الأرض بالملح حتى لا تقوم لقرطاجة قائمة مرة أخرى لكن هذا غير ثابت. أما الثابت في التاريخ فهو أن الرومان باعوا جميع الناجين من قرطاجة عبيداً، وأغلقوا دفتر التاريخ على واحدة من أعظم الأمم المشرقية التي عرفها العالم.

الرومان في آيبرية

بسط الرومان سيطرتهم على مناطق واسعة في شبه جزيرة آيبرية لكن اخضاع السكان الأصليين تطلّب حروباً متقطعة استمرت نحو ٢٠٠ سنة. وخلال عهد الرومان عُرفت شبه جزيرة آيبرية باسم «إسبانيا» Hispania. وقُسّمت البلاد وقتها إلى خمس مقاطعات. ونعمت البلاد تحت سيطرتهم بالرخاء الاقتصادي والنفوذ السياسي والتأثير الفكري فاعتلى عرش الأمبراطورية الرومانية أربعة من الأباطرة الذين ولدوا في إسبانيا التي كانت أيضاً مسقط رأس عدد كبير من الفلاسفة والأدباء أمثال سينيقه ولوقان وكولوميلا.

ووصلت الأمبراطورية الرومانية إلى اوج عظمتها في المئتين الأولى والثانية الميلاديتين عندما أكملت سيطرتها على كل سواحل البحر الأبيض المتوسط وإسبانيا وفرنسا وجنوب أوروبة فيما كان أغلب الممالك خلف هذه الرقعة الشاسعة تابعاً لروما أو حليفاً لها. وأطل القرن الرابع الميلادي على عالم قديم لا تزال روما تسيطر عليه، إلا أنه أطل أيضاً على امبراطورية بدأت أساساتها في التآكل بفعل الفساد والفحش

والمغالاة والظلم التي هي كلها علامات الاستبداد المطلق. وبدأت خطوات الأمبراطورية الرومانية تتسارع في اتجاه نهايتها الطبيعية، وعجّل هذه النهاية ترامي أطرافها التي صارت عبئاً كبيراً على جسد الأمبراطورية. وكانت بقايا الأمبراطورية المُترهّلة تضع السيف جانباً في الوقت الذي استعدت القبائل الجرمانية لحمله. وبين عامي ٢٣٥ و٢٨٤ اعتلى عرش روما ٦٠ أمبراطوراً معظمهم من قادة الجيوش مما احدث اضطراباً واسعاً عظّم تفاقمه ازدياد هجمات القبائل البربرية على التخوم الشمالية للأمبراطورية. وعلى رغم نجاح أباطرة مثل ديوكليتان (٢٤٨-٣٠٥) في تثبيت دعائم الأمبراطورية، إلا أن هذا النجاح كان في الجملة محدوداً ومؤقتاً استأنفت الأمبراطورية بعده تقهقرها. وعندما نقل الامبراطور قسطنطين (٣٠٧-٣٣٧) عاصمة الأمبراطورية إلى بيزنطيوم (بيزنطة) عام ٣٣٠ واختار لها اسم «قسطنطينوبل» (القسطنطينية) تيمّناً بنفسه، لم يكن يفكّر في شطر الأمبراطورية الرومانية إلا أن هذا ما حدث بالضبط. وبعد وفاة الامبراطور ثيوديسيوس عام ٣٩٥ ترنّح الشطر الغربي من الأمبراطورية نحو قرن من الزمن ثم هوى تحت أقدام التاريخ واضمحل. وورث الشطر الشرقي قسماً مهماً من ممالك الأمبراطورية الأمّ فنما كياناً حضارياً وفكرياً وعسكرياً غربيّاً في روح وديانة شرقيتين. وبسط هذا الشطر نفوذه على العالم القديم حتى خرج إليه العرب من شبه الجزيرة العربية واحتلوا معظم ممالكه، ثم جاء العثمانيون من بعدهم فسددوا ضربة قصمت ظهر بيزنطة باحتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣، وطوى المشارقة الأتراك بذلك دفتر التاريخ مرة أخرى على صفحة أمبراطورية أوروبيّة هائلة كانت طوّت صفحة المشارقة القرطاجيين قبل ذلك بنحو ١٦٠٠ سنة.

القوط الغربيون

استهزأ الرومان بكلام القبائل الجرمانية ولم يفهموا لغاتها فقالوا إنها مثل ثغاء الغنم أي «baa, baa»، ومنها جاءت كلمة «برابرة» التي أصبحت تعني لاحقاً المتوحشين. وأطلق الرومان صفة «البرابرة» على سائر الأقوام التي كانت تعيش خلف الحدود الطبيعية التي يشكلها نهرا الراين والدانوب شاملين بذلك الجرمان المتفرعين من أرومة ضمّت القوط والوندال والفرانك (الفرنجة) والانغلز والسكسون وغيرهم. وحاولت هذه القبائل التوغل في أراضي الأمبراطورية الرومانية بحثاً عن المناخ الأفضل والفرصة المناسبة للاتجار والربح مرة بعد أخرى لكن الجيوش الرومانية كانت تصدها مرة بعد

أخرى. واستمر هذا الوضع حتى نهاية القرن الثاني الميلادي ثم بدأ ينقلب بسرعة. فخلال تلك الفترة امتصّت ممالك روما الشاسعة جنودها فلجأت إلى توظيف المرتزقة من القبائل الجرمانية لحماية حدودها الشمالية من القبائل الأخرى. واستمر التوازن لصالح روما لأنها كانت قادرة على سحب جيوشها من أماكن أخرى وتسييرها لصد هجمات القبائل الجرمانية إذا استفحل شرّها، لكن الوضع تغير بعد ذلك فبدأت الأخطار تتهدد الأمبراطورية الرومانية في الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي من مصدر لم يكن أحد يتوقعه آنذاك.

ومن غريب هذه الحقبة العاصفة من تاريخ أوروبة أن القبائل الجرمانية غزت أراضي الأمبراطورية الرومانية مُجبرة في عملية تشبه التوغل التراجعي لأنها نفسها كانت تتقهقر أمام قبائل يأجوج ومأجوج الآسيوية الغازية. وما حدث في نهاية القرن الرابع حدث قبل ذلك بقرنين إذ هاجت منطقة وسط أوروبة وشمالها بأهلها وندر الطعام وقلّت المراعي فاندفعوا غرباً وجنوباً، ثم هجرت القبائل الآسيوية سهوبها الشاسعة وتقدمت في أوروبة بحثاً عن المراعي الجديدة فأخفقت القبائل الجرمانية في صدّها واضطربت أحوالها والتجأ قسم منها إلى الجنوب. وفي عام ٣٧٦ سمحت الأمبراطورية الرومانية لنحو ٨٠ ألفاً من القوط بعبور نهر الدانوب والاحتماء في أراضي الأمبراطورية. لكن العبور لم يتوقف بعد ذلك، ووجد البرابرة الجرمان أنفسهم يتحوّلون من حماة إلى غزاة. ومع الزمن اكتشفت القبائل الجرمانية ضعف الأمبراطورية الرومانية فوراء الحاميات الضعيفة في الشمال كان الطريق مفتوحاً إلى روما وهذا ما فعله أحد زعماء القوط (الاريك) عام ٤١٠ عندما قاد رجاله ونهبها. وبعد عام ٤٥٥ هاجمت قبائل الوندال روما وأمضت أسبوعين كاملين تنهب وتحرق وتدمّر.[١] ويبدو أنه لم يبق في روما بعد ذلك إلا روما فدخلها الزعيم القوطي أدواسر غازياً عام ٤٧٦، ونحّى آخر أباطرة الأمبراطورية الرومانية الغربيّة رومولوس أوغسطولوس ونصّب نفسه ملكاً على ما بقي عامراً من البلاد.

وانتشر في شبه جزيرة آيبرية خليط من الأقوام والقبائل التي تعاقبت على المنطقة على مر العصور مثل اللغرانيين، الذين جاؤوا إليها من شمال إيطاليا، والكلتيين الذين

---

[١] لم يخلّف الوندال وراءهم حضارة ولا عمارة مهمة شأنهم شأن معظم القبائل الجرمانية التي امتهنت الحرب والنهب. غير ان اسم الوندال محفوظ في كلمتين: الأولى «فاندالزم» Vandalism التي تعني في اللغات الأوروبية التخريب المتعمّد للمتلكات وتحديداً العامة منها، جزاء نهب روما، والثانية هي «الأندلس». والظاهر أن العرب نقلوا الاسم عن أهل شمال أفريقية الذين عرفوا الوندال مستوطنين لجنوب شبه جزيرة آيبرية ثم في تونس.

قدموا من غالة (فرنسا) في القرن السادس ق. م. وخلّفت هذه الأقوام والقبائل تأثيرات ضعيفة في تاريخ شبه الجزيرة مثلها في ذلك مثل قبائل الفرانك والسوفي (الصوابيين) التي غزت البلاد بين عامي ٢٦٤ و٢٧٦ م قبل أن تستوطنها السوفي اعتباراً من عام ٤٠٩. إلا أن الصراع الأهم في ما يخص تاريخ شبه جزيرة آيبرية نشب بين البرابرة الوندال والقوط. في البداية طردت قبائل القوط الوندال من مواطنها الأصلية في بولندا الحالية فالتجأت إلى سلوفاكيا ثم عبرت حدود نهر الراين مع قبائل أخرى عام ٤٠٦ واستقرت في غالة فترة قصيرة اجتازت بعدها جبال البيرينيه عام ٤٠٩ وغزت شبه جزيرة آيبرية فاقتلعت القبائل الأخرى وحلّت محلها. ولحق القوط بالوندال واقتلعوهم بدورهم فعبروا إلى تونس وأسسوا عام ٤٢٩ مملكة مهمة علا مجدها في عهد غزريش (٤٢٨–٤٧٧) فاكتسحت روما عام ٤٥٥. واستمر وجود مملكة الوندال حتى عام ٥٣٤ عندما محقها الأمبراطور البيزنطي يوستينيان (أو جوستنيان) الذي حكم بين ٥٢٧ و٥٦٥.[١]

أما قبائل القوط فخرجت من مواطنها الأصلية في بولندا الحالية في نحو منتصف القرن الثاني الميلادي سالكة اتجاهين: الأول نحو المنطقة التي تقع جنوب اوكرانيا الحالية، والثاني في اتجاه داسيا (رومانيا). وبسط قوطيو الإتجاه الأول سلطانهم على الاراضي التي استوطنوها حتى غزاهم التتار عام ٣٧٥ فاحتموا بالأمبراطورية الرومانية. ولم يكن حظ قوطيي الإتجاه الثاني أفضل بكثير إذ هزمهم التتار عام ٣٧٦ وأخرجوهم من داسيا فسمح الرومان لقسم منهم استيطان المناطق الشمالية من أراضي الأمبراطورية الرومانية. وعانى هؤلاء من قلة الأقوات فثاروا فسيّر الرومان إليهم جيشاً لكسر عصيانهم فهزمته القبائل في معركة أدريانوبل عام ٣٧٨. وعُرف قوطيو الاتجاه الأول باسم «القوط الشرقيين» الذين استفادوا من انحلال الأمبراطورية الرومانية، وأسسوا مملكة عمّرت نحو ٦٠ عاماً قبل أن يتصدى لها الامبراطور البيزنطي يوستينيان ويُلحقها عام ٥٥٣ بمملكة الوندال. وتنقّل القوط الغربيون في المناطق الجنوبية من أوروبة حتى تزعمهم فاليا فأسس عام ٤١٩ أول مملكة قوطية غربيّة في تولوز الحالية (كانت وقتها تُعرف باسم تولوزه ومنها الإسم العربي طلوزة)، بعدما أقطعهم الرومان ثلثي اكيتانيا (غربي فرنسا). ودام سلطان القوط حتى عام ٥٠٧ عندما كسرهم كلوفيس، زعيم قبائل الفرانك، وأجبرهم على النزوح خلف البيرينيه والإلتجاء إلى أبناء عمومتهم من القوط الغربيين الذين كانوا يعيشون في آيبرية. وأقام

[١] من أوصاف الأمبراطور قيصر فلافيوس يوستينيان الرسمية الآتي: قاهر قبائل الألماني، القوط، الفرانك، الجرمان، الأنتي، الآلاني، الوندال، الأفارقة، الورع، الغني، المشهور، المنصور الخ.

كلوفيس مملكة هائلة حدها الأول المناطق الواقعة شرق نهر الراين وحدها الثاني سفوح جبال البيرينيه.[1]

المملكة القوطية في طليطلة

تجنّب الشطر الشرقي من الأمبراطورية الرومانية مصير صنوه الغربي ونهض بقوة فسحق المملكة القوطية الشرقية في إيطاليا عام ٥٣٥، واحتل جنوب شبه جزيرة آيبرية في العام الذي تلاه بعد هزيمة منكرة الحقها بالقوط الغربيين. وضمّت بيزنطة إلى هذين الانتصارين انجازاً مهماً حققته قبل ذلك بتسعة عشر عاماً عندما دمرت مملكة الوندال في الشمال الافريقي، وبدأت أساطيلها الهائلة تجوب مياه البحر الابيض المتوسط بلا منازع حقيقي. إلا أن انتصارات بيزنطة، على اهميتها، لم تقصم ظهر القبائل الجرمانية التي كانت تتقوّى بمدد بشري لا ينضب وظّفته لإعادة بناء ممالكها. وتبعت هذه المرحلة العاصفة فترة استقرار نسبيّة، وبدأ الغبار الذي أثارته القبائل الجرمانية ينجلي مخلّفاً مرحلة جديدة من التوازن، ويرسي الأرضية التي قامت عليها الدول الأوروبية في لاحق العصور.

في شبه جزيرة آيبرية هزم القوط الغربيون قبائل الوندال وعلا نجمهم تحت زعامة أوريش (٤٦٦-٤٨٤) لكن المملكة القوطية الغربيّة لم تأخذ شكلها النهائي إلا بعد مقتل آلاريش الثاني (٤٨٤-٥٠٧)، لذا يعتبر بعض المؤرخين العام ٥٠٧ بداية عهد المملكة القوطية الغربيّة. وربما كان ليوفغليد (٥٦٨-٥٨٦) أبرز ملوك القوط في تلك الفترة إذ انطلق من عاصمته الجديدة في طليطلة، وهاجم قوات بيزنطة في الجنوب فأجبرها على الانسحاب من شبه الجزيرة والالتجاء إلى سبتة عبر المضيق. وفي عام ٥٧٥ تمكن ليوفغليد من تحطيم المملكة التي أقامتها قبائل السوفي في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة، واستقرت المملكة القوطية الغربيّة على الوضع الذي كان قائما يوم الفتح. وسيطر القوط على أراضي شبه الجزيرة لكنهم لم يسيطروا على السكان الأصليين. وتكمن أسباب عدّة وراء هذا الوضع أحدها ديني إذ كان القوط يدينون بالنصرانية على المذهب الآريوسي (نسبة إلى الكاهن الإسكندراني آريوس)، فيما دانت غالبية السكان الأصليين بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي، بالتعاليم والمفاهيم التي كانت سائدة آنذاك. وتطور الخلاف بين الحاكم والمحكوم إلى قلاقل واضطرابات

---

[1] أنظر موجزاً لتاريخ هذه القبائل في: Fisher, H.A.L, *A History of Europe*, Vol. 1, Fontana, (Great Britain 1979) pp 120-138

استمرت حتى قرر المحفل الديني الثالث عام ٥٨٩ اعتماد الكاثوليكية مذهباً لسائر سكان المملكة فتكثلك الملك ريكهارد الأول (٥٨٦-٦٠١)، وانطوى بذلك الخلاف القائم بين السلطة والكنيسة فتقوّى الطرفان ببعضهما وازداد نفوذهما.

ويوم إعلان طليطلة العاصمة كان القوط يعدّون بين ٨٠ ألفاً و١٠٠ ألف نبيل ومحارب لذا كانوا قلّة ضئيلة قياساً إلى السكان الأصليين الذين زاد عددهم آنذاك على ثلاثة ملايين نسمة. ويبدو أن جماعات من القوط استوطنت وديان نهر دويرة وعملت في الفلاحة لكن جلّ القوط كانوا من سادة الحرب والمقاتلين الذين ترفّعوا عن التعامل مع سكان أصليين كانوا خليطاً من الآيبريين[1] والكلتيين والمنحدرين من الأقوام والدول التي حكمت شبه الجزيرة في سابق عهدها واستوطنت عموماً المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد.

وعلاوة على المشاكل الدينية والاقتصادية والاجتماعية القائمة بين الحكّام والمحكومين برزت مشاكل أخرى بين الحكّام أنفسهم تركزت في صورة أساسية في نظام الملك والخلافة. ووصل النزاع على السلطة إلى منعطف خطير في حالات عدة فاجتمع النبلاء عام ٦٢٣ واتفقوا على اختيار الملك انتخاباً. والتزم النبلاء الاتفاق دهراً لكن الطبيعة القبلية غلبت على سلوكهم آخر الأمر فنشبت أزمة داخلية حادة كان لها أثر حاسم في تسهيل احتلال شبه الجزيرة وتقويض الحكم القوطي. وسبب ذلك اعتلاء فيتيسيا (غيطشة في التاريخ الأندلسي) عرش أبيه إيخيكا متجاهلاً مبدأ الانتخاب المُتفق عليه مما أثار نقمة النبلاء ورجال الكنيسة. وحاول غيطشة تكرار ظروف اعتلائه السلطة حين اختار ابنه أقيلة (وقلة) خلفاً لكن النبلاء كانوا على استعداد هذه المرة فما أن مات غيطشة في نهاية عام ٧٠٨ أو بداية العام بعده حتى أعلنت جماعة من النبلاء العصيان وقامت على الملك الصبي الجديد. وخرج آخرون عن سلطة طليطلة ونصّبوا دوق قرطبة رودريك (لذريق) ملكاً على البلاد. وتصدى رودريك لخصومه فأخضعهم بالسيف أو استمالهم بالإقطاعات والرشوة والوعود، وبدا الوضع مستتباً والمستقبل واعداً إلى أن نزل طارق بن زياد الجزيرة الخضراء ولما يستقم حكم رودريك أربع سنوات.

---

[1] استوطن الآيبريون منطقة الأندلس الصغرى قبل الانتشار الى وسط البلاد وشمالها. ويعتقد البعض أن أصل القبائل الآيبريه من شمال افريقيا، وان سكان اقليم الباسك انحدروا من تلك القبائل نظرا إلى تماثل اشتقاقات كلمات كثيرة في لغة سكان الباسك وبعض اللهجات البربرية. ويعزز تصور هؤلاء تماثل فصائل الدم بين الباسك والبربر. انظر الاشارة التي ترد دون اسناد في:

Spain, (The Mainland), Ian Robertson Ed., Benn, London, p 5.

٢ - فتح الاندلس

حتّم ضمان حماية المغرب واستقراره الامتداد إلى آيبرية لمنع عبور القبائل الجرمانية إلى شمال أفريقية، كما حدث في العصور السابقة. وباحتلال آيبرية توافرت حدود طبيعية حاجزة هي سلسلة جبال البيرينيه شمالاً والمحيط الاطلسي (البحر الكبير أو بحر الظلمات) غرباً، والصحراء الكبرى جنوباً. وكان فتح شمال أفريقية من أعسر أعمال الفتح الإسلامية إذ كلف الكثير من الدماء والمال والجهد واستمر نحو ٧٠ سنة قبل ان يتمكن موسى بن نصير من إخضاع القبائل البربرية سنة ٩٠ هـ (٧٠٩). وأخذ فتح الشمال الأفريقي صورة موج البحر فتعاقبت الحملة تلو الاخرى إلى حين استكماله، ولم يبق في المغرب كله سوى مدينة سبتة. وكانت هذه المدينة الحصينة تابعة آنذاك لبيزنطة يأتمر بأمرها يوليان (جوليان) الذي عرفه العرب باسم يليان أو الليّان. واستعصت المدينة على الفاتحين لأنّ السبيل الوحيد لاقتحامها جهة البحر ولم تكن السفن الكافية لهذه الحملة متوافرة آنذاك. وشاءت الظروف، حسب بعض الروايات العربية، أن يقدم يوليان حلين لمشكلتين صعبتين دفعة واحدة: الأول مهادنة الفاتحين وبالتالي تجنيبهم إضاعة وقت ثمين في فتح المدينة، والثاني تقديم السفن التي عبرت عليها القوات العربية إلى شبه جزيرة آيبرية لاتمام تثبيت الخطوط الدفاعية الجغرافية والوصول إلى البيرينيه التي كانت السد الطبيعي لحجز قبائل «يأجوج ومأجوج» الجرمانية البربرية عن البلاد الإسلامية.

وفي التاريخ روايات عدّة تحاول تفسير موقف يوليان إحداها نقمته على رودريك لأنه فضّ بكارة ابنته فلوريندا[١]، والثانية تأييده لمعارضي وجود رودريك على رأس المملكة في طليطلة. ومهما كان سبب، أو أسباب، هذا الموقف لا بدّ أن نقمة يوليان على رودريك كانت قوية كي يساعد المسلمين على مسيحيين مثله حتى لو كانوا ينتمون، رسمياً على الأقل، إلى الكاثوليكية وليس إلى الكنيسة الشرقية التي كان أحد

---

[١] لا نعرف إن كانت هذه القصة وقعت فعلاً، ولا نعرف لماذا يرسل يوليان ابنته إلى عدوه، لكنها باتت جزءاً من التراث الإسباني فيقال إن رودريك رأى ابنة يوليان وهي تستحم في النهر قرب ساحة الكاميرون عند بقايا رأس جسر قديم غربي طليطلة فملكها اغتصاباً. والظاهر أن القصة الإسبانية مأخوذة من كتاب «أخبار مجموعة» التي يقول مؤلفها: «فلما ولي رذريق (رودريك) اعجبته ابنة يليان فوثب عليها فكتب إلى أبيها ان الملك وقع بها فاحفظ العلج ذلك وقال ودين المسيح لأزيلن ملكه ولأحفرن تحت قدميه فبعث إلى موسى (بن نصير) بالطاعة واقبل به فأدخله المداين بعد ان اعتقد لنفسه ولاصحابه عهداً رضيه واطمأن إليه». «أخبار مجموعة»، لمؤلف مجهول، من منشورات «دار اسامة» وهي صورة عن النسخة المطبوعة في مدريد عام ١٨٦٧، ص ٥.

رعيّتها. وربما كان ثمن هذه المساعدة ضمان سلطته وأملاكه لكن لا يمكن أيضاً استبعاد احتمال اعتقاد يوليان أن الغزو يمكن أن ينتهي بهزيمة العرب فيخلص منهم من ناحية وتُضعف قوة رودريك ورهطه من ناحية ويكون بذلك ضرب شرين بحجر واحد خصوصاً بعدما انقطع مدد بيزنطة عنه.

وجاء البحث عن وسيلة للانتقال إلى الأندلس في مرحلة لاحقة سبقها تمهيد طويل لفتح الأندلس. ففي عام ٧١٠ (رمضان ٩١ هـ) عبر طريف بن مالك النخعي الزقاق (مضيق طارق في ما بعد) على رأس ٥٠٠ مقاتل وتفقّد جنوب الأندلس وعاد بمعلومات شجّعت على التفكير بغزو البلاد التي أوهنتها الصراعات الداخلية على السلطة. وجاء عرض يوليان في محلّه فعهد إلى والي طنجة طارق بن زياد قيادة جيش من سبعة آلاف محارب والانتقال إلى الأندلس، ثم تبعه طريف على رأس خمسة آلاف مقاتل.

وفيما كان رودريك في قصره بطليطلة جاءه رسول يبلغه بنزول جيش طارق «فسار إليه متعجلاً رده»[1]، ودارت بين الجهتين معركة شرسة استمرت ثمانية أيام تحقق لجيش طارق بعدها النصر، ومني القوط بهزيمة ماحقة وانتهى ملكهم رودريك قتلاً أو غرقاً. ولم يتمكن القوط الغربيون بعدها من الصمود فخلف الجنود المهزومين كان الطريق مفتوحاً لجنود طارق ومن بعده لموسى بن نصير حتى أقصى الشمال من دون مقاومة حقيقية من النبلاء أو رجال الكنيسة، ومن دون أي مقاومة مروية من جانب السكان المحليين. بل أن بعض الوقائع يشير إلى حدوث عكس ذلك لأسباب سنسوقها في مكانها.

ويوم وقعت الهزيمة بآخر ملوك القوط الغربيين (لم يكن أصلاً من بيت الملك) في معركة وادي البرباط المعروفة أيضاً باسم معركة الوادي (أيضاً وادي بكة ولكة)، كان القوط أمضوا في شبه جزيرة آيبرية أكثر من ٢٥٠ سنة وانقضت على قيام مملكتهم ٢٠٤ سنوات لكنهم لم يضيفوا الكثير إلى ما بنته الأمبراطورية الرومانية، بل عانت البلاد في

---

[1] مثل هذه الإشارات كثيرة في كتب التاريخ الإسباني ولا نعرف سبباً مفيداً لها سوى إعطاء الانطباع بأن رودريك لم يستطع حشد قواته في الوقت المناسب، لذا لم يكن الانتصار عظيماً أو عادلاً لأن الخصم لم يكن مستعداً للمعركة تماماً. وإذا كانت وقائع الحملة التي تتوافر لنا من مصادرها العربية صحيحة، أو حتى قريبة من الصحة بشوط معقول، فإن الوقت الذي اتيح لرودريك كان كافياً جداً إذ وافق نزول طارق الأندلس يوم ٢٨ نيسان عام ٧١١ لكن المعركة لم تنشب إلا في ١٩ تموز، أي بعد ٤٩ يوماً من رسو السفن التي حملته وجنده لذا لا يمكن الحديث هنا عن «مباغتة» أو اكتساح سريع من أي نوع. يُضاف إلى ذلك أن المعركة استمرت ثمانية أيام مما يمكن أن يعني أن الخصمين كانا متعادلين في البداية إلا أن الغلبة بعدها كانت لمن أتقن فنون القتال وتجلد وملك الروح المعنوية العالية.

عـهدهم من الانحطاط الذي سـاد معظـم المناطق التي حلّت فيـهـا القبـائل الجـرمانيـة البربرية الأخرى لأنها لم تكن وضعت السيف جانباً بعد، ولم تكن تعلمت كيف تبني الحضارات وتستميل العامة وتحق الحق وتبطل الباطل. وإذا كان المرء سيسأل عن سبب عجز القوط عن ترك تأثير دائم في شبه جزيرة آيبرية فلعل المرء يريد أن يسأل أيضاً عن التأثير الدائم الذي تركه التتار في أوروبة، أو عن التأثير الدائم الذي تركه العثمانيون في الوطن العربي مع أن حكمهم دام ضعفي حكم القوط في الأندلس.

وفي عهد الملك القوطي أوريش سُن أول قانون جرماني في شبه جزيرة آيبرية لكنه كان بعيداً عن إنصاف السكان الاصليين. وشهد العام ٦٥٤ محاولة مماثلة عندما أقر الملك ريكسفنت (٦٤٩-٦٧٢) قانونا جديداً حاول تطبيقه على القوط والسكان المحليين من الرومان الآيبريين فاستفادت منه الأقلية القوطية وأصبحت الاغلبية أشد بؤسا من ذي قبل. وهكذا بقيت غالبية السكان خاضعة بالقوة لملوك طليطلة ونبلاء القوط ورجال الكنيسة المستفيدين من الفئتين، ولم تكن لهذه الغالبية مصلحة أو فائدة في الوقوف أمام الفاتحين فالقوط الذين حملوا السيف كانوا الوحيدين الذين هزموا بعدما خمدت جذوة فورتهم التي جعلتهم فوة هائلة ساهمت في تقويض الامبراطورية الرومانية.

ومع التسليم بصحة بعض الأسباب التي ساقها مؤرخو التاريخ الإسباني لتفسير سبب انهيار مملكة القوط بهذه السرعة الملفتة، إلا أن التوقف عندها يحرم الفاتحين حقاً من أهم حقوقهم التاريخية والمعنوية. وفي الوقت الذي اجتاحت فيه قوات الفتح الأندلس كانت قوات أخرى تفتح الطرف الآخر من العالم القديم لذا كانت الجيوش الإسلامية في نهاية القرن السابع الميلادي ومطلع القرن الثامن آلة من أعتى آلات الحرب التي عرفها العالم حتى ذلك الوقت وأمهرها وأسرعها تحركاً ومناورة على الإطلاق.

وطبعاً كانت هناك أيضاً الغنائم والعذارى والسلطة وغيرها من الحوافز التي سيّرت الجيوش في كل مكان، لكن جيوش الفاتحين في آسيا وفي المغرب الأقصى لم تكن جيوشاً يحرّكها الجوع والنهب اللذان كانا المحرّكين الرئيسين للقبائل الجرمانية قبل قرنين من ذلك، فهي جاءت المنطقة مدفوعة بزخم كامن وعقيدة كانوا يؤمنون بها ويريدون نشرها. واعتمد العرب اعتماداً حاسماً على البربر في فتح الأندلس إذ معروف أن طارق قاد جيشاً ضمّ عدداً كبيراً من قبائل غمارة الجبليين. وأسهم البربر في خراب قرطبة لكنهم أسهموا إسهاماً كبيراً في الدفاع عن الأندلس ومواجهة الإسبان

بعد سقوط غرناطة وأبدوا بطولة خارقة في الثورتين الأندلسيتين الأولى والثانية أو الكبرى. [1]

وبعد هزيمة وادي برباط لم يتمكّن القوط من إعادة تجميع قواتهم لذا لم يكن تقدم الفاتحين عسيراً. إلا أن الأندلس دولة شاسعة متشعبة الطرق ربما ضمّت آنذاك أكثر من أربعة ملايين نسمة. ولم يكن في وسع طارق وطريف تأمينها كلها فعبر موسى بن نصير العدوة عام ٧١٢ (رمضان ٩٣هـ) على رأس ١٨ ألف مقاتل واتجهت الجيوش في محاور عدّة شرقاً وغرباً وشمالاً. وعلى الرغم من أن مدناً كثيرة فتحت بواباتها للجيش الفاتح إلا أن إخضاع الأندلس استغرق أربع سنوات. وأمام عزم الجيش الفاتح البقاء في الأندلس قبل معظم الأعيان ورجال الكنيسة بالسلطة الجديدة وبقوا حيث أقاموا. لكن البعض آثر الفرار، والتجأ إلى المناطق الجبلية الوعرة في أقصى شمال البلاد وقدّر لواحد منهم تنظيم العصيان الأول.

٣ – قيام الممالك الشمالية

يتكون خمسا شبه الجزيرة الآيبرية من هضبة مرتفعة تشطرها سلسلة من الجبال التي تشمل جبال وادي الرملة وابلة في الوسط، وجبال غريدو وغاته التي تعتبر استمراراً للجبال الآيبرية في الغرب. وترتفع جنوب البلاد سلسلة أخرى من الجبال على امتداد

[1] نقل التاريخ العربي عن طارق بن زياد خطبة لعلها من أشهر خطب الحرب في التراث العربي. وأريد أن أتوقف قليلاً للتفكير بصوت مرتفع بخطبة طارق بن زياد لكنني لن أتطرق إلى قدرته على القاء خطبة عصماء بعربية عصماء ففي هذا التشكيك إهانة شخصية لا يستحقها هذا القائد الذي حقق انتصاراً حاسماً في معركة من أهم المعارك التي عرفها التاريخ. والمسألة الأهم التي طرحها كثيرون في الماضي ولا شك سيطرحها آخرون في المستقبل تتعلق بإحراق السفن التي حملت طارقاً وجنده إلى الأندلس لأن هذا يعني أن موسى بن نصير كان مستعداً حتى قبل بدء الحملة للتضحية بنحو ١٢ ألف مقاتل لأن إحراق السفن كان سيقطع خط الرجعة على جنوده. ولا يؤيد التاريخ الأندلسي مثل هذا التصّور إذ معروف أن الوليد بن عبد الملك الخليفة تردد في فتح الأندلس خوفاً من وقوع الجند في التهلكة من دون التمكن من نجدتهم في الوقت المناسب. ونفترض مما وصلنا أن يوليان وضع تحت تصرف طارق كل السفن التي قدر على جمعها وربما تطلب نقل الجنود القيام برحلات عدّة. ونعرف من التاريخ أن طارقاً عبر الزقاق في ٢٨ نيسان (أبريل) سنة ٧١١ لكننا لا نعرف متى لحقه طريف بن مالك النخعي على رأس خمسة آلاف مقاتل والأرجح أن ذلك حدث قبل المواجهة بوقت، فمن أين جاء طريف بالسفن لنقله عبر العدوة إذا كان طارق أحرقها فعلاً؟ ومن أين جاء موسى بن نصير بالسفن لنقل ١٨ ألف مقاتل بعد عام من انتصار طارق وطريف؟ ثم أن السفن لم تكن ملك طارق بل ملك يوليان فكيف يحرقها؟ أما كان يستطيع أن يأمر فقط بعودتها إلى العدوة لأن النتيجة واحدة؟ وربما كانت الحقيقة خليطاً من كل ما وردنا فاستخدم الفاتحون بعض سفن يوليان وسفناً من تونس والإسكندرية، وربما أحرق طارق عدداً صغيراً من السفن لزرع البأس والاستماتة في نفوس جنده.

يزيد طوله على ٥٦٣ كيلومتراً هي جبال بيتك كورديليره. ومن أهم معالمها جبال نيفادا التي عرفها العرب باسم جبال شلير أو جبل الثلج بقمة يصل ارتفاعها إلى ١١٤٢٠ قدماً، وبذلك تكون أعلى قمة في إسبانيا التي هي ثاني دولة أوروبية جبلية بعد سويسرا. وفي القسم الجنوبي من الهضبة الإسبانية مجموعة أخرى من الجبال يفصل بينها الوادي الكبير. ويعبر القسم الجنوبي من الهضبة عدد من الأنهر أهمها نهرا تاجه ووادي آنه اللذان يتدفقان غرباً، وتفصلهما عن بعضهما سلاسل جبلية منها جبال طليطلة وجبال وادي لب. وفي أقصى الشمال تشكل سلسلة جبال البيرينيه (البرت أو البرتات) الهائلة حدوداً طبيعية بين آيبرية وأوروبة تمتد ٣٨٦ كيلومتراً في اتجاه شرقي غربي. وتنقطع هذه السلسلة ثم تتواصل بسلاسل أخرى من الجبال الغربيّة المطلة على المحيط الاطلسي منها سلسلة جبال قمم أوروبة وقنتبرية. ويُعرف القسم الشمالي الشرقي من الهضبة باسم وادي نهر دويرة وهو يضم جزءاً كبيراً من قشتالة القديمة وليون، في حين تُعرف الهضبة الجنوبية باسم قشتالة الجديدة أو إسترامادورا.

وقدّمت وعورة الشمال على مر الزمان ملاذاً مثالياً للهاربين من وجه الغزاة الذين تعاقبوا على شبه جزيرة آيبرية. ولم يكن الوضع خلال سنوات الفتح العربي استثناءً فلجأ إلى الشمال عدد من الفارين من وجه الزحف العربي أحدهم شخص يدعى بلايو (بلي أو بلاي). وحكاية بلايو الموجودة بين أيدينا اليوم محصّلة إشارات عارضة في كتب التاريخ الأندلسي أضاف الكتّاب الإسبان المحدثون إلى عظمها القديم لحماً حديثاً كثيراً. وخلاصة هذه الحكاية أن بلايو نُفي من طليطلة أيام حكم الملك غيطشة (فيتسيا)، وعاد فأنضم إلى بلاط رودريك بعده. ولما انهزم القوط هرب بلايو إلى أسترياس (أشتورش) مع اخته فاعتقله والي مدينة جيجون الواقعة على خليج بسقاية، وبعث به رهينة إلى قرطبة طمعاً بأخته. وفرّ بلايو من قرطبة قاصداً الشمال حيث راح يحرّض الناس على العصيان وحمل السلاح ضد المسلمين دفاعاً عما بقي من أرضهم وحريمهم. وتضيف أن بلايو الذي تسميه بعض المرويات الأندلسية «ملك جليقية» نصّب نفسه زعيماً على مجموعة صغيرة من الرجال والنساء، وتمكن من إيقاع الهزيمة بجند سيّرهم حاكم مدينة جيجون لتأديبه.

ولا نعرف متى حدثت هذه الواقعة لكن هناك ما يؤكّد التجاء بلايو إلى منطقة معروفة باسم «صخرة كابدونغا» الواقعة في جبال قمم أوروبة، وشنّ غارات صغيرة على المناطق المجاورة عندما انصرف اهتمام الفاتحين إلى فتح غالة أو الأرض الكبيرة. ونمت قوة بلايو زمناً لكنّ متاعب الفاتحين في غالة حوّلت جهودهم إلى الأندلس

وتفرّغوا للقضاء على مراكز التصدّي.[1] ومن هؤلاء الوالي عقبة بن الحجاج السلولي (٧٣٤-٧٤١) الذي وجّه حملة إلى الشمال «وافتتح جليقية وبنبلونة، وأسكنها المسلمين، وعمت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة فإنه لجأ اليها ملك جليقية. وكان بها ثلاثمائة رجل فما زالوا يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً، وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه في خروق الصخرة، وأعيا المسلمين أمرهم فتركوهم وقالوا: «ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم؟»».[2] هؤلاء «العلوج»، عادوا إلى توسيع سلطتهم واجتذاب الناقمين على الوجود الإسلامي في شبه جزيرة آيبرية

---

[1] حقيقة وجود شخصية بلايو ثابتة على رغم التباين الكبير في معظم المعلومات المتوافرة عنه وعن الفترة التي رفع فيها راية العصيان ضد الفاتحين. وصموده أمام محاولات إنهاء عصيانه مؤكد أيضاً في المرويات العربية التي تحدد مكان هذا الصمود في «الصخرة» أو «صخرة بلاي». والصخرة التي يرد ذكرها في كثير من المصادر عبارة عن كهف مفتوح وسط جدار صخري مرتفع يرقى إليه الزائر عن طريق سلم، وفيه قبر بلايو وزوجته غديوسا وكذلك قبر ألفونصو الأول وزوجته أرمسندة. وقبالة الصخرة على التل المواجه لها توجد كنيسة حديثة بنيت على أنقاض كنيسة قديمة شيّدها ألفونصو. واحترقت الكنيسة سنة ١٧٧٧ ثم سنة ١٩٣٦ قبل تعميرها حديثاً. وفي كهف الصخرة كنيسة صغيرة جداً مؤلفة من غرفة صغيرة واحدة. والكهف كبير ويكاد يكون فريداً في موقعه إلا أنني زرته مرتين ولم أجده مناسباً لاستيعاب ٣٠٠ شخص لفترة طويلة كما ورد في رواية ابن عذاري. ولعل المقصود بـ«الصخرة» الصخرة والمنطقة المحيطة بها خصوصاً امتدادها إلى قرية كابدونغا. أما بقية الرواية التي تذكر ان بلايو صمد مع ٣٠ من أتباعه (بينهم عشر نساء) فيسوغها الموقع الاستراتيجي الذي يحتله الكهف إذ يتعذّر الوصول إليه لانقطاع الطريق يمين الفجوة. وتحت الصخرة بركة كبيرة يستطيع الموجود في الصخرة انتشال الماء منها بدلو مربوط بحبل. وربما وجد العصاة عسلاً في خروق الصخرة إلا أن كابدونغا تقع في منطقة جبلية مرتفعة شديدة البرودة ليس فيها بساتين ولا أزهار يجمع النحل رحيقها وربما كانت الطبيعة في بداية القرن الثامن الميلادي غير ما هي عليه الآن. وتحدد الرواية الإسبانية تاريخ عصيان بلايو بسنة ٧١٨، بينما تقول الروايات العربية أنه كان في عهد الوالي عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٣-١٠٧/ ٧٢١-٧٢٦) أو عقبة بن الحجاج السلولي. أما وفاته فيذكر انها كانت سنة ٧٥١ لكنها في الأرجح سنة ٧٣٧ على افتراض أن ألفونصو الأول أصبح ملكاً بعد وفاة بلايو بسنتين. ولكابدونغا مكانة مرموقة في إسبانيا لأنها تعتبر أول مراكز التصدي للسلطة الإسلامية والمكان الذي حقق فيه الشماليون انتصارهم المزعوم الأول، ولهذا ينظر أهل منطقة أستورياس إلى وطنهم على أنه «روح إسبانيا».

[2] «نفح الطيب»، ج ٤، ص ٣٥١. ومن الواضح أن المقري ينقل عن صاحب «أخبار مجموعة» (وهو كتاب موضوع في القرن الحادي عشر كما يبدو) الذي يقول: «... ولم تبق بجليقية قرية لم تفتتح غير الصخرة فإنه لاذ بها ملك يُقال له بلاي فدخلها (أي عقبة السلولي) في ٣٠٠ راجل فلم يزل يقاتلونه ويغاورنه حتى مات اصحابه جوعاً وترامت طائفة منهم الى الطاعة فلم يزالوا ينقصون حتى بقي في ٣٠ رجلاً ليست معهم عشر نسوة فيما يقال انما كان عيشهم بالعسل معهم جباح والنحل عندهم في خروق الصخرة واحتوزوا، وأعيا المسلمين أمرهم فتركوهم وقالوا ثلثون علجاً ما عسى أن يكون من أمرهم واحتقروهم ثم بلغ أمرهم إلى أمر عظيم سنذكره». «أخبار مجموعة»، ص ٢٨. وكُتبت رواية بلايو في صيغتها الإسبانية عام ٩١١، أي بعد ٢٠٠ سنة من وقوعها واستندت، كما يبدو، إلى مصادر عربية. أنظر: «فجر الأندلس - دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية -٧١١-٧٥٦»، الدكتور حسين مؤنس، (القاهرة ١٩٥٩)، ص ٣١٥-٣٤٣. وأنظر أيضاً: «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»، الدكتور عبدالرحمن علي الحجي. (١٩٧٦)، ص ٢٦٩-٢٧٠.

مستفيدين من مرحلة اضطراب عصفت بالأندلس، وانشغال الولاة بقمع الفتن التي عمت البلاد.

ألفونصو الأول

مات بلايو عام ٧٣٧ (١١٩) فخلفه ابنه فافيله ومات هو الآخر بعد سنتين من دون وريث فانتقلت الزعامة إلى ألفونصو زوج أخته أرمسندة. ولا نعرف مدى قوة هذا التجمع أو ربما «الدويلة» وقتها إلا أن سلطتها كانت على بقعة من «أنحس البقاع»[١] فهي نائية وعرة تعصف بها شتاءً رياح شديدة البرودة ولا تكاد تصلح إلا لرعي الماشية القليلة التي ملكتها الجماعة. ولم يكن هذا التجمّع فريداً في شمال الأندلس إذ كان هناك تجمع مسيحي في المناطق المحيطة بمدينة بمبلونة (بنبلونة الأندلسية)، وتجمعات مماثلة في قطالونيا العليا ووديان أعالي جبال البيرينيه مدّها الفرنسيون بالعون والسكان. إلا أن نصيب التطور والنمو كان للتجمع الذي ورثه عن بلايو وابنه ألفونصو المعروف في الكتب الإسبانية باسم «ألفونصو الأول» ثم بصفة «الكاثوليكي». وامتدّ عهد ألفونصو بين ٧٣٩ و٧٥٧، وقاد جماعته من بلدة كانياس دي أونيس. ويزعم بعض المؤرخين الإسبان إن هذا الملك أحيا عادات القوط وأمر بتشييد بعض الابنية الصغيرة على النمط القوطي القديم، واختط النهج الذي سار عليه الملوك في المستقبل لاستعادة ملك القوط من العرب، وإعادة طليطلة عاصمة للقوط الغربيين. ومهما يكن من أمر هذه الرواية التي جعلت أبا ألفونصو نبيلاً اسمه بدرو، إلا أن بعض الدارسين تناولها بكثير من الجد وذهب بعضهم إلى حد الزعم ان هذه الحقبة من تاريخ شبه جزيرة آيبرية كانت حقبة «القوطية الجديدة»، وأن بلايو هو الأصل الذي انحدر منه كل ملوك ليون وقشتالة في ما بعد. ولم يتحقق حلم بلايو إلا بعد ٧٧٤ سنة من موته لكن قبل أن يتحقق هذا الحلم كان على مملكته أن تنمو، وقبل أن تنمو كان عليها انتظار توافر الشروط المناسبة التي قدّمها لها الأندلسيون أنفسهم.

وفي نهاية ولاية عقبة بن الحجاج السلولي أعلن البربر الثورة في المغرب ثم في الأندلس فعمّت الفوضى والاضطراب وانشغل الناس عن الثغور. وكان البربر دخلوا مع جيش طارق بن زياد واستوطنت جماعات منهم بعض المناطق الشمالية خصوصاً الجبلية منها لتماثلها مع مواطنهم في المغرب، وكوّنت قوة عازلة مهمة وقفت في وجه أي تقدم حقيقي للشماليين. غير أن البربر شعروا بالغبن من معاملة الحكام لهم فأعملوا

[١] «مذكرات الأمير عبدالله»، تحقيق بروفنسال، دار المعارف (القاهرة)، ص ٧٣.

السيف في التجمعات العربية الموجودة في الثغور الشمالية ومزّقوها ولم تستعص عليهم سوى سرقسطة التي كانت تسكنها غالبية عربية. ولم يستقم الأمر للبربر طويلاً فدخل الجيش الشامي الأندلس وأخمد ثورة البربر بالتعاون مع البلديين الأندلسيين. وتبع هذه الخطب جدب ماحق ضرب المناطق الشمالية فرجع قسم من البربر الذين بقوا في الأندلس إلى العدوة، وانتقل آخرون فاستوطنوا مناطق أكثر خيراً. وتضافر هذان التطوران في تفريغ المنطقة العازلة بين قوات الشمال والأندلس من السكان مما سمح لألفونصو الأول بالتوسع شرقاً وغرباً وجنوباً. ويوم مات ألفونصو بعد حكم استمر ١٨ عاماً كانت مملكته تسيطر على كل منطقة أستارياس وجليقية ومدينة ليون الكبيرة، ثم خلفه ابنه فرويلة الأول فسار على نهج أبيه. وفيما كان ألفونصو الأول وابنه من بعده يحققان الانتصار بعد الآخر كانت أحوال الأندلس تسير من اضطراب إلى مثله كما تشهد بذلك مرحلة عهد الولاة التي تعاقب عليها ٢٢ والياً في ٤٢ سنة فكانت مدة حكم الولاة الواحد والعشرين الاوائل سنة ونصف السنة وسطياً. وما أن همدت ثورة البربر حتى دبّ الخلاف بين الجيش الشامي والبلديين فاضطربت الأحوال مرة أخرى واستغل الشماليون الأزمة لتوسيع سلطانهم.[1] وخلال هذه الفترة قويت شوكة الشماليين حتى أن قبائل البشكنس (الباسك) استطاعت دحر الجيش الذي أرسله

---

[1] اندلعت الثورة البربرية في مدينة طنجة فهوجمت المدينة وقتل عاملها ابن المرادي المعروف بجوره في فرض الضرائب على البربر، ثم امتدت الثورة لتشمل المغرب الأقصى فأعلن البربر الإنفصال عن الخلافة الاموية وبايعوا ميسرة خليفة لهم، وكان هذا سقاء في القيروان. واستفحل خطر هذه الثورة عندما أحرز البربر انتصاراً كبيراً على الجيش الذي تصدى لهم بقيادة خالد بن حبيب الفهري في معركة مشهورة باسم موقعة «الاشراف» لأن خالداً ورفاقه آثروا الموت على الاستسلام واندفعوا بخيولهم من فوق صخور عالية. ووصلت أنباء الثورة إلى مسامع الخليفة هشام بن عبد الملك في الشام فبعث إلى البربر جيشا من ٣٠ ألف مقاتل جله من الشام وانضم إليه في أفريقية (أي تونس) جيش المنطقة. لكن البربر هزموا الجيشين في موقعة وادي سبو سنة ٧٤٠/ ٧٤١ (١٢٣) وعاد الناجون من المشاة إلى القيروان. أما الفرسان فوجدوا قبائل البربر سدت عليهم طريق الإنسحاب فهربوا في اتجاه المغرب الاقصى حتى دخلوا سبتة. وحاصر البربر هذه المدينة الحصينة ولحقت بمن كان فيها شدّة عظيمة. ولما سمع بربر الأندلس بانتصارات أبناء عمومتهم في المغرب ثاروا وهددوا قرطبة العاصمة. وهنا وجد الوالي عبد الملك بن قطن الفهري (١١٤-١١٦ هـ) نفسه بين نارين فأختار الأقل خطراً من بينهما واستنجد مرغماً بالجيش الشامي المحاصر وبعث إليهم سفناً نقلت نحو عشرة آلاف مقاتل جلّهم حفاة عراة أشرفوا على الموت من الجوع. ولما نزل الجيش بالأندلس أمدّه البلديون بالعتاد والمؤونة حتى انتظمت أحواله فخرج بقيادة بلج بن بشر القشيري ومعه جيش الوالي ونزل على البربر نزلة غضب أسود فهزمهم في موقعة وادي سليط ثم في مواقع أخرى حتى قضى على ثورتهم، ثم نزلت ببربر الشمال الافريقي هزائم مشابهة أخمدت الثورة إلى حين. والظاهر أن الوالي كان يريد من الجيش العودة من حيث أتى بعد كسر البربر فنشب خلاف وقام الجند على الوالي فخلعوه وصلبوه فاستحث ابناؤه الناس على الجيش الشامي وجرت وقعة قرب قرطبة أصيب فيها بلج بجرح مميت، لكن الجيش الشامي خرج منتصراً. واستمر الصدام بين الشاميين والأندلسيين حتى جاء الوالي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي فأصلح بين الطرفين ووزع الجيش الشامي على كور جنوب الأندلس وشرقها. انظر القصة في: «أخبار مجموعة»، ص ٣٣ وما بعدها.

الوالي يوسف بن عبدالرحمن الفهري (٧٤٦-٧٥٦) لاخضاعها بعد استفحال أمرها. وحققت هذه القبائل بذلك واحداً من أسوأ الانتصارات في التاريخ إذ عادت شراذم الجيش الذي قاده سليمان بن شهاب إلى قرطبة فلم يستطع الوالي الفهري تسييره للقضاء على عبدالرحمن الداخل مما أتاح له الفرصة لحشد التأييد واستلام السلطة.

وهنا أيضاً اجتاحت الأندلس صراعات داخلية كان الشماليون أكبر المستفيدين منها كما لاحظ صاحب «العبر» إذ يقول: «عندما شغل المسلمون بعبدالرحمن وتمهيد أمره قوي أمر الجلالقة (أهل جليقية)، واستفحل سلطانهم، وعمد فرويلة بن اذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد، فأخرج المسلمين منها، وملكها من أيديهم، فملك مدينة لك وبرتقال وسمورة وشلمنقة وقشتالة وشقوبية».[1] وحكم فرويلة ١٨ سنة بين ٧٥٧ و٧٧٥ فتوغل في الأندلس جنوباً وشرقاً وفتح مدائن كثيرة. ومن بين أعمال هذا الملك بناء حصن أوفيدو (أوبيط) للدفاع عن ممر بخارس عام ٧٥٧، وهو الحصن الذي تحول إلى عاصمة ملوك أسترياس في ما بعد. وتابع فرويلة استعداء الأندلس إلى أن تفرّغ له عبدالرحمن فسيّر الحملات ضده وأنزل به هزائم عدّة واستعاد بعض المناطق التي كان استولى عليها. إلا أن عبدالرحمن الداهية وجد طريقة أسهل فبدأ يطبّق على أسترياس سياسة تقويض العصيان من الداخل مستغلاً رغبة بعض زعماء الشمال في السلم ونقمة آخرين على جور فرويلة. وأثمر هذا الجهد باغتيال فرويلة عام ٧٧٥ وحلول سنوات من الهدوء خضع الشمال خلالها لإرادة عبدالرحمن يدفع له الجزية وفوقها ١٠٠ عذراء.[2] واستمر هذا الهدوء نحو ١٥ سنة حتى جاء الملك برمودة فخرج على قرطبة لكنه كان ملكاً ضعيفاً بلا خبرة تُذكر أمضى معظم سنوات حياته منعزلاً في دير فنزلت بقوات أسترياس في عهده خسائر فادحة فقام عليه أهل البلاط عام ٧٩١ وخلعوه وبدأت مرحلة جديدة من الصراع مع قرطبة.

أوبيط وسنتياغو

يعود استمرار دويلة ألفونصو الأول ومن خلَفَه إلى ضآلة أهميتها بالنسبة للمجتمع الأندلسي الذي ازداد مع الأيام نمواً على رغم المشاكل الكثيرة التي واجهته. والأندلسي الناظر في تلك الأيام إلى الشمال كان سيرى قوات الشمال جماعات من

[1] «العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر». ابن خلدون، (بيروت ١٩٦٨)، ج ٤، ص ٣٨٦.

[2] «دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها»، الدكتور أحمد بدر، ص ١٠٠.

الجند تغذيهم دوافع مختلفة لحمل السلاح ارتزاقاً واغتنام الفرص وأخذ ما يمكن أخذه من الأراضي والمؤن والمال والسبايا والإنسحاب سريعاً إلى أمان مناطقه الجبلية، لكنّه لم يكن جيش منظماً ولم يكن يستطيع الصمود في مواجهة تقليدية أو طويلة. أما إدارة الشمال فلم تكن تستطيع أن تقدم الأرضية اللازمة لبناء أي دولة حقيقية تستطيع الصمود أمام قرطبة. وتغير هذا الوضع مع الزمن. ومن تحت النكسات التي لحقت بالشماليين في عهد حاكم قوي مثل عبدالرحمن الداخل، كانت قوى الشمال تعود إلى رص الصفوف وتهديد التجمعات الأندلسية القريبة من مناطق نفوذها. وفي هذه المرحلة المتقدمة من تاريخ الممالك الشمالية برز ألفونصو الثاني (٧٤٣-٧٩١) الذي يرد وصفه في المراجع الإسبانية بـ«الطاهر». ولابد أن ثقة هذا الملك بنفسه كانت كبيرة جداً أو ان انشغال أمير قرطبة بقمع الانتفاضات الداخلية ضده كان كاملاً، لأن ألفونصو زحف بجنوده عبر نهر دويرة الذي يصب في المحيط الاطلسي، وتابع سيره نحو الجنوب فاحتل لشبونة (اشبونة) عام ٧٩٨ (١٨٢) بل استطاع التمسك بها ١١ سنة قبل ان يتمكن الأندلسيون من انتزاعها منه. ولا بد أيضاً أن الأوضاع استتبت لألفونصو الثاني جيداً فنقل محل اقامته الرسمي عام ٨١٠ (١٩٤) من سنت يانس القريبة من برافيا على خليج بسقاية، إلى مدينة أوبيط التي تبعد نحو ٤٠ كيلومتراً عن الساحل.

ويذكر التاريخ الإسباني لألفونصو الثاني دوره الكبير في إرساء دعائم مملكته في أوبيط، إلا أن له دوراً آخر لا يقل عنه أهمية إن لم يتجاوزه. فبعد سنتين من إعلان أوبيط عاصمة لمملكته، جعلها مقراً للكرسي الأسقفي وجمع فيها كل ما كان يُعتقد أن للقديسين علاقة به، حتى حملت العاصمة وصف «المقدّسة» el santo. وفي عام ٨١٣ بدأت الكنيسة تشيع بين الناس أنها عثرت على رفاة القديس يعقوب، فسارع ألفونصو إلى بناء كنيسة كرّسها للقديس تحولت في ما بعد إلى مدينة سنتياغو (شنت ياقب أو شنت يعقوب)، وأصبحت محجاً لنصارى شبه جزيرة آيبرية وغيرهم من نصارى أوروبة.

وهكذا وفر ألفونصو الثاني لاتباعه عاصمة جديدة وقديساً مشهوراً يحميهم في غزواتهم ويشد أزرهم وقادهم في معارك خرج منها ظافراً قوياً. ولم تكلل كل معاركه بالنصر فحاقت به هزائم منكرة كثيرة، لكنه ترك يوم موته مملكة شملت مناطق استرياس وجليقية، وشمال الدولة التي نعرفها اليوم باسم البرتغال، بالإضافة إلى سنتندير الواقعة على خليج بسقاية وبعض الاراضي المحيطة بمدينة برغش. وإضافة إلى كل ما تقدم، وضع هذا الملك القدير الأسس الادارية والدينية التي قامت عليها

مملكة ليون حتى أنّه سمّى نفسه ملك ليون مع أن المملكة التي عُرفت بهذا الأسم لم تؤسس في مدينة ليون إلا بعد ٧٢ سنة من موته. ولم يكن اختيار ليون الأقرب إلى قرطبة من أويبط مهماً في ذلك الوقت لأن العاصمة عادت ثانية إلى أويبط بعدما شدّد الأندلسيون ضغوطهم على الشمال. والأهم في كل ما فعله ألفونصو الثاني هو إحياء أهمية القديس يعقوب إذ كان في المراحل التالية من تاريخ الممالك الشمالية الشعلة التي اهتدى بنورها الجنود في حروبهم الطويلة مع الأندلسيين. وهيمن طيف هذا القديس على الإسبان ففي رواياتهم قصص كثيرة عن ظهوره لخيال أتباعه ممتطياً فرسه البيضاء المنيرة ملوّحاً بسيفه وهو يتقدمهم إلى أعدائهم حتى باتت صيحة الحرب عند بعض الشماليين أحياناً: «سنتياغو! سنتياغو!».[١]

وبعد ألفونصو جاء ابنه روميرو الأول (ردمير) فأخذ ملك أبيه لكنه لم ينل حظه وانشغل بقمع الفتن في مملكته في البداية ثم انشغل هو والأندلسيون بخطر عظيم دهم شبه جزيرة آيبرية. ففي عام ٨٤٤ (٢٢٩) جاء النورمان على سفنهم وهاجموا عدداً من المدن، ثم عادوا وهاجموا مدناً كثيرة أخرى في عام ٨٥٩ (٢٤٥) وصلوا إليها بعد الدخول في الأنهر. وقام الأندلسيون يصدون هذه الهجمات الخاطفة وفعل مثلهم أهل الشمال. إلا أن ردمير استغل تعبئة الناس لصد هجمات النورمان وعمّر القلاع الكثيرة على طول الضفة الغربيّة لنهر دويرة حتى صارت المنطقة من كثرة قلاعها تُعرف باسم «قشتالة»، أي القلعة باللغة القشتالية (الإسبانية كما نعرفها اليوم).

[١] تروي الأساطير الإسبانية أن جثمان القديس يعقوب «هبط» في مدينة البطرون (قديما أريا فلافيا) الواقعة على بعد ٢٠ كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من مدينة سنتياغو سنة ٨١٣ (١٢٦) وهو مسجى في كفن من الصخر. وتقول هذه الأساطير إن أسقف أريا فلافيا ثيودومير (تدمير في المرويات الأندلسية) اكتشف الكفن مهتدياً بنجم قاده حتى وصل إلى مكان في غابة كانت قائمة في الموضع الذي توجد فيه مدينة سنتياغو كومبوستيلا اليوم، ومن هنا جاء الاسم الاخير من المدينة وهو: Compostela أي Compus Stellae. ومهما كان أمر تلك الأساطير إلا أن اكتشاف رفات القديس أثار اهتماماً عظيماً في حينه. واستغل ألفونصو الثاني الاكتشاف لتأجيج الحماس الديني في رعيته. ثم جاء ألفونصو الثالث فعمّر كاتدرائية محل كنيسة ألفونصو الثاني استغرق بناؤها ١٥ سنة واكتملت عام ٨٩٩ (٢٨٦) وقامت حولها المساكن والأسواق فتحولت إلى مدينة كبيرة. وفي سنة ٩٩٧ (٣٨٧) أغار المنصور على سنتياغو ضمن حملة كبيرة لتأديب الشمال بعد استفحال خطره فهدّم المدينة لكنه أبقى على مقام القديس لأن المنصور أعجب أيما إعجاب بشجاعة راهب لازم المقام بعد فرار الجميع من الكاتدرائية. ولما أعيد بناء الكاتدرائية في عهد أول رئيس اساقفة لها، وضع رفات القديس في أساسات المبنى الذي لم يكتمل إلا في عام ١١٢٨ (٥٥٢). والكاتدرائية، كما هي قائمة اليوم، محصلة كثير من أعمال البناء التي جرت في مراحل لاحقة وفيها ذخائر يقال انها للقديس وتلميذين من تلاميذه، إضافة إلى تمثال له عُمل نحو ١٢١١ (٦٠٨). ولجأ الشماليون إلى هذا القديس لأغراض شتى أهمها اعتباره شفيع ممالك الشمال ومنجد النصارى ضد المسلمين، كما يظهر من وصف معروف به هو «ذبّاح الأندلسيين»، أي Matamoros. ومن غرائب سنتياغو ظهوره لملك أستورياس ردمير الأول في معركة مع المسلمين عام ٨٤٤ في عهد عبدالرحمن الاوسط اسمها كلابيخو Clavijo بموضع شمال مدينة سريّة.

وخلال المرحلة التالية من الصراع بين مملكة أستورياس وأمارة قرطبة أصبحت هذه المنطقة منطقة عازلة استخدمها هذا الطرف أو ذاك للنفاذ إلى أراضي الخصم والإغارة عليه، كما حدث عندما استغل الملك أردون الأول (٨٥٠-٨٦٦) انشغال الأمير محمد بن عبدالرحمن (٨٥٢-٨٨٦) بإخماد الفتن للهجوم على الأندلس، إلا أن الجهد الأعظم تركّز في تدعيم الخطوط الدفاعية للجهتين.

الامتداد الشمالي نحو الجنوب

خلال السنتين الاخيرتين من حكم الامير محمد بن عبدالرحمن بدأت في الشمال حركة غير عادية تجلت في توطين سهول نهر دويرة بسكان الشمال والفرنسيين. ولعبت عوامل عدّة في قلب الميزان في المنطقة العازلة لصالح ممالك الشمال أهمها على الإطلاق تسارع حركة العصيان ضد أمير قرطبة ولجوء العصاة والناقمين إلى مملكة استرياس وتشجيعها على مهاجمة الأمارة. وحيال هذا التردي أضحت أولوية الأمارة الدفاع عن وجودها وتوجيه كل قواها لاخضاع العصاة. ولم تكن جهود الأمير محمد بن عبدالرحمن إخفاقاً كلّها إذ تمكن إلى حد ما من إخماد حركة العصيان في الثغر الاعلى، حيث سرقسطة العاصمة نظراً إلى وجود غالبية عربية فيها، وأيضاً في الثغر الأوسط حيث طليطلة بسبب مناعتها. وورث الأميران المنذر (٨٨٦-٨٨٨) وعبدالله بن محمد (٨٨٨-٩١٢) أمارة مزّقتها الثورات التي أخذت شكل الحرب الاهلية واقترب الزمام من الإنفلات تماماً. واتسع نطاق العصيان والثورات فشمل الثغر الادنى (ماردة) وكوراً ومناطق كثيرة حتى ليقال إن عدد الثورات ضد الأمير عبدالله بن محمد عدّت ٣٠ ثورة أخطرها ثورة عمر بن حفصون التي تأججت نارها بين ٨٨٤ و٨٩١ فوهنت قرطبة حتى كادت السلطة الفعلية للأمير لا تتعدى حدود المدينة.

ونشط ألفونصو الثالث (٨٦٦-٩١٠) لاستغلال تردي الأوضاع في الجنوب إلى هذا الدرك فعزّز قواته وعمّر المدن الحصينة وأخذ سيمانقة وشنت منكش وسمورة ونقل سلطته الفعلية حتى نهر دويرة. أما حكام ثغور الشمال فـ«لجأ كل منهم لملاطفة ملك استرياس، رغبة في نيل الحظوة لديه ولرد عاديته عنه، كي يتفرّغ هو لمحاربة جيرانه من اخوانه في الدين. وعلى ما يظهر، لم يتبق في الثغور من يقدّر هذا الخطر الداهم، إلا جماعات النسّاك المرابطين فيها».[١]

[١] ومن هؤلاء أحمد بن معاوية الذي خرج على رأس جيش من المتطوعين لاستعادة سمورة لكن بعض شيوخ القبائل تخلى عنه فصمد يومين حتى استشهد في معركة سُميت «يوم سمورة» في رجب ٢٨٨ (٩٠١).

ولعل عرض هذه الوقائع يعطي الانطباع أن انتصارات الشماليين تلاحقت كل تلك السنين فيما تعاقبت هزائم الأندلسيين بلا انقطاع إلا أننا نتحدث هنا عن أحداث استمرت ٢٠٠ سنة، لذا لم يكن الأندلسيون ولا الشماليون، الذين كانوا يقيسونها بأعمارهم كما يفعل كل الناس في كل العصور، يرونها كما نراها نحن الآن. ولو كان السؤال المطروح حتى تلك الفترة هو: هل كان في استطاعة الشمال اكتساح الجنوب؟ فالإجابة ستكون نفياً قاطعاً لأن الكثافة السكانية في الأندلس، خصوصاً الأندلس الصغرى، كانت كبيرة، ولم يكن لدى الشماليين ما يكفي من البشر للسيطرة على الجنوب. وهذا ليس السبب الوحيد إذ كان هناك سبب آخر ربما علاه أهمية سنسوقه في موضعه.

ولا جدال في أن الشماليين توغلوا في الجنوب لكن ما كسبوه كان جبلياً وعراً في معظمه، وبقي كذلك حتى امتد الإعمار إلى وديان نهر دويرة. ولا جدال أيضاً في أن الشماليين في القرنين التاسع والعاشر صاروا قوة لا يُستهان بها، لكن قسماً مُعتبراً من تلك القوة كان قائماً على ضعف الجنوب لذا كانت قوى الشمال تعود إلى الترنّح عندما تقوى السلطة في قرطبة كما حدث في عهد الخلافة. فنحو نهاية حكم الامير عبدالله بن محمد بدأت نيران العصيان في الخمود تدريجاً بفضل سياسة قامت على إطفاء الحريق تلو الآخر وحصر سلطة العصاة.

وهكذا تمكّن خليفته عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله (حفيد عبدالله) من القضاء على حركات العصيان والثورات وعلى رأسها ثورة ابن حفصون. وامتدّ حكم عبدالرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١) نصف قرن توّجه بإعلان الخلافة عام ٩٢٩ (٣١٦) وتلقّب بـ «أمير المؤمنين الناصر لدين الله». ووصلت الأندلس في عهده إلى مرتبة لم تصلها من قبل.

وكانت ممالك الشمال هي الأخرى بلغت مستوى لم تعرفه من قبل إذ تمكّن ردمير الثاني (٩٣٢-٩٥٠) من جمع كلمة الشماليين وخرج إلى الخليفة وهزمه في معركة شرسة عرفت باسم الخندق وقعت قرب سيمانقة عام ٩٣٩ (٣٢٧) فلم يستطع الناصر الفرار إلا بجهد كبير. وسعى سانشو (شانجة) الأول المعروف بـ«السمين» (٩٥٦-٩٦٦) إلى توحيد سائر القوى الشمالية ضد الخليفة القرطبي الحكم الثاني المستنصر بالله (٩٦١-٩٧٦) لكنّ الهدف هذه المرة لم يكن الهجوم بل الدفاع إذ كانت الخلافة أقوى من أن تُقهر، وباتت يومها أعظم قوة عسكرية واقتصادية في أوروبة كلها، وظلت هكذا حتى توفى الخليفة المُستنصر فخلفه هشام الثاني «المؤيد بالله».

وكان الصبي هشام الخليفة لكنه لم يكن الحاكم. أما الحاكم الذي لم يكن الخليفة فهو أبو عامر محمد بن عبدالله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، أو اختصاراً محمد بن أبي عامر الملقب بـ«الحاجب المنصور». وفي عهد المنصور لم يعرف الشماليون طعم الانتصار إذ سيّر جيوشاً ضمّت أعدادا كبيرة من المرتزقة فاجتاح قشتالة عام ٩٨١ (٣٧٠) وأخضع سيمانقة وسمورة وهزم اتحاد جيوش ليون وقشتالة ونافار في الروطة (روطة اليهود). وإزاء هذا الوضع فقد الشماليون أي أمل في الإنتصار فراح الملوك يلاطفونه وأعطاه سانشو الثاني ملك نافار ابنته. وعاد المنصور عام ٩٩٧ (٣٨٧) فجال في ممالك الشمال وفتح سنتياغو (شنت ياقب) ثم اخضع بعد سنتين بمبلونة وانتصر في كل المعارك التي خاضها إلى أن توفى عام ١٠٠٢ (٣٩٢) في إحدى غزواته ودفن في مدينة سالم. وجاء بعد المنصور ابنه المظفر ومات بعد ست سنوات ثم لحقه أخوه شنجول. وتعثرت أحوال الأندلس بعد انقراض الدولة العامرية وأخفقت كل جهود المخلصين لإنقاذ الأندلس فبدأ عهد ملوك الطوائف وانفتح الباب الذي أغلقته الخلافة في وجه أي تقدم حقيقي للممالك الشمالية.

قشتالة وأرغون والبرتغال

حتى القرن التاسع الميلادي لم تكن حدود الممالك الشمالية واضحة المعالم فكانت أراضي هذه تتداخل مع تلك، وتمتد أحياناً في اتجاهات عدّة ثم تتقلص في كل الاتجاهات تبعاً لقوة الملك الذي يحكمها. وأدت مصاهرات ملكية كثيرة إلى جمع مملكتين أو أكثر لكن المملكة الجديدة كانت تُقسّم ثانية بين أولاد الملوك أو تعود فتنفصل إلى أجزائها الأولى. وفي التاريخ الإسباني أن الملك ألفونصو الثالث عهد نحو سنة ٨٨٤ إلى واحد من قوّاده هو دييغو بورسيلوس بناء حصن على ضفة نهر الرنسون لصد هجمات الأندلسيين. وبقي هذا الحصن، الذي عرف بإسم برغش، تابعاً لمملكة ليون حتى جاء فيرنان غونثاليث (فران غنصالص نونيه) عام ٩٥٠ فاستقل عن ليون ولقّب نفسه «كونت قشتالة» وصار أهل هذه الرقعة يتكلمون القشتالية البدائية التي تطوّرت بعد ذلك وصارت اللغة الإسبانية.

وأطل القرن العاشر على شبه جزيرة آيبرية وقد بسط الشماليون سيطرتهم على نحو خُمس مساحة البلاد وعمّروا عدداً من المدن الكبيرة. ومشى أردون الثاني (٩١٣-٩٢٣) على خطى من سبقه في التوغل جنوباً كلما استطاع، غير أن القلق من عودة الأمارة إلى اكتساح الشمال كان خفّ في زمنه كثيراً أو تلاشى لذا حل نوع من

الاستقرار تمكّن الشماليون خلاله من تثبيت معالم هويتهم الوطنية والتميز عن الآخرين بعادات وتقاليد معينة. وبات الشمال آنذاك مؤهلاً لبدء مرحلة جديدة من تاريخه بعدما تخطى المراحل الصعبة الأولى مستغلاً انشغال الأندلسيين بقتال بعضهم البعض.

وفي الثلث الأول من القرن الحادي عشر كانت شبه جزيرة آيبرية تضم في قسمها الجنوبي ممالك الطوائف وتقابلها في الشمال ممالك أرغون وليون ونافار. والمملكة الأخيرة من صنع الباسك، وظلت دويلة حتى جاء سانشو غرسيه الأول (٩٠٥-٩٢٦) فجعلها مملكة وصلت إلى أوج قوتها إبان عهد سانشو غرسيه الثالث (١٠٠٠-١٠٣٥). ووزع هذا الملك أراضي مملكته على ابنائه على عادة ملوك ذلك الزمان فأخذ روميرو مملكة أرغون. وكانت المنطقة الواقعة وسط جبال البيرينيه من نصيب غنصالو لكن الابن الذي خرج بالحصة الأكبر كان فرناندو الأول (١٠٣٥-١٠٦٥) إذ تزوج سانشة وريثة عرش ليون فدانت له ليون وجليقية وقشتالة. وخلال حكم فرناندو الأول كانت العاصمة برغش لكنّ ابنه ألفونصو السادس (١٠٧٢-١١٠٩) نقلها إلى طليطلة بعد سنتين من احتلالها. وضعف شأن مملكة نافار في ما بعد وانعزلت عن الأندلس. ودانت في أحد عهودها لملك فرنسا وتقلبت بين التبعية والاستقلال حتى جاء فرناندو الخامس زوج إيزابيلا وضم أراضيها إلى ممالكه عام ١٥١٢ (٩١٨).

ونهج فرناندو الأول نهج ابيه غرسيه في عادة توزيع مملكته على ابنائه فحصل ألفونصو (السادس في ما بعد) على أستررياس وليون وأخذ سانشو قشتالة، وكانت جليقية والطرف الشمالي الغربي للمملكة من نصيب ابنه الثالث غرسيه. لكن الخلاف دبّ بين الاخوة فاحتمى ألفونصو بالمأمون (يحيى بن اسماعيل بن ذي النون) أمير طليطلة فآواه في المدينة ومكّنه من الملك فآلت إليه كل مملكة أبيه بعد اغتيال أخويه غرسيه وسانشو. وتجدّدت المشاكل في قشتالة إبّان حكمي الملكة اوراكا (١١٠٩-١١٢٦) وابنها ألفونصو السابع (١١٢٦-١١٥٧) حتى اعتلى العرش ألفونصو الثامن (١١٥٨-١٢١٤) صاحب هزيمة الأرك الشنيعة التي وقعت عام ١١٩٥ وصاحب انتصار معركة العقاب التي أنزلت بالمسلمين هزيمة منكرة عام ١٢١٢ نتيجة اتحاد قوات ليون ونافار وأرغون بحض البابوية.

وعادت مملكتا قشتالة وليون إلى الاتحاد عندما تزوج فرناندو الثالث (١٢١٧-١٢٥١) ابن ألفونصو التاسع ملك ليون ابنة ألفونصو الثامن الذي كان وراء اكتساح الجنوب واحتلال قرطبة وجيان وإشبيلية. واعتباراً من انتهاء حكم فرناندو الثالث

وحتى نهاية القرن الخامس عشر كانت قشتالة ساحة حروب أهلية مستمرة إلى أن أصبحت إيزابيلا (أزابل) ملكة على قشتالة عام ١٤٧٤ (٧٨٩).

في القسم الشمالي الشرقي من شبه جزيرة آيبرية قامت مملكة اعتمدت أساساً على الدعم الذي حصلت عليه من غالة وبدأت بمقاطعة حدودية أقامها الملك شارلمان. وكانت هذه المملكة التي حملت اسم قطالونيا تابعة لنافار أيام سانشو الثالث، إلا أنها انفصلت في ما بعد وتوسعت أراضيها في عهد رامون برنجير الأول (١٠٣٥-١٠٧٦). وجاء رامون برنجير الثالث (١٠٩٦-١١٣١) فتعاون مع الإيطاليين لارساء دعائم مملكته في منطقة البحر الابيض المتوسط. وضمت هذه المملكة جيرونه (جرندة الأندلسية) وبرشلونة وطركونة ولاردة، إلا أنها قامت أساسا على برشلونة التي انتزعها القطلان وحلفاؤهم من العرب في المرة الأولى عام ٨٠١. وتوحدت قطالونيا مع أرغون عام ١١٣٧ نتيجة مصاهرة ملكية. ثم اشتاق القطلان إلى الاستقلال لكنّ الشوق طال قروناً ولم يتحقق إلا عام ١٩٣١ بإعلان جمهورية قطالونيا. وكان عمر هذه الجمهورية قصيراً فقضت على يد الجنرال فرانكو خلال الحرب الأهلية الإسبانية بين عامي ١٩٣٦و١٩٣٩.

ويُقال عن أصول مملكة أرغون أن رعيتها كانوا قوطاً[١] تراجعوا إلى جبال البيرينيه بعد الفتح. ثم اغتنموا فرصة اندلاع الاضطرابات في الثغور الأندلسية فحققوا تقدماً لم يصبح مؤثراً إلا بعدما احتل الملك الأرغوني ألفونصو الأول الشهير بـ«المحارب» (١١٠٤-١١٣٤) سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى عام ١١١٨ (٥١٢). أما أشهر ملوك أرغون على الاطلاق فهو خايمي الأول «الغازي» (١٢١٣-١٢٧٦) الذي عرفه العرب باسم «جايمش». وكان من أعمال هذا الملك احتلال الجزر الشرقية وبلنسية ولقنت، وتوسيع مملكته التي أصبحت أمبراطورية كبيرة بعده إلى أن كان الاتحاد المهم بين قشتالة وأرغون عندما ورث فرناندو الخامس عرش أرغون بعدما تزوج إيزابيلا ملكة قشتالة.

أما آخر ممالك آيبرية في هذه العُجالة فهي البرتغال (برتقال أو برطقال الأندلسية) التي يعود تاريخ تأسيسها إلى الملك ألفونصو السادس الذي قدم الجزء الشمالي من برتغال اليوم هدية زواج ابنته تيريزا من هنري البرغندي. وانفصلت هذه الدويلة عن قشتالة وليون عام ١٠٩٤ (٤٨٧)، وكان أول ملوكها ألفونصو إنريكيث (١١٣٩-١١٨٥). واستغلت البرتغال ضعف الأندلس فمدت سيطرتها جنوباً. وعرفت في عهد يوحنا الأول (١٣٨٥-١٤٣٣) الرخاء والازدهار والقوة البحرية العظيمة

[١] «دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها»، ص ٢٦٢.

فتوسعت في أفريقية ثم امتدت ممالكها إلى آسيا والبرازيل. وأفشلت البرتغال بنجاح ملفت كل الخطط التي وضعتها قشتالة لاستيعابها لكن البرتغال اشتهرت بعدد من الملوك العتاة الذين لم يكتشفوا حدود قوتهم إلا بعد فوات الأوان. ومن أمثلة هؤلاء الملك سباستيان الذي سار بجيشه إلى المغرب عام ١٥٧٨ يرافقه السلطان المخلوع محمد المتوكل فقتل الإثنان في معركة القصر الكبير التي أزهق فيها المغاربة أيضاً أرواح معظم النبلاء ورجال البلاط البرتغاليين. واستغلت إسبانيا الاضطراب الذي هزّ البرتغال بعد ذلك واحتلت البلاد. وطرد البرتغاليون الإسبان عام ١٦٤٠ إلا أن تهديدهم استمر فاعتمدوا فترة طويلة على حماية إنكلترا. واحتلت فرنسا البرتغال المتحالفة مع إنكلترا عام ١٨٠٧ لكنّ دوق ولنغتون، صاحب انتصار ووترلو على نابوليون، نجح في حشد جيش أخرج الفرنسيين من البلاد عام ١٨١١. وحافظت البرتغال على استقلالها منذ ذلك الوقت وظلّت دولة صغيرة، وبقي شعبها من أفقر شعوب أوروبة حتى انضمّت إلى الاتحاد الأوروبي.

٤ - دور الفرنسيين في سقوط الأندلس

يحدث في بعض الحالات التاريخية المواتية أن يتحول الجيش المنتصر إلى ما يشبه الطوفان فيندفع بقوة كامنة ويجتاح كل ما يعترضه، وما لم يصطدم بجيش أعتى منه تجده أحياناً يتمدد حتى تستقر ماؤه طبيعياً. ويبدو أن هذا ما حدث لجيوش الفتح العربي فبعد إخضاع المغرب «فاض» الفتح عبر الزقاق إلى آيبرية، ثم بدأت عمليات توغّل في غالة (فرنسا) بعد ضمان حدود الأندلس الشمالية على سفوح سلسلة جبال البيرينيه. ولا يُستبعد أن يكون بعض سرايا موسى بن نصير أو طارق عبر إلى غالة إلا أن غزو الأرض الكبيرة كان من الجهود الأساسية خلال عهد الولاة كما يتضح عندما سار الوالي السمح بن مالك الخولاني (٧١٩-٧٢١م) ونزل في مدينة تولوز (طلّوزة). واستشهد السمح في معركة دارت قرب تلك المدينة عام ٧٢١ (١٠٢) فكان أول أربعة ولاة قضوا نحبهم في غالة. وجاء بعد السمح عنبسة بن سحيم الكلبي فتوغل كثيراً واحتل مدينة كركسون (قرقشونة)، لكنه استشهد عام ٧٢٥ (١٠٧) متأثراً بجرح أصابه في معركة مع الفرانك (الفرنسيين).

واستمرت عمليات العبور إلى غالة متقطّعة إلى أن تولّى عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي ولايته الثانية عام ٧٣٠ (١١٢) فكانت له حملات ناجحة احتل خلالها بوردو

(برذويل). ومضى في غزواته حتى استشهد هو الآخر في معركة وقعت بين مدينتي تور Tours وبواتييه Poitiers في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ٧٣٢ (رمضان ١١٤) هي معركة بلاط الشهداء. وكان صاحب هذا النصر كارل (قارله) المشهور بـ«المطرقة». و«المطرقة» زنوة ببان Pipin الثاني وشغل منصب «عمدة البلاط» إلا انه كان الحاكم الفعلي في غالة. ولا علاقة للقب «المطرقة» بالفاتحين العرب إذ كان اكتسبه في اثر سلسلة من الانتصارات المهمة على القبائل الجرمانية الأخرى التي كانت تستوطن غالة حتى أخضع معظم المنطقة التي نعرفها اليوم باسم فرنسا وتمكّن من السيطرة عليها نحو ٢٦ سنة.[1]

ولا نعرف ما الذي أوصل الغافقي إلى مدينة مثل تور التي تبعد نحو ٦٠٠ كيلومتر عن خطوط امداده في الأندلس وخلال فصل الشتاء الذي ليس فصل الغزوات العادي. ولا نعرف بالضبط لماذا بدأت المعركة في تور وانتهت في بواتييه التي تبعد عنها نحو ١٠٠ كيلومتر في اتجاه جنوبي شرقي. كما أننا لا نعرف قوام الجيش الذي قاده عبدالرحمن الغافقي إلا أن جيشاً يعدّ خمسة آلاف رجل كان في تلك الأوقات جيشاً كبيراً. وحتى لو كان العدد خمسة أو ستة أضعاف ذلك فإنه لا يرقى إلى عشرة في المئة من العدد الذي تقول المصادر الأوروبية أنه لقي مصرعه في تلك المعركة وهو ٣٧٥ ألفاً. وتتصل بهذه المبالغة مبالغات أخرى في مصادر أوروبية وحتى عربية حديثة تعطي الانطباع أن انتصار كارل قصم ظهر الفاتحين الأوائل لذا لم يجرؤ أحد منهم بعد ذلك على التفكير بغزو فرنسا. هذا لم يحدث. وعلى الرغم من أن مؤرخين أوروبيين

---

[1] في التاريخ والأدبيّات كلام كثير عن الفرصة التي ضاعت على الإسلام لأن الفتح الأندلسي لم يطل سائر غالة إذ ذاك لكانت أوروبة كلها تدين بالإسلام اليوم. هل هذا صحيح؟ ربما، لا أحد يستطيع أن يجزم، لكن الأنسب من دخول أوروبة عبر الأندلس هو اقتحامها عبر القسطنطينية إذ كان العرب وقفوا خارج أحصن مدينة عرفها التاريخ سنة ٧١٨ إلا أنهم لم يستطيعوا اقتحامها وتأجل ذلك ٧٣٥ سنة قبل أن تسقط على يد العثماني محمد الثاني. ولو أن العرب فتحوا القسطنطينية لربما كان الطريق انفتح إلى شرق أوروبة من دون المقاومة العنيدة التي كانوا سيواجهونها لإخضاع القبائل الجرمانية لو أنهم تقدموا من الأندلس. ومن الثابت في التاريخين العربي والأوروبي أن قوات الفتح الأندلسية الأولى كانت تستطيع التوغل بسرعة في أراضي غالة على ظهور الخيول ومفاجأة حاميات كانت تتألف في معظمها من المشاة. إلا ان استمرار احتلال مناطق كبيرة في منطقة شاسعة مثل غالة لم يكن ممكناً في فترة لم يكن فيها عدد الأندلسيين كافياً لإعمار الأندلس كلها ناهيك عن اعمار دولة أكبر منها حجماً هي فرنسا. أضف إلى ذلك صعوبة تأمين خطوط الإمداد عبر أكثر مناطق أوروبة وعورة ونقصد بها جبال البيرينيه وبرودة الطقس الذي لم يكن العرب معتادين عليه. ولعل من الأسباب التي لم تشجّع على تكثيف غزو غالة فقر أهلها المؤلّفين في معظمهم من المزارعين الصغار، وربما عاش أحدهم معظم عمره من دون أن يضع في جيبه قطعة ذهبية واحدة. وحتى عندما حكم فرنسا ملك عظيم مثل شارلمان كانت المملكة لا تزال تتعامل عموماً بالفضة فأكبر قطعة سكّها شارلمان كانت ديناراً يساوي نصف قيمة دينار قرطبة.

مثل بيد Bede الإنكليزي(٦٧٣؟-٧٣٥) أشادوا بانتصار كارل الفرنسي على المسلمين فإن فرنسا لم تكن آنذاك «مقبرة»الغزاة، ولم تكن هكذا حتى بعد أكثر من قرنين من وقوع معركة بلاط (ربما من كلمة بواتييه) الشهداء. وليس في المراجع التاريخية العربية الأندلسية إلا ما يؤكد غير ذلك لأن الاستشهاد في سبيل الله اكرام للمجاهد وليس عقاباً أو دعوة للخوف.

وفي المصادر العربية القديمة إشارات كثيرة إلى استمرار نشاط الغزو منها توغل يوسف بن عبدالرحمن، حاكم مدينة نربونة، في حوض الرون واحتلال مدينتي آرل وأبنيون. وعاد كارل بعدها فأخرج المسلمين من بعض المناطق التي احتلوها لكنهم ظلوا يسيطرون على نربونة في كل سنوات عهده بل استمرت هذه السيطرة ٢٠ سنة بعد موته. وفي عام ٧٤١ (١٢٣) سار الوالي عقبة بن الحجاج السلولي إلى غالة وفتح مناطق فيها لكنه استشهد هناك أيضاً. وتوافقت السنة الأخيرة هذه مع موت كارل بعدما قسم مملكته إلى نصفين أخذ أولهما ابنه الأكبر بيان المشهور بـ«الشجاع» وأخذ الثاني كارلومان. وقرر كارلومان اعتزال الدنيا في أحد الأديرة ومات بعد ثلاث سنوات فاستفرد بيان بالحكم وأصبح ملكاً على سائر الفرانك. ولهذا الزعيم أعمال مشهودة أهمها استرجاع نربونة من المسلمين عام ٧٦١ في عهد عبدالرحمن الداخل. وباستعادة هذه المدينة خسر الأندلسيون آخر أهم معاقلهم وانشغلوا بصراعاتهم الداخلية ولم يعد من الحكمة تبديد القوى القليلة التي ملكوها في أرض شاسعة كانت أكبر حتى من إسبانيا الكبيرة نفسها (٥١, ٥٥١ ألف كيلومتر مربع في مقابل نحو ٥٠٦ آلاف كيلومتر مربع)، بل الأكبر في أوروبة ولا تزال حتى اليوم. أما روسيا التي حكمها القياصرة المستبدون ثلاثة قرون حتى زوالهم في مطلع القرن العشرين فلم تكن يوماً في نظر مؤرخين كثيرين دولة أوروبية. ولا بدّ أن يكون غزو شمال الأندلس داعب أفكار بيان لكن ليس بين أيدينا ما يؤكد وقوع أي هجمات مهمة لذا يبدو أنه ترك مهمة الصدام مع الأندلسيين لابنه الأكبر.

شارلمان

ينحدر شارلمان من قبائل جرمانية تُدعى الفرانك[1] رحلت من مناطق نهر الراين بعدما تجمّد عام ٤٠٦ م في موجة صقيع عظيمة أزهقت أرواح الماشية التي كانت عماد اقتصاد القبائل الجرمانية قبل أن يحل محلها النهب المنظّم. وساهمت هذه القبائل مع

[1] لاحظ ارتباط هؤلاء بموطنهم الألماني من اسم مدينتهم الأكبر «فرانكفورت» أي قلعة الفرانك.

غيرها من القبائل الجرمانية في إضعاف الأمبراطورية الرومانية، ثم التفتت إلى بعضها البعض فيما كانت تبحث عن مجالها الحيوي فنشبت صدامات عنيفة كان أهمها تلك التي استهدفت القوط الغربيين ممن كانوا استوطنوا غالة، ثم تمكّن الفرانكي كلوفيس في نهاية الأمر من تحطيم القوط في معركة فوييه الحاسمة عام ٥٠٧. ومن هذه البدايات نهضت قبائل الفرانك على أيدي زعماء مثل كارل «المطرقة» لتحتل مكانها في تاريخ أوروبة ووصلت إلى قمة مجدها في عهد المملكة الكارولنجية التي تبدأ مع ببان «الشجاع» وتنتهي بموت شارلمان (أي شارل العظيم) عام ٨١٤.

واعتلى شارلمان العرش في احدى أهم فترات صنع أوروبة إذ كان معظم القبائل الجرمانية التي نزحت إلى مناطق خارج مواطنها الأصلية انقرض على يد القبائل الأخرى أو زالت آثاره على يد العرب أو الأمبراطورية الرومانية البيزنطية كما حدث في حال الوندال في تونس والقوط الغربيين في الأندلس. وبات من ظفر وساد من تلك القبائل مستعداً، إلى حد ما، لدخول مرحلة جديدة بعيدة، إلى حد ما أيضاً، عن الجهل والهمجية والوثنية والسطو على أرزاق الآخرين وأراضيهم ونسائهم والافراط الشنيع في الملذات أياً كان نوعها. وكان معظم سنوات حكم شارلمان مجداً لكن ربما كان أهم أيام حياته يوم نصّبه البابا ليو الثالث أمبراطوراً رومانياً مقدّساً Romanorum Gubernans Imperium في يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ (١٨٤) اعترافاً منه بفضل الفرانك على الكنيسة الرومية سواء لتأييدهم روما وقت اندلاع الخلاف الديني مع الكنيسة البيزنطية أو لجهودهم الحاسمة في حمل الكاثوليكية إلى القبائل الجرمانية الوثنية وتدعيم سلطة الكنيسة الروحية. ولم يكن تقدير البابوية لشارلمان إلا استمراراً طبيعياً للتقدير الذي كنّته لببان «الشجاع» إذ كانت باركت تنصيبه ملكاً على سائر الفرانك عام ٧٥١ (١٢٣) ووضعت نفسها تحت حمايته عندما تداورتها الأخطار. ومع ارتباط مصلحة الجهتين باتت هذه تروّج لذاك وصار الآخر سيف البابوية وداعيتها الكاثوليكي وحاميها في آن. ونهج شارلمان نهج أبيه وحقق للبابوية انتصاراً عظيماً عندما غزا إيطاليا ونحّى ديديير ملك لومبارد وحبسه في دير وحل محله بعدما كان هدد البابا هدريان. كما حقق شارلمان إنجازاً مشهوداً آخر عندما عمّد فيدوكند زعيم قبائل السكسون عام ٧٨٥ (١٦٨). وعزز شارلمان ملكه في سنوات حكمه الطويل فبات بلا منازع واتسع سلطانه حتى ضمّ غالبية الأراضي الأوروبية شرق نهر الراين.

ومن حسن طالع أوروبة، أو من سوء حظ الأندلسيين، أن يستمر الصدام مع غالة في مرحلة صعود نجم المملكة الفرانكية، لكن من سوء حظ أوروبة، أو من حسن طالع

الأندلسيين، أن يظل ملك عظيم مثل شارلمان أسير عادة جرمانية قديمة لم تستطع حليفته البابوية أو تمدّنه الغض تخليصه منها هي تقطيع أوصال مملكته على الورثة أملاً في منع نشوب الخلاف بينهم. لكن قبل أن يحدث ذلك وتذهب جهود شارلمان أدراج الرياح، وجد هذا الملك نفسه، بعدما هيمن على الأقسام المهمة من أوروبة، أن توسعه الطبيعي يكمن في عبور البيرينيه إلى الأندلس والسيطرة على ثروتها وربما إعادتها إلى حظيرة الكاثوليكية. لذا تحيّن شارلمان الفرص دائماً، وقدّمت له الخلافات الداخلية بين الأندلسيين، كالعادة، فرصة مناسبة فتحرك لاستغلالها بسرعة.

وكان الخلفاء الأمويون أبدوا اهتماماً كبيراً بالأندلس باعتبارها ثغراً من ثغور الجهاد وجعلها الخليفة عمر بن عبد العزيز ولاية مستقلة عن المغرب تابعة لدمشق مباشرة. ومع ذلك جاء الفاتحون العرب إلى الأندلس وفي النفوس ما فيها من تنافس وضغائن قديمة كانت تنفجر فتزيد الصراعات المحلّية حدّة. وبعد دخول الجيش الشامي الأندلس والقضاء على ثورة البربر اصطدم الجيش الشامي بالبلديين الأندلسيين، ثم استعان عبدالرحمن الداخل باليمانية على معارضيه القيسية وما أن صار أمير قرطبة حتى انقلب على اليمانية فعم استياء استغله سليمان بن يقظان العربي والي سرقسطة لرفع راية العصيان ضد عبدالرحمن.[1] إلا أن سليمان لم يكن يستطيع الصمود وحده في وجه داهية قرطبة فسار إلى شارلمان وشجعه على غزو الأندلس ووعده بوضع سرقسطة تحت تصرّفه يستخدمها قاعدة ينطلق منها في اتجاه الجنوب. وراقت الفكرة لشارلمان فعبأ جيشه وعبر البيرينيه مع الوالي سليمان واخترق بلاد الباسك ثم سار بمحاذاة وديان نهر إبرو (إبرة) إلى سرقسطة وإذ بالمدينة الحصينة غلّقت أبوابها. وهنا غضب شارلمان أيما غضب وضرب عليها الحصار فاستعصت. وبينما هو على هذا الحال جاءه رسول بأخبار تجدّد عصيان قبائل السكسون بقيادة فيدوكند فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة واعتقل الوالي سليمان جزاء التغرير به. وفي طريق العودة عرّج

---

[1] أصل هذه الواقعة أن اليمانية مكّنوا عبدالرحمن من كسر جيش الوالي يوسف بن عبدالرحمن الفهري في معركة المصارة، أوالمسارة، سنة ٧٥٦ (١٣٨) وإقامة الأمارة في قرطبة، لكنهم انقلبوا عليه بعدما قتل أبا الصباح الذي كان على رأس من بايعه من اليمانية، وانضم قسم منهم ممثلاً بالانصاريين المقيمين في الشمال الشرقي من الأندلس على رأسهم حسين بن يحيى الانصاري إلى والي سرقسطة سليمان بن يقظان العربي. والظاهر أن سليمان هزم جيشاً سيّره عبدالرحمن لتأديبه وأسر قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي فحمله معه إلى شارلمان لما ارتحل إليه طالباً نصرته على قرطبة وترك وراءه في سرقسطة سليمان حسين بن يحيى الانصاري. ويبدو أن الأخير غيّر رأيه في ما بعد أو ربما وعده عبدالرحمن واستماله فتنكر للعربي. ولما جاء شارلمان ومعه العربي إلى سرقسطة فوجىء بالبوابات مغلقة دونه «فقاتله أهلها»، كما يقول صاحب «أخبار مجموعة» (ص ١١١)، «ودفعوه أشد الدفع». وعاد العربي إلى سرقسطة بعد تخليصه من رولان وربما دبّر الانصاري اغتياله بعدها.

شارلمان على مدينة بمبلونة عاصمة الباسك ونهبها. وهنا ثارت ثائرة الباسك الجبليين المعروفين ببأسهم فلحقوا بمؤخرة جيش شارلمان ومعهم جماعة من العرب بينهم إبنا الوالي المعتقل وكمنوا للجيش الذي قاده الكونت رولان. وما أن عبر قسم من الجيش أول المداخل إلى البيرينيه (رونسفال أو رنشفالة) حتى سدّ المتحالفون الطريق عليه وانقضّوا على من بقي في المؤخرة فمزقوا جنودها وقتلوا رولان وخلّصوا الوالي سليمان وانسحبوا بالسرعة التي هاجموا بها.

وفي تاريخ الأمم شي يبعث الحيرة ويثير التساؤل أحياناً إذ يحدث في حالات كثيرة أن يظهر ملك عظيم ولا يمر وقت حتى يظهر ملك عظيم مثله في مكان آخر كأن الهدف من ذلك استبقاء التوازن حتى لا تطغى أمّة بعينها على الأمم الأخرى طويلاً. وفي السنوات الحاسمة التي تكون مفاصل جسد التاريخ، سواء القديم أو الحديث، يقوم القادة العظام مرة واحدة ثم تأتي سنوات أخرى فيختفون مرة واحدة ويحل محلهم الصغار. وكان شارلمان ملكاً عظيماً إلا أن عبدالرحمن في قرطبة كان عظيماً مثله حتى في وحدته في الأندلس التي كانت كياناً سياسياً مستقلاً يقوده أموي في عصر عربي حكمه خصومه العباسيون، لذا كان شارلمان حذراً في التعامل مع عبدالرحمن. ولم يغز شارلمان الأندلس بعد حادث رونسفال فهذا جهد عظيم يتطلب تسيير جيوش كبيرة يصعب تأمين خطوط تموينها وإمدادها عبر بعض أكثر الطرق وعورة في أوروبة. وحتى لو استطاع شارلمان حل هذه المشكلة فإنه كان سيصطدم بدولة بمثل قوة دولته وبسكان يزيد عددهم على سكان فرنسا نفسها.

وبدلاً من الهجوم السافر كان على شارلمان أن يفكر بالدفاع، ولو مرحلياً، فنصّب ابنه لوي «التقي» (لذويق) ملكاً على أكيتانيا (أقيطانية) المجاورة لجبال البيرينيه، وعزّز مداخل الثغر الشمالي الشرقي الذي عبر منه العرب دائماً إلى غالة، وشن حرباً خفية قوامها التوغل الهادىء المتدرج حيثما سنحت الفرصة، ودعم ملوك الشمال الأندلسي بالرجال والمال والعتاد وتشجيع العصيان في قرطبة بالوسائل المُتاحة كافة.

التسلل الفرنسي إلى الأندلس

قبل وفاة عبدالرحمن بأزيد من سنتين سنحت فرصة عظيمة للفرنسيين فتوغلوا ٦٣ كيلومتراً في الأندلس واحتلوا مدينة جيرونه (جرندة) عام ٧٨٦ (١٦٩). ورأى شارلمان في المدينة قاعدة انطلاق مهمة فعمّر فيها كنيسة وعزز دفاعاتها. وكان قرار شارلمان حكيماً إذ لم يستطع الأندلسيون بعد ذلك استعادتها على رغم محاولات عدّة

أهمها توجيه هشام الرضا (٧٨٨-٧٩٦ / ١٧٢-١٨٠) وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بحملة كبيرة إلى الثغر الكارولنجي عام ٧٩٣ (١٧٧). وحاصر ابن مغيث جيرونة فلم يتمكن من استعادتها فأكمل إلى الأرض الكبيرة وهاجم عدداً من المدن بينها نربونة وعاد بغنائم كثيرة، كما يرد في المصادر. إلا أن إنجازات شارلمان لم تكن سريعة إذ كان عليه الانتظار ١٥ سنة بعد أخذ جيرونه ليحقق انتصاراً جديداً. ففي عام ٨٠١ (١٨٥) اقتحمت قوات ابنه لوي مدينة برشلونة الساحلية الكبيرة واستملكتها. وبعد سبع سنوات من ذلك احتل لوي مدينة طركونة فصار مقدار توغل الفرنسيين في الأراضي الأندلسية نحو ١٥٠ كيلومتراً. وتقدم لوي بعد ثلاث سنوات إلى طرطوشة الواقعة على بعد ٨٠ كيلومتراً جنوب طركونة لكن الأندلسيين صدّوه.

وعلى رغم طول فترة التسلل الفرنسي من بوابة الأندلس الخلفية، نجح شارلمان عموماً في توسيع رقعة سيطرته على الثغر الشمالي الشرقي من الأندلس ومدّ سلطانه في وديان نهر إبرة وصارت المنطقة الواقعة بين بربينيان في فرنسا وبلنسية في إسبانيا ثغراً فرنسياً كبيراً تميز سكانه عن باقي أهل الشمال وتبنّوا كثيراً من العادات الفرنسية ونطقوا بلهجة قريبة من لهجة البروفانس فعُرفت المنطقة في لاحق تاريخها باسم مملكة قطالونيا.[١] وكما فتح شارلمان جبهة عسكرية ضد الأندلس فإنه سعى في الوقت نفسه إلى فتح جبهة سياسية فرحّب في بلاطه بأعداء قرطبة وقدم لهم الدعم والحماية. وكان من بين من لجأ إلى شارلمان عبدالله بن عبدالرحمن الذي هرب من قرطبة بعد خلاف على السلطة مع هشام الرضا، ثم عاد بعد وفاة هشام فقتله والي مدينة ماردة. أما الجبهة الثالثة التي دعمها شارلمان فكانت الممالك الشمالية إذ مدّها بالمال والرجال حتى أن أول ما فعله ألفونصو الثاني بعد احتلال لشبونة (أشبونة) عام ٧٩٨ (١٨٢) إرسال سفارة إلى شارلمان يزف إليه نبأ انتصاره.

ومات شارلمان في ٢٨ كانون الثاني (يناير) عام ٨١٤ (٢ جمادى الثاني ١٩٨) بعدما عاش حياة غنية مليئة بالانتصارات والانجازات التي سار بجيوشه إلى بعضها فحصدها وسار بعضها الآخر إليه بقدميه فغنمه. وخلال فترة حكمه الطويلة بنى شارلمان مملكة عظيمة لكنه لم يصنع مؤسسة، وأمسك ممالكه بقبضة حازمة لكنّه لم

[١] من «الكيانات» الأخرى التي ترك الفرنسيون تأثيرهم الكبير فيها قائمّية تقع أواسط جبال البيرينيه تُعرف باسم أندورا Andorra. ويعيش أهل هذه الدولة، التي تعدّ نحو ٣٦,٠٠٠ نسمة اليوم، على السياحة وهي تدين بالطاعة لشخصين هما: رئيس الجمهورية الفرنسية وأسقف سو دروغيل بموجب اتفاق ابرم سنة ١٢٧٨ (٦٧٧). أما أصل هذه الدولة فيعود إلى أيام شارلمان الذي منحها الاستقلال سنة ٧٩٠ (١٧٧) مكافأة لسكانها على الخدمات التي قدموها لجنوده عن طريق ارشادهم عبر الجبال والوديان إلى الثغر الأندلسي. ولا يزال نشيد أهل أندورا الوطني اليوم يعتبر الملك الكارولنجي أباً لهذا الكيان.

يؤسس مركزية، ووضع لتوغله في الأندلس خطة طويلة الأمد لكنّه غض الطرف عن التفلّت السائد في ممالكه. وبعد ٤٥ سنة من الاتصال مع الممالك المتحضرة في أوروبة والأندلس عاد شارلمان الأمّي في آخر أيامه زعيماً جرمانياً فسار على درب سابقيه من ملوك الجرمان وترك ممالكه لخلفه فأخذ بيان إيطاليا وظلت اكيتانيا في يد لوي «التقي».

ومضى لوي بعد موت أبيه في استعداء الأندلس والتوغل في أراضيها وقتما كان ذلك ممكناً فأقتضى ردعه حملات أندلسية كثيرة قاد الحكم الأول أو الربضي (٧٩٦-٨٢٢) واحدة منها بنفسه عام ٨٢١ (١٩٦) لما كثر عبث الفرنج في الثغور. إلا أن الدعم الذي كان لوي يحصل عليه من أبيه لم يعد موجوداً بعد موته وانشغل بمتاعبه الداخلية ومات بعد حكم استمر ٢٦ سنة. وما لبثت أن تبعته مملكته فدبّ الخلاف بين ابنائه على السلطة وتفتت ما بناه شارلمان إلى الأبد وقامت على تلك الأشلاء فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وبموجب معاهدة فردان عام ٨٤٣ قُسّمت المملكة بين أحفاد شارلمان الثلاثة فحصل لوي الثاني «الألماني» على المناطق الواقعة شرق نهر الراين وصارت في ما بعد ألمانيا. وحصل شارل الثاني «الأصلع» على المنطقة غربي نهر الراين وصارت هذه فرنسا، وكان القسم الثالث من نصيب لوتير Lothair وضمّ شريطاً امتد من بحر الشمال إلى وسط إيطاليا، كما آل إليه لقب الأمبراطور الروماني المقدس.

ولم تعد غالة قادرة وحدها على توسيع وجودها في الأندلس، وكانت الغلبة بعدها لمن تمكن من حشد الجيش الأكبر إلا ان كل الانتصارات تلك كانت عابرة. ويرد في بعض المصادر العربية أن جماعة من الأندلسيين استوطنت عام ٨٩٠ (٢٧٧) منطقة في بروفانس اسمها «جبل القلال» ووسّعت رقعتها في وقت لاحق فاستمرت سيطرتها عليها حتى عام ٩٧٦ (٣٦٥). وغزا المنصور الشمال الشرقي عام ٩٨٥ واستعاد برشلونة إلا أن الشماليين أخذوها في السنة ذاتها. وعلى رغم استمرار الأعمال القتالية بين الجهتين ظلت الحدود بين الأندلس والثغر الفرنسي مستقرة خلال السنوات الباقية من عمر الأمارة ثم خلال معظم سنوات الخلافة القرطبية.

دور الفرنسيين في سقوط الأندلس بعد زوال الخلافة

ولدت الدول الأوروبية الرئيسية في الشكل الذي نعرفه اليوم بعد سلسلة متصلة من المخاضات الدموية الجبّارة التي بدأت بعد موت شارلمان. وكانت القبائل الجرمانية استقرت وأصبحت شيئاً قريباً من الدول إلا أن الصراع القديم بينها كان يتفجر بسرعة فينحسر رداء الدولة ويظهر على السطح ثانية رداء الحروب القبائلية على نطاق أوسع

بكثير مما كان يحدث في القرنين الخامس والسادس الميلاديين. وكانت فرنسا في القرن العاشر عدوة ألمانيا وعدوة السكسون في إنكلترا، وكان في كل من الدول الثلاث أعداء محليون تعاونوا مع أعداء خارجيين، وصار الوجه السياسي لأوروبة يتغير بسرعة تواكب تغيّر الوضع العسكري. وفيما انشغلت فرنسا بالحروب ضد المانيا وانكلترا تضاءل الاهتمام بالأندلس التي لم تعد تشكل خطراً بعد زوال الخلافة وقيام دول الطوائف في مطلع القرن الحادي عشر. وكان ملوك الشمال بدأوا يتمتعون بقوة كبيرة ولم يعد في إمكان الأندلسيين اكتساح ممالكهم لذا لم يعد هؤلاء في حاجة إلى جيوش فرنسية يقودها ملوك فرنسيون.

وفي غزوته الشهيرة التي عبر فيها وديان نهر إبرة في الطريق إلى سرقسطة أعطى شارلمان المسيحي مثالاً للفرنسيين أولاً ولباقي أهل أوروبة على غزو الإسلام في داره. لذا وجد الفرنسيون دائماً الرغبة في نصرة مسيحيي الشمال الأندلسي على مسلمي الجنوب كلما توافرت الفرصة. لكن من السذاجة القول ان الأوروبيين، وعلى رأسهم الفرنسيون، عبروا جبال البيرينيه لمساعدة الشمال المسيحي في الأندلس بدافع الأخوة في الدين فقط مثلما من السذاجة أيضاً القول بعكس ذلك. ولعل الأكثر انطباقاً على الواقع هو القول إن الدافع الديني كان يعلو أحياناً على الدافع الدنيوي وكان العكس يحدث أحياناً أخرى. وفي إثر انهزام الأمبراطورية البيزنطية النصرانية الأرثوذكسية على يد السلاجقة المسلمين عام ١٠٧٤ (٤٦٦) أخذ خوف الأوروبيين من انهيار تخوم حدودهم الجنوبية شكل تعبئة تولتها البابوية. وسادت الممالك المسيحية الأوروبية آنذاك موجة حماس ديني فازداد تدفق المتطوعين الفرنسيين والأوروبيين على شمال الأندلس للمشاركة في الحرب ضد الأندلسيين.

وكانت الأندلس في تلك الفترة من أغنى الدول الأوروبية إن لم تكن الأغنى على الإطلاق بسبب تطور المكوّنات الاقتصادية فيها ووصولها إلى مستوى رفيع. وكانت الحرب في تلك الأيام من أهم سبل الرزق، ولا تزال في مناطق كثيرة اليوم، فالمشاركة فيها طريق سريع إلى الغنائم وإقطاعات الأراضي الخيّرة والارتقاء إلى المناصب الرفيعة. وكان حجم المشاركة في القتال وقيمتها يتناسبان ومرتبة المحارب وخبرته وتسليحه فربما كان أجر الفارس يعادل أجر بضعة مشاة. وبما ان منطقة ما خلف البيرينيه هي الأقرب إلى الأندلس كان من الطبيعي أن تقدم المنطقة تلك أكبر عدد من المتطوعين والمرتزقة الفرنسيين الذين حاربوا إلى جانب ملوك الشمال وجاؤوا خصوصاً من مقاطعات أقيطانية وميدي ونورماندي وبرغندي.

وتمتّع ألفونصو السادس بشهية كبيرة للفرنسيات فتزوج ثلاثاً منهن واهتم بأصهاره الفرنسيين وشجعهم على الإقامة في ممالكه. ولما حاصر ألفونصو طليطلة واستعصت عليه سبع سنوات ناشدهم المساعدة فجاؤوا إليه من كل مكان ومدّوه بالرجال والعتاد والخبرة حتى مكّنوه من تحقيق هذا النصر المبين عام ١٠٨٥ (٤٧٥). وشجع أخذ عاصمة الثغر الأوسط الفرنسيين على الالتحاق بجيوش الممالك الشمالية لكثرة ما سمعوا عن الغنائم التي جمعها ألفونصو ومن معه من طليطلة. وبعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بألفونصو السادس في معركة الزلاقة بعد سقوط طليطلة بسنة واحدة فتح للفرنسيين كل أبوابه وتفوق على نفسه فرحّب بهم كما لم يرحب بهم ملك من قبله. وأكثر ألفونصو لهم الوعود فتدفقوا على وسط الأندلس بكثافة لم يعرفها الشمال في السابق فباتوا يشكّلون ثقلاً استراتيجياً يوازي ثقل دخول المرابطين الأندلس. وتحولوا مع الزمن إلى سد منيع وقف في وجه تقدم المرابطين في الثغور الشمالية.

وساهم الفرنسيون مساهمة جليلة في إسقاط مدينة سرقسطة الحصينة، وتابعوا دعمهم لملوك الشمال خلال العهود اللاحقة إلا أن هذا الدعم لم يعد مطلوباً بالكثافة السابقة نفسها، ولم يعد حتى مرغوباً إذ تمكّن الشماليون وحلفاؤهم بعد موقعة العقاب الحاسمة عام ١٢١٢ من اكتساح معظم الأراضي الأندلسية. ولم يقترب القرن الثالث عشر من نهايته حتى كانوا سيطروا على الوضع في الجنوب وفرضوا الجزية على غرناطة، وتفرّغوا للتناحر الداخلي شأنهم في ذلك شأن الأندلسيين.

٥ - الأسباب الاقتصادية

تكمن وراء نهوض الممالك الشمالية في الأندلس عوامل عدة تطورت مع الزمن استجابة لمتطلبات اقتصادية واجتماعية وسكانية محددة. وبما أن الأنظمة في كل مكان لا تقوم إلا على هذه العوامل فإن كل ما سواها، مثل العوامل الدينية والفكريّة والسياسية وغيرها، رديف أو حتى هامشي إلا في حالات بعينها لأن جلّ البشر يريد أن يأكل ويشرب ويتزاوج قبل أي شيء آخر، أي أنه يريد، باختصار، اشباع حاجات بطنه وفرجه.

وخلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين سجل عدد سكان الممالك المسيحية في الأندلس ارتفاعاً كبيراً نتيجة ثلاثة أسباب رئيسة: الأول تدفق المهاجرين الأوروبيين لاستيطان المناطق الجديدة التي احتلتها الممالك الشمالية، والثاني نزوح جماعات من

النصارى المستعربين الذين كانوا يقيمون في الجنوب ثم فضّلوا الانتقال إلى الشمال لسبب أو آخر، والثالث ازدياد ملحوظ في نسبة التزايد السكاني في الشمال بعد مرحلة من الاستقرار النسبي التي أعقبت عجز قرطبة عن التصدي للشمال لانشغالها بالفتن الداخلية في عهدي الولاية والأمارة. وفي البداية كان التحرك الشمالي نحو الجنوب استجابة لحاجة ملحة اقتضت مزيداً من الاراضي لاستيعاب العدد المتزايد من السكان، لكنه أصبح مع الزمن سياسة مرسومة سارع ملوك الشمال إلى تطبيقها كلما ضعفت مقاومة الأندلسيين خصوصاً عند نشوب الحروب الأهلية أو شيوع الفتن. وحيثما تمكن ملوك الشمال من تحقيق مكاسب جديدة على الأرض عمدوا بسرعة إلى إسكانها ليساهم المستوطنون في الدفاع عنها وابقائها بيد الشماليين.

وبحلول بداية العقد الثاني من القرن العاشر الميلادي كان ملوك أستورياس بسطوا سلطانهم على خُمس آيبرية فحققوا مطالب السكان الذين كانوا ينظرون إلى الملوك في تلك الحقبة من الزمن على أنهم مفتاح الخير والثراء. إلا أن هذا لا يستثني وجود عوامل أخرى ساهمت في الاندفاع نحو الجنوب مثل الجفاف أو المجاعة أو السعي إلى تحقيق انتصار إضافي لنصرة الدين أو إبعاد الأنظار عن المشاكل الداخلية وغيرها من الأسباب التي كمنت دائماً وراء نشوب الحروب في العالم، وفي صورة لا تختلف كثيراً عما يحدث اليوم.

وتتصف المناطق الجبلية التي قامت فيها الممالك الشمالية بوعورتها وفقرها وقلة خصوبتها مما يفسر سبب تجنّب معظم الغزاة الذين دخلوا آيبرية هذه التخوم منذ أقدم العصور. وعكس اقتصاد الممالك الشمالية الأولى أوضاعها الجغرافية والمناخية فتألفت عناصره الأساسية من تربية الماشية والاتجار بالصوف الخام والتجارة المحدودة وبيع العبيد الصقالبة إلى أن فتح ضعف الأندلسيين بوابة هائلة أمام مصدر لا ينضب من الثروة التي تدفقت على الشمال. ولم يملك الشماليون في أي وقت من الأوقات التي سبقت القرن العاشر قوة كافية لاكتساح الجنوب. والسبب ليس عسكرياً فقط لأن الشماليين ما كانوا سيتوغلون في الجنوب كثيراً حتى لو قدروا وحسبهم إذ ذاك السعي إلى الإغتراف من ثروة الجنوب. وعندما بدأ الشماليون النزول إلى سهول نهر دويرة وجدوا الأراضي الخصبة لكن قسماً كبيراً منهم كان ينأى عن مزاولة هذه الحرفة وظل هكذا في القرون اللاحقة. أما الخيار الأسهل من صنع الثروة فهو اقتناصها لكنّ اقتناصها لم يكن ممكناً قبل الوصول إلى تخوم وديان النهر الكبير حيث الثروة الأندلسية الكبيرة. وهذا ما حدث في صورة ملفتة أيام ملوك الطوائف عندما صارت

الأندلس «بنك» ملوك الشمال يتلقون منه التحويل بعد الآخر في أوقات معلومة ويلوّحون بسيوفهم كلما تأخّر فيأتيهم متعجلاً نفسه حتى باتت الجزية أكبر مصدر دخل للممالك الشمالية.

وماذا كان ملوك الشمال يفعلون بكل ذلك المال؟

كانوا ينفقون جزءاً منه على بناء القصور وتجميلها بأيد أندلسية في حالات كثيرة، وكان جزء منه يتسرب إلى العامة إلا أن جزءاً كبيراً كان يُصرف على الجيش والمرتزقة، أي في الاستثمار في أدوات الحصول على مزيد من الجزية. وكان ملوك الطوائف في معظم سنوات القرنين الحادي عشر والثاني عشر يرشون الشمال خوفاً على عروشهم، إلا أنهم كانوا في الوقت نفسه يغذّون الحرب ضدهم صاغرين. وإذا اخذنا في الاعتبار المبالغ الهائلة التي دفعها ملوك الطوائف لقشتالة فربما أمكن القول إن العصور الوسطى لم تعرف إلا في حالات قليلة جداً وضعاً يماثل وضع الملوك الأندلسيين الذين وجدوا أنفسهم يموّلون الحرب ضد أنفسهم بأموال الشعوب التي حكموها.

وخلال القرنين المذكورين والعقد الأول من القرن الثالث عشر دخل الشمال والجنوب في الأندلس في حلقة عجيبة فصار التهديد بالحرب ضد الجنوب يغذّي الخزائن في الشمال ثم تعود الخزائن فتغذي التهديد بالحرب. وكلما ازدادت نفقات التهديد ازدادت الجزية وهكذا تسارع انتقال الثروة من الجنوب إلى الشمال وعجز ملوك الطوائف عن دفع المستحقات وبدأ غش العملة والتلاعب بأوزانها. وماذا يحدث عندما يتوقف البنك عن إرسال التحويلات؟ يعلن متلقي التحويلات الإفلاس أو يفتّش عن مصدر آخر. وأحياناً يحدث شيء ثالث مختلف تماماً فيذهب الشخص الذي كان يتلقى التحويلات إلى البنك بنفسه ويستولي عليه كاملاً غير منقوص. وهذا ما فعله ألفونصو السادس عندما ذهب بنفسه إلى واحدة من أغنى مدن الأندلس هي طليطلة وأخذها عنوة، وحلتّ محل سياسة استدرار الثروة من مصادر الثروة سياسة جديدة قامت على الاستيلاء على مصادر الثروة نفسها.

معالم الاقتصاد الأندلسي

كان استتباب الوضع السياسي في الأندلس في عهد الإمارة بمثابة ضوء أخضر اعطى اشارة بدء عملية بناء الاقتصاد الأندلسي إذ أغلق عبدالرحمن الداخل باب السلطة في وجه الفئات المتنازعة والشخصيات الطموحة وتحولت القوى المهدورة في النزاعات السياسية إلى المساهمة في زيادة الانتاج وتحقيق الرخاء الذي قام على الزراعة

والتجارة والصناعة المتوافرة في ذلك الوقت. لكن أسس قيام تلك النهضة الزراعية والتجارية وُضعت عندما تقوض حكم القوط الغربيين في آيبرية (عام ٧١١)، وانتهى وجودهم الذي فرضوه على السكان المحليين فترة زادت على قرنين من الزمن.

ولم يكن الفلاحون بمنأى عن السياسة القوطية المتبعة في آيبرية، إذ كانوا عبيدا أجراء لدى النبلاء يقدمون لهم بين ٥٠ و٨٠ في المئة من المحصول. ولم تكن حصة الفلاحين تكفي أحيانا لبذار الموسم التالي أو لسد حاجة العاملين في الحقول، الأمر الذي أدى إلى تضاؤل الاهتمام بالأرض فأهملتهم عندما أهملوها. ونزلت بآيبرية قبل ثلاث سنوات من الفتح العربي مجاعة شديدة، وعصف بالسكان وباء فأودى بحياة الكثيرين.

وأعيد توزيع الاراضي الأندلسية بعد الفتح طبقا للطريقة التي سقطت بها هذه الاراضي، فمنها ما استبقاه السكان المحليون على صلح، ومنها ما ملكه الفاتحون بعد حرب أو بعدما فر أصحابها، ومنها أيضاً ما مُلك بطرق مختلفة أخرى. أما السكان المحليون الذين استمروا في العمل أو السكنى في أراضيهم، فكانوا عموماً يدفعون جزية وخراجاً على أرضهم من الغلة يراوح بين ٢٠ و٣٥ في المئة وأحيانا ٥٠ في المئة طبقاً لنوع المحصول وفترة إثماره والكمية الفائضة عن الاستهلاك والبذار.

وتوضح المعلومات الاقتصادية المتوافرة عن تلك الفترة من تاريخ الأندلس أن القمح كان المحصول الرئيسي، ويبدو انه كان يزيد على حاجة السكان في أغلب الاحايين. كما احتل الزيتون مرتبة مهمة فعُمد إلى توسيع نطاق زراعته وتحسينه لا سيما في المناطق المحيطة بمدينة جيان التي لا تزال حتى اليوم تعيش على الزيتون مصدراً رئيسيا لاقتصادها. وأدخل العرب في سنوات ما بعد الفتح مزروعات جديدة إلى الأندلس شملت الحمضيات واللوز والتين والدراق والرمان والموز والزعفران والحلفاء والقطن والكتان وقصب السكر والمشمش «ومع الزمن أصبحت بلاد الأندلس كأنها بستان واحد متصل، كثيرة المبنى والثمار، وإذا سافر المرء من مدينة إلى أخرى، سار في مناطق عامرة مأهولة تتخللها قرى كثيرة نظيفة ومبيّضة الدور من الخارج، ولم يحتج المسافر أن يحمل معه زاداً أو ماءً». [1] وحيثما وجد عرب أو بربر في منطقة أو أخرى، اعطى هؤلاء المكان سمات متميزة كما حدث بالنسبة للسوريين في كورة البيرة (غرناطة) والمصريين في باجة وتدمير (مرسية) والفلسطينيين في مناطق شذونة، والاردنيين في رية، وأهل حمص في إشبيلية، والبربر في المناطق المرتفعة التي تلائم

[1] «تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة»، الدكتور إحسان عبّاس، (بيروت ١٩٦٩)، ص ٢١.

طبيعتهم وتتشابه مع المناطق التي قدموا منها قبل الفتح . وكان لادخال الحمير إلى الأندلس بعد جلبها من مصر مفعول هائل في «تثوير» طرق الفلاحة والحصاد وارتفاع حجم المحصول . وربما بدا هذا غريباً اليوم ، لكن أحد مفاهيم الرخاء في ذلك العصر ، كان توافر حمار لكل شخص يستخدمه في غاياته المختلفة .

وسدّ تطوّر الزراعة في الأندلس حاجة الاستهلاك المحلي وقدم جزءاً كان يُصدر إلى الشمال الافريقي ومنه إلى مصر وربما وصل بعض المنتوجات إلى بغداد . لكن هذا لا يعني ان الخير كان عاماً إذ تسببت عوامل كثيرة في إضعاف المحصول في بعض السنين وحتى في وقوع مجاعات عدّة ، كما حدث عام ٨١٥ (١٩٩) و٩١٥ (٣٠٢) عندما مات أكثر الخلق جهداً . أما في الأوقات غيرها فقد استطاعت الأندلس النهوض من محنتها ومتابعة صنع الرخاء الذي عرفته حتى في أوقات ضعف سلطتها السياسية . واستفاد الأندلسيون في نشاطهم الزراعي من القنوات التي بناها الرومان في القرن الأول المسيحي لكنهم زادوا عليها وأصلحوا القديم منها وحسّنوه وشقوا قنوات جديدة . واتقن الأندلسيون التعامل بفنون السقاية وجلب المياه من مسافات بعيدة . كما استخدموا النواعير ، وكانت من النوع الذي تربط إلى إطاره قلال من نوع لا يزال موجوداً في بعض مناطق الصعيد المصري حتى الآن . ومع انحسار الوجود العربي في منطقتي غرناطة وبلنسية تكثّفت الخبرة وتحولت المنطقتان إلى اثنتين من أخصب بقاع أوروبة ، وبقيتا كذلك حتى رحّلت السلطات القشتالية الأندلسيين في بداية القرن السابع عشر . وتعرض النشاط الزراعي إلى كارثة نتيجة الاهمال استمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر عندما تجدّد الاهتمام به اعتماداً على الكتب الزراعية التي وضعها الأندلسيون . ومع الزمن أصبحت إسبانيا من بين أكثر الدول انتاجاً للزيتون والدرّاق ، وهي اليوم أكبر مصدر للزعفران ومركز الاتجار به مدينة البسيط جنوب غربي بلنسية .

الصناعة

وفّر تطور زراعة القمح والقطن والكتان والتوت وازدياد الاعتناء بتربية الماشية المواد الأولية اللازمة لقيام صناعات خفيفة ، لقيت تشجيعا مناسباً فنمت في معظم أرجاء الأندلس مستفيدة من الخبرات التي توافرت لدى السكان المحليين في بداية عهد الفتح ، ومن الخبرة التي حملها العرب الذين استوطنوا الأندلس في سنوات لاحقة . وبتوافر المواد الأولية والخبرة تطورت صناعة المنسوجات والسكر والخزف والسجاد والعطور والمواد الكيماوية المختلفة لا سيما الاصباغ ، وكذلك صناعة الزجاج

والصناعات اليدوية الأخرى. وترد إشارات كثيرة إلى هذه الصناعات إذ أنشأ عبدالرحمن الداخل داراً خاصة للطراز، تُصنع فيها ملابس أصحاب الخدمة. وتطورت صناعة الملابس في ما بعد لتغطي الاستهلاك المحلي مع تخصيص قسم كان يُصدّر إلى المغرب أو الشمال. وربما اعتبرت مدينة شقوبية من أهم مراكز صنع الملابس في الأندلس حتى سقطت بأيدي الشماليين عام ١٠٨٥ (٤٧٨). أما غرناطة فكانت أهم مراكز تربية دود القزّ وصناعة المنسوجات والملابس الحرير في أوروبة حتى أمر فيليب الثاني بتغريب معظم سكان المملكة بعد الثورة الكبرى إلى مناطق منحوسة كثيرة في القشتالتين القديمة والجديدة.

وأحسن الأندلسيون استغلال عدد كبير من المعادن المحلية مثل الحديد والزئبق والنحاس، فكان ذلك عاملاً مهماً في تطوير صناعة الأسلحة والمعدات العسكرية الأخرى التي كانت مستخدمة في ذلك الوقت. وشجع عبدالرحمن الثاني هذه الصناعة وذاع صيت طليطلة كمركز رئيس لصناعة الأسنّة والرماح والسيوف وغيرها من الأسلحة،[1] ثم تطورت هذه الصناعة في العصور الأحدث فصارت تُنتج البنادق والأسلحة الفردية وغيرها.

ومع تقدم الصناعة في القرن التاسع الميلادي تمكّن الأندلسيون من انتاج الزجاج المعروف بالظرابي الصواني والزجاج الشفاف والورق. ولمع اسم مدينة شاطبة Jativa مركزاً مهماً لانتاج المادة الاخيرة، مما ساهم إلى حد كبير في تطوير صناعة الوراقة. ونشطت هذه الصناعات على نطاق «ورشات» صغيرة يعمل فيها عدد محدود من الاشخاص، سواء كان ذلك في ورشات صناعة الأسلحة أو المصابيح أو في معاصر الزيتون والمطاحن التي لا تزال انقاض بعضها باقية حتى اليوم في قرطبة على رغم مرور أكثر من الف سنة على بنائها.

أما الصناعات الاثقل فشملت السفن بكل أنواعها السفري والتجاري والحربي استجابة لمتطلبات الدفاع والتجارة والتنقل، وتركزت في الجنوب الأندلسي، وعلى الساحل الشرقي في مدن مثل المرية ولقنت ودانية وغيرها. ويبدو أن انتاج السفن كان كبيراً نظراً إلى توافر معظم المواد الأوليّة اللازمة لذلك في الأندلس وبلاد المغرب وصقليّة التي كانت تُجلب منها أخشاب السفن مثل الصنوبر والأرز والبلّوط. ومن هذه الأخشاب كانت تُصنع ألواح السفن والصواري والمجاذيف، فيما توافرت المواد

[1] يرجع صيت سيوف طليطلة الذائع إلى الزخارف الدمشقية البديعة المحفورة فيها. وحفظ الطليطليون سر الصنعة ونقلها الابناء عن الأباء. ويُقال إن في رمل طليطلة وماء نهر تاجه ما يميز سيوفها حتى اليوم.

الأخرى بكثرة مثل «الحديد لعمل المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف والعرادات والفؤوس واللتوت والدبابيس والجواشن وغير ذلك من الآلات والأسلحة، والنحاس الذي تصنع منه السلاسل، والألياف لعمل حبال المراسي، والقطران والزفت لقلفطة السفن حتى لا تؤثّر المياه في ألواحها المغمورة في البحر، والقطران والكبريت اللازمين لصناعة النفط البحري وهو نوع لا ينطفىء إذا سقط في الماء، وكذلك القطران والكتّان لصناعة النار الحارقة». [1] وتذكر وثائق تاريخية أن عدد السفن التي استخدمت في إخضاع سكان جزيرتي ميورقة ومنورقة عام ٨٤٩ (٢٣٤) كان نحو ٣٠٠ سفينة مما يدلّ على اتساع صناعتها. كما استخدم عدد كبير من السفن لحراسة الشواطئ الأندلسية، لا سيما إثر الهجمات التي شنها النورمان اعتباراً من عام ٨٤٤. ولا شك في ان توافر مثل هذا الاسطول لغرضي الدفاع والتجارة كان سبباً مهماً في إيجاد الاستقرار المطلوب للاستمرار في تطوير البنية الصناعية الأندلسية وزيادة رخاء البلاد.

التجارة

ساهم وجود فائض في المنتوجات الزراعية والصناعية في تشجيع تجارة نشطة عادت على الأندلس بالرخاء ومنحتها القوة التي مكنتها من التصدي للشماليين حتى بعد انهيار الخلافة، وإن كان هذا الرخاء أجّج أطماع الممالك الشمالية. ومنذ نشوء الأمارة القرطبية تكاملت القدرات الإدارية اللازمة لبدء عملية بناء الاقتصاد الأندلسي، فاعتمد الناس في بداية الأمر الأوزان والمقاييس ذات الأصل الروماني. وسك عبدالرحمن الداخل الدينار القرطبي فأصبح عملة مقبولة في كل الأندلس، وفي كثير من دول أوروبة. وكانت المبادلات التجارية الدوليّة تتم بالدينار العربي ودينار بيزنطة ودينار غالة الذي سكّه للمرة الأولى الملك شارلمان. ولم تكن العملة التي سكت بأمر عبدالرحمن الأولى التي تضرب في الأندلس إذ سعى موسى بن نصير في بداية عهد الفتح إلى إبراز مظهر السلطة الإسلامية في آيبرية فضرب أول النقود التي كانت صورة عن النقود المستخدمة في آيبرية قبلا، سواء من ناحية المعدن أو الكتابة بالحروف اللاتينية مع استبدال المعاني المسيحية بأخرى إسلامية وإضافة التاريخ الهجري عليها. وتطورت عملية سك العملة في عهد عبد الرحمن فأنشأ داراً خاصة لها في عاصمة الامارة.

---

[1] «تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس». الدكتوران السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، (بيروت ١٩٦٩). »، ص ٥٧، وأنظر أيضاً مراجع النص المُقتطف.

ولا تتوافر احصاءات تجارية يُعوّل عليها عن تلك الفترة لكن كتب التاريخ تذكر أنّ السفن التجارية كانت تبحر بين الموانيء الأندلسية وموانيء المغرب والاسكندرية والشام وصقلية والجزر الأخرى في البحر الأبيض المتوسط وبعض الموانيء الأوروبية القريبة. وكان الأندلسيون يصدّرون إلى المغرب ومصر والشام وغيرها المنسوجات والوشي والبسط والزجاج والزعفران والورق والجلود وزيت الزيتون والأسلحة والزئبق والتوتياء والعنبر والعبيد الصقالبة، فيما كان التين يُحمل من مالقة و«يباع في بغداد». [1] واستوردت الأندلس عدداً كبيراً من المصنوعات والمواد الأوليّة والفستق والجلود والزنوج الأفارقة، وظل الميزان التجاري لصالحها في أغلب الأوقات. وكان التجار الأندلسيون يحملون إلى قرطبة وإشبيلية وبلنسية وغيرها الذهب الذي كان يُستخرج من ضفاف أنهار غرب افريقيا ويُنقل عبر المغرب. وظل ذاك المصدر أهم مصادر المعدن الثمين إلى حين اكتشاف الذهب والفضة في بلاد أفريقية أخرى والعالم الجديد. ولعبت الأندلس أيضاً دوراً رئيسياً كمصدر ومستورد مع الممالك الأوروبية فشملت الصادرات المنسوجات والملابس والمصنوعات اليدوية المتنوعة وغيرها الكثير. ولا شك ان تجارة العبيد الصقالبة كانت اهم تجارة تعاملت بها الممالك الشمالية الصغيرة، وكان هؤلاء يُؤسرون من مناطق وسط أوروبة ودول البلقان حاليا، وينقلون إلى الأندلس ومنها إلى المغرب ومصر والشام وباقي الدول و«جميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يُخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود والصقالبة». [2]

وكانت هذه التجارة مصدر رخاء كبير لمدن مثل بمبلونة وبرشلونة، وعادت على الشماليين بدخل استخدموا بعضه لشراء المنتوجات الأندلسية المتنوعة، والبعض الآخر للإنفاق على الجيوش. فالتجارة في تلك الفترة، كما هي اليوم، كانت تتم من دون الالتفات كثيراً إلى بعدها العسكري، حتى أن ملوك الشمال الآيبري درجوا على شراء ملابسهم من الجنوب، لا سيما الحريرية، خلال فترات اندلاع الحروب بين الجهتين.

كما أدّت الأندلس دوراً رئيسياً كمركز لإعادة تصدير البضائع الشرقية والمغربيّة إلى الشمال وأوروبة خصوصاً التوابل والأفاوية والمكسرات والعطور وغيرها من المواد. وكان الأمان النسبي الذي ساد البحر الابيض المتوسط عاملاً مهماً في زيادة التبادل التجاري مع الأندلس، إذ كان هذا البحر خاضعاً للنفوذ العربي اعتباراً من منتصف

---

[1] «نفح الطيب، ج٤، ص ٢٠٥.

[2] «صورة الأرض». أبو القسام ابن حوقل النصيبي. (ليدن ١٩٣٨)، ص ١١٠.

القرن السابع الميلادي في إثر معركة ذات الصواري (٦٥٤)، لكن الحركة التجارية كانت أنشط مع المغرب لا سيما المغربين الاوسط والاقصى لسعة أسواقهما وارتفاع عدد سكانهما. ووفر هذا الوضع الاقتصادي الجيد للأندلس رخاء كبيراً ربما فاق في بعض الفترات رخاء المشرق في القاهرة وبغداد ودمشق، ومكّن الأندلسيين من تطوير الزراعة والصناعة والتعامل التجاري تحت غطاء الأمن والاستقرار. إلا أن الأمر بدأ يتغير بعد انهيار الخلافة واهتزاز الأمن في الأندلس، على رغم ان وضع الأندلسيين ظل جيداً في صورة عامة حتى بعد تراجعهم وانحسار سلطتهم تدريجاً. ثم تكررت القصة ذاتها في مملكة غرناطة كما تشهد بذلك المزارع والأقنية والصناعات التي لا يزال بعضها، أو آثارها الدارسة، باقياً حتى اليوم.

اقتصاد الممالك الشمالية

كان الشماليون يتعاملون بدينار بيزنطة (دولار ذلك الزمان) وديناري قرطبة وغالة. وكان المصدر الرئيس للدخل الماشية التي يملكونها بالإضافة إلى دخل محدود من الزراعة والصناعة وتجارة العبيد الصقالبة. واستمر التعامل التجاري ضمن المناطق الشمالية بالمقايضة، إلى ان أدخل هؤلاء بعض مظاهر النظام المالي من عاصمة الأندلس. كما ساهم بعض من رحل إلى الشمال من المستعربين واليهود في ايجاد نشاط أفضل، سواء في تطوير الزراعة أو الصناعات. وتوافر للشماليين بعد انهيار الخلافة وقيام ممالك الطوائف دخل جديد سهل جاء عن طريق فرض الجزية. وفي القرن الثالث عشر انهت ممالك الشمال احتلال معظم اراضي الأندلس واتبعتها باحتلال غرناطة عام ١٤٩٢. وخلال تلك الفترة الطويلة من الزمن طرأت جملة تغييرات على طبيعة اقتصاد البلاد. في أرغون مثلاً بقي عدد كبير من العرب، خصوصاً المزارعين الذين تابعوا فلاحة اراضيهم وانتاج المحاصيل والاستمرار في الصناعات التي اتقنوها، فلم تتضرر تلك المملكة كما تضررت المناطق التي احتلها ملوك قشتالة. ولا ينطبق هذا الوضع على كل الحالات فالمعروف ان خايمي الأول الأرغوني طرد عدداً كبيراً من المزارعين من أراضي مرسية مما أدّى إلى خرابها. وانفصل اقتصاد أرغون عن قشتالة منذ القرن الثالث عشر حين بنت أرغون أمبراطوريتها في البحر الابيض المتوسط، فطورت أسطولها التجاري وأقامت أمبراطورية تجارية زاحمت الإيطاليين حتى تعرضت إلى الاضمحلال في القرن الخامس عشر قبل ان تلتهمها قشتالة، كما التهمت الأندلس، وكما حاولت بعد ذلك

التهام البرتغال. ثم نزلت بأرغون نازلة كبيرة عندما نفت إسبانيا معظم الأندلسيين الجدد في مطلع القرن السابع عشر لم تتخلّص منها إلا بعد فترة طويلة.

ويعود اعتماد اقتصاد قشتالة على الماشية إلى إخفاقها في تطوير أي صناعة حقيقية. فمعظم ما وجد من صناعات في الشمال كان في صورة أساسية في أيدي المستعربين النازحين من الأندلس، أو اليهود. ومع احتدام القتال مع الأندلس اعتباراً من القرن الثاني عشر أضحى الاعتماد على الماشية امراً فرضته طبيعة الحرب فلو حدث مثلاً وأغار جيش على قلعة أو مدينة ما فمن السهل على الرعاة جمع ماشيتهم خلال ساعات والعودة بها إلى داخل اسوار المدينة. وكان المحاربون في تلك الفترات يعرفون أهمية الحرب الاقتصادية في إنهاك قوى الخصم وإضعاف قدرته على الصمود. وكانوا في الغالب يستعملون أسلوب الأرض المحروقة لتسريع سقوط المدينة، إذ كان عامل تجويع سكان المدينة أو القلعة وقطع الماء عنهم من أهم عوامل إنهاكها.

وكان الهجوم المباشر على الاسوار يسبب في العادة خسائر كبيرة في الأرواح، وكان معظم المدن قادراً على الصمود في وجه هجوم مباشر أو حصار قصير الأمد نسبيا. يُضاف إلى ذلك ان الجيوش المحاصرة كانت قلما تستطيع الصمود نتيجة حصار طويل الاجل ما لم يكن المدد مضموناً في صورة دائمة. وعلى هذا فإن اسقاط مدينة معينة كان يتم في العادة على ثلاث مراحل: الأولى الإغارة على المنازل المكشوفة المحيطة بتلك المدينة، وإحراق الزرع وقطع الأشجار والماء أو تحويل الجداول الصغيرة. ويشير بعض المعلومات إلى ان إيزابيلا وفرناندو وظفا أكثر من نصف القوات المحشودة للحرب مع غرناطة (أو نحو ٣٠,٠٠٠ جندي) لشن حرب اقتصادية شاملة ضد غرناطة، أحرقوا خلالها الزرع والمحاصيل حتى قلّت الأقوات وارتفعت أسعارها. أما المرحلة التالية من الحصار فهي الاستيلاء على نقاط التحصين القريبة أو المنابر، وقطع طرق التموين المستخدمة لنقل المؤن على البغال والحمير في العادة كما بين مدينة غرناطة وقرى جبل شلير (الثلج). وإذا انتهت المرحلة الثانية ضرب الجيش المحاصر النطاق حول المدينة إلى ان يجوع أهلها وربما اضطروا بعد ذلك إلى الاستسلام. وهكذا كان حصار مدينة متوسطة الحجم يستغرق سنوات عدّة في بعض الاحايين قبل سقوطها لكن معظم المدن كان يستعصي ويضطر الجيش في النهاية إلى رفع الحصار.

ولم يملك القشاتلة في بداية نهوضهم الخبرة اللازمة لإدارة اقتصاد معقد يقوم على دعائم مشتركة ذات أداء يعتمد قسمه على القسم الآخر. وتوغّل القشاتلة في الأندلس خلال القرن الثالث عشر فدخلوا مناطق لا يعرفون كيف يديرون عجلة الزراعة

والتجارة فيها، ويعرفون الأقل من ذلك عن الصناعة. وأدى احتلال المدن الأندلسية الكبيرة إلى تقويض دعائم الصناعة والتجارة فيها على الفور تقريباً، وكان همّ النبلاء الذين يحصلون على قطع من الأرض بعد احتلالها التمكن من الاحتفاظ بالمزارعين الأندلسيين. وفي الحالات التي بقي فيها عدد كاف من المزارعين الأندلسيين، كما حدث في أرغون مثلاً وبعض مناطق الأندلس، تابعت الأرض انتعاشها. أما في معظم الحالات الأخرى فإن الأرض تحولت إلى بلقع من الزمن فباع أصحابها الأرض التي أقطعهم الملك إياها ورحلوا إلى الشمال ثانية في انتظار حرب أخرى يشاركون فيها للحصول على أراض غنيّة جديدة. واستفاد من تخريب الأرض عمداً أصحاب الماشية التي ملكها الافراد أو الفرق الدينية أو الرهبانيات أو الكنيسة، خصوصاً وسط البلاد الذي لا يزال إلى اليوم يبدو كأنه ساحة قتال فقيرة بالشجر والخضرة بسبب كثافة الرعي في أراضيه آنذاك.

على الساحل الشرقي لشبه جزيرة آيبرية أدى انهيار مدن مثل المرية ومرسية وغيرها إلى مساعدة مدن شمالية مثل برشلونة على تطوير تجارتها مع أوروبة والمشرق. وتوجد سجلات تشير إلى ان أرغون كانت تتاجر مع تونس ومصر وتلمسان اعتباراً من القرن الثالث عشر عندما قررت الاتجاه إلى منطقة البحر الابيض المتوسط لتنافس البندقية وفلورنسا وجنوة حتى وصل التنافس إلى حرب سافرة. ثم نمت برشلونة إلى ان أصبحت خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر واحدة من أكبر ورشات صناعة السفن في البحر الابيض المتوسط. وكانت برشلونة مركزاً مهماً لتصدير عدد كبير من المنتجات الزراعية والصناعية الأندلسية قبل سقوط معظم مناطق الأندلس في القرن الثالث عشر، بل ان دورها يمتد إلى فترة الخلافة القرطبية. ولأن الوجود الأندلسي فيها كان كبيراً، تمكنت برشلونة من تصدير الأسلحة والجلود والأقمشة وجميع ما تحتاج اليه السفن، بالإضافة إلى عدد من المنتجات الزراعية من المناطق المحيطة ببلنسية مثل الزبيب والجوز، وكذا إعادة تصدير التوابل إلى فرنسا وإنكلترا وهولندا وغيرها من الدول قبل أن تضيف إلى صادراتها العبيد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

لكن أوج الرخاء الذي عرفته أرغون كان في القرن الثالث عشر والقسم الأعظم من القرن الرابع عشر حينما حاولت اللحاق بركب الممالك الايطالية التي كانت أول من استفاد من «الثورة التجارية» التي قامت في آخر القرن الحادي عشر استجابة لمتطلبات الحروب الصليبية ومد خطوط التموين والنقل بين أوروبة والمشرق. وما ان جاء عام ١٣٨١ حتى نزلت بأرغون مشاكل مالية معقدة اضطرت بعدها إلى التقهقر أمام تقدم

التجار الايطاليين. ومنذ اكتشاف العالم الجديد ساهمت أرغون في الاتجار مع المستعمرات في ما وراء الاطلسي، لكن التجارة المباشرة كانت محصورة بقشتالة التي احتكرتها فترة طويلة إلى أن بدأ الهولنديون والانكليز في كسر هذا الاحتكار.

وفي قشتالة نفسها ظلت آثار عملية تخريب الاقتصاد الأندلسي التي رافقت اجتياح القرن الثالث عشر واضحة المعالم، وبقيت الزراعة بدائية للغاية. لكن بعض الصناعات الأساسية نما في القرن الرابع عشر، مثل صناعة الصابون والورق والجلود وغيرها من الصناعات الخفيفة. كما تطورت صناعة السفن في مدينة سنتندير الواقعة على خليج بسقاية في الشمال وكذلك في إشبيلية. ومع ذلك ظلّت قشتالة تعتمد على تصدير الصوف الخام كدخل رئيسي بعدما حسّنت نوع الصوف القشتالي نتيجة نجاح تهجين نوع الخراف المغربي المعروف باسم «مورينو» مع الأنواع المحلية آخر القرن الثالث عشر. وخلال تلك الفترة تفوقت قشتالة في حجم صادراتها من الصوف على إنكلترا التي كانت قبل ذلك أكبر مُصدّر لهذه المادة. وبحلول القرن الرابع عشر باتت قشتالة أهم مصدري الصوف الجيد، وساهم ارتفاع حجم الصادرات في مطلع القرن الخامس عشر في بناء اسطول تجاري قشتالي كبير كانت سفنه تحمل الصوف والجلود إلى إيطاليا وهولندا وغيرها من الدول الأوروبية.

وعملت إيزابيلا في نهاية القرن الخامس عشر على سك عملة رئيسية هي «الاكسلنته» التي ساوت الدوقة المعتمدة في البندقية. ووحّدت المقاييس والأوزان وحسّنت الطرق والموانئ، ثم حدّدت كمية الصوف الممكن تصديرها بثلثي الانتاج لتشجيع صناعة المنسوجات. لكن إيزابيلا أصرت على الاهتمام بتربية المواشي دون سائر القطاعات الأخرى وأصدرت عام ١٤٩١ مرسوماً منع إقامة الحواجز في غرناطة كي لا تعيق رعي الماشية. وكان لسياسة إيزابيلا المعادية للزراعة أثر كبير في إضعاف الثروة الزراعية، وفضّل الإسبان في تلك الحقبة توظيف الاستثمارات في الماشية على الزراعة والتجارة والصناعة.

ووراء هذه السياسة خلفية نفسانية مهمة ميزت القشتاليين عن غيرهم إذ كان هؤلاء يترفعون عن القيام بالأعمال اليدوية، ويعتبرونها تحقيراً لشأنهم لذا ظلت الأقليات تسيطر على جزء مهم من النشاطات الصناعية والزراعية. وبقي القشتاليون يعتقدون أن وظيفة الآخرين فلاحة الأرض وانتاج المصنوعات لكن رسالتهم هي القتال والسيطرة على شعوب الأرض الأخرى وتسخير ثرواتها لخدمة أهدافها إلى أن بدأ نجم قشتالة في الهبوط في القرن السابع عشر.

٦- النزاعات الداخلية

يعكس تردد الوليد بن عبد الملك الخليفة في فتح الأندلس المخاوف التي ساورته من عبور المسلمين إلى ارض لا يُعرف عنها الكثير، واحتمال تعرضهم للتهلكة قبل التمكن من نجدتهم في الوقت المناسب. ودفعت هذه المخاوف الخلافة الاموية في دمشق إلى التسامح في التعامل مع الفاتحين الاوائل بالنسبة لتقسيم الاراضي، حتى لو كان ذلك على حساب بيت المال، وسعت إلى تشجيعهم على البقاء في الاراضي الجديدة واعتبارها ثغراً من ثغور الجهاد خلال مرحلة فتح إسلامي لم يعرفها التاريخ من قبل. وكانت الأندلس، بحكم طريقة فتحها، تتبع والي أفريقية أحيانا ورغبة البلديين الأندلسيين احياناً أخرى. واستمرت صلة الأندلسيين بالخلافة الأمويّة قوية حيناً وواهية حيناً آخر، حتى سقطت الخلافة عام ٧٥٠ (١٣٢) وقامت على أنقاضها الخلافة العباسية فارتحل إلى الأندلس عبدالرحمن الداخل حفيد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأسس إمارته في قرطبة وألغى الدعاء للخليفة، مكرساً أول انفصال رئيس لمنطقة سيطر عليها المسلمون عن الجسد الأشمل.

ومنذ قيام الإمارة تحتم على الأندلسيين الاعتماد على أنفسهم لرد كل القوى التي حاولت غزو الأندلس سواء كانت من الشمال، أو من المملكة الكارولنجية الفرنسية أو من النورمان. ولعل من الصعب النظر بغير الاعجاب إلى السلطة التي أرسى عبدالرحمن دعائمها في الأندلس، إذ استمر عمرها ثلاثة أضعاف عمر الخلافة الأموية، وفاقت زمنياً السلطة الفعلية للخلافة العباسية، بينما بقيت غرناطة بعد ٢٣٤ سنة من اجتياح المغول مدينة السلام التي لم تعد مدينة للسلام بعدها فصار الناس يطلقون عليها الاسم الشعبي «بغداد»، واستمر التأثير الأندلسي مهماً حتى بداية القرن السابع عشر. وبقاء قرطبة تلك السنوات الكثيرة يضع كل القلاقل والأخطار الخارجية التي تهددتها في فترات مختلفة، ضمن إطار المشاكل التي أمكن السيطرة عليها، لكن هذا لا يمنع القول إن بعض تلك الأخطار، خصوصاً الداخلية منها، كاد في لحظات كثيرة أن يقوض سلطة قرطبة ويعجّل في سقوط الأندلس.

وجاءت الأخطار الداخلية التي عصفت بالأندلس في مراحل عدة نتيجة التركيب الاجتماعي الخاص بما يضمّه من عرب وبربر وسكان أصليين، فكان الصدام مع البربر في البداية إلى أن استقدم الجيش الشامي المحاصر في سبتة فتمكن بمساعدة البلديين الأندلسيين من القضاء على ثورة البربر. وما كادت هذه العاصفة تهدأ حتى اندلع

صدام بين الشاميين والبلديين فكانت الغلبة للجيش الشامي. وبعد هدوء العاصفة الثانية دبّت العصبية القبلية بين القيسية واليمانية، وانتهت حربهما بسيطرة القيسية على مقاليد الحكم. ثم جاء عبدالرحمن فاستعان باليمانية للتغلب على القيسية والانفراد بالسلطة. وتسبب هذا في انتفاض العصبيات كلها على حفيد هشام بن عبد الملك، بما في ذلك البربر الذين كان لهم دور كبير في معظم الثورات الداخلية في الأندلس.

وتوفى عبدالرحمن، الذي كان «مديد القامة نحيف القوام، أعور أخشم أصهب بضفيرتين وخال في وجهه»[1]، عام ٧٨٨ (١٧٢) فجاء هشام الرضا ومن بعده الحكم الربضي وساهما في توطيد الامارة الأموية في الأندلس. لكن الأندلس لم تكن بعيدة عن نزاعات السلطة المعروفة في المشرق فانقلب ابنا عبدالرحمن، سليمان وعبدالله، على أخيهما الأوسط هشام واستمرت الفتنة سنتين كانت الغلبة بعدهما لهشام، ثم عادا الى المطالبة بالأمارة بعد وفاة هشام وتولي ابنه الحكم السلطة. وانتهت الفتنة الثانية بمقتل سليمان واخضاع عبدالله. وصفة «الربضي» التي اطلقت على الحكم تذكير ببطشه بالثائرين عليه في ربض قرطبة. إذ أعمل جنده السيف بالناس واعتقلوا منهم الكثير وصلب نحو ٣٠٠ ثم هدم الربض وأمر بحراثة أرضه وزرعها ولا يزال على حاله إلى اليوم. ولم تكن الثورة على امارة قرطبة محصورة بالعاصمة إذ نشبت ثورات في الثغور الأعلى والأوسط والأدنى تزعّمها المولدون والبربر والمستعربون في وقت قويت فيه مملكة أستورياس الشمالية، وباتت تحقق توسعات على حساب الأندلس وتدعم الثورات ضد قرطبة. وتجدّدت هذه الثورات في فترات لاحقة وامتدت إلى الجنوب مهددة عاصمة الأمارة، ووصلت ذروتها في عهدي الأمير المنذر وعبدالله بن محمد، مما اضطر العرب إلى التكتل دفاعا عن أنفسهم أمام عجز أمير قرطبة فانحصر سلطانه حتى كاد لا يتجاوز حدود المدينة، وتمزقت هيبة الأمير تحت ضربات أصحاب الفتن من أمثال عبدالرحمن الجليقي وعمر بن حفصون.

وعاصرت ثورة ابن حفصون أربعة أمراء إلى أن تمكن عبدالرحمن من القضاء عليها، فأعلن نفسه بعد ذلك خليفة وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله. إلا أن الشماليين في عهده كانوا وصلوا إلى قدر كبير من القوة فهزموه في معركة الخندق، التي جرت عند مدينة شنت منكش عام ٩٣٩ (٣٢٧) ولم ينج إلا بجهد كبير. ولعب أمية بن اسحاق دوراً في الانتصار الذي حققه ردمير الثاني الليوني في تلك المعركة،

---

[1] في «أخبار مجموعة» إشارة طريفة إلى عبد الرحمن إذ ينقل عمن قابله القول: «فلما فارقتكما رويت فيه فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة (يقصد الأندلس) غرقنا نحن وانتم في بوله». «أخبار مجموعة»، ص ٧٣.

فكان يحارب معه ويدلّه على مكامن الضعف. وهذا نوع من المساعدات حصل عليها الشماليون من أندلسيين كثيرين في فترات مختلفة من تاريخ البلاد، وكان لها دور مهم في سقوطها. أما وقعة الخندق وغيرها من الأحداث فكانت استثناءً لعهد تمتعت خلاله الأندلس بالقوة والرخاء، وتصدت بنجاح لكثير من المخاطر التي كانت عموماً ذات طابع خارجي مثل هجمات النورمان الكثيرة. ولم تكن المهمة التي وقعت على عاتق خليفة قوي مثل الناصر سهلة فأيام سرور الناصر كانت أربعة عشر يوماً وهو أمر ليس بهين على خليفة حكم نحو نصف قرن وتوفى عام ٩٦١ (٣٥٠).

واستفاد الحكم الثاني المستنصر بالله من تجارب غيره وحصد ما زرعه والده، وحكم دولة مستقرة موحدة وشغف بالعلوم والمكتبات، لكنه توفى تاركا السلطة لابنه هشام المؤيد بالله وله من العمر احدى عشرة سنة، فانفرد محمد بن ابي عامر الحاجب المنصور بالحكم، وقضى على خصومه واخضع الشماليين في غزوات عدة. وفي حين أثنى بعض المؤرخين على المنصور، وجه إليه البعض الآخر اللوم واعتبره سبباً في ما أصاب الأندلس بعدها خصوصاً لاكثاره من المرتزقة في صفوف جيشه. ومع ذلك لم يكن هذا المنحى محصوراً بالمنصور إذ لجأ إليه عبدالرحمن الداخل حين اشترى أعداداً كبيرة من المماليك، وابتاع الحكم الربضي خمسة آلاف مملوك منهم ثلاثة آلاف فارس. وصار الاعتماد على المرتزقة من سمات ممالك الطوائف. وكانت العلاقات بين ملوك الطوائف والشماليين علاقات موادعة ومسالمة وانصياع ومساعدة، فيما كانت العلاقات بينهم أنفسهم «قائمة على التحرز والحذر وانفاق الأموال في بناء الحصون والاستكثار من المرتزقة في حال الدفاع، إذ غدت مشكلة الحدود الداخلية أهم مشكلة وأبرزها بين أولئك الامراء، أو أصبحت قائمة على طلب التوسع والغلبة وانقضاض القوي منهم على الضعيف في حال الهجوم». [1]

ولم يكن التنافس الذي دبّ بين ملوك الطوائف من البربر والعرب وموالي العامرية والظاهرين من العرب الخطر الوحيد على الأندلس إذ كانت الضغوط تشتد عبر العدوة المغربية، ومن الشمال حيث قويت الممالك المسيحية وباتت تهدد الجنوب. وأحياناً كانت الضغوط الخارجية سبباً في تفجر الصراعات الداخلية، وكان الصراع الداخلي والفتنة عاملاً جالباً للقوى الخارجية. إلا أننا نرى أن هؤلاء الملوك قصّروا في معالجة ثلاث من أهم النكبات التي واجهت الأندلس في عهدهم بل تسببوا في اثنتين منها. الأولى سقوط طليطلة والثانية سقوط بلنسية المؤقت على يد السيد القنبيطور، والثالثة

---

[1] «تاريخ الأدب الأندلسي-عصر الطوائف والمرابطين». د. إحسان عباس، (بيروت ١٩٧١)، ص ٨.

سقوط بربشتر. ولعل مأساة بربشتر التي اقتحمها الفايكنغ (النورمان) عام ١٠٦٧ (٤٥٦) كانت الأوقع من جهة الخسائر البشرية إذ قتل النورمان وأسروا عشرات الألوف من السكان حتى ليقال إن حصة قائدهم من تلك المعرة كانت نحو ١٥٠٠ فتاة لكن ملوك الطوائف لم يحرّكوا ساكناً لنجدة أهلها.

وفي إثر سقوط عاصمة الثغر الاوسط انتشر اليأس بين جماعات كثيرة من الأندلسيين الذين حضوا على الفرار من البلاد، لكن هذا الخيار لم يكن مُتاحاً لجمهور الناس الذين لم يجدوا بديلاً عن الرضوخ لحاكم طليطلة الجديد الذي اعتبر نفسه أمبراطوراً على الملتين النصرانية والإسلام، وفي هؤلاء قال الشاعر:

كفى حزناً بأن الناس قالوا ... إلى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها ... وليس لنا وراء البحر دور
رضوا بالرق يا لله! ماذا ... رآه وما أشار به مشير

واذا كانت هذه النكبات، وتجزؤ السلطان في الأندلس، واقتتال هذا الملك مع ذلك وغيرها من الأسباب ولدت شعور اليأس الداعي الى الرحيل عن الأندلس، فإن النكبات هذه كانت سبباً في الدعوة إلى التوحد والنهوض ضد الشماليين. ومع ذلك يمكن ان تعطي الدعوة إلى الرحيل الانطباع بأن البعض، لو خُيِّر بين الشماليين والرحيل لاختار الرحيل، ولتوقفت الأندلس عن كونها الوطن الوحيد لهؤلاء. والحقيقة ان الأندلس اختطّت منذ عهد عبدالرحمن الداخل طريقاً منفصلاً عن الخلافة المشرقية، وكانت في بعض الاحايين ترسم سياسة خارجية مغايرة تماماً للعباسيين، كما يتضح من علاقات قرطبة مع الأمبراطورية البيزنطية. لكن هذا لم يكن الوضع بالنسبة للعلاقات الفكرية والاجتماعية، إذ كانت الثقافة المشرقية منذ عهد الأمارة ذات تأثير كبير في التيارات الثقافية في الأندلس، فرحل كثير من الأدباء والعلماء إلى المشرق لتلقّي العلم أو الاطلاع على الأمور هناك، ومن هؤلاء من بقي في المشرق ولم يعد إلى مسقط رأسه.

يضاف إلى ذلك ان الكثير من عادات المشرق في المأكل والملبس والمسكن كانت شائعة في الأندلس. وليس أدل على ذلك من الدور الذي لعبه أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب في نقل العادات العباسية إلى بلاط قرطبة. هذا التأثير المشرقي حدد، بالنسبة للكثيرين، جوهر الولاء النهائي للأندلسيين. فربما رضخ البعض لتطورات اجبرته على قبول حكم الشماليين لكن البعض الآخر كان يفضل الرحيل أولاً إلى

المناطق الأندلسية التي لا تزال تحت سيطرة إخوانه أملاً في اشتداد عودهم ومساعدته على تحرير أرضه.

وتكلم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية بلسان الكثيرين حين كان الخيار بين الشماليين وأهل العدوة فاختار أهل العدوة كما في قوله الشهير: «رعي البعير ولا رعي الخنازير». حدث ذلك بعدما احتل ألفونصو السادس طليطلة، واخذ يتهدد الجنوب فلجأ المعتمد وغيره إلى الاستنجاد بالمرابطين وقاتلوا إلى جانبه في معركة الزلاقة التي جرت عام ١٠٨٦ (٤٧٩) وانتهت بهزيمة منكرة لحقت بألفونصو. ثم لحق ذلك اعتقال المعتمد ونفيه إلى أغمات التي كانت عاصمة المرابطين قبل انتقالهم إلى مراكش عام ١٠٦٢ (٤٥٤). واختيار المعتمد هنا كان بين سلطة المسيحيين أو سلطة المسلمين. وطرح هذا الخيار أمام النصارى المعاهدين في غرناطة بعد ذلك، فاختاروا الانقلاب على المسلمين، واستدعوا ملك أرغون ألفونصو الأول للاستيلاء على غرناطة فنظم حملة عام ١١٢٥ (٥١٩) اخترق بها الأندلس من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، لكن من دون ان يوفق في احتلال أي مدينة وعاد ومعه آلاف النصارى المعاهدين. أما من بقي من المعاهدين فنفي إلى المغرب بفتوى قاضي الجماعة قاضي القضاة ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد، جد الفيلسوف، واستوطنوا مدينتي سلا وفاس.

وتكررت في آخر عهد مملكة غرناطة الخلافات الداخلية التي ادت إلى تقدم الشماليين نحو الجنوب واستدعاء المرابطين، فانقلب ابو عبدالله محمد المشهور «بالصغير» على أبيه أبي الحسن علي بن سعد، ثم انقلب ابو عبدالله الصغير على عمه أبي عبدالله محمد الزغل فكان ذلك طعنة أخيرة في جسد آخر الممالك الإسلامية في غرناطة. ومهما كانت طبيعة الدوافع التي أدت إلى سقوط الأندلس لا شك أن التناحر الداخلي وإعلاء مصالح السلطة على مصالح الشعب كان أهمها. نعرف هذا اليوم واحداً من أهم أسباب التخلف العربي كما عرف الأندلسيون ذلك في الماضي إذ كتب المتوكل بن الافطس حاكم بطليوس إلى ألفونصو السادس يقول: «**أما تعييرك للمسلمين في ما وهي من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك، كما كانت أباؤك تتجرعه فلم تذقها من الحمام ضروب الآلام شؤماً تراه وتسمعه وإذا المال تتورعه، وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه. وما تتربصون بنا إلا إحدى الحسنتين: نصر عليكم فيالها من نعمة ومنّة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة**». [1]

[1] «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية»، مجهول المؤلف، ص ٢٠.

٧- الحروب الصليبية الغربية

تعني «الحروب الصليبية» أشياء كثيرة لمؤرخين كثيرين فمن هؤلاء من يرى أن الحروب الصليبية تتضمن كل الحروب التي تبنّتها البابوية أو شجعت عليها. ومنهم من يضيف إلى ذلك حروباً شنها الكاثوليك على البروتستانت (إسبانيا على انكلترا مثلاً)، أو البابوية على الهراطقة أو المتنصرين من القبائل الجرمانية على إخوانهم الوثنيين أو حتى بعض الحملات التي نظمها بعض البابوات ضد خصومهم الشخصيين في إيطاليا. ونريد في هذا الكتاب أن نحصر تعريفنا للحروب الصليبية بالحملات العسكرية التي استهدفت العرب والمسلمين بين عامي ١٠٩٦ و١٢٧٠ بما في ذلك الحملة الأولى المعروفة باسم «حملة الفلاحين» التي قادها بطرس الناسك، والحروب أو الحملات العسكرية أو حملات الكثلكة التي دعمتها البابوية سياسياً ومادياً ومعنوياً في شبه جزيرة آيبرية وبعدها في المغرب ثم في الممالك الإسبانية والبرتغالية في ما وراء البحار. أما الحروب الأخرى التي يركز بعض المؤرخين على طابعها الصليبي فهي أكثر عدداً وتعقيداً من الحروب التي نقصدها في هذا الكتاب، ويستطيع المهتم بتاريخها العودة إلى مئات الكتب التي اثبتنا عدداً منها في مراجع هذا الكتاب.

وحتى الحروب الصليبية التي سنقتضب أحداثها هنا تعني مفاهيم شتى لا يعكس الصراع بين المسيحية والإسلام إلا وجهاً واحداً منها. لذا يجب التعامل مع هاتين الكلمتين بحذر شديد تؤيده هيمنة المشاركة الفرنسية في تلك الحروب حتى لتكاد تبدو أحياناً حروباً فرنسية. ويدعم هذا الحذر أيضاً تنافس أمراء أوروبة في الممالك اللاتينية (الرومانية) المشرقية الأربع، وحداثة إطلاق هذا الوصف على الحملات التي نظّمها الفرنسيون وغيرهم لاحتلال الأماكن المقدسة في فلسطين، وعُرفت بأسماء عدّة مثل «الرحلات» أو «الحج» أو «رحلات الحجيج المسلّحة» iter وperegrinatio باللاتينية ثم باسم passagia (العبور) بعد ذلك. وترتدي هذه الحملات معطفاً دينياً خاطته البابوية باحكام إلا أن النظر داخله يظهر خليطاً عجيباً متصالحاً من الأهداف الدينية والدنيوية. فاستجابة الأباطرة والملوك والنبلاء والفرسان الفرنسيين والجرمان والنورمان وغيرهم لدعوة البابوات الإنخراط في هذه الحملات لا يتعارض ورغبتهم النهائية في إثبات وجودهم وقوتهم ورغبتهم في إقامة الممالك والمستوطنات في الشرق الغني ببضائعه وصناعاته وذهبه. وقاتل الصليبيون الفرنسيون العرب والمماليك والأتراك في فلسطين والشام وتركيا والمغرب لكنهم صرفوا جزءاً مهماً من وقتهم في التحكم بالتجارة

وتكديس الذهب. ونجد أيضاً أن تجّار جنوة وبيزا (بيشة) والبندقية ذهبوا إلى الشام وفلسطين ومصر لتوسيع نطاق تعاملهم التجاري في الشرق الأوسط من خلال توفير قسم كبير من السفن التي نقلت القوات الأوروبية إلى فلسطين ومصر وتونس، لكنّ هذا لا يلغي بالضرورة حماسهم الديني واستجابتهم لنصرة البابوية. ورافق الجيوش الأوروبية عدد كبير من القساوسة والرهبان للحض على القتال والصمود وتسويغ الفتك بـ«الكفار» وكسر المواثيق والعهود، لكن هؤلاء كانوا يفتشون في كنائس المشرق عن ذخائر نصرانية لإثراء كنائسهم وتعزيز مكانتها في الصورة التي عززت فيها سرقة البنادقة جثمان القديس مرقص من الإسكندرية كاتدرائية هذا القديس الشهيرة في البندقية وساهمت في جعلها واحدة من أهم المدن الأوروبية. ونجد في تلك الحملات مجموعات من التجار اليهود تتبعت الجيوش الأوروبية لشراء الأسلاب وأسارى المسلمين والمسلمات وأطفالهم فعاد عليهم ذلك في ما بعد بوبال خطير. ولا شك في أن مئات الألوف من الفلاحين والحرفيين الصغار انضموا إلى تلك الحملات بهدف تخليص بيت المقدس من «أيدي الكفّار»، غير انها كانت بالنسبة لعدد كبير من هؤلاء فرصة لإثراء سريع أو مجد أو حتى للتجديد والتخلص من أوضاع اقتصادية واجتماعية صعبة.

وإذا كانت الأمور بنتائجها فإنّ الحروب الصليبية المشرقية تقف على رأس لائحة أفشل الحروب التي عرفها العالم. أما الانتصار الأعظم الذي حققته تلك الحروب فلم يكن على الإسلام بل على النصرانية عندما تآمر البنادقة مع النورمان (حلفاء البابوية في جنوب إيطاليا) واقتحموا القسطنطينية ونهبوها ودمّروا قسماً من مبانيها قبل أن يؤسس النورمان فيها ما يُعرف باسم المملكة اللاتينية (الرومانية) من دون أن يحرّك البابا أنوصان الثالث ساكناً. واستعاد البيزنطيون القسطنطينية في ما بعد لكنّ أمبراطوريتهم لم تستعد عافيتها فتقوّضت تحت ضربات العثمانيين وفتحت الباب إلى وسط أوروبة. وباستثناء انتصارات غير دائمة حققتها الحملة الصليبية الأولى باحتلال القدس والحملة الثالثة باحتلال عكا ويافا يمكن القول إن الحملات الصليبية في المشرق كانت سلسلة من الهزائم الماحقة. ولعل أكثر تلك الحملات مأساوية حملة باركتها البابوية عُرفت باسم حملة الصبيان بدأت عام ١٢١٢ عندما اندفع عشرات الآلاف من الصبية والصبيات في أعمار بين العاشرة والثامنة عشرة من منازلهم في فرنسا والمانيا لاستعادة القدس التي لم يرها أحد منهم. فقضى قسم من هؤلاء جوعاً أو عطشاً ومن البرد والحر، وغرق قسم آخر ووقع الباقون في الأسر وأصبحوا جزءاً من سكان البلاد الإسلامية مثل نصارى كثيرين أسرهم المماليك فأسلموا وتقلّدوا المناصب العالية.

ولا يمكن للإنسان مهما كان دينه إلا أن يشعر بالإشفاق على مصير هؤلاء الصبية والصبيات الذين غررت بهم البابوية ودفعتهم إلى هذه النهاية المأساوية لاعلاء شأنها، إلا أن هذا الإشفاق يجب ان يطال مئات الألوف من الأطفال المسلمين الذين راحوا ضحية تلك الحروب. وربما خسر المسيحيون والمسلمون أكثر من مليون شخص في ثماني حملات صليبية انتهت بالطرفين إلى الموقع الذي بدأ منه القتال، وعادوا وخسروا مئات الألوف في الحروب التي أخذت طابعاً صليبياً بعد ذلك سواء في الأندلس أو في المغرب والجزائر وتونس وفي مياه البحر الأبيض المتوسط. ولم تقتصر الخسائر على فرقاء النزاع في تلك الحروب إذ أضرّت بمصالح عشرات الملايين وعرقلت الطرق التجارية وانتجت المجاعات والاوبئة. وكان الطرف الوحيد الذي استفاد من تلك المذابح هي البابوية القديمة التي لم تفقد بابا واحداً في حروب استمرت نحو مئتي سنة نعمت خلالها بعصرها الذهبي الذي لم يفقد بريقه إلا بعد انحسار الحروب الصليبية. ويستطيع بعض مؤرخي الحروب الصليبية إعادة ترتيب الحقائق في الصورة التي يريدونها، إلا أن استمرار وجود المسيحيين في الوطن العربي على رغم كل الفظائع التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس وعكا وعلى طول الطرق المشرقية إلى المناطق المقدسة وفي تونس والمغرب ومصر تأكيد لا يحتمل الشك بسماحة الإسلام ونقطة بيضاء ساطعة في جبين التاريخ العربي الإسلامي.

ويوجد خلاف غير ذي شأن في عدد الحملات الصليبية التي استمرت بين عامي ١٠٩٦ و١٢٧٠. فمن المؤرخين الأوروبيين من يقول انها ثماني حملات، ومنهم من يقول انها سبع مُعتبراً الحملتين السابعة والثامنة حملة واحدة لأن المسؤول عنها واحد هو الملك الفرنسي ذو الحظ المنحوس لوي التاسع. ويقابل هذا الاختلاف اتفاق عام على استبعاد الحملة الأولى التي قادها الفرنسي بطرس الناسك على رأس جماعات جلّها فرنسي. ولهذا الاستبعاد أسباب عدّة منها سوء تنظيمها وإخفاقها المريع وسوء طالعها واشتراك جماعات كثيرة من القتلة واللصوص وقطاع الطرق فيها بعدما غفر لهم البابا إربان الثاني ذنوبهم وأطلقهم من سجونهم شرط انخراطهم في الحملة.[١] ونفدت مؤونة هذا الخليط العجيب من المقاتلين بسرعة فصاروا يطلبون الطعام من المسيحيين على طول الطريق إلى تركيا، ثم أخذوا يسرقونه فضج المسيحيون وقتلوا

---

[١] يورد «غيبير دو نوجان» Guibert de Nogent في نسخته الخاصة بخطبة البابا إربان الثاني الآتي: «ستُغفر على الفور ذنوب كل من يموت في الطريق (إلى بيت المقدس) سواء في البر أو البحر أو في المعارك مع الوثنيين (إي الإسلام)». ويضيف نوجان إلى ذلك: «ثم أن أفضل الرجال (أي إربان الثاني) اختتم خطبته، وبقوة المبارك بطرس سامح كل من حلف بالإيمان على الذهاب، وأكد هذه الأعمال بالمباركة الرسوليّة».

عدداً منهم ثم قضى السلاجقة على معظم الباقين وصارت فرنسا بعدها بلداً آمناً من المجرمين. ولم تكن الحملة الأخيرة أقل إخفاقاً إذ حاول الملك الفرنسي لوي التاسع احتلال مصر بدلاً من بيت المقدس فوقع وجيشه في الأسر واستفدى نفسه بمبلغ كبير، لكنّه عاد وهاجم تونس عام ١٢٧٠ على اعتبار أن احتلالها أقل جهداً من احتلال بيت المقدس فقضى وجيشه بالطاعون على ربوة (هضبة) بيرصا في قرطاج.[1]

الحملة الصليبية التاسعة

قبل أن يحمل فيليب الثاني ملك إسبانيا السيف دفاعاً عن الكاثوليكية في كل مكان من العالم، لم تكن هناك دولة تستطيع الادعاء أن ما قدّمته لنصرة الكاثوليكية وحرب الإسلام في الأندلس والمشرق يفوق ما قدّمته فرنسا اعتباراً من عهد شارل «المطرقة»، ثم شارلمان فالحروب الصليبية بل حتى قيام الأمبراطورية الإسبانية في بداية القرن السادس عشر. ويكشف استقراء التاريخ أن غيرة المعتنقين الجدد لأي دين تفوق في العادة غيرة صاحب الدين نفسه لذا لم يكن غريباً ان يصل تدين بعض أفراد القبائل الجرمانية بعد تنصيرها إلى حد التعصب الأعمى. وبقي موضوع إثبات التقوى مهماً بعد قرون من اعتناق المسيحية على أيدي المبشرين الاوائل.

ولنا أن نتصوّر شعور شارلمان عندما سمع بمقتل محبوبه رولان بطعنات المتحالفين المسلمين والمسيحيين الآيبريين الذي مزّقوا مؤخرة الجيش في ممر رونسفال (رنشفالة) الجبلي الذي يبعد نحو ٤٠ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من بمبلونة. ففي هذا الممر تلقت أحلام هذا الملك العظيم الذي اكتسح سائر أوروبة لطمة قوية لأنه لم يستطع اكتساح شبر من الأندلس، ولم يستطع كسر شوكة الإسلام في شمال الأندلس. وفي هذا الممر المشهور عرف شارلمان مسيحيين آيبريين أراد نصرتهم على المسلمين فإذا هم

[1] احتل الفرنسيون تونس عام ١٨٨١ وبنوا على هذه الربوة كاتدرائية لتخليد لوي التاسع (القديس) الذي كانت جثته أحرقت بعد موته كما جرت عليه العادة عند الموت بالطاعون. ومضى الفرنسيون في غيّهم الصليبي إلى حد إقامة تمثال للكردينال «لافيجيري» Lavigerie عام ١٩٣٠، ورفعوا الصلبان على الربوة وتنادوا للزحف إلى بيت المقدس. وأثار هذا الاستفزاز الحركة الوطنية في كل من تونس والجزائر، وصعّدت المقاومة ضد الفرنسيين. وبعد الاستقلال احتفظت فرنسا بربوة بيرصا لكنها اضطرت إلى تسليمها بعد ذلك. والكاتدرائية خاوية اليوم وتستخدم أحياناً لإقامة حفلات موسيقية وما شابه. أما رفات لوي التاسع فنُقل من الكاتدرائية ويُقال إنه موجود تحت منحوتة حجرية ضخمة قبالة المتحف الموجود وراء الكاتدرائية. وكلمة بيرصا مأخوذة كما يبدو من كلمتين هما Byr Sa أي جلد الثور. ولهذه التسمية قصة طريفة تتصل بالأميرة ديدون مؤسسة قرطاجة إذ يُحكى أنها اشترت من البربر قطعة أرض تساوي مساحتها جلد ثور قدمته لهم لكنّها عمدت إلى تقطيع الجلد ووصل هذه القطع ببعضها حتى شملت المساحة الجديدة ربوة بيرصا التي تُطل على واحد من أجمل المناظر الطبيعية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

يتحالفون مع خصوم المسيحية ضده، وفيه عرف مسلمين ترك راحة بلاطه وقاد جيشه عبر وعورة البيرينيه لينصرهم على مسلمين أمثالهم فوجد بوابات سرقسطة التي وعدوه بفتحها مغلقة في وجهه.

باختصار هذا ما حدث للملك شارلمان في الأندلس، لذا يمكن، عند النظر إلى هذه الحادثة من زاوية معينة، اعتبار عبوره إلى ثغر سرقسطة عام ٨٧٨ مغامرة شديدة الإخفاق لا تليق بملك مظفّر مثله إذ لم يخلّف العبور له سوى الأسى. ولم يكن الأسى في قصره أقل ولم يكن دون ذلك في البلاد كلّها إذ بكت عذارى فرنسا الكونت رولان طوال مئات السنين وودن لو ضحين بأنفسهن من أجله بالجملة، وردّدن والدموع تشر من عيونهن الأساطير التي نُسجت حول مقتله، وغنين أنشودة رولان المشهورة، وتخيلنه وهو يطيح برأس هذا ويطعن صدر ذاك قبل أن تزهق السيوف روحه.[1]

وهذا تبسيط للتاريخ لذا يمكن العودة إلى الجهد الذي بذله شارلمان في الأندلس والنظر إليه من زاوية أخرى متسلحين بالمعرفة المتأخرة لتاريخ الحروب الصليبية. وماذا كنّا سنجد عندها؟ كنّا سنجد أن شارلمان لم يكن فقط الزعيم السياسي بلا منازع في أوروبة كلها، بل كان أيضاً رجل البابوية الأول بلا منازع، والمسيحي السياسي الأول بلا منازع ونصير المسيحيين في كل مكان كما اتضح عندما بعث إليه بطريرك القدس مفاتيح الأماكن المقدّسة في المدينة بعدما يئس من إقناع البابا بدعمه. وهكذا لم يحقق شارلمان في الأندلس أي انتصارات في بداية الربع الثالث من القرن التاسع الميلادي لكنه لم ينهزم. الذي فعله شارلمان، ربما من دون أن ينتبه، هو أنه كان أول ملك أوروبي مسيحي كبير سار غازياً إلى بلاد الإسلام باسم المسيحية. هنا يجب أن يُصحح تاريخ الحروب الصليبية أو أن تضاف إليه على الأقل حاشية مهمة جداً. الحملة

[1] إنشودة رولان «مُليحمة» فرنسية طريفة ألّفها مجهول في منتصف القرن الحادي عشر أو وقت قريب منه. وتروي هذه الأنشودة الانتصارات الهائلة التي حققها شارلمان عندما غزا الأندلس مدة سبع سنوات كاملة فخرّب قلاعها وفتح مدنها. أما الهدف الأساسي لشارلمان، حسب الأنشودة، فهي مدينة سرقسطة، التي حاصرها ودكّ بواباتها وفتحها «وذبح الوثنيين ومحق الباقين» وانتزع ٥٠,٠٠٠ مسلم من الضلال. وماذا حدث لوالي المدينة الانصاري الذي تسميه الأنشودة «الملك مارسيليز»؟ نظر إلى جنوده القتلى حوله «فبكى من عينيه، وانحنى جسمه، ومات من الحزن، وأخذ الشيطان روحه إلى جهنم». وتصف الأنشودة بتفاصيل دقيقة قصة المعركة التي مات فيها رولان، والبطولة النادرة التي تميّز بها، إلا أنها أساساً قصة صلاح شارلمان وتقواه وتعلقه بقادته وحزنه العميق على رولان حتى أنه مزّق لحيته من الزعل. وما تورده الأنشودة عن فتوحات شارلمان اختلاق في اختلاق فهو لم يفتح الأندلس وحاصر سرقسطة لكنها استعصت عليه ولم ينصّر أحداً. أما المُلفت في الأنشودة، التي يبدو من جوها المسيحي العميق كما لو أن راهباً كتبها، فإنها لا تشير من قريب أو بعيد إلى اشتراك الباسك المسيحيين في الهجوم على مؤخرة جيش شارلمان وتلقي المسؤولية كلها على المسلمين. كما لا تشير إلى أن السبب في الهجوم نهب مدينة بمبلونة، عاصمة الباسك.

الصليبية الأولى لم تنطلق من فرنسا عام ١٠٩٦ . صحيح أنها كانت الحملة التي أدت إلى احتلال القدس لكنّ الحملة الصليبية الأولى كانت حدثت قبل ذلك بـ ٢١٨ سنة، وكان على رأسها ملك فرانكي مسيحي طموح من أصل جرماني هو شارلمان. ولا نعرف إن كان ملوك أوروبة حاولوا في نهاية القرن الحادي عشر وما بعده تقليد شارلمان عن معرفة أو في اللاوعي. الذي نعرفه من التاريخ ان هذا بالضبط ما فعله لوي التاسع مرتين في القرن الثالث عشر، وهذا ما فعله مئات الألوف من الفرنسيين الذين نزلوا على الأندلس في القرن الحادي عشر وساهموا هناك مساهمة حاسمة في تحقيق انتصارات دائمة التأثير على عكس الحروب الصليبية المشرقية.[١]

صعود البابوية

وراء الأحداث المباشرة التي مهّدت للحروب الصليبية في القرن الحادي عشر أسباب يعود بعضها إلى القرن الرابع الميلادي عندما انشطرت الأمبراطورية الرومانية إلى جناحين غربي وشرقي. وقوض الجرمان القسم الغربي ونمت في القسم الشرقي امبراطورية أخرى تغيرت مع الزمن تفكيراً ولغة وسياسة هي الأمبراطورية البيزنطية المرتكزة على القسطنطينية عاصمة دينها ودنياها، وعرش عدد من الأباطرة القديرين مثل يوستينيان (٥٢٧-٥٦٥). وكان يوستينيان أهم زعيم في عالمه القديم لكن ما أن أزفت نهاية الأمبراطورية البيزنطية الوسطى حتى بدأ عهد انحسار سلطة بيزنطة وتقلص ممالكها على يد قوة ناهضة هي القوة العربية. ولم تفلح أمبراطورية هيراكليوس (هرقل) (٦١٠-٦٤١) في وقف الزحف فتعاقب على دمشق (٦٣٥) والقدس (٦٣٨) والاسكندرية (٦٤٢) التي أخفق البيزنطيون في نجدتها على رغم تسيير اسطول عظيم إليها. واعتباراً من عام ٦٧٤ أضحت العاصمة البيزنطية محور الهجمات العربية لكنها كانت آنذاك أكبر مدينة في العالم وأكثرها تحصيناً فاستعصت ولم تسقط بأيدي العثمانيين إلا بعد ٧٧٩ سنة، انهارت بعدها بقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية، واعتبر مؤرخون كثيرون تاريخ هذا الانهيار نهاية القرون الوسطى.

---

[١] من أعجب الأساطير المروية عن شارلمان أنه حاصر في الطريق إلى الأندلس قلعة حصينة تقع عند أقدام جبال البيرينيه في الجانب الفرنسي فاستعصى عليه فتحها بسبب بسالة قائدها العربي. وهنا سأله شارلمان إن كان يرضى تسليم القلعة إن جاء له بشخص عزيز من قومه فلما وافق القائد أظهر له شارلمان السيدة مريم العذراء فاستسلم القائد وتنصّر وتكنّى باسم «لاروس» Larousse. ومع الزمن نمت مدينة كبيرة هناك معروفة اليوم باسم لورد أو لوردز Lourds نسبة إلى لاروس. وفي عام ١٨٥٨ تهيّأ لفتاة كاثوليكية من لورد تدعى برناديت سوبيرو (القديسة برناديت في ما بعد) أنها رأت السيدة مريم وصارت هذه المدينة محجاً يزوره سنوياً اكثر من مليوني شخص للاستشفاء والابتهال.

وضمن مراحل تقلّص نفوذ الأمبراطورية البيزنطية كانت الكنيسة تخضع إلى تغيرات جذرية أدت إلى فصل الكنيسة الأرثوذكسية عن الكنيسة الرومية، وعمقت ابتعاد نصارى الشرق عن مسيحيي الغرب المستمر إلى اليوم. وللخلاف بين الكاثوليكية (العامة أو الشاملة) والارثوذكسية (قوام الرأي والاستتباب على النظم القائمة) أصول دينية وفكرية وشعائر وممارسات متباينة ترجع إلى بداية القرن الثالث الميلادي. وتعمّق هذا الخلاف تدريجاً وتعمّقت معه الهوة بين الكنيستين إلى ان جاء البابا غريغوريوس الاول (٥٩٠-٦٤٠)، فكان مؤسس السلطة الزمنية (أي الدنيوية) للبابوية في إيطاليا. وابتعدت الكنيسة الرومية في عهد هذا البابا عن الحضارة البيزنطية لتقترب من القبائل الجرمانية التي كانت تشكل القسم الاعظم من مسيحييها بعد تنصيرهم على المذهب الكاثوليكي.

ومضى البابا اسطفان الثاني (٧٥٢-٧٥٧) خطوة أخرى في طريق الابتعاد عن الكنيسة الشرقية عندما تخندق مع الفرانكيين الذين أخضعوا معظم القبائل الجرمانية الأخرى وبنوا مملكة كبيرة. وانتهج البابا ليو الثالث (٧٩٥-٨١٦) نهج اسطفان بتنصيب شارلمان الفرانكي امبراطوراً حامياً للبابوية بعد ٤٩ سنة من انهيار سيطرة بيزنطة على إيطاليا. وانهمكت الكنيسة وبعض مؤرخي تلك الفترة في عملية واسعة النطاق رمت إلى رفع شأن ملوك البرابرة الفرانكيين والجرمان وتلفيق أنسابهم وإثبات صلاحهم وتقواهم وتحضّرهم وتقديمهم للعالم كورثة شرعيين للأمبراطورية الرومانية البائدة.[1]

ومن الطبيعي أن تثير هذه السياسة البابوية كلا من الأمبراطورية البيزنطية وكنيستها الشرقية معاً لأن البيزنطيين اعتبروا أنفسهم خلفاء شرعيين ليس للأمبراطورية الرومانية فقط بل أيضاً للحضارة اليونانية. ومضى البيزنطيون في هذا السلوك إلى مدى بعيد فكانوا يسمّون أنفسهم «رومان» (عرفهم العرب باسم الروم أو الروم المُتنصرة)

[1] نجد في المؤلفات التاريخية والأدبية الأوروبية خلال المرحلة الأولى من العصور الوسطى (بين ٥٠٠ و١٠٠٠ ميلادية) عدداً من الأمثلة التي استهدفت تحقيق هدفين: الأول محاولة المزاوجة بين الأمبراطورية الرومانية والقبائل الجرمانية البربرية وإظهار تاريخهما المشترك كما في «مختصر تاريخ كاسيودوروس Cassiodorus» الذي كتبه القوطي جوردان Jordanes في القسطنطينية عام ٥٥١ على الأرجح، والثانية مزاوجة المفاهيم الجرمانية البربرية مع المفاهيم المسيحية كما في ملحمة Beowulf لمؤلف مجهول. وتعامل مؤرخ قديم مثل بيدBede مؤلف «التاريخ الكليركي للأمّة الإنكليزية» مع الحقائق البربرية والمعجزات المسيحية في نفس واحد واعتبر المعجزات طريقة يستخدمها الرب لعرض التاريخ على الناس. ونجد في مكان منفصل مؤرخين مثل بول الشمّاس الذي عاش في القرن الثامن وكتب تاريخ الملوك الجرمان اللومبارديين وغريغوري الذي كتب تاريخ الملوك الفرانكيين واشبعوا شخصياتهم اطناباً وتقوى واحتراماً وصدقيّة.

وينطقون اليونانية المحكيّة ويحفظون الحضارة اليونانية «ولا يأكل ملوكهم إلا على الموسيقى والألحان والغناء»[1]. وفيما شكّل الشواء بأنواعه طعام ملوك القبائل الجرمانية البربرية وصنعوا من أقحاف خصومهم كؤوس النبيذ المفضّلة[2]، كان أباطرة بيزنطة يشربون من كؤوس الفضة والذهب وكان طعامهم «الكرديانات والمرقات والاستبدناجات والكسباجات»[3]. ووجد البيزنطيون أنفسهم بين القرنين السادس والعاشر الميلاديين في وضع دفاعي أمام حملة البابوية الرومية والممالك الأوروبية فكلاهما كان يدعي أنه أحق منهم بالتركتين النصرانية والرومانية. وهكذا بدأت القوتان تخطوان في طريق لا رجعة منه بهدف إثبات تفوق إحداهما على الأخرى بكل الوسائل المتاحة.

وفي تاريخ الأمبراطورية البيزنطية ما يناقض نظرية النمو والموت الطبيعيين لحضارات العالم والتي تعطي الأمبراطوريات ٢٠٠ سنة تقريباً. إذ اقتربت هذه الأمبراطورية في حالات عدّة من الانهيار التام لكنها عادت ووقفت على قدميها وبدأت تحقق الانتصار تلو الآخر. وبعد الخسائر الهائلة التي لحقت بالبيزنطيين على يد العرب نهضوا مرة اخرى في القرنين السابع والثامن واسترجعوا بعض ما خسروه كما حدث في عهد الأسرة المقدونية (٨٦٧-١٠٥٦) عندما تمكّن نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩) ويوحنا الأول (٩٦٩-٩٧٦) وبازل الثاني(٩٧٦-١٠٢٥) من استرجاع جزيرة كريت (اقريطش) من العرب عام٩٦١ واحتلال حلب عام ٩٦٢ وكذلك قبرص وسورية وفلسطين، فيما اخضع بازل البلغار ودانت الكنيسة الروسية لبطريرك القسطنطينية. وفي السنوات الاخيرة من عهد هذه الاسرة بدأ النظام يضعف ثانية ويتهاوى تحت ضربات النورمان والبلغار والسلاجقة. وحقق الاخيرون انتصاراً عظيماً على بيزنطة وسلخوا قسماً كبيراً من الجناح الآسيوي للأمبراطورية.

---

[1] «أخبار الزمان». أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. دار الأندلس، بيروت، ص ١٠٠.

[2] لا يبالغ بعض المؤرخين الحديثين عندما يصف المرحلة الأولى من القرون الوسطى في أوروبة بـ«عصر الظلمات». ولنا مثال على ذلك في «تاريخ اللومبارديين» الذي وضعه المؤرخ بول الشمّاس وكان من المقربين إلى الملك شارلمان. ويروي هذا المؤرخ بتعاطف مدهش قصة الملك اللومباردي البطل «ألبيون» Albion الذي اغتالته زوجته «الشريرة البربرية» روزموند Rosemund فيقول إن «ألبيون» كان يشرب الخمر مرّة من كأس صنعها من قحف والدها الملك «قونيموند» Cunimund فدعا زوجته إلى مشاركته الشراب من قحف ابيها المقتول لا لشيء إلا «لكي تنادم أباها وهي فرحة مسرورة». ولم تجد روزموند فرحاً في تذكّر مقتل أبيها على يد زوجها فغضبت وضمرت له وقتلته بمساعدة أحد رجال البلاط. أنظر:

Brentano, Robert, Ed., *The Early Middle Ages*, The Free Press, (New York 1964) p 178 .

[3] المصدر قبل أعلاه، ص ١٠٠.

غريغوريوس السابع

ارتحل السلاجقة من مناطق تركستان في نهاية القرن العاشر الميلادي بحثاً عن الأراضي الجديدة والمغانم السريعة، وقادهم طغرل بك (١٠٣٧-١٠٦٣) لبناء العهد المعروف باسم السلاجقة الكبار الذي يبدأ به وينتهي عام ١١٧٥. وما شرع به طغرل بك استكمله ألب ارسلان (١٠٦٣-١٠٧٢) الذي انتزع من الفاطميين سورية وفلسطين (بما في ذلك القدس) قبل ان يُنزل الهزيمة ببيزنطة ويأسر امبراطورها رومانوس ديوجينيس في معركة ملازجرت عام ١٠٧١. وفي العام نفسه استكمل النورمان احتلال جنوب إيطاليا الذي كان تابعاً لبيزنطة فضاقت السبل أمامها. وفكّر البيزنطيون آنذاك بطلب المساعدة من أوروبة، لكن تحقيق هذا الهدف اصطدم بقطيعة كبيرة بين الكنيستين الشرقية والغربيّة تركز على الخلاف في شأن ألوهية المسيح واعتبار السيدة مريم أمّ الإله والاحتجاج على استخدام الايقونات أو حلاقة الذقن أو الصوم يوم السبت وغير ذلك الكثير، وانتهى بتبادل وثائق الحرمان من الكنيسة عام ١٠٥٤ (٤٤٦) بين بطريرك القسطنطينية ميخائيل سيريولاريوس والبابا ليو التاسع.

وفيما انقطعت صلة الكنيسة الشرقية برعيّتها في المناطق التي وقعت بيد السلاجقة والنورمان كانت الكنيسة الغربيّة تحقق الانتصار تلو الآخر. وأصبح البابا الحاكم المطلق للكنيسة ونائب السيد المسيح، ورأى في سلطته صلاحيات زمنية تفوق تلك التي مارسها أباطرة روما المقدسة منذ عهد شارلمان لأن هؤلاء الأباطرة يمثلون الله وبالتالي الكنيسة التي يقف على رأسها البابا. ونرى في غريغوريوس السابع (نحو ١٠٢٠-١٠٨٥) مثالاً واضحاً على القوة التي ملكتها البابوية آنذاك إذ أعلن في وثيقة مشهورة عام ١٠٧٥ أن للبابا سلطة على سائر المسيحيين ويستطيع خلع الزعماء الدينيين والدنيويين. وتصدى هذا البابا للامبراطور الألماني هاينريش الرابع ومنعه من تعيين رجال الكنيسة فرد الأمبراطور على هذا التحدّي بعزله من بابويته فرد عليه البابا بحرمانه من الكنيسة وإعفاء رعيته من حق طاعته. وانتهت المرحلة الأولى من الخلاف بين الإثنين بصلح لم يستمر طويلاً عاد بعدها غريغوريوس وحرم الأمبراطور من الكنيسة فدعا الأخير إلى عقد مجلس كنسي للمطارنة الألمان قرر عزل غريغوريوس وتعيين بابا جديد هو كليمنص الثالث (١٠٨٤-١١٠٠). وعندما رفض غريغوريوس هذا التعيين اقتحم هاينريش الرابع روما ونصّب كليمنص بالقوة عام ١٠٨٤. وكان كليمنص يُعلن هاينريش الرابع امبراطوراً رومانيا مقدساً، فيما كان غريغوريوس حبيس قلعة سان انجيلو المطلة على نهر التيبر. وظل البابا في اسره حتى هب النورمان

في جنوب إيطاليا إلى نجدته فأخلى الألمان روما للنورمان الذين نهبوها بعد تخليص البابا. أما غريغوريوس، الذي حمل في ما بعد لقب «القديس»، فارتحل إلى مملكة النورمان في جنوب إيطاليا ومات هناك بعد سنة واحدة.

وفي السير المسيحية أن غريغوريوس كان يريد الدعوة إلى حملة كاثوليكية لنصرة الكنيسة الشرقية، وكان يحلم باليوم الذي تتمكن فيه الكنيسة من بسط سيطرتها على الربوع المقدّسة في فلسطين وانقاذ نصارى الشرق، إلا انه كان يفكر أيضاً بإعادة وحدة الكنيسة وهو موضوع سهل التحدث عنه وصعب تنفيذه، فلا الكنيسة الغربيّة كانت قادرة على تقديم التنازلات للكنيسة الشرقية، ولا الكنيسة الشرقية كانت تقبل اتحاد البرابرة الجرمان مع البابوية على حسابها. ولم يخفّ غريغوريوس لنجدة المسيحيين الشرقيين بسبب صراعه مع هاينريش الرابع، ولم ينسحب السلاجقة من الاقاليم الآسيوية لبيزنطة، بل اعلنوا قيام مملكة السلاجقة الروم مؤكدين حصتهم في الأمبراطورية البيزنطية. وحيال هذا التطور الخطير وجد الامبراطور البيزنطي أليكسيوس كومينوس (١٠٨١-١١١٨) نفسه في وضع عسير فكتب إلى البابا إربان (إربانوس) الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩) يشكو اليه مرارة سقوط القدس وانطاكية بأيدي المسلمين، وعجزه عن وقف زحف السلاجقة لانشغاله بالدفاع عن امبراطوريته أمام زحف قبائل الباتزيناكس من الشمال والنورمان، حلفاء البابا التقليديين، من الغرب.

إربان الثاني

مات غريغوريوس عام ١٠٨٥ غير أن تركته لم تمت معه إذ كان وضع حدوداً جديدة لسلطات البابوية حاول من جاء بعده ممارستها وتوسيعها. وترك غريغوريوس لإربان الثاني خلافه العاصف مع هاينريش الرابع الذي بقي محروماً من الكنيسة. ولم يكن على إربان منافسة البابا المعارض في روما غيبرت الرافيني Guibert of Ravenna على قيادة المسيحية فقط بل أيضاً منافسته على كرسيه أيضاً. وعندما انتخب إربان الثاني البابا الجديد في ١٢ آذار (مارس) ١٠٨٨ وجد الفاتيكان موصدة دونه وكان دخول روما مستحيلاً. واعتمد البابوات قبله على تأييد النورمان لكن هؤلاء كانوا مشغولين في حرب أهليّة دامية. وعندما تمكّنوا من تقديم بعض العون استطاعت قوات إربان الثاني عندها فقط دخول روما وإخراج البابا المعارض. وعاد الأخير ثانية إلى المدينة واحتفل بعيد الميلاد فيما إربان يسمع الأجراس خارج الأسوار.

وأمضى إربان السنوات الثلاث التالية متجولاً في جنوب إيطاليا ولم يجلس على

الكرسي البابوي في روما إلا بعد ست سنوات من انتخابه، ولقاء مبلغ كبير دفعه أحد مؤيديه هو غريغوري الفاندومي. غير أن مشاكل إربان الثاني لم تنته لأن هاينريش الرابع ظل محروماً من الكنيسة. ثم تعقّدت الأوضاع عندما طلّق الملك الفرنسي فيليب زوجته بيرتا وتزوج بيرترادا زوجة فولك أنجو. واعترف عدد من الأساقفة بهذا الزواج في حين عارضه رئيس أساقفة ليون وحرم الملك فيليب من الكنيسة. وفي خضم هذه المشاكل جاء الطلب الذي تقدم به أليكسيوس عام ١٠٩٥ لمساعدته ضد السلاجقة كما لو من السماء. ووجد إربان في هذا الطلب مخرجاً من دائرة متواصلة من الصراعات الداخلية وتوجيهاً للقوى المسيحية في بوتقة النضال ضد عدو مشترك.

ومن الواضح وجود خلاف جوهري بين أهداف كل من أليكسيوس كومينوس وإربان الثاني من المساعدة المطلوبة. فأليكسيوس كان يريد معونة المسيحيين الغربيين لاستعادة أملاكه الضائعة والعودة من حيث أتوا مع شكره الجزيل، لكن إربان الثاني رأى في تلك الدعوة اعترافاً ضمنياً من جانب الكنيسة الشرقية بمكانة الكاثوليكية عموماً ومكانته الشخصية خصوصاً، وكان عليه أن يستغل هذا الطلب إلى أقصى حد ممكن. ولكي يضمن إربان الثاني مشاركة مسيحية كبيرة كان عليه تقديم هدف كبير هو وضع الأماكن المقدّسة في فلسطين في يد رعيّة كنيسته الكاثوليكية بعدما تحدث بعض الحجّاج عن مضايقات تعرضوا لها على يد السلاجقة في الطريق إلى بيت المقدس.

ولا تتسم الحروب الصليبية اليوم بالأهمية التي كانت تتسم بها في الماضي بعدما بدأ مؤرخون كثيرون يغفلونها أو يخصصون لها مساحات ضيقة لأسباب عدّة لعل أهمها الإخفاق الهائل الذي انتهت إليه تلك الحروب، إلا إننا نريد أن نعود إلى بعض مظاهر تلك الحروب لأنها أفسدت العلاقة بين النصرانية والإسلام وأثّرت في موازين القوى السياسية والعسكرية في العالم القديم، وفي الحركة التجارية التي نشطت خلال المراحل المتقدمة من تلك الحروب وفي القرون اللاحقة، وفي وضع الأندلسيين في آيبرية. وربما لم يكن حتى إربان الثاني نفسه يتصوّر أن خطبته في السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٠٩٥ ستطلق موجات حربية كبيرة مثل الحروب الصليبية. ونقرأ أن المجمع الكنسي الذي انعقد في أوفيرنيه Auvergne (كليرمونت) في ذلك اليوم كان مهماً وهو يوصف في الوثائق الكنسية بأنه مجمع «كبير». لكن الرجوع إلى تلك الوثائق، واستعراض جدول أعمال المجمع، يكشفان لنا ان سبب هذه الأهمية لقاء الكرادلة والأساقفة الفرنسيين والألمان بحضور عدد من الأمراء، والاتفاق على حرمان الملك فيليب. ولم يلق إربان خطبته الشهيرة في المجلس بل

انتقل إلى «مكان فسيح» وفتح خطبته بالقول: «أيها العرق الفرانكي، أيها العرق الساكن وراء الجبال، أيها العرق الذي أحبه الله واختاره. . .»، ثم عرض على مستمعيه دواعي تنظيم حملة كبيرة لانقاذ النصارى المشارقة وتخليص الأماكن المقدسة من «الكفّار».

ولهذه الخطبة الشهيرة خمسة أشكال سُجلت في فترات متباعدة تختلف الواحدة عن الثانية في الطول والمضمون، لكنّ معظمها يشترك في غنى المادة الدعائية والتهويل والمغالطات التاريخية، فيما تنفرد واحدة (صيغة المدوّن فولشير الشارتري) بوضع العرب إلى جانب الأتراك في الهجوم على بيزنطة، وارتكاب الأهوال وعظائم الأمور في الديار المسيحية بما في ذلك بقر البطون وشدّ الامعاء والختان الإجباري وإسالة دم المختون على المذبح المقدس. وعلى رغم توجه إربان الثاني في خطبته تلك الى المسيحية جمعاء فإنّ معظم المستجيبين لها كانوا فرنسيين مثله.[1] وكانت المكافأة الدينية للمساهمين في الحملة عظيمة إذ يُنقل عن إربان قوله في تلك الخطبة: «خذوا هذه الرحلة لغفران خطاياكم، ومعه التأكيد الذي لا يفنى بمجد مملكة السماء»، إلا أن المكافأة الدنيوية كانت عظيمة أيضاً: «فأملاك العدو أيضاً ستكون لكم لأنكم ستغنمون كنوزهم وتعودون منتصرين».

وفي التاريخ أمثلة كثيرة على لجوء ملك أو زعيم ما إلى شن الحرب الخارجية لإبعاد اهتمام الناس عن المشاكل الداخلية، لكن دعوة إربان الثاني واحدة من أكمل هذه الأمثلة. «فليوجّهوا (أي ملوك أوروبة وفرسانها) أسلحتهم التي تقطر بدم إخوانهم إلى عدو الدين المسيحي. . . وليسرع، ليسرع مضطهدو الأيتام والأرامل والقتلة والمعتدون على الكنيسة، ولصوص أملاك الآخرين، والنسور التي تشدّها رائحة المعارك، فليسرعوا، إذا كانوا يحبّون أرواحهم، تحت إمرة قائدهم المسيح لإنقاذ أرض صهيون».[2] ولم تكن الاستجابة فورية، فبدأ القساوسة والكهنة حض الناس حتى استجاب قسم منهم، لكن البداية كانت مزرية. ففي عام ١٠٩٦ انطلقت المجموعات الأولى بقيادة بطرس الناسك الإمياني (نسبة إلى إميان الفرنسية)، ففنيت في الطريق فلحقتها جيوش ومتطوعون من منطقة النورماندي واللورين الشمالية وبروفانس وانضم إليها النورمان من مملكتهم في تارنتم Tarentum الواقعة في اقصى الجنوب الشرقي من إيطاليا، والبيزنطيون من القسطنطينية. وتمكنت هذه الحملة من هزيمة

---

[1] اسمه الحقيقي أوتو Otho، وولد في شاتيون سور مارن Chatillon-sur-Marne نحو العام ١٠٤٢.

[2] الموسوعة الكاثوليكية الرقمية. www.newadvent.org/cathen/15210a.htm

الروم السلاجقة في معركة فاصلة واحتلال انطاكية ودخول القدس عام ١٠٩٩ بعد حصار استمر زهاء خمسة أسابيع.

البابوية في آيبرية

مات إربان الثاني عام ١٠٩٩ وظلّت دعوته حيّة من بعده فلم تتوقف الحروب الصليبية في شكلها المشرقي إلا عام ١٢٧٠ لينتقل التركيز بعد ذلك إلى غرناطة والمغرب. ويعود معظم شهرة إربان إلى إطلاقه الحملة الصليبية الأولى، إلا أن جزءاً مهماً مما تبقى من تلك الشهرة جاءه نتيجة إدخال الكنيسة القشتالية في كنف البابوية ثمناً لمساعدة قشتالة على صد المرابطين والأندلسيين بعد احتلال طليطلة عام ١٠٨٥، وربما كان القشتاليون هم المقصودين بنداء إربان الثاني «أيها العرق الساكن وراء الجبال» في مطلع خطبته المعروفة. ويوجد توافق ملفت في إيقاع العمليات العسكرية الصليبية الشرقية والغربيّة. فالانتصار العظيم الذي حققته قشتالة باحتلال طليطلة جاء نتيجة المساهمة المهمة التي قدمها فرنسيون من الميدي وبرغندي ونورماندي وغيرها، وربما قدّم هذا الانتصار الدليل لإربان الثاني على إمكان تحقيق انتصارات حاسمة مماثلة في المشرق. كما ساهم احتلال القدس عام ١٠٩٩ في زيادة الدعم العسكري الأوروبي لملوك الشمال الآيبري. وأخذ الدعم البابوي والمسيحي أشكالاً عدّة في القرون اللاحقة إلى أن سقطت غرناطة عام ١٤٩٢ فدقت اجراس كنائس أوروبة ابتهاجا بهذه المناسبة خصوصاً أن الأندلس كانت، ولا تزال، الدولة الوحيدة التي تمكّن المسيحيون من انتزاعها من المسلمين بعد انتشار الإسلام فيها، وتحَقق للبابوية هناك ما لم تحققه ثماني حملات صليبية راح ضحيتها أكثر من مليون إنسان.

وأدى سقوط طليطلة إلى استدعاء المرابطين إلا أنهم لم يتمكنوا من استعادتها. وبدأ ملوك الشمال الحض على زيادة المشاركة الأوروبية لموازنة الثقل الإضافي المتمثل بالمرابطين. وفي عام ١١١٨ قدّم الفرنسيون مساعدة مهمة مكّنت الأرغونيين من احتلال سرقسطة. وتبع هذا الانتصار انتصار مثله تحقق بعد سنتين نتيجة هزيمة ابي اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين في موقعة قتندة. أما الفترة اللاحقة فشهدت تغيّراً مهماً في الأندلس والعدوة عندما قامت دولة الموحدين على انقاض المرابطين وبدأ عهدها في الأندلس عام ١١٤٥ (٥٤٠) في الوقت الذي ارتفعت أصوات البابوية للإعداد للحملة الصليبية الثانية.

ويعود السبب المباشر لتسيير الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩) إلى تمكّن

عماد الدين زنكي أمير الموصل من استعادة أوديسة عام ١١٤٤، إلا أن الجيشين اللذين قادهما الملك الفرنسي لوي السابع والألماني كونراد الثالث انهزما قبل وصولهما إلى المدينة. ولم تحقق هذه الحملة شيئاً يذكر على الجبهة الشرقية لكنها تميزت بمشاركة الفلاندريين والإنكليز الذين توقفوا عند مدينة بورتو (برطقال) واحتلوها وقدموها إلى البرتغاليين. ولعب هؤلاء دوراً مهماً في احتلال لشبونة عام ١١٤٧ (٥٤٢)، كما كان لهذه القوات دور فاعل في احتلال القلعة الحصينة المعروفة باسم قصر ابي دانس عام ١١٦٠ (٥٥٥). وفي عام ١١٨٧ تعرض الوجود الصليبي في المشرق إلى نكسة مهمة عندما استعاد صلاح الدين الايوبي القدس بعد معركة حطين فتنادت الممالك الأوروبية إلى اعداد حملة كبيرة يشترك فيها الجميع بقيادة الأمبراطور الألماني فريدريش الأول «بربروسا». وغرق هذا الأمبراطور في ثاني سنة من الحملة التي استمرت بين ١١٨٩ و١١٩٢ ومات ابنه في عكا بعد سنة من غرق والده. وكان لإنهيار الحملة أثر كبير في إبرام هدنة بين الملك الانكليزي/ الفرنسي[١] ريتشارد قلب الاسد وصلاح الدين وافق الأخير بموجبها على احتفاظ الصليبيين بيافا وصور وبعض المواقع، وأجّل بذلك طرد الصليبيين نحو ١٠٠ عام، كما وفر ظروف عودة الصليبيين إلى احتلال القدس.

على الجبهة الأندلسية عمل البابا سيلستين الثالث على تجميد النزاع بين ملوك قشتالة وليون وأرغون والاعداد لحملة كبيرة انطلقت عام ١١٩٥ (٥٩١) لقتال الموحدين والأندلسيين لكنها لم تكن أفضل حظاً من الحملة الصليبية الثانية فهُزمت القوات المشتركة في وقعة الأرك (الأركة) بعد يوم واحد من القتال. وبعد ثلاث سنوات من ذلك بدأت هدنة استمرت عشر سنوات شرع ألفونصو الثامن بعدها بمهاجمة المناطق الأندلسية فأغار الموحدون على بعض المراكز القشتالية الواقعة إلى الشمال من مدينة جيان وأخذوا قلعة شلبطرة. وأثار هذا الانتصار رعب الشماليين وانتشرت المخاوف من عزم الموحدين إعداد جيش قوامه ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل لاكتساح أوروبة فبدأت استعدادات كبيرة لمقاومة هذا الخطر الداهم، وتنقّل المنشد جيفودون Gevaudon من مكان إلى آخر يحض المسيحيين على المشاركة في القتال.

---

[١] ولد ريتشارد قلب الأسد (ريتشارد الأول) في أكسفورد بإنكلترا عام ١١٥٧ لكنّه أمضى معظم حياته في فرنسا يحاول استعادة ممالكه هناك ومات مقتولاً خلال حصار حصن عام ١١١٩ ودُفن في فرنسا. واشتبك هذا الملك الذي جعلته حكاية «روبن هود» شهيراً، مع عدد من خصومه أهمهم أبوه هنري الثاني الذي رفض الاعتراف به وريثاً بعد موت ابنه الأكبر. والأسطورة أقوى دائماً من الحقيقة كما يبدو لأن ريتشارد غير ما يُروى عنه في حكاية «روبن هود». أما أخوه جون الذي تتهمه الحكاية بالجبن والجور في فرض الضرائب فصار ملكاً على انكلترا بعد موت ريتشارد. ومن الواضح أن جانباً من إعلاء شأن ريتشارد في حكاية «روبن هود» سببه اشتراكه في الحروب الصليبية.

وعمل البابا أنوصان الثالث على مساعدة الشماليين فأمر رودريغيث خيمينس دورادا رئيس أساقفة طليطلة بصرف اموال الكنيسة على تحضير الجيوش الشمالية فانطلقت برفقة جيش فرنسي في العشرين من حزيران (يونيو) عام ١٢١٢ وتمكنت من إلحاق الهزيمة بالموحدين في معركة العقاب يوم السادس عشر من تموز الموافق ليوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩. ويعتذر الخليفة الناصر لدين الله عن هذه الهزيمة فيقول إن ألفونصو الثامن «**بث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى، ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر (المحيط الأطلسي) غوثاً غوثاً ورحمى رحمى، فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق، ومكان سحيق، وأقبلوا عليه إقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحار، وكان أولهم سبقاً الإفرنج المتوغلون في الشرق، والشمال، ثم تابعهم البرجلوني بما عنده من العدد والرجال. وكان صاحب نبرة متعلقاً من الموحدين بذمام، ومنقاداً اليهم أبداً في أسمح زمام، فسخط عليه صاحب رومة ان لم يكن لقومه معسكراً ولسواد أهل ملته مكثراً، فلحق بتلك الجموع**».[1]

وفتحت هزيمة العقاب الطريق إلى احتلال بياسة وابدة، ومن ثم المدن الأندلسية الرئيسية في مرحلة نجحت فيها البابوية في إذكاء المشاعر الدينية والدعوة إلى تخليص آيبرية من الأندلسيين. ويقدّم احتلال بلنسية بعد خمس سنوات من الحصار مثالاً على الجهد الذي بذلته البابوية لمساعدة الشماليين إذ أسبغ البابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧-١٢٤١) على الحصار صفة «الحملة الصليبية»، وساهم في تمويلها وتسيير المتطوعين الفرنسيين إلى أسوار بلنسية يتقدمهم مطران نربونة (أربونة). كما استدعى البابا أساطيل جنوة وبيزا لتشديد الخناق على بلنسية بحراً وقطع الإمدادات عنها. وقدّم الصليبيون مساعدات كبيرة لأرغون وقشتالة في مختلف مراحل توغلها في الأراضي الأندلسية. ويُقال إن أول من صعد درجات المئذنة الشهيرة في إشبيلية (جيرالدا) فارس من اسكتلندا، فيما ذاع صيت مقاتلين أوروبيين حاربوا مع قشتالة مثل الفارس الاسود الإنكليزي وغيره كانوا شاركوا في حملات صليبية مشرقية واتقنوا فنون القتال، وادخلوا الفرق الدينية للقتال إلى جانب الجيوش كما حدث في المشرق.

وفي العموم حققت البابوية في الأندلس ما لم تحققه في المشرق لذا لم يكن غريباً ان يُسبغ على فرناندو الثالث (١٢١٧-١٢٥٢) لقب القديس حتى قبل ان يُصدر البابا اعترافاً بذلك. وسبب ذلك أن هذا الملك القشتالي القدير استطاع خلال عهده ان يعيد

---

[1] «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب». أبو عبدالله محمد المراكشي بن عذاري. (جزءان). تحقيق ج. س كولان، وليفي بروفنسال، (طبعة بيروت)، ص ٢٤١.

إلى المسيحية بعض أشهر مدن ذلك العصر ويبسط السيطرة على مناطق إسلامية شاسعة في وقت لم تتمكن ثماني حملات صليبية من الاحتفاظ في المشرق بموطىء قدم واحدة. وكانت آخر حملة ارتفعت فيها الرايات الباباوية هي حملة الملك الفرنسي لوي التاسع على تونس. وما ان جاء عام ١٢٩١ (٦٩٠) حتى استعاد المماليك عكا، وتخلت القوات الصليبية عن بيروت وصيدا وصور وانتقلت إلى قبرص. وهناك عانى المنسحبون الجوع والمرض وتمنّى بعضهم لو أن المسلمين أسروه كما يُعلمنا شاهد عيان: «أرى شيوخاً وبناتاً صغيرات وأطفالاً ورضّعاً- ذابلين، بوجوه شاحبة يستعطون خبز يومهم، ويتمنون لو استعبدهم المسلمون». [١] وظلت بقايا الصليبيين في قبرص حتى عام ١٤٨٦، وفي رودس حتى عام ١٥٢٢ عندما أخرج العثمانيون فرسان القديس يوحنا Hospitaliers منها. وناشدت هذه الفرقة الدينية المشهورة كارلوس الخامس الإسباني إعطاءها جزيرة تسعى فيها إلى استعادة رودس الحبيبة فعرض عليها مالطا. وكان حال هذه الجزيرة بائساً في تلك الأيام فهي عبارة عن صخرة بلقع من الحجر الرملي الرخو، لا أنهار فيها ولا شجراً وافراً، وكان عدّة أهلها ١٢ ألفاً معظمهم في غاية الفقر. ولم يكتف كارلوس بوضع فرسان القديس يوحنا في مكان مثل هذا بل حمّلهم مسؤولية التصدي للتونسيين خوفاً من تهديدهم صقلية (تبعد ١٢٠ كيلومتراً عن الشواطىء التونسية) التي كانت مالطا تُعتبر بوابتها الطبيعية الجنوبية.

أما نهاية الفرقة الرهبانية الأشهر وهي فرسان الهيكل (أي هيكل الملك سليمان) Templiers فكانت أشنع من هذا بكثير، وواكبت تجدّد الصراع بين الملوك والبابوية بعد انتهاء الحروب الصليبية. فبعد عشر سنوات من خروج الصليبيين من ساحل الشام تحدّى الملك الفرنسي فيليب الرابع (١٢٦٨-١٣١٤) البابا بونيفانيوس (بونيفاس) الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) عندما سجن مطراناً عيّنه البابا، ثم بدأ الملك فرض الضرائب على الكنائس الكاثوليكية. وعندما احتجّ البابا أمر فيليب الرابع بسجنه في إيطاليا عام ١٣٠٣. وبعد ذلك بسنتين رتّب فيليب الرابع انتخاب رئيس أساقفة فرنسي بابا بديلاً هو كليمنص الخامس الذي نقل كرسيه من الفاتيكان إلى مدينة أفنيون. ووجد فيليب أن نفوذ فرقة فرسان الهيكل صار كبيراً. وطمع في الكنوز الأسطورية التي استولت عليها من العرب أو جمعتها من تقديم الحماية للحجاج المسيحيين الراغبين في السفر إلى الأراضي المقدسة، ومن قبول الودائع في فرنسا بعد ذلك حتى صارت الفرقة من أكبر الممولين في أوروبة. وفي يوم الجمعة الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر) عام

[١]. Richard, J. *The Latin Kingdom of Jerusalem*, trasl. by J. Shirley (Amsterdam 1979) p 456

١٣٠٧[١] اعتُقل جميع أعضاء الفرقة بأمر المحقق العام الفرنسي وليام الباريسي ونقلوا إلى السجون حيث مكث بعضهم سبع سنين عُذبوا خلالها واعترفوا بجملة من الجرائم منها عدم الأمانة واللواط وتقبيل أفواه المنتسبين الجدد وعاناتهم ومؤخراتهم وإنكار ألوهية المسيح وغير ذلك من أفعال لم يثبت منها تاريخياً إلا عدم الأمانة وقلة النزاهة.

وبحثت فرنسا ومعها كل أوروبة عن كنوز فرسان الهيكل لكن لم يعثر عليها أحد حتى الآن. ويُقال إن جماعة من الفرقة حمّلت الكنوز في سفن أبحرت في نهر السين تحت جنح الظلام وانطلقت إلى المحيط الأطلسي، وربما اخفتها في اسكتلندا أو انكلترا وربما حملتها إلى مكان سرّي في العالم الجديد. وأسدل فيليب الرابع الستار على هذه الفرقة عندما وافق كليمنص الخامس عام ١٣١٢ على إصدار إرادة بابوية حظر بموجبها عمل الفرقة. وخلال هذه الفترة استمرت محاكمة فرسان الهيكل، وكان من بين هؤلاء جاك دو مولي de Molay آخر زعيم للفرقة الذي سحب اعترافاته الأولى وأعلن براءة جماعته. لكن المحكمة جرّمته وقضت عليه بالحرق. وفي عام ١٣١٤ رُبط دو مولي مع ٥٤ من جماعته إلى أوتاد وأشعلت نار هادئة من حولهم حتى احترقوا. وتوزّعت الفرق الرهبانية الأخرى ممتلكات فرسان الهيكل، وانتهى وجودهم في فرنسا لكن جماعات في اسكتلندا وغيرها لا تزال تزعم أنها تنحدر من هؤلاء، وهي مستمرة في طقوسها وقبول منتسبين جدد لها إلى اليوم، فيما يستمر البحث عن كنوز تلك الجماعة.

البابوية ومملكة غرناطة

تمكنت قشتالة بحلول نهاية القرن الثالث عشر من قصر السيطرة الإسلامية على الجزء الجنوبي من الأندلس وانشغلت باستيعاب أراضي الأندلسيين ومدنهم، ولم يكن في مقدورها متابعة الحرب ضد غرناطة القوية. وعندما بدأت غرناطة دفع الجزية إلى قشتالة ثمناً لاستمرار السلام لم يعد هناك ما يسوّغ وجود تلك الجيوش القشتالية الجرارة فانفرط عقدها، وضعف الاهتمام بالفرق الدينية التي لعبت دوراً مهماً في الحروب السابقة ضد الأندلسيين، وتفرغت الممالك النصرانية للاقتتال في ما بينها، وهزل شأن الملوك بعدما نازعهم النبلاء على السلطة وانشغل الناس بخطر عظيم دهم أوروبة منذ منتصف القرن الرابع عشر هو الطاعون. ونشبت في العقود التي تلت تقوّض وسط الأندلس حروب ضارية بين الغرناطيين والمغاربة من جهة، وبين القوات

[١] لا تزال مجتمعات غربيّة كثيرة تعتبر يوم الجمعة الذي يصادف الثالث عشر من أي شهر يوم شؤم.

الشمالية منفردة أو متحدة من الجهة الأخرى. إلا أن الاحتفاظ بمواقع القوى نفسها استمر عموماً حتى اعتلت الملكة إيزابيلا عرش قشتالة عام ١٤٧٤ (٨٧٩) وآل إلى زوجها فرناندو (فراندة) الخامس عرش أرغون. وباتحاد اقوى مملكتين في شبه جزيرة آيبرية، أصبح من العسير على مملكة غرناطة الاستمرار كوجود مسلم في وسط مسيحي التهبت مخاوفه بعدما استولى السلطان العثماني محمد الثاني على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وأتبعها بإخضاع ١٢ مملكة و٢٠٠ مدينة في جنوب أوروبة.

ولم يكن بحث أوروبة عن قائد روحي يجمع كلمة المسيحية لوقف توغل العثمانيين مجدياً في تلك الفترة. فمنذ القرن الثالث عشر ترافق انحسار الحروب الصليبية مع انحسار شأن البابوية وانفساخ أمرها فسادت الهرطقة وخضعت الكنيسة إلى موجة علمنة مهمة وتعاقب على الفاتيكان الباباوات المعروفون باسم باباوات عصر النهضة فانهمكوا في تعزيز مصالحهم الشخصية والإكثار من العمارة وجمع الكتب وتشجيع الفنون والآداب والترجمة. ولم يكن البابا سيكستوس الرابع (١٤٧١-١٤٨٤) بمثل أهمية إربان الثاني ولا ثقله الديني والدنيوي لكنه كان آنذاك في حاجة إلى انتصار يرفع معنويات الكاثوليكية، أو على الأقل تخجيل الملوك الآخرين للتصدي للعثمانيين. وهكذا أبدى البابا حماساً شديداً عندما تلقى من إيزابيلا رسالة تعرض فيها خطة لانهاء مملكة غرناطة «لا رغبة في توسيع ممالكنا وحقوقنا، ولا طمعاً في الحصول على مداخيل أكثر مما لدينا، ولا في أي رغبة في تكديس الكنوز؛ بل الرغبة في خدمة الله وحماسنا لدينه الكاثوليكي المقدس». [١]

التمويلات البابوية

ولم يخفَ على سيكستوس أن إيزابيلا كانت تريد منه تمويل الحرب فأصدر في الثالث عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٤٧٩ (٨٨٤) إرادة بابوية خاصة في شأن حملة صليبية (كروثادا) ضد الغرناطيين تضمنت السماح لإيزابيلا بتحصيل ضريبة لتمويل نفقات الحرب إضافة إلى ما توافر لها من قروض قدمها الممولون اليهود والايطاليون والهولنديون والألمان. وبعد وفاة سيكستوس استكمل أنوصان الثامن (١٤٨٤-١٤٩٢) ما بدأه سلفه فأحيا الإرادة البابوية الخاصة بالحملة على غرناطة عام ١٤٨٥ (٨٩٠). وجُددت الارادة عامي ١٤٨٧ و١٤٨٩ أملاً في تمكن إيزابيلا من

[1] Gaztambide, Jose Goni. *The Holy See and the Reconquest of the Kingdom of Granada (1479-1492)*, R. Highfield ed. Spain in the Fifteenth Century 1369-1516 (London 1972) P 361.

القضاء على غرناطة لكن الحرب طالت أكثر من المتوقع، فأصدر البابا أنوصان في الاول من تشرين الاول عام ١٤٩١ (٨٩٦) تجديداً للإرادة السابقة مدة سنة أخرى واخيرة. ولم تجد إيزابيلا حاجة إلى تمويل جديد إذ لم تمض ثلاثة اشهر على صدور تلك الإرادة حتى كان جيش إيزابيلا دخل غرناطة بعد تسليمها. وكتب فرناندو إلى البابا يبشره بإنهاء آخر وجود إسلامي سياسي في شبه جزيرة آيبرية: «ولدك المطيع المخلص ملك قشتالة وليون وأرغون وصقلية وغرناطة يقبّل قدميك ويديك الطاهرتين خالصتي الطهارة، ويبشّرك بأن ربنا أنعم علينا بنصر مبين على أندلسيي غرناطة أعداء ديننا الكاثوليكي الطاهر فتم في هذا اليوم الثاني من كانون الثاني سنة اثنتين وتسعين (واربعمائة وألف) استسلام مدينة غرناطة مع الحمراء وكل القوات مع كل القلاع والحصون».[1]

وبعدما غطّت أنواع عدّة من الضرائب البابوية والكنسية مثل العُشر وضعفي العُشر على الأرباح والعُشر على دخل الكنائس ومحصلات تسويق صكوك الغفران معظم تكاليف حرب غرناطة التي زادت على ٨٠٠ مليون مرابطي، تابعت البابوية توفير هذا الدعم بتخويل إيزابيلا وفرناندو جباية الضرائب وتسويق صكوك الغفران Cruzado لنقل الحرب إلى العدوة على اعتبار أن تلك المنطقة كانت نصرانية في الماضي ويجب أن تعود إلى ما كانت عليه. وتحسنت عائدات بيع صكوك الغفران حتى باتت في القرن السادس عشر المصدر الثاني لدخل حكومة قشتالة (بعد الضرائب العادية) التي كانت تسوّغ جمعها بالادعاء أنها ستُخصص لاسترداد بيت المقدس عبر طريق يقطع الجزائر وتونس ومصر. وكما أن البابوية حاولت في القرن الثالث عشر التوفيق بين متطلبات إنجاح الحروب الصليبية في المشرق مع الحروب الصليبية في الأندلس، فإن البابوية في القرن السادس عشر حاولت أيضاً التوفيق بين حاجات إسبانيا لنقل الحرب إلى البلاد الإسلامية في المغرب، وبين حاجات التصدي لتعاظم قوة العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط وجنوب أوروب. وفرضت البابوية لهذا الهدف ثلاثة أنواع من الضرائب والتحصيلات، وربما أكثر، كانت تُجبى في بعض الحالات من سائر الممالك النصرانية الكاثوليكية وأحياناً مدة ثلاث سنوات متواصلة. وقدّمت البابوية أيضاً التمويل لتنظيم الحملات العسكرية البحرية التي شنّها البرتغاليون على المدن والمراكز التجارية العربية والأفريقية والهندية ورفعوا فيها رايات البابوية وارتكبوا خلالها مذابح رهيبة. ولعبت البابوية دوراً مهماً في تنظيم جهود فرض الحظر التجاري على بعض الممالك الإسلامية

---

[1] أعلاه.

كما حدث عندما حظرت فرنسا وأرغون وجنوة وبيزا ونابولي والبندقية التجارة مع مصر بين عامي ١٣٠٠ و١٣٤٠.

لقد أخضعت البابوية نفسها إلى جهد كبير استهدف الإصلاح والتحديث منذ القرن السادس عشر لا يزال مستمراً إلى اليوم. واكتسبت البابوية الحديثة ثقة مسلمين كثيرين (في ظل ضعف الثقة بالمسلمين الآخرين) حتى صار البعض يناشدها التدخل لمساعدته كما فعل الرئيس الشيشاني إصلان مسخادوف عندما هاجم الروس بلاده في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٩٩. إلا أن البابوية في العصور الأسبق كانت أكبر بنك دولي لتمويل الحملات ضد الإسلام في البر والبحر. وان لم تكن الأموال البابوية مُتاحة في معظم تلك الحملات فراياتها على الأقل. وبعدما انجزت البابوية مهمة تقويض الحكم الإسلامي في آيبرية سنجدها تتابع دوراً جديداً استهدف فرض المسيحية على الأندلسيين الذين اختاروا البقاء في اراضيهم بعد تسليم غرناطة من خلال محاكم التحقيق وإذكاء روح البغضاء والكراهية وتسويغ البطش وتسميم الأنفس والعلاقات بين الشعوب في العالم القديم أولاً ثم في العالم الجديد. ولم يعد هناك فرق واضح بين سلوك صليبيي الحملة الأولى في نهاية القرن الحادي عشر في فلسطين وسلوك صليبيي القرن السادس عشر في المحيط الهندي والمكسيك وغيرها. ونختم هذا الفصل بنقل ما خطّه برتغالي اقتحم مدينة غوا الهندية بعد دكّها: «ودخلنا غوا مثل المجانين فقتلنا وقُتلنا ونفذنا أوامر نائب الملك (البوكيركه) وملّكنا السيف رقاب كل من كان على ملة محمد ولم نفرّق بين الرجال والنساء والأطفال».[١]

❊ ❊

[١] Rasqilho, Rui and Barros, Jorge. *Portugal and the Sea*, (Lison 1983) P 40.

الفصل الثاني

الثورة الأندلسية الأولى

١ - سقوط الأندلس

يا أهل أندلس حــثــوا مطيّكمُ   فــمــا المقــام بهــا إلا من الغلط
الثــوب ينسل من أطرافــه وأرى   ثوب الجزيرة منسـولاً من الوسط

ليس في التاريخ الأندلسي على غناه وشموله ما يلخّص أبعاد سقوط طليطلة أكثر من هذين البيتين المنسوبين إلى الفقيه الزاهد ابن العسال. وإذا أضفنا إليه قولين مشهورين آخرين هما «رعي البعير ولا رعي الخنازير» و«الأمارة لو على الحجارة» فربما اكتملت سيرة ملوك الطوائف الذين تقاسموا حكم الأندلس بعد انهيار الخلافة الأموية. ولم تكن السيرة المقابلة للممالك الشمالية خلال القسم الأعظم من تلك الفترة سيرة الوحدة والقوة إذ كانت لا تزال على التنازع والتفرّق اللذين طبعا معظم تاريخها. لكن ما حدث في منتصف القرن الحادي عشر كان تبادلاً واضحاً في المواقف فصار الشمال فجأة أكثر وحدة، أو أقل تفرّقاً، من الجنوب الذي تقاسم سادته ألقاب الفخامة والعظمة والتمجيد والانتصارات التي لم تكن يوماً.

وفي التاريخ الأندلسي أن ألفونصو السادس (أسبغت عليه البابوية صفة القداسة عام ١٦٧١) تظاهر بالنوم وهو في حمى طليطلة هرباً من أخويه وراح يصغي إلى حديث دار بين حاكم المدينة المأمون يحيى بن ذي النون وبعض وزرائه عن مناعة طليطلة، الواقعة على تل مرتفع يحيط به نهر تاجه العظيم، وانتهوا إلى التقرير بأن أخذ هذه المدينة يستوجب سبع سنوات من الحصار المسبوق بتخريب الأرض والأحواز وحرق الغلال وانقطاع المؤونة. ولا نعرف إن كانت هذه الحادثة وقعت فعلاً لأن أمراً عظيماً مثل الوضع العسكري لطليطلة لا يُبحث في حضور شخص مثل ألفونصو نائماً كان أو صاحياً، إلا أن الثابت أن ألفونصو كان يعرف المدينة جيداً.

وحين جاء ألفونصو السادس نهج في البداية نهج سابقيه فأنفق على نفسه وزوجاته الكثيرات وجيشه من الجزية السنوية التي كان يحملها إليه ملوك الطوائف، إلا أنه صار يكثر في المطالب فقل الذهب وبدأ غش العملة ولمس ضعف هؤلاء الملوك وحاجتهم إلى المهادنة فعاث في بلادهم كما شاء. وحدث في ذلك الوقت أن فلت زمام الأمور

من يد حاكم طليطلة القادر ذي النون بعد مقتل أحد الفقهاء المحبوبين فثار الناس وخلعوه وأجلسوا مكانه المتوكل بن الأفطس لكنّ الأخير ترك المدينة لمصيرها عندما سمع بقدوم ألفونصو ومعه القادر. ولم يجد أهل طليطلة نصيراً في باقي ملوك الطوائف فسلّموا المدينة لألفونصو بعد سبع سنوات من الحصار. وما كاد ألفونصو يستقر في عاصمته الجديدة حتى بدأت الهدايا والتهاني على هذا النصر المبين تفد إليه من بعض ملوك الطوائف. ومن هؤلاء حسام الدين بن رزين حاكم شنتمرية الذي حمل له هدية سنية فجازاه عليها ألفونصو بقرد. ولم ييأس بعض ملوك الطوائف من استعطاف ألفونصو وكسب ودّه ورضاه إلا عندما بدأ يغير سياسته مطالباً بالحصون والقلاع والأراضي. وعندما رد ألفونصو الجزية التي بعثها المعتمد بن عباد اللخمي، حاكم أكبر دول الطوائف، لم يعد أمامه مفر من مواجهة الواقع فانصاع للضغط الشعبي ووافق وغيره من الحكام على استدعاء المرابطين وبدا له الخيار واضحاً بين رعي الخنازير عند ألفونصو أو رعي البعير عند سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين.

وفي الثلاثين من حزيران عام ١٠٨٦ عبر يوسف العدوة على سفن اسطول إشبيلية ونزل الجزيرة الخضراء قرب جبل طارق، ثم سار إلى بطليوس ومعه جيوش من إشبيلية وغرناطة ومالقة وبطليوس. والتقى الجمع بجيش ألفونصو في منطقة تبعد ثمانية كيلومترات شمال شرقي بطليوس ونشبت معركة كبيرة تُعرف باسم «الزلاقة» انتهت بهزيمة ألفونصو. غير أن المرابطين والأندلسيين لم يستثمروا هذا الانتصار ليأخذوا طليطلة فظلت في يد ألفونصو وتحولت إلى قاعدة مهمة كان يثب منها إلى المراكز الأندلسية كما حدث عندما بدأ يهدد مرسية. واستدعى المعتمد يوسف بن تاشفين ثانية بعد استفحال خطر ألفونصو وحاصر جيش المرابطين والأندلسيين حصن لييط Aledo قرب مرسية فاستعصى فانسحب قبل وصول ألفونصو لنجدة قواته.

وجاز ابن تاشفين إلى الأندلس مرة ثالثة وحاصر طليطلة فاستعصت عليه أيضاً فارتد إلى غرناطة وملكها من عبدالله بن بلقين. وترك ابن تاشفين لقادته تصفية ملوك الطوائف فملكوا قرطبة بعد قتل حاكمها الفتح بن المعتمد فوضعت زوجته سائدة نفسها في حمى ألفونصو. وانتقل جيش المرابطين إلى المعتمد في إشبيلية فخف ألفونصو لنجدته بحملة أوكل بها أحد قادته لكن الأخير انهزم. وقاوم المعتمد جيش المرابطين عبثاً وحُمل إلى أغمات عاصمة المرابطين الأولى الواقعة جنوب شرقي مراكش، ومات هناك أسيراً عام ١٠٩٥. أما سائدة فأصبحت زوجة ألفونصو وحملت له ابنه الوحيد سانشو (شانجة) الذي قتل وهو في الحادية عشرة من عمره عام

١١٠٨ (٥٠١) في معركة أقليش Ucles التي انتصر فيها المرابطون. ودهم ألفونصو غم عظيم لخسارة صغيره ففاضت روحه بعد سنة من ذلك تاركاً عرش قشتالة وليون وأشتوريش لابنته أراكة.

واكتشفت أراكة وغيرها مع مرور الوقت عقم محاولة التصدي للمرابطين لأن هؤلاء أدخلوا فنونا حربية لم تعرفها الأندلس من قبل مثل الجمّالة واستخدام الطبول لإصدار الأوامر والإشارات الحربية، والهجوم العريض بالفرسان بدلا من الزحف، واشتراك الزنوج وغير ذلك من المفاجآت التي دبّت الذعر في الشمال الأندلسي والدول الأوروبية. ولم يتمكن الشمال من تحقيق أي تقدم حاسم خلال فترة طويلة، إلا أن أحوال المرابطين آلت إلى الضعف مع الزمن فتمكن الشماليون عام ١١١٨ (٥١٢) من احتلال سرقسطة والمدن الرئيسية الأخرى التي تقع في الثغر الأعلى بمساعدة الفرنسيين والإيطاليين وغيرهم، وتضاعفت بذلك الرقعة التي سيطر عليها الشماليون معززين مركزهم باحتلال طرطوشة عام ١١٤٨ (٥٤٣). وبعد سنة من ذلك احتلت مملكة أرغون لاردة وافراغة ووسّعت حدودها حتى نهر ابرة. لكن العمليات القتالية الشمالية لم تكلل كلها بالنجاح إذ حاول ألفونصو السابع احتلال قرطبة بمساعدة سكانها من النصارى المستعربين فأخفق، لكنه توج حكمه باحتلال المرية، فبقيت تلك العملية أوج انجازاته، كما كان إحتلال طليطلة أوج انجازات ألفونصو السادس. أما باقي الصورة فكانت تراجعاً جديداً أمام قوة جديدة نهضت على أنقاض المرابطين هي دولة الموحدين (١١٢٣-١٢٤٥/ ٥٤٠-٦٢٠).

بدأ الموحدون فترة سيادتهم بانهاء ما بقي للمرابطين من سلطة في الأندلس واستعادوا مدينة المرية بعد عشر سنوات من سقوطها. وفي الشمال جدد ألفونصو الثامن (١١٥٨-١٢١٤) الحملات على الجنوب، وبات يشكل خطراً كبيراً فجاز الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور العدوة إلى طريف في الثلاثين من نيسان ١١٩٥ (٢٥جمادى الآخرة ٥٩١) ومنها إلى إشبيلية ثم قرطبة فقلعة رباح التي تقع على بعد عشرة كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من المدينة الملكية وسط الأندلس. وفي الثامن عشر من تموز التقى الخليفة الموحدي جيش ألفونصو في معركة سميت بالأرك، نسبة إلى حصن استخدمه الملك القشتالي لشن هجماته المتكررة على الأراضي الأندلسية، فكانت هزيمة ساحقة لألفونصو الذي انسحب من المعركة جريحاً، وفر إلى طليطلة ومعه ٢٠ فارساً. أما الناجون فهربوا إلى الحصون القريبة واستسلم معظمهم بعد ذلك.

ولم تلجم هذه النكسة ألفونصو الثامن طويلاً إذ شرع اعتباراً من عام ١٢٠٩ في مهاجمة بعض القواعد الأندلسية القريبة من منطقة سلطانه في فترة تميزت بتأجج الحماس الديني في أوروبة. وتنادت الكنيسة لنجدة الممالك المسيحية في الشمال الأندلسي، وأصبحت الفرصة مواتية لشن هجوم واسع النطاق على الدولة الإسلامية. وفي العشرين من حزيران عام ١٢١٢ انفتحت أبواب طليطلة وخرجت جيوش قشتالية وأرغونية وفرنسية ومعها أوروبيون آخرون قصدوا سهلاً يقع جنوب غربي حصن العقاب شمال مدينة جيان. والتقت هذه الجيوش مع جيش الموحدين والأندلسيين في السادس عشر من تموز (١٤ صفر سنة ٦٠٩) فدارت معركة شرسة انتهت بهزيمة الموحدين والأندلسيين وانفتح الباب على مصراعيه لاجتياح الجنوب. أما الخليفة الموحدي محمد الناصر لدين الله فعاد إلى إشبيلية فمراكش وتوفى بعد سنة.

حقق ألفونصو الثامن الموصوف بالنبيل انتصاره الحاسم في معركة العقاب لكن الفتوحات الشمالية العظمى التي لم تعرفها الأندلس من قبل كانت من نصيب فرناندو الثالث (١٢١٧-١٢٥٢) الذي نزل على قرطبة في التاسع والعشرين من حزيران عام ١٢٣٦ واتبعها بجيان (١٢٤٦) فاشبيلية (١٢٤٨) ولم يتوقف إلا والسلطة الإسلامية مقصورة على الرقعة الجنوبية من البلاد، وانتقلت عاصمة قشتالة إلى إشبيلية. وخلال هذه الفترة كانت أرغون والبرتغال تتقدمان في اتجاه الجنوب لترسما حدودهما الجديدة. وكما توافر لقشتالة ملك مهم مثل فرناندو الثالث، توافر لأرغون ملك لا يقل أهمية هو خايمي الاول (١٢١٣-١٢٧٦) الذي احتل جزيرة ميورقة بمساعدة الايطاليين عام ١٢٢٩، واستكمل في السنوات الخمس التالية احتلال الجزائر الشرقية قبل ان يسجل انتصاراً كبيراً باحتلال بلنسية عام ١٢٣٨.

القرن الأسود

حلّت بالعرب نكبات لا تُعد ولا تحصى وعرفوا كذلك انتصارات لا تُعد ولا تحصى هي الأخرى إلا أنه لا يوجد في التاريخ العربي أكثر حلكة ويأساً من القرنين الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين فكلاهما شهد هجوماً واسع النطاق استهدف المشرق والمغرب معاً ولم تعد هناك قوة كافية لايقافه. وحل منتصف القرن الثالث عشر في الأندلس فإذا مئات الألوف من الأندلسيين إما قتلى أو أسرى أو مشردين أو لاجئين فتمزّق النسيج الاجتماعي وانهار الاقتصاد وضاعت الثروات بين ليلة وأخرى وعمّ الجوع. وخلال تلك الفترة الحالكة من التاريخ الأندلسي وجد الأندلسيون أنفسهم في

وضع تحرّك دائم مدفوعين أبداً نحو الجنوب أمام جيوش فرناندو الثالث وخايمي الأول فلا يكادون يحلّون في المدينة التالية حتى يكون دورها جاء فتبدأ دوّامة الجلاء مرة أخرى. وفي سنوات الكارثة تلك تفرّق الأطفال عن الامهات والأباء عن الأولاد والزوجات عن الأزواج وانفرط عقد المجتمع وعصفت الفوضى بكل ما كان إلى الجنوب من وسط الأندلس، ولم يعد مُتاحاً لجمهور الأندلسيين خيار «رعي البعير» ولا حتى خيار «رعي الخنازير» بعد تنفيذ سياسة قامت على تفريغ معظم الأراضي والمدن الأندلسية.

أما مدد العدوة فتوقف هو الآخر ولم يعد المغرب قادراً على حشد القوات الكافية لوقف الاجتياح الشمالي بعدما كان دفع الجيش تلو الآخر إلى الأندلس حتى انهكت قواه وعجز عن صد الشمال المتحالف مع البابوية والمدعوم بصليبيي فرنسا وإيطاليا. أما قشتالة فتحوّلت إلى آلة حرب يسيّرها مجتمع مؤلف إما من مقاتلين أو كهنة لا تعرف الفئة الاولى منه سوى الحرب مصدراً رئيساً للثروة، ولا تريد الثانية التوقف قبل طرد العرب والإسلام من شبه جزيرة آيبرية. هذا في المغرب، إلا أن المشرق لم يكن أفضل حالاً إذ كانت الحروب مستمرة هناك ضد الممالك الصليبية. وفي عام ١٢٥٨ (٦٥٦) دهم الوطن العربي خطر هائل عندما زحف المغول في اتجاه العراق واقتحموا «مدينة السلام» وأزالوا ما بقي من الخلافة العباسية. وعندما انسحب المغول من عاصمة المشرق لم يعد وصف «مدينة السلام» مناسباً. أما الدمار الذي نالها وأهلها فكان هائلاً واستمر عشرات السنين حتى أن الرحالة ابن بطوطة وجد بعض الخراب قائماً عندما زارها في القرن الرابع عشر.

وعلى رغم المقاومة الخارقة التي أبداها الأندلسيون بات واضحاً أن قواتهم العسكرية الذاتية كانت أضعف من ان تتصدى للمد الشمالي نتيجة ١٢٠ سنة من الاتكال على الآخرين لحمايتها، وهكذا بدأت الأندلس تدخل مرحلة التصفية قبل النهائية. وإزاء تردي الأوضاع إلى هذا الدرك جمع الأندلسيون كل ما تبقى من قوتهم وهاجوا في انتفاضة شعبية شاملة في حزيران (يونيو) عام ١٢٦٤ واستعادوا مناطق كثيرة بينها مدينة مرسية التي احتفظوا بها نحو سنتين. غير أن تلك القوة الجديدة لم تحتمل الجيوش التي سيّرها خايمي الأول فسقطت مرسية ثانية. ولم يبق لأرغون بعد ذلك ما تحتله فانصرفت إلى بناء امبراطوريتها في البحر الابيض المتوسط تاركة استكمال احتلال الأندلس لملوك قشتالة، وان كان دعم أرغون لجارتها في الحروب التي دارت في فترات لاحقة مع الأندلسيين لم يتوقف.


تاريخ سقوط أهم المدن الأندلسية
Bay of Biscayne خليج بسقاية
FRANCE
Gulf of Lions
اندورا
ANDORRA
Oviedo
أوبيط ١٠٠٠
Lugo
لك قبل ٧٥٧
Bilbao
بلباو تأسست ١٣٠٠
بمبلونة ٧٤٨
Pamplona
Leon
ليون ١٠٠٢
بلازيا ٩٢١
Palencia
سمورة ١٠٦٥
Zamora
بلد الوليد قبل ١١٠٠
Valladolid
Soria
سرية ١٠٠٢
وشقة ١٠٩٦
Huesca
Zaragoza
سرقسطة ١١١٨
لاردة ١١٤٩
Lerida
جرندة ١٠١٥
Gerona
Barcelona
برشلونة ٩٨٥
طركونة ٨٠٨
Tarragona
North Atlantic Ocean
المحيط الاطلسي
PORTUGAL
برطقال
Salamanca
سلمنقة ١٠٥٥
Segovia
شقوبية ١٠٨٥
Avila
ابلة ١٠٩٠
Madrid
مجريط ١٠٨٣
Toledo
طليطلة ١٠٨٥
طرويل ١١٧١
Teruel
قونقة ١١٧٧
Cuenca
Balearic Sea
الجزائر الشرقية
منورقة ١٢٨٧
Minorca
Majorca
ميورقة ١٢٣٠
Iviza
اليابسة ١٢٣٥
Balearic Islands
Formentera
قاصرش ١٢٢٩
Caceres
Lisbon
لشبونة ١١٧٤
Badajoz
بطليوس ١٢٢٩
بلنسية ١٢٣٨
Valencia
لقنت ١٢٦٦
Alicante
Mediterranean Sea
قرطبة ١٢٣٦
Cordoba
جيان ١٢٤٦
Jaen
مرسية ١٢٦٦
Murcia
شلب ١١٨٩
Silves
ولبة ١٢٥٧
Huelva
اشبيلية ١٢٤٨
Sevilla
غرناطة ١٤٩٢
Granada
المرية ١٤٨٨
Almeria
Gulf of Cadiz
مالقا ١٤٨٧
Malaga
قادس ١٢٦٢
Cadiz
Strait of Gibraltar
جبل طارق ١٤٦٢
MOROCCO

ونهجت البرتغال هي الأخرى نهجاً منفصلاً عن قشتالة، وبرزت كياناً متميزاً منذ اعترف البابا بها مملكة مستقلة عام ١١٧٩ . وما ان حلت سنة ١٢٣٦ حتى كانت البرتغال أخذت مدينة طبيرة الساحلية في الجنوب منهية بذلك توسعها وراسمة حدودها التي بقيت في صورة عامة على تلك الحال. وفي الفترة بين ١٢٩٧ و١٣٢٥ عمل الملك البرتغالي ديونيسوس الاول الملقب بـ«العامل» على تطوير البنية الاقتصادية لمملكته معتمداً على توسيع نشاطات التعدين والتجارة، وتابع من جاء بعده الطريق نفسه واستمر الصراع مع قشتالة للاحتفاظ باستقلالية البرتغال حتى عام ١٣٨٥، عندما انتصر البرتغاليون على القشتاليين في المعركة المعروفة بإسم «الجبروت». وفي عهد الملك يوحنا الاول (١٣٨٥-١٤٣٣) بدأت فترة توسع كبيرة نحو أفريقية كانت فاتحتها احتلال مدينة سبتة عام ١٤١٥، ثم كان للبرتغال بعد ذلك دورها المعروف في الاهتداء إلى طريق التوابل بمساعدة ملاح عربي مشهور في نهاية القرن الخامس عشر، وبناء أمبراطوريتها في أفريقية والمحيط الهندي والبرازيل.

أحوال مملكة غرناطة

بين سقوط مرسية واستسلام غرناطة ٢٢٦ سنة خرج خلالها العالم من حقبة ودخل أخرى وتبدلت مواقع القوى وتغيرت الأولويات. وانحسر شأن البلاد العربية المشارقية التي حكمتها مجموعة أخرى من سلاطين وملوك وأمراء الطوائف فانحسرت مخاوف المسيحية وخمد توقّد الروح الصليبية. ولم يعد للبابوية دورها المهم فانصرف أمراء الفاتيكان إلى الاهتمام بالدنيا وشؤونها. وفي الأندلس كانت قشتالة وأرغون قضمت في القرن الثالث عشر لقماً فاضت بكثير عن قدرتها على الابتلاع فلم تستطع إعادة إعمار معظم المدن الرئيسية التي اجتاحتها. واتسعت آنذاك رقعة الأراضي في صورة بات معها توفير الحماية المناسبة لها صعباً لذا كان استئناف الحرب مع غرناطة جهداً لم تكن قشتالة قادرة عليه فعاد الطرفان إلى النهج المعروف في الأندلس وارتضت قشتالة قبول جزية السلام من غرناطة وتقلبت العلاقة بينهما بين الصداقة والعداء والهدنة والقتال. ولم يكن انشغال ملوك غرناطة بأنفسهم أقل حدة مما كان يحدث في قشتالة ولطالما توجه هذا الطرف أو ذاك إلى الآخر طلباً للمساعدة على قهر الخصوم أو دعم السلطة.

ولا تخفي هذه الصورة الكبيرة من الهدنة والسلام صوراً حربية أقل حجماً وأقصر عمراً حاولت مملكة غرناطة الالتفاف عليها عن طريق تجنّب الصدام مع قشتالة بوسائل

شتى بما في ذلك التنازل، ولو موقتاً، عن المناطق الاستراتيجية بل حتى التعاون العسكري مع القشتاليين كما حدث آخر أيام الشيخ محمد (الأول) بن الأحمر «الغالب بالله» مؤسس مملكة غرناطة (١٢٣٨-١٢٧٢)، وكثيرين ممن خلفوه في حكم آخر الممالك الإسلامية في الأندلس. ونجحت هذه السياسة حيناً وأخفقت حيناً آخر. وفي لحظات اشتداد الضغط القشتالي لجأ حكام غرناطة إلى الاستنجاد بسلاطين المغرب كما حدث عندما قاد السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بـ«المنصور» جيشا عام ١٢٧٥ (٦٧٣) عبر به الزقاق وهزم القشتاليين قرب مدينة استجه، ثم عبر الزقاق ثلاث مرات بعدها لوقف القشتاليين عند حدود غرناطة. وفي فترات أخرى ساهمت مشيخة الغزاة المغربيّة في مساعدة أهل غرناطة على صد الشماليين. وكان قادة المشيخة من أقارب السلطان المريني لكن العلاقات بين السلطتين، الغرناطية والمغربيّة، لم تكن جيدة على الدوام. ونمت في أوقات أخرى أزمة من عدم الثقة شبيهة بأزمات مماثلة سابقة بين الأندلسيين وكل من المرابطين والموحدين الأمر الذي زاد ضعف غرناطة وفتح الطريق أمام الشماليين ثانية.

وفي بداية القرن الرابع عشر دخلت غرناطة وقشتالة مرحلة جديدة من الصراع أحرزت خلالها قوات بحرية مشتركة من قشتالة وأرغون والبرتغال انتصاراً حاسماً على غرناطة عام ١٣٤٠ (٧٤٠). وتوغلت قوات برية مشتركة من الممالك المسيحية الثلاث في أراضي غرناطة فاستنجدت بالسلطان المريني ابي الحسن علي بن ابي يعقوب. وخاض الطرفان معركة ضارية مع القوات المسيحية في الثلاثين من تشرين الأول (السابع من جمادى الأولى) انتهت بهزيمة القوات الإسلامية في وقعة طريف التي يُقال إن المرينيين فقدوا خلالها مصحف عثمان[1]. وانقطع المدد المغربي عن الأندلس بعد ذلك، وضعف شأن السلطان في المغرب واقتصرت مساعدة غرناطة على إمدادات محدودة.

وعلى رغم هذه النكسات تمكّنت غرناطة من الاستمرار ١٥٢ سنة تلت معركة طريف، ونعمت بفترات طويلة من السلام والإزدهار الحضاري والتجاري، وتطورت فيها العلوم والآداب والصناعات والعمارة التي تشهد عليها الآثار المتبقية حتى اليوم في عاصمة بني الاحمر الذين اكتسبوا صفتهم هذه بسبب شقرة شعر مؤسسها. وتقوّت هذه المملكة بالنازحين إليها من المدن والمناطق التي وقعت تحت سيطرة ممالك الشمال

[1] لا نعرف ماذا حل بهذه النسخة إن كانت فُقدت أصلاً إلا ان الأتراك يعرضون في قصر توبكابي في اسطنبول نسخة يقولون إنها نسخة عثمان.

ممن رغبوا في البقاء في الأندلس وعدم جواز العدوة، فتجمّع في غرناطة على مدى السنين أكثر من مليون أندلسي انضمّ اليهم في القرن الثالث عشر نحو نصف مليون أندلسي آخر جاء أكثر من نصفهم من مدن قرطبة وإشبيلية وشريش وقادس (٣٠٠,٠٠٠ تقريباً)، ونحو ٥٠,٠٠٠ شخص من مملكة بلنسية وما حولها. ولم تكن هذه القوة كافية لانتزاع الأراضي التي احتلتها قشتالة وأرغون إلا أنها كانت قادرة على صد الشماليين فترة طويلة من خلال مجموعة من الحصون كانت من بين الأمتن في أوروبة آنذاك. وفي بعض الحالات استغل الغرناطيون ضعف قشتالة فتوقفوا عن دفع الجزية (وصلت أحياناً إلى ١٢,٠٠٠ قطعة ذهب سنوياً) ونشبت بسبب ذلك معارك متفرقة اثبت الأندلسيون فيها قوتهم. لذا احتفظت هذه المملكة عموماً بمعظم الاراضي التي قامت عليها دولة بني الأحمر في البداية.

الحرب ضد غرناطة

إلا أن التوازنات الدولية اضطربت بعنف في بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشر عندما أخذ محمد الخامس القسطنطينية عام ١٤٥٣ وبدأ يدق أبواب جنوب أوروبة فتخلّعت مفاصلها وبات العثمانيون خلال وقت قصير نسبياً أكبر خطر يتهدد أوروبة والمسيحية. وعلى رغم تحرّك ملوك أوروبة والبابوية لحشد الصفوف بغية وقف تقدم العثمانيين فإنّ معظم تلك المحاولات انتهى إلى الإخفاق. ولم تتمكن أوروبة والبابوية من الرد على انتصارات العثمانيين إلا عندما دخلت قوات قشتالة غرناطة مطلع ١٤٩٢ تتقدمها ملكة ولدت قبل سنتين من سقوط القسطنطينية. لذا هيمن على وعيها منذ بداية طفولتها أكبر هزيمة لحقت بالمسيحية على يد الإسلام بسقوط عاصمة الكنيسة الشرقية وما تلاها من الانكسارات التي أوقعها العثمانيون بأوروبة بعد ذلك.

وماتت إيزابيلا في الثالثة والخمسين من العمر وهاجس محاربة الإسلام، أو الدفاع عن قشتالة، لا يزال يسيطر على تفكيرها. وحدث هذا في وقت لاحق برعاية البابوية التي أججت التعصب للكاثوليكية والحقد على الإسلام، أما قبل ذلك فربما لم يكن تفكير إيزابيلا يختلف عن تفكير الفتيات في عمرها عندما تزوجت وهي في الثامنة عشرة من العمر قريبها الأرغوني الأمير فرناندو الذي كان أصغر سناً منها (١٧ سنة). ولم تمض خمس سنوات على زواجهما حتى ورثت إيزابيلا عرش قشتالة وليون، وصار زوجها ملكاً لقشتالة باسم فرناندو الخامس. وبعد خمس سنوات من ذلك آلت إلى فرناندو مملكة أبيه فجمع إلى اسمه الملكي القشتالي لقب فرناندو الثاني

الأرغوني لكنه عُرف عموماً وحتى موته عام ١٥١٦ باسم فرناندو الخامس. وكانت البرتغال وقتها مملكة ناهضة، إلا أن حجمها لم يزد كثيراً على سُدس مساحة شبه جزيرة آيبرية التي عرفت للمرة الأولى في تاريخها اتحاداً حقيقياً ضمّ القوة البحرية الكبيرة التي تمتعت بها أرغون والقوة البرّية التي سيطرت عليها قشتالة.

ولا يوجد سبب واحد وراء اندلاع الحرب بين قشتالة المُتحدة مع أرغون وبين مملكة غرناطة يمكن اعلاؤه على الأسباب الاخرى كافة. وبرزت في تلك الفترة مخاوف قشتالية من احتمال استخدام العثمانيين أو الفرنسيين مملكة غرناطة للضغط على قشتالة وأرغون. كما أن بعض الاصلاحات التي أقدمت عليها إيزابيلا بهدف تدعيم سلطتها أضرّت بالنبلاء وكان توجيه كل الانظار إلى العدو الغرناطي المشترك وسيلة لاسكات أصوات المعارضة. ولا يمكن التقرير بالضبط ماهية العامل الأقوى، إلا أن الظاهر أن الأزمة بين قشتالة وغرناطة تطورت بين الجانبين في بداية الثمانينات من القرن الخامس عشر مثلما تطورت بين ألفونصو السادس وملوك الطوائف في بداية الثمانينات من القرن الحادي عشر وكان أساسها الجزية. وكما غالى ألفونصو في مطالبه آنذاك نجد إيزابيلا تفعل الشيء نفسه فرفض أبو الحسن علي بن سعد (١٤٦٣-١٤٨٢/ ٨٦٨-٨٨٧) دفع الجزية وأبلغ إلى سفير إيزابيلا أن سلاطين غرناطة الذين تعودوا دفع الجزية ماتوا، وان دار السك لا تنتج إلا السيوف هذه الأيام. ولما سمع فرناندو ردّ السلطان صاح: «Granada, Granada, le arrancar los granos uno a uno»، أي: «غرناطة! غرناطة! سوف انتزع حبّاتك واحدة واحدة»، مستخدماً المعنى المجازي لأن كلمة Granada تعني بالقشتالية الرمّانة.[1]

ويبدو من سير العمليات العسكرية الأوليّة بين الجهتين أن إيزابيلا وفرناندو كانا يريدان تشديد الضغط على غرناطة لاستئناف دفع الجزية والتنازل عن بعض القلاع والحصون المنيعة. لذا أخذت العمليات شكل المناوشات والإغارات المتبادلة على المواقع فكانت الغلبة لهذا الفريق مرة وللثاني مرة أخرى إلى أن تمكن مركيز قادس من تحقيق أهم انتصار عندما احتل قلعة الحمة (الحامة) الواقعة جنوب غربي غرناطة عام ١٤٨٢ (٨٨٧). وخلال هذه الفترة نشب نزاع بين أبي الحسن وابنيه أبو عبدالله محمد، ويوسف سببه استنصارهما لأمّهما عائشة من ضرتها القشتالية الحسناء إيزابيلا دي سوليس (ثريا) التي أسرها أبو الحسن خلال احدى غاراته. ولم تعد عائشة تحتمل البقاء في الحمراء فانتقلت إلى رباض البيازين مع ولديها اللذين رفعا راية العصيان ضد

[1] «تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس»، ص ٣٦٤.

أبيهما. وخلال المعارك التي دارت بين الطرفين بعد ذلك قُتل يوسف، ثم نظّم بنو السرّاج حركة عصيان في مدينة غرناطة فأبعدوا الأب، وأحلّوا محله ابنه أبا عبدالله.

وقاد السلطان الجديد الغرناطيين في القتال ضد قشتالة لكنّه وقع في الأسر جنوب شرقي قرطبة عام ١٤٨٣. ويبدو أن أسر الملك أبي عبدالله محمد ساهم في انتقال تفكير إيزابيلا وفرناندو من مجرد إخضاع غرناطة وإجبارها على استئناف دفع الجزية إلى محاولة شن حرب شاملة لانهاء وجود هذه المملكة. وكان تحت إمرة فرناندو جيش ضخم قوامه نحو ٥٢,٠٠٠ جندي إلا أنه كان يفتقر إلى المدفعية الثقيلة لدك أسوار القلاع والحصون، وإلى شقّ الطرق لنقل تلك المدافع في المناطق الغرناطية المعروفة بوعورتها. وتطلب هذا كله توفير مبالغ طائلة لم تكن قشتالة تملكها فعمدت إيزابيلا إلى الحصول على تمويل من بعض الأثرياء اليهود والألمان والإيطاليين وكتبت إلى البابا تعرض عليه الخطة وتطلب منه المساعدة على تمويل هذه الحرب. أما أهم أوراق إيزابيلا خلال تلك المرحلة فكانت أسيرها الملكي أبو عبدالله المعروف في الروايات الأندلسية والإسبانية باسم «الملك الصغير». وفي عام ١٤٨٥(٨٩٠) أطلقت إيزابيلا أسيرها فقام يطلب الملك من أبيه. واستمر القتال بين الأب وابنه حتى أصيب الأب بالعمى والصرع ومات، فآل السلطان إلى أخيه الملقّب بـ«الزغل». واستمر الخلاف بين الملك الصغير وعمه، وتطور إلى حرب شطرت في وقت متقدم مدينة غرناطة إلى نصفين أولهما في قصبة الحمراء وثانيهما في رباض البيازين قبالتها. وضج الناس من هذه الحرب الأهلية، ويئس الزغل من الاستمرار فعمد إلى ابرام اتفاق مع إيزابيلا عام ١٤٨٩ (٨٩٥) لضمان سلامته وحاشيته وهجر غرناطة إلى تلمسان حيث سجنه سلطان المغرب محمد الشيخ وسمل عينيه وأخذ أمواله.

وخلال سنوات الاقتتال الداخلي الحاسمة دار اقتتال أشدّ ضراوة منه بين جيش فرناندو الذي قاد دفة المعارك وبين المدافعين عن المدن والحصون الغرناطية، فيما ضربت أساطيل البرتغال وأرغون وإيطاليا الحصار على السواحل الغرناطية لقطع خطوط الإمداد. وبعد عدد من المعارك الطاحنة التي لم تعرف شبه جزيرة آيبرية مثيلاً لها من قبل، احتلت جيوش فرناندو رندة عام ١٤٨٥ (٨٩٠) ومالقه عام ١٤٨٧ (٨٩٢) وبدأت تنصب مدفعيتها حول غرناطة اعتباراً من نيسان (إبريل) عام ١٤٩٠، أي ٨٩٥ هجرية. وفيما لجأ قسم من سكان مملكة غرناطة إلى الجبال، احتمى أهل غرناطة بأسوار مدينتهم الحصينة فأسند فرناندو إلى نحو ٣٠ ألف جندي مهمة تخريب الحقول والمروج وقطع الشجر وحرق المحصول لتشديد الضغط على المحاصرين لأن

هذا الجهد كان من الجهود الرئيسية لاخضاع المدن. لكن الماء ظل يتدفق إلى غرناطة من الجبال المحيطة بها عبر قنوات سرّية مدفونة تحت الأرض لذا لم يكن الوضع يائساً.

وكان العقد الممتد بين ١٤٨١ و١٤٩١ دامياً وعصيباً وحاسماً. وكانت المعارك تدور عادة خلال فصلي الربيع والخريف، وكان قسم منها لا يزال تقليدي الطابع مثل الكر والفر والزحف والمبارزات الفردية بين الفرسان بالسيوف والرماح، بينما عكس القسم الثاني تطور آلة الحرب في تلك الفترة خصوصاً البنادق الأوّلية والمدفعية «الثقيلة» التي استخدمتها قشتالة على نطاق واسع بإدارة خبراء استقدمتهم من ألمانيا وايطاليا.[١] ويبدو أن تأثير المدفعية لم يكن كبيراً إذ ظلت الأسوار صامدة وبقيت معنويات المدافعين عن غرناطة عالية. وفي هذه الأثناء اشتدت الضغوط على الخزانة القشتالية، وبدأ الشك يتسلل إلى كل من إيزابيلا وفرناندو باحتمال تحقيق النصر على مملكة غرناطة قبل نفاد ما تبقّى من التمويل في تلك الفترة.

ولعب عاملان آخران دورهما في تغيير استراتيجية إيزابيلا وفرناندو تجاه غرناطة خلال المرحلة الأخيرة من الحرب: الأول توجيه غرناطة الرسل الى الدول العربية والإسلامية القوية لمساعدتها وارتفاع الأصوات في العالم الإسلامي للتدخل لوقف الهجوم القشتالي، والثاني تسبب استمرار الحرب مع غرناطة في إعاقة جهد قشتالة دخول السباق الحاسم مع البرتغال للوصول إلى مصادر التوابل في الهند حيث الثروة الهائلة التي كانت تنتظر أول الواصلين إليها. ولم يأت المدد العربي أو الإسلامي الذي توقعته غرناطة وكان هذا خطأ كبيراً لم ينتبه إليه العرب إلا بعدما بدأ الإسبان مهاجمة السواحل المغاربية واحتلال عدد منها. لكن أسباب السباق مع البرتغال وارتفاع تكاليف الحرب واحتمال صمود غرناطة ست أو سبع سنوات أخرى كانت كافية لإعلان إيزابيلا وفرناندو رغبة قوية في بدء المفاوضات مع المملكة العربية.

تسليم غرناطة ورحيل الملك الصغير

جرى معظم مفاوضات تسليم غرناطة سراً، وكان أغلبها ليلاً في غرناطة نفسها أو في قرية قريبة منها. ومثّل الملك الصغير في هذه المفاوضات عدد من وزرائه بينما مثّل إيزابيلا أمين سرها فرناندو دي زفره ومسؤول رفيع آخر هو غونثالو القرطبي الذي كان ناطقاً بالعربية عارفاً بعادات العرب وتقاليدهم. وساهم في الترجمة بين الجانبين

---

[١] استخدم المرينيون في وقعة طريف (١٣٤٠/ ٧٤١) قذّافة (مدفع بدائي) يبدو أنها صُنعت في دمشق استخدم فيها البارود الذي يُقال إن الصينيين طوروه.

يهودي هو جبرائيل إسرائيل Gabriel Israel. وبعد عدد من الاجتماعات توصل الطرفان إلى الاتفاق على شروط المعاهدة في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (أكتوبر) عام ١٤٩١ (٢١ محرم ٨٩٧) على ان تدخل قوات قشتالة المدينة بعد ٦٠ يوماً. ولما تسربت أنباء هذه المعاهدة ثار أهل مدينة غرناطة فعُرضت عليهم بنود المعاهدة وبُيّن لهم «أن صاحب رومة (البابا) يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط إذا أمكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود، وتكلم الناس في ذلك، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك أمتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق في شروط قرئت على أهل غرناطة، فانقادوا إليها ووافقوا عليها».[1] ولم يبق بعد ذلك ما يمنع تنفيذ المعاهدة فاتفق الملك الصغير وإيزابيلا على تقديم أجل تسليم المدينة إلى الثاني من كانون الثاني (يناير) عام ١٤٩٢.

وفي الموعد المحدد دخلت طلائع جيش قشتالة المدينة ورفعت العلم على قصبة (قلعة) الحمراء وبدأ الملك الصغير تجهيز نفسه وحاشيته لإخلاء المدينة لإيزابيلا وفرناندو استعداداً لدخولهما إليها. وبعد ستة أيام من دخول الجيش القشتالي غرناطة وقف فرناندو وحاشيته أمام مسجد يقع جنوب غرناطة حوّله فرناندو إلى كنيسة تُعرف باسم «كنيسة القديس سباستيان»، وانتظر الملك الصغير الذي عبر نهر شنيل ومعه كوكبة من نحو ٥٠ فارساً وحاشية بعدد مماثل وتبادلا التحية لحظات، ثم أمر فرناندو بتسليم أبي عبد الله ابنه الأسير ونحو ٤٠٠ من أعيان غرناطة احتفظ بهم فرناندو رهائن خوف انقلاب أهل غرناطة عليه. ولم يبق عندها سوى الوداع فأكمل الملك الصغير طريقه إلى سكناه الجديد في أندرش في جبل البشرات. وفي الروايات الإسبانية والأندلسية أن الملك الصغير توقف عند نقطة مرتفعة في الطريق تطل على غرناطة وتنهّد وبكى فنهرته أمه عائشة وقالت بيتها الشهير[2]:

إبك مثل النساء ملكا مُضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

---

[1] «نفح الطيب»، ج٤، ص ٥٢٥.

[2] لا تكتمل زيارة غرناطة إلا بمرافقة الدليل عبر الوادي المعروف «بالسعيد» والتوقف عند ممر اسمه (El Ultimo Suspiro del Moro)، أي «المكان الذي اطلق فيه العربي (أي الملك الصغير) آخر حسراته». ونستبعد أن تكون أمّه عائشة قالت هذا البيت لأنها كانت، جزئياً على الأقل، مسؤولة عن القطيعة بين زوجها، الذي هو ابن عمها أيضاً، وبين ولديها اللذين فقدت أولهما (يوسف)، وانتهى الثاني مُشرّداً.

ولم تطل إقامة الملك الصغير في أندرش إذ باعت إيزابيلا الضيعة التي أقطعتها له وهو لا يزال يعيش فيها، وسلمته ثمن الأرض الذي يزعم مؤرخون إسبان إنه وصل إلى نحو ٨٠,٠٠٠ دوقة ذهبية. وعرف الملك الصغير ان إيزابيلا لم تعد تريده في البلاد فعبر الزقاق عام ١٤٩٣ إلى مليلة في المغرب. ويروي لنا المقري ما حدث لهذا الملك بعد ذلك فيقول إن أبا عبد الله الصغير «استقر في فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه، متلهّفاً على ما خلّفه. وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، رأيتها ودخلتها، وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسع مئة (١٥١٨)، ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلّف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد، وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن. وعهدي بذريته بفاس عام ١٠٢٧، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويُعدّون من جملة الشحاذين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».[1]

ولم يكن تسليم غرناطة خيار الجميع إذ فضل موسى بن أبي الغسان ترك المدينة وخرج من باب البيرة ولم يُسمع عنه بعد ذلك. وينقل ارفنج عن القس أنطونيو أجابيدا[2] مصير موسى فيقول إن سرية من فرسان قشتالة التقت به على ضفة نهر شنيل: «فلما رأوه يعدو على ذلك النحو طلبوا اليه ان يقف وان يعرّف بنفسه فلم يجب الفارس المسلم، لكنه وثب إلى وسطهم، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه من سرجه فألقاه على الأرض، ثم انقض على الباقين. وكانت ضرباته ثائرة قاتلة، كأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح، ولم يرد إلا ان يقتل دون رغبة في ان يعيش لينعم بظفره. وهكذا لبث يبطش بالفرسان حتى أفنى أكثر من نصفهم. غير أنه جرح في النهاية جرحاً خطراً، ثم سقط جواده من تحته قتيلاً بطعنة أخرى، فسقط على الأرض، لكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره وأخذ يناضل عن نفسه، فلما رأى قواه نضبت، ولم يرد أن يقع أسيراً في يد خصومه ارتد إلى ورائه بوثبة أخيرة، والقى بنفسه إلى مياه النهر، فابتلعه لفوره، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق».

ويروي القس أجابيدا إن هذا الفارس هو موسى بن أبي الغسان، وأن بعض العرب المتنصّرين في المعسكر الإسباني عرفوه من جواده المقتول. لكننا لا نجد أي ذكر لهذا الفارس في المصادر العربية، ولا نعرف ماذا جرى لكل اولئك الذين عارضوا تسليم غرناطة ووقفوا في وجه الملك الصغير وكبار قادته العسكريين.

---

[1] «نفح الطيب»، ج٤، ص ٥٢٩.

[2] نقلها محمد عنان عن آخرين في «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام»، (القاهرة ١٩٥٢).

٦ - توزّع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة

قبل ان نبدأ محاولة إعطاء صورة عن انتشار الأندلسيين في كل من قشتالة وأرغون لا بد من الإشارة إلى أن كل الاحصاءات المتوافرة تقديرية وربما أنقصها المسؤولون عن جمعها لأمر ما أو زادوها لأمر آخر. ونميل إلى الاعتقاد غير المستند إلى أي براهين أن السلطات القشتالية ربما عمدت إلى التقليل من شأن الأندلسيين في غرناطة وغيرها لئلا يعرف الأندلسيون قوتهم الحقيقية من جهة، وكي لا تبدو قشتالة في عيون النصرانية مقراً لذلك العدد الكبير من «أعداء الدين المسيحي». ويزيد من ضعف تلك التقديرات الصعوبات الناجمة عن تخلّف العلوم الاحصائية والتبدلات السكانية التي تطرأ فجأة نتيجة القحل أو الأوبئة وغيرها. وخلال مراحل التقدم الشمالي نحو الجنوب بقيت أعداد كبيرة من الأندلسيين في المناطق المحتلة وربما اختلط هؤلاء بالنصارى وذابوا في المجتمعات التي عاشوا فيها، وربما نزحوا بعد ذلك إلى الجنوب. ونجد في التاريخين الأندلسي والإسباني حالات كثيرة لم يعمد المحتل خلالها إلى تفريغ السكان من المدن والقرى التي احتلها. ولعل أشهر الحالات تلك المتصلة بطليطلة إذ لم يحاول ألفونصو السادس إخلاء المدينة فتسمى بـ«سلطان الملتين»، واعتبر نفسه ملكاً على المسلمين والنصارى وأيضاً اليهود الذين ظلوا يعيشون فيها. وتابع السكان حياتهم في صورة بدت طبيعية، أقله في السنوات القليلة التي لحقت بسقوط المدينة، ثم تغيرت طبيعة العلاقات بين المسلمين والنصارى بعد دخول المرابطين والموحدين الأندلس.

وكانت القاعدة العامّة في مرحلة الاكتساح الكبير في القرن الثالث عشر تقوم على طرد السكان من المدن ومنع الكثيرين من أخذ أموالهم ومتاعهم فشاعت آنذاك فكرة الجلاء عن الأندلس واختار كثيرون اختصار المعاناة والانتقال إلى العدوة. وبقي أندلسيون في البرتغال كما بقوا في باقي شبه جزيرة آيبرية إلا أن البرتغال بلد صغير رسم حدوده الجغرافية وبلور شخصيته المستقلة في وقت متقدم لذا لا يُستبعد أن تكون البرتغال «استوعبت» معظم الأندلسيين الذين اختاروا المقام في أماكن سكنهم في وقت متقدم. وإذا كان من الممكن قياس التأثير الأندلسي وجوداً أو حضارة أو لغة من خلال تقفّي ترسّباته في التاريخ البرتغالي واللغة البرتغالية والشخصية البرتغالية فلعل في الإمكان القول إن هذا التأثير لم يكن أقل من ذاك الموجود في قشتالة وأرغون إذ توجد خمسة آلاف كلمة عربية في اللغة البرتغالية، ولا يزال بعض أهلها ينطقون كلمة «إنشلا» التي أصلها «إن شاء الله» في حالات بعينها.

ويمكن في صورة عامة القول إن الأندلسيين كانوا يشكلون غالبية السكان في المناطق الواقعة جنوب نهر إبرة (في الشمال الشرقي من البلاد) حتى قبل الاجتياح الكبير في القرن الثالث عشر. وكان خايمي الأول ملك أرغون يعتقد أنه يحتاج ١٠٠ ألف أسرة نصرانية (نصف مليون شخص تقريباً) لإعمار مملكته، إلا أن العدد المتوافر كان في حدود ٣٠ ألف أسرة. وطرد خايمي الأول عدداً كبيراً من سكان مرسية بعد الانتفاضة الشعبية وألحق بهم أندلسيين آخرين كانوا يعيشون في المناطق القديمة لذا يُحتمل أن يكون عدد الأندلسيين في أرغون تراجع آنذاك من نحو ٣٠٠ ألف شخص إلى النصف تقريباً، أو ما يعادل ٣٠ في المئة من عدد السكان الكلّي الذي لم يتجاوز نصف مليون نسمة.

والثابت أيضاً ان عدداً كبيراً من الأندلسيين بقي في وديان نهر دويرة الواقعة شمالي قشتالة، كما بقي عدد كبير من الفلاحين في المناطق الزراعية التي احتلتها قوات قشتالة في القرن الثالث عشر. وعلى هذا يُعتقد أن عدد من بقي من الأندلسيين في قشتالة قبل سقوط مملكة غرناطة كان يصل إلى نحو ٣٠٠,٠٠٠ شخص أي ١٠ في المئة من القشتاليين المقدرين آنذاك بنحو ثلاثة ملايين شخص.

وتوجد مجموعة من «الاحصاءات» توافرت في إثر تعداد عام جرى في قشتالة وأرغون ونافار عام ١٤٨٢عُرف بإحصاء «قنتنيله». قدّر هذا الاحصاء عدد سكان قشتالة بنحو ٧,٥ مليون نسمة، وعدد سكان أرغون بنحو مليون شخص، وعدد سكان نافار بحدود ١٠٠ ألف نسمة. وتبدو هذه الأرقام كبيرة جداً قياساً إلى إحصاء جرى بعد نحو ٦٠ عاماً قدّر جملة السكان بنحو ٦,٣ مليون نسمة حتى لو أخذنا في الاعتبار القشتاليين الذين رحلوا إلى العالم الجديد.

وخلال حكم فيليب الثاني (١٥٥٦-١٥٩٨) أعدّت الحكومة إحصاءً أكثر دقّة من غيره، لأن هدفه كان ضبط جباية الضرائب، بيّن أن عدد سكان قشتالة ٦,٦ مليون نسمة، وعدد سكان أرغون نحو مليون نسمة (٤٥٠ ألفاً في بلنسية و٤٠٠ ألف في باقي أنحاء المملكة و١٣٥ ألفاً في جزر ميورقة ومنورقة واليابسة)، أي أن عدد سكان قشتالة وأرغون والممالك الاخرى التابعة لها كان نحو ثمانية ملايين نسمة. ويضع هذا العدد سكان ممالك فيليب الثاني في مكان قريب من عدد سكان كل من المانيا وإيطاليا، لكنه يزيد على عدد سكان إنكلترا، ويقل كثيراً عن عدد سكان فرنسا الذي قُدر آنذاك بنحو ١٦ مليون شخص وكانت بذلك أكبر الدول الأوروبية سكاناً إضافة إلى أنها أكبر الدول الأوروبية مساحة.

ولا يبدو أن التركيب السكاني تغير كثيراً مع الزمن فمعظم احصاءات قشتالة وأرغون يشير إلى أن نحو ٨٠ في المئة من السكان كانوا يعيشون في الريف فيما كان سكان المدن بين ١٠ و١٢ في المئة. وكانت نسبة التجار ورجال الدين من جملة السكان نحو ٥,٣ في المئة، فيما قُدّرت نسبة النبلاء والحكام بحدود ٢ في المئة. وتفيد الاحصاءات المتوافرة قرب نهاية القرن الخامس عشر أن عدد سكان كل من قرطبة ومرسية وميورقة كان يراوح بين ١٥ ألفاً و٢٥ ألفاً، لكن عدد سكان إشبيلية زاد على ٨٠ ألفاً. ويظهر هذا الكارثة التي لحقت بالمدن الأندلسية التي احتلتها قشتالة إذ لم يستعد معظمها حجمها السكاني السائد أيام الحكم العربي، ولا يزال عدد سكان قرطبة إلى اليوم ثلث ما كان عليه أيام الخلافة الأموية الثانية. واستفادت إشبيلية من احتكار التجارة مع العالم الجديد لذا كانت من بين مدن قليلة فاق عدد سكانها ذاك المُقدّر يوم سقوطها.

وبعد مقارنة الاحصاءات والتقديرات المُتاحة في المراجع الإسبانية والأندلسية يُرجح أن يكون عدد الأندلسيين في الفترة القريبة التي لحقت بثورتهم الأولى بين ٩٣٥ ألفاً و١,١٣٥ مليون، منهم ١٦٠ ألفاً في بلنسية و٥٠ ألفاً في باقي أرغون و١٠ آلاف في قطالونيا و١٥ ألفا في ميورقة بمجموع للمناطق الشمالية الشرقية هو ٢٣٥ ألف أندلسي. وكان عدد الأندلسيين في قشتالة (خصوصاً قشتالة القديمة) نحو ٢٠٠ ألف نسمة وفي مملكة غرناطة بين نصف مليون و٧٠٠ ألف نسمة.

٣- اسباب اندلاع الثورة الأندلسية الأولى

لا نعرف السبب الحقيقي الذي دفع السلطان أبا الحسن علي بن سعد إلى تحدي قشتالة عندما رفض دفع الجزية. وإذا استبعدنا الرعونة والطيش من موقفه فلنا أن نعتقد أن ثقته بقوته العسكرية كانت كبيرة، وأنّ مملكته قادرة على المقاومة. ويؤيد مثل هذا التصوّر أن فكرة إخضاع غرناطة لم تتحول لدى إيزابيلا وزوجها إلى جهد لاستئصالها إلا في وقت متقدم من الحرب بين الجهتين. ولا مفرّ من الاستنتاج إذ ذاك بأن تفجّر الحرب الداخلية بين الملك الصغير وأبيه ثم بينه وبين عمّه بعد إطلاقه من أسره القشتالي بلا فدية وضع غرناطة في طريقها المحتوم إلى زوال لم يعد سهلاً عكس اتجاهه بعد انغلاق أبواب الدعم الخارجي في وجهها. وتنمو عادة بين الخاطف والمخطوف علاقة ود نجد أمثلة كثيرة لها في عصرنا الراهن، وإن لم تكن العلاقة بين الملك الصغير

وفرناندو تطوّرت إلى الود فإن احتجازه الطويل آذى روحه المعنوية وغرس فيها شعور العجز والانصياع. إلا أن غرناطة لم تكن الملك الصغير وحده، لذا لم تكن في متناول يد فرناندو العسكرية في أي وقت لأنّ تاريخ الحروب يؤكد أن سقوط مدن حصينة مثل غرناطة في يد مهاجميها كان نادراً، ورأينا كيف تطلب استسلام طليطلة، الأصغر من غرناطة بكثير، حصارها سبع سنوات. وهذا الكتاب ليس مناسباً للحكم على الملك الصغير لكن لنا أن نتساءل عن سبب منعه من الإقامة في مراكش ومليلة وانتقاله بعد ذلك إلى فاس[١]، ولنا أيضاً أن نتساءل لماذا افترض الملك الصغير أن سلوك فرناندو تجاه أهل غرناطة كان سيختلف عن سلوكه تجاه أهل المدن التي سقطت خلال الحرب إذ معروف أن العمليات العسكرية التي بدأت عام ١٤٨١ أخذت طابعا دموياً ووحشيا في جو مشحون بالعصبية الكاثوليكية، ولم تكن المدينة التي تسقط بيد القشاتلة تنجو من تقتيل أهلها وأسرهم وبيعهم عبيداً. وما حدث في مالقة يوم سقوطها عام ١٤٨٧ يقدم صورة واضحة عن سياسة فرناندو إذ مكّن السيف من رقاب أهل المدينة، ومن سلم صار عبداً وساق جنود فرناندو قسماً من بنات مالقة هدايا إلى ملوك أوروبة وملكاتها.

وتثير دراسة بنود معاهدة تسليم غرناطة تساؤلاً كبيراً لأنها تبدو من وجهة النظر الغرناطية، على الأقل، بمثابة وثيقة للحكم الذاتي، وواحدة من أكمل المعاهدات التي يمكن التوصّل إليها في ظروف الحرب. فحقوق أهل غرناطة مضمونة واضحة وتتضمن حالات لا ترد عادة في معاهدات مماثلة (معاقبة من يضحك من النصارى على عادات أهل مملكة غرناطة مثلاً)، على العكس من واجبات أهل غرناطة أو حقوق قشتالة التي تتميز بالغموض أو حتى الانتفاء.

وتبدو هذه المعاهدة وثيقة غرناطية صرفة كأن المفاوضين القشتاليين قالوا لنظرائهم الغرناطيين: اكتبوا في المعاهدة ما تشاؤون ونحن نضمن موافقة إيزابيلا وفرناندو. وماذا في هذه المعاهدة؟ فيها ضمان سلامة أرواح سكان مملكة غرناطة وأملاكهم، والسماح لمن أراد مغادرة غرناطة إلى العدوة، وفك أسر جميع من وقع بيد القشتاليين اثناء الحرب، وعدم إكراه المسلمين على التنصر أو تكليف المسلمين بضيافة جنود قشتالة، وعدم إجبارهم على حمل العلامة التي كان اليهود وأهل الدجن يحملونها (على صدورهم عادة وفي شكل دائرة صفراء)، والسماح للمسلمين بممارسة دينهم واستبقاء أسلحتهم الفردية، واشترطت موافقة البابا على كل ما جاء فيها والحصول على توقيعه الشخصي عليها، بالإضافة إلى مجموعة من الشروط التي ضمنت حتى

[١] «نفح الطيب»، ج٤، ص ٥٢٧.

منع النصارى من التطلع إلى دور المسلمين.[1]

[1] يذكر صاحب «نفح الطيب» أن الشروط عدت ٦٧ شرطاً، بينما يقول محمد عبد الله عنان في «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين»، (ص ٢٥٠-٢٥٢) إنها كانت ٥٦ شرطاً. ويجمل المقري الشروط بقوله: «تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، وإقامة شريعتهم على ما كانت عليه ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل، وان يفتّك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصا أعيانا نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يُمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يُعطون عُشر مالهم والكراء، وأن لا يُؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأنّ من تنصر من المسلمين يُوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فان أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يُؤخذ منه ما سَلَب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفّر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وتُرفع عنهم جميع المظالم والمغارم المُحدثة، ولا يطلع نصراني السور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله، ولا يحمل علامة كما يحمل اليهود وأهل الدجن، ولا يُمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره. «نفح الطيب» ج ٤، ص ٥٢٥-٥٢٦، وهو يرد أيضا في «نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر». مجهول المؤلف، (العرائش، ١٩٤٠)، ص ٤١. أما مختصر النص القشتالي (٦٧) بنداً فهو:

...dejaran vivir al dicho Rey Muley Baaudili y a los dichos alcaydes y alcaldes y sabios y mofties alfaquies y alguaciles y caballeros y escuderos y viejos y buenos hombres en comunidades chicas y grandes estar a su ley y no les mandaran quitar sus algimas y sumas y alumedanos y torres de los dichos aluedanos para que llamen a sus alsales y dejaran y mandaran dejar a dichas algima sus propios y rentas como ahora los tienen y que sean juzgados por su ley coranica con consejos de sus cadies segun costumbre de los moros y les guardaran y mandaran guardar sus buenos usos y costumbres (...)

todas dichas personas (...) que se quisieren ir a vivir allende de estas partes (...) que puedan vender sus haciendas y bienes muebles y raices (...) y que si sus altezas lo quisieren que los dejen pagandolos por sus dineros antes que a otro (...) y que dichas personas que asi quisieren ir a vivir allende (...) les dejen ir y pasar libre y seguramente con todas sus haciendas y mercaderias y joyas y oro y plata y armas (...) les manden fletar de aqui a setenta dias primeros siguientes diez navios grandes (...) los haran llevar libre y seguramente a los puertos de allende (...)

(...) y que desde en adelante por termino de tres años primeros siguientes les mandaran dar a los que durante el dicho término se quisieren pasar allende en navios (...) no les mandaran llevar ni lleven por el dicho pasaje y flete de los dichos navios derechos (...)

(...) hacer bien y merced al dicho Rey Muley Baaudili y a los vecinos de la dicha ciudad de Granada y del Albaicin y sus arrabales les haran merced por tres años primeros siguientes que comiencen desde el dia de la fecha de este asiento y capitulacion de todos los derechos que solian pagar por sus casas y heredades con tanto que hayan de dar y pagar y den y paguen a sus altezas los diezmos del pan y apaniso y asi mismo el diezmo de los ganados que al tiempo del desmar quiere en los meses de abril y mayo (...).

ومن الواضح أن فرناندو وجد نفسه بعد ١١ سنة من حرب ضارية قُدّرت تكاليفها بنحو ٨٠٠ مليون دينار مرابطي بعيداً عن السيطرة على مملكة غرناطة وبعيداً عن أبواب مدينة غرناطة، فجاءت تلك المعاهدة وفتحت له الأبواب سلماً، وربما لم تمثّل كل المبالغ التي دفعها فرناندو للملك الصغير ورؤساء الأجناد في غرناطة جزءاً يسيراً من نفقات موسم واحد من القتال. ومن يريد التفتيش في وثائق تاريخ العالم عن وثيقة ينطبق عليها القول إنها حبر على ورق فلعل معاهدة تسليم غرناطة تعتبر نموذجية بل واحدة من أكمل الأمثلة وأوضحها، ولذا يمكن القول إن المعاهدة تلك لم تكن سوى خدعة رخيصة لإنهاء المقاومة الغرناطية. ولو تساءلنا عن سر الاحتقار الغريب الذي كنّه الأندلسيون للقشتاليين حتى وهم عبيد مضطهدون على يد السلطة والكنيسة في المئة سنة التي تلت تسليم غرناطة سنجد دائماً أنفسنا نعود إلى سببين مهمين: الأول قناعة الأندلسيين بأن القشتاليين ليسوا سوى مغتصبين محتلين لأرضهم، والثاني أن إيزابيلا وفرناندو والبابوية نكثوا الوعود والعهود التي تضمنتها معاهدة التسليم ولم يعودوا أهلاً للثقة والائتمان.

بداية التضييق على أهل غرناطة

كانت المعاهدة ملزمة وواضحة وشاملة لكن إيزابيلا بدأت استفزاز أهل مملكة غرناطة على الفور تقريباً فأبعدت من أهل المدينة من استوطنها في مراحل قريبة من التسليم، وخصصت لسكن المسلمين المنطقة المعروفة بالبيّازين (رباض البيازين) بين نهر دار شرقاً ومجموعة الأسوار التي تُعرف اليوم باسم «أسوار الأندلسيين أو العرب». أما الاقسام الباقية من غرناطة فنقلت إليها إيزابيلا نحو ٤٠,٠٠٠ قشتالي. وبعد إعطاء الأوامر لاستكمال إعادة توزيع سكان غرناطة رحلت إيزابيلا إلى إشبيلية تاركة المدينة في عهدة ثلاثة من المقربين إليها هم: أمين سرها فرناندو دي زفره، والحاكم العسكري الجديد لغرناطة الكونت تندله الذي ينحدر من اسرة مندوزا المعروفة، وكاهن الاعتراف الخاص بإيزابيلا هرناندو طلبيره الذي اختارته رئيساً لأساقفة غرناطة في كنيسته الجديدة.

وبدأ جهد تنصير الغرناطيين وقشتلتهم على الفور، لكن الثلاثة توخوا الحذر والتأنّي في المراحل الأولى. وكانت لكل منهم أسبابه الخاصة في الانتقال خطوة خطوة بحذر كبير. فالأول كان عارفاً بالعربية ملماً بعادات العرب وحضارتهم لذا حرص على الظهور بمظهر الصديق لأنه كان يعتقد ان تلك الطريقة أفضل طريقة يمكن اتباعها

للحصول على تعاون أهل غرناطة. وكان الثاني مهتماً بتعاون أهل غرناطة لأن العادة آنذاك كانت توزيع الأجناد على بيوت الأهالي للمساهمة في إطعامهم وإيوائهم، كما كان يريد تفادي الدخول في معركة لم يكن مستعداً لها مع سكان غرناطة خصوصاً أن المعاهدة نصّت على تسليم القلاع والحصون والمدافع لكنها سمحت للغرناطيين الاحتفاظ بأسلحتهم الفردية من بنادق وغيرها. أما الثالث فكان يعتقد ان إظهار الاهتمام بمشاكل أهل غرناطة وكسب مودتهم يمكن أن يكونا أقرب الطرق إلى كثلكتهم لذا درس لغة العرب وعاداتهم وتاريخهم ووجه القساوسة لفعل الشيء نفسه، وأشرف على ترجمة عدد من الكتب الدينية الكاثوليكية، باستثناء الإنجيل، إلى اللغة العربية وبدأ وضعها بين أيدي الناس.

وفي العموم كانت خطوات تطويع أهل غرناطة بطيئة ومتدرجة. وبدأت الأحوال تعود إلى طبيعتها وانصرف الناس إلى صناعاتهم وتجارتهم ومارسوا حياتهم كما اعتادوا وتخاطبوا بالعربية وارتدوا الملابس الغرناطية المزركشة، وصلّوا وصاموا واحتفلوا بالأعياد ضمن حدود ما سمحت به المعاهدة. وفيما انشغل طلبيره وصحبه في محاولة تغيير دين أهل غرناطة، سعى نبلاء قشتالة إلى السيطرة على أراضي سكان مملكة غرناطة لتكوين المزارع المنتجة على غرار الضيَع في المشرق وتشغيل المزارعين الغرناطيين فيها. إلا أن جهودهم اصطدمت بتعليمات من إيزابيلا قضت بمنع أي قشتالي واحد من شراء أرض تزيد قيمتها على ٢٠٠ ألف مرابطي. والتفّ كثيرون من هؤلاء على التعليمات فعندما رُفعت قائمة مشتري الأراضي إلى السلطات في قشتالة تضمنت أسماءً وهمية أو أسماء أشخاص وقف وراءهم كبار المتنفذين. وحصلت أسرة مندوزا، التي ينتمي إليها الحاكم العسكري تندله، على حصص كبيرة من الأراضي الخصبة ومثلها أسرة القرطبي التي شغل بعض أفرادها مناصب عسكرية عالية، وكذلك عدد آخر من الأسر الثريّة التي استغلت الخبرات الزراعية العريقة التي اتصف بها المزارعون الغرناطيون. وهكذا بدأت ملكية الأراضي الغرناطية تنتقل تدريجاً إلى القشاتلة وأحياناً مع مزارعيها الأندلسيين.

والتزم أهل مدينة غرناطة السكنى في المناطق المخصصة لهم إلا أن تماسهم مع القشتاليين الذين سُمح لهم بالإقامة في باقي مناطق المدينة كان يومياً، ولم تكن علاقات الجانبين طبيعية. فمن جهة كان حسد الغرناطيين هو الشعور الغالب لدى القشتاليين بسبب جودة انتاج الغرناطيين وارتفاع مستواهم المعاشي قياساً إلى المستوطنين الجدد. وأضاف القشتاليون إلى الحسد النقمة لأن الغرناطيين بالنسبة إليهم

كانوا لا يزالون أعداء قشتالة وأعداء الكاثوليكية، ولا يستأهلون بالتالي الأحوال الاقتصادية الجيدة التي كانوا يعيشونها. ففي غرناطة، كما في كثير من مناطق قشتالة، كان انتاج المزارع القشتالي محدوداً، ونجد أن من تُقطعه الدولة أرضاً يبيعها بسرعة لأنه لا يستطيع استغلالها، وينتقل إلى أرض جديدة في الجنوب المحتل وهكذا.

وإلى جانب هذه الضغوط الحقيقية كان سكان مملكة غرناطة يعانون من ضغوط نفسانية كثيرة، ولم يكن من بينهم ولا من بين آبائهم وأجدادهم من عاش تحت الاحتلال قبل ذلك. وكان هناك أيضاً الشعور بالانقطاع عن عرب المغرب والقلق من المستقبل وغير ذلك من المشاعر الإنسانية المعروفة التي تجول في خواطر الشعوب المقهورة على أمرها. وكان من الممكن أن ينفجر الصراع لأي من الأسباب التي تقدم ذكرها خصوصاً سرعة السيطرة على الأراضي الغرناطية، إلا أن مسألة التنصير علت فجأة سائر الأسباب الاخرى وتحوّلت إلى الصاعق الذي فجّر الأزمة.

الكردينال خيمينس

قدّمت إيزابيلا للكاثوليكية بالسيطرة على مملكة غرناطة أهم انتصار على الإسلام حتى ذلك الوقت فاعتبرها البابا ملكته الأوروبية المفضلة وأطلق عليها وعلى زوجها عام ١٤٩٤ لقب «الملكين الكاثوليكيين». وواكبت إيزابيلا بصراعها مع مملكة غرناطة المسلمة اعتباراً من عام ١٤٨١ خطوات صراع أسبق منه مع اليهود في قشتالة فبدأت في إضطهادهم وتنصيرهم بالقوة، ثم لجأت إلى مؤسسة كنسية عريقة تخصصت في محاربة الهرطقة ضد الكاثوليكية هي محاكم التحقيق. وفي عام ١٤٧٨ وافق البابا على طلب إيزابيلا تأسيس محكمة تفتيش في قشتالة اختارت لها في وقت لاحق مفتشاً عاماً هو توماس دي توركيماده، وأوكلت إليه في ١١ شباط (فبراير) عام ١٤٨٦ مهمة التأكد من خلوص تنصّر اليهود الذين عرفتهم قشتالة باسم تحقيري هو «مارانوس»، أي الخنازير. وسنتناول مشكلة اليهود في فصل آخر وحسبنا هنا القول إن محكمة التحقيق لم تُطل البحث عن الضحايا فقدّمت في السادس من شباط عام ١٤٨١ دفعة من «الهراطقة» ضمّت ستة يهود متنصرين احرقتهم السلطات المدنية في احتفال عام. ولم ينته العام المذكور حتى وصل عدد اليهود الذين احرقتهم السلطات، بناء على توصية محكمة التحقيق بعد تجريمهم بتهم الهرطقة، إلى ٢٩٨ شخصاً كانوا مجرد بداية لعهود طويلة من الاضطهاد انتهت المرحلة الأولى منها بتغريب ما بين ٤٠,٠٠٠ و١٦٠,٠٠٠ يهودي من إسبانيا في العام الذي سُلّمت فيه مفاتيح غرناطة.

إلا أن إيزابيلا التي تخلصت من «مشكلة» اليهود بدأت تكتشف مشكلة أكبر. ووجدت بطلة الكاثوليكية نفسها بعد تسليم غرناطة في وضع محرج للغاية ليس أمام شعبها الكاثوليكي فقط بل أيضاً أمام البابا وأمام ملوك أوروبة وأمام اليهود الذين بدأت باحراقهم كسبيل وحيد للتكفير عن ذنوبهم وحصولهم على المغفرة. فإيزابيلا الورعة التي يُقال إنها رفضت استبدال ثوبها حتى تسقط غرناطة[1] أضافت إلى رعيتها الكاثوليكية عدداً كبيراً من المسلمين يفوق مثيله في أي دولة أخرى. وبدلاً من أن تتمكن من تنصير مملكة غرناطة ها هي تجد المسلم في مكان غير بعيد عن قصرها في إشبيلية يصلي ويصوم ويضحّي في مملكة كاثوليكية مثل قشتالة. وبدا واضحاً لإيزابيلا أنها سيطرت على غرناطة لكنها لم تسيطر على الغرناطيين، وكسبت أراضيهم لكنها لم تكسب ثقتهم، وحوّلت بعض المساجد إلى كنائس لكن هذه الكنائس خلت من المُصلين. ولم يكن وضع الأندلسيين في مملكة زوجها الأرغونية إلا إحراجاً إضافياً لها إذ اعترفت أرغون بأهمية الوجود الأندلسي هناك من خلال سياسة متوازنة منعت الأرغونيين من مصادرة أراضي الأندلسيين إلا بموجب القانون، وأعطتهم حقوقاً دينية وتجارية وتعاملية قريبة من حقوق الأرغونيين وحظرت على الكنيسة تنصير الأندلسيين بالقوة. ووقف فرناندو حتى ذلك الوقت موقف المعارض من تغيير هذه السياسة خوفاً من إضعاف مملكته الصغيرة مقارنة بمملكة زوجته وما يمكن ان ينتج عن ذلك من إضعاف موقفه أمام زوجته.

ولا نعرف إن كان خطر لإيزابيلا إنها يمكن أن تصبح قدّيسة في يوم ما لقاء جهودها الكاثوليكية، ولا نعرف مدى حساسيتها تجاه انطباعات بعض الكاثوليك بأن ملوك قشتالة وليون ونبارة وأرغون وغيرها تحالفوا في وقت أو آخر مع أعداء الكاثوليكية وتزاوجوا واختلط دم المسلمين بالنصارى وتصرفوا تجاه المسلمين حتى أيام إيزابيلا في صورة اختلفت حدّة واتساعاً عن تصرف كاثوليك آخرين مثل الفرنسيين والنورمان، إلا أنه من الممكن ان نستقرىء من بعض تصرفاتها كرهها الشديد لليهودية والإسلام ولمن يدين بهما ولمعظم ما يمت إليهما بصلة مثل اللغة والعادات وحتى الملابس وأنواع الطعام. وربما شعرت إيزابيلا بعد كل هذا أنها تستأهل من البابوية فضلاً يفوق وصف «الملكة الكاثوليكية» الذي لا يعكس إلا حقيقة بديهية لذا سعت دائماً عن وعي أو غير وعي إلى تأكيد هويتها الكاثوليكية بتصعيد الحملة على اليهودية والإسلام كأنها تخرج من امتحان لتقواها الكاثوليكية إلى امتحان آخر، وها أصبحت عدوة الملة اليهودية

[1] في فرنسا نوع من القهوة الخفيفة المخلوطة بكثير من الحليب يسمونها «إيزابيل». ويزعم الفرنسيون أن لون هذه القهوة الضارب إلى الصفرة تشبيه بثوب إيزابيلا.

وبقي أن تصبح عدوة الملتين. وباختصار استنتجت إيزابيلا بعد سبع سنوات من محاولات تنصير مملكة غرناطة أن الوضع لم يعد يحتمل فبدأت تنتقد طلبيره وتطالب بسرعة اعتماد سياسة جديدة تقوم على الحزم في التعامل مع الغرناطيين لتسريع تنصيرهم.

لكن قبل أن تتمكن من تحقيق هذين الهدفين كان عليها اختيار الشخص المناسب، ومن أفضل لهذه المهمة من شخص قربها ينتمي إلى المدرسة المتعصّبة نفسها التي ينتمي إليها توركيماده هو فرانسيسكو دي سيسنيروس (١٤٣٦-١٥١٧) المعروف في كتب التاريخ غير الإسبانية باسم خيمينس أو زمنيز. وعندما عيّنت إيزابيلا كاهنها الخاص طلبيره رئيساً لأساقفة غرناطة اختارت خيمينس بديلاً، ولما مات مندوزا، رئيس أساقفة طليطلة، رشحت إيزابيلا خيمينس لشغل منصبه وحصلت على موافقة البابا الاسكندر السادس على ذلك الترشيح عام ١٤٩٥. وكان منصب رئيس أساقفة طليطلة من أهم المناصب في قشتالة إذ كان يشمل أيضاً منصبين آخرين هما رئيس أساقفة قشتالة ومستشار قشتالة، وبهذا يأتي صاحب هذه المناصب في الأهمية بعد إيزابيلا وفرناندو فقط. ويبدو أن خيمينس انحدر من اسرة متواضعة لكن المؤرخين القشتاليين نفخوا في ماضيه وقرّبوه من تاريخ الملوك وعليّة القوم، ووصفه البعض بالورع والتزهد بينما اعتبره آخرون شخصاً متواضع الطاقات متعطشاً إلى السلطة خلف رداء كهنوتي من التقوى والتعصب الكاثوليكي غير المحدود. ويبدو أن مسألة تنصير الأندلسيين باتت من بين أهم أولويات إيزابيلا عندما أمرت خيمينس بالتوجه فوراً إلى غرناطة لهذا الغرض عام ١٤٩٩.

وما أن استقر خيمينس في مقر إقامته الجديد حتى استدعى طلبيره وطلب كشفاً بحساب جهوده التنصيرية خلال السنوات السبع الماضية، إلا أن النتائج لم تكن مرضية فوجه إليه بضرورة تغيير سياسته فوراً واتباع الحزم في معاملة الأندلسيين. وخلال الاجتماع الأول، أو بعده بقليل، استفسر خيمينس من طلبيره عن محاولات سمع بها لترجمة الإنجيل إلى العربية. ولما أجابه طلبيره بأهمية توفير هذا الكتاب كجهد أساسي لتنصير الغرناطيين أمره خيمينس بالتوقف عن ذلك فوراً مكرراً رأي كل من إيزابيلا والكنيسة بأن ترجمة هذا الكتاب عمل خطير لأن اللغة العربية لغة نجاسة ستطال الكتاب المقدس. وحاول طلبيره إقناع خيمينس باعطائه الوقت الكافي مبيّنا أن قسر أهل غرناطة على التنصّر سيؤدي إلى انفجار. وتقدم الحاكم العسكري تندله فأيّد رأي طلبيره، إلا أن برنامج خيمينس كان مختلفاً فعارض رأي الإثنين ولم يبق أمام طلبيره

سوى التنحّي عملياً عن مهمته وتسليم زمام الأمور إلى خيمينس. وكان برنامج خيمينس واضحاً إلا أن تنفيذه كان سهلاً ومعقداً في آن. فلو تمكّن من تنصير عدد مناسب من الغرناطيين بالاقناع أوالتهديد أو الرشوة، أو حتى لو قبل مثل ذلك العدد التنصّر ولو إسمياً لتحرّك عاجلاً وأقام في مدينة غرناطة فرعاً لمحكمة التحقيق سيضمن عماله مع الزمن ترسيخ الكاثوليكية في نفوس المتنصرين شاؤوا أم أبوا. إلا أن الأندلسيين كانوا يعرفون أيضاً أن التنصّر هو طريق محكمة التحقيق إليهم لذا قاوموا بحزم أي محاولات لتنصيرهم، ونجحوا عموماً في إبطال محاولات كثلكتهم.

واعتقد خيمينس إن أقصر الطرق إلى تنصير عامة الغرناطيين هو تنصير فقهائهم فاستدعاهم إلى كنيسة كانت مسجداً في السابق، وبدأ مواجهة جدليّة قامت على تفوّق النصرانية على الإسلام، ومناظرتهم بأن الأندلسيين لم ينهزموا على يد القشتاليين إلا لأن الله وقف معهم. وكان هذا الكلام ومثله يستمر أحياناً معظم ساعات النهار ويتوقف ليلاً ليُستأنف ضحى اليوم بعده، وأيقن الفقهاء مع الوقت أن خيمينس يمكر للمسلمين ولن يكل أو يمل حتى يحقق الغرض الذي جاء من أجله. ولم يجد خيمينس تجاوباً فنبذ الفقهاء وبدأ الاتصال بالعامة فكان يستدعي البسطاء ويحاورهم، ثم بدأ يرشيهم بالمال والمتاع ويعدهم بالأراضي والأطيان.

واستهدف خيمينس وجماعته في مرحلة أخرى كل من عُرف أن أحد أجداده كان نصرانياً وأسلم، فحضوا هؤلاء على العودة إلى الكاثوليكية. ويبدو أن نصيب هذه المحاولة من النجاح فاق المحاولات الاخرى فاحتج الفقهاء واحتكموا إلى نص في معاهدة التسليم يقضي بـ«ألا يُقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصّر من المسلمين يقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد». ولم يأبه خيمينس بالاحتجاج فتابع تنفيذ سياساته على محاور عدّة حتى ليقال انه انفق معظم ماله الشخصي على شراء الهدايا وتقديم الرشاوى إلى المسلمين كي يثبت لإيزابيلا أنه نجح حيث أخفق طلبيره من قبله.

وأيقن زعماء الغرناطيين وفقهاؤهم بخطورة الوضع فنزلوا إلى الناس يحضونهم على عدم الاستجابة إلى خيمينس والامتناع عن قبول الهدايا. وفي ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٤٩٩، أمر خيمينس السلطات المدنية بالتوجه إلى البيازين وإحضار من يتمكنوا من إحضاره فجمعوا له في الكنيسة نحو ثلاثة آلاف أندلسي فحاورهم وناظرهم ثم أعلنهم مسيحيين عن بكرة أبيهم. وانبرى له الفقهاء والزعماء فخالفوه

واتهموه بخرق معاهدة تسليم غرناطة فساد الهرج وعلا الصياح، وعاد خيمينس إلى بيته مغموماً. وترك هذا الحدث أثراً بالغاً في نفسه فنقم على الفقهاء وعاد إلى استدعائهم جماعات أو أفراداً وراح يهددهم ثم بدأ يضمر لهم. وذات يوم استدعى إلى كنيسته شيخاً من كبار شيوخ غرناطة من بني زيري[1] وناظره ساعة ثم طلب إليه الافتاء لأهل غرناطة بالتنصّر. ورفض الشيخ الزيري الطلب فحاول خيمينس استمالته بالهدايا والعطايا فاعتذر الشيخ وقام ليسير إلى البيازين فأفلت عليه خيمينس جماعته فساقوه إلى السجن وعذّبوه ومنعوا عنه الطعام والشراب. وبعد أيام خرج خيمينس على أهل غرناطة فزعم أن شيخهم رأى مناماً وسمع صوتاً من السماء يدعوه إلى التنصّر فتنصّر وها هو يحض سائر المسلمين على الاقتداء به. ولم يقتنع أهل غرناطة فبدأ خيمينس حبس الغرناطيين وتعذيبهم لاجبارهم على التنصّر.

إحراق تراث الأندلس

في مكتبات العالم وجامعاتها ولدى عشّاق اقتناء المخطوطات العربية والإسلامية نحو نصف مليون مخطوطة يُعتقد أنها جزء يسير من التراثين العربي والإسلامي الذي تراكم على مر العصور. واستخدم الناس أوعية كثيرة لكتابة الوثائق والكتب مثل الفخاريات والبردي والرق والكاغد حتى دخل الورق إلى الأندلس من الصين، كما يبدو، فتطورت صناعته وكانت مدينة شاطبة من أهم مراكز صناعة الورق. وضاعت خلال مراحل تقدم الممالك الشمالية نحو الجنوب الأندلسي مخطوطات مشهورة كثيرة نعرف عنها من ذكر مؤلفين محدثين لها، إلا أن ما توافر نُقل إلى المناطق الخاضعة للأندلسيين واستقر معظمها في غرناطة حيث أضاف المؤلفون الغرناطيون إليها عشرات المؤلفات التي وضعها علماؤها وشعراؤها وأطباؤها. وتعطي المخطوطات الموجودة في المكتبات العربية والأوروبية، بما فيها مكتبة الإسكوريال الملكية الإسبانية، فكرة واضحة عن مدى تقدم صناعة الورق ومهنة الوراقة في الأندلس، وكان النسخ فناً ومهنة برعت فيهما النساء الأندلسيات خاصة.

واكتشف خيمينس خلال وجوده في غرناطة أن المسلم يخرج من عنده فيذهب إلى بيته ويقرأ القرآن ويعود إليه بتصميم جديد على رفض التنصّر. ولاحظ خيمينس أن

[1] المعروف أن بني زيري الصنهاجيين كانوا من ملوك الطوائف وحكموا غرناطة ومالقة بعد انهيار الخلافة القرطبية، وبقيت منهم أعداد كبيرة في مملكة غرناطة بعد تسليمها. ومثل هؤلاء أيضاً بنو ثغري الذين أيدوا السلطان أبي الحسن على الملك الصغير وانتقلوا معه إلى بسطة، وبقيت أعداد كبيرة منهم في مملكة غرناطة.

حمل الأندلسيين على التنصّر يقتضي قطع مؤونتهم الدينية والفكرية، وأن قشتلتهم لا يمكن أن تتحقق إلا بقطع ارتباطهم بتراثهم وحضارتهم، وأن تعلم اللغة القشتالية لن يصبح ممكناً ما لم يحرمهم من العربية. وفي صباح يوم مشؤوم انتكبت فيه الحضارة الإنسانية أمر خيمينس بالمنادين فطافوا في البيازين يأمرون الناس بإخراج كل كتبهم وأنذروهم بعقاب شديد إن خالفوا الأوامر. ودار الجنود وأهل الكنيسة على مساكن الغرناطيين وحملوا المخطوطات إلى الساحة الرئيسية فتجمع منها أكثر من مليون مخطوطة.[1] وكان خيمينس وقتئذ أمر ببناء جامعة في مدينة القلعة،[2] فنزل إلى الساحة واختار من المخطوطات نحو ٣٠٠ مخطوطة عالجت مسائل العلوم والطب والفلك والكيمياء والرياضيات وغيرها من المواضيع المهمة، وأمر باضرام النار في الباقي فارتفعت سحابة هائلة من الدخان الذي غطّى سماء غرناطة. ولا شك في أن بعض الغرناطيين أخفى بعض المخطوطات التي حُملت في ما بعد إلى العدوة سراً، إلا ان القسم الأعظم من التراث العربي والإنساني احترق يومها وتلاشى إلى الأبد.

٤ - اندلاع الثورة الأندلسية الأولى

عاشت غرناطة بعد تلك الحادثة مرحلة من القلق انتقل خيمينس خلالها إلى قصر الحمراء احتماءً بمناعته. وحدث بعدها أن بعث خيمينس بعض عيونه إلى حي البيازين للتنصت على أهله فانتبه الغرناطيون إليهم ونشبت مشادة أدت إلى مقتل اثنين من جواسيس خيمينس وفرار الثالث.[3] وطاف زعماء غرناطة بالبيازين يحضون الناس على حمل السلاح، ثم اجتمعوا وتدارسوا أمرهم فاستقر الرأي على توجيه فريق من

---

[1] الظاهر أن العدد الصحيح هو مليون وخمسة آلاف مخطوطة بالتمام كما يقول هنري كامن واضع كتاب «محاكم التحقيق»، وهو واحد من الكتّاب اليهود الذين ألفوا في محاكم التحقيق.

[2] فتحت هذه الجامعة أبوابها للطلاب سنة ١٥٠٨ وأضحت مع الزمن واحدة من أهم الجامعات في أوروبة. وفي هذه الجامعة التي انتسب اليها نحو عشرة آلاف طالب تمت ترجمة الانجيل وطباعته باللاتينية واليونانية والعبرية والكلدانية بين سنتي ١٥١٤و ١٥١٧. وظلت الجامعة على حالها المشهور حتى نُقلت إلى مدريد (مجريط) سنة ١٨٣٧ وفقدت المدينة أهميتها. والقلعة هي مسقط رأس سيرفانتس مؤلف دون كيخوتي.

[3] يقدم لين بول في كتابه «العرب في إسبانيا» سبباً آخر فيقول: «انتهت المحاولة الاولى (لتنصير أهل غرناطة) إلى الإخفاق. وأبدى بعض المسلمين المتشددين اشمئزازهم من أعمال التحول الجديد إلى النصرانية فقبض على أولئك الساخطين ومن بينهم امرأة أودعت السجن بهذه الذريعة فهب سكان البيازين وحملوا السلاح وخلصوها وضجت غرناطة احتجاجاً واندلع قتال المتاريس». انظر:
Lane-Poole, Stanely . The Moors in Spain, (1890), p 270 .

رجال غرناطة إلى قصر الحمراء لقتل خيمينس ورهطه، على أن يعمل الآخرون على حشد الرجال وتحصين البيازين استعداداً لمواجهة الجيش. وفي هذه الاثناء وصل عامل خيمينس الفار إلى الحمراء وسرد على خيمينس تفاصيل الواقعة فبعث إلى الكونت تندله يطلب منه الحضور فوراً مع جنوده، وأمر جماعته باغلاق البوابات. وحين وصل تندله وجنوده وجد أهل البيازين أحاطوا بالحمراء فناشدهم الهدوء والعودة إلى البيازين، ووعدهم بدرس مظالمهم لكنه حذرهم أيضاً من عواقب الإصرار على قتل خيمينس. وبعدما تشاور أهل البيازين أعطوا الكونت تندله ثقتهم واتفقوا على العودة إلى حيهم وانتظار ما ستؤول إليه الأمور.

وبعد لقاء خيمينس وتندله وافق الأول على السماح لتندله بتهدئة الغرناطيين، وجلس يكتب رسالة إلى إيزابيلا فيما أمّن تندله حماية الحمراء واتجه مع عدد من الجنود إلى البيازين، فاخترق جمعهم ورمى قبعته في الهواء إشارة إلى أنه جاء سلماً. وكان مطلب أهل غرناطة في الاجتماع الذي حضره طلبيره واضحاً إذ كانوا يريدون أن تستدعي إيزابيلا خيمينس وأن تتوقف محاولات تنصير الأندلسيين. وفي القصر بأشبيلية قصّ الكونت تندله على الملكة تطورات الأحداث في غرناطة وحمّل خيمينس السبب فاستدعته وطلبت شرح سبب تأخره عن إعلامها بما حدث. وتذرّع خيمينس لإيزابيلا أنه بعث إليها رسالة لكن العبد الذي حملها سكر في الطريق وأضاعها، وأن اعتذاره محصور بعدم وصول الرسالة، أما سلوكه مع أهل غرناطة فلا يقبل اعتذاراً لأن الملكة التي تحمل لقب «الكاثوليكية» لا يمكن ان تقبل بوجود رعايا يدينون بديانة أخرى، وأن المسلمين لا يستطيعون البقاء في وسط كاثوليكي، وأن أهل غرناطة لم يقوموا عليه إلا لأنه نجح في تنصير بعضهم.

وانتهت الجلسة تلك وقد أخذت إيزابيلا برأي خيمينس، وزادت إلى ذلك قناعتها بأن اتباع سياسة اللين مع أهل غرناطة بعد انتفاضتهم لن يؤدي إلا إلى انتفاضة أكبر. وكان الحل الذي ارتأته إيزابيلا واضحاً فإما أن يتنصّر أهل غرناطة أو ان يتركوا قشتالة إلى العدوة، ثم طيّبت خاطر خيمينس وجددت ثقتها به. وانصاع تندله إلى رأي إيزابيلا خشية أن يؤدي تعاطفه مع الأندلسيين إلى مصادرة أملاكه، وعاد إلى البيازين بخيار التنصّر أو الرحيل. ولم تحدد إيزابيلا لخيارها وقتاً معلوماً، إلا أن الاجراءات التي لحظها الغرناطيون بعد ذلك عززت قناعتهم بجدّية قرار إيزابيلا. وانقسم أهل غرناطة فمنهم من لم يجد حلاً سوى قبول قرار الملكة، ومنهم من انسحب من غرناطة والتحق بالمدن والقرى الأندلسية في الجبال، وبدأت جماعة ثالثة تمدّ المقاتلين بالسلاح

والمال والمؤونة. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٤٩٩ بدأ الثوار عملياتهم العسكرية الأولى في جبل البشرات، واتسع نطاق الثورة بسرعة وكان أشد المتحمسين للقتال الغرناطيون الذين رُحّلوا من غرناطة بعد وقت قصير من تسليمها.

وعندما وصلت أنباء اندلاع الثورة في الجنوب إلى إيزابيلا أمرت الكونت تندله وغونثالو القرطبي بأخمادها. ويبدو أن القرطبي تحرّك بقواته أولاً فسار إلى البشرات، ثم اقترب من أسوار مدينة وجار Guejar فسقط بعض الفرسان في حفر غطاها الثوار بالزروع. وأثناء الفوضى التي دبّت في صفوف جيش القرطبي فتح المقاتلون أبواب المدينة وانقضوا على الجنود وقتلوا منهم مقتلة كبيرة فتراجع القرطبي واستقدم الإمدادات وضرب الحصار على المدينة. ولا يبدو أن هناك اتفاقاً على ما حدث بعدها، إلا أن المدينة استسلمت لأسباب غامضة فدخلها جيش القرطبي وقتل جميع رجالها وسبى نساءها وأطفالها. وانتقل القرطبي إلى مناطق أخرى إلا أن تقدّمه كان بطيئاً للغاية وكثرت الكمائن له ولجيش تندله. واتضح بعد شهرين من القتال أنهما لن يتمكنا وحدهما من قمع ثورة البشرات وناشدا الملك فرناندو التدخل.

وفي أذار (مارس) عام ١٥٠٠ تسلم فرناندو دفة القتال، وتوجه مع جيش كبير إلى جبل البشرات فاحتل عدداً من القرى. وهاجم مدينة أندرش لكنه لم يتمكن من احتلالها فحاصرها زمنا، ثم اقتحمها ليلاً فآل مصير أهلها إلى مآل مصير وجار، وتابع بعد ذلك زحفه بسرعة فقضى على تجمعات الثوار الرئيسية وتوغّل في البشرات. واستمرت هذه العمليات العسكرية معظم سنة ١٥٠٠ تمكن خلالها فرناندو من إخضاع البشرات. وعندما يئس الأندلسيون من الصمود في وجه جيشه عرضوا السلم فوافق شرط حصوله على ٥٠,٠٠٠ دوقة ذهبية وتسليم الحصون والمنابر والأسلحة التي كانت في يد الثوار. ولما تحقق لفرناندو ما أراد أقام الجنود في عدد من مناطق البشرات واستقدم الرهبان لتنصير أهلها وعاد إلى إشبيلية.

الثورة في الجبل الأحمر

ولم يكن أمام إيزابيلا بعد ذلك ما يعيق بدء تنصير أهل غرناطة فأعلنت أنهم خرقوا معاهدة تسليم غرناطة بعصيانهم، وباتت في حل منها، وأمرت السلطات بهدم المساجد أو تحويلها إلى كنائس، وشرعت الكنيسة في عملية تنصير الأندلسيين المقهورين. ولم يقبل باقي سكان مملكة غرناطة هذا الخيار فثاروا في مناطق الجبل الأحمر. وحيال هذا التطوّر الذي لم يتوقعه فرناندو كلّف ألونثو دي أغيلار (بلاي)،

الشقيق الأكبر لغونثالو القرطبي وأحد القادة العسكريين الذين ميّزوا أنفسهم خلال حصار غرناطة، بمهمة قمع الثورة الجديدة. وقاد ألونثو جيشاً كبيراً بهدف إنهاء الثورة في الجبل الأحمر بسرعة، ورافقه في هذه الحملة ابنه الدون بدرو القرطبي. ويبدو أن ألونثو استخف بأندلسيي الجبل الأحمر، أو كان يجهل مناطق انتشار الأندلسيين فقاد جيشه عبر عدد من الممرات الجبلية الوعرة ولم يكتشف ان الأندلسيين أعدوا له ولجيشه كميناً محكماً إلا بعد فوات الاوان. وفجأة انهالت الصخور على الجيش وهو يعبر ممراً فقتل عدد كبير من الجنود ونزل الأندلسيون إلى الباقي فأجهزوا على عدد آخر ولاذ آخرون بالفرار.

ونعرف أن ألونثو لم يمت تحت الصخور إلا أن هناك روايتين لنهايته: الأولى مقتله خلال المعركة التي دارت عقب سقوط الصخور على الجنود، والثانية مصرعه على يد فارس أندلسي نازله في مبارزة. وكان من بين القتلى القشتاليين يومها فرانسيسكو راميرز الذي كان يُعتبر من بين أشهر المهندسين في جيش الملك فرناندو، وكان له باع طويل في استخدام المدافع اثناء حرب غرناطة. وأصيب الدون بدرو نجل ألونثو بجرح بليغ خلال المعركة لكن الناجين من الجنود تمكنوا من اجلائه. ولما وصلت أخبار مقتل ألونثو إلى فرناندو جهّز جيشاً كبيراً انطلق به من غرناطة إلى مدينة رندة فاتخذها مركزاً للعمليات العسكرية. وبعد استقصاء أوضاع الأندلسيين تحرّك فرناندو في اتجاه الجبل الأحمر فواجه مقاومة عنيفة فانسحب وأعاد تجميع قواته وعاود هجومه فانهزم الأندلسيون من وجهه وقصدوا القمم العالية. وحاول فرناندو وجيشه اقتحام محلة تحصّن فيها الأندلسيون فصدّوه فضرب عليهم الحصار حتى جاءوا وعرضوا الاستسلام فقبل به على أن يعبروا العدوة، وانتهت بذلك ثورة الأندلسيين بعد نحو سنتين من قيامها.

مرسوم تنصير الأندلسيين

في ١٢ شباط (فبراير) عام ١٥٠٢ أصدرت إيزابيلا مرسوماً ملكياً خيّر جميع الأندلسيين في قشتالة (شاملة مملكة غرناطة) وليون بين التنصّر والرحيل. وأوضح هذا المرسوم واجب أهل قشتالة طرد «أعداء الدين المسيحي» من المملكتين وترحيل سائر الأندلسيين، ممن لم يتعمدوا بعد، فلا يبقى منهم ذكر فوق سن الرابعة عشرة ولا أنثى فوق سن الثانية عشرة بعد نيسان (إبريل) من ١٥٠٢. وسمح المرسوم للأندلسيين الراغبين في الرحيل بيع العقارات والاملاك لكنه حظر عليهم إخراج الذهب والفضة

والمجوهرات. وفتح الأندلسيون محادثات أخيرة مع السلطة لتجميد المرسوم فاخفقوا فرحل عن الوطن نحو ٣٠٠,٠٠٠ شخص قصد معظمهم المغرب والجزائر وتونس ومصر والشام إلا أن جماعات أخرى تحوّلت من هناك إلى القسطنطينية.

ويلخص المقري ما حدث فيقول: «ثم ان النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة اربع وتسع مئة (١٤٩٩)، بعد أمور وأسباب أعظمها واقواها عليهم انهم قالوا: إن القسيس كتبوا على جميع من كان اسلم من النصارى ان يرجعوا قهراً للكفر، ففعلوا ذلك. وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة. ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو ان يقولوا للرجل المسلم: إن جدّك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً. ولما فحش هذا الامر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم، وهذا كان السبب للتنصر، قالوا: لأنّ الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا ان يتنصّر فينجو من الموت. وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر، واعتزلوا الناس، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً، إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة. وأخرجوا على الامان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر». [1] ونجد نصاً قريباً من هذا للمؤرخ نفسه فيه: «فلما رأى الطاغية (فرناندو) أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن، أخذ في نقض الشروط التي اشترط عليها المسلمون أول مرة، ولم يزل ينقضها فصلاً فصلاً إلى ان نقض جميعها، وزالت حرمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلة، واستطال عليهم النصارى، وفُرضت عليهم المغارم الثقيلة، وقُطع عنهم الأذان في الصوامع، وأمرهم بالخروج عن غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا أذلة صاغرين، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصّر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسع مئة فدخلوا فيه كرهاً، وصارت الأندلس كلها دار كفر». [2]

وفي النصين السابقين موقف يقترب من «تأبين» الأندلسيين المسلمين في دولة

---

[1] «نفح الطيب»، ج ٤، ص ٥٢٧. وترد إشارات عن هذه الحقبة من تاريخ الأندلس في عدد آخر من المراجع منها «نبذة العصر»، حيث يشير المؤلف في الصفحة ٤٥ إلى بعض معارك الثورة الأندلسية الأولى ويقول إن عددها وصل إلى ٢٣ معركة. ولم أعثر على الاسم الحديث لبلفيق اليوم لكن بللنقة هو Villa Leunga الواقع في جبال رندة.

[2] «أزهار الرياض في أخبار عياض». شهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني (المقري)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (القاهرة ١٩٢٩-١٩٤٢). ج ١، ص ٦٨-٦٩.

صارت كفراً كلها. كما تُغفل نصوص عدّة في التاريخ العربي حقيقتين كان من المفترض أن تكونا واضحتين جداً: الأولى أن الأندلسيين لم يتنصّروا عن بكرة أبيهم كما سنرى لاحقاً إذ ربما لم يزد عدد المتنصّرين إسمياً وبضغط الإكراه فقط على ٣٠ ألف شخص. والثانية أن مرسوم التنصير محصور بقشتالة ولا يشير من بعيد أو قريب إلى الأندلسيين في مملكة أرغون (بما في ذلك بلنسية وجزر البليار: ميورقة ومنورقة واليابسة) الذين تعاطفوا مع إخوانهم في غرناطة لكنهم لم يتحركوا لنجدتهم. ولو أن الأندلسيين تنصّروا فعلاً لما كان هناك سبب لقيام الثورة الأندلسية الكبرى ولما كانت هناك حاجة إلى نفي الأندلسيين من إسبانيا في بداية القرن السابع عشر. ولا شك طبعاً في أن أعداداً غير معروفة من الأندلسيين تنصّرت على يد طلبيره ثم على يد الكردينال خيمينس لأسباب عدّة تقدم شرح بعضها بأيجاز، لكن تلك الأعداد كانت قليلة. والمعروف أن فرناندو احتكر نقل الأندلسيين إلى العدوة على سفنه، وسفن أخرى استأجرها لهذه الغاية، لقاء عشر دوبلات ذهباً لكل فرد من المغادرين فمن وجد هذا المبلغ الكبير تمكّن من الانتقال إلى العدوة ومن لم يجد اضطر إلى البقاء. أضف إلى ذلك ان المهلة التي اعطيت للأندلسيين للاختيار بين التنصّر أو الرحيل كانت أقل من ثلاثة اشهر لذا لم يكن سهلاً تعميم مضمون المرسوم على جميع الأندلسيين لا سيما ان الكثيرين منهم كانوا يعيشون في أماكن نائية لا يسهل الوصول اليها. إلا أنه من المعروف أيضاً أن السلطة وضعت عراقيل كثيرة لمنع الأندلسيين «المفيدين» من الرحيل خصوصاً العاملين في الأراضي الميرية أو لدى النبلاء، وقُدمت وعوداً للكثيرين بأن العقاب لن يطالهم إذا لم يمارسوا دينهم علناً.

إذاً التنصير، ببساطة، لم يحدث. أما الذي حدث ببساطة فهو أن الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في قشتالة وليون ومملكة غرناطة لم يجدوا أنفسهم «مُتنصّرين» يوم انتهاء المهلة المحددة في المرسوم بل «مُنصرين» بموجب مرسوم ملكي ومن وجهة النظر القشتالية فقط. لهذا لم يستيقظ الأندلسيون فجر ذلك اليوم لقراءة الأنجيل ولم يهبطوا على ركبهم لقبول التعميد ولم تمتلىء الكنائس بهم يوم انتهاء المهلة ولا بعدها. وحتى إيزابيلا الكاثوليكية التي ملأت ذاتها بالتعصب والحقد على كل ما هو غير كاثوليكي كان عليها أن تضع تعصبها جانباً بعض الوقت وتتصرف كملكة مسؤولة عن إعمار اقتصاد بلادها لا خرابه. فبين بدء الحرب بين قشتالة وغرناطة وانتهاء مهلة المرسوم غادر مملكة غرناطة ما يمكن أن يصل الى ٣٥٠ ألف شخص. وفي الإمكان تصوّر الفراغ الكبير الذي تركه هؤلاء وراءهم في وقت كانت تعاني فيه قشتالة من قلة عدد السكان. يُزاد إلى ذلك أنّ التشدّد في تطبيق المرسوم كان سيثير مجموعة مهمة من

النبلاء الذين استثمروا مبالغ طائلة لشراء الأراضي الأندلسية واعتمدوا على المزارعين الغرناطيين لإدارة مزارعهم الكبيرة. لذا كانت إيزابيلا أول من اعترض على إقامة فرع لمحكمة التحقيق في غرناطة، ومنعت المحاكم من التدخل في شؤون الأندلسيين.

وما فعلته إيزابيلا بإطلاق مرسومها أنها أضافت إلى الكنيسة القشتالية بين ٣٥٠ ألف شخص و٥٥٠ ألف شخص لكنّ التنصير جاء بمرسوم وبقي في إطار المرسوم. ولم يكن تنصير الأندلسيين ممكناً على الفور، ونريد أن نقترح أن أحد أهدافه إعطاء الانطباع لقشتالة وأوروبة، ولو ظاهرياً، أن الملكة الكاثوليكية وضعت أخيراً حداً للوجود الإسلامي فيها. وإذا أخذنا ما قاله شيخنا المقري عن حال الأندلسيين بعد مرسوم التنصير لا شك أن إيزابيلا نجحت في تحقيق هدف الظهور بمظهر من حوّل مملكة غرناطة إلى دار للنصرانية من وجهة نظرها، وحوّلت الأندلس إلى «دار الكفر» من وجهة النظر العربية. ولم تكن إثارة الغرناطيين بعد ذلك في صالح أي طرف لذا عملت إيزابيلا على إزالة المعالم العلنية الإسلامية في غرناطة لكنها تجنّبت آنذاك، مثلما تجنّب زوجها فرناندو من بعدها وكارلوس الخامس من بعدهما، التضييق على الغرناطيين لهدفين: الأول إرضاء النبلاء، والثاني ضمان استمرار إعمار المناطق التي سكنها الغرناطيون. ويمكن بسهولة إثبات ذلك لأن محاكم التحقيق بقيت بعيدة عن غرناطة مدة ٢٤ سنة لحقت بصدور مرسوم التنصير.

٨ - قيام الأمبراطورية الإسبانية

خرجت قشتالة إلى العالم من شرنقة صراعها مع الأندلس، وكانت لا تزال دولة أوروبية فقيرة عندما تمكّنت من إقناع زعامة غرناطة بتسليم المملكة عام ١٤٩٢. وأزاحت قشتالة عن كاهلها قسماً مهماً من القروض التي حصلت عليها من الأثرياء اليهود لتمويل الحرب ضد غرناطة عندما طردت من رفض التنصّر منهم في عام تسليم غرناطة نفسه إلا أن هذه الخطوة لم تدعم وضع قشتالة على الساحة الأوروبية. لذا يمكن القول إن عام ١٤٩٢ كان حاسماً في تاريخ قشتالة لأنها بدأت تنشر ممالكها في العالم الجديد بعدما أزاحت عن كاهلها ثقلي وجود مملكة غرناطة العربية الإسلامية واليهود. وخلال النصف الأول من القرن السادس عشر دبّ النشاط في قشتالة المتحدة مع أرغون فاتجه رجالها شمالاً نحو أوروبة وجنوباً نحو المغرب وغرباً عبر الأطلسي فأقاموا مملكة شاسعة امتدت من تكساس إلى الارجنتين وتدفقت عليها

كميات هائلة من الذهب والفضة التي موّلت حروب التوسع في أوروبة وساهمت في بناء أكبر أمبراطورية برّية وبحرية عرفها العالم آنذاك.

لكن البداية كانت متواضعة جداً وكانت ستظل متواضعة لو لم يرتكب كريستوفر كولومبوس خطأه التاريخي الممتاز عندما اتجه إلى مصادر التوابل في الهند فوجد نفسه صدفة في أميركا، ولو نفذ فرناندو وصيّة زوجته قبل أن تموت عام ١٥٠٤ فصبّ كل اهتمامه على «الكفار» في المغرب، كما أرادت، وابتعد عن محيط الصراع في أوروبة. واستجاب فرناندو ملك قشتالة وليون وأرغون لطلب إيزابيلا فنظّم حملات محدودة استهدفت بعض مدن الساحل المغاربي، لكن جهوده تحولت بسرعة إلى صراع ضد خصومه الفرنسيين مستخدما إيطاليا مسرحاً لحروبه معها. ففي عام ١٤٦٣ انتزع الملك الفرنسي لوي الحادي عشر إقليمي روسيلو وسردانيا من المملكة الأرغونية فباتت استعادتهما الشغل الشاغل لفرناندو نظراً إلى قيمتهما التاريخية. إذ كان الإقليمان الوطن الأصلّي للقطلان قبل ان يمتدوا جنوباً ويؤسسوا مملكة أرغون في القرن الثالث عشر، ثم يوسعوا سلطانهم ليشمل نابولي في إيطاليا وصقلية وأثينا.

وحاول فرناندو عزل فرنسا خلال سنوات حصار غرناطة بعرض صداقة قشتالة وأرغون على إنكلترا وإيطاليا وهولندا. وابرم عام ١٤٨٩ معاهدة مع إنكلترا نصّت على شن الإنكليز الحرب على فرنسا لاتاحة الفرصة لجيش فرناندو لاسترجاع روسيلو وسردانيا. وبقيت المعاهدة حبراً على ورق واستبدل بها اتفاقاً مع فرنسا ضمن لها التقدم في إيطاليا في مقابل إعادة الإقليمين. واكتشف فرناندو في اللحظة الأخيرة أن مطامح فرنسا أكبر مما تصورها فلجأ إلى تشكيل حلف مع إنكلترا والبابا لوقف تقدم قوات الملك الفرنسي شارل الثامن في إيطاليا فتجاهل شارل تهديدات الحلف ودخلت قواته نابولي عام ١٤٩٥. ورد فرناندو على وقوع مملكته في نابولي بيد الفرنسيين بإرسال جيش قاده غونثالو القرطبي «القبطان العظيم» في ١٤٩٦ لمحاربة الفرنسيين وحلفائهم السويسريين. وكان هذا الجيش خفيف التسليح واعتمد اعتماداً كبيراً على المشاة فأثار سخرية الفرنسيين، لكن القرطبي تمكّن من دحر الفرنسيين وأجبرهم على التخلي عن نابولي خلال اسبوعين. وانتصر القرطبي في كل المعارك التي خاضها مع الفرنسيين فاعترفوا بسيادة فرناندو على المدينة الإيطالية الشهيرة عام ١٥٠٤، وارتفع نجم قشتالة من وقتها وباتت جيوشها قادرة على مقارعة أي جيش أوروبي آخر. ودعم فرناندو قوته العسكرية بحملة دبلوماسية فأرسل السفراء إلى روما ولندن وبروكسل والبندقية وفيينا، ونال استحسان مكيافيلي على نشاطه الدبلوماسي وحنكته السياسية.

وحقق فرناندو انتصاراً فريدا على الفرنسيين لكن صنع الأمبراطورية الإسبانية تم بطريق مصاهرة بعض أهم ملوك أوروبة. ورغبت إيزابيلا وفرناندو في البداية في توحيد قشتالة والبرتغال عن طريق مصاهرة ملك البرتغال فزوجاه ابنتهما إيزابيلا لكن المحاولة انتهت إلى مأساة إذ قتل الامير البرتغالي ألفونصو في حادث عرضي فتزوجت بعده الملك البرتغالي عمانويل لكنها ماتت عام ١٤٩٨ خلال الوضع. وكان حفيدها ميغيل سيرث عروش قشتالة وأرغون والبرتغال لو ظل حياً لكنه مات هو الآخر عام ١٥٠٠ وتوقف جهد توحيد شبه جزيرة آيبرية حتى القرن السادس عشر عندما سحق المغاربة جيش الملك البرتغالي سباستيان في معركة القصر الكبير. وفي محاولة أخرى زوج فرناندو ابنته كاتلينا (كاثرين الأرغونية في التاريخ الإنكليزي) أمير ويلز لكنه مات فتزوجت بعده الملك هنري الثامن. وانتهى هذا الزواج إلى مأساة أخرى بل ساهم في انشقاق الانكليز عن الكنيسة الكاثوليكية وتبني البروتستانتية.[١]

أما ابن فرناندو وإيزابيلا الوحيد خوان فتزوج الأميرة النمسوية مرغريتا ابنة الامبراطور مكسيمليان لكن هذا الزواج أثمر طفلاً مات في رحم امه ثم مات خوان نفسه عام ١٤٩٧. وهكذا لم يتبق سوى زواج ابنة فرناندو خوانا من فيليب دوق برغندي ابن الامبراطور مكسيمليان فانجبت كارلوس الذي ورث ممالك أبيه وجده. وبدأت تظهر على الأميرة خوانا امارات الجنون اعتباراً من عام ١٥٠١. ومات زوجها الارشدوق فيليب فجأة عام ١٥٠٦ ففقدت صوابها تماماً، ووضعت جثته في صندوق وراحت تنقله معها أينما ذهبت.

---

[١] لم تنجب كاثرين الأرغونية وريثاً للعرش فسعى هنري الثامن إلى تطليقها لكن البابا كليمنص السابع (١٥٢٣-١٥٣٤) رفض الموافقة على الطلاق تحت ضغط الأمبراطور الإسباني كارلوس الخامس ابن اخت كاثرين. وعندها أعلن هنري زواجه لاغياً وتزوج آن بولين فحرمه البابا فردّ عليه بفصل انكلترا عن الكاثوليكية وعيّن نفسه زعيماً للكنيسة الانكليزية. ولا شك في ان رفض الطلاق لم يكن السبب الوحيد لانفصال الكنيسة الإنكليزية عن الكاثوليكية إذ يقول المؤرخ الإنكليزي كريستوفر موريس إن مسألة طلاق هنري الثامن من كاثرين (كاتلينا) كانت «المناسبة التي أدّت إلى حركة الاصلاح الإنكليزية وليس سببها». أنظر:

Morris, Christopher. *The Tudors*, Fontana / Collins, (London 1955) p 84.

ومن الواضح كذلك أن هنري الثامن استجاب بخطوة تفكيك الكنيسة الكاثوليكية القوية في إنكلترا لمطلب جماهيري إذ تردت الأوضاع الإقتصادية في تلك الفترة وصار الناس يعتقدون أن ثراء الكنيسة أحد أسباب فقرهم، علاوة على انتشار قصص كثيرة عن فساد الكنيسة وفضائح رجالها. والملفت أن هنري الثامن وقف ضد حركة الإصلاح الديني التي قادها لوتر وألّف كتاباً ضده عام ١٥٢١. ويوجد في كتاب «حياة توماس مور» نص مُلفت يقول فيه مور لهنري الثامن إن البابا «أمير مثلك، ويمكن ان تنشأ بينك وبينه الصداقة أو الحرب». انظر: . Roper. *Life of More*, ed. E.V. Hitchcock, (1935) pp193-4

والمعروف عن هنري الثامن أنه تزوج ست نساء لكي يضمن وريثاً أعدم اثنتين منهن (آن بولين وكاثرين هوارد بتهمة الزنى والتآمر)، كما أعدم اثنين من أهم مستشاريه هما أوليفر كروموي وتوماس ولزي.

وكانت آخر سنوات الملك فرناندو أعظم مراحل حكمه فكرس جهوده لوقف توسع الفرنسيين في أوروبة وتدعيم ممتلكات أرغون في البحر الابيض المتوسط . وفي عام ١٥١٢ تذرع فرناندو بأن مملكة نافار تتآمر مع الفرنسيين ضده فسيّر إليها قائده المشهور دوق ألبه فاحتلها وضمّها إلى مملكة أرغون . وقبل أن يموت فرناندو أعدّ العدة لاستقبال حفيده كارلوس ملكا على البلاد وعين ابنه غير الشرعي ألونصو الأرغوني (زنوة فرناندو مع إحدى خليلاته) وصياً على عرش أرغون وقطالونيا وبلنسية ، بينما عُيّن الكردينال خيمينس وصياً على عرش قشتالة . وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٥١٦ مات فرناندو فجأة فاضطربت أمور المملكة ، وقامت الثورة المعروفة باسم ثورة أهل المدن عام ١٥٢٠ فاستمرت حتى إخمادها في ١٥٢٢ .

كارلوس الخامس

وصل الأمبراطور الروماني المقدس كارلوس الخامس إلى ميناء سنتندير الواقع على خليج بسقاية في السادس عشر من تموز (يوليو) عام ١٥٢٢ ومعه نحو أربعة آلاف جندي ألماني ، لذا أثارت رؤية هؤلاء الجنود في قشتالة استغراب الناس ، وزاد استغرابهم بروز فكي كارلوس مما أضاف إلى وجهه بعض سمات البله . ووجد كارلوس نفسه في قشتالة للمرة الثانية في حياته غريباً كما كان عندما زار البلاد قبل ست سنوات ، وملكاً على بلاد لم يحسن التخاطب بلغة أهلها . إلا أن هذه المظاهر كانت تخفي واحداً من أعظم حكام عصره ، ومؤسس سلالة هابسبرغ التي حكم فرعها الأول (كارلوس) الأمبراطورية الإسبانية وحكم الفرع الثاني (النمسا وملحقاتها) أخوه فرديناند .

وضمت أمبراطورية كارلوس الخامس قشتالة وأرغون وممالك أرغون في البحر الابيض المتوسط (نابولي وصقلية وسردينيا) والنمسا وتوابعها و«البلاد الواطئة» التي تضم الآن معظم هولندا ولوكسمبرغ وبلجيكا ، وكذلك هنغاريا ومورافيا بالإضافة إلى ممالك أخرى مثّلت نصف القارة الاوروبية ، علاوة على المستعمرات الإسبانية الهائلة في العالم الجديد . وكانت مشاكل هذه الأمبراطورية بحجمها إذ خرجت فرنسا من حرب المئة عام مع انكلترا آلة حرب شرسة ، مثل قشتالة ، وبدأت محاولة التوسع على الفور تقريباً . وفي الجانب الآخر من أوروبة كان العثمانيون آلة حرب أعظم من الاثنتين السابقتين فحققوا في جنوب أوروبة انتصارات هائلة وكسروا المجريين في موقعة الموهاك عام ١٥٢٦ وبدأوا يتوسعون بسرعة في حوض البحر الابيض المتوسط .

واقتربت الأمبراطوريتان الإسبانية والعثمانية من لحظة المواجهة في حالات عدّة لكن الحرب اندلعت أولاً مع فرنسا .

وبدأت الحروب بين جيوش كارلوس الخامس وفرانسيس الأول الفرنسي في إيطاليا، كما بدأت آخر القرن السابق في نابولي بين فرناندو وشارل الثامن . واستمرت المعارك في مرحلتها الأولى بين سنتي ١٥٢١ و١٥٢٥ وانتهت بانتصار الإسبان وحلفائهم من المرتزقة الالمان في معركة بافيا حين أسر الملك الفرنسي فرانسيس . وبموجب المعاهدة التي ابرمت في مدريد (١٥٢٦) خسر الفرنسيون ميلانو وجنوة ودوقية برغندي، لكن فرانسيس الأول نقض المعاهدة وقاد حلفاً ضم جنوة وميلانو وفلورنسا والبابا كليمنص السابع في مرحلة ثانية من الحروب استمرت بين ١٥٢٦ و١٥٢٩ اقتحمت خلالها القوات الأمبراطورية روما (١٥٢٧) واعتقلت البابا وأذلّته في الشوارع . وانتهت هذه المرحلة الثانية بما يشبه الهدنة لكن الحرب عادت واشتعلت بين إسبانيا وفرنسا واستمرت في صورة متقطعة حتى عام ١٥٤٤ عندما ابرمت معاهدة أخرى بين الجانبين، ولم تلبث أن دخلت مرحلة جديدة من الحروب بين ١٥٥٢ و١٥٥٦ . وكانت فرنسا جبهة واحدة ضم إليها كارلوس جبهة أخرى بعد تدخله في الحرب الدينية في المانيا اعتباراً من عام ١٥٣٠ في اثر نهوض حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتين لوتر (مارتن لوثر Martin Luther) . وحقق كارلوس انتصاراً كبيراً على الأمراء البروتستانت عام ١٥٤٧ ، فأبرم موريس السكسوني عام ١٥٥٢ اتفاقاً مع الملك الفرنسي هنري الثاني استهدف إسبانيا . ولم يستطع كارلوس التصدي لهذا الحلف فهرب من ألمانيا وخسرت أمبراطوريته ممالكها في ألمانيا وانتصرت حركة الإصلاح . ونقل كارلوس في وقت أسبق الحرب إلى السواحل المغاربية فأخذ تونس عام ١٥٣٥ لكن الحملة التي نظمها ضد الجزائر عام ١٥٤١ انتهت إلى إخفاق ذريع، واقتصرت سيطرة إسبانيا في العهود اللاحقة على مدينتي سبتة ومليلة . وكان عهد كارلوس الخامس مليئاً بانتصارات هائلة وهزائم هائلة غير انه كان لا يزال يسيطر على أكبر أمبراطورية في العالم عندما قرر عام ١٥٥٦ التنازل لأخيه فرديناند عن أراضي الأمبراطورية الرومانية المقدسة والتنازل لابنه فيليب الثاني عن باقي ممالكه الشاسعة .

الفصل الثالث

الثورة الأندلسية الكبرى

١ - أوضاع الأندلسيين بعد الثورة الأولى

ماتت الملكة إيزابيلا بعد عامين من إصدار مرسوم ١٥٠٢ الذي اعتبر كل الأندلسيين الذين بقوا في مملكة غرناطة منصّرين رسميّاً. وبدأت السلطات الدينية والمدنية تدريجاً تحويل المساجد إلى كنائس أو هدمها وحظر الصلاة ورفع الأذان والصوم والشعائر الإسلامية الأخرى لكن الأندلسيين تجاهلوا المرسوم عموماً واستمروا في ممارسة عباداتهم وعاداتهم في بيوتهم. وفي عام ١٥٠٨ أصدر فرناندو مرسوماً جديداً حظر على الأندلسيين التخاطب بالعربية وارتداء الملابس الأندلسية وممارسة التقاليد والعادات العربية، لكن الأندلسيين تجاهلوا هذا المرسوم أيضاً. ولم تجد السلطات جدوى من محاولة تطبيقه خوفاً من إثارة الأندلسيين في مرحلة تطلبت من فرناندو تكريس جهده ووقته لعزل الفرنسيين وتثبيت ممالكه الأرغونية في البحر الأبيض المتوسط والعالم الجديد، خصوصاً أن التشدد كان سيلحق أضراراً بالغة بالنبلاء والإقطاعيين الذين وظّفوا عدداً كبيراً من الأندلسيين في مزارعهم ومصانعهم.

وخلال تلك الفترة بدأ القشتاليون ينقلون بعض العمليات العسكرية إلى السواحل المغاربية لأسباب عدّة منها محاولة التحكّم بالحركة البحرية على جانبي مدخل البحر الأبيض المتوسط، وعرقلة قيام أي قوة عربية يمكن أن تتصل بمملكة غرناطة، واستخدام النقاط العسكرية الجديدة للانطلاق إلى عمق البحر الأبيض المتوسط. ولقشتالة طموحات في السواحل المغاربية تعود إلى منتصف القرن الثالث عشر عندما وضع ألفونصو العاشر ترتيبات لغزو المغرب بحضّ البابوية. غير أن الخوف آنذاك من هجوم أندلسي معاكس أدى إلى تأجيل الحملة حتى عام ١٢٦٠ عندما أرسل ألفونصو ٣٠ سفينة هاجمت مدينة سلا المغربيّة في العاشر من أيلول (سبتمبر) لكنها لم تحقق هدفها فصرف النظر عن مهاجمة السواحل المغربيّة وركز بدلاً من ذلك على إنهاء مملكة لبلة في غربيّة الأندلس.

وبعد تسليم غرناطة احتل القشتاليون مدينة مليلة عام ١٤٩٧ ثم وهران عام ١٥٠٩. وكان صاحب ترتيب الهجوم على وهران الكردينال خيمينس رئيس أساقفة طليطلة مستشار قشتالة الذي تسبب في قيام الثورة الأندلسية الأولى. وهذا أمر غريب

لعله يجد تفسيراً في رغبة فرناندو التخلّص من مستشار قشتالة بعدما سئم تدخله في شؤون الدولة، أو إشغاله بحملة صليبية تتيح لفرناندو استخدام مقدرات قشتالة لتحقيق أهدافه الأوروبية. ولا يُستبعد كذلك أن يكون أحد أهداف هذه الحملة كسر شوكة الأندلسيين في غرناطة وتدمير معنوياتهم لتأمين رضوخهم الكامل. ولا تسوّغ كل هذه الاسباب المذبحة البشعة التي ارتكبتها القوات القشتالية في وهران إذ يُعتقد أنها انتهت بقتل أربعة آلاف شخص وسبي ما بين خمسة آلاف وثمانية آلاف شخص، ولم ينج الأطفال من القتل أو النساء من الاغتصاب. ويُقال إنه عندما دخل الكردينال خيمينس المدينة المنكوبة سجد شاكراً بين أكوام القتلى. وانشغل خيمينس بعد ذلك بتنصير الناس وأقام في المدينة فرعاً لمحاكم التحقيق عام ١٥١٥ قبل أن يعمّم هذا المبدأ على مستعمرات قشتالة في العالم الجديد.

وفي التاريخ الإسباني تركيز مُلفت على إبراز تكثلك الملوك وشدّة تدينهم يجد قمته في إيزابيلا الكاثوليكية، إلا أن المؤرخين الإسبان يفضّلون تعميمه أيضاً على زوجها فرناندو. ويُقال إن هذا الملك كان يهجس في آخر أيامه بحلم تحقيق السلام في أوروبة والإنطلاق بعدها بحملة صليبية هائلة لإحتلال مصر (مركز القوة العربية الإسلامية آنذاك)، ثم الاتجاه بعد ذلك إلى القدس لاحتلالها هي الأخرى. ولطالما حشد فرناندو الجيوش والاساطيل التي ستتوجه إلى المغرب ومصر والقدس وانفق عليها من الضرائب التي كان يحصّلها من الإسبان بموافقة البابا فإذا بها تغير مسارها في اللحظة الأخيرة وتشتبك مع الفرنسيين الذين بقوا أخطر أعداء قشتالة يوم مات فرناندو عام ١٥١٦. ووقعت مسؤولية إعداد قشتالة لاستقبال كارلوس على الكردينال خيمينس لكنه مات بعد سنة ودخلت البلاد حقبة من الاضطرابات التي تحولت إلى ثورة دامية في الأسبوع الأخير من أيار(مايو) عام ١٥٢٠.

تنصير الأندلسيين في بلنسية

ولد كارلوس في غنت الفلاندرية عام ١٥٠٠، وتتلمذ على يد أدريان الاترشتي. وجاء كارلوس قشتالة للمرة الأولى عام ١٥١٧ ومعه حاشية كبيرة من الفلمنك لذا لم يجد القشتاليون في ملكهم الجديد شيئاً يذكرهم بجدته إيزابيلا الكاثوليكية، ولم يجدوا حتى فرصة للتفاهم معه بالقشتالية التي كان يجهلها. وعندما غادر كارلوس قشتالة عام ١٥١٧ لجمع إرثه الهائل في أوروبة واستلام منصب الأمبراطور الروماني المقدس من البابا، ترك أدريان وصياً على عرش قشتالة فبدأ الناس يتذمرون من وجود

هؤلاء الغرباء على رأس مملكتهم. وكان الاستياء عاماً عند سائر فئات الشعب فشمل النبلاء ورجال الكنيسة والتجار والمواطنين العاديين وحتى الرعاع. وبدأ الاستياء يتحوّل إلى سخط شعبي رافقته أعمال عنف تطورت إلى ثورات مدائنية فبعث أدريان في تموز (يوليو) عام ١٥٢٠ نحو ألف جندي لقمع الثورة في مدينة شقوبية فهزمهم الناس فبعث التعزيزات فتصدوا لها ونشبت بين الفريقين حرب شوارع شرسة زادت السخط والرغبة في التحدي. وانتقلت الثورة الشعبية بعدها إلى مدن أخرى ووصلت إلى ذروتها بإحراق مدينة كمبو، احدى أهم المراكز المالية والتجارية في قشتالة. واتسع نطاق الثورة إلى واحدة من أهم المدن الإسبانية هي بلد الوليد ولم يعد أدريان قادراً على قمعها وفلت الأمر من يده فهرب من البلاد وبات كارلوس ملكاً على دولة لا يستطيع العودة إليها.

وانقسمت المدن الإسبانية في تلك الفترة بين مؤيدة لعودة كارلوس ومعارضة. وكانت غرناطة وعدد آخر من المدن في الجنوب من الجماعة الأولى فحضّ أهلها الأندلسيون كارلوس على العودة إلى البلاد واستلام مقاليد الحكم في حين لم ترد مدن كثيرة غيرها رؤية وجه كارلوس مرة أخرى. وتقلبت الأوضاع فترة إلا أن ثوار المدن افتقدوا التنظيم وانقسمت كلمتهم وتبعثرت جهودهم وباتت الغلبة لمؤيدي عودة الملكية فتحرك هؤلاء واخمدوا الثورة بعد الاخرى. وكانت طليطلة آخر المدن الثائرة التي سقطت بعد قتال عنيف قادته أرملة «بديلا» الذي قاد الثورة في احدى مراحلها. وبرز خلال تلك الفترة زعيم آخر هو أسقف مدينة سمّورة الذي قاد الثائرين الغاضبين فأحرقوا المزارع والكنائس ونهبوا ما فيها. واعتقل الأسقف خلال فراره إلى فرنسا وأودع السجن، فحاول الهرب منه بعد خمس سنوات إثر قتل السجان، لكنه اعتقل ثانية ومات تحت التعذيب مما دفع البابا إلى حرمان الامبراطور كارلوس من الكنيسة بضعة أشهر. ووضع كارلوس نهاية لثورة أهل المدن عندما أعدم ٢٥٠ منهم في بلد الوليد عام ١٥٢٢ بعد أربعة أشهر من عودته إلى البلاد.

في الوقت نفسه الذي اندلعت ثورة أهل المدن في قشتالة كان أهل مدن مملكة أرغون يشعلون نيران ثورة مشابهة لكن لأسباب مختلفة تماماً. ففي السنة التي سبقت اندلاع الثورة في بلنسية صرف الجنود الأسلحة لبعض الجماعات للمساعدة على حمايتها من هجوم توقعت السلطات قيام الأسطول العثماني بشنّه فساد المدينة الخوف والاضطراب والقلق. وفي صيف ذلك العام (١٥١٩) ظهر عدد من حالات الإصابة بالطاعون في بلنسية فهرب المسؤولون والجنود منها، وشكّل بعض السكان مجموعات

سُمّيت مجموعات «جرمانية» أو «الأخوة» تسلمت السلطة وبدأت توسيع نفوذها في الأرياف. ويُقال إن حيّاكاً اسمه خوان لورينك تسلّم قيادة هذه المجموعات وفكّر بتحويل بلنسية إلى جمهورية مدائنية على غرار جمهورية البندقية. ولم يحقق لورينك هدفه إذ نحّاه زعيم ثوروي اسمه بيريس ووجّه جماعته ضد النبلاء. وبما أن قسماً كبيراً من الأندلسيين كان يعمل لدى النبلاء فقد وضعهم بيريس في صف العداء للثورة والتأييد لعودة الملكية. ورفع بيريس شعاراً شعبياً هو: «اليوم تنتهي أيام النبلاء والكفّار»، وأضحت ثورة بلنسية مركز حركة إصلاح اجتماعي وديني فاقتحم الثوار المناطق التي يسكنها الأندلسيون ونصّروا بالقوة نحو ١٦٠ ألف أندلسي.

وخاف الأندلسيون في باقي مملكة أرغون امتداد ثورة المدن إليهم في ظل التفلّت الحاصل فهرب الآلاف في سفن ابحروا على متنها ليلاً وانضموا إلى آلاف أخرى كانت التجأت إلى الجزائر. واستمر القلق فترة إلا أن الحركة ضعفت بعد ذلك وزادها التطرّف عزلة فتمكن الموالون للملكية من هزيمة قوات بيريس خارج مدينة بلنسية في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٥٢١. وفر بيريس فقبُض عليه أول السنة التالية، وانتهت بذلك ثورة أهل المدن في أرغون مثلما كانت انتهت في قشتالة.

الأندلسيون وكارلوس

أيد الأندلسيون في أرغون عودة كارلوس فكافأهم على ولائهم بإلزام نفسه في خطاب استلام عرش أرغون الذي ألقاه خلال الاحتفال الذي جرى في مدينة سرقسطة بعدم التدخل في الشؤون الدينية للأندلسيين متابعاً بذلك السياسة التي انتهجها جده فرناندو ومعظم الملوك الذين سبقوه. وترعرع كارلوس بعيداً عن التعصب الديني القشتالي والكراهية الدينية التي جبلت طبيعة جدته إيزابيلا. ولم يعرف في حياته خارج قشتالة شخصيات فيها الحقد والتشدّد الموجودان في أمثال توركيماده وخيمينس، لذا جاء إسبانيا في المرة الأولى عام ١٥١٧ وهو يفكّر بحل هذه المحاكم لأنه لم يكن وقتها في حاجة إلى خدماتها كخط دفاعي ثان عن السلطة كما كانت أيام جدته نظراً إلى سلطاته الهائلة وجبروته العظيم. وعاد في المرة الثانية عام ١٥٢٢ وهو متردد، ثم تغيّر الوضع بسرعة بعد نهوض حركة الإصلاح اللوترية. ففي الفترة بين ١٥٢٣ و١٥٢٥ نمت في زوريخ حركة معادية للبابوية ما لبث أن اتسعت لتشمل أقساماً من المانيا والنمسا. وبدأ انتشارها يشكّل تهديداً حقيقياً لسلطة كارلوس في أوروبة وخسارة محتملة للضرائب التي كان يحصّلها من الألمان والهولنديين فزاد

اعتماده على محاكم التحقيق كذراع ضاربة أخرى تُضاف إلى الذراع العسكرية. وتحركت الكنيسة القشتالية محلياً فبدأت مرحلة جديدة من التشدد والضبط طاولت خاصة الأندلسيين الغرناطيين وأفرزت مرسوماً صدر عام ١٥٢٥ أكد محظورات مرسوم عام ١٥٠٨ وأضاف إليه محظورات جديدة. إلا أن التطوّر الأبرز بعد ذلك كان شروع الكنيسة وعمّال محاكم التحقيق في تعميد مجموعة كبيرة من الأندلسيين قسراً.

وانتقد كارلوس مرة مهندساً قشتالياً لأنه بنى كنيسة داخل حرم المسجد الكبير في قرطبة، لكن هذا الأمبراطور كان يعيش مخاوف مضاعفات انتشار حركة البروتستانت في ممالكه الأوروبية عندما تقدم إليه زعماء غرناطة يطلبون وقف مضايقات السلطات التي سعت إلى إلزام الأندلسيين الغرناطيين التقيد ببنود المرسوم. وبعدما استمع كارلوس إلى الوفد أمر بتشكيل لجنة خاصة عهد برئاستها إلى رئيس أساقفة مدينة قادس للبحث في مطالب الأندلسيين ورفع تقرير إليه بذلك. وكان الأندلسيون يتوقعون استمرار كارلوس في موقفه المعتدل منهم اعترافاً منه بفضل تأييدهم لعودته خلال ثورات أهل المدن. لكن الوضع الدولي والمحلي كان تغيّر آنذاك وسرت في قشتالة خشية كبيرة من احتمال تغلغل الحركة البروتستانتية في المجتمعات القشتالية. وهكذا بدلاً من أن توصي اللجنة بتخفيف القيود عن الأندلسيين أوصت كارلوس بتأسيس محكمة للتفتيش في غرناطة وزيادة الضغوط والتشديد على تنفيذها فوافق على ذلك وبدأ تطبيق التوصيات في العام التالي.

وتضمنت المحظورات آنذاك لائحة قديمة شملت منع التخاطب بالعربية أو ارتداء الزي الوطني أو الصلاة والوضوء، وكان من الجديد فيها منع ختان الأولاد وحظر طلاء الأيدي بالحنّاء والإصرار على الإقبال على أكل لحم الخنزير وشرب الخمر وطهو لحم الحيوانات التي تموت ميتة طبيعية من دون ذبحها، وغير ذلك الكثير. وفي عام ١٥٢٩ شهدت غرناطة حادثاً مروّعاً حين أحرقت السلطات المدنية أول مجموعة أندلسية بتوصية من محكمة التحقيق في غرناطة فدبّ الرعب في قلوب الأندلسيين وفرت أعداد من أهل غرناطة إلى الشمال، واختلطت بسكان مدن قشتالة وأرغون. وجرت مفاوضات بعد ذلك بين زعماء غرناطة ومستشاري كارلوس انتهت إلى الاتفاق على تخفيف الضغوط عن الأندلسيين لقاء دفع مبلغ ٨٠,٠٠٠ دوقة سنوياً إضافة إلى ضريبة عُرفت باسم «ضريبة الفرضة» مقدارها ٢٠,٠٠٠ دوقة سنوياً سُمح للأندلسيين بعد تسديدها التخاطب بالعربية وارتداء ملابسهم الأندلسية مدة ٤٠ سنة.

وقدم الأندلسيون الرشاوى للسلطات المدنية وبعض عمال محاكم التحقيق فخفّ التضييق والملاحقة وأضحت حياة أهل مملكة غرناطة بعد ذلك على قدر معقول من الاحتمال.

ولم يستمر هذا الوضع طويلاً ووجد الأندلسيون أنفسهم جزءاً من صراع دولي قابلت فيه أمبراطورية كارلوس الخامس أمبراطورية ماثلتها أو تفوّقت عليها هي الدولة العثمانية. فبين عامي ١٥١٢ و١٥٢٠ اجتاح العثمانيون سورية والحجاز ومصر. ودخل سليمان الثاني بعد ذلك بسنة مدينة بلغراد واستسلم لقواته بعد سنة أخرى فرسان القديس يوحنا الذين سيطروا على جزيرة رودس، وتحكّم بالتجارة التي كانت لجنوة والبندقية، ثم انهارت هنغاريا عام ١٥٢٦، واقترب العثمانيون من حدود ممالك كارلوس الخامس في النمسا وحاصروا عاصمتها فيينا للمرة الأولى عام ١٥٢٩. وفي الجزائر أسس الأخوان عروج وخير الدين بربروسا دولة تصدّت لإسبانيا فقتل الإسبان عروجاً في معركة تلمسان عام ١٥١٨، فيما طلب خير الدين (١٤٧٥-١٥٤٦) زيادة الدعم العثماني وتمكن من هزيمة الأسطول الإسباني بعد عام من مقتل أخيه. ومن المراكز الجزائرية اعترضت سفن بربروسا سفن كارلوس الخامس وأغارت على مالقة وبلنسية وقادس، ثم اتسع نطاق هذه الحملات بدعم ملك فرنسا فرانسيس الأول لتشمل ممالك إسبانيا في إيطاليا أسر خلالها الألوف من القشتاليين والأرغونيين والصقليين والنابوليتانيين (أي أهل مملكة نابولي).

وحاول كارلوس التصدي لبربروسا مرات عدّة فبعث عام ١٥٣٠ أمير البحر أندريا دوريا على رأس اسطول لمهاجمة القواعد الجزائرية لكن دوريا لم يشتبك مع خصمه الذي كان دعم وضعه بمد سلطانه على تونس. وفي حزيران (يونيو) عام ١٥٣٥ استقدم كارلوس المرتزقة الألمان وجنوداً من إيطاليا ومالطة (فتحها الأغالبة عام ٨٦٩م ٢٥٥ هـ) وقاد اسطولاً ضخماً تغلب على أسطول بربروسا بعد معركة عنيفة. لكن بربروسا تفادى الأسر وعاد إلى الجزائر حيث استأنف هجماته على الفور تقريباً. وفي عام ١٥٤١ بعث كارلوس اسطولاً ضخماً لمهاجمة الجزائر لكن الحملة انتهت إلى إخفاق ذريع. وشهدت السنوات التالية صراعاً هائلاً في البحر الأبيض المتوسط حاولت فيه الأساطيل الإسلامية انطلاقاً من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب والمغرب الأقصى احتلال عدد من المدن الواقعة تحت سيطرة كارلوس الخامس كما حدث عام ١٥٥١ بالنسبة لمالطة الحصينة عندما تبادلت المدفعية الثقيلة للطرفين التراشق برؤوس الأسرى المقتولين.

وخلال هذه المرحلة كان الأندلسيون يدفعون ثمن نجاح الهجمات على الأساطيل الأسبانية والأرغونية والإيطالية تارة، ويدفعون ثمن تقدم حركة الإصلاح الديني في أوروبة تارة أخرى. وفي جو هذا الصراع الدولي والديني الواسع الذي كان كارلوس الخامس مركزه الأول، لم تعد الضرائب التي يدفعها الأندلسيون مجدية ومثلها الرشوة أو إظهار الولاء والتصرف كقشتاليين طيبين. وكانت حروب كارلوس عالية التكاليف، وكانت الكنيسة القشتالية في حاجة إلى مصادر تمويل للإنفاق على عمّالها ومبانيها فبدأت في الأربعينات والخمسينات من القرن السادس عشر عمليات واسعة النطاق لمصادرة أملاك الأندلسيين بدعوى انها الطريق الوحيد لتصالح الأندلسيين مع الكنيسة حتى باتت أكبر مالك للأراضي في إسبانيا.

ولم يشفع للأندلسيين البلنسيين تأييدهم كارلوس ووجدوا أنفسهم يعانون مثل اخوانهم في غرناطة. فبعدما استقرت الأوضاع في بلنسية قدّم الأندلسيون هناك طلباً إلى الكنيسة لاعتبار تنصيّرهم الإجباري مخالفة للقوانين والأعراف المعهودة في أرغون وبالتالي باطلاً من أساسه فتشكّلت لجنة كنسية بحثت في الطلب وانتهت إلى أن ثورة المدن في بلنسية باطلة فعلاً لكن التنصير مقبول ولا يمكن الغاؤه تحت أي ظروف.

وهكذا بدأت أحوال الأندلسيين تتغير بسرعة في النصف الثاني من حكم كارلوس الخامس، إلا أن الاضطهاد الحقيقي كان ينتظرهم في عهد خليفته فيليب الثاني الذي ينتمي في تعصّبه وتشدده إلى إيزابيلا أكثر من انتمائه إلى ابيه، ويرتبط تصرفاً ونظرة بالمدرسة القشتالية التي خرّجت توركيماده وخيمينس ودييغو دي اسبينوزا ومانريك. وعانى الأندلسيون تحت حكم إيزابيلا من أوضاع شبيهة بالأوضاع التي بدأوا يعانون منها تحت حكم فيليب الثاني وكان احتكامهم مُجبرين في المرة الأولى إلى الثورة، وإلى الثورة احتكموا مُجبرين مرة أخرى.

٢ - أسباب اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى

قاد كارلوس الخامس حروباً دولية ضد العثمانيين والفرنسيين والبروتستانت لكنه لم يتمكن من قهر أي من أعدائه الثلاثة فهرب من جبال المشاكل التي واجهته إلى هدوء دير يوست حيث تصومع ومات بعد سنتين من تنازله عن العرش لابنه فيليب عام ١٥٥٦. ويقول من درس سيرة فيليب الثاني انه كان ذكياً ونشيطاً لكنّه لم يكن قادراً على التمييز بين الغث والسمين. وكان فيليب يصرف وقتاً طويلاً قبل اتخاذ قرار ما

وعندما يتخذه لا يتابع تنفيذه حتى النهاية. وربما تعامل ببرود شديد مع قضايا ساخنة تستوجب حلاً سريعاً، وربما اهتم بقضايا هادئة فأجّج لهيبها كما حدث مع الأندلسيين في الجنوب عام ١٥٦٨. ولكاتب سيرة فيليب المؤرخ كبريرة القرطبي قول مشهور في فيليب هو أن ابتسامة الملك وخنجره قريبان جداً من بعضهما. إلا أن قلة رأت تلك الابتسامة لأنّ هذا الأمبراطور أمضى القسم الأخير من حياته يعيش حالاً قريبة من التنسّك والرهبنة في إحدى غرف قصره الهائل في الاسكوريال. وكان فيليب صاحب ممالك دوليّة عدّة لكنه لم يترك قشتالة يوماً واحداً، وكان قشتالياً وكاثوليكياً حتى العظم فأنفق أمواله وأموال قشتالة وذهب وفضة مستعمراتها في العالم الجديد على مقارعة أعدائه الثلاثة: البروتستانتية والإسلام وفرنسا، لكنه مات وكلٌ من الإسلام والبروتستانتية وفرنسا أقوى مما كانوا عليه في أي يوم من أيام حياته.

وبدأ فيليب حكمه معلناً الحرب على البروتستانت في كل مكان، عازماً على اجتثاثهم من أصولهم وتطهير الدنيا منهم وإذ بعمال محاكم التحقيق يكتشفون خليتين للبروتستانت في بلد الوليد واشبيلية ضمّت الثانية منهما أحد الأندلسيين. وكان رد فيليب سريعاً فحضر بشخصه الاحتفال بإحراق «الهراطقة» البروتستانت، وأطلق يد تلك المحاكم لتقفي كل معلومة أو إشاعة عن أي نشاط بروتستانتي في أي مكان من قشتالة. وكان ترويج الإشاعات عن اختراق البروتستانت قشتالة ذريعة لخنق أي معارضة أو انتقاد أو احتجاج، إذ لم تعتقل المحاكم في قشتالة وأرغون أكثر من ٣٠٠ «مهرطق إصلاحي» في كل سنوات حكم فيليب الثاني. أما الحرب الحقيقية ضد الإصلاحيين فكانت تدور طاحنة دامية في هولندا حيث أحرق عمال محاكم التحقيق الآلاف. وكانت الحرب تلك شاملة لا تنازل فيها ولا هوادة، ولم يكن فيليب الثاني يأتمن الكاثوليكية حتى على البابا كما اتضح عندما سيّر القائد العسكري دوق ألبة إلى الفاتيكان على رأس جيش من ١٢,٠٠٠ جندي فأخضعه. وحين تحركت فرنسا للدفاع عن البابا بيوس الرابع كان الوقت فات، ولم يتمكن قائد الجيش الفرنسي دوق غيز من إحراز أي تقدم في هجومه على نابولي فقال قولته الشهيرة: «لا بد أن الرب أخذ الجنسية الأسبانية».

وبينما كانت البروتستانتية تكتسب مؤيدين جداً بفعل اضطهاد عمّال فيليب الثاني لهم، كان العثمانيون يتقدمون في البحر الأبيض المتوسط ويقدمون المساعدات التي حققت للمتحالفين العرب معهم انتصارات مهمة إنطلاقاً من المواقع البحرية في الساحل المغاربي. وفي عام ١٥٦٠ حاولت أساطيل إسبانيا وإيطاليا احتلال جزيرة

جربة التونسية بغية استخدامها قاعدة للانقضاض على طرابلس. ولم تخفق هذه المحاولة فقط بل شجعت الأتراك على تشديد الضغط على السواحل الأسبانية واقترب اسطولهم من جزيرة ميورقة عام ١٥٦١ مما دفع فيليب الثاني إلى التفكير في إجلاء سكانها. وفي ظل هذه المخاوف التي سيطرت على فيليب الثاني بدأت إثارة مسألة الأندلسيين في كل من غرناطة وبلنسية. وفي حين اعتبرهم بعض مستشاري فيليب الثاني حلفاء طبيعيين للعثمانيين المسلمين مثلهم، أو طابوراً خامساً على الأقل، مما يستوجب الحذر منهم والوقوف معهم موقفاً حازماً، رأى آخرون أن استعداءهم يمكن أن يؤدي إلى مشاكل لا ضرورة لها، لذا أشاروا بأهمية كسب الأندلسيين إلى جانب إسبانيا واستمالتهم.

واستمر الجدل في شأن السلوك الأفضل تجاه الأندلسيين في بلاط فيليب الثاني في الوقت الذي ساد في مملكة غرناطة نفسها جدل آخر أدى إلى زيادة الوضع المعقد أصلاً في غرناطة تعقيداً. ولهذا التعقيد أسباب عدّة أهمها الصراع على السلطة في المملكة ومحاولة كل جهة متنفذة هناك إعلاء مصالحها على الجهة الأخرى خصوصاً ما اتصل من تلك المصالح بالأراضي الأندلسية والتجارة والضرائب. وفي مملكة غرناطة كان الحاكم العسكري على خلاف مع محكمة التحقيق وكانت محكمة التحقيق على خلاف مع المجلس البلدي وكان المجلس البلدي ضد رئيس الأساقفة، وكانت المحكمة العليا تخالف الجميع لأنها تعتقد أن رأيها أصوب الآراء. وتفاقم الصراع بين هذه الأطراف كافة واستاء الغرناطيون فاستنجدوا بفيليب الثاني. وانتظر فيليب طويلاً قبل أن يقرر تحرّي الوضع. ولما أرسل في نهاية التفكير مبعوثاً خاصاً لحل الخلافات بين القوى المتناحرة في غرناطة على الأراضي اشتبك المبعوث مع الجميع وبدا أن تدخلاً شخصياً من جانب فيليب الثاني هو الكفيل فقط بوضع حل لكل تلك المشاكل.[1]

وما هي طبيعة هذه المشاكل؟

يُظهر استعراض الوضع في مملكة غرناطة مطلع عام ١٥٦٨ أن مراكز القوى الأساسية لم تتغير في صورة جذرية خلال أكثر من ٧٠ سنة. وجاء على رأس أهم المناصب في المملكة الحاكم العسكري الذي ظل محصوراً بأسرة مندوزا المتنفّذة منذ أيام تندله. وحمل خلفه في المنصب لقباً إضافياً هو مركيز مندخار، فيما عُرف الحاكم العام الذي تسلّم منصبه عام ١٥٤٣ بلقبين هما مركيز مندخار والكونت تندله الرابع إلا أن اسمه الحقيقي هو إيناغو لويس دي مندوزا. وكان الحاكم العسكري أكثر ارتباطاً

[1] انظر تفاصيل ذلك في: Elliott, J. H. *Imperial Spain (1469-1716)*, (London 1963) pp 228-234.

بالأندلسيين من غيره لأن احدى مهامه كانت تحصيل الضرائب منهم، وكان وجود علاقة عمل جيدة معهم مهمة أساسية بالنسبة له لتسهيل استضافة الجنود في بيوت الأندلسيين خلال أيام السلم لخفض نفقات إعالتهم. وقدم الحاكم العسكري للأندلسيين في مقابل هذا التعاون دعماً محدوداً وشيئاً من الحماية والتوسّط لدى محكمة التحقيق في غرناطة. إلا أن ارتباط مصالح الحاكم العسكري والأندلسيين سبّب ارتباكاً في وضع الأندلسيين فكان يتحسن أو يتردّى بتحسن أو تردّي نفوذ الحاكم العسكري لدى البلاط الملكي. وتمتع الحاكم العسكري في غرناطة بنفوذ قوي حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر، إلا أن أسرة متنفذة أخرى هي اسرة فخاردو بدأت تنافس اسرة مندوزا بعد تلك الفترة. وفي السنوات التي سبقت قيام الثورة الأندلسية الكبرى أثارت ثروة مركيز مندخار الحسد فكثر الخصوم والأعداء وتحسّنت شعبية منافسه مركيز بلش مالقة الثاني، وسارت الاسرتان القويتان في طريق الصدام. وحدث عام ١٥٦٥ أن اعتقلت السلطات ثلاثة أندلسيين ادعت بعد تعذيبهم أنهم اعترفوا بوجود خطة لاستقدام الأتراك[١] إلى قشتالة فاتهم مركيز مندخار بالتقاعس عن أداء واجبه وبدأ الجنود يتعاملون بريبة وخوف مع مستضيفيهم.

أما المركز المهم الثاني فهو منصب رئيس أساقفة مملكة غرناطة الذي سمَته إيزابيلا لطلبيره قبل أن تبعث إلى غرناطة بخيمينس الذي جمّد صلاحيات طلبيره وبدأ محاولة تنصير الأندلسيين التي أدت إلى اندلاع الثورة الأولى. وفي عام ١٥٤٦ تسلم بدرو غيريرو منصب رئيس أساقفة غرناطة وحاول هو الآخر، كما فعل طلبيره من قبله، اتباع سياسة معقولة مع الاندلسيين لكسبهم إلى جانب الكنيسة وأوصى الكنسيين الآخرين بسلوك النهج نفسه لكن جهوده ذهبت أدراج رياح التعصّب. وحدث عام ١٥٦٥ أن رافق غيريرو إلى الاجتماع الكنسي البابوي الذي عُقد في ترنت (بإيطاليا) دييغو دي اسبينوزا رئيس مجلس قشتالة المحقق العام السابق لمحاكم التحقيق. وهناك سمع الإثنان انتقاداً شديد اللهجة من البابا بيوس الخامس (١٥٠٤-١٥٧٢) لمبدأ

[١]كانت مخاوف قشتالة من العثمانيين آنذاك حقيقية، إلا ان السلطات استخدمت البعبع العثماني على نطاق واسع لقمع الأندلسيين واتهمتهم بمساعدة الأتراك وتوفير المعلومات لهم. أنظر بحثاً عن هذه المساعدة في: Monro, J. T., *A Curious Morisco Appeal to the Ottoman Empire*, Al-Andalus 31 (1966), 296.

أنظر ايضاً نص رسالة يُعتقد أن أحد الغرناطيين وجهها إلى العثمانيين لمساعدة الأندلسيين في: «الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين»، ص ٣٤-٣٧. وتاريخ هذه الرسالة اوائل شعبان ٩٤٨ أو الثلث الأخير من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٤١. وفي الرسالة هذه إشارة إلى أن عدد الأندلسيين في إسبانيا كان وقتها ٣٦٤ ألفاً منهم ٥٠ ألفاً في غرناطة، وهو رقم أقل من نصف الأندلسيين الذين قتلوا أو غُربوا إلى قشتالة بعد انتهاء الثورة الأندلسية الكبرى.

«التسامح» الذي تنتهجه الكنيسة القشتالية في مملكة غرناطة وحضهما على تغيير تلك السياسة على الفور .

ولم يكن بيوس الخامس من البابوات العاديين إذ اشتهر بتزمته وعصبيته الكاثوليكية القوية، وسعى إلى فرض معايير ورع صارمة على رجال الكنيسة وعلى الكاثوليكيين في كل مكان . وفي عهد هذا البابا كان زمن المصالحة المسيحية ولّى لذا كان من أشد المعادين للحركة البروتستانتية ومن أشد المتحمسين لجهد مسيحي يتصدى للإسلام . وسيلعب بيوس دوراً حاسماً في تشكيل حلف بين البندقية وإسبانيا لشن حملة بحرية حاسمة ضد العثمانيين عام ١٥٧١ ، إلا أن انتقاده الكنيسة القشتالية لتسامحها مع الغرناطيين في ترنت كان انتقاداً غير مباشر للملك فيليب الثاني الذي لم يكد يسمع تقرير دي اسبينوزا حتى أمر بتنصير الأندلسيين بأقصى سرعة ممكنة وإزالة آخر لطخات الهرطقة من قشتالة . وفي السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٥٦٦ استكملت لجنة مشتركة صياغة بنود مشروع مرسوم آخر «لإصلاح» أحوال الأندلسيين صادق عليه فيليب الثاني وصدر مطلع كانون الثاني (يناير) من ١٥٦٧ .

الأسباب الاقتصادية

قام اقتصاد غرناطة على انتاج الحرير وصناعة الملابس الحريرية والزراعة والتجارة بالمواد الغذائية وغيرها والصناعات الخفيفة والخدمات بسائر أنواعها . وحظرت السلطات على الأندلسيين أي وظائف عسكرية وحكومية ومدنية مهمة ارتبط شغلها بامتلاك شهادة تثبت نقاء دم المتقدم اليها من «شوائب» أصحاب الدماء الأخرى مثل المسلمين أو اليهود، والتأكيد بما لا يقبل الشك أنه من النصارى القدماء أو أنه ينحدر منهم مباشرة . ولم تنطبق هذه المواصفات على معظم الأندلسيين إلا من استطاع منهم الحصول على شهادة مزورة، ولهذا اشتغل الأندلسيون بمهن حرة كثيرة في مملكة غرناطة وخارجها بعضها من النوع الذي يمكن تسميته بـ«الوضيع» . لكن هذه المهن كانت تُدِّر سيولة دائمة فتراكمت ثروة الأندلسيين الذين اشتهروا بالحرص . وكان من بين الغرناطيين عدد كبير من المزارعين إضافة إلى أعداد من التجّار الصغار والحرفيين والعمال الذين كانوا يشتغلون في مصانع تكرير السكر وصناعة الصابون والورق والتبغ . ويبدو أن أندلسيين كثيرين اشتغلوا في الموانىء في تفريغ البضائع ورفعها إلى السفن ونقل البضائع على البغال والحمير وأعمال أخرى متدنية الأجر . وبرع الغرناطيون في صناعة الأقمشة والملابس الحريرية وتجارتها كما تشهد على ذلك سوق

الحرير المشهورة في غرناطة المعروفة باسم «القيصرية»، ووظفوا في هذه الصناعة القسم الأكبر من ثروتهم، واحتفظوا بالباقي ذهباً أو أحجاراً كريمة لسهولة نقلها وإخفائها. وربما وجد الباحث بين الأندلسيين عدداً من الأثرياء لكن غالبيتهم كانت تعيش على مستوى متدن من الدخل، وكان الأندلسيون معروفين بجدّهم ونشاطهم ومهارتهم لذا لم يفتقروا في معظم الحالات إلى عمل يقومون به.

وتواترت الضغوط السياسية والدينية في مملكة غرناطة في وقت عانى فيه الاقتصاد الغرناطي من صعوبات جمّة نتيجة قرارات حكومية سابقة. إذ قررت قشتالة منع تصدير الحرير المصنوع في غرناطة إلى العالم الجديد لدعم هذه الصناعة في مناطق قشتالية أخرى فضرب الكساد الحاد هذه الصناعة. ثم عادت الحكومة عام ١٥٦٢ وفرضت ضرائب عالية على صناعة الحرير لتعزيز دخل الدولة بهدف تمويل الحروب فتضرر المنتجون كافة لكن الغرناطيين كانوا أكبر المتضررين. ولم يستطع القطاع الزراعي في الاقتصاد الغرناطي تعويض العجز الذي سببه تضرر صناعة الحرير نتيجة ارتفاع حاد في حالات مصادرة الأراضي الأندلسية بعد اتهام أصحابها بالهرطقة. وفاقم هذا الوضع شروع السلطات الحكومية في عملية واسعة هدفها إعادة جرد الأراضي الميرية التي ادعى العرش ملكيتها في غرناطة ومصادرة أراض أندلسية زعمت أنها ملك الأمبراطور وصلت مساحتها، حسب بعض التقديرات الحديثة، إلى نحو خمسة آلاف كيلومتر مربع.

وفي تلك الفترة بات معظم الأراضي الأندلسية تابعاً للتاج أو الكنيسة أو محاكم التحقيق أو النبلاء كبارهم وصغارهم، ورافق ذلك استمرار السلطات في فرض ضرائب عالية على الأندلسيين. وخلال هذه الفترة العصيبة كانت السلطات تنتظر استمرار أندلسيي غرناطة في تقديم الدفعات التي اتفقوا على تسديدها لكارلوس الخامس أولاً ثم لفيليب الثاني حتى زاد مجموع ما قدموه بين ١٥١٨ و١٥٦٨ على نحو ٦٢١ مليون مرابطي، أي أكثر من ثلاثة أرباع تكاليف الحرب ضد مملكة غرناطة آخر القرن الخامس عشر. ومع استمرار تردي الأوضاع الاقتصادية لم تعد الأسر الغرناطية قادرة على تقديم الخدمات التي اعتاد عليها الجنود النازلون في ضيافتها فساد التذمر وعم الاستياء من الجهتين. ووجد عدد كبير من الغرناطيين قبيل اندلاع الثورة أنه لم يعد قادراً على تسديد الضرائب الحكومية التي بدأت تزداد بسرعة في ذلك الوقت، ولم يعد حتى راغباً في العمل الذي لم يعد يستفيد شخصياً من معظم الدخل المتأتي منه.

الأسباب الأجتماعية

عاش الأندلسيون منذ تسليم غرناطة غرباءً في وطنهم وتعاملت معهم السلطات كأقلية مشبوهة التصرفات والدوافع ونظرت إليهم الكنيسة كأعداء للكاثوليكية واعتبرت عاداتهم الطبيعية خارجة عن نطاق المألوف ولغتهم العربية لغة نجاسة وامتناعهم عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر من مظاهر العداء للكاثوليكية. وتقود مئات الحالات الموثقة إلى الاستنتاج بأن الأندلسيين كانوا مضطهدين ومراقبين ومشبوهين في كل مكان عاشوا فيه، إلا أن درجة اضطهادهم كانت تتفاوت من غرناطة الى قشتالة الى بلنسية. وكان ارتفاع حدّة هذا الاضطهاد وانحساره يرتبطان بعدد من العوامل المحلية والدولية والاجتماعية والدينية التي واجهت قشتالة خلال القرنين اللذين سبقا نفي الأندلسيين مطلع القرن السابع عشر. وكانت إيزابيلا وحفيد حفيدها فيليب الثاني من بعدها رأس حربة اضطهاد الأندلسيين ممثلة بمعظم هياكل السلطة. وفي الحالات التي خفّت فيها حدّة هذا الاضطهاد لقاء «تقدمات مالية» أو ضرائب إضافية نرى الكنيسة القشتالية تتقدم بسرعة لتأجيجه فينساق وراءها جمهور قشتالة المشتكي دائماً من أن الأندلسيين «مكثرون في الإنجاب والعمل؛ مقلون في الإنفاق». وحتى عندما كانت الكنيسة القشتالية تنشغل بهمومها ومتاعبها الداخلية وتبدأ قبضة رجالها بالتراخي نسبياً، نجد البابوية تتدخل لتتهم الكنيسة القشتالية بالتقاعس عن أداء واجبها الكاثوليكي وتحضها على تجديد الحملة على الأندلسيين.

وهكذا كان استمتاع الأندلسيين بأي قسط من الهدوء النسبي يتطلب وجود الهدوء على الجبهات السلطوية والكنسية والبابوية الثلاث، لكن القرن السادس عشر كان عاصفاً فلم يعرف الهدوء إلا في حالات معينة فقط. وحتى في هذه الحالات المعينة ربما أضافت أسباب اخرى نفسها إلى القائمة الثلاثية. فإذا انشغل الملوك بإشعال الحروب في أوروبة، وانشغلت محاكم التحقيق بملاحقة البروتستانت، وانشغل البابوات بجمع الكتب واقتناء الأثريات وملاحقة أمور الدنيا نجد دائماً أسباباً اقتصادية جلبت الاضطهاد إلى الأندلسيين، لذا لم يكن القشتالي العادي متأكداً دائماً كيف يستطيع أن يضيف أي قسط من الطبيعية إلى تعامله مع الأندلسيين العرب المسلمين وهو لا يزال يشتري صكوك الغفران التي استمرت الحكومة في تسويقها بموافقة البابا لتمويل الحملات ضد الإسلام فإذا بندها في الموازنة الحربيّة الصليبية يخضع إلى مناقلة مفاجئة فتنتهي مخصصاتها إلى تمويل الحروب ضد فرنسا والبروتستانت بدلاً من المغاربيين والمصريين والفلسطينيين.

ونجد في قشتالة سياسة رسمّية وكنسية منتظمة تقوم على استمرار ضمان تردي العلاقات بين الأندلسيين والقشتاليين وتنفير الجانبين من بعضهما باستخدام تشكيلة متنوعة من المخاوف الدينية والعسكرية والاجتماعية. ومرّت أوقات شيّد خلالها الفريقان القشتالي والأندلسي حواجز في الأحياء المشتركة التي كانا يعيشان فيها فصلت بينهما وبين تباينهما فتأتي السلطات وتزيل تلك الحواجز كي يبقى الاحتكاك مستمراً وبالتالي التنافر. وكانت السلطة والكنيسة تفرضان في حالات كثيرة أن يعيش الأندلسيون بين المسيحيين القدامى، لذا نجد الأندلسيين في حال تنقل شبه مستمر. وكان إصرار السلطة والكنيسة على استبقاء عناصر التنفير حيّة يتجلّى في حالات كثيرة فلم يكن يكفي مثلاً توقيع عقوبة السجن بالمذنب الأندلسي أو مصادرة أملاكه، بل كانت السلطات المدنية والكنسية تجبره على ارتداء ملابس أو قبعات بعلامات مميزة معينة كي يعرفه الجميع ويحذروا منه ويتابعوا اضطهاده.

أما بعض العقوبات الأخرى فكان نفسانياً وعلى مدى طويل ومن ذلك اقتضاء بعض العقوبات على النساء منعهن من ممارسة انوثتهن بحرمانهن من التجمّل بالذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة أو حتى ارتداء الملابس الحرير والأقمشة الناعمة. وانتج المجتمع القشتالي المُسمم الآراء والمعتقدات المُسممة مثله فبدا معظم ما يمكن أن يفعله الأندلسي مشبوهاً، وصار همسه صلاة محتملة وتمتمته تعرّضاً للكاثوليكية ووقوفه مع أبناء جلدته مؤامرة يجب الحذر منها. وهبط بعض التأويلات إلى مستوى الهذر فمثلاً تعوّد الأندلسيون تناول الخضر والفاكهة بحكم العادة والطبيعة فيما أقبل القشتاليون على اللحم المقدد. وكان تباين المأكول أحد أسباب عافية الأندلسيين، لكن طلع من القشتاليين من يدعي أن الأندلسيين يمارسون السحر والشعوذة لإطالة أعمارهم.

ويجب دائماً تفادي إطلاق الإتهامات الشاملة التعميم فمن بين الإسبان والإسبانيات من أحبّ الأندلسيين وحماهم وتعاطف معهم وأخفاهم في بيته وتستّر على ممارساتهم بالكذب على السلطات الحكومية والكنسية وحتى على عمّال محاكم التحقيق، لكن يجب ألا تخفي هذه الاستثناءات قاعدة واسعة جداً ضمّت القسم الأعظم من الإسبان. ويمكن في حالات معينة فهم سبب مخاوف القشتاليين العميقة لأن الصراع مع الأندلسيين لم يكن فقط صراعاً دينياً وحضارياً بل أيضاً صراعاً على الأرض مردّه الخوف من أن يتمكن الأندلسيون يوماً من استرداد الأرض التي انتزعها الإسبان منهم. ومن السهل بعد أخذ كل هذه العوامل في الاعتبار معرفة السبب الذي حوّل الإسبان إلى أكبر جهاز مخابرات في العالم آنذاك فكان معظمهم عيون وآذان

السلطة ومحاكم التحقيق. وشجع حماس عمّال المؤسستين لملاحقة أتفه الاتهامات جمهوراً واسعاً من الإسبان على التمادي في الوشاية فصار تناول وجبة الكسكسي المغربيّة مظهراً عروبياً يستأهل التحقيق، ومثله الجلوس على الأرض والنوم على المرتبات بدلاً من الأسرّة، والاغتسال وعشرات العادات الطبيعية الأخرى. وفي هذا الجو المشحون بالتجسس والنميمة والترصّد والتسابق على الوشاية، بات ممكناً اتهام الزوجة القشتالية زوجها الأندلسي بمعاداة الكاثوليكية إن نفر من فراشها، واتهام القشتالي جاره الأندلسي بالعداء للدولة إن اشتكى من الضجيج، واتهام رب العمل عامله الأندلسي بالتوجه إلى الصلاة إن غاب يوم الجمعة، واتهام الأندلسي بمعاداة الملك إن اشتكى من ارتفاع الضرائب.

ونجد عدداً كبيراً من الحالات التي تقصّد فيها القشتاليون الإيقاع بالأندلسيين فربما لا يدعو القشتالي جاره الأندلسي إلى بيته لتناول الطعام طول السنة لكن ما أن يحل شهر رمضان حتى تنهمر على الأندلسي الدعوة تلو الأخرى من جار تلو الآخر، وكان يكفي ان يعتذر الأندلسي عن تناول الطعام مرتين أو ثلاثاً لاتهامه بأداء فريضة الصوم وسوقه إلى محاكم التحقيق. وخارج رمضان كان قشتاليون كثيرون يتعمّدون عرض الخمر على الأندلسيين أو تقديم لحم الخنزير أو الطعام المطبوخ بهذا اللحم. وكان الاعتذار عن شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير سبباً لاتهام الأندلسيين بنبذ الكاثوليكية والتزام الإسلام. وتوجد حالات كثيرة سعى فيها القشتاليون إلى إثارة الأندلسيين لدفعهم إلى التعبير عن مكنونات صدورهم في لحظات غضبهم والوشاية بهم إلى السلطة أو إلى عمّال محاكم التحقيق. إلا أن هناك استغلالاً واضحاً حتى لحالات إنسانية بحتة فيكفي اتهام الأندلسي بالهرطقة إن نطق فجأة بكلمة «الله!» إن رأى شخصاً يقع أمامه. وفي الامكان تصوّر حالات كثيرة من الوشاية الافترائية التي كان غرضها الأساسي الغيرة والحقد ومحاولة السطو على أملاك الأندلسيين أو استضعاف زوجاتهم أو بناتهم.

وربما أعطى ما تقدم الانطباع بأن الهوة التي فصلت معظم الأندلسيين عن معظم القشاتلة كان أساسها الدين، غير أن الوقائع تثبت أن الدين كان مظهراً واحداً. فحتى لو أصبح الأندلسي كاثوليكياً صالحاً كان من السهل اللجوء إلى الاختلاف العرقي، لذا لم يكن هناك فرق هائل لدى القشاتلة في تعيير الأندلسي بأنه مسلم أو عربي. وكانت الصفتان مشتركتين تكمّل احداها الأخرى ويمكن بسهولة ومن دون وعي أحياناً استخدامهما كمفردتين في قاموس ادانة الأندلسيين الواحد. ونجد في بعض وثائق

محاكم التحقيق عدداً من الأمثلة على ذلك فها هي إيزابيلا الأَمَة الأندلسية القاطنة في مدريد لم تستطع ضبط أعصابها والسيطرة على غضبها عندما شتمها أحد الإسبان بالقول: أنت كلبة العرب فردت عليه: «نعم! أنا عربية؛ وأبي وأمي كانا عربيين، وأنا عربية وسأموت عربية».[١] وفي مثال آخر يتعرض أهل قرية تيناخاس من أعمال مدينة قونقة لصبي أندلسي فيعيرونه بوصف «العربي» فتتأثر أمّه وتصيح غاضبة وهي تمسك بيده: «العربي أفضل من المسيحي» فإذا بها تُرمى في السجن وتكبل قدماها بالحديد وتُصادر كل أملاكها.[٢]

أما الذي كان يثير بعض القشتاليين أكثر من أي شيء آخر فهو حب الأندلسيين للمرح على رغم كل الضغوط. وحتى في الحالات التي وصل فيها التقييد والحصار إلى الأوج كان الأندلسيون ينظمون حفلات الرقص والغناء والطرب، ويتابعون الحياة في الصورة التي يقدرون عليها. إلا أن أحوال الأندلسيين تردت فجأة وبسرعة في الفترة التي سبقت انفجار الأزمة ووجدوا أمامهم مرسوماً جديداً قيدهم من لحظة الولادة إلى لحظة الموت، ووضعهم تحت المراقبة في الطريق والعمل والبيت، ولم يعد في استطاعتهم حتى إغلاق أبواب بيوتهم إذ كان من حق أي قشتالي الوقوف بالباب ومراقبة ما يفعله أهل الدار. وبعد تخريب العلاقات بين الأندلسيين والقشتاليين جاء دور تخريب العلاقات بين الأندلسيين انفسهم فساد تشجيع الأولاد والبنات على الوشاية بآبائهم، والاخوة بالأخوات، والجار بجاره وبدت قدرة السلطة والكنيسة على الضغط على الأندلسيين بلا نهاية أو حدود أو أخلاق أو رحمة.

الأندلسيون والكنيسة

انتظرت الكنيسة القشتالية تحوّل الأندلسيين إلى كاثوليك عن اقتناع ورضى وطيب خاطر، ثم غيّرت سياستها فرغّبت بالمال والهدايا والوعود ثم رهّبت بمصادرة الأرض والحرية والسجن والحرق من خلال محاكم التحقيق. وكانت الكنيسة القشتالية على رأس المنادين بتنصير الأندلسيين إلا أنها لم توفر الامكانات التي يمكن ان تساعد على تحقيق هذا الهدف. وحاول بعض الكنسيين (طلبيره مثلاً) ترجمة الإنجيل فعارضه رئيس أساقفة طليطلة. وكانت المواجهة الجدلية الكاثوليكية مع الأندلسيين تتطلب

---

[١] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، لوي كارდياك، ترجمة عبد الجليل التميمي، (زغوان، ١٩٨٣)، ص ٢٣.

[٢] أعلاه، ص ٢٤.

كنسيين مقنعين أول مواصفاتهم التمكّن من العربية (لغة من تريد تنصيرهم) إلا أنها لم تستطع تأمين ذلك وظلت غرناطة بلا رئيس للأساقفة سنوات طويلة، ولم تكن المواجهة الجدلية مجدية أو حتى ممكنة فيما المخطط القشتالي الخاص بالأندلسيين مخطط استئصالي.

وفي التاريخ الإنساني أمثلة كثيرة تثبت أن الاضطهاد الديني لم يقف في وجه انتشار دين المضطهدين بل ساهم في حالات كثيرة في تعزيزه في نفوس أصحابه وتعميمه على الآخرين. لذا يمكن التساؤل لماذا لم يتذكر خيمينس ورهطه، بل الكنيسة القشتالية كلّها، أن اضطهاد الرومان المسيحيين الأوائل كان بداية الطريق إلى نصرنة الأمبراطورية الرومانية؟. ولا نجد في تاريخ مساعي النصرنة القشتالية اجابة فربما لم تكن معرفة أبسط أحداث تاريخ النصرانية شرطاً مُسبقاً لشغل منصب مثل رئيس أساقفة طليطلة. ولا شك في أن نجاح الأندلسيين في بناء شبكة سرية هائلة عملت على تعزيز الشعور الديني الإسلامي وتبادل المعلومات والكتب الدينية، وحتى أسلمة بعض القشتاليين أو إعادة بعض الأندلسين المتنصرين إلى الإسلام، أفشل المساعي القشتالية المضادة. ولا شك في أن تمسك الأندلسيين بدينهم واستعدادهم في معظم الحالات للموت في سبيل معتقداتهم هو الذي وقف أمام محاولات التنصير القشتالية الجماعية. إلا أن الأندلسيين ربما كانوا محظوظين لأن سعاة تنصيرهم في قشتالة كانوا على شاكلة خيمينس الذي جاء غرناطة وأهلها يصلّون ويصومون ويعتزّون بعروبتهم، وغادرها وهم لا يزالون يصلّون ويصومون ويعتزّون بعروبتهم، وسنجدهم يصلون ويصومون ويعتزون بعروبتهم علناً يوم جمعتهم السلطات القشتالية لنفيهم بعد مئة وسبع سنوات من صدور مرسوم تنصير الأندلسيين الأول.

وما الذي جاء في مرسوم عام ١٥٦٧ ولم يأت به مرسوم ١٥٠٢؟

اختلف مرسوم الأول من كانون الثاني (يناير) عام ١٥٦٧ عن كل المراسيم السابقة لسببين: الأول أنه كان مرسوماً شريراً، والثاني إصرار فيليب الثاني على تطبيقه بحذافيره مهما كانت النتيجة. ومنع هذا القانون استخدام اللغة العربية منعاً باتاً، مثل سابقيه، لكنه فرض على الأندلسيين إتقان التحدث بالقشتالية خلال ثلاث سنوات. ومنع هذا المرسوم الوضوء، مثل سابقيه، لكن الأندلسيين كانوا يستعيضون عن الوضوء بالتحمم فجاء المرسوم الجديد ومنع الأندلسيين من دخول الحمامات. وتدرج المرسوم في محظوراته من المهد إلى اللحد فنص على وجوب إتمام كل مراسم الزواج والولادة والموت وفق طقوس الكاثوليكية من ساعة سريان المرسوم، وحظر الختان

حظراً تاماً لأي سبب. وبعدما ضمن الزام الأحياء بنصوص الرسوم، انتقل إلى الأموات فكان يتعين على الأندلسيين أن يدفنوا موتاهم في نعوش مغلقة وفق طقوس قشتالة. وفرض حضور قابلة قشتالية مسيحية ولادة أطفال الأندلسيين، ووجوب إبقاء الأبواب مفتوحة. كما حظر ارتداء الملابس التقليدية والوقوف في اتجاه القبلة والزواج من أكثر من امرأة واحدة واستخدام الحناء. وحرم هذا المرسوم الأندلسيين من حق اللجوء إلى الكنائس طلباً للأمان فخرجت الكنيسة بذلك عن تقليد تمتعت به كنائس أوروبة منذ قيامها.

وفيما بدأ الأندلسيون المفاوضات مع السلطة لإعادة النظر في المرسوم، استمر معظمهم في تجاهله وتابعوا حياتهم كما تعودوا فإذا احتفلوا بقران في الكنيسة كانوا يعودون إلى بيوتهم ويتابعون احتفالهم على طريقتهم. وإذا عمّدوا طفلاً عادوا إلى البيت وغسلوا رأسه وسبّعوا. وإذا حان أجل أحدهم كانوا يخفون الأمر عن الكنيسة ويصلّون عليه بعد موته ثم يذهبون إلى الكنيسة ويقولون ان قريبهم مات على حين غفلة ولم يتمكنوا من استدعاء القسيس في الوقت المناسب. وتراكمت لدى السلطة تقارير عن هذه المخالفات فأوقفت المفاوضات مع الأندلسيين، ثم صدر الأمر بتعيين بدرو دي ديثا Pedro de Deza رئيساً للمحكمة العليا في غرناطة ودخل الطرفان مرحلة صدام تصاعدت حدته بسرعة عندما انقلب رئيس أساقفة غرناطة غيريرو من تبنّي سياسة الإقناع إلى الإكراه. ورافق هذه التحولات ازدياد سريع في مصادرات أراضي الغرناطيين لأسباب شتّى حتى انحصرت بسفوح جبال البشرات وجبال الجنوب الأخرى يزرعون في تلك المساحات الصغيرة ما يسد حاجتهم من الغذاء الضروري وما يوفر لهم بعض الإنتاج الإضافي الذي كان يُباع في القرى والمدن المجاورة.[1] لكن وضع أهل مدينة غرناطة كان سيئاً للغاية مع استمرار تدهور صناعة الحرير وارتفاع الضرائب المفروض عليه فكسد البيع في القيصرية[2] وضاق العيش.

وبذل مركيز مندخار جهداً اخيراً عندما رفع إلى فيليب الثاني يرجوه تأجيل تنفيذ المرسوم فترة لكن حظه لم يكن أفضل من حظ بعض مستشاري الملك الذين سبق أن تقدموا باقتراح مشابه. وهنا توجه وفد أندلسي إلى بلاط فيليب الثاني لاستعطافه فصرفه فعاد إلى غرناطة يجر أذيال الخيبة التي تحوّلت بسرعة إلى يأس ونقمة. «لو

---

[1] يقول ماكسويل إن منتوجات جبل البشرات من الحرير والزيتون والفاكهة والجبن كانت مشهورة في أسواق غرناطة وفي كل الأندلس. Maxwell, Sir W.Stirling. *Don Juan of Austria*, Part 1, pp 126-128.

[2] كان سوق القيصرية خاصاً بتجارة الحرير في زمن الأندلسيين وبقي في صورته الأولى حتى احترق سنة ١٨٤٣ ثم أعيد بناؤه وفق الطراز القديم وهو اليوم قبالة الكنيسة الملكية التي تحتوي رفات إيزابيلا وفرناندو.

توافرت حكومة حكيمة وصادقة تحترم التعهدات التي أعطيت لدى تسليم غرناطة لتجنبت مخاطر هذه النقمة الخفيّة لكن حكام أسبانيا لم يتصفوا بالحكمة ولا بالصدق في تعاملهم مع الموريسكيين، بل أصبحوا أكثر قسوة وخداعاً مع مرور الوقت. . . لكن تجريد شعب بالجملة من مقوماته فاق الحد الذي يمكن أن يقبل به أي شعب، ناهيك عن شعب انحدر من أمثال المنصور وعبدالرحمن وابن السراج. وذات يوم نشب شجار بين الأندلسيين وبعض جباة الضرائب المحتالين فالتهبت المواد الهشة التي كانت مستعدة للاشتعال منذ زمن طويل، وقام بعض الفلاحين على الجنود المستضافين في مساكنهم فقتلوهم، وجمع صبّاغ من غرناطة يدعى فراس بن فراس Farax Aben Farax عصبة من الناقمين وفر إلى الجبال»[١]، والتحق بزعيم الثورة ابن أميّة.[٢]

٣- الثورة الأندلسية الكبرى

في الخامس عشر من نيسان (أبريل) عام ١٥٦٨ بدأت اضطرابات محدودة في جبل البشرات تمكن جنود مركيز مندخار (الحاكم العسكري) من انهائها بسرعة. ومكّن الهدوء النسبي الذي لحق ذلك بدء انتقال أعداد من شبان مدينة غرناطة الى الجبال سراً للتدرّب على استخدام السلاح. وفي الثالث والعشرين من كانون الاول اعتقد الثوار ان عددهم كان كافياً للقيام بالخطوة التالية فشنوا هجوماً مباغتاً على مدينة غرناطة فيما كانت حاميتها تستعد للاحتفال بعيد الميلاد. وتمكن الثوار بقيادة فراس بن فراس من التوغل في المدينة والاشتباك مع جنود مركيز مندخار إلا أنهم لم يتمكنوا من أخذ المدينة فانسحبوا وعادوا إلى البشرات بعد ايقاع خسائر كبيرة بجنود الحامية، وبدأوا إزالة كل أشكال السلطة والكنيسة القشتالية في المراكز المحررة. وحيال هذا التطور أصدر فيليب الثاني أوامره الى مركيز مندخار بإخماد ثورة البشرات فقاد جيشاً من حوالي أربعة آلاف جندي إلى الجبال إلا أنه لم يشتبك معهم وبدأ بدلاً من ذلك مفاوضات لوقف الثورة آخذاً على عاتقه محاولة إقناع الملك فيليب الثاني برفع الضغوط عن الأندلسيين.

---

[١]. Lane-Poole, Stanely. *The Moors in Spain*, pp 272-274

[٢] يرد اسمه في معظم المصادر الإسبانية «ابن هميّة»، وله إسم قشتالي هو هرناندو دي بالور Hernando de Válor. ويُقال في التاريخ الإسباني أن ابن أميّة (ولد في قرية من قرى جبل البشرات عام ١٥٢٠) كان من عليّة الغرناطيين، ويذهب بعضهم إلى القول انه من نسل خلفاء قرطبة.

وأوقف الأندلسيون العمليات العسكرية فيما بدأ المركيز اتصالاته لاقناع الملك باعطاء الثوار فرصة إلا أن فيليب رفض الفكرة وأمر المركيز بقمع الثورة وضرب زعمائها ليكونوا عبرة لغيرهم ليس فقط في الجنوب وإنما في ممالكه الاخرى قاطبة. وفي هذه الأثناء أقدم بعض جنود المركيز على مذبحة في مدينة جبيل Jubiles راح ضحيتها عدد من الأندلسيين، وتعرضت مدينة لورة Laroles إلى هجمات مماثلة وفقد المركيز السيطرة على جنوده فأخذ هؤلاء يمارسون أعمال القتل بلا حساب فتحرّك الأندلسيون بسرعة وبسطوا سيطرتهم على البشرات. وفي غرناطة نفسها وصلت إلى الحامية إشاعات عن قيام الثوار الأندلسيين بقتل ٩٠ قسيساً و ١٥٠٠ قشتالي فهاجم الجنود سجن البيازين وذبحوا مئة وعشرة أندلسيين كانوا فيه. «ولما سار مندخار الى السجن مع حراسه لإخماد الاضطراب قابله القائد بقوله: هذا غير ضروري فالسجن هادئ لأن جميع الأندلسيين أموات». [1] وأمام انفلات الوضع أقرّ مركيز مندخار بعجزه عن السيطرة على الوضع ووضع نفسه تحت إمرة فيليب الثاني. وكانت نار الثورة بدأت تستعر بسرعة وتنتشر في مناطق جديدة في الجنوب عندما بدأ الملك تدارس الوضع مع مستشاريه العسكريين.

دون خوان النمسوي

جاءت ثورة الأندلسيين في سنة من أسوأ سنوات حكم فيليب الثاني، اذ كانت انتفاضة الهولنديين على أشدها منذ اندلاع الاضطرابات هناك قبل سنتين، وبدأ العثمانيون يحققون الانتصار تلو الآخر في البحر الأبيض المتوسط وراحوا يهددون شواطئ ممالكه هناك. وفي تلك السنة أيضاً اندلعت الثورة في قطالونيا وقطعت أساطيل البروتستانت الطرق البحرية الى خليج بسقاية، ثم فقد فيليب زوجته المفضلة ماري ومات ابنه ووريثه دون كارلوس في السجن الذي أودعه فيه والده بعدما ظهرت

---

[1] Lane-Poole, Stanely. *The Moors in Spain*, pp 272-274. ويسوق لوي كاردياك في كتابه «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون» (ص ٢٩) مثالاً على النتائج المأساوية التي يمكن أن يولّدها الخوف فيقول: «في غرناطة مثلاً وجد المسيحيون والموريسكيون في نفس السجن وقد عمّت المسلمين حالة عميقة من الهيجان، وخشي المسيحيون القيام بانتفاضة وكانوا قلقين على حياتهم وهذا ما دفع إلى أخذ المبادرة بالسبق وقتلهم مائة وواحد عشر موريسكياً». ونستغرب أن يتمكّن السجناء القشاتلة من قتل هذا العدد الكبير من الأندلسيين بأيديهم ومن دون أن يتمكّن الأندلسيون من قتل أي من مهاجميهم. وإذا كان السجناء القشاتلة مسلّحين علينا أن نتساءل من أين حصلوا على الأسلحة. ولا نستبعد أن يكون الهدف من رواية وضعتها محكمة التحقيق في غرناطة في خصوص ما حدث للأندلسيين في السجن رفع مسؤولية فيليب الثاني عن المذبحة عن طريق تحميلها للسجناء.

عليه علائم الجنون. وخشي فيليب الثاني أن يستفحل خطر الثورة ويستغل العثمانيون استمرارها لمهاجمة صقلية والجزائر الشرقية وربما الجنوب الأندلسي فاختار لمهمة القضاء على الثورة أخاه دون خوان النمسوي الذي كان زنوة والده كارلوس الخامس مع محظيّة هولندية. ولم يكن دون خوان وقتها تجاوز الثانية والعشرين، لذا عيّنه رئيساً للمجلس الحربي لكنه لم يطلق يده في اتخاذ القرارات التي يشاءها، وربط ذلك بموافقة جميع أعضاء المجلس الذي تألف من مركيز مندخار، ودوق سيسه (حفيد غونثالو القرطبي «القبطان العظيم»)، وبدرو دي ديثا رئيس المحكمة العليا المقرّب من الكردينال اسبينوزا رئيس مجلس قشتالة، ثم لويس كيخادا الذي كان مرافقاً خاصاً للملك فيليب الثاني[١]. وأوصى فيليب الثاني دون خوان بضرورة اتخاذ قرارات المجلس بالإجماع، وإذا لم يتحقق هذا يجب عليه العودة إليه لاتخاذ القرار النهائي.

وغادر دون خوان مدريد في السادس من نيسان (إبريل) عام ١٥٦٩ وجرى لدى وصوله إلى غرناطة احتفال كبير شارك فيه الأندلسيون. وتجاهل دون خوان مستقبليه الأندلسيين وتوقف في الطريق إلى بعض النساء القشتاليات اللواتي كن يرتدين ملابس الحداد على اقربائهن، فأبدى تعاطفه ووعدهن بالانتقام السريع. وفي اليوم التالي زاره وفد من عرب المدينة يشتكون إليه جور السلطة ومضايقات الجنود النازلين في ضيافتهم فطلب منهم رفع تقرير رسمي بذلك يتضمّن ما يمكن إثباته بشهود

وكان اللقاء جافاً والتوعّد ظاهراً فخرج الأندلسيون وهم يتوقعون الأسوأ. وكان على دون خوان التحرّك بسرعة للقضاء على الثورة خوفاً من انتقالها إلى الأندلسيين في أرغون. ولما عرض دون خوان على أعضاء المجلس هذا الرأي أخذوا به لكنّ مركيز مندخار عارضه وأعرب عن اعتقاده أن التفاوض وليس الحرب هو طريق إنهاء الأزمة. وأمام هذا الموقف نشد المجلس موافقة فيليب الثاني فكتب إليه دون خوان رسالة مُطوّلة أوصى فيها بالحزم في التعامل مع الثوار، وتعهد لأخيه بالقضاء على الثورة سريعاً إن اعطاه الصلاحيات وأطلق يديه.

وكان دون خوان واثقاً أن فيليب سيأخذ برأيه فاستبق الموافقة وبدأ تنظيم الجيش، وراح يراسل النبلاء في الجنوب لمدّه بالرجال والسلاح والتجمع في غرناطة استعداداً لبدء العمليات العسكرية. واحتشد الجند واستعدوا فيما انتظر دون خوان جواب فيليب. إلا أن الانتظار طال، ولم تكن هناك فائدة من استعجاله لأنّه لم يكن يحب الاستعجال في شيء. واستغل الأندلسيون تردد الملك فالتحق بالثوار عدد كبير من

---

١ Plaidy, Jean. *The End of the Spanish Inquisition*, Star, (London 1961) p 194.

المتطوعين حتى صار قوامهم نحو عشرة آلاف مقاتل، وبدأوا يشنون الهجمات على مواقع القوات القشتالية فاستملكوا عدداً منها، ثم نقلوا الحرب إلى مناطق قريبة من مدينة غرناطة ودارت معارك بينهم وبين القشتاليين قرب الأسوار. وسرت في القشتاليين المخاوف من إنقلاب الإندلسيين الغرناطيين عليهم فتشددوا في معاملتهم مما أدى إلى فرار بعضهم من المدينة والالتحاق بمعاقل الثوار. وخلال فترة قصيرة اتسعت الرقعة التي بسط عليها الثوار نفوذهم حتى شملت معظم المناطق المحيطة بمدينة غرناطة.

ووصلت أخيراً أوامر فيليب الثاني آخذاً في الاعتبار معظم توصيات أخيه لكنّه أمر بشطر القوات التي تجمّعت شطرين أسند قيادة الأول إلى مركيز مندخار والثاني إلى منافسه مركيز بلش مالقه، لكنه حظر في الوقت نفسه على دون خوان الاشتراك في أي عمليات عسكرية. وتوجد تفسيرات عدّة لهذا القرار يبدو أن الأقرب منها إلى القبول غضاضة دون خوان والخشية من أن يتسبب مقتله في إعطاء الأندلسيين نصراً معنوياً كبيراً يقوّي شوكتهم ويشجع أندلسيين آخرين على الانضمام إليهم. وربما كان الأهم من قرار فيليب الثاني منع دون خوان من المشاركة في القتال هو وضع مركيز بلش مالقة في صف مركيز مندخار. واعتبر باقي أعضاء المجلس هذا التكليف تشكيكاً من الملك بمركيز مندخار فانهزّت الثقة به وخضعت قراراته للمساءلة وتصرفاته للمراقبة.

بداية حروب المقاومة الأندلسية

حاول مركيز بلش مالقة إثبات تفوّقه على منافسة مركيز مندخار فور تسلّمه قيادة المنطقة الشرقية فتوغل بجنوده سريعاً في جبل البشرات واحتل ممر رباحة الاستراتيجي لقطع الإمدادات عن الثوار. لكنّ مركيز بلش مالقة لم يحفظ المداخل فطوّق الثوار الممر وعزلوا الجنود ونشبت معارك متقطعة مُنيت قوات المركيز فيها بخسائر كبيرة اضطرتها إلى الإنسحاب وإعادة التمركز في بلدة برجة الواقعة على الجنوب الشرقي من جبل الثلج (نيفادا). وتقدم الثوار إلى البلدة فحاصروها لكن جنود المركيز تمكّنوا من صدهم وألحقوا بهم الخسائر فكبس المركيز على الثوار مستغلاً تراجعهم. ولم ينتبه المركيز إلى امتداد الثورة إلى البلدات الواقعة على نهر المنصورة إلا بعد فوات الأوان فارتدّ إلى مدينة عدرة الواقعة على الساحل جنوبي برجة وبعث يطلب مدّه بالجنود من الجهة الوحيدة المفتوحة أمامه وهي البحر. وذاعت أنباء انتصارات الثوار فتحمّس الأندلسيون في المناطق المحيطة بمدينة الحامة وقاموا على القوات القشتالية فانسحبت

من أرياف المنطقة ومعها المليشيات القشتالية وتحصنت وراء أسوار المدن. وعمّت بعدها الانتفاضة الجنوب، وبدأ الأندلسيون مناوشات عسكرية حول بعض أهم مدن مملكة غرناطة مثل مالقه وبلش مالقة ومطريل Motril والمنكب Almunecar.

وفاجأ تسارع الأحداث دون خوان فبعث إلى فيليب الثاني يستعجله إمداده بقوات إضافية فأصدر أوامره إلى القائد الأعلى ريكويسنس بوقف مسير جيش من الجنود المحترفين إلى إيطاليا لتعزيز القوات الإسبانية تحسّباً من هجوم العثمانيين، والتوجه على الفور إلى الجنوب لقمع الثورة في جبال الحامة. واشتبكت قوات ريكويسنس مع الثوار وارغمتها على التراجع، ثم هاجم مدينة فرجالة Frigiliana التي كانت وقتها من أقوى معاقل الثوار.[1] وحاول ريكويسنس اقتحام المدينة مرات عدّة فمُني بخسائر كبيرة أجبرته على ضرب الحصار حولها. وخرج الثوار الأندلسيون من المدينة إلى القوات القشتالية لكسر الطوق عنها فدارت معركة عنيفة انضمت خلالها مليشيات مالقة إلى قوات ريكويسنس فقلبت الميزان وانكسر الثوار فاقتحمت القوات المشتركة المدينة. وفي التاريخ الإسباني أن قوات ريكويسنس والمليشيات فقدت في المعارك التي دارت على مشارف فرجالة نحو ٦٠٠ شخص لكنها تمكنت من قتل ألفين إلى ثلاثة آلاف أندلسي في حين تمكّن نحو ألفي أندلسي من الانسحاب والالتحاق بمعكسر ابن أميّة. واشتركت الأندلسيات إلى جانب الرجال في محاولة منع القوات القشتالية من دخول فرجالة لكن المؤلف الأميركي برسكوت يقول إن جماعات من النساء الأندلسيات فضّلن بعد اقتحام المدينة الانتحار برمي أنفسهن من على الأسوار والشواهق تخلّصاً من الاغتصاب والسبي الذين كان ينتظرهن.[2]

ورد الثوار على سقوط فرجالة في منتصف سنة ١٥٦٩ بهجوم شنّه نحو خمسة آلاف ثائر على مدينة سيرون Seron التي كانت احدى المدن التي بقيت بيد القشتاليين في وادي نهر المنصورة الواقع شمال مدينة المرية. وأخفق الثوار في أخذ المدينة نتيجة المقاومة العنيفة التي أبدتها الحامية بقيادة ميرونس Mirones، فضرب عليها الثوار الحصار في الثامن عشر من حزيران (يونيو) من السنة ذاتها وقطعوا طرق تموينها. وكان دون خوان كتب إلى فيليب الثاني يقترح عليه نفي سكان مدينة غرناطة بموافقة دي ديثا عندما وصلت إليه أنباء حصار سيرون فأمر قائداً عسكرياً يُدعى ألونصو كربخال

---

[1] Frigiliana أو Fraxiliana الواقعة على بعد عشرة كيلومترات شمال نرجة Narja بين مطريل ومالقه.

[2] وضع و. هـ. برسكوت سيرتين تتمتعان بقيمة أدبية ملحوظة: أولاهما عن إيزابيلا وفرناندو نشرها عام ١٨٤٢، والثانية عن فيليب الثاني نشرها عام ١٨٥٩. ويورد برسكوت تفاصيل كثيرة عن الثورة في الكتاب الخامس من سيرة فيليب الثاني – الفصول: السادس والسابع والثامن.

بالتوجه لرفع الحصار. لكن فيليب كان سمع بالحصار أيضاً فأمر مركيز بلش مالقة بتولي مهمة انقاذ الحامية. ولا نعرف سير الأحداث بعد ذلك، إلا أن رواية إسبانية تقول إن المدينة استسلمت فدخل الثوار وقتلوا جميع من تخطّى الثانية عشرة من العمر وأسروا النساء والأطفال.

مواجهة الثورة الأندلسية

انتقم دون خوان لسقوط سيرون بنفي معظم سكان مدينة غرناطة وامتد هذا الانتقام إلى المسؤول الوحيد الذي أبدى بعض التعاطف مع الغرناطيين فجرّد دون خوان مركيز مندخار من معظم صلاحياته بعد موافقة فيليب الثاني. وصغر شأن المركيز بعد ذلك وضعفت نفسه ومات قبل نهاية السنة. وكان دون خوان يعتقد أن قيادة القوات القشتالية ستؤول إليه إلا أن فيليب أصر على موقفه السابق وأسند هذه المهمة إلى مركيز بلش مالقة. وهنا استاء دون خوان من هذه الخطوة وبدأ حملة لعزله فكتب إلى فيليب الثاني يذكّره باخفاقاته العسكرية وضمّ إلى صفه ريكويسنس الذي أوصى في كتاب إلى الملك فيليب بعزل مركيز بلش مالقة فاستجاب وأمر بما اقترحاه. وفيما انشغل دون خوان بإزالة العقبة الأخيرة التي وقفت بينه وبين قيادة الجيش، نقل الثوار عملياتهم إلى الجبال الغربيّة. واسند بن أميّة قيادتهم إلى أخيه الغالب، وانحسرت سلطة جنود فيليب الثاني في الجنوب، وفقدوا السيطرة على أغلب الأرياف.

وإزاء هذه التطورات اقترح دون خوان على أخيه خطة شاملة للقضاء على الثورة شرط إمداده بالقوات، فوافق فيليب الثاني وعهد إلى دون خوان إعادة تنظيم الجيش في انتظار وصول التعزيزات. وتولّى دون خوان قيادة المنطقة الشرقية مؤقتاً، فيما تسلّم دوق سيسه مهمة حراسة الطرق والممرات المؤدية إلى غرناطة من جبل البشرات. وفيما كان دون خوان يعيد تنظيم قواته تمرّد قسم من حامية غرناطة، إذ نزل هؤلاء في ضيافة القشتاليين بعد تهجير الأندلسيين من المدينة لكنهم لم يجدوا معاملة مشابهة فعمّ الاستياء وتطاولوا على مستضيفيهم محتجّين على نوع الطعام المقدّم لهم والخدمات القليلة الممنوحة لهم. وأثار احتجاجهم استياء القشتاليين فشكوا الجنود الى السلطة وتوقفوا عن خدمة جنود الحامية فأعلن هؤلاء العصيان. وبعد التحقيق في الأسباب طرد دون خوان ٣٧ ضابطاً من أصل ٤٥ وأعاد السيطرة على الجنود واتخذ غرناطة مقراً عاماً، وبدأ الجنود وقوات المليشيات يتدفقون على غرناطة من المدن القشتالية القريبة، وبات المسرح معداً لشن الهجوم الأخير قبل أن يحل الشتاء بثلوجه ويمنع

حركة الجنود، الأمر الذي كان سيؤدي الى تأجيل الحملة ضد الثوار حتى الربيع .

ونحو نهاية عام ١٥٦٩ استغل الأندلسيون تباطؤ حركة الجيش بسبب الشتاء وقطعوا بعض خطوط التموين مع الشمال فاضطر دون خوان إلى تحريك قواته وشن سلسلة من العمليات العسكرية لإعادة فتح هذه الخطوط لكن استمرار بقائها مفتوحة اقتضى اقتحام مركز كان الأندلسيون يستخدمونه للإغارة على تلك الخطوط . وهكذا قاد دون خوان جيشاً من الجنود والمليشيات وحاصر مدينة غاليرا Galera الواقعة إلى الشمال الشرقي من بسطة في التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) عام ١٥٧٠ . واستمر هذا الحصار نحو الشهر جرت خلاله مفاوضات لتسليم المدينة لقاء عهود قطعها دون خوان على نفسه بالإبقاء على أرواح أهلها وأملاكهم لكن ما أن دخلها حتى «أمر بقتل جميع سكان المدينة المقدّر عددهم بحوالي ثلاثة آلاف بعد اغتصاب نسائها . ووصلت أعمال القتل والإغتصاب إلى قدر فظيع من الوحشية أرهق الجنود فتفرقوا في كل الاتجاهات صباح اليوم التالي عندما وصلت مجموعات من الأندلسيين لنجدة أهل المدينة . وحاول دون خوان إعادة تنظيم جنوده وقوات المليشيات إلا أنه أخفق في ذلك مرات عدّة وكاد يهلك خلال محاولاته تلك» .[١]

وبقي دون خوان في غاليرا حتى مطلع شباط (فبراير) عام ١٥٧٠ قاد بعدها نحو ثلاثة آلاف راجل و٢٠٠ فارس وكتائب من حملة البنادق ورماة المدفعية وبدأ هجوماً مزدوجاً على مدينة سيرون التي كان الثوار أخذوها في تموز (يوليو) السابق . وعهد دون خوان الى ريكويسنس قيادة الهجوم الأول وإلى تابعه كيخادا قيادة الثاني وارتقى تلاً مشرفاً راقب منه سير العمليات . واخترق الهجومان خطوط الدفاع الأندلسية فاحتمى قسم من الأهالي في المساكن الحصينة فيما انسحب آخرون إلى الجبال .

ودخل قسم من المشاة بقيادة لوبي دي فيغيروا Lope de Figueroa الجزء المُخلى من المدينة وبدأ نهب المساكن، إلا أن الأندلسيين كانوا طيّروا الدخان إشارة إلى طلب النجدة فهبط إلى المدينة آلاف الأندلسيين يتقدمهم قائد نعرفه باسم «الحبقي» المسؤول عن تلك المنطقة فتراجعت قوات دون خوان في كل الاتجاهات . أما المشاة في المدينة

---

١ Rowdon, Maurice. *The Spanish Terror*, Constable and Company Ltd., (London 1947) p 231.
لا نعرف بالضبط ما هي حقيقة المخاطر التي تعرض لها دون خوان في هذه المعركة لكن يرد في رسالة تلقاها من فيليب الثاني ما يؤكد نجاته من خطر محدق . ويرد هذا في مخطوطة المكتبة الوطنية في مدريد بعنوان :
Carta del Rey a Don Juan de Austria, 24 Febrero, 1570 . نقلها عدد من الكتاب الإسبان .
أنظر : Carbajal, Luis del Marmol. *Historia del rebelion y castigo de los Moriscos del reino de Granada*, Sancha Madrid, 1797, (2 Volumes), p 235.
و Mendoza, Hurtado de. *guerra de Granada*, p 273.

فأعمتهم المفاجأة فأسقطوا ما سلبوه واحتموا في مساكن المدينة. وهنا أطبق الثوار عليهم وأحرقوا بعض المنازل التي احتموا بها. وعندما هدأت المعركة التي وقعت في السابع عشر من شباط عام ١٥٧٠ وتوقف الأندلسيون عن مطاردة القوات القشتالية أحصى دون خوان نحو ٦٠٠ قتيل فوقهم المشاة الذين قتلوا أو احترقوا في سيرون. وأصيب كيخادا في تلك المعركة بطلقة في كتفه الأيسر ومات متأثراً بجرحه، كما أصابت طلقة خوذة دون خوان لكنها لم تكن مؤثّرة.

معركة ليبانت البحرية وبدء مفاوضات إنهاء الثورة

بعد يومين من الحادثة الأخيرة اتضحت لدون خوان ضرورة الحصول على إمدادات إضافية فكتب الى فيليب الثاني يصف له الوضع ويطلب إرسال القوات بسرعة. وتضمّن ردّ فيليب على الرسالة الوعد بإرسال ألفي جندي آخر لكن الردّ تضمّن طلباً لم يتوقعه دون خوان هو إنهاء الحرب مع الأندلسيين بأقصى سرعة ممكنة، وفتح باب المفاوضات على الفور.

ويعود سبب هذا الطلب المفاجيء إلى تطورات حاسمة كان إيقاع خطواتها يتسارع في الجانب الآخر من أوروبة. ففي مطلع عام ١٥٧٠ بدأت الأساطيل العثمانية تقترب من جزيرة قبرص التي سيطر عليها البنادقة مستغلة انشغال جيوش فيليب الثاني في قمع الثورة الأندلسية. وفي بداية شباط (فبراير) عام ١٥٧٠ وجّه العثمانيون إنذاراً نهائياً إلى البندقية بتسليم قبرص التي كانت تُستخدم قاعدة لاعتراض السفن العثمانية والعربية والإغارة على بعض المدن مثل الإسكندرية. ولجأت البندقية إلى البابا بيوس الخامس فعرض على فيليب الثاني إنشاء تحالف ضد العثمانيين يستهدف اسطولهم الكبير الذي بدأ يهدد أغلب شواطىء البحر الابيض المتوسط. واقتضت خطة البابا تشكيل قوة بحرية كبيرة من أساطيل البندقية المتحالفة مع أساطيل دول أوروبية أخرى يقودها فيليب الثاني بنفسه، على أن تتولى البابوية تمويل هذه الحملة من الضرائب التي أقر البابا بعضها على سائر أهل الكاثوليكية، ومن محصلة بيع صكوك الغفران.

ولم يكن فيليب غادر قشتالة يوماً واحداً منذ استلم عرش البلاد، ولم يكن يعتزم مغادرتها آنذاك فاقترح على البابا تسليم قيادة الحملة إلى دون خوان فور إخماد الثورة الأندلسية في الجنوب. لكن دون خوان لم يكن حتى تلك الفترة في وضع يمكّنه من إنهاء الثورة التي استفحلت وعمّت قسماً كبيراً من مملكة غرناطة. وبات الوقت على غاية كبيرة من الأهمية، وانتقلت الثورة الأندلسية من دورها المحلي المحصور بمملكة

غرناطة إلى دور عالمي أعاق قيادة الإسبان واحدة من أهم معارك القرن السادس عشر.

وأمام هذا الوضع وجّه فيليب الثاني دون خوان لفتح المفاوضات مع الأندلسيين وبدأ مفاوضات مع البابا أطالها متعمداً لإعطاء دون خوان الفرصة لانهاء الثورة الأندلسية. وبدأ دون خوان مفاوضاته باجتماعات عدّة عقدها مع الفارس الحبقي. ودعم فيليب الثاني سير المفاوضات فأصدر إرادة ملكية منحت جميع الأندلسيين عفواً شاملاً لكنها توعّدت بإعدام جميع الرجال والشبان الذين تفوق أعمارهم الرابعة عشرة إن لم يستسلموا خلال ٢٠ يوماً من صدور الإرادة. ولا نعرف طبيعة المفاوضات بين دون خوان والحبقي، إلا أنه يمكن ربطها بما حدث بعد ذلك إذ انسحبت قوات الحبقي من سيرون ثم من تجلة Tijola وبرشانة Purchena فنقل دون خوان مقر قيادته إلى البذّول Padules القريبة من وجر أندرش Lujar de Andarax في الثاني من أيار (مايو) ١٥٧٠، وبسط سيطرته الكاملة على سائر المدن والقرى في وادي نهر المنصورة ونشر قواته في أغلب المناطق الواقعة إلى الشرق من جبل البشرات. وبدأت كتائب دون خوان تجوب الارياف للقضاء على جيوب المقاومة، وشملت العمليات إتلاف الحقول والمزارع وإحراق بيوت الفلاحين الأندلسيين فتحوّلت المنطقة إلى خراب كي لا تقدم أسباب الحياة لأي مخلوق، «وكانت هذه هي طبيعة إجراءات المصالحة التي استخدمتها الحكومة للقضاء على الثوار».[١]

وفيما عاثت قوات دون خوان في منطقتها فساداً، قاد دوق سيسة جيشاً من عشرة آلاف راجل و٢٠٠ فارس للقضاء على الثورة في المناطق الشمالية من جبل البشرات، إلا أن قوات إبن أميّة تصدت للجيش بإغارات كثيفة وفرّت أعداد من الجنود فانسحب دوق سيسة إلى الساحل ثم التحق بمعسكر دون خوان في البذّول. وهنا بعث دون خوان إلى الحبقي يطلب بدء جولة جديدة من المفاوضات الشاملة فوافق وبدأت هذه المرة في الثالث عشر من أيار في قرية تدعى فندون اندرش Fondón de Andarax بحضور الحبقي وعدد من الزعماء الأندلسيين.

واشترط الوفد الأندلسي لوقف القتال إصدار عفو عام جديد والغاء مرسوم الأول من كانون الثاني عام ١٥٦٧ فطلب دون خوان أن يأتيه الوفد بما يثبت موافقة ابن أميّة على الشروط، فيما عهد إلى أمين سره خوان دي سوتو Juan de Soto الإشراف على صياغة بنود الاتفاق الجديد. وفي التاسع عشر من أيار عاد الوفد إلى معسكر دون خوان بموافقة ابن أميّة فصادق الحبقي على الاتفاق ممثلاً عن الجانب الأندلسي. وبعد

[1] Carbajal,. *Historia del rebelion y castig* ..., pp 290-320.

انتهاء المراسم انسحب الوفد الأندلسي باستثناء الحبقي الذي بقي في المعسكر ضيفاً على دون خوان وحضر مأدبة عشاء دُعي إليها القادة والأعيان بمن فيهم رئيس أساقفة وادي آش Guadix .

ولما انتهى إلى علم ابن أميّة بقاء الحبقي في معسكر دون خوان ثارت شكوكه، وتحوّلت الشكوك إلى إنكار بعدما عرف أن اتفاق العفو عن الأندلسيين يتضمن بنداً يقضي بإبعاد جميع سكان البشرات عن أماكن اقامتهم على أن يتكفّل الملك برعايتهم في مناطق سكناهم الجديدة.[1] وهنا بعث ابن أميّة إلى دون خوان ينفي موافقته على هذا البند. ولما أجابه دون خوان أن البند موجود في الاتفاق الذي صادق عليه الحبقي ثار ابن أميّة واتهم الحبقي بتجاوز صلاحياته. ولما سمع الحبقي بما حدث خرج من معسكر دون خوان إلى سكناه في بلدة برشل Berchules الجبليّة المطلة على مناظر خلابة في الجنوب، فبعث ابن أميّة جماعته إليه فساقوه الى محل اقامته في مسينه Mecina Bombaron الواقعة إلى الشرق من برشل حيث أعدموه ولفوا جثته بالقش ورموها في واد عميق. ولما استفقد دون خوان الحبقي وعرف بمقتله بعث هرنان بال دي بلاثيوس إلى معسكر ابن أميّة يعرض الصلح فرد عليه: «لا أمنع قومي من فعل ما يشاؤون لكن ابلغ سيدك انني لن أسلك سبيلهم ما بقي عليّ كساء يستر ظهري. وإن لم يصمد أحد من البشرات فأنا صامد وحدي مفضّلاً أن أعيش مسلماً وأموت مسلماً على أن أنعم بكل ما يمكن ان يقدمه إليّ فيليب الثاني».[2] وحين عاد هرنان إلى دون خوان بقرار ابن أميّة بدأ الأخير في إعداد جنوده للقضاء على الثورة، وانتظر موافقة فيليب على إرسال إمدادات عسكرية جديدة لشن الحملة النهائية على الأندلسيين في مملكة غرناطة.

تصفية الثورة الأندلسية الكبرى

بدأت قوات دون خوان والمليشيات أعمالاً عسكرية محدودة استهدفت القرى الأندلسية المنعزلة عاد بعدها الجنود يحملون رؤوس القتلى الأندلسيين أو قضبانهم لاثبات موتهم. وبعدما تحسنت الروح المعنوية لتلك القوات وازدادت جرأتهم قاد دون خوان حملة ضد أججر Ugijar، الواقعة جنوب الطرف الشرقي من جبل شلير، على

---

[1] لا توجد أي نسخة من هذا الاتفاق في الوثائق القشتالية أو الأندلسية مما يثير احتمالاً باختلاف النسخة التي صادق عليها الجانب الأندلسي عن النسخة التي أبرزها دون خوان. ونعرف بعض تفاصيل الاتفاق من حديث كربخال في المصدر أعلاه، القسم الثاني، الصفحات ٣٥٥-٣٦٢.

[2] أعلاه، ص ٤١٠.

محورين، إلا أن اندفاعة دوق سيسه كانت أقوى فاجتاح البلدة قبل انضمام دون خوان إليه. ووزع الأخير القوات والمليشيات بعد ذلك على أربعة جيوش فكان هو على رأس جيش من نحو خمسة آلاف جندي نظامي بمهمة إخضاع المناطق الواقعة شمال غرناطة، فيما تولّى ريكويسنس قيادة جيش آخر ينطلق من غرناطة لدخول جبل البشرات من الشمال. وفي الوقت نفسه تولّى دوق سيسه قيادة نحو أربعة آلاف من المجندين لقمع الثورة وسط الجبال، وتسلّم دوق أركوش قيادة الجيش الغربي لقمع الثورة في جبال رندة والاتجاه بعد ذلك إلى الثوار الذين احتموا في قمم الجبال العالية القريبة منها.

وفي بداية أيلول ١٥٧٠ أمر فيليب الثاني ببدء الحملة فانطلقت الجيوش الأربعة إلى قطاعاتها المحددة رافعة شعاراً مشهوراً أطلقه دون خوان هو: «لا رحمة ولا هوادة»[١]. وتصدى الأندلسيون للقوات القشتالية على المحاور الأربعة في المرحلة الأوليّة لكنهم بدأوا التراجع بسرعة والالتجاء إلى المرتفعات. وعمل الجنود على حرق الزرع والشجر وإتلاف المحاصيل فقلّت الأرزاق والماء، وانشغلت مجموعات الثوار بمقاومة القوات كل في قطاعها فانقطعت الاتصالات وانفقد التنسيق بينها. وبعدما أتمّ دون خوان اخضاع المناطق في قطاعه لاحق الأندلسيين في الكهوف والمغاور العالية. وكان الجنود يحاصرون المغاور ويشعلون الأغصان الخضراء في المداخل فربما اختنق المحاصرون وربما خرجوا فتلقفهم رصاص البنادق. ولا نعرف الكثير عن تفاصيل الحملتين اللتين قادهما ريكويسنس ودوق سيسه، لكن دوق أركوش دخل قطاعه في منتصف أيلول تقريباً وتوغل في جبال غربيّة الأندلس حتى اصطدم بتجمع كبير للثوار قرب قلعة اللوز في الجبل الاحمر Sierra Bermeja ودارت معركة عنيفة انتهت بانتصار قوات الدوق وفقد الثوار توازنهم واختلت صفوفهم وتبعثرت جهودهم فانسحبوا في الجملة إلى أعالي الجبال.

ودبّ الخلاف في صفوف قادة الأندلسيين بعد تلك الهزائم وانقسمت الآراء وربما اعتبر بعضهم موقف ابن أميّة سبباً في نكبتهم فقاموا عليه وقتلوه وسلّموا زمام أمرهم إلى زعيم آخر نعرفه باسم عبدالله بن أبيه أو Abén Aboo بالقشتالية. وحاول عبدالله إعادة تنظيم قواته فلم يُتح له الوقت فهرب مع جماعته وحُوصر مع نفر منهم في كهف قرب بلدة برشل. وتمكن عبدالله من الفرار بعد ذلك لكن ٧٠ أندلسياً ظلوا في الكهف وماتوا اختناقاً بالدخان من بينهم زوجة عبدالله وابنتاه. وبحلول منتصف تشرين

[١] Lane-Poole, Stanley. *The Moors in Spain*, p 278.

الأول (اكتوبر) كانت الجيوش الإسبانية الأربعة أنهت مهمتها العسكرية وبدأت ملاحقة الأندلسيين بلا استثناء أينما وجدوا. وتسابق الجنود والمليشيات على اصطياد الأندلسيين وكان أجر كل من أحضر منهم رأس أندلسي أو قضيبه ٢٠ دوقة.

وفي التاسع عشر من تشرين الأول أسبغ فيليب الثاني الشرعية على عمليات الانتقام الواسعة النطاق في الجنوب فأتاح لجنوده السبي والنهب بمرسوم ملكي ورفع رواتبهم. وحان بعد توقف القتال وقت استرداد نفقات الحملات فأصدر الملك فيليب الثاني في الثامن والعشرين من الشهر ذاته مرسوماً آخر وجّه فيه بترحيل الأندلسيين المدنيين من الجنوب إلى قشتالة ومصادرة كل ممتلكاتهم. ورحل دون خوان في اليوم التالي بعدما عيّن دوق أركوش حاكماً عسكريا في غرناطة وأوكل إليه مهمة إنهاء الوجود الأندلسي في الجنوب، وكر إلى مدريد حيث استقبله الإسبان استقبال الأبطال الفاتحين.

وبعد تلك المذبحة المروّعة قدّمت السلطات آلاف الأندلسيين إلى المحكمة العليا التي رأسها بدرو دي ديثا فأعدمت قسماً وسجنت قسماً آخر وحرمت آخرين الحريّة فصاروا عبيداً في قشتالة وانتقلت جماعات منهم إلى العالم الجديد. وبحثت السلطات عن آخر زعماء مملكة غرناطة دهراً لكنها لم تجده. وفي آذار (مارس) ١٥٧١ كشف أحد اتباع عبدالله للسلطات مكان زعيمه، طمعاً بالسلامة كما يبدو، وانطلق الجنود إليه لكن أحد جماعته استعجلهم فبادر بقتله. وخرج المنادون إلى سكان غرناطة القشاتلة يهنئون بقتل الزعيم الأندلسي فاحتشدوا على بوابتها وجاء الجنود بجثمان عبدالله ابن أبيه موثوقاً إلى إطار خشبي على ظهر بغل فطافوا به المدينة ثم قطعوا رأسه. وتكاثر القشاتلة على الجثمان فشوهوه وحرقوه. أما رأس الزعيم عبدالله فوضع في قفص عُلق على باب البشرات في مدينة غرناطة وكُتب عليه: «هذا رأس الخائن عبدالله ابن ابيه. ليمتنع الجميع عن إنزاله تحت عقوبة الإعدام». [1]

وبنهاية الثورة كان معظم الأندلسيين الذين عاشوا في الجنوب مغرّبين أو سجناء أو عبيداً أو أسرى و«صُبغت تلك الأشهر بنهر أحمر قان من الدماء. كان شعار دون خوان: لا رحمة لا هوادة، فذُبح الرجال والنساء والأطفال بأمره وأمام ناظريه، وتحوّلت قرى البشرات الى مسلخ بشري. أما القائد الاعلى ريكويسنس فتمكّن من اخماد آخر جذوات الثورة قبل الخامس من تشرين الثاني ١٥٧٠ ورتب سلسلة منظمة من الذبح الجماعي والتدمير الشامل وإحراق القرى عن آخرها وخنق الناس بالدخان

[1]. Mendoza, Hurtado de. *guerra de Granada*, p 329

في الكهوف حيث لاذوا. وتم أخيراً اخضاع الموريسكيين لكن على حساب إسبانيا المسيحية وسمعتها ومستقبلها». [1] وأضحت غرناطة بعد ذلك «مسرحاً للاعدامات شبه اليومية. فبعد أسر الثائرين التعساء كانوا يُجبرون على المثول أمام محكمة دي ديثا، فيصدر عليهم الحكم على الفور بالخدمة في القواديس أو الشنق، أو بنهاية أكثر إرهاباً عن طريق تقطيع أجسادهم بكمّاشات مُحمّى حتى يصبح لونها كالجمر». [2]

واحتمت جماعات من الأندلسيين بالمرتفعات والمناطق الوعرة التي لم تستطع القوات القشتالية الوصول إليها، وبدأت شنّ هجمات متفرقة على مراكز القوات القشتالية حتى نهاية شهر أيار (مايو) من ١٥٧١. وأمر الحاكم العسكري الجديد بتشييد ٨٤ منبراً عسكرياً بينها ٢٩ منبراً في جبل البشرات ووادي القرن Lecrin، كما شدّد الحراسات على مداخل المدن. ولم تشأ السلطات استمرار الوجود العسكري خلال الشتاء فعرضت على بقايا الثوار وعيالهم الاستسلام لقاء تأمين أنفسهم وعيالهم فقبل كثيرون العرض. وبانتصاف عام ١٥٧١ انطفأت شعلة الثورة التي استشهد فيها نحو ٢٠,٠٠٠ أندلسي وأندلسية، وربما كان عدد جرحاها ثلاثة أضعاف هذا الرقم على الأقل، فيما طاولت الإعدامات والاستعباد والشغل في السفن الإسبانية في أعالي البحار عشرات الألوف.

٤ - نتائج الثورة الأندلسية الكبرى

في ليل الأربعاء الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١٥٦٩ دبّت في غرناطة حركة غير عادية إذ تدفقت قوات قشتالية كبيرة على المدينة تحت جنح الظلام وأغلقت أبواب المدينة وضربت حصاراً حول الأحياء الأندلسية. وصباح يوم الخميس الموافق للتاسع من محرّم سنة ٩٧٧ هجرية بعث دون خوان المنادين إلى رباض البيّازين فأمروا جميع الأندلسيين الغرناطيين ممن تراوح أعمارهم بين العاشرة والستين الاتجاه فوراً إلى أقرب الكنائس إليهم وحذروا بإنزال أشد العقاب بالمخالفين.

وعمّ الخوف البيازين فهرع أعيان الأندلسيين إلى دون خوان للاستفسار عن سبب النداء وأكدوا ولاءهم لفيليب الثاني والتزامهم الحياد واعتراف الحاكم العسكري بهم

---

[1] Lane-Poole , Stanley. *The Moors in Spain*, p 278.

[2] Prescott, W. .H. *History of the Reign of Philip II, King of Spain*, V, Chapter VIII, p 280 .

«أندلسيي السلم». وطمأن دون خوان الوفد وشرح أن هدف جمع الرجال هو تعدادهم، وطلب إليهم ضمان تأمين امتثال الأندلسيين للأمر ففعلوا ما أشار به. لكن ما أن دخل الرجال والفتيان الكنائس حتى أغلق الجنود أبوابها وضربوا عليها الحراسات وأبعدوا الأمهات والزوجات اللواتي جئن الكنائس يتوسلن ويبكين من الخوف على أولادهن وأزواجهن وآبائهن.

وفجر يوم الجمعة أمرت القوات القشتالية الأندلسيين بالخروج من الكنائس والاصطفاف في صورة أرتال تحرّكت تحت حراسة مُشددة إلى المستشفى الملكي. وكان دون خوان كتم سبب جمع الرجال الأندلسيين حتى تلك اللحظة إلا أن حادثاً وقع في الطريق أثار خوف الأندلسيين وكشف المصير الذي ينتظرهم إذ لطم أحد الجنود شاباً غرناطياً ليحضّه على الإسراع فاغتاظ الشاب وضرب الجندي بحجر فاندفع الجنود إليه وقطّعوه بسيوفهم على مرأى الأندلسيين، ثم أوثقوهم كلهم بعد ذلك.

وأمضى دون خوان النهار يفرز الأندلسيين فاختار منهم نحو ألفين من العلماء والحرفيين والعالمين في فنون الصناعة والزراعة والبناء، وقسّم الباقي إلى جماعات حُددت لكل منها وجهة مُخصصة لها في قشتالة. وعندها فقط عرف نحو ٣٥,٠٠٠ غرناطي أن دون خوان كان ينفّذ مرسوماً أصدره الملك فيليب الثاني بتغريب أهل مدينة غرناطة آخذاً بتوصية كل من دون خوان وبدرو دي ديثا. وبعد الانتهاء من تغريب الرجال باستثناء من أمر دون خوان استبقاءهم، انتزع القشاتلة الأطفال من أمهاتهم، وجرى توزيعهم بإشراف الكنيسة على بيوت القشتاليين لإنشائهم نشأة كاثوليكية. وسمح دون خوان للنساء البقاء في غرناطة ريثما يبعن أملاكهن، لكن لا نجد في المصادر التاريخية الإسبانية أي معلومات عما حصل لمعظمهن بعد ذلك.[١]

واتبع فيليب الثاني تغريب أهل مدينة غرناطة بتغريب قسم كبير من سكان مملكة غرناطة بموجب مرسوم خاص أصدره في الثامن والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٥٧٠. وأشرف دون خوان هذه المرة أيضاً على أعمال الترحيل التي جرت وفق نظام الترحيل الأول، إلا أن عدد المُغربين كان كبيراً مما اضطره إلى الاستعانة بقوات ريكويسنس ودوق سيسه خوفاً من انفلات الأمور. وفي الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) بدأت أول مجموعة من المُغرّبين الاتجاه إلى منافيها في قشتالة وتبعتها مجموعات أخرى في الاسبوعين اللاحقين.

---

[١] أغفل معظم المؤرخين الأسبان الأوائل (مثل مندوزا) الحديث عن نفي الأندلسيين في هذه المرحلة، وربما كان لويس ديل مارمول كريخال من بين قلة تناولت هذا الموضوع بشيء من الموضوعية ولعل ذلك يعود الى قضائه بعض سنوات حياته بين العرب.

ثم توالت أعمال التغريب مع استمرار استسلام الأندلسيين ونزولهم أولاً بأول من ملاجئهم في الجبال. ولم ينته دون خوان من مهمته حتى كان عدد الذين غرّبهم في هذه المرّة الثانية نحو ٥٠,٠٠٠ أندلسي. وانتهى معظم أطفال الأندلسيين المُغرّبين نهاية أطفال مدينة غرناطة فتوزّعتهم الكنيسة والقشاتلة وانقطعت عنهم أخبار آبائهم وأمهاتهم اللواتي لا نعرف أيضاً ما حدث لهنّ بعد نفي أزواجهن وأولادهن إلى الشمال.

ولم يكن هذا مصير الجميع فعندما بدأت الثورة الأندلسية الكبرى كانت غالبية أندلسية تسكن المدن والقرى الواقعة شمال المرية وشرقها مثل طريلة Turrilas وطربال Tarbal ونجار Níjar وأنوش Inox ومجقار Mojácar والقرون Llegaron والمنتزه Mantanza ووبرة Huebro ولقنية Lucainena وغيرها. وعندما اشتدت المعارك احتمت النساء والأطفال في حصن أنوش Peñón de Inox في انتظار فرصة للعبور إلى المغرب لكن جماعات من المرتزقة الأوروبيين والقشاتلة والأرغونيين سمعوا بوجودهم فنزلوا عليهم وسبوا نحو ثلاثة آلاف امرأة وطفل.

وعادت السلطة بعد تغريب معظم سكان مملكة غرناطة الأندلسيين فنفت جزءاً كبيراً من سكان المرية حتى تقلّص عدد سكانها عام ١٥٧١ إلى نحو سبعة آلاف فقط. وسعت السلطات إلى محاولة إعمار تلك المناطق بالمهاجرين القشاتلة وغيرهم إلا انها لم تجد إلا عدداً قليلاً، ولم تستعد هذه المناطق بعض حياتها السابقة إلا بعد نحو ١٠٠ عام من نفي سكانها الأندلسيين.

ونجد في التاريخ حالات لا تحصى من انزال العقوبات الجماعية والتجريم بالإرتباط لكنّ الإسبان فعلوا ذلك بمجموعة من القوانين والمراسيم الملكية القراقوشية العجيبة. ففي الرابع والعشرين من شباط ١٥٧١ صدرت مجموعة أوامر معروفة باسم «مجموعة القوانين المحلية الخاصة بمملكة غرناطة» Ordenanzas de Granada قُدم لها بالآتي: «لا يجب أخذ الموريسكيين الذين لم يشاركوا في العصيان بجريرة العاصين، وعلينا ألا نرغب في ايذائهم. لكن لن يستطيع هؤلاء من اليوم استغلال أراضيهم لأن محاولة فصل الأبرياء عن المذنبين مهمة بلا نهاية. وسنعمل بالتأكيد على تعويضهم في المستقبل، لكن أملاكهم ستُصادر في الوقت الراهن مثلهم في ذلك مثل الموريسكيين الثائرين»[1]. ولم يُعوض أندلسيو السلام عن مصادرة أملاكهم التي ذهبت لتغطية نفقات الحرب المُقدّرة بنحو ١٠٠ مليون دولار بعملة أميركا اليوم، ومع ذلك نرى في

[1] Circourt, Count Albert de. *Histoire des Arabes en Espane*, vol III, p 148.

موقف القشتاليين من هذا القانون استهجاناً صارخاً فاعتبروا ما جاء فيه تسامحاً عن الأندلسيين لا يسوّغه العقل.[1]

وسعت القوانين والمراسيم التي اصدرتها الحكومة بعد إنهاء الثورة إلى منع عودة الأندلسيين إلى أرضهم وأعادت تشديد القيود المفروضة عليهم. ومن تلك المراسيم مرسوم شرير صدر في السادس من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٥٧٢ حرّم على الأندلسيين التخاطب بالعربية أو الكتابة بها، وحدد عقوبة المخالفة الأولى للمرسوم بالسجن مع التكبيل بالحديد مدة ٣٠ يوماً، وضعفي المدة في المخالفة الثانية، والخدمة أربع سنوات في القواديس مع ١٠٠ جلدة في حال المخالفة الثالثة. وجاء في المرسوم أن العثور على وثيقة عربية أو صفحة مكتوبة بالعربية سيعرّض صاحبها للخدمة في القواديس (نوع من السفن السائدة آنذاك) أربع سنوات بعد توقيع ١٠٠ جلدة بحقه. وألغى المرسوم أي قيمة قانونية لأي وثيقة أو صك مكتوب بالعربية، وحدد عقوبة جميع المسؤولين عن مثل تلك الوثائق أو الصكوك بمئتي جلدة والعمل سخرة في القواديس ست سنوات. وتضمن المرسوم عدداً كبيراً من الممنوعات والمحظورات إلا أن أعظم العقوبات كانت بحق الأندلسيين الذين يتركون المناطق السكنية المحددة لهم بعد نفيهم. إذ جاء في المرسوم أن عقوبة القبض على أي أندلسي يراوح سنه بين العاشرة والسابعة عشرة في أي مكان دون عشرة فراسخ (نحو ٥٥ كيلومتراً) من غرناطة سيعرّضه إلى عقوبة الشغل في القواديس بقية أيام حياته. وإذا كان عمره فوق ذلك ستكون عقوبته الإعدام. وألزم المرسوم الأندلسيين بضرورة إبلاغ السلطات بفرار أي أندلسي من المنطقة الجديدة المحددة لسكناه. وإذا تخلّفت أي أسرة عن تقديم مثل هذا البلاغ إلى السلطات فإن عقوبة أفرادها ستكون السجن مدة شهر واحد والجلد بغض النظر عن نوع صلة الأندلسي الفار بهذه الأسرة.

توزّع الأندلسيين بعد الثورة الكبرى

يوجد موقف قريب من الإجماع لدى الكتّاب الذين ألفوا في أحوال الأندلسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر على اقتراح تقديرات تضع عدد الأندلسيين بين ملايين عدة وأقل من ٣٠٠ ألف شخص، إلا أنني أميل شخصياً إلى الأخذ بتقديرات الاقتصاديين الذين تناولوا هذا الموضوع الكارثي والغني والمثير في آن مقارنة بمؤرخين محدثين اعتمدوا مجموعة من الوثائق القشتالية غير المشهورة بدقتها يقترب عمرها من

[1] Carbajal, Luis del Marmol. *Historia del rebelion...*, 2, p 439.

قرنين ونصف القرن. وعلى رغم تراكمية القيود التي فرضتها السلطات القشتالية على الأندلسيين، وتضافر جهود السلطة والكنيسة ومعظم القشاتلة في مراقبتهم واضطهادهم لم تكن مملكة فيليب الثاني، كما لم تكن مملكة أبيه كارلوس الخامس من قبله، مثال التنظيم والدقة فسادتها الفوضى والرشوة والفساد والتعثّر مثلها مثل غيرها. ووجد الأندلسيون سهلاً الحصول في بعض الحالات على الوثيقة التي يريدونها إذا كان لديهم المال لدفع الثمن. ولا ننتقص من نضال الأندلسيين واستماتتهم دفاعاً عن أهلهم ودينهم وعروبتهم إن خلصنا من متابعة المتوافر من المعلومات عن الثورة الأندلسية الكبرى إلى الاستنتاج بوجود حالات واضحة من غياب الانضباط والنظام في صفوف القوات القشتالية، لذا لم يكن عبور الأندلسيين إلى العدوة مستحيلاً في كل الأوقات، ولم تتوقف حركة الأندلسيين عبر مضيق جبل طارق قبل تسليم غرناطة ولا بعدها. وعلينا الافتراض أن تهريب الناس في تلك المرحلة جرى في الصورة التي يجري عليها في أيامنا هذه، وكان للكثيرين نشاطاً مجزياً لا يمكن السيطرة عليه بسهولة لأن جماعات من السلطة كانت تستفيد من هذا النشاط وتحمي أصحابه. وما ينطبق على الأندلسيين في مملكة غرناطة ينطبق على الأندلسيين في قشتالة وأرغون. وعلينا الافتراض أن هؤلاء كانوا يستطيعون دائماً عبور الحدود إلى جنوب فرنسا ومنها إلى إيطاليا فالعدوة وغيرها، أو الحصول على الأوراق الرسمية المدفوعة الأجر أو المزوّرة التي تسمح لهم بمغادرة البلاد.

ونعرف من وثائق كثيرة أن السلطات لم تحظر دائماً تنقّل الأندلسيين بين غرناطة وأرغون وقشتالة، ولم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً مثل هذا أصلا بالنظر إلى اشتغال الأندلسيين بالنقل خصوصاً على البغال والعربات الصغيرة، لذا لا يُستبعد نشوء عمليات هجرة داخلية محدودة في اتجاه أرغون بين الوقت والآخر تبعاً للظروف. وهناك سببان مهمان يمكن أن يفسّرا جانباً من التباين الملفت في تقديرات عدد الأندلسيين في أي مرحلة من مراحل وجودهم في إسبانيا سنتناولهما بشيء من التفصيل في فصل «تغريب الأندلسيين». وحسبنا الإشارة هنا إلى أنهما يخصّان عدد الأندلسيين الذين سلبتهم السلطات حريتهم فصاروا عبيداً فخرجوا من دائرة الاحصاءات والتقديرات الرسمية ذات الغاية الضرائبية، وعدد الأندلسيين الذين تمكّنوا من الهجرة إلى الممالك الإسبانية في العالم الجديد بوسائل شتّى بينها تزوير الوثائق والأنساب وتستّر النبلاء والتجار الكبار على الأندلسيين. ويمكن الافتراض ان هؤلاء عملوا في حالات كثيرة بأجور تقل عن الأجور التي كان القشاتلة يتقاضونها نظراً إلى الأوضاع السلبية الخاصة التي كانوا يعيشونها.

واشرنا في غير مكان إلى ان التقديرات الخاصة بعدد الأندلسيين في مملكة غرناطة بعد الثورة الأندلسية الأولى راوحت بين ٢٠٠,٠٠٠ و٥٠٠,٠٠٠ شخص حتى بعد إخضاع هذه التقديرات إلى المعاملات المُساقة أعلاه (هجرة وتهريب واستعباد وغيره). وربما تعدّى عدد الأندلسيين الذين غرّبهم فيليب الثاني خلال الحرب الأندلسية الكبرى وبعدها ٩٠,٠٠٠ شخص، يُضاف إليهم نحو ٢٠,٠٠٠ أندلسي وأندلسية استشهدوا في المعارك. ولا نعرف عدد الجرحى والمرضى والطاعنين في السن وغيرهم ممن لم تستطع السلطات ترحيلهم من مدينة غرناطة أو من مدن الجنوب وبلداته وقراه، ولا نعرف عدد النساء اللواتي بقين في مملكة غرناطة بعد نفي رجالهم وسبي أطفالهم لكن بعض التقديرات يشير إلى أن عدد الأندلسيين الذين بقوا في مملكة غرناطة حتى بعد إتمام التغريب المزدوج يراوح بين ٦٠,٠٠٠ و١٥٠,٠٠٠ شخص. ويبدو حتى الرقم الأدنى كبيراً بالنظر إلى اصرار السلطات على منع قيام ثورة أخرى في الجنوب مهما كان الثمن، وموافقة فيليب الثاني على انتقال ٥٠,٠٠٠ قشتالي لأخذ الأماكن التي أجلي الأندلسيون عنها.

لكن يجب الأخذ في الاعتبار طبيعة الانتاج الزراعي والصناعي وطرائقه في الجنوب التي حتّمت بقاء أعداد كافية من الأندلسيين لضمان استمراره. وأحد أسباب ذلك أن القشاتلة تجنّبوا الأعمال اليدوية وافتقر عدد كبير ممن انتقلوا إلى الجنوب إلى المهارات اللازمة للتعامل مع ظروف تختلف عن تلك التي عهدوها سابقاً. وتطلّب العامل القشتالي الماهر أجراً يتناسب وخبرته وقشتاليته أيضاً مما كان سيرفع تكاليف الانتاج وسيقلص الأرباح التي كان يجنيها النبلاء والملاك الكبّار الذين وجدوا في الأندلسيين عمالة رخيصة قليلة الشكوى وكبيرة الانتاج. وهكذا نجد لدى استعراض الوضع الإقتصادي في غرناطة بعد الثورة الكبرى أن اقتصاد المملكة تأثر كثيراً بتغريب الأندلسيين وقتلهم، إلا ان هذا التأثر لم يقترب من حد كارثي أو حتى الانهيار، وربما كان أحد أهم أسباب ذلك بقاء العدد المُشار إليه في مناطق الإنتاج.

وبينما استمر عدد الأندلسيين في مملكة أرغون ينمو في العموم نمواً طبيعياً من إجمالي قُدّر في بداية القرن السادس عشر بحوالى ٢٣٥,٠٠٠ شخص ليصل إلى رقم محتمل هو ٤٠٠,٠٠٠ ألف[١]، فإن عدد الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في قشتالة في

---

[١] كتب الأندلسيون في بلنسية إلى الملك الفرنسي هنري الرابع عام ١٦٠٢ يحضّونه على التدخل لمساعدتهم معلنين أنهم «اصحاب بلنسية» ويعدّون أكثر من ٧٦ ألف اسرة أي نحو ٣٨٠ ألفاً على اعتبار أن متوسط الاسرة هو خمسة أشخاص.

Mathorex, *Les etrangers en France sous l’ancien Regime*, Paris, E. Champion, 1919, p 161.

تلك الفترة ذاتها قُدّر بنحو ٢٠٠,٠٠٠ شخص، وربما وصل الى ٤٠٠,٠٠٠ شخص عام ١٥٦٩ على اساس احتساب زيادة سنوية في عدد السكان بنسبة واحد في المئة ليتضاعف العدد مرتين كل ٧٠ سنة. وربما كان العدد يقترب من نصف مليون إذا أخذنا في الاعتبار سببين: الأول اشتهار الأندلسيين بكثرة الإنجاب وقلة الإنفاق، وهو موقف طبيعي لمن يعيش الأوضاع التي عرفها الأندلسيون، والثاني انضمام نحو ٩٠,٠٠٠ منفي إلى العدد الأصلي. ومع الاعتراف بوجود هامش كبير من الخطأ في هذه التقديرات، ربما كان ممكناً تقدير عدد الأندلسيين في كل من أرغون وقشتالة ومملكة غرناطة بنحو مليون شخص على الأقل حتى بعد إخماد الثورة الأندلسية الكبرى على يد دون خوان النمسوي.

الأندلسيون في أرغون بعد الثورة الكبرى

ستتحدث عن الأندلسيين في أرغون بتفصيل أكبر في فصل لاحق، لكن أود الإشارة هنا إلى أن هؤلاء لم يشتركوا مباشرة في الثورة الأندلسية الأولى ولا في الثورة الأندلسية الكبرى، ولم تنسحب عليهم بنود المراسيم التي أصدرها فيليب الثاني قبيل اندلاع الثورة أو خلالها وبعدها. ومدّ الأندلسيون الأرغونيون إخوانهم في غرناطة دائماً بالمتطوعين والمال والسلاح وأظهروا تعاطفاً معهم وغضباً على السلطة بسبب معاناتهم، لكن أي مشاركة مكشوفة كانت ستعرض مصالح الأندلسيين الأرغونيين إلى مخاطر عظيمة تهزّ مجتمعهم من أساساته. وشاع في المجتمعات الإسبانية في مملكة أرغون خلال الثورة الأندلسية الكبرى أن الأندلسيين الأرغونيين بدأوا استعدادات واسعة النطاق لتنظيم انتفاضة مماثلة، ودخلوا مرحلة جمع الأسلحة والتدرّب على القتال، فسارع كثيرون من المسيحيين في أرغون إلى خطب ودّ الأندلسيين، وكان السعيد منهم وقتها من كان له صديق أندلسي.

ووراء هذه المخاوف ما يسوّغها إذ على الرغم من قلة عدد الأندلسيين الأرغونيين في المدن الأرغونية الرئيسية، باستثناء بلنسية ومرسيّة. وكانت الكثافة الأندلسية عالية في الأرياف، وربما اقتصر الوجود النصراني في قرى كثيرة على القسيس وخادمه فقط. ويبدو أن جماعات من الأندلسيين الأرغونيين ظلت تحتفظ بأسلحة نارية. وحدث مرات عدّة أن جاء عمّال محاكم التحقيق إلى قرية أندلسية فخرج إليهم الرجال بالسلاح والنساء بالعصي فانهزموا. ووعت السلطات الأرغونية حقيقة قوة الأندلسيين في تلك المملكة فعملت على عزل ما حدث في الجنوب عن الأندلسيين في

أرغون وأبقت الأخبار سراً. أما السلطة في مدريد فقصرت المناطق التي نفت إليها الأندلسيين الغرناطيين على القشتالتين القديمة والجديدة وجليقية، وحظرت اختلاطهم أو اتصالهم مع غيرهم من الأندلسيين من خلال فرض الإقامة الجبرية عليهم بموجب مرسوم فيليب الثاني، واخضاعهم إلى مراقبة دائمة من جانب السلطات والكنيسة والقشتاليين الذين حلّوا بينهم.

٨ - تفكيك الأمبراطورية الإسبانية

كان إخفاق كارلوس الخامس على الساحة الأوروبية سبباً في تنازله عن العرش لابنه فيليب الثاني عام ١٥٥٦. ولم تعرف الأمبراطورية الإسبانية في عهد كارلوس السلام فخاض سلسلة متواصلة من الحروب التي انهكت جيوشه وأفرغت خزائنه ولم يكن ذهب وفضة المستعمرات في العالم الجديد كافياً في بعض الأحيان لتسديد الفائدة على قروض تمويل الحرب. ومات كارلوس بعد سنتين من اعتزاله الدنيا في دير يوست الواقع شمال شرق مدينة بلازيا، وأورث ابنه أمبراطورية هائلة ضمّت تونس والفلبين وجزر الهند الغربيّة والمكسيك وبيرو، بالإضافة إلى الممالك الأوروبية، باستثناء المانيا، وأورثه معها كل المشاكل العالقة. وكانت فرنسا لا تزال العدو التقليدي شبه الدائم لإسبانيا إلا أن حركة الإصلاح الديني البروتستانتية أفرزت أعداء آخرين تقدمهم الانكليز. وبالطبع كان هناك العثمانيون أيضاً، وكان تمويل كل هذه الحروب مُضنياً فيما الخزانة خاوية. وأمام هذا الوضع عقد فيليب معاهدة سلام مع فرنسا عام ١٥٥٩، وبدأ محاولة إعادة بناء اقتصاد الأمبراطورية بالاعتماد على فضة البيرو وخيرات المستعمرات الإسبانية الأخرى في العالم الجديد.

ونعمت إسبانيا ببضع سنوات من السلام لكن الاضطرابات الدينية اندلعت في هولندا بعد اقتحام الكنائس هناك عام ١٥٦٦، فبعث فيليب الثاني جيشاً بقيادة دوق ألبة لقمع الثورة ارتكب خلالها فظائع كبرى. ولم يتمكن فيليب الثاني من إنهاء الثورة فانتشرت اعتباراً من ١٥٦٨ إلى البحار. وفي العام الأخير نفسه انفجرت الثورة الأندلسية الثانية في الجنوب، وماتت زوجة فيليب المفضلة، ثم ابنه الذي كان أودعه السجن. وتجاوز فيليب محنته وأحزانه الشخصية فأنهى ثورة الأندلسيين وسحق الثورة البروتستانتية في هولندا، وشكل تحالفاً مع البندقية بالاشتراك مع البابوية ضد العثمانيين. وفي السابع من تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٥٧١ تمكن دون خوان

النمسوي، الذي قاد الحملة ضد الأندلسيين، من هزيمة الأسطول التركي بعد مقتل ثمانية آلاف من الجنود والبحّارة وجرح نحو ١٥,٠٠٠ وتحطّم نحو ٢٠ سفينة. لكن خسائر الأتراك كانت فادحة إذ قُتل قائد الأسطول علي باشا مع نحو ٣٠ ألف بحار وجندي إنكشاري من أصل نحو ١٠٠ ألف. وغنم الأسطول المتحالف أو دمرّ نحو ١٣٠ سفينة ولم يستطع السلطان العثماني سليم الثاني النوم ثلاثة أيام وثلاث ليال من شدة وقع الهزيمة عليه.

لكن العثمانيين تمكنوا من تجاوز هذه النكسة بسرعة كبيرة بفضل المساعدة العربية التي مكّنتهم من إعادة بناء الأسطول في وقت قياسي. وتحمّل العرب معظم نفقات تعمير الأسطول، وكانت ورشات بناء السفن تُنجز يومياً سفينة كاملة بعدتها. وخلال سنة واحدة من معركة ليبانت بدأ الأسطول العثماني-العربي المشترك يهدد الأسطول الإسباني مرة أخرى، وخاف البنادقة فطلبوا الصلح وتنازلوا للعثمانيين عن قبرص ووافقوا على تقديم التعويضات المالية الكبيرة. وعندما نزل دون خوان تونس في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٥٧٣ لم يتمكن من السيطرة عليها طويلاً فبعد نحو عشرة أشهر اشتبك أسطول تركي-عربي مؤلف من نحو ٣٠٠ سفينة مع القوات الإسبانية وأخرجها من المدينة. وحاول فيليب الثاني إعادة بناء قوته البحرية لكن نفقات حروبه الكثيرة، خصوصاً في هولندا، كانت أرهقت الموازنة فأعلن إفلاسه عام ١٥٧٥. واستمر هذا الوضع المالي المتردي حتى ١٥٨٠ عندما ضم البرتغال إلى ممالكه بعد مقتل الملك سباستيان في المغرب عام ١٥٧٨، وآلت إليه مستعمراتها الهائلة في البرازيل والهند وأفريقية وتمكّن أخيراً من السيطرة على كل شبه جزيرة آيبرية. وبات الأسطول البرتغالي الإسباني الموحّد يومها أكبر أسطول في العالم إذ كانت زنة سفنه بين ٢٥٠,٠٠٠ طن و٣٠٠,٠٠٠ طن، في مقابل اسطول هولندي زنة سفنه ٢٣٢,٠٠٠ طن، واسطول إنكليزي زنة سفنه ٤٢,٠٠٠ طن. وواكبت هذه القوة تطوير تقنية لتنقية الفضة باستخدام الزئبق فتدفقت الفضة من مناجم البيرو وبات في مقدور فيليب الثاني تمويل أي حروب جديدة، وبدت الأمبراطورية يومها قوة لا يمكن لاحد أن يغلبها في البر أو البحر.

وفي تلك الفترة كان الصدام على أشده بين إسبانيا وإنكلترا لأن الانكليز البروتستانت ساهموا دائماً في دعم الثورة الهولندية البروتستانتية. وكان القراصنة الانكليز يهاجمون السفن الإسبانية وأصبح المحيط الأطلسي أكبر ساحة حرب بحرية آنذاك. وفكر دون خوان النمسوي بغزو إنكلترا، لكنه مات عام ١٥٧٨ فتولّى فيليب

الإعداد للغزو. وفي عام ١٥٨٨ انطلقت ١٣٠ سفينة حربية إسبانية في إتجاه الشواطىء الإنكليزية لكن سوء الطقس، وبراعة القباطنة الإنكليز وقدرة سفنهم الأصغر حجماً على المناورة أفشلت الحملة. وفقد الاسطول الإسباني نحو ثلث سفنه لكن فيليب الثاني لم ييأس فأمر بحملة بحرية ثانية عام ١٥٩٦ أخفقت هي الأخرى وأضعفت هيبة إسبانيا في تلك الحقبة من الصراع الدولي. وكانت نفقات هذه الحملة باهظة جداً إذ كلّفت الخزانة نحو عشرة ملايين دوقة مما ساهم في إفلاس الدولة في السنة ذاتها. ولجأ فيليب إلى إصلاح أمور مملكته باجتراع علقم تحسين علاقاته مع فرنسا، وقطع بعض الصلات مع هولندا. ومات فيليب الثاني في الثالث عشر من أيلول (سبتمبر) عام ١٥٩٨ فورثه ابنه فيليب الثالث وبدأ تفكيك الأمبراطورية.

* * *

الفصل الرابع

الأندلسيون ومحاكم التحقيق

١ - طبيعة العلاقات الدينية في الأندلس

تربّع أندريس لوبيث ووضع يديه المتشابكتين في حضنه ونظر إلى الحقل أمامه لحظات ثم أغمض عينيه ومال برأسه يميناً ويساراً كأنه يلوّح به ليستدعي الماضي. اضطرب شيء في صدره وهاج ولم يعد يستطيع احتجازه فزفر بعمق ليخرج هواء منفاه بين نصارى الإسبان ورائحة قهرهم، ثم فتح فمه فجأة وعب هواء جبل البشرات في خياله فاهتز صدره نشوة برطوبته الحريرية كأنه يرقص لمقدمه. طاف به خياله في ذكرياته القريبة فانتقل إلى جبال شلير في الجنوب ورأى بعيني صقر محلق قريته الصغيرة المطلة على مياه البحر الأبيض المتوسط الممتدة في اتجاه الأفق الغربي قبل أن تتوقف عند ساحل العدوة المغربيّة. هبط خيال أندريس به إلى القرية ببطء فاستوقفه في البعيد صوت غناء زوجته يخرج إليه من البيت حزيناً صافياً، قبل أن تتوقف وتتنهد بعمق وتستأنف ارضاع ابنه الصغير.

رفع أندريس سبّابته فمسح دمعة مسترسلة على خده الأيمن، ثم عصر عينيه فأخرج الدموع الأخرى. تردد لحظات. يمكن أن يكون أيٌ من زملائه الجالسين حوله جاسوساً لمحكمة التحقيق، ويمكن أن يكونوا جواسيس كلهم. سينتهي في قبو من أقبية محكمة التحقيق وسيستجوبونه أولاً ثم سيعذبونه لانتزاع المعلومات التي يريدونها ثم- . ماج صدر أندريس بغضبه وحزنه. «فليكن»، قال لنفسه، «فليكن». كان خسر كل ماضيه وانقطع عن الناس الذين عرفهم وأحبهم في حياته ثم صادروا أرضه ثم ابنه وزوجته ومستقبله وها هو انتهى غريباً في أرض غريبة مع غرباء. كل ما بقي له هي الذكريات ولن يقوى حتى أعتى المحققين في المحكمة على انتزاعها من صدره. أطار اليأس مخاوفه، ولم يعد قادراً على كبت خواطره فبدأ الكلام. تكلّم بتردد أولاً ثم اجتاز تردده وبدأ يستذكر لمن حوله أحداث الحرب الأخيرة في جنوب غرناطة. كانت المعارك استمرت متقطعة نحو ثلاث سنوات، لكن الثوار لم يستطيعوا في النهاية التصدّي لجيوش دون خوان النمسوي التي تدفقت بلا انقطاع فاستسلموا بعد إعطائهم الأمان. كان أماناً كاذباً في عهد الملك الإسباني فيليب الثاني كما كان أماناً كاذباً مثل أمان الملكة إيزابيلا التي لم تستطع إدخال قواتها إلى غرناطة بالسيف فأدخلتها بالمكر

والاحتيال. وهكذا وجد أندريس نفسه يوماً محاطاً بالجنود الذين دفعوه في عمق الشمال مع الأندلسيين الآخرين في الطريق إلى منفاه القشتالي حيث هو الآن.

«سأعود يوماً ما»، قال أندريس لمن حوله بهدوء، «سأعود وسأبحث عن زوجتي، وسأنتزع ابني من الأسرة النصرانية التي سرقته».

نظر فرانسيسكو إلى أندريس بدهشة. «كيف ستعود؟»، قال ضاحكاً، ثم أخذ يجيل عينيه بالعمال الذين كانوا يستريحون تحت الشجرة الكبيرة كأنه يدعوهم الى تأكيد كلامه، «إذا وجدوك في قلب عشرة فراسخ من غرناطة سنراك ثانية مصلوباً على باب البيرة».

«ربما»، قال أندريس وهو يهزّ رأسه موافقاً، «ربما. أريد أن أفعل هذا قبل أن أموت. أريد أن أكون حراً مرة أخرى، وعربياً مرة أخرى، وأباً لابني مرة أخرى وزوجاً لحبيبتي مرة اخرى. إن مت قبل أن يحدث هذا لا يهم. سأراهما بعد ذلك في صورة ما في مكان ما وسنعود بعدها أسرة واحدة مرة أخرى».

هذا هو تصوّرنا للحوار الذي وضع أندريس لوبيث بين يدي محاكم التحقيق بعد الوشاية به.[1] كان تأثّر أندريس الغرناطي، الذي نعرفه بالاسم المسيحي الذي فرضته عليه الكنيسة، عميقاً مثل جرحه وبمرارة منفاه إلا أن محكمة التحقيق اعتبرت هذا التعبير الطبيعي تأليباً ومخالفة يستحقان التحقيق والعقاب. وفي وثائق محكمة التحقيق في مدريد ملف بحادثة أخرى وقعت بعد الثورة الأندلسية الكبرى نجد فيه الأندلسي لورنزو لوباث، الذي استعبده الإسبان وباعوه لشخص في طليطلة، يفر من مالكه ويلتحق بعدد كبير من الأندلسيين كانوا يعيشون في الجبال. ولما أمسكه القشاتلة قالوا بحرقه ومنعوا عنه الماء في فندق لأنه عربي، ورجموه بالحجارة. وبدلاً من استرحام جلاديه صاح فيهم بعدما اشتد ألمه: أنا فعلاً عربي حتى نخاع العظم.[2] ونجد في حادثة ثالثة وقعت عام ١٥٦٧ الدرك الذي نزلت إليه محاكم التحقيق التي أخضعت أندلسية اسمها النصراني خوانا استعبدها القشاتلة في مالقة للتحقيق لأنها كانت ترتقي سلماً وهي تحمل قدراً مملوءة ماءً حاراً فزلّت قدمها فاستنجدت بالرسول العربي وصاحت: يا محمد!.[3] وفي حالة رابعة سيقت إيزابل دو غوردا إلى التحقيق لأنها أكلت عند جارة مسيحية طعاماً لم تكتشف أنه كان لحم الخنزير إلا خلال الحديث

---

[1] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ٢٣.

[2] أعلاه، ص ٣٠.

[3] أعلاه، ص ٢٢.

بعد ذلك فما كان منها إلا أن وضعت أصبعها في فمها وقسرت نفسها على التقيّؤ.[1]

ونعرف اليوم عن طبيعة العلاقة بين الأندلسيين ومحاكم التحقيق أكثر مما كنّا نعرفه قبل عشرين سنة، والصورة المتوافرة عن مستويات تلك العلاقة أوضح الآن بأشواط من الصورة التي وصلت إلينا عبر كتابات ركزت الضوء في دراستها لمحاكم التحقيق على اضطهاد اليهود واللوتريين (البروتستانت لاحقاً) وهمّشت، من دون قصّد أحياناً، اضطهاد الأندلسيين. وإذا استعرضنا خارطة انتشار الأندلسيين في إسبانيا الشاسعة سنكتشف على الفور هول المهمة التي أخذتها محاكم التحقيق على عاتقها لضمان اندماج الأندلسيين في الاسرة الإسبانية الكاثوليكية الواحدة. ولاحق عمّال محاكم التحقيق اليهود المتنصّرين (أو المُنصّرين) في كل أرجاء إسبانيا. غير أن اليهود كانوا يعيشون عموماً في أحياء معروفة ضمن مدن معروفة لذا لم تكن ملاحقتهم ومراقبتهم في مستوى صعوبة ملاحقة ومراقبة الأندلسيين الذين انتشروا في كل إسبانيا، وظلت أعداد منهم في مملكة غرناطة حتى بعد تغريب جل سكان تلك المملكة في آخر مراحل الثورة الأندلسية الكبرى. وربما كان الخطر الذي مثّله اللوتريون على إسبانيا، والأهم من ذلك الممالك التابعة لها في أوروبة، أعظم من خطر الأندلسيين لأن هؤلاء كانوا مسيحيين مثلهم. وساعد إسبانيا آنذاك تنظيم الحملة ضد البروتستانت خارج البلاد (في هولندا وألمانيا)، لذا استطاعت قشتالة عزل نفسها عن التأثيرات الخارجية وغلق حدودها على الكتب والتيارات الفكرية الأجنبية.

وأحرقت محاكم التحقيق الإسبانية[2] آلاف الأندلسيين وأوقعت عقوبات مختلفة بعشرات الآلاف شمل بعضها السجن المؤبد أو العمل في القواديس طول العمر. وعانى مئات ألوف الأندلسيين الفقر والعذاب النفساني وشعور الإضطهاد والتقييد لكنّ هذه المحاكم عجزت بعد أكثر من ١٠٠ سنة من الاضطهاد عن إذابة الأندلسيين في الكنيسة الكاثوليكية والمجتمعات الإسبانية. وأثبت الأندلسيون في النهاية أن تصميمهم كان أقوى من تصميم الإسبان، فأخفقت محاكم التحقيق في تحقيق أبسط مهامها، وردّت الكرة إلى الملعب الملكي فلم تجد حكومة فيليب الثالث الحائرة حلاً سوى انتزاع جزء كبير من الأندلسيين من وطن عاشوا فيه وأجدادهم ٩٠٠ عام.

---

[1] أعلاه، ص ٣١.

[2] لم تكن محاكم التحقيق تتولى الحرق بنفسها، فحين تصدر قراراً بحرق ضحية ما كانت تسلّمه إلى السلطات المدنية لتنفيذ القرار طالبة من السلطات الرأفة به وهي تذرف دموع التماسيح. إلا أن هذا الأجراء شكلي إذ لا يوجد استئناف لاحكام محاكم التحقيق، كما أن الحكم نهائي ويجب أن تنفذه السلطات المدنية خلال مدة أقصاها خمسة أيام عملاً بتوجيه قديم من البابا أنوصان الرابع أصدره عام ١٢٥٢.

ونستطيع بسهولة التعاطف مع الأندلسيين في مواجهتهم شبه اليومية مع عمّال محاكم التحقيق، ونستطيع تصوّرهم تحت التعذيب في قصور محاكم التحقيق أو في سجونها، ونستطيع أن نتصوّر تلوّيهم وألسنة اللهيب تحيط بأجسادهم من كل جانب، وأن نسمع هتافهم في لحظات حياتهم الأخيرة، إلا أن كل هذا وغيره يجب ألا يخفي حقيقة واضحة كبيرة هي أن معظم الأندلسيين واجهوا الاضطهاد بشجاعة وكبرياء، ونظروا إلى مضطهديهم ومن سعى إلى تنصيرهم بمقدار وافر من الاستخفاف والهزء والاحتقار. وتساءلت شخصياً مرات كثيرة لماذا يشعر المرء بضيق لا يسهل تفسيره عندما يفكّر بمحاكم التحقيق وخلصت إلى أن السبب هو أن محكمة التحقيق ما كانت ستتوقف عن تعذيب ضحيتها إلا عندما تدفعه إلى نهاية اليأس وعندها لا يعود هناك فرق كبير بين الحياة والموت. واعتقد بعد قراءة مجموعة من وثائق محاكم التحقيق المتصلّة بمحاكمة الأندلسيين في إسبانيا والمكسيك أن هذا بالضبط موطن إخفاق محاكم التحقيق إذ لم تستطع بكل آلتها الجبّارة دفع معظم الأندلسيين إلى نهاية اليأس فتمسّكوا في صورة إعجازية مدهشة بأمل التمكّن يوماً من الخلاص من الرابوص الكنسي السلطوي المجتمعي الإسباني.

لكن انتظار الخلاص طال أكثر مما توقّع معظم الأندلسيين، ولم يأت العون من المغرب الذي انشغل بهمومه، ولم يأت من العثمانيين الذين انشغلوا بالصفويين في إيران، ومات أندلسيون كثيرون حرقاً أو تحت التعذيب في الزنازين، أو على يد القشاتلة، وربما همّاً وكمداً اعتباراً من فترة بدأت بُعيد تسليم غرناطة عام ١٤٩٢. وكما اشتهر المحقق العام توركيماده (مات عام ١٤٩٨) بأنه «مضطهد اليهود»، اشتهر خليفته الثاني فرانسيسكو دي سيسنيروس (١٤٣٦-١٥١٧) المعروف أيضاً باسم خيمينس بوصف «مضطهد الأندلسيين» ثم بوصف «مضطهد العرب» بعدما نقل الحرب إلى وهران عام ١٥٠٩، أي بعد ١١ عاماً من تسبّبه في قيام الثورة الأندلسية الأولى. وبين تقاعد توركيماده عام ١٤٩٦ وتولّي خيمينس منصب المحقق العام عام ١٥٠٧ شغل هذه الوظيفة دييغو ديثا Diego Deza. وأدخل هذا الأخير إضافات مهمة لتعزيز سلطات محكمة التحقيق وصار المحقق العام لممالك قشتالة وليون وأرغون وبلنسية، وانتشرت فروع محاكم التحقيق في قرطبة وجيان وطليطلة وغيرها. ومع ذلك بقي ديثا ظلاً باهتاً لسلفه توركيماده، فتابع استكمال ما بدأه معلمه الأكبر بتصفية جيوب «الهرطقة» اليهودية، وأغلق أبواب قشتالة على أفكار الدنيا.

والتفت ديثا إلى الأندلسيين في قشتالة القديمة (شمال البلاد) إلا أن هدفه الكبير

كان الأندلسيين في غرناطة . وحاول ديثا مدّ نطاق سلطاته إلى المملكة العربية فاصطدم مع رئيس أساقفة غرناطة هرناندو طلبيره ونشب بينهما خلاف في شأن «معالجة» المسألة الأندلسية فاتهم ديثا طلبيرة بممارسة الطقوس الدينية اليهودية . وثبت في ما بعد بطلان هذا الاتهام لكن التلطيخ كان لحق بسمعة طلبيره ولم ينعم بحياة هادئة بعد ذلك . وبموته لم يبق للأندلسيين في الكنيسة القشتالية من يتعاطف مع قضيتهم أو يتفهّمها . وفي المئة السنة اللاحقة نظر الأندلسيون والإسبان إلى بعضهم بعضاً عبر طبقات كثيفة من الشكوك والعداوة ، وتبادلوا الاتهامات وبدا للكاثوليكية القشتالية أن لا أحد في العالم يستحق البقاء إن لم يكن كاثوليكياً ، وصار الإسلام بالنسبة لها مصدر التهديد الأكبر ، وباتت العلاقات الدينية المتميّزة التي سادت الأندلس بعد الفتح شيئاً من الماضي .

الإسلام في الأندلس

كان قسم كبير من سكان آيبرية يدينون بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي مع وجود أقلية مهمة من اليهود عندما بدأ الفتح عام ٧١١ . وكان التعامل بين الفاتحين وأهل البلاد قائماً على اتفاقات مختلفة أهمها «أن يدفع هؤلاء جزية على رؤوسهم وخراجاً على أراضيهم كان في الأغلب جزءاً من غلة الأرض ، يعادل الثلث حيناً والربع آخر حسب طيب الأرض وغلتها» .[١] واختلفت قيمة الجزية إلا أنها حُددت عموماً بمبلغ ٤٨ درهماً للميسورين و ٢٤ درهماً لذوي الدخل المتوسط و١٢ درهماً للصنّاع ، ما لم يحل دون دفع الجزية المرض أو غير ذلك .

وأسلم آيبريون كثيرون لأسباب شتّى منها الاقتناع بالإسلام والإنعتاق من العبودية والخلاص من دفع الجزية ، أو حتى التقرّب من السلطة ، لكن أعداداً كبيرة في طليطلة وإشبيلية وقرطبة وماردة ومناطق أخرى كثيرة بقيت على دينها . ولم يكن هذا حائلاً أمام ارتقاء هؤلاء إلى مراتب مهمة آنذاك ، ولم يكن حائلاً في القرون اللاحقة إذ نعرف أن الغالب بالله مؤسس غرناطة استعان بصهره أبي الحسن بن الحسن بن أشقيلولة الإسباني لتأسيس ملكه . وكان من هؤلاء من قاد الجيوش والأساطيل . وتابعت طليطلة في العهد الإسلامي الدور الذي أدّته في الماضي فكانت أهم مركز نصراني ومقر رئيس اساقفة البلاد .

وكان تعيين رئيس الأساقفة وتعيين أساقفة إشبيلية وقرطبة وماردة يقتضي تصديق

[١] «تاريخ افتتاح الأندلس» . أبو بكر محمد بن القوطية ، بيروت (١٩٥٧) ، ص ٢١١ .

الأمير أو الخليفة» .[1] وقدّم الولاة بعض كبار زعماء النصرانية، ثم جاء عبدالرحمن الداخل فأطّر للعلاقة بتعيين قمص Comes (كونت؟) عام للنصارى من أهل الذمة يقيم إلى جواره في قرطبة ويستشيره، هو أرطباش Ardabas الذي كان من حزب وقلة Aquila الذي دعا المسلمين إلى دخول آيبرية وساعدهم على فتح الأندلس .[2]

واستنصرت جماعات من المسيحيين لدينهم خلال مراحل عدّة من الحكم الأندلسي، فظهرت في قرطبة بين سنتي ٨٥٠ و٨٥٩ (٣٣٥-٢٤٥) طائفة تحدّى اعضاؤها السلطة وطلبوا الموت. إلا أن الحركة ظلت محدودة وتبددت بفضل السياسة التي انتهجها محمد بن عبدالرحمن (٨٥٢-٨٨٦) وأدّت إلى اعتناق الغالبية العظمى من سكان قرطبة المسيحيين الإسلام .[3] وفي العموم دانت غالبية سكان المناطق الواقعة جنوب نهري أبرة ودويرة الشماليين بالإسلام إلا أن الوجود النصراني ظل قوياً في بعض المناطق. وعمل القرطبي إسحاق بن بلشك على ترجمة الإنجيل من اللاتينية الى العربية عام ٩٤٦ لخدمة النصارى المستعربين، وكانت لهؤلاء كنائسهم الكثيرة .[4] وفي وجه الإجمال «كان التسامح مع أهل الذمة هو الطابع العام للسياسة في الأندلس إلا حين كان الذمّيون يوالون العناصر المعادية للحكم العربي» .[5] ولاحظ الرحالة والجغرافي ابن حوقل الذي زار الأندلس عام ٩٤٨ (٣٣٧) إن في البلد «غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تُمدّن، وهم على دين النصرانية، روم، وربما عصوا في بعض الأوقات ولجأ بعضهم إلى حصن، فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرّد» .[6]

وتعكس ملاحظات ابن حوقل الذي جاب شرق العالم الإسلامي وغربه حقيقة

---

[1] أعلاه، ص ١١٠ .

[2] «تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة»، ص١٣ . وتتصل بأرطباش قصة طريفة صاحبتها سارة حفيدة الملك القوطي غيطشة إذ صادر أرطباش منها نحو ألف عقار في إشبيلية فأبحرت بسفينة من ميناء تلك المدينة إلى عسقلان ثم توجهت إلى دمشق براً وقابلت الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أمر برد أملاكها. وتزوجت الأميرة سارة عيسى بن مزاحم وانجبت ولدين هما إسحاق وإبراهيم. والأخير هو الجد الأكبر للمؤرخ الأندلسي المشهور أبي بكر بن القوطية. «نفح الطيب»، ج١، ص ٢٦٧ .

[3] أولى بعض المؤرخين أهمية كبيرة لهذه الحركة فتناولها دوزي في أكثر من جزء وخصص لها لين بول فصلاً كاملاً. أنظر : Lane-Poole, Stanley. *The Moors In Spain*, 78-95.

[4] مما يشهد على التسامح الإسلامي وجود نحو أربعة آلاف شخص من نسل المستعربين في إسبانيا اليوم ربعهم تقريباً في طليطلة.

[5] المصدر قبل السابق، ص ١٣ .

[6] «صورة الأرض»، ص ١١١ .

الوضع في الأندلس آنذاك إذ لم يأت التهديد من الممالك النصرانية الشمالية بل من الانتفاضات التي وقف وراءها المولدون والمستعربون. ومن بين الفئتين، كان المولّدون الجهة الأخطر، وجاءت حركتهم بعد هدوء استمر أكثر من قرن. ويشرح مؤرخ سبب ذلك بقوله: «إن الجيل الهادىء هو الجيل الأول، أي ذلك الجيل الذي كان قوطياً من ناحية المجتمع الذي كان يعيش فيه والقوانين الناظمة لحياته ومسيحياً من ناحية عقيدته الدينية ثم دخل الدين الإسلامي. وبذلك لم يغير دينه فقط، بل استبدل القانون القوطي بالقانون الإسلامي، وهو أمر حقق له فوائد كثيرة ومنافع جلى، فمن الطبيعي والحالة هذه أن يكون هادئاً. أما بالنسبة للأجيال التالية فقد أصبحت هذه المنافع جزءاً من حياتها وبرزت مساوئ جديدة أدت إلى ثورتها».[1] ومهما يكن من خطورة هذه الحركات فإن التصدي لها أثبت جدوى، ولم تتقوض الخلافة إلا بعد الفتنة البربرية التي لحقت بسقوط الدولة العامرية التي حكمت أيام الخليفة المُستضعف هشام المؤيد.

واستغلّ ألفونصو السادس الفوضى الداخلية التي دهمت طليطلة فدخل المدينة في عام ١٠٨٥ وأعلن نفسه ملكاً على الملتين النصرانية والإسلام. وتعهد هذا الملك للمسلمين صون أرواحهم وأملاكهم، وألزم نفسه الامتناع عن التدخل في الشؤون الدينية للمسلمين أو لليهود. وعلى الرغم من أن احتلال هذه المدينة، بمساعدة الفرنسيين والأندلسيين على حد سواء، كان أعظم انتصار حققه الشمال على الأندلس حتى ذلك الوقت فإنه لم يتحوّل إلى انتصار نصراني على الإسلام، ولم يقلب ألفونصو المسجد الكبير في المدينة إلى كنيسة إلا بعد شهرين من استسلامها، ولا يبدو أنه وافق على ذلك إلا بعد مناشدة رئيس الأساقفة برنارد، وزوجة ألفونصو الفرنسية كونستانس.

ويمكن أن نلاحظ خلو هذه الخطوة النصرانية من الروح الصليبية التي سادت مراحل لاحقة من خلال وصف ما حدث يوم إخلاء المسجد. إذ دخل جنود ألفونصو إليه «وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه، واعتمده في ذلك اليوم ليتزود منه. وقد طاف به مردة عفاريته، وسرعان طواغيته، وبين يديه أحد تلاميذه يقرأ، فكلما قالوا له عجّل، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل، ثم قام ما طاش ولا تهيب، فسجد به واقترب، وبكى عليه ملياً وانتحب، والنصارى يعظّمون شأنه، ويهابون مكانه، لم تمتد إليه يد، ولا عرض له بمكروه واحد».[2]

---

[1] «دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها»، ص ١٢٦.

[2] «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة». ابو الحسن الشنتريني، (القاهرة ١٩٣٩)، ج ٤، ص ١٣١-١٣٢.

إنقلاب العلاقات الدينية في الأندلس

طرأ تبدّل مهم في سلوك ألفونصو بعد سنة من أخذ طليطلة عندما دخلت الأندلس قوة ناهضة من البربر هي المرابطون المغربيون وحملوا، بمشاركة ملوك الطوائف، على جيش ألفونصو وأنزلوا به هزيمة ماحقة في معركة الزلاقة. ولم يستطع المرابطون استعادة طليطلة على رغم حصارها فترة، إلا أن اعتبار المرابطين الأندلس ولاية مغربيّة واستفرادهم بالسلطة حرم ألفونصو من فرصة لم تتوافر لغيره من قبل للتوسع في الجنوب وإعمار مملكته بالجزية التي كان يفرضها على ملوك الطوائف. وإزاء إخفاق ألفونصو في تحقيق أي تقدم في اتجاه الجنوب بدأ يناشد أصهاره الفرنسيين زيادة الدعم لمقارعة المرابطين، ثم امتدت المناشدة إلى البابوية التي بدأت تقدّم أشكالاً عدّة من الدعم في مقابل زيادة نفوذها في المناطق التي سيطر عليها ألفونصو.

إلا أن صورة ألفونصو ملكاً كاثوليكياً يغطيه الزرد من كتفيه إلى أخمص قدميه ويلفّحه رداء عليه صليب أحمر كبير هي صورة هوليوود وليست صورة الواقع. ولم يكن يُعتبر ملكاً عظيماً في تلك الفترة، أو قبلها أو حتى قبيل اعتلاء إيزابيلا عرش قشتالة، من لم يكن يرتدي ثياب ملوك الأندلس ويأكل طعامهم ويعيش في القصور المبني بعضها على شاكلة القصور في الجنوب بأيدي البنّائين الأندلسيين. وكان شائعاً زواج بعض ملوك الشمال بأكثر من زوجة واحدة، واتخذ بعضهم الزوجات أو المحظيّات العربيات ومثال ذلك ألفونصو السادس نفسه الذي جاءه ابنه الوحيد من زوجته سائدة أرملة الفتح بن المعتمد بن عبّاد أمير قرطبة الذي قتله المرابطون.[١] وكان لرئيس الأساقفة نفوذ كبير في بلاد ملوك الشمال، إلا أن الملوك ظلوا في معظم الحالات أقوى من الكنيسة، فكانوا يقيلون الأساقفة ويعينون جماعتهم، ويعترضون على قرارات رؤساء الأساقفة كما كان يحدث في ألمانيا.

وطرأت تغيّرات جذرية على العلاقة بين الملوك والبابوية في القسم الأخير من القرن الحادي عشر عندما تصدى البابا غريغوريوس السابع للامبراطور الألماني هاينريش الرابع (الأمبراطور الروماني المقدّس) ومنعه من التدخل في سلطات البابوية. وانتهى الصدام بهزيمة غريغوريوس لكن ليس بهزيمة البابوية التي نهضت في عهد إربان الثاني فتمكّن بحذاقته وحسن تدبيره من تحويل الصراع بينه وبين هاينريش إلى صراع بين البابوية والإسلام. واستطاع هذا البابا الفرنسي تأجيج مشاعر الفرنسيين الدينية وتركيز المخاوف على الإسلام، وحشد طاقات فرنسا وبعض المناطق الأوروبية

[١] وهي مدفونة اليوم مع زوجها ألفونصو في كنيسة القديس مانسيو في مدينة سحقون جنوب شرقي ليون.

الأخرى لمساعدة بيزنطة على السلاجقة المسلمين. وكانت دعوة النصارى الأوروبيين إلى مساندة النصارى البيزنطيين في صلب الخطبة التي أطلق فيها إربان الثاني الحملات الصليبية عام ١٠٩٥، إلا أن الغاية التي ألهبت الحماس هي انتزاع الأماكن المقدّسة في فلسطين من أيدي المسلمين إذ كانت صارت وقتها مطلباً جماهيرياً بعد انتشار قليل من الحقائق وكثير من الإشاعات عن قتل الحجاج وعرقلة وصولهم إلى بيت المقدس وفرض الضرائب العالية على مرورهم عبر المناطق التي احتلها السلاجقة. ولم يكن الصليبيون قادرين على انتزاع بيت المقدس من المسلمين من دون مساعدة بيزنطة التي وفرت أشكالاً عدّة من الدعم، إلا أن المناداة بمساعدة «الأخوة النصارى» كانت من أنواع الدعاية. فبعد نصف قرن من تبادل الكنيستين الشرقية والغربيّة حرمان رئيسيهما تعمق الاختلاف بين الجهتين، ولم يعد هذا الطرف يرى في الطرف الآخر المسيحي الذي هو. وعندما اقتحم الصليبيون بيت المقدس ذبحوا من بقي في المدينة مسلمين ونصارى. ولم يكن السبب آنذاك أنهم لم يستطيعوا التفريق بين المسلمين والنصارى المشارقة في فورة الحرب، بل لأنهم كانوا توقفوا قبل نصف قرن عن اعتبار النصارى المشارقة أخوة في المسيحية.

وقابل صعود العصبية الكاثوليكية خلف البيرينيه تشدّد ديني إسلامي في الأندلس سبّبه المرابطون (نسبة إلى جهادهم في الرباطات، أي الحصون والمنابر) الذين اضطهدوا الكتّاب وأحرقوا الكتب و«لم يلبث الأندلسيون أن ضاقوا ذرعاً بحكم المرابطين لتسليطهم الفقهاء على الناس، ولتضييقهم شيئاً مما تعوده الأندلسيون من حرية شبيهة بالفوضى».[1] إلا أن عمر التعصب عادة قصير يتسارع بعده الاسترخاء والاستطياب. وفيما استمرت جهود حشد قوى المسيحية لمواجهة الإسلام، بدأ المرابطون، (حماة الأندلس) يمتزجون في المجتمع الجديد و«تشبّهوا بالأندلسيين في الأخذ بأسباب التحضر، وتقريب طبقة المثقفين، والعمل على تزيين مجالسهم بما يمحو بساطة الصحراء، وجنح بعضهم إلى الاستبداد»[2] و«استولى النساء على الأموال وأسندت اليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة، مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور»[3]، وهكذا «تضعضعت القاعدة

---

[1] «تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين»، ص ٣١.

[2] أعلاه، ص ٣١.

[3] «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، (القاهرة ١٩٦٣)، ص ١١٤.

التي قامت عليها الدولة، وهي البعث الديني والجهاد . . . ولم يكد الموحدون يظهرون حتى كان القضاة والمغامرون في الأندلس، أعلنوا استقلالهم، كل في بلدته وناحيته»[1]، وصار وضع الأندلس أسوأ مما كان عليه أيام الطوائف.

وخلال مرحلة التشدّد الديني في الأندلس رحل بعض اليهود إلى الشمال أو خارج الأندلس.[2] وفي الوقت نفسه بدأ ولاء النصارى الأندلسيين في الاهتزاز فخاطب المعاهدون النصارى في كورة غرناطة ألفونصو الأول «المحارب» (الفنش بن ردمير) عام ١١٢٥ بعد خمس سنوات من احتلاله مدينة سرقسطة **«وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسلهم، ملمّة بالإستدعاء، مطمعة في دخول غرناطة. فلما أبطأ عنهم، وجهوا إليه زماماً يشتمل على اثني عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم، لم يعدّوا فيها شيخاً ولا غراً. فانتخب واحتشد، وتحرك أول شعبان من عام تسعة عشر وخمس مئة، وقد أخفى مذهبه، وكتم أربه، فوافى بلنسية، ثم إلى مرسية، ثم إلى بيرة، ثم اجتاز بالمنصورة ثم انحدر إلى برشانة، ثم تلوم إلى وادي ناطلة، ثم تحرك إلى بسطة، ثم إلى وادي آش، فنزل بالقرية المعروفة بالقصر، وصافح المدينة بالحرب، ولم يحل بطائل، فأقام عليها شهراً»** .[3]

واستمرت غزوة ألفونصو الأول سنة تقريباً كرّ بعدها ومعه نحو ١٠,٠٠٠ من المعاهدين وأسَرهم. أما باقي المعاهدين الذين ثبت اشتراكهم في استدعاء ألفونصو فتم تغريبهم إلى المغرب في السنة التالية بفتوى من قاضي الجماعة (القضاة) أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد، جد الفيلسوف المعروف. وكان هذا الموقف الأهم في الأندلس حتى تلك الفترة، لكنّه لم يكن الأول إذ رحلت أعداد كبيرة من النصارى واليهود إلى الممالك الشمالية بعدما خرّب البربر قرطبة، لكن هذه الهجرة الداخلية ازدادت خلال عهد المرابطين، ثم تسارعت عندما آل حكم الأندلس إلى الموحدين الذين استمر عهدهم بين ١١٤٥ و١٢٢٣ (٥٤٠-٦٢٠).

وفي تاريخ آيبرية أمثلة كثيرة على بطش الشمال بسكان الجنوب أو العكس بعد احتلال المدن والقرى على غير السائد والمُتعارف عليه. إلا أننا نلاحظ تركيز قوات ألفونصو السابع (١١٢٦-١١٥٧) على قتل جميع الأئمة في منطقة مدينة شريش

---

[1] «تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين»، ص ٣١.

[2] يزعم مؤلف «تاريخ الشعوب الإسلامية» (ص ٢٠٦) أن يهود مدينة اللشانة Lucena لم يتمكنوا من متابعة ممارسة دينهم اليهودي الا بعد دفع مبلغ كبير الى المرابطين. انظر: Brockelmann, Carl (Ed.). *History of the Islamic Peoples*, Routledge & Kegan Paul, (London1980).

[3] أنظر قصة الاستدعاء في «الإحاطة في أخبار غرناطة»، ج١، ص ١٠٨-١١٤. وترد القصة أيضاً في «البيان المغرب»، ج٤، ص ٦٩-٧٣.

الجنوبية وإحراق المساجد والكتب الدينية. ومع ذلك توجد أمثلة كثيرة على وجود تباين واضح بين موقف نصارى آيبرية والنصارى الأوروبيين. ومن ذلك أن البرتغاليين استعانوا بالمقاتلين الإنكليز والهولنديين والألمان المتجهين إلى المشرق لاحتلال عدد من المدن الرئيسية مثل لشبونة عام ١١٤٧ (٥٤٢)، وقصر الفتح أو قصر أبي دانس (١١٦٠/ ٥٥٥). وخلال حصار مدينة شلب التي استسلمت عام ١١٨٩ (٥٨٥)، قطع المهاجمون الماء عن المدينة فطلب أهلها الصلح. ولما عزم الصليبيون الأوروبيون قتل أهلها عن بكرة أبيهم تدخل الملك البرتغالي سانشو الأول وأخرج الأندلسيين شرط أن يتركوا وراءهم مالهم وأملاكهم.[١]

وسعت البابوية بعد انتصار صلاح الدين في معركة حطين واستعادة القدس إلى دعم الجبهة الغربيّة في الأندلس فصالح سيلستين الثالث (١١٩١-١١٩٨) ملوك الشمال الأندلسي وحضّهم على حرب الموحدين. وجاءت نتيجة هذه الحملة الموحّدة على غير ما توقعه البابا فنزلت بالمهاجمين هزيمة ساحقة في معركة الأرك (الأركة) يوم الثلاثاء ١٨ تموز ١١٩٥ (٩ شعبان ٥٩١)، لحقت بها هزيمة منكرة اخرى عندما سقطت قلعة شلبطرة الحصينة. وفي السادس عشر من تموز عام ١٢١٢ (١٥ صفر ٦٠٩) حقق الشماليون وحلفاؤهم انتصاراً ساحقاً على الخليفة الموحدي الناصر لدين الله في وقعة العقاب، وتابعوا زحفهم فاحتلوا مدناً أخرى بينها بياسة وأبدة.

ووقعت خلال فترة لحقت خروج جيوش الشمال من طليطلة إلى حرب الموحدين حادثتان تشيران إلى تردد ملوك الشمال في البطش بالمسلمين إن استسلموا: الأولى في الأول من تموز (يوليو) بعد سقوط قلعة رباح Calatrava، عندما قبل ملوك الشمال النصراني الشروط التي عرضها المسلمون المحاصرون فأدى ذلك إلى اغضاب الفرنسيين[٢]، والثانية خلال حصار مدينة أبدة عندما وافق ألفونصو الثامن وبدرو (بطره) الثاني وسانشو السابع على قبول فدية عرضها أهل المدينة ثمن سلامتهم. وهنا عارض أسقف من طليطلة ومطران من نربونة (جنوب فرنسا) الملوك الثلاثة باسم البابا، وأصرّا على استسلام المدينة من دون قيد أو شرط. وما تبع ذلك يعطي صورة

---

[١] «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»، ص٣٦٣-٤٦٢.

[٢] يقول المراكشي في «المعجب» (ص ٤٠١): «وخرج الادفنش (ألفونصو الثامن)، لعنه الله، من مدينة طليطلة في جموع ضخمة، حتى نزل على قلعة رباح... فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعدما أمنهم على أنفسهم، فرجع عن الادفنش-لعنه الله- بهذا السبب من الروم جموع كثيرة، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة، وقالوا: إنما جئت بنا لتفتتح بنا البلاد، وتمنعنا من قتل المسلمين ما لنا من صحبتك من حاجة على هذا الوجه».

جلية عن نمط الحرب التي شنها الشماليون على الأندلسيين في مراحل لاحقة إذ يقول صاحب «المعجب» إن ألفونصو الثامن بعد الزلاقة: «قصد مدينتي بياسة وأبدة، فأما بياسة فوجدها أو أكثرها خالية، فحرق ديارها وخرب مسجدها الأعظم، ونزل على أبدة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة وأهل البلد نفسه، فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً، ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم، وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والأطفال بما ملأوا به بلاد الروم قاطبة، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة». [1]

ولم تكن هزيمة العقاب بداية نهاية دولة الموحدين، بل بداية نهاية الأندلس. وتمكن المرابطون والموحدون خلال فترة طويلة من وقف تقدم الشماليين، إلا ان انهيار الموحدين فتح الطريق مرة أخرى أمام ملوك الشمال الذين قابلوا توافر القوتين الإسلاميتين في الأندلس بسلاحين رئيسيين هما الوحدة، والدعم الذي سهّلت البابوية تدفقه على الأندلس. وبعد أكثر من ١٢٠ سنة من تولّي المرابطين والموحدين الدفاع في الأندلس، اكتشف الأندلسيون، كما لو فجأة، أنهم غير قادرين على حشد الطاقات التي تستطيع وقف التقدم الشمالي، لذا لم يكن ما حدث بعدها مجرد انسحاب بل عملية تفريغ هائلة لبعض أكثر المناطق الأندلسية كثافة بالسكان.

ونعرف اليوم أن المفاصل الرئيسية الثلاثة في انهيار الأندلس هي احتلال طليطلة عام ١٠٨٥ وهزيمة العقاب عام ١٢١٢، ثم تسليم غرناطة عام ١٤٩٢. وكان الأندلسيون يعرفون تماماً أهمية سقوط طليطلة بوصفها عاصمة الثغر الأوسط ومفتاح الطريق إلى الجنوب، كما كانوا واعين لمضاعفات هزيمة العقاب التي وصفها صاحب «البيان المغرب» (ص٢٤٠) بأنها «السبب في هلاك الأندلس»، فيما زاد صاحب «التكملة» بأنها الوقعة التي «أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها، وكانت السبب الأقوى في تحيّف الروم بلادها حتى استولت عليها». [2]

ومن الصعب بعد هذه الوقعة رسم منهج محدد اعتمده ملوك الشمال في تعاملهم مع الأندلسيين ما لم نقسر أحداث التاريخ على إظهار مثل هذا النهج. ومع ذلك يمكن القول عموماً إن عوامل سياسية واقتصادية ودينية عدّة أملت تحديد كل موقف بعينه. فألفونصو العاشر (١٢٥٢-١٢٨٤) مثلاً أعلن نفسه ملكاً على الملل النصرانية

[1] «المعجب»، ص ٤٠٢-٤٠٣.

[2] «التكملة لكتاب الصلة»، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ابن الأبّار)، (القاهرة ١٩٥٦)، ج١، ص ١٠٢.

والإسلامية واليهودية في وقت شهد قيام محكمة التحقيق البابوية. إلا أننا لا نجد حتى في هذا الملك «العالم» نمطاً سلوكيّاً دائماً فكان معجباً بالحضارة العربية ونقل بعض الكتب العربية إلى لغته وكتب الموشحات بالقشتالية. لكنه بطش بالمسلمين وطردهم من مدينة لبلة وغيرها بل نقل الحرب إلى المغرب (كخطوة دفاعيّة كما يبدو) قبل خلعه. ولم يتصرف غيره من ملوك الشمال في صورة مختلفة جداً خلال تلك الفترة إذ نكّل خايمي الأول الأرغوني (١٢١٣-١٢٧٦) بالمسلمين في الساحل الشرقي وطرد الكثيرين منهم ودفعه تعصّبه إلى التوجه إلى المشرق عام ١٢٦٩ لخوض الحرب هناك إلى جانب الصليبيين. ومع ذلك سمح هذا الملك لأعداد كبيرة من الأندلسيين المسلمين بالبقاء في أرغون وجزائر البليار وحماهم وأملاكهم ومساجدهم ومدارسهم الإسلامية بموجب اتفاقات رسمية توصل إليها الطرفان خلال الفترة بين ١٢٣٢ و١٢٤٥. وقدّر الأندلسيون في أرغون هذا الموقف فكانوا على رأس القوات التي تصدّت للفرنسيين عندما حاولت غزو أرغون عام ١٢٨٥. وتابع الملوك الذين تعاقبوا على أرغون عموماً نهج خايمي الأول واستمر هذا الوضع حتى بداية القرن السابع عشر. ولم يكن «تنوع» التعامل مع الأندلسيين خياراً في حالات كثيرة لأن وجود تلك الأعداد الكبيرة من الأندلسيين المسلمين واليهود في الأراضي التي سيطر عليها الملوك النصارى أملى مرونة في التعامل لضمان استمرار نمو الاقتصاد خصوصاً أن المجتمعات القشتالية والأرغونية لم تكن قادرة على تقديم مهارات زراعية وصناعية وتجارية بديلة لتلك التي ملكها الأندلسيون أو اليهود.

صعود العثمانيين

في نهاية مرحلة الاجتياح العظيم لوسط الأندلس في القرن الثالث عشر تمكّنت قشتالة من مضاعفة مساحتها واستقرت حدود البرتغال وأرغون على حالها اللاحق وعادت الممالك النصرانية في شبه جزيرة آيبرية إلى الانشغال ببعضها البعض. وخلال التطاحن الداخلي على السلطة استنجد بعض الملوك المسيحيين بمملكة غرناطة أو سلاطين المغرب، وحدث العكس في حالات كثيرة أخرى. ونشبت بين غرناطة وبين الممالك الشمالية، متفرقة أو مجتمعة، حروب طاحنة سبقت بدء الحرب ضد غرناطة. وتقدمت جيوش الطرفين في أراضي بعضهما، وتمكّن الشماليون من أخذ الجزيرة الخضراء وجبل طارق. لكن الممالك المسيحية لم تبلغ يوماً من القوة ما كان كافياً للقضاء على غرناطة فقبلت وجودها لقاء جزية يمكن أن نطلق عليها اسم «جزية

السلام». واستمر التبادل التجاري بين الطرفين، وربما استاء القشتاليون من محاولة تأجيج النزاع مع غرناطة كما حدث عندما تجاهل مارتين يانيث Martin Yanez اتفاق الصلح مع غرناطة وهاجمها عام ١٣٩٤. ولا يبدو أن الكثيرين تأسّفوا على مقتله بعد ذلك.

وبدأت أوروبة تتململ من القلق أولاً ثم من الخوف بعدما نقلت قوات محمد الثاني «الفاتح» السفن الحربية والمدفعية على ألواح من الخشب المزيت فوق التلال المطلة على القسطنطينية، وأنزلتها في خليج القرن الذهبي لتفادي السلسلة الحديد الضخمة التي نصبها البيزنطيون على مدخل الخليج لمنع السفن من الوصول إلى المدينة.[1] ومهّد العثمانيون لاقتحام المدينة بقصف عنيف وجهته المدفعية المحمولة على السفن إلى الأسوار الضخمة التي تحيط بها، ولم تعد هذه المدينة قادرة على الصمود فتدفقت عليها قوات محمد الفاتح ودارت معركة شرسة انتهت بانتصاره. ومنذ نهوض العثمانيين الباهر بعد الهزيمة الماحقة التي انزلها بهم تيمورلنك عام ١٤٠٢، بات واضحاً أن أيام الأمبراطورية البيزنطية صارت معدودة. وعلى الرغم من أن بيزنطة نهضت مرة بعد مرة بعد مرة، إلا انها لم تتمكن أبداً من الوقوف على قدمين قويتين مذ اجتاحها الصليبيون في مطلع القرن الثالث عشر. ويوم قتل الأمبراطور قسطنطين الحادي عشر على أيدي العثمانيين وهو يدافع عن القسطنطينية نجده يدافع عن خيال الأمبراطورية التي بناها يوستينيان، ولم تعد يوم مقتله سوى مدينة القسطنطينية نفسها وجزء صغير من جنوب اليونان. وبدت في نهاية ذلك النهار هيكلاً قديماً من ماض قديم فتقوضت وفارق الدفء أنفاس احدى أعظم الأمبراطوريات التي عرفها العالم.

وكان انتصار العثمانيين باهراً فنقلوا عاصمتهم إلى القسطنطينية وحوّلوا كنيسة آجيا صوفيا الشهيرة إلى مسجد، وبدأوا يتوسعون بسرعة. ولم تجد الكنيسة الشرقية التي فقدت قاعدتها الرئيسية بضياع القسطنطينية تعاطفاً كبيراً من البابوية إذ كانت الكنيستان انفصلتا قبل سقوط القسطنطينية بأربعة قرون. لكن العثمانيين لم يكتفوا بوراثة بيزنطة، فبدأت جيوشهم تتوغل في جنوب أوروبة سعياً وراء الخشب والقار لصناعة السفن، والصبيان (واحد من كل أسرة فيها خمسة) لتعزيز الجيش الإنكشاري.

وبعدما احتل العثمانيون اليونان، سادت الفاتيكان مخاوف حقيقية من احتمال قيام العثمانيين باجتياح إيطاليا، إلا أن العثمانيين بدوا وقتها قوة لا تُقهر في وقت تحوّلت

---

[1] لا تزال السلسلة محفوظة في متحف اسطنبول الحربي الذي يحتوي على عدد من الآثار القيمة الأخرى، مثل سيف صلاح الدين الأيوبي وراية الصحابي أيوب الذي استشهد على أسوار القسطنطينية.

فيه نار البابوية التي اوقدتها الحروب الصليبية إلى جذوات. وسعت البابوية إلى استنهاض همم النصرانية لمواجهة العثمانيين، لكن زمن البابوات الكبار مثل غريغوري السابع وإربان الثاني وأنوصان الثالث كان ولّى. وتطلّب حشد الطاقات زمناً طويلاً، وظل العثمانيون يتقدمون محاولات التصدي لهم خطوة واحدة على الأقل. وستلعب البابوية في المئة سنة التالية دوراً حاسماً في تشكيل التحالفات الأوروبية ضد العثمانيين وتمويل الحملات العسكرية الباهرة، لكن البابوية في نهاية القرن الخامس عشر كانت أضعف من أن تساهم في تحقيق أي تقدم على العثمانيين، فبحثت عن أي انتصار يوقف انهيار معنويات أوروبة. ولا نعرف بالضبط إن كانت البابوية هي التي اقترحت على إيزابيلا القشتالية تحريك الحرب ضد غرناطة والتعهّد بتقديم المال وإبرام التحالفات أو كانت إيزابيلا هي المُبادرة لكن الخطة كانت الفرصة التاريخية التي انتظرتها البابوية في نهاية القرن الخامس عشر، مثلما كانت انتظرت فرصتها التاريخية الأهم في العرض الذي قدمه أليكسيوس كومينونس قبل نحو أربعة قرون. وأدت الدعوة الثانية إلى إطلاق الحروب الصليبية ومعها إطلاق سلطات البابا الذي بات وقتها أقوى شخصية في أوروبة وتجاوزت صلاحياته الأباطرة والملوك. وستدخل البابوية الآن مرحلة جديدة من القوة التي ستمكّنها في ما بعد من تحقيق انتصار كبير على العثمانيين في ليبانت.

ولا يبدو تصرّف فرناندو الخامس زوج إيزابيلا الذي قاد معظم المعارك ضد مملكة غرناطة اعتباراً من عام ١٤٨١ مختلفاً للوهلة الأولى عن تصرف ملوك قشتالة وليون وأرغون من قبله. ولا يبدو أن المساهمة العسكرية الأوروبية في الحرب ضد غرناطة آنذاك كانت من نوع المساهمة نفسها في معركة العقاب أو المعارك التي تلتها مباشرة. ونجد أن فرناندو استعان بخبراء المدفعية الذين استقدمهم من إيطاليا وألمانيا، وحصل على معونة مهمة من نبالة[1] السير إدوارد ودفيل Edward Woodville الإنكليزي خلال احتلال مدينة لوشة عام ١٤٨٨. لكن طبيعة المساعدة الخارجية كانت اختلفت آنذاك لأن فرناندو لم يكن في حاجة إلى الجنود بل إلى المدفعية الثقيلة والتمويل المالي الهائل الذي تطلبته تلك الحرب الطويلة مع آخر مملكة إسلامية في آيبرية.

---

[1] كان النبّالة الإنكليز أشهر نبّالة في أوروبة، ولعبوا دوراً حاسماً في الانتصارات التي حققتها الجيوش الإنكليزية ضد الفرنسيين خلال حرب طويلة نشبت بينهما في شأن الخلافة والإرث الملكي عُرفت باسم «حرب المئة عام» بين سنتي ١٣٣٧ و١٤٥٣. وكان أكبر عقاب يمكن انزاله بهؤلاء النبّالة بعد أسرهم هو قطع السبابة والوسطى لمنعهم من الرمي مرة أخرى. وكان بعض النبّالة يرفعون اصبعيهم للمتحصنين وراء الأسوار للبرهنة على أن الإصبعين لا يزالان في مكانهما مستعدان للرمي. ومع الزمن صار رفع الإصبعين إهانة كبيرة.

ولم تستطع قشتالة التي حشدت أكثر من ٥٢,٠٠٠ جندي لحرب غرناطة تحقيق انتصار عسكري عليها حتى بعد ١١ سنة من المعارك الطاحنة. وعلى رغم الإنقسام الخطير الذي دبّ بين سلاطين غرناطة نرى أن قشتالة لجأت إلى الصلح وقدّمت للأندلسيين وثيقة سلام لم تمهرها إيزابيلا إلا لأنها كانت تعرف أنها تستطيع خرقها بموافقة البابوية التي كانت طرفاً في ضمان التزام بنود الاتفاق. وكما أجازت البابوية للصليبيين في نهاية القرن الحادي عشر الإخلاف بالوعود والمواثيق وذبح الأسرى كخطوة أخرى في الطريق إلى الجنّة، نجدها في نهاية القرن الخامس عشر تعطي إيزابيلا وزوجها غفرانها الفوري لكل ما يمكن أن تفعله قواتهما خلال الحملة للقضاء على غرناطة. ولم يحدث في مدينة مالقة عام ١٤٨٧ ما لم يحدث في بعضه لغيرها من المدن الأندلسية خلال اقتحام الجنوب، لكن قصة هذه المدينة تختلف في نواح عدّة إذ وعد فرناندو أهلها بعد حصار استمر ثلاثة أشهر بحفظ أرواحهم وأملاكهم ودينهم وتسيير أمورهم الداخلية إن استسلموا، وما أن فتحوا الأبواب حتى انقض عليهم جنوده فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وسبوا الباقين وباعوهم عبيداً لمن يشتري. وخلال الثورتين الأندلسيتين الأولى والثانية كانت المذابح وعمليات القتل الوحشية والإعدامات وانتزاع أطفال الأندلسيين من امهاتهم وفصل الأزواج عن الزوجات والبنات عن الآباء والغدر بالمستسلمين والتغريب ومصادرة أراضي أهل السلم وأهل الحرب على حد سواء، وغير ذلك من جرائم عملاً منظماً حضّت عليه البابوية فأقدم عليه القشتاليون برغبة وضمائرهم مرتاحة إلى أنهم يُعلون بهذه الأفعال راية الكاثوليكية. وسنجد في ما بعد نهجاً اختطّه كاثوليكيون كثيرون لم يتصوّروا المسلم إلا قتيلاً أو عبداً أو متنصّراً سواء في جبال غرناطة أو في وهران أو في مدينة غوا الهندية التي سكنها المسلمون.

لماذا حدث هذا الإنقلاب يا ترى؟

إن صورة الأحداث التاريخية المهمة تشبه الموشور، لذا يمكن النظر إليها من زوايا مختلفة واكتشاف مظهر جديد لها من كل زاوية نظر غير الأخرى. ويمكن النظر إلى توغّل العثمانيين في أوروبة والبحر الأبيض المتوسط كجهد إسلامي أرجأ تقدم الأوروبيين في اتجاه بلاد العرب أكثر من اربعة قرون، مثلما أرجأ وجود المرابطين والموحدين في الأندلس اجتياح الجنوب الأندلسي أكثر من ١٢٠ سنة. إلا أن الاضطراب الذي أحدثه العثمانيون في أوروبة كان في الوقت نفسه دافعاً لإنهاض البابوية من غفوة طويلة وعاملاً مهماً في حشد طاقات أوروبة. والعداوة مكروهة لكن

عزّ من أتاح له القدر عدواً قوياً لأنه سيجد نفسه مضطراً إلى أن يكون قوياً هو الآخر. وعندما صار الأوروبيون أقوياء وسيطروا على الطرق التجارية إلى الشرق وعلى ذهب العالم الجديد وفضّته منذ مطلع القرن السادس عشر، بات واضحاً أن مسألة انتصارهم في النهاية ستكون مسألة وقت فقط. وتقدم العثمانيون في تلك الفترة في اتجاه سورية ومصر لانتزاع الشرعية من المماليك والوصول إلى الكثافة السكانية العالية في مصر لتجنيد الرجال، لكن حتى كل هذه الطاقات الجديدة لم تعد كافية لحشد القوات اللازمة على قوس شاسع من الجبهات الممتدة من الصفويين الإيرانيين شرقاً إلى القشاتلة في الغرب.

ولا يجب التقليل من الذعر الأوروبي من انتصارات العثمانيين الذين باتوا أكبر قوة في الأرض اعتباراً من نهاية القرن الخامس عشر. ولم يعرف الأوروبيون خطراً مثل وباء الطاعون الذي فتك بأربعين مليون شخص في أوروبة وحدها بنهاية القرن الرابع عشر، لذا يمكن اكتشاف مدى الخوف الذي أنزله العثمانيون في قلوب الأوروبيين بالاستذكار ان دعوة الأوروبيين في الكنائس كانت حمايتهم من الطاعون والأتراك. ولم يكن معظم الأوروبيين في تلك الفترة يعرفون الفرق بين العربي والمسلم، ثم لم تعد هناك حاجة للتفريق بعدما وجد العثمانيون والعرب أنفسهم في خندق واحد لصد الهجمات الأوروبية المتزايدة. وإذا تطلعنا إلى خلفية الصراع بين العثمانيين والأوروبيين الذين تقدمتهم البابوية من منظورها الآيبري سنجد أن صورة المسلم في نهاية القرن الخامس عشر كانت تختلف في عيون القشاتلة عن صورته في العصور الأسبق فصارت مزيجاً من الخوف والشك والكره والاحتقار، ولم يعد الصراع بين الكاثوليكية والإسلام وقتها إلا شكلاً واحداً من أشكال الصراع ليس على السيادة فقط بل أيضاً على البقاء.

إلا أن تغيّر الصورة لم يكن من طرف واحد فقط فالمسيحي القشتالي أو الأرغوني الذي عرفه الأندلسيون المسلمون في نهاية القرن الخامس عشر كان اختلف عقيدة وسلوكاً عن النصراني الذي عرفه الأندلسيون يوم الفتح، لذا قابل الأندلسي المسلم المسيحي القشتالي بقدر مماثل من الشك والكره والاحتقار وبعض الخوف. وعندما دخل العرب الأندلس تعاملوا مع قوط كثيرين كانوا لا يزالون ملتزمين مذهباً نصرانياً معروفاً باسم المذهب الآريوسي حتى بعد تكثلكهم الرسمي. وتُنسب الآريوسية إلى راهب إسكندراني يُدعى آريوس أحدث هزة كبيرة في أوساط المسيحية الغربيّة نحو عام ٣١٨ عندما لقّن اتباعه ان السيد المسيح مخلوق لذا لا يمكن أن يكون أزلياً، وان

الإبن (الكلمة) لا يساوي الرب، وأتبع هذا بإنكار مبدأ تساوي الثالوث المقدس: الأب والابن والروح القدس، والقول بوحدانية الله. وسعى الأمبراطور قسطنطين الاعظم إلى احتواء هذا النزاع فدعا إلى عقد مجمع مسكوني في نيقيا (أرنيق التركية حالياً) عام ٣٢٥ أعاد ترسيخ فكرة ألوهية «الكلمة». ولم تلتزم الكنيسة الشرقية قرار المجمع فظلت تقول إن السيد المسيح ليس رباً، وكان على المجمع المسكوني الذي انعقد في القسطنطينية عام ٣٨١ تحريم تعاليم آريوس واعتبارها بدعة في كل أراضي الأمبراطورية الرومانية. إلا أن الأخذ بهذه التعاليم استمر خارج حدود الأمبراطورية بين قبائل القوط واللومبارد التي نصّرها اتباع آريوس في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. وأعادت تلك القبائل نشر الآريوسية في أراضي الأمبراطورية بعد اجتياحها فظلت قائمة حتى القرن السابع الميلادي عندما تحوّلت تلك القبائل إلى الكاثوليكية التي كانت خضعت آنذاك إلى مجموعة كبيرة من التغييرات ذات الأثر التراكمي.

ووجد الفاتحون في نصرانية آيبرية اختلافات عن النصرانية الشرقية التي عرفوها في بلادهم التي جاؤوا منها[1]، إلا أن تأثير الآريوسية كان لا يزال قوياً. ولم تكن نصرانية تلك الفترة نصرانية الثالوث (الأب والابن والروح القدس) ولا ألوهية المسيح وأمّ الرب (أي السيدة مريم) أو بيع صكوك الغفران وقطع من أرض الجنة. ولم تعد تلك الاختلافات تعني شيئاً بعدما اعتنق مئات الألوف من الآيبريين الإسلام وباتوا يشكّلون الجزء الأكبر من المسلمين في الأندلس فيما صار النصارى أقلية كبيرة. إلا أن النصارى الذين أوفدتهم البابوية للمشاركة في حرب الأندلسيين اعتباراً من نهاية القرن الحادي عشر كانوا غير النصارى الذين عرفهم العرب وعاهدوهم. ونجد وصفاً ملفتاً لهؤلاء هو «عُبّاد الصليب» في عرض الخليفة الموحدي الناصر لدين الله أسباب هزيمته في معركة العقاب عام ١٢١٢. ونجد في ما بعد أن الأندلسيين كانوا أكثر اطمئناناً إلى اليهود من الكاثوليك الذين لم يعودوا، من وجهة نظر المسلمين، يشتركون معهم في مبدأ وحدانية الله، فنراهم يشترطون في معاهدة تسليم غرناطة «أن لا يُولّى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي». وكان أحد أهداف «التفصيلات» الكثيرة التي وردت في المعاهدة توثيقها والسعي إلى سد كل الثغرات التي يمكن ان تنفذ إليهم منها سلطات مسيحية لم يعد المسلمون يثقون بها. وفي غير مرحلة من المراحل التالية من صراع

[1] وُجدت دائماً امتدادات بين جماعات من النصارى والمسلمين في بلاد الشام تناولت عادات وسلوكيات معيّنة منها مثلاً عادة بعض المسلمين في الناصرة تعميد أولادهم بعد الولادة. ومن عادة بعض النصارى ختان أولادهم. وفي بلاد الشام مثل شعبي شائع يقول: «كل عند اليهودي ونم عند النصراني»، دلالة على تجنّب الأول لحم الخنزير، والأمان الذي يشعر به المسلم عند الثاني.

الأندلسيين مع السلطات السياسية والكنسية في قشتالة درج بعض الأندلسيين على اعتماد الحجج اللوترية في مواجهتهم الجدلية مع الكاثوليك القشاتلة. واعتبر أندلسيون كثيرون أنفسهم في صف الاضطهاد الكاثوليكي الواحد مع اللوتريين، وذهب الأمر ببعضهم إلى التنصّر على المذهب البروتستانتي نكاية بكاثوليك قشتالة ومحاولة تعميم هذا المذهب الذي حاربته الكاثوليكية بأساليب الاستئصال والقمع نفسها التي حاربت الإسلام. واستخدمت إسبانيا الجيوش لقمع أصحاب الدينين معاً، إلا أن سلاحها الأساسي كان مؤسسة من أعتى المؤسسات التي عرفها العالم وأكثرها شروراً هي محاكم التحقيق الكاثوليكية.

٢- البابوية والاضطهاد الديني

يصعب أحياناً التصوّر بأن الفرنسيين الذين تبنّوا إعلان حقوق الإنسان في باريس في ٢٦ آب (اغسطس) عام ١٧٨٩ ينتمون إلى الشعب الفرنسي نفسه الذي قتل الإنسان وحقوقه في الجزائر، صاحبة ثورة المليون شهيد. إلا أن التناقض سمة إنسانية، كما يبدو، فحتى الثورة الفرنسية (١٧٨٩-١٧٩٩) التي طرحت الأفكار الديمقراطية الشعبية لم تستطع أن تجعل فرنسا دولة ديمقراطية. وفي التاريخ تناقضات أكثر غرابة فاليونانيون الذين أعلوا مبدأ الحرية والاستقلالية الفردية عاشوا في بلد ظل مستعمراً بلا انقطاع أكثر من ألفي عام قبل ان يتحرر في ظل ملك غير يوناني عام ١٨٣٠ . ونجد في مطلع الألفية الأولى أن الكنيسة النصرانية التي عبرت إلى القلوب من طريق الاضطهاد الذي تعرّض له النصارى الأوائل عادت ومارست اضطهاداً أكثر رهبة بكثير ضد اليهود والأندلسيين وأصحاب الإصلاح الديني المسيحي. وكانت الكنيسة التي شدّت عشرات الملايين بمبادىء الرحمة والمحبة والتسامح والمغفرة هي نفسها التي صنعت أكبر مؤسسة تعذيب عرفها العالم وأطولها عمراً.

لماذا أقدمت البابوية على هذا الفعل الرهيب؟

ربما اهتدينا إلى أحد الأسباب التي ولّدت هذا التناقض الكبير من خلال التساؤل عن السبب الذي جعل روما الغربيّة حاضرة دين مشرقي، ولماذا كان جل الباباوات من الإيطاليين، ولماذا رافق ارتفاع البابوية ارتفاع حرارة الروح الصليبية ولماذا وافق هبوطها برود الحروب الصليبية. ويوجد ارتباط واضح بين الكنيسة ورعيتها. ونجد أن الكنائس النصرانية الأربع الأولى (القدس وإنطاكية والإسكندرية وروما) استوعبت دائماً

«رموزاً» دينية واجتماعية تفرّدت بها رعيتها. إلا أن التفردات كانت عموماً نوعين: شرقية سادت المجتمعات الشرقية في الكنائس الشرقية الثلاث، وغربيّة سادت المجتمعات التي تعاملت الكنيسة الرومانية معها. وظلّت هذه المظاهر محدودة في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ النصرانية ولم تتضمن عموماً الخلافات التي أدت عام ١٠٥٤ إلى انفصال الكنيستين الشرقية مُمثلة بالقسطنطينية، والغربيّة مُمثلة بروما. ففي ذلك العام كان تراكم الخلافات الدينية وصل إلى مداه، وكانت الكنيسة الشرقية سئمت من محاولة البابوية السيطرة عليها. لذا عندما أصدر رُسل البابا ليو التاسع «لعنة حرمان صارمة» في حق بطريرك القسطنطينية دعا البطريرك إلى عقد مجمع كنسي معارض على الفور وأصدر لعنة مشابهة ضد البابا، ولا يزال هذا الوضع قائماً حتى اليوم.

ووُجدت في الفترات الأولى دائماً تداخلات بين المشربين الشرقي والغربي على مستويات عدّة، إلا ان الكنيسة الرومانية وجدت نفسها في نهاية عمر الأمبراطورية الرومانية مضطرة إلى التعامل مع رعيّة مؤلفة من قسم كبير من الوثنيين في البداية، ثم وجدت نفسها مضطرة للتعامل بعد انهيار الأمبراطورية مع عدد كبير من رجال القبائل الجرمانية البربرية الذين تنصّروا وفق مذاهب عدّة. وكان معظم هؤلاء أمّيين فعرضت لهم الكنائس سيرة المسيحية والقديسين على الجدران والسقوف بألوان جذّابة وبلغة يفهمونها (صور وأيقونات وما شابه). وكان هؤلاء معتادين على تقديس الأبطال فعُرّفوا مع الزمن على عدد كبير من القديسين والقديسات الشفيعين والشفيعات. واستمر احترام هؤلاء وتقديسهم إلى العصور الحديثة عندما بدأ مؤرخون يشككون بوجود بعضهم أو بصحة الأحداث التاريخية المتصلة ببعضهم الآخر.[1] وفي الحالات

---

[1] من هؤلاء القديسة كاترينا (Catherina) التي تعتبر من أشهر القديسات المسيحيات وأكثرهن شعبية في أوروبة ومصر، ولها دير مشهور في شبه جزيرة سيناء. ويُروى في سيرة هذه القديسة أنها كانت فتاة إسكندرانية ذات حسب ونسب، وكانت على غاية من العلم والمعرفة. ولما انتشرت المسيحية في المدينة تعرّض المؤمنون إلى الاضطهاد على يد الأمبراطور ماكسنتيوس Maxentius، فاشتكت كاترينا من هذا الاضطهاد وقاومته. ومن فضائل هذه القديسة تنصير زوجة الأمبراطور وعدد من القادة العسكريين، مما أثار استياء الأمبراطور فجمع لها أعظم العلماء في عصرها لكنها تمكّنت من إفحامهم فقضى عليها بالموت. ووضع الجنود كاترينا على دولاب مسيّخ فانكسر الدولاب فقطع الجنود رأسها نحو عام ٣٠٧، وعندها حملتها الملائكة إلى جبل الطود في سيناء حيث عُثر عليها في نحو العام ٨٠٠. وصار لهذه القديسة من وقتها عيد يُحتفل به في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) من كل عام، ثم ذاع صيتها في أوروبة بعدما شاع أنها عقدت قراناً روحياً مع السيد المسيح، وأصبحت من أشهر القديسات. وكاترينا شفيعة الفلاسفة والعلماء لكن قصتها أثارت اهتمام بعض هؤلاء فبحثوا في الوثائق عن تفاصيل تاريخها فلم يعثروا عليه، ولم يجدوا لها ذكراً في أي مصدر يُركن إليه قبل القرن التاسع الميلادي. وأمام هذه الحقيقة أعلنت الكنيسة في عام ١٩٦٩ إسقاط يوم القديسة من سجل الاحتفالات السنوية. (انظر رجاءً الحاشية الخامسة القادمة).

التي لم يستطع فيها هؤلاء البرابرة الاقتراب من الكنيسة نجد الكنيسة تحاول التقاءهم في مكان وسط، أو ربما حدث أيضاً وانتقلت الكنيسة إليهم عندما رأت، مثلاً، أن هؤلاء اعتادوا الاحتفال بأعياد وثنية مهمة فنصّرنت الكنيسة لهم بعض تلك الأعياد.[1]

واتسعت شقة الخلاف أحياناً بين الكنائس الأربع، ثم تقلّصت بعد المحاورات في المجامع المسكونية (التي يرأسها البابا بحضور سائر الأساقفة) أو العادية. إلا أن الاختلافات بدأت بعد ذلك تأخذ طابع الابتعاد خصوصاً بين الكنيسة الرومانية وباقي الكنائس الثلاث. وكان من الطبيعي أن تلعب القسطنطينية دوراً قيادياً بوصفها حاضرة النصرانية المشرقية منذ نقل قسطنطين عاصمته إليها عام ٣٢٥. وتابع المسيحيون عباداتهم في كنائسهم في ظل الفتح الإسلامي، إلا أن اهمية الكنيستين في القدس والاسكندرية كانت استقرت أو ضعفت، فيما صارت القسطنطينية أهم منافس للبابوية الرومانية. واستمدّت الكنيستان البيزنطية (الأرثوذكسية) والرومانية (الكاثوليكية) جانباً من نفوذهما الديني من القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية لرعيتيهما. وفيما بدأت الأمبراطورية البيزنطية التقهقر أمام السلاجقة من الجنوب والنورمان من الغرب وقبائل الباتزيناكس من الشمال، كانت الممالك الأوروبية التي رعتها البابوية تتقدم في كل الاتجاهات، وكان رأيها أيضاً يتقدم معها لذا نجد أن معظم الذين حرمتهم الكنيسة الرومانية في المجامع التي عقدت بين ٣٢٥ و٨٧٠ كانوا من علماء الدين الشرقيين (القسطنطينية والاسكندرية).[2]

وعلى الرغم من أن قوة البابوية ارتبطت بقوة الممالك الأوروبية، فإنّ مركزها يستند إلى الشرعية. وللشرعيّة أسس عدّة من بينها شرعيّة التأسيس. وشرعيّة التأسيس الرومانية تقوم، وفقاً للتقاليد المسيحية، على القديس بطرس الذي عاش بين نحو السنة العاشرة ميلادية والسنة ٦٧. وتُعلمنا التقاليد تلك أن بطرس هجر القدس مع زوجته ليبشّر في الأرض، وظل يتنقّل من مكان إلى آخر حتى حل بانطاكية وصار أول

[1] لعل أشهر هذه الأعياد عيد «كل القديسين» الذي يصادف الأول من تشرين الثاني (نوفمبر). وأصل هذا العيد وثني لتكريم أرواح الأموات نصرنته البابوية في القرن التاسع وأرفقته بقدّاس كان اسمه Allhallowmas، ومن هذه الكلمة جاءت كلمة Halloween التي يرافق الاحتفال بها هذه الأيام عرض أفلام الرعب ومظاهره المختلفة.

[2] حرم المجمع الأول آريوس، والثاني مقدونيوس، والثالث نسطور، والرابع اوطيخا (قال مع ديوسقورس الاسكندراني بطبيعة واحدة في السيد المسيح)، وحرم المجمع الخامس الكتبة الثلاثة، والسابع محاربي الأيقونات (حرّمها في الكنائس الشرقية الأمبراطور البيزنطي ليو الثالث عام ٧٢٦ ووافقت الأمبراطورة آيريني عام ٧٨٧ على السماح بها ثانية شرط أن تكون خصالها مختلفة عن تلك الخاصة بالرب)، وحرم المجمع الثامن فوتيوس صاحب مجموعة قوانين الكنيسة الشرقية، فيما حرم المجمع الثامن عشر البروتستانت.

أسقف فيها، ثم ارتحل إلى روما وصار أول أسقف هناك أيضاً. ولا توجد أي أدلة تاريخية قاطعة على الظروف التي رافقت موت هذا القديس، إلا أن الشائع في المرويات المسيحية أنه صُلب مكبوباً على تل فاتيكانوس Mons Vaticanus خلال اضطهاد نيرون المسيحيين بين سنتي ٦٤ و٦٨ بعد اتهامهم بحرق عاصمته، وأن رفاته محفوظ تحت كنيسة القديس بطرس في مدينة الفاتيكان التي هي قصر البابا.

وتستمد الكنيسة الرومانيّة شرعيتها من شرعيّة إقامة القديس بطرس الكنيسة في روما بتكليف من السيد المسيح الذي يخاطب بطرس في إنجيل متّى بالآتي: «وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات». [١] إذاً هذا تكليف ببناء الكنيسة، وبما أن بطرس مكلّف تكليفاً شرعيّاً بتأسيس الكنيسة فإن كنيسته شرعيّة، وبما أنه مؤسس الكنيسة فهو أيضاً أسقفها أو «البابا»[٢] الشرعي لها ورسول المسيح، ويكون كل من يخلفه في هذا المنصب خلافة شرعية خليفة للقديس بطرس وممثلاً لله في الأرض، ومعصوماً عن الخطأ في تقرير شؤون الإيمان، ولا سلطة لأحد عليه ولا يمكن تنحيته فيستقيم في منصبه حتى الممات ما لم يتنازل هو لسبب من الأسباب[٣]. وتبدو هذه الشرعية صلبة لا تقبل الطعن إلا أننا نجد خلال المواجهة الجدلية بين الكاثوليك والبروتستانت أن اللاهوتيين البروتستانت اقترحوا تفسيراً آخر لقول السيد المسيح على أساس معنى بناء الكنيسة على إيمان بطرس به، وليس وجودها في مكان محدد. ويبدو هذا التفسير بسيطاً إلا أن ابعاده كبيرة لأنه يمكن أن يعني الطعن في شرعيّة التأسيس وبالتالي في شرعيّة خلافة المؤسس وفي مركزه المتميّز كزعيم روحي لا يستطيع أحد أن ينافسه عليه.

وعرفت المسيحية، مثل كل الأديان، انقسامات كثيرة رافقتها حركات اضطهاد واسعة كمنت وراءها مجموعة كبيرة من العوامل والأسباب. ولم يكن الخلاف الذي نشب بين البابوية والبروتستانتية في بداية القرن السادس عشر إلا واحداً من هذه

---

[١] إنجيل متى، ١٦/ ١٨-١٩.

[٢] أصل الكلمة يوناني هي pappas، وهي لفظة التحبب من الولد لأبيه وهي ملازمة لبابا روما حسب سير الكنيسة. لكن ابن خلدون ينقل عن جرجيس بن العميد القول إن أول ظهور هذا الإسم كان بمصر ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي بطرس الرسول. «المقدمة»، (طبعة دار ومكتبة الهلال - بيروت)، ص ١٥٥.

[٣] يتزين البابا بصليب من الذهب وخاتم يدعى «خاتم الصياد» يصوّر القديس بطرس يمارس مهنته في صيد السمك، ويرمز إلى مهمة البابا «صياد الرجال».

الانقسامات التي واجهتها البابوية والملوك الذين تبنوا موقفها، وأدت إلى قيام حرب طاحنة امتدت إلى البحار وانتهت إلى انقسام كان أهم من الانقسام الأسبق بين الكنيستين الشرقية والغربيّة. ووجد البابوات في طبيعة منصبهم والصلاحيات المُستمدة منه تسويغاً لمواجهة الحركات التي خرجت عن تعاليم الكاثوليكية، والتصدّي للملوك والأباطرة الذين حاولوا التعدي على صلاحياتهم عن طريق حرمانهم من الكنيسة أو توجيه الرعيّة إلى حجب الطاعة عن الراعي. إلا ان سلطات البابا لم تكن دائماً دينية، فمع الزمن امتدت هذه السلطات في عهد الأقوى منهم إلى سلطات زمنية (دنيوية) كرّس البابا غريغوريوس الأول (٥٩٠-٦٤٠) بدايتها عندما أصبح تدريجاً حاكم مدينة روما نفسها، ووصلت مركزاً قريباً من الذروة في عصر أنوصان الثالث ثم ارتقت إلى الذروة في عهد البابا بونيفانيوس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣). ونشأ بين هذا البابا والملك الفرنسي هنري الرابع نزاع كبير أصدر البابا في إثره إرادة بابوية أسماها Unam sanctum اعتبرها المؤرخون أقوى تأكيد لسلطة البابوية على الملوك وسائر أبناء المسيحية في كل مكان. وزعم هذا البابا أن خلاص الناس يكمن في إخضاع أنفسهم إلى البابا. ولما اشتدّ الصراع بين الإثنين اتهمه هنري الرابع بارتكاب عدد من الجرائم، واعتقله لتقديمه إلى المحاكمة، لكن صحة البابا تدهورت بعد ذلك ومات. وصارت لبعض البابوات في سنين لاحقة أساطيل وقوات يستطيع تسييرها إلى أي مكان في أوروبة. وتولّت هذه القوات في بعض الحالات ملاحقة أصحاب الآراء المغايرة لآراء الكنيسة واضطهادهم خصوصاً إذا رفضت السلطات المدنية أداء هذه المهمة. وبدا مع تعاظم حركات الاضطهاد هذه أن التاريخ يعيد نفسه ليذكر بالاضطهاد الذي عرفه المسيحيون الأوائل بعدما أخذ الاضطهاد شكله المؤسساتي في منظمة الاضطهاد الكاثوليكية (تفريقاً لها عن الكنيسة الشرقية التي لم تعرف مثل هذه المنظمات) المعروفة باسم «محاكم التحقيق».

صعود محاكم التحقيق

كلمة «هرطقة» أصلها يوناني هو hairesis أخذها الأوروبيون في البداية من اللاتينية haeresis ثم نُقلت عن الفرنسية القديمة heresie. ولا تعني هذه الكلمة أكثر من «الإختيار أو التفضيل»، لذا كان المسيحيون الأوائل بالنسبة للرومان نوعاً متقدماً من الهراطقة لأنهم فضّلوا مفاهيمهم على المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك ورفضوا تقديم الاضحيات للأمبراطور واعتبروا ادعاء بعض الأباطرة الألوهية باطلاً. وتعرّض

المسيحيون إلى سلسلة من أعمال الاضطهاد خلال المراحل الأولى من التبشير إلا أن هذا الاضطهاد كان في العموم محدوداً فارتدّ البعض وتنصّر غيرهم الكثير واستطاع المسيحيون الاستمرار والنمو. وحققت المسيحية انتصاراً كبيراً عندما تنصّر الأمبراطور قسطنطين، إلا أن انتصارها الأكبر جاء عندما منع الأمبراطور ثيوديسيوس الأول عام ٣٩٢ كل أنواع العبادات الوثنية وحصرها بالنصرانية واليهودية. وبصدور هذا القرار باتت تعاليم الكنيسة أصل القانون والنظام، وصارت مخالفة هذه التعاليم، أو اختيار أي تعاليم مغايرة (أي الهرطقة) جنحة ليس في نظر الكنيسة فقط بل في نظر الدولة.

وكما لو فجأة، حدث انقلاب في الهياكل التحتية الدينية طاول في صورة أو اخرى أكثر من ٥٠ مليون شخص كانوا يعيشون في الأمبراطورية الرومانية ٢٠ مليوناً منهم على الأقل عبيد. وخلال هذا الانقلاب صار المعبد الوثني كنيسة والكاهن قسيساً ونزلت تماثيل آلهة الرومان واليونان وارتفعت الصلبان، وذهب الذبح القرباني وبقي القربان ومظاهر ورموز دينية قديمة كثيرة. وما لم تستوعبه الكنيسة آنذاك بات رمزاً مرفوضاً لماض ديني مرفوض مثله فبدأ تهديم المعابد وتهشيم التماثيل في ممالك الأمبراطورية الرومانية، بما في ذلك اليونان، وتحولت جنحة ممارسة شعائر دينية غير يهودية أو مسيحية إلى جريمة فطارد النصارى الوثنيين وقتلوا بعضهم.[1] ولم يلبث الاضطهاد أن شمل اليهود لأن النصارى اعتبروهم مسؤولين عن صلب السيد المسيح فطردوهم من الإسكندرية في عهد الكاهن سيرل. ثم اجبروهم مع الزمن على ارتداء ثوب العار في روما لتمييزهم عن غيرهم فهجرت جماعات من اليهود المدينة إلى شبه

---

[1] باشيا Hypatia فتاة إسكندرانية ذات حسب ونسب، وكانت على غاية من العلم والمعرفة والجمال. ولدت باشيا عام ٣٥٥ لأبيها ثيون Theon الذي كان يدرّس الرياضيات في جامعة الإسكندرية ويُعتبر واحداً من أشهر العلماء في عصره. وأنشأ ثيون ابنته في جو من الثقافة العالية والبحث العلمي فتولعت بالرياضيات والفلك والجغرافيا والعلوم الاخرى، وكانت تشرح للطلاب في الجامعة نظريات بطليموس وأفكاره، ووضعت عدداً من الدراسات المهمة. وأضافت باشيا إلى محاسنها الأخرى قدرتها الفائقة على الخطابة، وكانت تذهب إلى أثينا للمحاضرة هناك. وفي بداية التسعينات من القرن الرابع الميلادي وقعت اضطرابات بين المسيحيين وبعض الجماعات التي قاومت انتشار المسيحية. وكانت باشيا من هذه الجماعة الثانية واستخدمت علمها الواسع وقدرتها على الخطابة لانتقاد المسيحيين. وأثار موقف باشيا رئيس الأساقفة سيرل الإسكندراني (القديس سيرل لاحقاً)، وشاع بين العامة أن باشيا ساحرة وأنها تلجأ إلى السحر لاقناع الناس. وفيما كانت باشيا متجهة ليلاً من الجامعة إلى منزلها بعربتها اعترضها بعض أنصار سيرل وأنزلوها من العربة وقطّعوها ثم أحرقوها في نحو العام ٤١٥، وقالوا لمن سأل عنها بعد ذلك أنها ذهبت الى أثينا. ووضعت باشيا عدداً من الدراسات المهمة التي عمل في ما بعد على تطويرها علماء وفلاسفة مشهورون مثل ديكارت ونيوتن وليبنز. وكتب الروائي البريطاني تشارلز كنغزلي عام ١٨٥٣ رواية تناول فيها ظروف حياتها وموتها. من الكتب الكثيرة عن باشيا:

Dzielska, Maria. *Hypatia of Alexandria*, Cambridge: Harvard University Press, 1995.

جزيرة آيبرية التي باتت موطن أكبر تجمع يهودي في أوروبة.

ووجدت الكاثوليكية مع الزمن حاجة إلى الدفاع عن تعاليمها ونفوذها وسلطتها من خطر الأفكار والمعتقدات التي لا تتفق معها، واعتبرت تلك الأفكار «هرطقة» تجب مقاومتها. ونجد مثالاً على أشكال «الهرطقة» الأولى تعاليم الكاهن الاسكندراني آريوس. ونجد مثالاً مهماً آخر في آراء نسطور أو نسطوريوس (٣٨٠-٤٥١) بطريرك القسطنطينية الذي أنكر ألوهية المسيح وأنكر على مريم لقب «أم الرب». وقصة نسطور ملفتة لأن أهم منتقديه كان سيرل بطريرك الإسكندرية الذي تمكّن بفضل دعم البابا سيسلتين الأول من نبذ تعاليم نسطور وقبول تعاليمه هو. وأدى هذا الى حرمان نسطور من الكنيسة عام ٤٣١ في مجمع افسوس، والتسبب في انفصال الكنيسة السريانية. واستخدمت الكاثوليكية سلاح الحرمان من الكنيسة لمحاربة الهراطقة، إلا أن هذا السلاح لم يكن فاعلاً دائماً وبرزت الحاجة إلى إجبار هؤلاء على تغيير آرائهم بالقوة على أن تتولى هذه المهمة مؤسسة متخصصة عُرفت بعدها باسم محكمة التحقيق.

مأزق الدفاع عن محاكم التحقيق

قبل الانتقال إلى الحديث عن هذه المحاكم يُحسن التوقف قليلاً للإشارة إلى جهد متعاظم يصرفه بعض الكتّاب المشهورين والمغمورين على حد سواء هذه الأيام للدفاع عن محاكم التحقيق من خلال حجج عدّة أهمها وجود مبالغة كبيرة في ممارسات محاكم التحقيق وقوتها وتأثيرها. وربما ذهبت جماعة (متزايدة) من هؤلاء إلى الاستنتاج بعد ذلك أن محاكم التحقيق ليست بعد عرض تلك الحجج إلا اسطورة. والحجة الثانية إخفاق أجيال اليوم في التمييز بين أنواع عدّة من محاكم التحقيق بهدف مُبطّن هو وضع محكمة التحقيق القشتالية في خانة مختلفة عن خانة المحاكم الأخرى الأقل بطشاً. والحجة الثالثة تتصل بتغيّر المفاهيم الاعتبارية بين زمان وزمان ومن ذلك أن الناس في هذا العصر لا يحترمون دوافع الكاثوليكية لتأسيس تلك المحاكم لأنهم لا يحترمون عمل الكنيسة ولا يعترفون بقدسيتها. ويوجد من بين هؤلاء المدافعين من يسعى إلى البرهنة على إن الحملة ضد الهراطقة استمرار للحملات الصليبية بمهمة نهائية هي إعلاء شأن المسيحية. وهناك حجتان إضافيتان قرأتهما أخيراً الأولى أن التعذيب بالنسبة لمحاكم التحقيق كان وسيلة للحصول على اعتراف المتهم بالهرطقة بذنبه وليس غاية نهائية. والثانية أن الباحثين كتبّوا المجلدات عن محاكم التحقيق على

رغم جهلهم بآلية عمل تلك المحاكم. وربما قال البعض إن ممارسات محاكم التحقيق ما هي إلا سمة من سمات البشر وُجدت في الماضي وستوجد في المستقبل أيضاً.

ويشير بعض المؤرخين إلى وجود مبالغة في عدد ضحايا محاكم التحقيق وإفراط في وصف أنواع من التعذيب لا نجدها في «أدلة عمل» محاكم التحقيق. إلا ان هذا لا يعني بالضرورة قبول «تقزيم» عدد الضحايا فلا يُعقل أن يكون الرقم الجديد المقترح لضحايا المحاكم الذين حُكم عليها بالحرق نحو ألفين فيما عدد اليهود المتنصرين الذين أحرقوا فقط يقترب من هذا العدد ناهيك عن آلاف الأندلسيين والبروتستانت. وكما أننا لا نستطيع اليوم الإثبات بأن محاكم التحقيق لم تفعل كل ما اتهمت به فإننا لا نستطيع في أحوال كثيرة أن نُثبت العكس. أما الربط بين كل أنواع محاكم التحقيق فله أسباب كثيرة أهمها شرعية التأسيس لأن إقامتها تتطلّب موافقة خطّية خاصة من البابا. إذًا فهي قشتالية أو أرغونية أو مكسيكية أو برتغالية إلا أنها كلها تقوم على الشرعية التي منحها إياها البابا.

ويوجد بالطبع اختلاف كبير في مستوى الكتب التي وُضعت عن محاكم التحقيق لكن المادة الأساسية التي تقوم عليها هذه الكتب هي ملفات التحقيق ومراسلات محاكم التحقيق والمراسيم والقوانين المتصلة بها. ويتوافر الآن عدد مُعتبر من هذه الملفات بعدما فتحت الفاتيكان أرشيفها للدارسين، ولا تزال هناك ملفات كثيرة تنتظر الإفراج إلا أن قسماً كبيراً من تلك الملفات «احترق» أو «اختفى» أو تلف. ويوجد غير مثال على كتب عن محاكم التحقيق ربما تضمّنت ٤٠٠ أو ٥٠٠ ملف ليس بينها ملف واحد عن ضحية أوقع المحقق العام بها حكم الحرق. والإشارة إلى ان هدف التعذيب هو الحصول على الاعتراف صحيح لكن هذه نصف الحقيقة فقط لسبب مهم هو أن الاعتراف، لا الإنكار، هو الطريق إلى توقيع العقوبة ولهذا السبب كان الإنكار أقل خطراً من الاعتراف، ولهذا السبب لجأ عمّال المحكمة الى تعذيب ضحاياهم.

ونقطع هذه التعريجة بالإشارة إلى أن فهم دوافع محاكم التحقيق أو عدمه مسألة تتصل بالاحكام الأخلاقية والإنسانية. وإذا كان الهدف الأساسي لإقامة محاكم التحقيق هو الدفاع عن المسيحية الكاثوليكية فإن الهدف الاقتصادي بل والمعاشي ليس تافهاً. وربما صعب على المسلمين تصوّر التركيبة الدنيوية التي تمثلها البابوية لأن لا كهنوت في الإسلام خصوصاً في مذهبه السنّي، غير أن البابوية كانت في تلك الفترة السوداء من التاريخ الإنساني مركز مؤسسة هائلة تضم عشرات الآلاف من الكاتدرائيات والكنائس والأديرة التي ربما استوعبت في القرن السادس عشر أكثر من

مليون شخص مع ملايين آخرين كانوا يعتاشون من نشاطات المؤسسات الدينية، وكان على قسم كبير من هؤلاء حماية مصالحهم ومصادر رزقهم. وفي الإمكان في الوقت نفسه وضع العامل الاقتصادي والمعاشي جانباً فالقتل لأسباب دينية لا يزال مستمراً. ومن المؤرخين والمثقفين والناس العاديين من يؤيد إلى اليوم عمل محاكم التحقيق ومنهم من يتمنّى إعادة تأسيسها. وفي المقابل هناك من يعتقد إن إحراق شخص واحد فقط لأنه لا يفكّر كباقي المجموعة جريمة لا يمكن قبولها سواء حدثت اليوم أو قبل خمسة قرون. بل من المؤرخين والأخلاقيين من يذهب إلى أكثر من هذا ليقول إن اختيار محاكم التحقيق الحرق من بين كل أنواع الإعدام الأخرى لتنقية القلب بنار المغفرة ما هو إلا محاولة، في الوعي أحياناً وفي اللاوعي أحياناً أخرى، للعب دور الخالق والتحكّم بالحياة والموت.

وإذا تتبعنا محاولة التفريق بين محكمة تحقيق وأخرى فربما وجدنا في المحكمة التي تأسست عام ١١٨٤ أحد الأنواع الأولى. وكان هدف تلك المحكمة التصدي لهرطقة حركة مهمة عُرفت باسم «الكاثارية» Cathari انتشر أنصارها في فرنسا والمانيا وإيطاليا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر وتوخّى أصحابها التزهّد المفرط وشظف العيش. ولهذه الحركة التي يُزعم إن جان دارك (البطلة الشعبية الفرنسية) كانت تنتمي إليها، تفرّع انتهج أصحابه شيئاً قريباً من الحتفيّة عُرفت باسم «ألبجينز» Albigenses نسبة إلى مدينة ألبي Albi في جنوب فرنسا. وكان أتباع هذه الحركة يمتنعون عن الزواج والانجاب وأكل اللحم والمنتجات الحيوانية، وقالوا إن الروح سجينة الجسد عقاباً لها على الخطايا، وإن قمة الصلاح إطلاق الروح من عقالها عن طريق الانتحار الذي يُفضّل أن يكون بالتجويع. ونمت الكاثارية بسرعة ووجدت الكاثوليكية صعوبة بالغة في القضاء عليها نظراً إلى التأييد الذي حظيت به من العامة الذين رأوا في تلك الجماعة مثالاً على نبذ الدنيويات والتمسك بمبادىء المسيحية الأولى.

وفي عام ١٢١٥ دعا البابا أنوصان الثالث (١١٩٨-١٢١٦) إلى مجمع تدارس مشكلة الهرطقة وتقرر فيه إنشاء محكمة خاصة وضعت أسساً جديدة للتعامل مع الهراطقة. فقبل ذلك كان الإخفاق في إثبات جرم المتَهم يؤدي إلى إنزال عقوبة كبيرة بمن يتهمه، والآن لم تعد هناك ضرورة للبرهنة على ارتكاب جرم الهرطقة إذ تكفي الشكوك فقط. وفي عام ١٢٣١ أسس البابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧-١٢٤١) محكمة للتحقيق مع الهراطقة استمد طبيعة عملها من مادة في القانون الروماني هي «التحقيق» أو Inquisito. وتصدّى عمّال المحكمة وقضاتها للحركة، التي انتشرت في

منطقة تمتد من جنوب فرنسا إلى مملكة أرغون في شمال شرقي إسبانيا، لكنها لم تستطع القضاء عليها إلا في منتصف القرن الرابع عشر، بعدما كانت محاكم التحقيق نشطت في المانيا وإيطاليا لملاحقة أنواع أخرى من الهرطقة. وقبل عام ١٢٥٢ لم تكن المحاكم مخوّلة بالتعذيب، لكن جماعات مؤيدة للكاثارية اغتالت أحد رجال الكنيسة فسمح البابا أنوصان الرابع باستخدام التعذيب معلناً أنه على هذه المحاكم «الحصول من الهراطقة على الاعتراف بواسطة التعذيب لأنهم فعلاً قتلة الأرواح ولصوصها». وتقلّبت حظوظ هذه المحاكم ونفوذها وتأثيرها ووقع آلاف الأبرياء ضحايا لها، واختلق عمّالها أعداء هراطقة مثل اللوسفريين (أي الأبالسة). وثبت بعدها قطعاً أن مثل هذه الجماعة لا توجد في الواقع لكن بعد فوات الأوان إذ خضع المتهمون للتعذيب ومصادرة الأملاك ثم الحرق وهم أبرياء. ولكن على رغم كل هذه الفظائع فإن محكمة التحقيق الإسبانية كانت شيئاً مختلفاً تماماً إلى حد اعتماد البابوية نموذجها عندما أسست محكمة تحقيق خاصة عام ١٥٤٢ لملاحقة «الهراطقة» خصوصاً اولئك الذين ينتمون إلى الكنيسة البروتستانتية.

محكمة التحقيق الإسبانية

إذا أخذنا في الاعتبار خلفية صعود إيزابيلا إلى عرش قشتالة بعد حرب أهلية دامية مع أنصار منافستها خوانا، وأضفنا إلى ذلك مطلب رجل الشارع المُعسر دائماً الضرب بيد من حديد على اليهودي المُيسر دائماً، وجمعنا إلى هذين السببين حاجة إيزابيلا الماسة إلى إيجاد تمويل للحرب ضد غرناطة سواء من البابوية أو من المصادر المحلية فلا يمكن أن نتصّور حلاً أكثر مثالية من إقامة مؤسسة دينية ودنيوية كمحكمة التحقيق القشتالية. وإذا كانت إيزابيلا فعلاً وراء هذه الفكرة فإن مكيافيلي أخطأ خطأ كبيراً عندما تحدّث عن فرناندو وأغفل زوجته إيزابيلا. إلا أن الأرجح أن مكيافيلي كان مصيباً وأن فرناندو وراء فكرة إقامة محكمة التحقيق لأن مملكته الأرغونية كانت من بين المناطق التي نشطت فيها محاكم التحقيق لملاحقة أنصار حركة «ألبجينز» في القرن الرابع عشر. بل أن «دليل العمل»[1] الذي اعتمدته محكمة التحقيق القشتالية من جمع المحقق الأرغوني العام نيكولا إميركي Nicolai Eimerici، الذي انكبّ على ضبطه وإصلاحه وتعديله حتى بات على درجة عالية من الكمال عندما نشره عام ١٣٧٦ فلم

1 Directorium Inquisitorum . . . (al fin:) Explicit totum directorium inquisitorum heretice pravitatis compilatum auinione

يستطع توركيماده أن يضيف إليه إلا القليل. ومع الزمن أصبح هذا الدليل أساس كل «أدلّة العمل» التي اعتمدتها محاكم التحقيق القشتالية.

ولنتصوّر لحظة ما الذي تعنيه إقامة محكمة التحقيق الإسبانية التي ضربت إيزابيلا من خلالها خمسة عصافير بحجر واحد. فمن خلال هذه المؤسسة الواحدة الوحيدة تمكنت إيزابيلا من إعادة الوحدة إلى المجتمع القشتالي وجعلت المؤسسة من الشعب إلى الشعب ووجهت قواه واهتمامه وانتباهه إلى أعداء الكاثوليكية وأعداء الدولة - اليهود المتنصّرين. ومن خلال هذه المؤسسة رفعت إيزابيلا شعبيتها إلى السماء عندما لبّت مطلب رجل الشارع ودعته إلى احتفال خاص في الحقول وأرته كيف يتلوى أعداؤه اليهود (وبعدهم الأندلسيون) وهم يحترقون بالنار. ومن خلال إقامة هذه المحكمة أثبتت إيزابيلا للبابوية إنها جادة في تخليص الكاثوليكية القشتالية من شوائب اليهودية وعليها الآن ان توفر التمويل لتخليص قشتالة من غرناطة. ومن خلال هذه المؤسسة ستستمر إيزابيلا في مصادرة أموال الضحايا لدعم خزانتها، وستكون اليد الكنسية التي ستضرب أعداء الكنيسة وأعداء السلطة معاً. ولكل من هذه الأهداف جانبها الاقتصادي، إلا أن الملفت أن إيزابيلا شكّلت مؤسسة لم تكن تحتاج إلى الخزانة فتمويلها ذاتي لأنّ محاكم التحقيق هي التي توقع الحكم بمصادرة الأموال والأطيان، وهي التي تنفّذ الحجز وهي التي تبيع ثم توزّع ما تستخلصه على ثلاثة أقسام: قسم لتغطية نفقاتها، وقسم للدولة، وقسم صغير مكافأة لمن يشي بالهراطقة ويشهد على أفعالهم. وبتوفير هذا المصدر المالي الجديد والمستمر كان في استطاعة فرناندو وإيزابيلا الإنفاق على الدولة من دون تحميل الإسبان ضرائب جديدة، أي أن الملكين وضعا أسس التمويل الملكي في الصورة التي اعتبرها مكيافيلي مثالية. واستمر تطبيق هذه الاستراتيجية في السنوات اللاحقة بنجاح كبير، لذا نجد أن نفي اليهود ثم نفي الأندلسيين بعدهم سبّب نقصاً مهماً في تمويل الخزانة الملكية والكنسية. ونجد أيضاً أن محاكم التحقيق بدأت تستجدي الدولة لدفع الرواتب المتأخرة لموظفيها، وتحاول نقل اعتمادات تنصير الأندلسيين وتعليم أولادهم إليها بعد تغريب الأندلسيين وانخفاض عدد ضحاياها وبالتالي مصادر دخلها.

وهذه أهداف غير الأهداف التي تأسست لخدمتها محكمة التحقيق البابوية، لكنها لا تُقام إلا بموافقة البابا الذي يعيّن أيضاً المحقق العام. وعلى الرغم من أن البابا قدّم الشرعيّة التي أسست إيزابيلا بموجبها محكمة التحقيق، فإنّ هذه المحكمة كانت تختلف في نواح عدّة عن تلك التي أشرفت عليها البابوية مباشرة. وكان الهدف واحداً

هو ضمان «نقاء» الكاثوليكية بما يعنيه هذا من «إقناع» أصحاب المعتقدات المسيحية المغايرة بإصلاح أنفسهم والعودة إلى حظيرة الكاثوليكية، أو إجبارهم على هذه العودة عن طريق التعذيب، أو الوصول إلى الهدف الثالث وهو إحراقهم لضمان توبتهم والتكفير عن سيئاتهم وتحويلهم بذلك إلى «شمعة من نور طاهر من الخطيئة». وبما أن أوضاع قشتالة كانت تختلف عن الأوضاع في الدول الكاثوليكية الأخرى التي نشطت فيها محاكم التحقيق فإنها كانت تريد محكمة تشرف عليها مباشرة وتأتمر بأمرها وليس بأمر البابا الذي كان يقبع في قصر الفاتيكان على مسافة شهر من السفر المتواصل عن إشبيلية حيث مقر إيزابيلا الملكي. وفي تشرين الثاني(نوفمبر) عام ١٤٧٨ وصلت موافقة البابا على تأسيس محكمة التحقيق، وبدأت الاستعدادات لبناء هيكلها. وما أن اكتملت حتى أصدرت إيزابيلا مرسومها الشهير مطالبة رعايا المملكة بتقديم كل المساعدات الممكنة لتسهيل مهمة عمال محاكم التحقيق وحضهم بالتالي على أن يكونوا عيون المحكمة وآذانها.

وظل الهدف الأساسي لهذه المحكمة، نظرياً على الأقل، محاربة البدع الدينية والهرطقة على غرار هدف المحاكم الأخرى في بلاد الكاثوليكية. ومع ذلك كانت قشتالة دولة تختلف تماماً عن غيرها فهي الوحيدة التي كانت فيها السلطة والكنيسة تعنيان الشيء نفسه. وهذا، في عدد من أشكاله، مفهوم مشرقي لا انفصال فيه للدين عن الدنيا استوعبته إيزابيلا الكاثوليكية من النظام الإسلامي الذي كان قائماً في الأندلس في طريقة لا تختلف كثيراً عن استيعاب البابوية مفهوم الجهاد قبل أربعة قرون من ذلك وإلباسه مُعدلاً مبدأ الحروب الصليبية. وكانت لهذه المحكمة ذراع اخطبوطية امتدت بسرّية وكتمان شديدين إلى أعداء الكاثوليكية عبر حواجز لم يكن اختراقها سهلاً في الدول الأوروبية الأخرى. لكن إيزابيلا، ومن جاء بعدها، كانوا يستطيعون مدّ ذراعهم عبر هذه المؤسسة الدينية نفسها وضرب أعداء السلطة باسم الكاثوليكية. ولم يكن هناك فرق واضح دائماً بين النوعين من الأعداء لأنه لم يكن هناك فرق دائم بين الكاثوليكية والسلطة. فإيزابيلا لم تكن ملكة دنيوية فقط بل ملكة دينية أيضاً وتستطيع إثبات ذلك بالوصف الذي أعطاها اياه البابا وهو «الملكة الكاثوليكية». إن هذه المعادلة الثنائية ذات الارتباط العضوي اللصيق بين مصالح الدولة ومصالح الكنيسة هي التي جعلت محكمة التحقيق الإسبانية أكبر محكمة من نوعها في العالم واعطتها عمرها المديد وسلطاتها الهائلة. فنحن نتحدث هنا عن مؤسسة دينية حاربت أعداء الكاثوليكية في كل مكان وُجدت فيه وطالت يدها خصوم الكاثوليكية في ممالك قشتالة وأرغون، إلا أننا نتحدث في النفَس الواحد عن أكبر جهاز مخابرات عرفه

العالم، وربما جنّد القسم الأكبر من نحو ثمانية ملايين شخص كانوا يسكنون إسبانيا في القرن السادس عشر. وجمع هذا الجهاز صلاحيات هائلة استمدّ بعضها من البابوية إلا أنه لم يستطع في يوم من الأيام أن يرفض طلباً لملوك إسبانيا، ولم يستطع فصل نفسه عن مُبتكره ليتحول إلى دولة ضمن دولة.

ويمكن في بعض الحالات، ومن الوقوف لحظة في موقع الكاثوليكية، فهم الهدف الديني من إنزال عقوبات ترمي إلى إصلاح دين المتهم وإعادته إلى تيار الكاثوليكية العام مثل قبول ارتداء ملابس العار والحرمان من الحقوق المدنية والتردد الاجباري على الكنيسة وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر، إلا أن بعض تلك العقوبات كان اقتصادياً دعم في النهاية خزانة السلطة وغطى قسماً مهماً من نفقات تسيير آلة ضمّت ٢٠ محكمة تحقيق فرعية في إسبانيا قدمت فرص العمل لعدد كبير من القضاة والمعاونين والمحققين والكتبة. وعرفت هذه العقوبات «مرونة» ملفتة واكبت اختلاف حاجات السلطتين السياسية والكنسية فإذا كانت هناك حاجة إلى العبيد فإن الأحكام ستتضمن عندئذ انتزاع الحريات من المذنبين للتكفير عن خطاياهم، وإذا اقتضى اعمار المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد عدداً أكبر من السفن وعدداً أكبر منه من المجذفين أو البحّارة فإن العقوبات ستستجيب إلى هذا الطلب وسيصبح بعضها إذ ذاك العمل في القواديس مدداً معلومة وربما طول العمر. وحيثما بحثنا في العقوبات التي نزلت بضحايا محاكم التحقيق سنجدها تتضمن مصادرة المال والأملاك والأراضي لصالح خزانة الدولة أو الكنيسة.

ولا مفر إذاً والحال على ما شرحنا من الاستنتاج بوجود دوافع اقتصادية وتمويلية مهمة خلف جزء مُعتبر، على الأقل، من مهام محاكم التحقيق تُضاف إلى الدوافع الدينية والسياسية. ولا مفرّ من الاستنتاج بأن بعض قضاة محاكم التحقيق وعمّالها استخدموا سلطة المحاكم لتحقيق أهداف شخصية. ولا مفر من الاستنتاج أن هؤلاء سعوا إلى تحقيق مآرب ورغبات معينة خصوصاً أن ضحايا المحاكم كانت تعيش في الأقبية شبه عارية. وإذا قلنا غير هذا فلعلنا نريد تجاهل قوة الدافع الجنسي عند البشر سواء كان طبيعياً أو شاذاً. هذا يحدث اليوم في بعض أقبية التعذيب فلماذا يجب أن نفترض أنه لم يحدث في الماضي؟ وإذا تجنّبنا هذه الإشارة فلعلنا نقول إن عمّال المحاكم تلك لم يلتزموا المبادىء العامة التي حكمت نشاط محاكم التحقيق، ولم يكن هؤلاء يخشون العقاب لأن أحداً لن يصدّق الضحية إن اشتكت من وقوع مثل هذه الممارسات من ناحية ولأن محاكم التحقيق كانت تأمر من تفرج عنه بتوقيع تعهّد بعدم

البوح بأي شيء رآه أو سمعه خلال الاعتقال أو التعذيب تحت طائلة إعادته إلى السجون ومراكز التحقيق.

ومع ذلك هناك مبدأ أساسي كان يجب أن يسبق التحقيق في اتهامات الهرطقة هو أن يكون المُتهم مُعمّداً أو مُتنصراً ولو بالاسم فقط، فهذه المحاكم كانت مخصصة عموماً «لتطهير» المسيحيين ولم تمتد صلاحياتها إلى المسلمين أو اليهود. وخلال الفترة الأولى من عمل محكمة التحقيق القشتالية تركز اهتمام العمّال على مجموعات صغيرة متنوعة شملت القوط الذين ظلوا على مذهبهم الآريوسي بعد أكثر من ألف عام على اعتبار هذا المذهب «بدعة». لكن القسم الأعظم الباقي كان من اليهود الذين تنصّروا بفعل الإرهاب والاضطهاد بين عامي ١٣٩١ و١٤١٦ بعد اتهامهم بنشر الطاعون والكنز والاحتكار وغيرها. ثم انضمّ إليهم الأندلسيون والبروتستانت والمكسيكيون والبيروفيون والفلبينيون وغيرهم من الخلق كثير.

نظام عمل محاكم التحقيق

يقتضي إنجاز أي عمل باتقان وسرعة تسهيل خطوات القيام به وتنظيمها لذا كانت أبواب محاكم التحقيق مفتوحة لمن يريد دخولها للشكوى، فيما خُصصت لقسم خاص من عمّال المحاكم قطاعات يتحرّكون فيها لتسقّط الأخبار وإجراء التحرّيات. ويكفي في العادة أن يتقدم شخص بشكوى ضد شخص آخر لبدء المرحلة الأولى من التحقيق، فإذا توافرت شهادة شخص آخر عُيّن لهذه الشكوى محقق أو أكثر لمتابعتها. ويقتضي هذا عادة جلب المتهم إلى التحقيق. وفي بعض الحالات كان هذا ممكناً خلال النهار، لكن حالات أخرى اقتضت المداهمة تحت جنح الظلام وتوخّي الهدوء. وكان المُعرّفون يطرقون باب بيت المتهم أو المتهمة ويطلبون لقاء الشخص المطلوب ثم يأمرونه بمرافقتهم. وربما حدث ذلك فوراً لكن ربما امتنع المتهم أو أهل بيته عن فتح الباب وهنا يدخل المُعرفون عنوة ويأخذونه. وطوّر عمّال المحكمة آلة تشبه الإجاصة يمكن توسيعها أو تضييقها بواسطة مفتاح خاص. وكانت هذه الآلة على غاية من الأهمية إذا حاول المتهم الصياح لطلب النجدة من جيرانه فما أن يفتح فمه حتى يكون العمّال دسوا الآلة في فمه وأخذوه بالقوة. ومن اعتقل بهذه الطريقة نُقل إلى قصر محكمة التحقيق في المدينة وبدأت مرحلة جديدة من حياته يمكن أن تستمر أسبوعاً أو شهراً ويمكن أن تطول سنوات. ومهما كانت مدة الحجز فلن يستطيع أهل المتهم مقابلته أو الاتصال به. وربما اجتاحهم الخوف من أن يكون دورهم تالياً فأنكروه وتفادوا السؤال عنه فلا يبقى

إلا الانتظار. فربما أطلقه العمّال بعد ثبوت براءته فعاد إلى بيته، وربما صار عبداً ونُقل إلى العالم الجديد، وربما لن تراه ابنته أو أمّه ثانية إلا وهو يحترق ببطء.

ويمرّ التحقيق في «البيت المقدس»، أو سجن محكمة التحقيق، بمراحل عدّة قبل الانتقال إلى التعذيب. ويبدأ التحقيق عادة بجلب المتهم إلى قاعة المحكمة ليمثل أمام القاضي والمحققين فيستجوبونه ويشجعونه على الاعتراف بعرض شهادات الشهود. فإذا أنكر لجأ المحققون إلى التهديد والتخويف، فإذا مضى في إنكاره أنزلوه إلى القبو وعرضوا عليه آلات التعذيب وربما الحالة التي وصل إليها من لم يعترف بعد في تلك الأقبية. وربما أصر المتهم بعد كل هذا على براءته فتبدأ مرحلة جديدة فاتحتها عرض قائمة الاتهامات الموجّهة إليه واللجوء إلى أساليب نفسانية عدّة لضمان اعترافه. ومن ذلك تغيير الاسئلة التي يطرحها هذا المحقق أو ذاك، وتغيير لهجة مخاطبة المتهم فربما استخدم محقق لهجة قاسية واستخدم آخر الليونة، وربما أمطره المحققون بعشرات الاسئلة مرة، وربما تركوه في الزنزانة ساعات أو أياماً بطولها من دون توجيه كلمة واحدة له، وربما وضعوا معه متهماً آخر هو في الحقيقة جاسوس للمحكمة فيحاول استدراجه إلى الاعتراف. وإذا ظل المحققون بعد كل هذا يعتقدون أن المتهم لم يصرح بالحقيقة فإن المرحلة الأخيرة هي انتزاع اعترافاته بالقوة.

ويجب أن نلاحظ هنا ان الهدف العام للتعذيب سواء كان عضوياً أو نفسانياً هو انتزاع الاعتراف من المتهم تمهيداً لمحاكمته وتوقيع العقوبات الجسدية أو المالية أو النفسانية في حقه لضمان نقاوته الروحانية. ويوجد دليل عمل للتعذيب اعتمدته المحاكم وأدخلت عليه التعديلات المناسبة بين حين وآخر ليأخذ في الاعتبار تراكم خبرة المحققين. لكن لا يوجد قانون عقوبات خاص بالمحاكم لذا كان الحكم يعتمد على رأي قاضي المحكمة الذي تُركت له مهمة تقدير جرم المتهم والعقوبات المناسبة. وكان القاضي يأخذ في العادة برأي مساعديه وربما استشار قضاة آخرين في الحالات الخاصة. وأحياناً تكون القضية متصلة بالهرطقة لكنها تحمل جانباً سياسياً أو أمنياً، كما في حال البروتستانت أيام فيليب الثاني، وهنا يمكن تحويل مثل هذه القضايا إلى المجلس الأعلى لمحاكم التحقيق الذي يبت فيها. ويتألف هذا المجلس عادة من ستة أو سبعة أشخاص يعيّنهم الملك أو الأمبراطور كلهم باستثناء المحقق العام الذي يعينه البابا، وربما أخذ في الاعتبار رغبة الملك الإسباني في هذا التعيين، وربما انحصر دوره بالموافقة على من يرشّحه الملك. وفي معظم الحالات كان الحكم يبقى في نطاق محاكم التحقيق فلا يحق للمحكوم عليه الاستئناف، ولا تملك المحاكم المدنية حق الاعتراض

على الحكم الصادر أو تغييره بل لا يستطيع حتى البابا إلغاء حكم لا يريد المحقق العام إلغاءه. ويمكن ان تُبقي المحاكم السجين في سجونها سنوات، ويمكن أن تطلقه بعد يوم. وإذا صدر الحكم وكان بالسجن لمدة قصيرة فربما ابقته المحكمة في سجنها، وربما وضعته في دير في حالات خاصة. أما في حالات السجن مدداً طويلة، أو في حالات الحرق أو العمل في القواديس، فكانت المحاكم تسلّم المحكوم عليه إلى السلطات المدنية التي تنحصر مهمتها في تنفيذ أمر محكمة التحقيق في مدة أقصاها خمسة أيام.

وكتب ديستويفسكي وادغار ألان بو وغيرهما كثيرون عن فظائع محاكم التحقيق الإسبانية وصوّروا أجواء أقبية التعذيب وأنواعها والكوامن النفسانية للقائمين عليها، واختلط في تلك الروايات والقصص الخيال بالواقع والمزاعم بالحقائق حتى لم يعد ممكناً استخلاص هذه من تلك. لكن الدفاع عن محاكم التحقيق مهمة صعبة جداً بل تكاد تكون مستحيلة. وسنعرض في مكان آخر عدداً من الحالات الموثّقة التي عثر عليها الباحثون، ولا تشكّل في مجموعها إلا جزءاً يسيراً من وثائق محاكمات محاكم التحقيق. ويغلب على قسم كبير من هذه الوثائق طابع الانتقاء بمعنى أنها تتناول حالات كثيرة أفرجت فيها محاكم التحقيق عن المتهمين بلا عقاب، أو صرفت شهادات الشهود، أو انتهت إلى توقيع عقوبات محدودة على من ثبت ارتكابهم أعمالاً اعتبرتها الكنيسة هرطقة. لكن من يستطيع الجزم جزماً قاطعاً والحالات التي نظرت فيها محاكم التحقيق عبر تاريخها الطويل بمئات الألوف أن عمّال محاكم التحقيق لم يعذّبوا فعلاً أندلسيات لا لشيء إلا لأن جمالهن كان يمكن أن يغوي الصالحين الكاثوليك، ولم يعذّبوا أندلسياً لأنه كان لا يحب لحم الخنزير، ولم يأمروا أهل الميت اليهودي المتنصّر المتهم بممارسة الهرطقة خلال حياته بنبش قبره ووضع رفاته في كيس لاحراقه إلى جانب المدانين الآخرين، ولم يدفعوا الأسياخ المُحماة في جسد ضحاياهم، ولم يدفنوا البروتستانت في هولندا أحياء، ولم يوصوا باحراق متهمين كانت طبيعة المخالفات التي جرى إحراقهم بسببها ستثير اليوم مجرد الاستغراب أو تتصف بالطرافة وربما لا تستدعي أكثر من مجرد توجيه إنذار أو تحذير؟.

وربما مات المتهم قبل أن يعترف فيفلت من قبضة العمّال لكن تسعة من بين كل عشرة يدخلون قصور محاكم التحقيق كانوا يعترفون في مرحلة أو أخرى، وأحياناً بذنوب وممارسات لم يُقدموا عليها لا لشيء إلا للخلاص من التعذيب. أما العاشر فهو بطل أو مُغفّل. وإذا حصل المحققون على الاعتراف وسجّله الكاتب فإن محققين آخرين يطلبون من المعترف الإقرار بما اعترف به في مرحلة لاحقة ولا تكتمل القضية

إلا بهذا الاعتراف النهائي. وبعد ذلك تُعرض القضية على قاضي محكمة التحقيق الذي يقرر العقوبة التي ربما اشتركت السلطات المدنية والكنسية في متابعة بعضها. وكان الحرق مع مصادرة الأملاك العقوبة القصوى التي نزلت بالآلاف، إلا أن العقوبات الأخرى كانت متدرجة ومتفاوتة فربما تضمنت الشنق والعمل سخرة في القواديس والجلد أو مصادرة الأملاك أو العبودية أو الحبس مع الأشغال الشاقة وغيرها المئات. وما تقدم عرض لبعض العقوبات الجسدية لكن التورط مع محاكم التحقيق كان يعني المرور بأوضاع نفسانية صعبة. وربما خرج المتهم من قصر محكمة التحقيق بلا عقاب لكن تجربته ستظل تحمل إليه القلق والخوف والعذاب النفساني.

أساليب التعذيب وأدواته

للتعذيب أنواع جسدية ونفسانية كثيرة لم تأخذ شكلها المؤسساتي الواسع النطاق إلا في محاكم التحقيق الإسبانية. إلا أن هذه المحاكم لم تبدأ التعذيب ولم ينته بانتهائها فهو ملازم للإنسان ولعله جزء من قدره. وعرفت الأمم كلها أنواعاً كثيرة من التعذيب الذي يمكن ان يقتصر على الضغط النفساني ويمكن أن يتعداه إلى الجسد بكل اعضائه فيكون الحرق والسلخ حيّاً والتوسيط والصلب والخوزقة وخلع الأطراف والسمل وقطع بعض الأطراف وغير ذلك من الأنواع المئات. وكان التعذيب لدى اليونانيين القدماء إجراءً مقبولاً أقرّته القوانين، ويمكن استخدام الاعتراف المسحوب بالتعذيب أمام المحاكم لتوقيع العقوبات المناسبة. وقيّدت قوانين اليونانيين تعذيب المواطنين (أي الرجال فقط لأن النساء لم يكن يُعتبرن مواطنات)، إلا أنها أزالت معظم القيود على تعذيب العبيد والأجانب. وانضمت في عهد الأمبراطورية الرومانية إلى هذه اللائحة فئات أخرى منها المسيحيون الأوائل وكان ذلك بقوانين محددة بطل العمل بها بعد انهيار الأمبراطورية. ثم أحيت السلطات المدنية والكنسية الكاثوليكية بعضها واعتمدتها أساساً لإقامة محاكم التحقيق. وعلى رغم صدور قرارات كثيرة في القرن التاسع عشر منعت التعذيب في أوروبة وأميركا وغيرها من الدول إلا انه ظل مُستخدماً ولا تظل بعض أنواعه مستخدمة إلى اليوم ولو في صورة لا يقرّها القانون.

وتفنن الإنسان على مر العصور في تطوير آلات التعذيب وأساليبه فأوصل البابليون الخوزقة إلى الكمال، واتقن الفراعنة التعذيب بالنواقيس[1] وبرع الصينيون في غرز الأبر

---

[1] كان ناقوس من النحاس بحجم الإنسان يُنزل على المتهم من الأعلى ثم يُقرع بشدة فيسيل الدم من أذني الضحية التي تفقد سمعها بتكرار القرع.

الكبيرة في الأثداء. وكان بعض القبائل الافريقية يربط المتهمات بالزنا إلى شجيرات قوصية فيخرج النمل الساكن فيها إلى الضحية ويحقنها بالسم قبل انتزاع لحمها. وعرفت أوروبة وسيلة شريرة أخرى فكانت الفئران تُوضع على بطن الضحية وتُغطّى بصحن تُسلط عليه النار تدريجاً فلا تجد الفئران سبيلاً للنجاة إلا ببقر ضحيتها. إلا أن هذه الوسائل والأدوات لم تكن مناسبة لمحاكم التحقيق التي مُنع عمّالها من إراقة دم نصراني آخر مهما كان السبب، نظرياً على الأقل. ووجدت محاكم التحقيق آلة مثالية في المخلعة التي كانت من أكثر أدوات التعذيب انتشاراً لدى الرومان. وكانت الضحية تُثبّت إلى إطار خشبي وتُربط أطرافها إلى حبال حول بكرات كانت تُدار تدريجاً حتى يعترف المتهم أو تتخلّع أطرافه من مفاصلها. ويعود الحض على استخدام التعذيب وسيلة للحصول على الاعترافات إلى المحقق العام Inquisidor General والأشهر في تاريخ محاكم التحقيق القسيس الكاثوليكي الدومينيكي توماس دي توركيماده Tomás de Torquemada (١٤٢٠-١٤٩٨). غير أن توركيماده حظر مباشرة التعذيب إلا بعد ثبوت الهرطقة بشهادة الشهود. وهذا مبدأ عام لأن التأكد من صحة هذه الشهادات لا يتيسّر دائماً. ولم يكن ممكناً في حالات كثيرة فيما القاضي والمحقق ينتمي إلى مؤسسة محكمة التحقيق الواحدة، وفيما دوافع الوشاية أو الشهادة الكاذبة لا تُعد ولا تحصى. وكان على المحقق الذي يتسبب بموت المتهم رفع تقرير بذلك، لكن كان يكفي أحياناً إبراء ذمته من قاضي المحكمة أو من أي محقق آخر في قصر التحقيق.

واعتمد عمّال محاكم التحقيق تصميم المخلعة لتطوير آلة أخرى هي المرفعة strappado التي كانت مثالية لغرض تجنّب إسالة الدم. ويبدأ استخدام هذه الآلة بعقد يدي المتهم وراء ظهره وربطهما بحبل مُدلّى من السقف حول بكرة. وما على المحقق بعدها سوى شدّ الحبل فتنجذب اليدان المربوطتان حتى يتخلّع كتفا المُتهم، ثم يُنزل ويرفع بسرعة إن لم يعترف. وأحياناً كان المحققون يضيفون أثقالاً متنوعة إلى قدميه قبل رفعه وربما أغمي عليه من الألم، وربما أبقوه معلقاً فترات طويلة، وربما تمزّق رجعاه من الداخل. ومن طرق التعذيب الأخرى، التي يبدو أنها ابتكار خالص لمحاكم التحقيق الإسبانية، تقميش البلعوم aselli. ومبدأ هذه الوسيلة تمديد الضحية على سلم خشبي وأحكام إطار معدني حول رأسه لمنعه من الحركة، ثم شد وثاق يديه وقدميه إلى جانبي السلم وتنكيسه. ويأتي المحققون بعدها فيسدون منخريه بملقط خاص فيفتح فمه لاستنشاق الهواء فيدفعون فيه خرقة طويلة ويصبون الماء من الجرار في فمه فيشرق الماء مع القماش. ويأتي الوجع من الضغط الذي يشتد على الرأس وهو يحاول الإفلات، إلا أن هذا ليس سوى البداية فبعدما تستقر قطعة القماش في معدته يشدّونها

ببطء فيقيء المتهم الماء فيعودون إلى صبه في حلقه مرة أخرى وهكذا.

واقتضى مبدأ الامتناع عن إسالة الدم تطوير آلات غريبة ربما لم تكن إسالة الدم شيئاً في مقابلها منها مثلاً الكرسي الإسباني الذي كان يُجلس عليه المتهم وتُربط قدماه ثم تُدهنا بالسمن وتُضرم تحتهما النار حتى تُقليا. ومنها أيضاً الخانوق وكان عبارة عن تابوت في محيطه مسامير تمنع الضحية من الحركة. وشاع استخدام أكياس خاصة توضع فوق الرأس حتى يضيق التنفس، وتعليق أثقال بالخصيتين، واقتطاع اللحم بكماشات حامية فينمنع سيلان الدم بالكي الفوري، وصب الرصاص على الجلد. وكانت الإجاصة التي يلجأ إليها عمّال محاكم التحقيق لمنع المعتقل من الصياح تُستخدم في أغراض تعذيب أخرى فيدس المعذبون رأسها في إست المعتقل أو فرج المعتقلة ثم يبدأون توسيع الرأس تدريجاً وربما نقلوها من هذين المكانين إلى الفم من دون غسلها. ويُورد كتاب ومؤرخون أساليب وأدوات تعذيب غير القليل الذي أوجزناه، لكن يمكن استبعاد بعض تلك الوسائل التي كانت ستتسبب في إسالة الدم مثل قطع أظافر اليدين والقدمين. فمع عدم إمكان الجزم بأن إسالة الدم لم تحدث خلال تعذيب كل تلك الألوف من الضحايا، كان المبدأ من أهم مبادىء التعذيب في أقبية محاكم التحقيق، وربما توقف التعذيب فور سيلان الدم. وحققت محاكم التحقيق مع أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ أندلسي ومئات البروتستانت خلال القرن السادس عشر، لكن الحملة الأولى استهدفت الأندلسيين المُنصّرين أو المُتنصّرين في قشتالة خصوصاً، كما استهدفت جماعات من النصارى الآريوسيين الذين كانوا أحفاد القوط أو المتأثرين بديانتهم، لكنها تركزت في صورة أهم على اليهود المتنصّرين المعروفين أيضاً باسم «مارانوس»، أي الخنازير.

٣ - اليهود ومحاكم التحقيق

عرف تاريخ اليهود عصراً ذهبياً واحداً لا ثاني له تحقق خلال الخلافة الأموية الثانية في الأندلس. وإذا استثنينا اليهود الذين عاشوا في بعض الدول العربية فلا تردد في القول إن القسم المُتبقي من تاريخهم الطويل كان بالنسبة للسواد الأعظم من اليهود سلسلة شبه متواصلة من المذابح والاضطهاد والنزوح والتغريب. وفي التكوين اليهودي النفساني والديني والاجتماعي والسياسي مجموعة من التفرّدات التي ساهمت في عدم شعورهم بالراحة من معظم المجتمعات التي عاشوا فيها، وساهمت

أيضاً في عدم شعور معظم تلك المجتمعات بالراحة من إقامة اليهود بينها. وإذا نحينا لحظة النزاع بين العرب واليهود في شأن فلسطين والامتدادات السياسية والحضارية لهذا النزاع، فإن صورة تاريخ اليهود في الغرب صورة إخفاق المجتمعات الإنسانية في احتمال التجاور الحضاري والديني على مر العصور، وصورة الهزيمة المنكرة التي لحقت بالمواجهات الجدلية عندما اصطدمت بالرغبة في الاستئصال مرة، والإصرار على هذا الاستئصال مرة أخرى.

ووجد المسيحيون الأوائل، ثم البابوية وانكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وقشتالة من بعدهم، أسباباً كثيرة للحملة على اليهود، لكن الحملات الكبيرة لم تكن دائماً في حاجة إلى سبب كبير في الجو المُكهرب أصلاً من وجود اليهود. فربما كمن السبب وراء الدين أو الثياب أو اللغة أو الثروة أو أي سبب حقيقي أو مُختلق بل ربما مجرد الانطباع أو مرض طبيعي مثل الطاعون أصاب اليهود مثلما أصاب غيرهم وكان مُسبّبه القمل لا اليهود. إلا أن الحديث عن الاضطهاد يستوجب التوقف لحظة للإضافة بعدها أن الاضطهاد لا يعني دائماً الإضعاف إذ ربما كان يتضمن القوة أيضاً. ففترات السلام، لا فترات الإضطهاد، هي التي أضعفت اليهود في النهاية، وهي التي تهدد بذوبانهم في المجتمعات التي يعيشون فيها اليوم عن طريق زواج اليهود من غير ملّتهم.[١]

ولليهود هوية قوامها خليط من المواصفات الدينية والتاريخية لكنهم ليسوا عرقاً ولا أمّة ولا يمكن الاتفاق على تعريف لليهودي بسبب تعدد صفحات تاريخ اليهود وتنوّعه واتساع انتشاره. وحتى عام ١٩٤٨ لم تكن لليهود دولة في أي يوم من الأيام، ولم يكونوا سوى أقلية في سائر الدول التي نزلوا فيها. وتشبه شرعية التأسيس عند اليهود (العهد القديم) شرعيّة التأسيس عند الكنيسة الرومانية (العهد الجديد)، إلا أنها أضعف من الثانية بكثير فليس من بين كل المؤرخين اليوم من يستطيع أن يجزم جزماً قاطعاً

---

[١] اليهود من شعوب قليلة يتقلّص عددها باستمرار بدلاً من الازدياد مما يثير قلقهم العميق. ويقول المؤتمر اليهودي العالمي الذي انعقد في اسرائيل عام ١٩٩٩ أن عدد اليهود سجل بعض الارتفاع في أربع دول فقط هي اسرائيل والمانيا وكندا وبنما فيما انخفض في باقي الدول مما يعني أن عددهم الإجمالي بات ١٣ مليون نسمة تقريباً لذا لم يصل بعد إلى المستوى الذي كان سائداً قبل الحرب العالمية الثانية (١٨ مليوناً) حتى بعد مضي ٥٥ عاماً من السلام. ويعود السبب الرئيس في هذا الانخفاض إلى استمرار الزواج المختلط خصوصاً في الولايات المتحدة حيث تقلّصت نسبة اليهود من أربعة في المئة بعد الحرب العالمية الثانية إلى ٢,٣ في المئة حالياً أو نحو ٥,٨ مليون نسمة لأن أكثر من ٥٠ في المئة من اليهود الأميركيين تزوجوا في الثمانينات من غير اليهوديات. أما السبب الثاني فهو ضآلة نسبة التكاثر بين اليهود. وإذا استمر معدل اليهود الأميركيين في الانخفاض فإن إسرائيل ستصبح أكبر تجمّع للإسرائيليين الذين يعدّون فيها اليوم نحو ٤,٥ مليون نسمة. وتستهدف جماعات مسيحية في بريطانيا بعض اليهود لاقناعهم بالتنصّر، خصوصاً بعدما ثبت من مراجعة تاريخ الملوك الذي كتبه بطليموس وجود اختلاف في تواريخ وقوع أحداث مهمة ترد في العهد القديم.

بحقيقة الأقوام التي انتقلت من بلاد ما بين النهرين إلى أرض كنعان (فلسطين). ولا أحد يعرف بالضبط متى تم ذلك، ولا يكفي التكهن بأن أقواماً ربما كان من بينهم العبرانيون رحلوا إلى أرض كنعان في وقت ربما كان بين ١٨٠٠ و١٥٠٠ قبل الميلاد. وصار من البديهيات اليوم أن العالم أقدم بكثير من ٥٧٦٠ سنة، ولم تعد مطابقة التاريخ بما ورد في العهد القديم ممكنة بعدما اثبتت الدراسات الحديثة صواب تاريخ الملوك كما أورده بطليموس قبل أكثر من سبعة عشر قرناً. أما ما يمكن الأخذ به فهو ما يورده التاريخ من أن اليهود حاولوا مرتين تأسيس حكم لهم في فلسطين أيام الأمبراطورية الرومانية فحاربهم الرومان وأخرجوهم من القدس (إيليا كابيتولينا) وأطلقوا منذ ذلك الوقت أسم «بلستينا» Palaestina على الدولة التي نعرفها باسم «فلسطين». وجاءت المحاولة اليهودية الأولى عام ٦٦ فيما قاد المحاولة الثانية عام ١٣٢ ميلادية شخص اسمه بار كخبة. ودخل الأخير القدس فأخرجه أدريان الروماني، حاكم سورية، من المدينة بعد ثلاث سنوات، وقضى على الحركة. وحظر الرومان بعدها على اليهود دخول المدينة وتشدّدوا في تطبيق الحظر فرحل بعضهم إلى الجزيرة العربية[1] وآخرون إلى بابل حيث انضمّوا إلى يهود سبقوهم، واستفادوا من مهارتهم في التجارة والزراعة والري فأيسروا وأصبحوا من كبار ملاك الأراضي.

وعلا شأن اليهود هناك فبدأ الساسانيون في اضطهادهم فرحلوا إلى إيران وأفغانستان والهند وأرمينيا ومنطقة القوقاز. وعاشت أعداد كبيرة من اليهود في أراضي الأمبراطورية الرومانية فتحسنت أحوالهم في عهد كركلا الذي منح عام ٢١٣ كل الأحرار في الأمبراطورية المواطنية باستثناء اليهود، وانتقلت جماعات من اليهود بعد ذلك إلى البلقان وآسيا الصغرى وشمال أفريقية وإيطاليا. وفي عهد الأمبراطور المُنصّر قسطنطين (٣٣٧-٣٢٤) مُنح اليهود مواطنية من الدرجة الثانية، وسُمح لهم وللمسيحيين بعد ذلك بممارسة شعائرهم من دون سائر الأديان الاخرى. لكن المسيحية الأولى ضمّت متشددين كثيرين. واتسع نطاق التشدد فوقع على اليهود الذين دانهم المسيحيون لأسباب عدّة أحدها تسببهم في صلب السيد المسيح، ثم ازداد نطاق هذا التشدد اتساعاً في أوقات لاحقة فقام سيرل رئيس أساقفة الاسكندرية وطردهم من المدينة فرحل قسم إلى المغرب وعبر آخرون الزقاق البحري إلى شبه جزيرة آيبرية.

---

[1] يقترح ألفريد غيلوم ثلاثة عهود محتملة لاستيطان اليهود شبه الجزيرة العربية: الأول هو القرن الثامن قبل الميلاد وبهذا يربط المؤرخ بين هذا الاستيطان وسقوط السامرية عام ٧٢١ قبل الميلاد، والثاني هو القرن السادس قبل الميلاد، لكنه يرجع العهد الثالث إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين، أي نتيجة تخريب القدس على يد تايتوس في العام ٧٠ ميلادية وحركة بار كخبة ضد الرومان.

Guillaume, Alfred. *Islam*, Penguin Books, (London 1982), pp 10-13.

اليهود في الأندلس

استوطن اليهود المدن الرئيسة في آيبرية فحلّوا في غرناطة وقرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن لكن تأثيرهم في الحياة العامة ظل محدوداً. وسمح القوط لليهود بممارسة دينهم حتى امتدت إلى آيبرية موجة التشدّد الكاثوليكي في التعامل مع أصحاب الأديان الاخرى والخطأة والهراطقة وكل من لا يلتزم تعاليم الكاثوليكية فقاد القساوسة الكاثوليك حملة اضطهاد ضد اليهود «وبوحي من هؤلاء القساوسة الذين يوجهون سياسة الدولة، سن ملوك القوط قوانين قاسية ضد اليهود، فقد أعلن مجمع طليطلة اكتشاف مؤامرة حاكها اليهود الإسبان مع بني جلدتهم في شمال أفريقية، غايتها إدخال العرب إلى إسبانيا . . . (و) استُغلت هذه التهمة كمبرر لفرض عقوبات على اليهود بغية تنصيرهم والقضاء على اليهودية».[1]

ودخل العرب الأندلس فرأى فيهم اليهود المنقذ والمخلّص ووقفوا معهم «فاستخدمهم الجيش الفاتح حاميات للمدن التي يحتلها[2] كي يحتفظ بكتلته أثناء توجهه لفتح الأماكن الأخرى، لذلك عاملهم العرب الفاتحون برفق كبير. وعلى رغم انتشارهم في جميع المدن، إلا أن منطقة غرناطة أو كورة البيرة تعج بهم حتى شاع تعبير «غرناطة اليهود»[3] على كل الألسن في ذلك الزمن. وفي عهدي الإمارة والخلافة القرطبية ثم في عهد بعض أمراء الطوائف ارتقى اليهود المراتب العالية وكثر نسلهم وازداد ثراؤهم، وكان منهم الوزراء وأطبّاء الخلفاء والعلماء والمترجمون والممولون والتجار والصبّاغون والنجارون، وكانت لهم كنس كثيرة لا يزال بعضها قائماً بعد تحويله إلى كنائس كما في طليطلة.

ولما انهارت الخلافة وقامت ممالك الطوائف انقلبت أحوال الأمّة وسادت الفوضى وانعدم الأمن والاطمئنان ووجد اليهود في الشمال فرصاً أفضل فانتقلوا إليه. وعندما استسلمت طليطلة للملك ألفونصو السادس سنة ١٠٨٥ رحّب به المسلمون واليهود على السواء، وتابعت الجماعتان في العموم حياتهما إلى أجل بعدما ضمن لهما حرية العبادة على غرار ما حدث في كثير من المدن التي احتلها الشماليون النصارى قبل ذلك. واستمر بعض اليهود في بلاط ألفونصو في توفير الخدمات التي كانوا يقدمونها

---

[1] «دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها»، ص ٩-١٠.

[2] «الإحاطة في أخبار غرناطة». لسان الدين بن الخطيب، (القاهرة، ١٩٧٤)، ج ١، ص ١٠٧.

[3] «صفة جزيرة الأندلس» (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار). أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، تحقيق ليفي بروفنسال، (القاهرة ١٩٣٧)، ص٢٣.

قبل ذلك لبعض ملوك الطوائف فصاروا رسلاً وجباة وممولين. ومن أمثلة ذلك يهودي اسمه ابن مشعل أو ابن شاليب بعثه ألفونصو رسولاً إلى صاحب إشبيلية المعتمد بن عبّاد يتهدده باسم ألفونصو ويطلب تسليم حصون ومنابر «فغضب المعتمد وضرب رأس الرسول بمحبرة كانت أمامه، فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة»،[1] وكان هذا التهديد سبباً أساسياً في استدعاء المرابطين إلى الأندلس. وارتبطت النقمة الأندلسية على بعض اليهود بطبيعة عملهم، «ولعل أشد مظهر أثار نقمة الشعر يومئذ هو تسلط اليهود في دولة غرناطة على الناس وقيامهم بحكم الجماعات الإسلامية وجمع الضرائب. . . إذ يقول ابن حفص الزكومي الشاعر:

كنا نطالب لليهود بجزية ... وأرى اليهود بجزية طلبونا

وعادت ثروة اليهود عليهم بالنقمة التي زاد الضيق الاقتصادي حدّتها فأفتى زاهد مثل أبي إسحاق الألبيري، أيام وزارة اليهودي ابن النغريلة في غرناطة التي حكمها الصنهاجيون، بقتل اليهودي في قصيدة مشهورة ساعدت على قيام الثورة في تلك المملكة:

ألا قل لصنهاجه أجمعينْ ... بدور الندى وأسود العرينْ
لقد زلّ سيدكم زلة ... تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً ... ولوشاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا ... وتاهوا وكانوا من الأرذلين
وأني احتللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين
وهم يقبضون جباياتها ... وهم يخضمون وهم يقضمون
ورخم قردهم داره ... وأجرى اليها نمير العيون
فصارت حوائجنا عنده ... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فإنّا إلى ربنا راجعون
فبادر إلى ذبحه قربة ... وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه ... فقد كنزوا كل علق ثمين
ولا تحسبن قتلهم غدرة ... بل الغدر في تركهم يعبثون[2]

---

[1] «تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين»، ص ٢٦.

[2] أعلاه، ص ١٤٧-١٤٨. وحذفنا مما اقتطفناه بعض الأبيات.

وتغيّرت أحوال الأندلس بعد دخول المرابطين البلاد عام ١٠٨٦ فرحلت جماعات جديدة من اليهود إلى الشمال أو ذهبت إلى مصر والمغرب وغيرها. ووجد ملوك الشمال في خبرات اليهود وثروتهم منفعة عظيمة فاستمالوهم على أساس من المصالح المشتركة والفوائد المُتبادلة. وقابل تحسن علاقة اليهود مع القشاتلة تردّي العلاقة مع الأندلسيين بعدما انقلب موقف بعض اليهود فناصروا القشاتلة وساهموا في تمويل القتال ضد المسلمين بل ساروا خلف عسكر القشاتلة لشراء مغانم الحرب كما يُعلمنا صاحب «بغية الملتمس». [1] وسعى عدد كبير من ملوك الشمال في المراحل التالية من تاريخ الأندلس إلى محاولة استيعاب اليهود والمسلمين الذين بقوا تحت سلطتهم من خلال تشجيع تعايش النصارى واليهود والمسلمين. ونجحت هذه التجربة مرة وأخفقت مرّات لذا لا يسهُل تحديد نمطية لها. وظلت حريات المسلمين واليهود على حد سواء محدودة، وفي إطار تقلّبت فيه العلاقات أزماناً ثم مالت أخيراً في الاتجاه الاستئصالي المعروف الذي انتهى بطرد اليهود من قشتالة.

ورأينا كيف اشترط أهل غرناطة تعيين يهودي لا مسيحي للفصل في أي نزاعات تقع بين مملكة غرناطة وقشتالة في معاهدة تسليم غرناطة، لكن لم يبق يهود كثيرون في قشتالة كلّها بعد ذلك بأشهر. وكان اليهود المتنصّرون (أو المنصّرون) إخوة الشقاء مع الأندلسيين، لكن هناك إشارات عدّة إلى استمرار الشكوك والعداوة بين الجهتين. ونعرف عن حالات كثيرة من الزواج المختلط بين أندلسيين موراكة ويهوديات متنصرات وربما العكس، لكن لا نعرف تماماً سبب العداوة بين مجموعات محدودة من الطرفين على الأقل، وربما كان أحد الأسباب مساهمة الإسبان في إحياء الشكوك بين الجماعتين لضربهما ببعضهما البعض.

وعرف اليهود في ظل الممالك النصرانية مستويات متباينة من النمو والنفوذ المالي والاقتصادي وحتى الفكري في بعض الحالات، إلا أن العصر الذهبي اليهودي كان انتهى قبل ذلك بوقت طويل مخلّفاً بعض أشهر الفلاسفة والمفكرين والعلماء الذين عرفتهم اليهودية في تاريخها كلّه مثل ابن ميمون الفيلسوف، وابن الفوال الطبيب والفيلسوف، ومروان بن جناح الذي عُني بالمنطق ومثله ابن جبيرول، وابن بكلارش الطبيب، وأبو الفضل حسداي الذي برع في علم العدد والهندسة والنجوم والموسيقى والمنطق وغير هؤلاء العشرات. «وحيثما تقدمت سيوف العرب رأيتَ اليهود وراءهم

[1] في «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس». أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، (القاهرة ١٩٦٧)، يقول الكاتب (ص ٤٦) وهو يروي قصة معركة الأرك «وكان معه (أي ألفونصو الثامن) جماعات من تجار اليهود وصلوا لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا أموالاً، فهزمهم الله تعالى».

دائماً، وفيما قاتل العرب تاجر اليهود، وعندما سكنت الحرب اشترك اليهودي والعربي والفارسي في تحصيل العلم والفلسفة والفنون والعلوم فكان هذا مما ميّز العرب ورفع شأنهم في العصور الوسطى». [1]

اليهود في أوروبة

لا يرسم كثيرون من المسيحيين علامة الصليب على صدورهم إلا تذكّروا من تسبّب في صلب السيد المسيح لذا لم تكن هناك حاجة في كثير من الأحايين إلى أي أسباب خاصة يمكن أن تثير موجة جديدة من العداء لليهود لأن شعور العداء مُتأصّل في الذاكرة واللاوعي. لذا يمكن القول إن الشارع المسيحي في معظم الدول الأوروبية كان في حال من الاستنفار شبه الدائم ضد اليهود. ولعب عدد كبير من ملوك أوروبة ورقة العداء لليهود في الحالات المناسبة فكان اضطهادهم إحياء لشعبية هابطة، أو لإبعاد النظر عن الأوضاع الاقتصادية المتردية، أو الفساد المستشري، أو فضائح مخادع النوم وغيرها. إلا أن الاستجابة لهذا المطلب الجماهيري لم تكن دائماً السبب. وفي الحالات التي استدان فيها الملوك من اليهود مبالغ هائلة لتمويل الحروب أو الإنفاق على الراعي وبطانته ولم يجدوا في خزائنهم المال لخدمة الديون ناهيك عن تسديد أصولها، كان إلغاء الديون أسهل طريق إلى التخلّص منها. والمشكلة التي واجهها اليهود آنذاك تمثّلت في أن إلغاء الديون كان يعني غالباً إلغاء وجود اليهود أنفسهم.

وأين البرهان على هذا؟

في عام ١٢٥٤ عاد الملك الفرنسي لوي التاسع المعروف أيضاً بـ«القديس» من حملة فاشلة على مصر انتهت بأسره في معركة المنصورة واستفدائه بمبلغ هائل فألغى ديون اليهود كلها وطرد مجموعات كبيرة منهم. وفي العام نفسه حذا خايمي الأول ملك أرغون حذو جاره الفرنسي فألغى ديون اليهود التي كانت تشكّل القسم الأعظم من القروض التي أثقل خزانته بها. وفي عام ١٣٠٦ شارف الملك الفرنسي فيليب الرابع على الإفلاس فاعتقل اليهود وصادر أملاكهم وطردهم من البلاد قبل أن يلتفت إلى فرسان الهيكل بعد ذلك بسنة. ونجد مثالاً أحدث من الأمثلة الثلاثة السابقة في إيزابيلا التي طردت اليهود من قشتالة عام ١٤٩٢ وتخلّصت من القروض التي قدّمها اليهود واليهود المتنصّرون للانفاق على حرب غرناطة، ومن أهم هؤلاء الممول الملكي أبراهام سنيور Abraham Senior الذي كان روتشيلد عصره.

---

[1] Bleye, Pedro Agudo. *Manual de historia de Espana*, (Madrid 1963), I, p 647.

ومن أين جاء اليهود بثرواتهم الهائلة؟

إذا حصلتَ على قرض قيمته ١٠٠ دولار من البنك بفائدة مركّبة معقولة نسبتها عشرة في المئة فعليك أن تتوقع تسديد أكثر من ضعفي المبلغ الذي أخذته (٢١٤ دولاراً) خلال ثماني سنوات. إلا ان تحديد نسبة الفائدة مرتبط بوضع المستدين والأحوال السياسية السائدة. وبما أن المخاطر كانت عالية في معظم الحالات فإن نسبة الفائدة ربما وصلت إلى ٣٣ في المئة أو أكثر، وربما تضاعف الدين إذا لم يستطع المقترض السداد في الوقت المحدد. ولو افترضنا مثلاً أن إيزابيلا اقترضت عشرين مليون دينار مرابطي من الممولين اليهود في بداية حرب غرناطة عام ١٤٨١ بفائدة سنوية مقدارها ٢٠ في المئة فقط فإن المبلغ الذي كان عليها تسديده في نهاية الحرب عام ١٤٩٢ هو ١٤٨,٦ مليون مرابطي في وقت تكون فيه الخزانة خوت. وهنا يصبح الإلغاء أرخص من الدفع. إلا أن هذه الخطوة تتضمن أيضاً علاوة لصالح السلطة لأنها تضرب بطرد اليهود عصفورين بحجر واحد فتتخلص من الديون وترفع شعبيتها الجماهيرية.

ولدينا الآن فكرة معقولة عن أنظمة التمويل في القرن الحادي عشر إذ كانت على غاية ملفتة من التنظيم، وكانت دورة النقد سريعة فتسارعت خطى الحرب معها وعادت الحروب التي كانت أقرب الطرق إلى الثروة فزادت دورة النقد سرعة وهكذا. ويُعتقد الآن أن القسم الأكبر من الذهب الذي كان ينتقل من غانة (جنوب الصحراء الكبرى) إلى الأندلس عبر المغرب كان يتحوّل إلى جزية يدفعها ملوك الطوائف إلى ملوك الشمال. وكان هؤلاء يدفعون قسماً كبيراً منها للممولين اليهود الذين أصبحوا من أهم ممولي ملوك أوروبة إلى جانب الإيطاليين والفلمنك. وظلّ اليهود يتمتعون بهذا المركز المتقدم في التمويل الشامل حتى تقدمت البابوية الجميع اعتباراً من القرن الخامس عشر من خلال مجموعة متنوعة من أدوات التمويل وأنظمة الجباية المتطوّرة التي شملت فرض ضرائب العُشر والثلث والتبرعات وتسويق صكوك الغفران ذات الأسعار المختلفة ودرجات الغفران المتنوعة. وتمكّنت البابوية، بفضل هذه الأدوات التي شملت سائر أرجاء الكاثوليكية، من تمويل حروب ذات تكاليف كبيرة جداً مثل حرب غرناطة ومعركة ليبانت التي اشتركت فيها البابوية بأسطول خاص.[1]

[1] كان البنادقة يحضّون البابوية على مساعدتهم في تغطية الحرب ضد العثمانيين بالادعاء أن هذه الحرب تكلّفهم ٢,٥ مليون دوقة سنوياً ارتفعت إلى ١٢,٥ مليون دوقة عام ١٥٧٣، فيما كان العثمانيون ينفقون نحو نصف مليون دوقة على اسطولهم في الموسم الواحد. أما فيليب الثاني الذي ساهم في معركة ليبانت فقد استرد معظم نفقات تلك المعركة من الضرائب البابوية. انظر:

Housely, Norman. *The Latter Crusades*, Oxford University Press, 1992, P 145.

والمال نعمة ونقمة في آن، فهو قدّم لليهود النفوذ الذي تمتعوا به وكان الطريق إلى مزيد من المال، لكنه أثار الحسد والنفور وأوقعهم في كوارث متلاحقة. وهذا معضل مثير للانتباه إذا أخذنا في الاعتبار أن طريق الاتجاه إلى الإشتغال بالتمويل أملته الظروف التي واجهها اليهود. وساهم التنقل المستمر والقلق الدائم وغموض المستقبل في دفع اليهود إلى التجارة بالمال على حساب المهن الأخرى، وهكذا احتفظ اليهودي بالأصول في صورة سائلة كي يستطيع نقلها بسرعة إذا انقلبت الظروف في صورة مفاجئة كما كان يحدث عادة. وكانت هذه العوامل نفسها السبب في ابتعاد ملحوظ عن الاستثمار في الأصول العقارية أو الصناعات أو الخدمات التي تستطيع السلطات مصادرتها بسرعة أو تتحوّل إلى هدف ثابت للناقمين على اليهود. وبما أن المال كان السلعة الرئيسية التي تعامل بها اليهود الممولون فقد كان من الطبيعي ان يتقنوا تشغيلها وتنميتها وفق أساليب لم تكن دائماً تقليدية أو مرغوبة لدى الجمهور الأكبر من الناس. ومع صعوبة تحصيل الضرائب في فترة لم تكن الاحصاءات تطورت فيها، ولم يكن التنظيم الإداري وصل إلى درجة فاعلة، وجد الملك الأوروبي تلو الآخر حاجة في الاقتراض في صورة فورية أحياناً، وكان المال اليهودي متوافراً فوراً للملك الذي يريده بسعر الفائدة الذي يريده الممول.

وربما بدت شروط التمويل بالمال اليهودي استغلاليّة ومجحفة وانتهازية إلا أنها كانت قانونية بالعرف والعادة والثقة، وتتم بالاتفاق الصريح الملزم بالتعهد، ولذا يمكن أن تُعتبر ثروة الممولين اليهود سبباً للحسد لكن وجودها بين أيديهم لم يكن خطأً يستدعي المؤاخذة أو العقاب. أما النشاط المالي والتجاري الذي تسبب في المناداة بعقابهم ومؤاخذتهم فهو توفير خدمات صرف العملات ومبادلتها وشراء الأسرى والاسلاب والمغانم من المراكز التي كانوا يقيمونها في مؤخرات الجيوش أو المدن والقرى القريبة من ساحات المعارك. ولا نعرف إن كانت جماعات من التجار اليهود لعبت هذا الدور خلال الغزوات الأندلسية على الممالك الشمالية، إلا أن هؤلاء تتبّعوا جيوش ألفونصو السادس ومن جاء بعده خلال الحروب ضد الأندلسيين، ونمت تجارتهم بسرعة واتسع نطاق عملهم وبدأوا يسيرون خلف الجيوش الصليبية التي غزت المشرق لتصيّد الفرص. ولم تمنع البابوية الصليبيين من مغانمهم الحربية لكنها رأت مع الزمن تركيزاً متزايداً على هذه المغانم فاق التركيز على الصفة الكاثوليكية لتلك الحروب. وهكذا بدأ القساوسة في التحذير من تلك النشاطات وحضوا النبلاء على إقصاء اليهود عن مؤخرات الجيوش التي كانت توفر أيضاً خدمات الترفيه عن الجنود.

وحاول بعض التجار اليهود الالتفاف على التوصيات الكنسية بالرشوة فاعتبرت الكنيسة ذلك تدخلاً في شؤون قيادية لا علاقة لهم بها. وهذا سبب مهم في بدء موجة عامة من اضطهاد اليهود في أوروبة، إلا أن هناك سبباً مهماً آخر يتصل بالإخفاق الهائل الذي لحق بالحملات الصليبية التالية. إذ نزلت بالأوروبيين هزائم ماحقة في مصر وآسيا الصغرى وتونس وفلسطين، ومات فيها الملوك، ومن عاد منهم كان مُثقلاً بالديون والإخفاق. ووجد الملوك والكنيسة ورجل الشارع في اليهود كبش فداء متاحاً. وإذا أضفنا إلى هذه الأسباب مآخذ كثيرة على اليهود شملت تجنّبهم استخدام الايقونات في ممارساتهم الدينية على عكس الكاثوليكية، والامتناع عن أكل لحم الخنزير وانغلاق مجتمعاتهم وادعاء النصارى أن اليهود يسرقون أطفالهم ويضحّون بهم في طقوسهم الدينية وما إلى ذلك من كلام، يصبح ممكناً تتبع أسباب الحملة على اليهود. وأخذت هذه الحملة أشكالاً عدّة فاعتبرهم الامبراطور فريدريش الثاني في ألمانيا فئة قريبة من العبيد، وحرمهم غيره من حمل السلاح الذي كان رمز المواطن الحر، وفرض عليهم آخرون ارتداء زي معين، وتعرضوا إلى مذبحة في قلعة يورك التي كانت من أهم المدن الانكليزية في العصور الوسطى. و تحوّل الإبعاد إلى سلاح أمضى فما أن حلّ العام ١٣٩٤ حتى كان الوجود اليهودي في فرنسا مقتصراً على مجموعات في مقاطعات بروفانس ودوفينييه وأبينيون. وترك قسم من اليهود وسط أوروبة إلى لتوانيا ثم إلى جنوة ومملكة نابولي وتركيا والمغرب ومصر وفلسطين.

اليهود والطاعون

أما السبب الرئيس الآخر في اضطهاد اليهود فهو بكتريا اسمها العلمي Yersinia pestis تعيش في الجرذان والقوارض وتنتقل بواسطة القمل إلى الإنسان فإذا عقصته دخلت البكتريا الدم وأصابه الطاعون وربما مات في أقل من خمسة أيام يعاني خلالها عذاباً عظيماً لا يُحتمل. ولاحظ الأندلسيون خلال القرن الرابع عشر أن الحجر يوقف انتشار الوباء، ففعل كثيرون مثلهم وعمد البنادقة إلى فرض حجر على السفن مدته ٤٠ يوماً[١] لكن هذا لم يكن مجدياً لأن العلاقة بين الجرذان ونقل الوباء لم تكن اكتشفت بعد فحجز البنادقة والانكليز والجنويون السفن والبحّارة لكن الجرذان المُصابة نزلت من السفن إلى الماء ودخلت المدن ونقلت الوباء الذي عصف بأهلها.

---

[١] كلمة quarantine التي تعني الحجر، وخصوصاً الحجر الصحي، إيطالية معناها «أربعون» أي quarantinea أو quaranta.

وعرف الإنسان الطاعون منذ عصور سحيقة ففي عام ٤٢٠ قبل الميلاد قضى هذا الوباء على ثلث سكان اليونان، كما اجتاح أثينا في عصر بيركليز ومات به مع خلق كثير. ولعل أشهر العرب الذين ماتوا بهذا الداء أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن معاوية عندما ظهر الطاعون في قرية عمواس قرب القدس عام ٦٣٩ وأباد نحو ٢٥ ألف شخص. وبدأ الطاعون ينتشر في جنوب أوروبة في موجات محدودة منذ عام ٥٤٢ ميلادية. إلا أن ما حدث عام ١٣٤٧ كان مهولاً إذ انتقل الطاعون بواسطة بعض البحّارة الجنويين إلى أوروبة ولم تنته هذه الموجة في عام ١٣٥٤ إلا والوباء فتك بنحو ٢٥ مليون شخص، أو ما يعادل نصف سكان القارة آنذاك. ومن أوروبة امتد الوباء إلى الدول العربية فأودى بحياة ثلث سكان سورية ومصر، وعبر بعدها إلى أفريقية وآسيا فقضى على نحو ٦٠ مليون شخص، أو نحو ثلث سكان الكرة الأرضية. ووقتها ابتعد الناس عن الكنيسة، وانصرفوا إلى أنواع المتع والملذّات بلا حساب، وفقدت السلطات السيطرة على المدن والأرياف.

وكان أعظم سر في تلك الحقبة اكتشاف دواء لهذا الوباء. وشاع وقتها أن شرب الكحول يساعد على التعافي ويكسب المناعة لكنه لم يساعد إلا على تناسي الخطر والإدمان. ولاحظ الناس بعدها وجود علاقة بين الجرذان والطاعون، لكنهم لم يلاحظوا العلاقة بين الجرذان والقمل، فكانوا يجمعون الجرذان ويرمونها في النار فتسارع انتشار الوباء لأن القمل كان يهرب من الجرذان المحترقة إلى المتحلّقين حول النار. وأخفق الطب في إيجاد العلاج واستمر فتك الطاعون بالناس إلى ان اهتدى طبيب روسي يُدعى فالديمار هافكينيه Waldemar Haffkine إلى مصل له عام ١٨٩٦، وصارت معالجة الوباء ممكنة بالمضادات الحيوية. ولم يبق من الطاعون ((الموت الأسود) في أوروبة إلا ذكراه والمشروبات الكحولية التي انتشر استهلاكها في تلك الفترة لكن حالات قليلة لا تزال تظهر في المجتمعات الفقيرة في أفريقية وآسيا.

وربط الناس آنذاك بين الطاعون واليهود لكثرة تنقلهم وتصادف انتشار الطاعون في غير مرة مع هذا التنقّل. إلا أن الناس كانوا يعيشون آنذاك حالاً من الذعر الشديد ولم يهتدوا إلى أسباب هذا الداء وحامت الشكوك حول اليهود فوثبوا عليهم وذبحوا كثيرين منهم في إنكلترا والمناطق الشمالية من فرنسا وألمانيا. وتجددت هذا المذابح كلما انتشرت موجة جديدة من الطاعون حتى شملت ٣٥٠ محلة يهودية. وحتى عندما توقف انتشار الطاعون وجد الأوروبيون اتهامات غير الوباء يدينون بها اليهود مثل الجشع والخداع والغش لذا قدّم الأدباء والفنانون لجمهورهم صورة اليهودي المرسومة

في أذهانهم وليس دائماً في الواقع كما في حال شخصية شايلوك في مسرحية شكسبير «تاجر البندقية».

اليهود في قشتالة

فتك الطاعون بالقشاتلة والأندلسيين كما فتك بغيرهم لكن المذابح لم تطارد اليهود عبر البيرينيه إلى تجمعاتهم في قشتالة وأرغون خلال الموجة الكبرى من انتشار الطاعون. وظل اليهود في قشتالة وأرغون يتمتعون عموماً بأفضل وضع في أوروبة إلى أن دخل تاريخهم هناك مرحلة خطيرة في القسم الأخير من القرن الرابع عشر. ويعود السبب في اختلاف أحوال اليهود في إسبانيا عن غيرهم في أوروبة إلى الخدمات المهمة التي قدّموها إلى ملوك قشتالة خصوصاً. ولا بد أن اليهود كانوا يشكلون في هذه المملكة ثقلاً مهماً سوّغ إعلان ألفونصو العاشر نفسه ملكاً على الملل الثلاث: النصرانية والإسلام واليهودية. وصرف هذا الملك مبالغ طائلة أملاً في أن ينصّبه البابا أمبراطوراً رومانياً مقدساً، لكنّه لم يُوفق في مسعاه فانشغل بتحصيل العلم وكتابة الشعر والإشراف على ترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة القشتالية في المدرسة المشهورة التي أقامها في طليطلة ووظّف فيها عدداً من التراجمة اليهود. وكنّ هذا الملك الموصوف بـ«العالم» تقديراً لليهود فقرّبهم واعتبرهم تابعين له مباشرة، واستعمل لجبي الجزية من مملكة غرناطة سولومون (سليمان) بن زادوك الذي كان كبير الجباة في عهد الملك فرناندو الثالث في مطلع القرن الثالث عشر. واتّبع عدد من ملوك قشتالة في ما بعد النهج نفسه فاختار الملك بدرو الرابع صموئيل (سمويل في المصادر العربية) هلفي لمنصب كبير الجباة. وقَدّر هذا الملك ولاء اليهود وخدماتهم وقروضهم كما فعل الملوك قبله وكما فعل فرناندو الخامس بعده عندما استدعى إسحاق إبرابانيل Isaac Abravanel من البرتغال وعيّنه مسؤولاً مالياً.

ووقف الملوك إلى جانب اليهود ونفوا ارتباطهم بالطاعون في الموجة الكبيرة الأولى. وذهبت تلك الموجة لكن الطاعون عاد مرة بعد أخرى، ثم دهم قشتالة بقوة فخاف الناس وانعدم الأمن واتجهت الشكوك إلى اليهود. وفي عام ١٣٩٠ تولى فيرانت مارتينيث Ferrant Martinez منصب رئيس أساقفة إشبيلية ورأى في الطاعون عقاباً على وجود «الكفار» اليهود بينهم، فخرج إلى الناس بالدعوة إلى هدم الكنس في المدينة وحض الفلاحين على طرد اليهود من قراهم. وفي الخامس عشر من آذار (مارس) عام ١٣٩١ بدأ الإسبان الحملة على اليهود، وما أن حلّ يوم السادس من

حزيران عام ١٣٩١ حتى كانوا اقتحموا الأحياء اليهودية في إشبيلية وقتلوا المئات، وانتقلت الحملة بعدها إلى طليطلة وقرطبة وغيرهما من مدن قشتالة وأرغون. ولم تستطع السلطة تجاهل موقف الشارع فاستجابت بإصدار قوانين منعت اليهود من تولّي المناصب الحكومية وحظرت عليهم التعامل بالربا وحصرت سكناهم في أحياء بعينها.

ولم ينفع اليهود نفوذهم ومالهم وأخفقوا في مقاومة هذه الضغوط فتخلى عشرات الألوف عن دينهم وتنصّروا أو نُصّروا بالقوة على مراحل بين ١٣٩١ و١٤١٦. لكن تنصّرهم لم يشفع لهم فاعتبره القشاتلة تنصّراً شكلياً كاذباً لتفادي الضغوط. وزادوا إلى الكره الإزدراء والتحقير كما يتضح من الصفة التي اعطوها لليهود وهي الخنازير Marranos، ومن إعلان لقضاة طليطلة صدر في ١٤٤٩ جاء فيه: «نعلن أن المدعوين باليهود المتنصّرين Conversos نسل أجدادهم اليهود المنحرفين شائنون ذليلون بحكم القانون لا يصلحون لشغل أي منصب حكومي ولا هم أهل له وليسوا مناسبين لشغل رتبة (عسكرية) ضمن مدينة طليطلة أو الأرض الواقعة تحت سلطتها، أو صالحين للعمل كتّاب عدل أو محلفين، أو أن يكون لهم أي سلطة على النصارى الصادقين أبناء الكنيسة الكاثوليكية الطاهرة».[١]

وكان هذا عموماً حال اليهود في قشتالة عندما بدأ عام ١٤٦٤ صراع على وراثة عرش قشتالة أيد طرفه الأول إيزابيلا وأيد الطرف الثاني خوانا. والأخيرة هي ابنة يوحنا الثاني أخي إيزابيلا من أم غير أمها، وكان استلم العرش بعد موت والدهما يوحنا عام ١٤٥٤. وانتهى الصراع في المرحلة الأولى باعتراف يوحنا الثاني بايزابيلا وريثته الشرعية بدلاً من ابنته. وفي هذه الأثناء ساءت أحوال ملك أرغون يوحنا الثاني بعدما ثار عليه القطلان بمساعدة الفرنسيين فرغب في التحالف مع قشتالة وعرض ابنه فرناندو بعلاً لإيزابيلا فتزوجا عام ١٤٦٩. وبعد زواج إيزابيلا عاد أخوها يوحنا الثاني فحرمها من وراثته وأحلّ ابنته محلها. لكن هذا الملك مات فجأة عام ١٤٧٤ قبل أن يحسم مسألة الوراثة فنشبت حرب أهلية استدعى أنصار خوانا خلالها الملك البرتغالي ألفونصو الذي صار وقتها زوجاً لأرملة يوحنا الثاني. وبحلول عام ١٤٧٧ تمكّن حلف إيزابيلا من سحق المعارضة وأصبحت ملكة قشتالة بلا منازع. إلا أن إيزابيلا كانت في حاجة إلى لئم جراح الحرب الأهلية وتعزيز مكانتها وشعبيتها فتحركت وأنصارها على جبهات عدّة ففتحت المفاوضات مع البرتغال للتوصل إلى الصلح، ولبّت مطلباً جماهيرياً عريضاً لضرب اليهود المنصرين ومن بقي على دينه، وبدأ التفكير بتحريك

---

[١] Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, George Allen & Unwin Ltd., (London 1970), p 37.

الحرب ضد غرناطة لإرضاء النبلاء الذين ساندوها وباتوا ينتظرون المكافأة والعرفان بالجميل من خلال تمكينهم من المغانم التي تحملها الحرب.

وكان اليهود أقرب أهدافها، والمتنصّرون منهم الأسهل من بين الفئتين اليهوديتين. لكنّ إيزابيلا التي واجهت مشكلة إثبات الشرعية خلال نضالها للوصول إلى عرش قشتالة، كانت تريد قبل أي شيء شرعية تستطيع الاستناد إليها لتسويغ الحملة على اليهود المتنصّرين فقبلت فكرة تأسيس محكمة للتحقيق وفق المبدأ الذي وضعته البابوية، ومنحها البابا سيكستوس الرابع هذا الحق في تشرين الثاني عام ١٤٧٨. وفي تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٤٨٠ أمرت قشتالة رعاياها بدعم محكمة التحقيق، واقترب وقت رفع ستار السرية التي أحاطت بتأسيس المحكمة.

وكانت المقدمة على درجة عالية من الدرامية والإثارة، وكان وقع إعلان ولادة محكمة التحقيق على اليهود صاعقاً.

تغريب يهود قشتالة

كان اختيار إشبيلية لإعلان ولادة مشروع إيزابيلا الكبير محكمة التحقيق مُوفقاً وكذلك المجموعة الأولى من ضحايا المحكمة، إذ كانت المدينة المقر الملكي وموطن عدد كبير من اليهود واليهود المتنصّرين الأثرياء. وأرسلت رؤية العرض الذي أدّاه قضاة المحكمة وعمّالها في شوارع إشبيلية الرعب في قلوب اليهود والنشوة في قلوب القشاتلة. وتقدم هذا العرض المهيب قس دومينيكي[1] رفع صليباً كبيراً، وسار خلفه قساوسة رهبنته حفاة الأقدام وعليهم من الأثواب خشنها، وتبعهم المحققون بأثوابهم البيضاء والسوداء، ثم باقي عمّال المحكمة وجماعات من الرهبان والمعرّفين. واخترق العرض الشوارع في الاتجاه المرسوم له حتى دخل دير القديس بولس الذي أصبح قصراً لمحكمة التحقيق. ومن لم يرَ العرض سمع به قبل انقضاء النهار، وساد الفزع فهرب بعض اليهود من المدينة، وقصد البعض حمى النبلاء والمؤثّرين في السلطة مثل دوق مدينة شذونة. وبقي مع ذلك عدد كبير من اليهود المتنصّرين في المدينة، وكان من

[1] «الدومينيكية» أو «الإخوة الواعظون» جماعة رهبانية كاثوليكية أسسها القديس دومينيك (عبد الأحد) القشتالي عام ١٢٠٦، وتخصص أعضاؤها في محاربة الهرطقة. وينتمي إلى هذه الجماعة معظم المشتغلين في محاكم التحقيق بمن فيهم المحقق الأكبر والأشهر توركيماده. أما الباقون فجلهم من الفرنسيسكان. وتضم رهبانية الدومينيكان عدداً مهماً من المعلمين والمفوهين، وأتباعها اليوم يعدّون نحو ١٢٣ ألف شخص. ونشطت هذه الرهبانية في بعض الدول العربية تبشّر وتعلّم، وأسست مدرسة في القدس هي مدرسة الكتاب المقدس، وكانت لها في الموصل مطبعة عربية اشتهرت في القرن الثامن عشر.

هؤلاء يهودي ثري نعرفه باسمه القشتالي «دييغو دي سوزان» استضاف آخر النهار عدداً من معارفه في بيته للتشاور في شأن هذا التطوّر المفاجىء.

ولدينا حكاية قشتالية عما جرى بعد ذلك خلاصتها أن ابنة دي سوزان كانت تعشق فتى نصرانياً فأسرّت له بخبر الاجتماع فنقل ما سمعه إلى محكمة التحقيق الجديدة عملاً بوصية إيزابيلا فاعتقل عمّال المحكمة المتهمين ونقلوهم إلى الدير. وبعد التحقيق معهم أقر ستة منهم بجريمة محاربة محكمة التحقيق فحولتهم المحكمة إلى السلطات المدنية التي قضت بإلباسهم ثوب العار الأصفر واحراقهم أحياءً ومصادرة كل أموالهم وممتلكاتهم. وفي السادس من شباط (فبراير) ١٤٨١ نُقل الستة إلى حقول تبالدا القريبة من إشبيلية واضرمت النار فيهم. ولا تتوافر رواية أخرى غير هذه يمكن الاعتماد عليها، إلا أن مؤرخين كثيرين رفضوها واتهموا السلطة بتدبيرها وتلفيق التهم وإجبار المتهمين على الاعتراف تحت التعذيب. لماذا؟ لأن دييغو دي سوزان كان من أغنى اليهود في إشبيلية بثروة قُدّرت بنحو عشرة ملايين مرابطي.

وكان إحراق هؤلاء الستة مجرد البداية فبنهاية السنة وصل عدد اليهود المتنصرين الذين أحرقوا إلى ٢٩٨ شخصاً في مدينة إشبيلية وحدها، مع مصادرة أموالهم وعقارهم. وعلى رغم سرعة خطوات محكمة التحقيق في ضرب «الهرطقة» فإن الشهرة التي اكتسبتها هذه المحكمة بدأت باختيار إيزابيلا توماس دي توركيماده لشغل منصب المحقق العام. وعمل توركيماده خلال ولايته على إقامة فروع لمحكمة التحقيق في المدن القشتالية الرئيسية ستساهم معاً في التسبب بإحراق نحو ألفي يهودي، وتوقيع عقوبات أخرى على آلاف غيرهم شملت مصادرة الأموال والممتلكات والسجن.

وسعى توركيماده في مرحلة لاحقة إلى فصل اليهود المتنصّرين عن تاريخهم وحضارتهم فجرّ المخطوطات إلى ساحة حربه وأحرق عام ١٤٩٠ أعداداً كبيرة منها، ثم احتفلت محكمة التحقيق في مدينة شلمنقة بإحراق أكثر من ستة آلاف مخطوطة كانت جل ما قدّمه الفكر اليهودي في عصره الذهبي أيام الخلافة القرطبية. وأحرق عمّال المحكمة دورياً المخطوطات التي كانوا يعثرون عليها، إلا أن كل ذلك كان مقدمة لما سيحدث في غرناطة عندما أحرق خيمينس أكثر من مليون مخطوطة عربية. وسيعمل الأساقفة في ما بعد على وضع أول نظام مُحكم للرقابة على المطبوعات في أوروبة، ثم سينتقلون إلى العالم الجديد لاحراق حضارته أيضاً.

وتأجج السخط الشعبي والكنسي على اليهود المتنصرين بعد اغتيال محقق محكمة التحقيق في سرقسطة أربوس Arbues اعتقل في إثره عدد من اليهود بينهم ألفونصو

دي لا كاباليريا Cavalleria الذي ينتمي إلى اسرة من اليهود المتنصرين عملت في تحصيل الضرائب. واعترف بعض المعتقلين أن دي لا كاباليريا بعث رسائل مشفّرة إلى بعض إخوانه في سرقسطة يحضهم فيها على الإسراع باغتيال أربوس، كما اعترف بعض اليهود عام ١٤٩٢ بأن دي لا كاباليريا وعدهم بحماية حقوقهم نظراً إلى نفوذه في البلاط. وظل هذا الأخير رهن الاعتقال حتى عام ١٥٠١ عندما ثبتت براءته. لكن النقمة كانت استعرت ضد اليهود خلال التحقيق معه ومع المتهمين بتدبير الإغتيال.

ووجد توركيماده والملكة إيزابيلا معه أن حال اليهود المنصّرين لن ينصلح ما بقي يهود على دينهم في البلاد. وبما أن هؤلاء رفضوا التنصّر حتى لا يقعوا بيد محاكم التحقيق فإن الخيار الذي بقي هو تهديد اليهود بقبول التنصّر أو الطرد من البلاد. وأقرت إيزابيلا مبدأ التغريب لكنها لم تكشفه إلا بعد تسليم غرناطة. وفي الثلاثين من آذار (مارس) عام ١٤٩٢ أصدرت مرسوماً يقضي بتغريب اليهود الذين يريدون البقاء على دينهم خلال مدة أقصاها أربعة أشهر. واختار نحو ٤٠-١٦٠ ألف يهودي الرحيل عن إسبانيا التي يسمونها «سفارد»، وبقي كثيرون (ربما ١٠٠ ألف) وقع بعضهم ضحايا جداً لمحاكم التحقيق. وهاجر البعض إلى البرتغال لكن الحكومة ما لبثت أن تبعت خطى جارتها إسبانيا فغرّبت معظمهم عام ١٤٩٦[١]. وتنصّر آخرون وأصبحوا لاحقاً ضحايا محكمة التحقيق البرتغالية التي وافق البابا على تأسيسها هناك عام ١٥٣٦.

ولم يكن حتى توركيماده قادراً على الاستمرار إلى ما لا نهاية فتعب آخر أيام حياته وتصومع في دير دومينيكي في مدينة أبلة عام ١٤٩٦. إلا أن تأثير توركيماده ظل قوياً في مؤسسته التي امضى ١٥ عاماً يوجّه عمالها إلى الهراطقة، فكانوا يعودون إليه للاستشارة فاستمر نفوذه فيها من وراء الكواليس حتى مات عام ١٤٩٨. وواجه توركيماده أعداء الكاثوليكية والسلطة بالحزم الذي واجه فيه أعداءه الشخصيين، إلا أن الجميع رهبه مع الزمن لأن إيزابيلا اعطته كامل ثقتها وتأييدها. وقابل توركيماده هذه الثقة بولاء ترجمه إلى جهد متواصل لضمان سيادة الكاثوليكية وسيادة إسبانيا تحت قيادة إيزابيلا أيضاً. وتوجد إشارات عدّة إلى أن توركيماده يهودي متنصّر انتسب إلى رهبانية الدومينيكان (الإخوة الواعظون) واختارته إيزابيلا أمينا للسر في سقوفيا. ويؤكد هرناندو ديل بلغار Hernando del Pulgar أمين سر إيزابيلا أصل توركيماده

[١] يشتهر يهود مدينة سالونيكا اليونانية بمجموعة من أغاني التحسر والبكاء على ماضيهم في إسبانيا التي يرددها بعضهم إلى اليوم، إلا أن اليهود نسوا منذ زمن طويل التخاطب بالعبرانية التي كانت شائعة في إسبانيا والمعروفة باسم لادينو Ladino.

اليهودي ويؤكد ان أباه كان من المتنصّرين لكن توركيماده نفى هذا دائماً.

وحسّن دييغو ديثا Diego Deza (١٤٤٣-١٥٢٣) عمل محكمة التحقيق وزاد فاعليتها وحجمها عما كان عليه في عهد سلفه. وتابع مهمته بحماس إذ يُعتقد أن عدد من حُكم عليهم بالحرق في عهد ديثا بلغ نحو ٢٥٠٠ شخص ونزلت عقوبات مختلفة بنحو ٣٥,٠٠٠ آخرين. ولاحظ ديثا أن إتاحة الكتب يمكن أن تساهم في الإفساد فسعى إلى عزل قشتالة عن التيارات الفكرية في الدول الأخرى. وكانت الكتب تُستورد في تلك الفترة ويُسمح بدخول بعضها لقاء ضريبة استيراد نسبتها عشرة في المئة من سعر الكتاب. وعرض ديثا على إيزابيلا مخاطر الاستمرار في هذه السياسة واقنعها باستصدار قانون عام ١٥٠٢ حظر طباعة الكتب أو استيرادها إلا بموجب ترخيص خاص من محكمة التحقيق. وشاع في ما بعد أن بعض اليهود الذين رحلوا إلى إيطاليا واليونان والمغرب وليتوانيا والبرتغال وغيرها، يحاولون العودة إلى بلادهم بأسماء جديدة فعمل ديثا على استصدار قانون فرض عقوبة الإعدام على أي يهودي مطرود يعود إلى إسبانيا.

٤ - الأندلسيون ومحاكم التحقيق

كانت الملكة إيزابيلا كاثوليكية في كل شيء وكانت تجلّ البابا وتنصت له باهتمام وخشوع لكنها لم تكن راهبة في دير. ونجد أن إيزابيلا وحفيدها كارلوس الخامس وحفيد حفيدها فيليب الثاني وحفيد حفيد حفيدها فيليب الثالث استمعوا دائماً إلى الكردينالات جيداً ووضعوا مصلحة الكاثوليكية في مرتبة عالية لكن كان عليهم في النهاية أن يتصرّفوا كملوك مسؤولين أمام الملوك الآخرين وأمام الشعب وأمام النبلاء، وأن يحافظوا على التوازنات القائمة، وأن يأخذوا مصالح مراكز القوى كلّها في الاعتبار. وإيزابيلا الكاثوليكية الورعة لم تكن خادمة للبابا إلا في رسائلها، وربما شعرت بعد تحقيق انتصارها على غرناطة أن البابا مدين لها لا العكس. وإذا أخذنا في الاعتبار الأموال الهائلة التي وفرتها البابوية لتحقيق الانتصار على غرناطة فلعلنا نقول إن إيزابيلا هي التي استغلت حاجة البابوية إلى إحراز تقدم على الجبهة ضد الإسلام. وكانت إيزابيلا ككاثوليكية تقبّل يدي البابا وقدميه إلا أنها تقف في وجهه كملكة وتمنعه من ممارسة صلاحياته في تعيين أساقفة لا تريدهم على غرار ما فعله ملوك قشتالة على مر العصور. ونجد في تاريخ قشتالة عدداً من الأمثلة على ذلك منها

اعتراض إيزابيلا عام ١٤٧٨ على الأسقف الإيطالي الذي اختاره البابا لمنصب أسقف مدينة قونقة. وردّ البابا على هذا الموقف بابقاء المنصب شاغراً اربع سنوات قبل أن يرضخ لرغبتها ويُعيّن أسقفاً اختارته إيزابيلا. وعاد البابا بعد ذلك فاقترح عليها تعيين ابن اخته رئيساً لأساقفة إشبيلية لكنها رفضت هذا الطلب أيضاً. وصحيح أن البابا سيكستوس الرابع هو الذي وافق على إنشاء محكمة التحقيق في قشتالة لكنّه لا بدّ أن يكون ندم بعد ذلك لأنه لم يحفظ خط الرجعة عن طريق الإصرار على فرض آرائه على عمل المحكمة فتركها أداة تستخدمها إيزابيلا كما تشاء، ووضعت ملكها وسلطتها ونفسها في مكان متقدم سبق الكاثوليكية والبابوية بل جيّرت بعض سلطة الكاثوليكية والبابوية لصالحها.

وإذا كانت إيزابيلا قادرة على رفض مطالب البابا فإن ما لم تستطع رفضه هو مطالب النبلاء، أركان مملكتها، الذين وفّروا القسم الأكبر من آلة الحرب ضد غرناطة. ففي تلك الاثناء لم يكن حتى الملوك الكبار قادرين على الاحتفاظ بجيش كبير. وعندما تنشب حرب ما فإن كل نبيل ودوق وكونت مشارك يتعهد بتقديم عدد معين من المشاة أو الفرسان ويكون له سهم من الغنائم والأسلاب. وكان هؤلاء النبلاء تواقين إلى إشعال الحرب مع غرناطة لأنّ الحرب كانت أهم السبل وأسرعها إلى جمع الثروة والجاه والمناصب الرفيعة. ولما انتهت الحرب وحل السلام سعى هؤلاء إلى جمع ثروتهم من انتاج الأراضي التي اقطعتهم إيزابيلا إياها، وكان عليهم استخدام الأندلسيين لهذه الغاية، لذا كان من شأن الاستمرار في الضغط على الأندلسيين الحاق الضرر بالنبلاء. وهكذا تغلبت مصالح إيزابيلا الملكة على مصالح إيزابيلا الكاثوليكية وقاومت إغراء اقامة محكمة للتحقيق في غرناطة ومنعت عمالها في حالات كثيرة من التدخل في شؤونهم.

وكانت قشتالة في الطريق إلى أخذ دورها الكبير في أوروبة عندما انفتحت بوابة الكوارث الشخصية على إيزابيلا ففجعت بابنها الوحيد وبقيت ابنتها كاتلينا حبيسة الأديرة في انكلترا وماتت ابنتها إيزابيلا خلال الوضع وفقدت ابنتها خوانا صوابها، وفقدت إيزابيلا حفيدها ميغيل. وهكذا عاشت إيزابيلا سنواتها الأخيرة في شقاء وحزن شبه دائمين وماتت كئيبة مغمومة عام ١٥٠٤. وقاوم فرناندو تسليم مملكة زوجته إلى فيليب (الوسيم) زوج ابنته خوانا ثم اعترف به ملكاً جديداً على قشتالة لكن فيليب ابن أمبراطور النمسا ماكسيمليان مات عام ١٥٠٦ فآل إليه عرش قشتالة من دون أي معارضة. ووجد فرناندو نفسه فجأة ملكاً شرعيّاً على كل شبه جزيرة آيبرية باستثناء

البرتغال. وكان يستطيع الآن تخطيط مستقبل البلاد في الصورة التي يريدها لكن كان عليه في الوقت نفسه موازنة مصالح مملكته الأرغونية الأصليّة مع مصالح قشتالة خوفاً من أن يثير استياء مراكز القوى فيها خصوصاً النبلاء والكنيسة ومحاكم التحقيق التي بات خيمينس وقتها محققها العام. إلا أن خيمينس كان أيضاً أهم رجل في الكنيسة القشتالية فجمع أطراف السلطتين بيده وتخطت أهميته حدود آيبرية فبات في المرتبة الثانية بعد البابا نفسه. وانتقلت محاكم التحقيق في عهد خيمينس إلى قمة جديدة فقسم البلاد إلى عشر مقاطعات شكّل في كل منها محكمة، ووضع على رأسها محققاً من اختياره. وكان لخيمينس حساب لم يتمكن من تصفيته بعد الثورة الأندلسية الأولى التي تسبب بقيامها، واعتقد بعد استلامه منصب المحقق العام أن الوقت حان، وأراد أن يقيم فرعاً للمحكمة في غرناطة غير أن الملك فرناندو تدخل وكفّ يده عن الأندلسيين في غرناطة متابعاً بذلك النهج الذي اختطته زوجته قبله وللأسباب التي تقدّم ذكرها. وفي عام ١٥٠٨ أصدر فرناندو مرسوماً أعاد تأكيد المحظورات على الأندلسيين الغرناطيين وشدّد على ضرورة توقف هؤلاء عن ارتداء ملابسهم الأندلسية غير أنه منحهم مهلة سنة ثم سنة اخرى. ولم تعمل السلطات على تنفيذ بنود هذا المرسوم لأن السلطة الأولى المسؤولة عن ملاحقة المخالفين وتوقيع العقوبات بحقهم (أي محاكم التحقيق) لم تكن موجودة في غرناطة. وحاولت محكمة التحقيق في قرطبة، التي كانت الأقرب إلى غرناطة، مدّ صلاحياتها إلى أطراف غرناطة لكن فرناندو حظر ذلك أيضاً.

وعلى رغم المكانة الكبيرة التي تمتّع بها خيمينس لم يستطع معارضة فرناندو، ولم يجد في غرناطة مسرحاً مناسباً لتحقيق طموحاته الصليبية فتبنّى توصيات إيزابيلا بنقل الحرب إلى الإسلام في العدوة لإضعاف قدرة أهلها على تهديد قشتالة وفق الاستراتيجية القائلة إن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم. ونظّم خيمينس بالفعل حملة كبيرة على وهران عام ١٥٠٩ انفق عليها من عائدات بيع صكوك الغفران لتمويل الحملات ضد الإسلام، وذُبح في تلك الحملة بين خمسة آلاف وثمانية آلاف شخص، ثم أسس هناك عام ١٥١٥ أول محكمة للتحقيق على أرض إسلامية.

الأندلسيون واللوترية (البروتستانتية)

عاش خيمينس السنة الأخيرة من حياته وهو يعتقد أن الإسلام أهم خصوم الكاثوليكية القشتالية. لكن الخطر الأكبر لم يأت من المغرب ولا من الأندلسيين بل من

كاثوليك مثل خيمينس الذي لم يكن موجوداً للتصدي له. فقبل ثمانية أيام من موته علّق استاذ العلوم اللاهوتية التوراتية في جامعة مدينة فيتنبرغ Wittenberg مارتين لوتر (لوثر) على بوابة كنيسة قلعة فيتنبرغ لائحة احتوت ٩٥ أطروحة للمناقشة حدّد فيها اعتراضاته على صكوك الغفران. ولم يكن لوتر الراهب الكاثوليكي وأحد أهم الدعاة في ألمانيا يقصد من تلك الأطروحات شق الكنيسة ولا الحديث عن فساد الكنيسة الكاثوليكية لأنه كان لا يزال كاثوليكياً ورجلاً من رجال الكنيسة، غير أن نشرها في تلك الفترة بالذات شجّع بعض الألمان على توجيه انتقادات إلى سلطات البابا كاستمرار للصدام الذي نشأ بين الملوك الألمان والباباوات منذ نهاية القرن الحادي عشر. واتسع نطاق هذه الانتقادات مع الزمن فشملت السلطات البابوية الدينية والزمنية، ثم شرعية البابوية نفسها وأدت إلى انفجار صراع ديني دموي رهيب انتهى بأحداث شرخ في الكنيسة الكاثوليكية أهم من الشرخ الذي حدث بين الكنيستين الغربيّة والشرقية قبل نحو خمسة قرون من ذلك في مكان آخر هو القسطنطينية.

وعكس لوتر مشاعر استياء رجل الشارع الألماني عندما انتقد في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٥١٧ تسويق صكوك الغفران مما يفسّر التأييد شبه الفوري الذي حظيت أطروحاته به. فخلال تلك الفترة كان الألمان العاديون يعانون ضائقة مالية سببها جشع التجار المحليين الذين رفعوا الأسعار، وانتشار الأزياء الأجنبية ذات التكلفة العالية في البلاد مما أثّر في الصناعة الوطنية. وجاءت صكوك الغفران فامتصّت جزءاً من السيولة فاتسع نطاق الإستياء الذي ظل مع ذلك مخنوقاً لأن إظهاره كان يعني انتقاد البابوية وبالتالي الكاثوليكية التي كانت مذهب الألمان حتى تلك الفترة. ووجد لوتر نفسه آنذاك في وضع فريد إذ مكّنه تعمّقه في دراسة أصول المسيحية من ملاحظة الاختلاف بين حال الكاثوليكية آنذاك والحال الذي كانت عليه النصرانية في بداية انتشارها، كما وجد اختلافات في الترجمات الكثيرة التي أعدّت للعهدين القديم والجديد.

وفي زمن لوتر كانت الترجمة «الرسمية» الوحيدة للعهدين القديم والجديد التي اعترفت بها الكنيسة الكاثوليكية هي ترجمة لاتينية عن اليونانية عُرفت باسم Vulgate، أي النسخة الشائعة. ولا تعكس هذه التسمية واقع حال أوروبة لأن تلك النسخة لم تكن في الواقع شائعة إلا في الكنائس والأديرة وبين فئات محدودة جداً من المتعلمين الذين اتقنوا اللاتينية وربما لم يتجاوز عدد هؤلاء واحداً من بين كل عشرة آلاف شخص. وفي البداية كانت التوراة بالعبرية لكن يهوداً كثيرين كانوا ينطقون بالآرامية فوُضعت ترجمة للتوراة بالآرامية اسمها Targum، أي «الترجمة». وعندما

مات الإسكندر الأكبر أسس أحد قواده (بطليموس) مملكة في الإسكندرية وبنى مكتبة كبيرة أعد فيها نحو ٧٠ عالماً لاهوتياً عبرانياً ترجمة لقسم من التوراة إلى اليونانية الدارجة آنذاك هي المعروفة باسم Septuagint، أي ترجمة السبعين، وأتم من جاء بعدهم ترجمة التوراة. ومع استمرار انتشار النصرانية تطورت حاجة إلى إعداد ترجمات أخرى في القرن الثاني للميلاد منها ترجمة إلى السريانية التي هي احدى اللهجات الآرامية، وترجمة إلى اللاتينية التي كانت لغة الرومان. وفي عام ٤٠٥ أتمّ القديس جيروم، بناء على تكليف سابق من البابا دماسوس الأول (٣٦٦-٣٨٤)، ترجمة باللاتينية للعهدين القديم والجديد عاد خلال إعدادها إلى ترجمات سابقة. واعتمدت البابوية تلك الترجمة منذ ذلك الوقت واعتبرت الباقي نحلاً، وسرى هذا الاعتبار في ما بعد على الإنجيل الذي ترجمه لوتر إلى الألمانية عام ١٥١٧ وعلى إنجيل (القديس) برنابا الذي كان يهودياً قبرصياً اهتدى الى المسيحية ورافق بولس مبشراً.[١]

ومنذ الاعتماد البابوي لتلك الترجمة نُشرت عشرات الترجمات بلغات كثيرة للعهدين القديم والجديد توخّى بعض المترجمين فيها تنقيتها من الأخطاء الموجودة في النصوص الأولى اعتماداً على توسع المعرفة باللغات القديمة. وجاء لوتر في بداية القرن السادس عشر فأحدث ثورة دينية وأدبية كبيرة عندما ترجم العهد الجديد إلى الألمانية، وبات في استطاعة مواطنين عاديين لا يعرفون اللاتينية قراءة الانجيل بلغة يعرفونها للمرة الأولى. وأشرك لوتر بتوفير تلك الترجمة الناس في ما بعد في الحوار الدائر في شأن طبيعة مهام البابوية، وكان في إمكانهم أن يلاحظوا أن الأنجيل لا يتضمن كثيراً من الطقوس والممارسات الشائعة في الكنيسة الكاثوليكية وليس فيه ما يسوّغ عملاً مالياً مثل تسويق صكوك الغفران لمحو الخطايا.

ولا نعرف متى طرحت البابوية أول صك غفران ولا سببه، غير أن الهدف من الصكوك الأولى كان مساعدة المذنبين على سلوك طريق سريع لغفران بعض ذنوبهم. وقبل تطوير فكرة بيع الصكوك كانت الكنيسة تقضي على المذنب الذي يعترف بذنوبه الذهاب إلى الديار المقدسة للحج أو المساعدة في بناء كنيسة أو دير أو الصيام والتقشف فترة معلومة وفقاً لطبيعة الذنب المُرتكب، وصار في إمكان هؤلاء بعد ذلك شراء صك الغفران. ويبدو أن دفاتر حسابات تسويق صكوك الغفران قبل عام ١٥٠٩ اختفت لذا لا يعرف أحد قيمة كل تلك الصكوك لكن بعض التقديرات تعطي فكرة عن قيمتها الهائلة. ففي عام ١٤٨٧ مثلاً سوّق عدد من الذين خولتهم البابوية القيام بهذا الجهد،

[١] من نسخ «أنجيل برنابا» نسخة إيطالية يُعتقد أن واضعها عاش بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر.

بمن فيهم الحكومة القشتالية، صكوك غفران بابوية يُعتقد أن قيمتها وصلت إلى ٨٠٠,٠٠٠ دوقة ذهبية استخدم معظمها للإنفاق على الحرب ضد غرناطة. وخلال السنوات الأولى من الحرب طلبت إيزابيلا من البابا سيكستوس الرابع زيادة جهود تسويق الصكوك وتيسيرها فأصدر صكوكاً ذات قيمة متدنية وصلت أحياناً إلى ريالين فضيين وأحياناً أقل من ذلك لذا بات في متناول حتى الفقراء شراء هذه الصكوك. كما عمل سيكستوس الرابع على تنويع الغفرانات في هذه الصكوك فباتت تضمّ لائحة طويلة من الذنوب المشفوعة، وجرى في ما بعد صرف وصول استلام تثبت استحقاق مشتري هذه الصكوك أنواع الغفرانات التي مُنحت له.

ومع مرور الزمن صارت صكوك الغفران واحدة من أهم مصادر التمويل المُتاحة للبابوية، وبدأ بعض مُسوقي هذه الصكوك يبالغون في الغفرانات لزيادة التسويق عن طريق إقناع المشترين بأنها يمكن أن تضمن لهم مكاناً في الجنة. وفي عام ١٥١٥ خوّل البابا ليو العاشر رئيس أساقفة مدينة مينز Mainz الألمانية المدعو ألبريشت بيع صكوك الغفران للصرف على صيانة كنيسة القديس بطرس في روما فكلّف شخصاً يدعى يوهان تتسل Tetzel عملية التسويق فصار يقول للناس إن الصكوك التي يبيعها تعفي المذنبين المعترفين من العقاب وتطلق الأرواح من النار. وسمع لوتر ادعاء تتسل فبعث إلى رئيس الأساقفة رسالة احتجاج ضمّنها أطروحاته. واستند لوتر في أطروحاته إلى أن دفع المال للتخلص من الذنوب يصرف الناس عن طلب التوبة الخالصة للذنوب المرتكبة ويمكن ان يساعد على ارتكاب المزيد.

وفيما عكفت البابوية على دراسة الاطروحات بدأ بعض الألمان توسيع نطاق الخلاف فشمل بعض صلاحيات البابا. وتطور انتقاد تسويق الصكوك إلى حركة ضد السلطات البابوية الزمنية، ثم صارت اللوترية حركة أصولية نصرانية نادت بالعودة إلى نقاء النصرانية الأولى والرجوع إلى تعاليم العهد القديم ونبذ البدع التي دخلت على الدين. وظل لوتر في البداية مصراً على أن انتقاده محصور بتسويق صكوك الغفران ولا يشمل البابا. لكن الفرق بين البابا والكاثوليكية لم يكن واضحاً آنذاك فالبابا رأس الكاثوليكية وانتقاده انتقاد للكاثوليكية لذا فالأطروحات هرطقة تجب محاربتها بكل الوسائل وصاحبها «مهرطق» يجب ألا يبقى كاثوليكياً. وحاولت الكنيسة حتى اللحظة الأخيرة احتواء الخلاف فتشدّد لوتر في مطالبه واقترح اختصار أركان الطقوس الكاثوليكية السبعة إلى اثنين فقط هما التعميد والمناولة. ولم يحتمل البابا ليو العاشر هذا الوضع فلعن لوتر في كانون الثاني عام ١٥٢١ وحرمه من الكنيسة.

وجاءت ولادة الحركة اللوترية فيما كارلوس الخامس يعزّز ممالكه الأوروبية، ووجد نفسه يتصدى للوتر بوصفه أمبراطوراً على ألمانيا وهولندا وأمبراطوراً رومانياً مقدساً (تنصّب عام ١٥١٩) وأهم زعيم سياسي في بلاد الكاثوليكية. وحاول كارلوس التوصل إلى حل توفيقي لهذه المشكلة فأعطى لوتر الإمان من الاعتقال واستدعاه للمثول أمام محفل فورمز Worms في ألمانيا الذي عقد في نيسان (إبريل) عام ١٥٢١ برئاسته، وأمره بسحب أقواله واطروحاته. وعرف كارلوس أنه ارتكب خطأ كبيراً بدعوة لوتر بعد دقائق من إعطائه الفرصة للكلام، وسنجده يندم على تلك الخطوة بقية حياته.

لكن التراجع في المحفل لم يعد ممكناً وكان عليه الانصات إلى لوتر وهو يشرح مبدأه القائم على أن الدين في نظره يضع الإنسان مباشرة أمام الخالق، وبأن الله يجعل المؤمنين أخياراً من خلال عطفه عليهم، وبأن خلاص الناس ينبع من الإيمان بالمسيح الذي يوجد فيه فقط الصلاح الكافي لتحقيق الخلاص. وبعدما قدّم لوتر أسباب تبنيه هذا المبدأ قال للمحفل: «ما لم أكن مقتنعاً بشهادة الكتاب المقدس أو بسبب واضح (لأنني لا أثق بالبابا ولا بالُمجمعات الكنسية ومعروف جيداً أنهما غلطا مراراً وناقضا نفسيهما)، فأنني ملتزم عهدي بالكتاب المقدس الذي اقتطفت منه وضميري أسير كلمة الله. لذا لا استطيع سحب أي شيء ولن أسحب أي شيء فليس سليماً ولا صحيحاً مخالفة ضميري».

وأعطى كارلوس لوتر بعض الوقت لمراجعة نفسه، ولما وجده متشبثاً بآرائه أحل دمه ونادى بقتله في سائر ممالكه. وكانت شهرة لوتر ذاعت وقتها والتفّ حوله الناس فخشي أمير ساكسون الألماني فريدريش الملقب بـ«الحكيم» من ثورة الناس عليه إن قتل لوتر أو سلّمه فآواه وحماه. وهكذا وجد لوتر نفسه يقود هذه الحركة الإصلاحية ضد ممارسات البابوية ٢٥ عاماً حتى موته عام ١٥٤٦. ولا علاقة لكلمة «بروتستانت» بمبادىء لوتر الإصلاحية إذ استخدمت هذه الكلمة للمرة الأولى في محفل عُقد في مدينة شبير Speyer الألمانية عام ١٥٢٩ «احتج» الأمراء الألمان المساندين للوتر خلاله على الضغوط التي كان كارلوس الخامس يمارسها عليهم للتخلي عن مساندة لوتر. ولم تكن اللوترية حتى ذلك التاريخ وضعت أسس حركتها الدينية التي ولدت بعد عام من ذلك في محفل أوغسبرغ Augsburg عندما قدم إليه فيليب ميلانشتون وثيقة اللوتريين التي عُرفت باسم «اعتراف أوغسبرغ» فاتسع نطاق الخلاف مع الكاثوليكية ليشمل معارضة التبتل وإكرام القديسين والقدّاس وغيرها. وأضافت جماعات

إصلاحية مبادىء أخرى إلى اللوترية مثل وقف تعميد الإطفال وتعميد البالغين بدلاً من ذلك (الحركة المُضادة للتعميد Anapaptist). ومن أشهر الكنائس التي تفرّعت من البروتستانتية تلك التي اعتمدت مبادىء المصلح الديني الفرنسي الأصل جان كلفين (١٥٠٩-١٥٦٤). ووضع كلفين واحداً من أهم كتب الإصلاح الديني هو «الأسس المسيحية» فصار يُعتبر من أهم اللاهوتيين المصلحين الذين عرفتهم الكنيسة، كما أسس حكومة ثيوقراطية في جنيف وكثر أتباعه في انحاء متفرقة من فرنسا حيث يُعرفون هناك باسم «أوغنو» Huguenots.

ونعرف هذه الجماعة من المذبحة المروعة التي تعرضت لها على يد أنصار الكاثوليكية في فرنسا عام ١٥٧٢ بتحريض البابوية والملك الإسباني فيليب الثاني، إلا أن المذابح وقتها باتت مظهراً عادياً من مظاهر الاضطهاد الديني في وسط أوروبة. وفيما بدأت الحركة البروتستانتية تنتشر في شمال أوروبة وانكلترا وحتى في بعض مناطق إسبانيا نفسها، عملت البابوية على توظيف كل اسلحتها لمواجهة هذا الخطر المتعاظم في كل مكان. وسخّر كارلوس الخامس لهذه المواجهة كل طاقات امبراطوريته الهائلة مُستهدفاً في صورة خاصة هولندا التي كانت أكبر قوة اقتصادية في أوروبة ومالكة أعظم أسطول تجاري فيها. وزج كارلوس في هذه المعركة الجيش تلو الآخر، إلا أن محاكم التحقيق باتت وقتها من أهم الأسلحة. ولم يتصومع كارلوس في دير يوست عام ١٥٥٦ ويتنازل عن الحكم لابنه فيليب الثاني إلا وضحاياه في هولندا يعدّون بين ٥٠ ألفاً و١٠٠ ألف شخص، وسيكون فيليب الثاني من بعده مسؤولاً عن قتل وتشريد عشرات الألوف غيرهم.

ووجد الأندلسيون في البروتستانتية المظاهر التي عرفوها في النصرانية القديمة فهنا وحدانية الرب والمسيح ليس إلهاً وأمّه ليست أمّ الرب والتماثيل في الكنيسة سمات وثنية لا تجدي والعبادة والصلاة والابتهال لله وحده. وتبنّى الأندلسيون في جدالهم مع الكاثوليك القشاتلة الحجج التي قال بها البروتستانت فوضعتهم الكاثوليكية في صف واحد مع أعدائها الإصلاحيين. إلا أن البروتستانتية ليست الإسلام، لذا كان أول اتهام وجهته البابوية إلى لوتر هو أنه يتبنّى التعاليم الإسلامية ويؤيد بحركته هدف المسلمين شق الكنيسة الكاثوليكية. وسعى لوتر إلى دفع هذه التهمة عن نفسه فكتب ضد الإسلام وعدّد انتقاداته للدين الإسلامي ومن بينها عدم الإعتراف بصلب المسيح، لكن التهمة ظلت عالقة به. ودعا مرّة إلى تنظيم حملة صليبية ضد العثمانيين لكنّه عاد

وقال إن الحملات الصليبية أعمال مسيحية غير شرعية.[١]

ونظر الأندلسيون إلى البروتستانت باعتبارهم ضحايا مشتركين لمحاكم التحقيق فساعدوهم في اشكال عدّة، وحصلوا منهم على المساعدة أيضاً خصوصاً من جانب البروتستانت الفرنسيين. واعتنق عدد من الأندلسيين البروتستانتية عن قناعة كما يبدو فيما انضم آخرون إلى اللوترية نكاية بالقشاتلة الكاثوليك وسعوا من خلال دينهم الجديد إلى النفاذ إلى إسبانيا والمساهمة في تدميرها. ومن الأندلسيين البروتستانت المعروفين خوان غونثاليث الذي اعتقله عمال محاكم التحقيق عندما كان في الثانية عشرة من العمر بعدما أشاد بالإسلام. وأصبح غونثاليث في ما بعد قساً وراح ينادي في اشبيلية باصلاح الكنيسة علناً فاعتقله عمال محاكم التحقيق وعذبوه ثم أحرقوه في اشبيلية مع اختين له وعدد آخر من «الهراطقة» في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٥٩. ومن الذين صاروا بروتستانت أيضاً القسيس ألونثو غوديل Alonzo Gudel وكان أندلسي الأب يهودي الأم. ولم تردنا هذه الإشارة إليه لولا أنه قدّم إلى المحاكمة مع قسيس آخر يدعى لويس الليوني Luis de Leon بتهمة تفضيلهما ترجمة للإنجيل إلى العبرية على الترجمة القشتالية.

ولعل اشهر الأندلسيين اللاهوتيين البروتستانت على الإطلاق هو كاسيودورو دو لا رينا Casiodoro de la Reina. والثابت أن كاسيودورو من مواليد غرناطة حيث

[١] وجدت نصاً ملفتاً يقارن بين الإسلام والبروتستانتية والكاثوليكية في كتاب رحلات نُشر في لندن عام ١٨٢٥ اسمه Arabia. ويقول المؤلف (ص ٨٥-٨٦) إن غرناطة لو استطاعت الاستمرار في آيبرية، كما الأتراك في الطرف الآخر من أوروبة، لما تأسست محاكم التحقيق القشتالية ولما واجهت حركة الإصلاح الديني (يقصد البروتستانتية) المشاكل التي واجهتها في إسبانيا. وفي النص أن الإسلام أكثر روحانية من الآخر (يقصد الكاثوليكية) الذي يتعامل بصكوك الغفران، فالأول، على الأقل، جعل الثواب في الآخرة لكن الثاني أطلقه في هذه الدنيا. ويصف الكتاب محمداً صلى الله عليه وسلم «بالدعي»، وهو الوصف الموجود في كتب بروتستانتية كثيرة، لكنه يتابع: «بينما وعد (محمد) المؤمنين بالجنة فإن الحبر الروماني (أي البابا) باع الجنة لمن يدفع السعر الأعلى وحدد ثمناً لعذاب جهنم». ويضيف: «إن الأخلاقيات الموجودة في القرآن أكثر صفاءً أيضاً من الإرادات البابوية، ثم، أخيراً، إن الإيمان الذي يُعبّر عنه في المسجد قرّب المسلم في شكل أوثق من فكرة الإله الواحد، وأعطى العبادة صورة تفوق الموجودة في الطقوس الإحتفالية التي لا معنى لها في عبادة الشيطان الرومانية. وفي إسبانيا اصطدم النظامان لكن من هو الذي لا يفضّل العيش تحت حكم المملكة الرائعة التي دانت للملوك العرب في غرناطة بدلاً من العيش في ظل نظرائهم القوط، أو في سالف العهد خلال حكم فرناندو وإيزابيلا وكارلوس الخامس؟». ويُلاحظ من النص أن الانكليز كانوا في بداية القرن التاسع عشر في صف المواجهة نفسه ضد البابا كما في القرن السادس عشر. وساهم في استمرار هذا العداء محاولة بعض الكاثوليك الانتقام من الاضطهاد الذي تعرضوا له في انكلترا عن طريق محاولة نسف البرلمان الانكليزي في الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٦٠٥. وقُبض على المشتركين في الخطة، وشُنق المكلف إشعال فتيل البارود غاي فوكس Guy Fawkes عام ١٦٠٦، واشتدّ العداء للبابوية بعدها. ولا يزال الإنكليز (خصوصاً الأطفال) يحتفلون بالقبض على فوكس بإطلاق الألعاب النارية.

درس العلوم المسيحية وأصبح راهباً كاثوليكياً لكنّه انشق بعد ذلك وانضم إلى اللوثرية في بداية عهدها وأصبح واحداً من أهم دعاتها، وساهم في إعداد بعض ترجمات الإنجيل. ونشط كاسيودورو في نشر البروتستانتية في إسبانيا وكان يرسل الأناجيل اللوثرية إلى قشتالة في براميل النبيذ من محلته في بال (بازل) في سويسرا حيث كان يقيم مع المصلح الفرنسي جان كلفين، الرجل الأشهر الثاني في الحركة البروتستانتية بعد مارتين لوتر.

الأندلسيون ومحاكم التحقيق في عهد كارلوس الخامس

وجد كارلوس نفسه فجأة صاحب سلطة هائلة لم تنافسه في اتساعها وقوتها سوى الدولة السلطانية العثمانية. ووجد كارلوس نفسه فجأة يدافع عن امبراطوريته ضد خطرين داخليين هما الحركة اللوثرية في المانيا وسويسرا وثورات أهل المدن في إسبانيا، وخطرين خارجيين هما فرنسا والعثمانيون. وكان القضاء على ثورات أهل المدن لا شيء تقريباً في مقابل خطر التصدي للوثرية التي كرّس لها جل حياته الامبراطورية وانتهت باعترافه بالكنيسة البروتستانتية. ولولا صعود اللوثرية لكان كارلوس، على الأرجح، حلّ محاكم التحقيق في إسبانيا، إلا أنه بدا واضحاً أنه سيكون في حاجة إلى كل القوى التي يستطيع حشدها دفاعاً عن مصالحه الدولية. ولم يحدث بعد ذلك ما كان سيغيّر رأيه ويلغي محاكم التحقيق أقله للتخلص من سمعتها السيئة في أوروبة. لكننا نجد بعد ذلك سلوكاً عاماً عند كارلوس الخامس واكب فيه تشدّده وتهاونه مع الأندلسيين ازدياد الخطر البروتستانتي أو انحساره، وبمعنى آخر انتصاراته على الأمراء البروتستانت أو هزائمه، وكذا حال الحرب المستعرة في صورة شبه مستمرة مع فرنسا، جارة أرغون الأقرب.

وألغت السياسة الجديدة التي بدأ كارلوس يفكّر بها ليس فقط تعهدهّ عدم التدخل في الشؤون الدينية لأندلسيي أرغون (بما في ذلك بلنسية)، بل تعهّد كل الملوك الذين سبقوه، ووضع بذلك نهاية لتقليد ملكي استمر نحو ثلاثة قرون. فمنذ القرن الثالث عشر والأندلسيون الأرغونيون يتمتعون بقسط وافر نسبياً من الحرية الدينية والاجتماعية مكّنهم من الاستقرار والنمو. وتبوأ بعض هؤلاء مناصب عالية نسبياً بعدما اثبتوا ولاءهم لأرغون من خلال المشاركة في حرب الفرنسيين الذين حاولوا التوغل في المناطق الشمالية من المملكة. وبما أن عدداً مهماً من هؤلاء كانوا يعملون لدى النبلاء فقد كان في استطاعتهم دائماً الاعتماد على حمايتهم دفاعاً عن المصالح

المشتركة. ووقف النبلاء في وجه محاولة فرناندو إدخال محاكم التحقيق إلى أرغون. ولما أصر على ذلك دبّر النبلاء اغتيال المحقق العام بدرو دو أريويس، وتابعوا معارضة قوية لأي توسيع لنطاق محاكم التحقيق خارج حدود مدينة سرقسطة إلى المناطق ذات الكثافة الأندلسية العالية في بلنسية والمدن والأرياف في أرغون. ووجد فرناندو في النهاية أن المحافظة على وحدة مملكته الأرغونية واستمرار تدفق الأموال من الأراضي الميرية التي استأجرها الأندلسيون يستدعيان وضع مصالحها ومصالح النبلاء على رأس أولوياته فوافق على عدد من القوانين التي حظرت تعميد الأندلسيين في أرغون أو طردهم أو التعدّي على أملاكهم أو التدخل في شؤونهم. ولم تلبث سرقسطة أن حذت حذو المدن الأرغونية الأخرى وأقرت عام ١٥١٩ هذه الحقوق وباتت جهود محكمة التحقيق فيها موجهة إلى عدد صغير من اليهود المتنصّرين.

وكان الأندلسيون الغرناطيون سمعوا بنهوض الحركة اللوترية وبنشوب الحرب مع فرنسا، إلا أن كارلوس بدا لهم ملكاً لا يمكن قهره. وكانوا يعتقدون أنه سيظهر امتنانه للولاء الكبير الذي أدّوه له خلال ثورات أهل المدن فيرفع عنهم القيود المفروضة على ممارسة دينهم وعاداتهم بموجب مراسيم ملكية سابقة بعدما خطا خطوة إيجابية بإلزام نفسه في خطاب استلام عرش أرغون بعدم التدخل في الشؤون الدينية للأندلسيين الذين يعيشون في تلك المملكة. وعلى الرغم من أن كارلوس استمع إلى شكاويهم ووعد بدرس مطالبهم إلا أنه كان قرر أن فرنسا يمكن أن تحاول آجلاً أو عاجلاً النفاذ إلى إسبانيا عبر أرغون، وأن الحرب ضد اللوترين تقتضي أولاً ضبط إسبانيا باعتبارها قاعدته الأساسية، والعمل على توحيدها من خلال كثلكة كل من يعيش فيها أياً كان مستقرهم ومهما كانت النتيجة.

وبما أن هذه السياسة تقتضي الرجوع عن تعهده للأرغونيين عدم التدخل في شؤونهم الدينية فقد كتب إلى البابا يطلب منه أن يحلّه من هذا التعهد. وكان وصول جواب البابا بالموافقة على ذلك في الثاني عشر من آذار (مارس) عام ١٥٢٤ إيذاناً بإطلاق كارلوس يد محاكم التحقيق لتنفيذ سياسته الجديدة شاملة جميع الأندلسيين في كل مكان من إسبانيا. وفي الفترة القريبة التي تلت موافقة البابا بدأت المحاكم اتخاذ الخطوات العملية لتنفيذ أوامر كارلوس الخامس، ووجد الأندلسيون أنفسهم مرة أخرى في الأجواء التي سبقت نشوب الثورة الأندلسية الأولى مع فارق أساسي هو أن الأندلسيين الأرغونيين كانوا هذه المرة الهدف الرئيس الذي وضعته الحكومة والكنيسة ومحاكم التحقيق نصب عيونها.

تنظيم ملاحقة الأندلسيين والوشاية بهم

. . . «وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب باصبعه على الأرض . ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر» .[1]

لماذا لم يستوقف هذا المشهد المُدهش عمّال محاكم التحقيق كما استوقف معظم من قرأ العهد الجديد؟ وإذا كان استوقفهم يوماً وعرفوا بعد استيعابه أهمية الرأفة في تغيير عقول الناس وقلوبهم فلماذا تجاهله معظمهم في تعامله اليومي مع الأندلسيين؟ هل كان القشاتلة مسيحيين أم شيئاً آخر؟ هل اعتبروا أنفسهم جنوداً في جيش كاثوليكية قشتالة ونفذوا الأوامر ثم اعترضوا، أم أنهم لم يعترضوا قط؟ هل كانوا يريدون فعلاً أن يجعلوا من الأندلسيين المُنصّرين بالمراسيم نصارى طيبين، أم كانوا يريدونهم أن يصبحوا شيئاً آخر؟ أين اخطأ استراتيجيو محاكم التحقيق وأين أصابوا؟ وما هي المعادلة الصعبة الهيّنة التي واجهت محاكم التحقيق، ومن الذي حددها فعلاً، ومن خدمت في النهاية؟

يوجد خطأ كبير ما في هذه المؤسسة . ويوجد خطأ كبير ما في الاستراتيجية التي وُضعت لهذه المؤسسة . ويوجد خطأ كبير ما في قشتالة القرن السادس عشر جعل حدوث الخطأين الأولين ممكناً . وعرفنا الآن ما هو العقاب الذي يمكن ان تُنزله محاكم التحقيق بالخطأة والمخالفين والساخرين من التعاليم الكاثوليكية، لكن ما هي مكافأة من يعصم نفسه وينصاع ويجلس في الكنيسة باحترام ويستمع إلى القداس؟ نكاد نظن أن المكافأة، في معظم الحالات، كانت تجنّب العقاب لا غير . ليس لأن محاكم التحقيق والكنيسة الكاثوليكية القشتالية من ورائها لم تكونا راغبتين دائماً في تقديم المكافأة لأنهما تحدثتا عنها في مناسبات لا تُحصى، بل ربما لأنهما لم تكونا قادرتين على تقديم المكافأة الحقيقية، ولم تكونا في النهاية إلا أداتين استجابتا في معظم الأوقات لمطالب السلطة والشارع القشتالي .

لماذا؟

لأن المجتمع القشتالي لم يكن قادراً على قبول أي حل عادل . ولنفترض مثلاً أن عبدالله بن أحمد السّراج الغرناطي اليمني الأرومة تنصّر باختياره وعن قناعة داخلية تامة وصار يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر ويذهب إلى الكنيسة ويجمع لها التبرعات وينصت بخشوع للقداس فأي نصراني سيكون بعد كل هذا؟ سيكون نصرانياً من

[1] إنجيل يوحنا، (٨) -٧-٨ .

الدرجة الثانية، أي نصرانياً جديداً Morisco. وهل كان هذا النصراني الجديد يستطيع أن يأمل في أن يصبح يوماً مساوياً للنصراني القديم؟ لا! ليس في معظم الحالات على الأقل. يمكنه أن يصبح متساوياً مع النصراني القديم من جهة الواجبات لكن ليس الحقوق. لماذا؟ لأن شغل المناصب الرفيعة كان يتطلّب مبدأ أهم من مبدأ التنصر هو نقاء الدم، ليس بالانحدار من الأب فقط بل من الجد وجد الجد أيضاً، وربما الرجوع بالنسب الرفيع إلى فارس حارب في معركة العقاب التي قادها ألفونصو الثامن قبل أكثر من ثلاثة قرون. هل يستطيع أحد أن يُثبت شيئاً مثل هذا؟ طبعاً! إذا كان النصراني يستطيع أن يشتري صك الغفران يستطيع أيضاً أن يشتري شهادة نسب تعود به إلى أبعد من معركة العقاب. لماذا نتصوّر أن ما يحدث اليوم لم يحدث في الماضي؟

وبين عهد المحقق العام الأول لمحاكم التحقيق توماس دي توركيماده والمحقق العام الخامس ألفونصو مانريك تعاقب على هذا المنصب المهم ديثا وخيمينس وأدريان الاترشتي الذي صار بابا في ما بعد. وعمل كل واحد من هؤلاء على تعزيز عمل محاكم التحقيق وتوسيع صلاحياتها ومد أذرعها خلف حدود الممالك التي تشكّل إسبانيا لتصل إلى المُتهمين. ونما مع نمو المحاكم هيكل بيروقراطي كبير ضم عدداً متزايداً من القضاة والمحققين والمعرّفين والعيون (المخابرات) والكتبة والنسّاخين والخطّاطين ومراقبي الكتب والمخطوطات وعمال المطابع الخاصة بالمحاكم والمحاسبين والمخمّنين والمسؤولين عن حجز الأموال وتسويق عقارات المُدانين وأملاكهم الشخصية والطبّاخين والخدم وغيرهم من موظفين وعمّال. وكانت مهمة هذه المحاكم في المراحل الأوليّة محصورة باليهود المتنصّرين وجماعات من القوط استمروا يمارسون المسيحية على المذهب الآريوسي وبعض الأندلسيين في قشتالة أو الفارين من مناطق سكنهم لسبب أو آخر أو الأندلسيين العبيد الذي يهربون من مالكيهم.

وشهدت مهام محاكم التحقيق اعتباراً من عام ١٥٢٣ توسيعاً هائلاً في دائرة اهتمامها ومسؤولياتها لم تقتصر على ملاحقة الأندلسيين بل أيضاً على اللوتريين أو أنصارهم في إسبانيا وخارجها. وفي إسبانيا نفسها اعتمدت محاكم التحقيق دائماً وفي صورة حاسمة على وشايات الإسبان بممارسي الهرطقة بموجب المرسوم المشهور الذي أصدرته إيزابيلا. ولم يكن الإبلاغ عن مظاهر الهرطقة واجباً قوميّاً ودينياً فقط بل كان الامتناع عن ذلك جريمة ينزل بمرتكبها عقاب شديد. وقدمت محاكم التحقيق إلى جانب التهديد بالعقاب حافزاً مادياً فكان الواشون يحصلون على مكافآت مالية تتناسب والأحكام التي تصدر على المتهمين في حال ثبوت التهم الموجهة إليهم.

وإضافة إلى المكافأة المالية، كانت المحاكم تصرف لبعض الواشين شهادات «حسن سلوك» يمكن استخدامها، إلى جانب شهادات نقاء الدم، لشغل المناصب الرفيعة أو المهمة. ومع الزمن تطورت حاجة لحماية هؤلاء الواشين من انتقام ذوي المتهم المُدان فكانت المحاكم تحفظ سرّية اسمائهم وعناوينهم وتمنع المتهم من مواجهة مُتهمه مهما كانت الظروف أو نوع الاتهام. ولم يكن دافع الوشاية الحصول على المكافأة أو الانتقام دائماً فبعض الوشاة كانوا مواطنين صالحين وكاثوليكيين أتقياء دلّوا على جيرانهم وأصدقائهم انطلاقاً من شعورهم الكاثوليكي العميق بصدق موقفهم وعدالته.

وكانت المحاكم تصدّر لوائح تنظيمية سنوية تؤطّر الوشاية وتحدد أنواعها، لذا كان سهلاً على الإسبان، وحتى بعض اليهود وربما بعض الأندلسيين أيضاً، التعرّف على نوع الهرطقة الذي يمكن ابلاغه إلى عمّال محاكم التحقيق. إلا أن هذه اللوائح كانت خاصة باليهود وببعض المسيحيين ذوي الممارسات الدينية غير الكاثوليكية. واقتضت ضرورات تنفيذ أوامر كارلوس الخامس وضع لائحة خاصة بالأندلسيين تمهيداً لدعوة الشعب الإسباني إلى الوشاية بهم. ووقعت هذه المهمة على المحقق العام ألفونصو مانريك الذي جمع العناصر والمظاهر القابلة للوشاية بها في لائحة جرى تعليقها في الأماكن العامة يتقدمها أمر بأهمية الوشاية بمن يمارس أياً من البنود المذكورة خلال ستة أيام من رؤيتها أو تعريض نفسه للعقوبات الصارمة ومخالفة تعاليم الكاثوليكية.

وتضمنت هذه اللائحة ٣٦[١] بنداً منها أن يسمع الواشي أو يرى: أن دين محمد هو الأفضل، وأن لا سبيل لغيره إلى الجنة، وأن المسيح نبي وليس إلهاً، وأن أمّه لم تكن عذراء[٢]، وإذا سمعنا أو رأينا ان المسيحيين الذين تم تعميدهم يقومون ببعض طقوس أعياد دين محمد مثل الاحتفال بيوم الجمعة بأكل اللحم وقولهم إنه حلال وكذلك تزينهم بقميص نظيف وملابس أحسن من بقية الأيام الأخرى، وإذا ذبحوا الدواجن أو الحيوانات قاطعين العنق بسكين وتاركين إشارة على الرأس ومحولين وجهة الرأس نحو المشرق وقائلين «باسم الله» ورابطين أرجل الحيوان المذبوح، وإذا رفضوا أكل لحم الحيوانات غير المذبوحة أو التي ذبحتها النساء، وإذا ختنوا أبناءهم أو لقّبوهم باسماء عربية أو أظهروا الفرح بتلقيبهم بتلك الاسماء ونادوهم بها، وإذا قالوا وجب الإيمان بالله وإن محمداً نبيه، وإذا حلفوا بكل الايمان القرآنية، وإذا صاموا رمضان وراعوا ذلك أثناء عيد الفصح وسلموا بعض الصدقات ولم يأكلوا ولم يشربوا حتى يلاحظوا

---

[١] Llorente, Juan Antonio. *Historica critica de la Inquisicion de Espana*, I, pp 240-248.

[٢] إدراج هذا البند في اللائحة ملفت لأنه يخص البروتستانت فقط.

النجمة الاولى واستفاقوا ليأكلوا قبل طلوع النهار أو غسلوا أفواههم ورجعوا إلى فراشهم، وإذا توضأوا فغسلوا السواعد والأيدي حتى المناكب والوجه والفم والأنف والاذنين والساقين والاعضاء الجنسية، وإذا صلوا وحولوا وجهتهم نحو الشرق فوق حصير أو قطعة قماش ثم حرّكوا رؤوسهم قائلين بعض الكلمات العربية وقائمين بغيرها من الصلوات المحمدية، وإذا احتفلوا بعيد الاضحى بعد الوضوء، وإذا تزوجوا على سنة محمد، وإذا غنوا الأغاني العربية ونظموا حفلات أو رقصات وضربوا آلات موسيقية ممنوعة، وإذا وضعوا على أبنائهم أو أشخاص آخرين شكل يد بخمسة أصابع كذكرى للفرائض الخمس، وإذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة، وإذا غسلوا موتاهم ولفّوهم في كفن من قماش أبيض ودفنوهم في أرض بكر أو في قبر عميق واضجعوهم فيه واضعين حجارة تحت رؤوسهم وتاركين على اللحد أغصاناً خضراء وشيئا من العسل والحليب وطعام آخر، وإذا تذكروا محمداً عند الحاجة وقالوا إنه نبي الله ورسوله، وقالوا إن أول بيت لله هو ببكة، وان محمداً دفن فيها (هكذا جاء في اللائحة)، وإذا قالوا ان العربي يجد الإنقاذ في التجائه الى دينه واليهودي الى عقيدته، وإذا اجتاز أحدهم البلاد الى المغرب أو غيرها وارتد عن المسيحية، وإذا قالوا أو فعلوا أي شيء مرتبط بدين محمد».

ولم ينتظر عمّال محاكم التحقيق كثيراً إذ بدأت الوشايات تنهمر على قصرهم في بلنسية فور تعميم اللائحة فقبضوا على عدد كبير من الأندلسيين لأسباب اعتبرها الأندلسيون بسيطة، وبدأت مصادرة أملاك المشتبه بمخالفتهم ما أدرجته اللائحة لصالح خزانة الدولة ومحاكم التحقيق والواشين. ووقعت هذه الأعمال على الأندلسيين وقوع الصاعقة فسعوا إلى فتح المفاوضات مع السلطة لكن الأخيرة كانت سلّمت الأمر إلى محاكم التحقيق وبدأ قطار نشاطها يندفع بسرعة كما لو كان بالقوة الكامنة. وفي ٢٨ نيسان (إبريل) عام ١٥٢٤ استقبل المحقق العام مانريك في مدينة برغش الواقعة في قشتالة القديمة شمال البلاد وفداً أندلسياً واستمع إلى شكاويهم من تشدّد عمّاله في معاملتهم «وحصلوا منه على وعد بتوخّي العطف على الموريسكيين».[١]

وليس هناك ما يُثبت أن مانريك هدّأ تسارع ملاحقة الأندلسيين بعد ذلك إذ أجبرَ رئيس محكمة التحقيق في بلنسية غاسبار دافالوس أسقف وادي آش وعمّاله عدداً كبيراً من الأندلسيين على قبول التعميد. ويحمّل التعميد معنى مهماً هنا لأن

[١] المصدر السابق، ج١، ص ٢٥٥.

الكاثوليكية تعتبره عقداً بين المُعمّد والكنيسة فإذا أخلفه حق عليه العقاب ويجب على محاكم التحقيق اعتقاله أينما كان ومهما كانت جنسيته. وعندما فرضت الكنيسة على الأندلسيين قبول هذا العقد لم يبق بعد ذلك سوى متابعته لذا نجد أن مانريك أمر في أيار (مايو) من العام التالي (١٥٢٥) جميع الأندلسيين المُعمدين بالتوجه إلى كاتدرائية بلنسية لإبرائهم من تهم الهرطقة، وتوّعد من يرتد منهم بعد التعميد بالإعدام ومصادرة الأموال والممتلكات. وفي ١٣ أيلول (سبتمبر) عام ١٥٢٥ وجّه كارلوس إلى الأندلسيين في بلنسية أمراً بقبول التعميد رغبة في «إنقاذ أرواحكم وانتزاعكم من الضلال الذين تعيشون فيه»، وتبع ذلك قرار في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) من العام نفسه بإجبار الأندلسيين على التعريف بأنفسهم عن طريق وضع هلال من قماش أزرق على قبعاتهم بحجم البرتقالة، ولحق به أيضاً قرار آخر صدر في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ذاته بأجبار الأندلسيين على الإبلاغ عن أي أندلسي يرجع إلى الإسلام.

أما آخر سلسلة القرارات التي عرفها العام ١٥٢٥ فهو الذي صدر في الثامن من كانون الاول ونصّ على وجوب قيام محاكم التحقيق والكنيسة بتعميد جميع الأندلسيين قسراً قبل ٣١ كانون الثاني (يناير) من العام بعده. وكان القرار منتهى ما تحمّله أندلسيو أرغون فثاروا في انتفاضة اشترك فيها نحو ٢٦ ألف عائلة موريسكية أو نحو ١٣٠ ألف شخص انتقل قسم منهم خلالها إلى الجبال خصوصاً جبال Espadan لكن جيش كارلوس الخامس هاجم الثائرين وتمكّن من إنهاء تلك الانتفاضة كما تمكّن قبلها من انهاء انتفاضة شملت عدداً كبيراً من الأندلسيين الذين احتموا بالجبال.

ولم يكن تحرّك كارلوس الخامس في مملكة غرناطة أقل سرعة من تحرّكه في أرغون إذ أمر بتأسيس محكمة للتحقيق في مدينة غرناطة عام ١٥٢٦، وقدمت في أيار (مايو) عام ١٥٢٩ دفعة من الضحايا احرقوا في احتفال خاص تألّفت من المتهمين الآتين: ملحد، مزور جوازات مرور باسم محاكم التحقيق، ثلاثة رجال تزوجوا من أكثر من امرأة واحدة، ثلاث ساحرات، ٤٤ يهودياً متنصّراً، ٢٢ يهودية متنصّرة، أندلسيين مسلمين، سبعة رموز شخصية ليهود متنصّرين فارّين، عشرة رموز شخصية ليهوديات متنصّرات فارّات من محاكم التحقيق، رمز لأندلسي مسلم فر من وجه عمال محاكم التحقيق.[١]

---

[١] Rule, William Harris. *History of the Inquisition*. ولا نعرف دين الثلاثة المُدانين بالزواج من أكثر من أمرأة واحدة لكن لا يُستبعد أن يكونوا من الأندلسيين نظراً إلى سماح الإسلام بتعدّد الزوجات.

تخفيف الضغوط عن الأندلسيين

بدأت سياسة كارلوس الخامس تتغير في نهاية العشرينات من القرن السادس عشر. ففي عام ١٥٢٨ أمر المحقق العام لمحاكم التحقيق بعدم التدخل في شؤون الأندلسيين الموجودين في إقطاعية مونزون (منتيشون) الواقعة في الشمال الشرقي من سرقسطة في الطريق بين مدينتي لاردة ووشقة. وتابع كارلوس سياسة التهدئة في السنوات اللاحقة فوجّه محكمة التحقيق في بلنسية في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٥٣٤ بالامتناع عن مصادرة أي أملاك جديدة تخص الأندلسيين المتهمين بالهرطقة لمدة ٤٠ سنة. ولحق بذلك (١٥٣٥) قرار تبنّاه المجلس الأعلى في بلنسية يحظر تطبيق عقوبة الحرق على الأندلسيين المُعمدين. وفي عام ١٥٣٦ أصدر كارلوس قراراً يقضي بعدم مصادرة أملاك الأندلسيين في المستقبل، وقراراً آخر منع تدخل محكمة التحقيق في شؤون الأندلسيين في بلنسية وقطالونيا، كما رافق هذه القرارات قرار خاص بمملكة غرناطة تضمن منع محاكم التحقيق من التدخل في شؤون أهل غرناطة لمدة ٤٠ سنة، وبات واضحاً أن كارلوس غيّر سياسته.

لماذا؟

توجد أسباب محلّية ودوليّة عدّة وراء تتابع القرارات بكف يد محاكم التحقيق عن تجمّعات أندلسية معينة في إسبانيا شملت الأندلسيين في أرغون ومملكة غرناطة وقشتالة خصوصاً قشتالة القديمة شمال البلاد. ويمكن البرهنة على الطابع الاقتصادي لهذه القرارات لارتباطها بحصول كارلوس الخامس على دفعات نقدية كبيرة لمرة واحدة ودفعات سنوية و«تبرعات» من جانب الأندلسيين للمساهمة في تغطية نفقات محاكم التحقيق المتزايدة باستمرار. وضمّت الكنيسة الكاثوليكية بعد عاصفة العشرينات من القرن السادس عشر الألوف من المُعمّدين الأندلسيين الجدد الذين لم تكن هناك ثقة بصدق إيمان معظمهم. لكن خزانة الدولة خسرت مباشرة أو من خلال الحصة التي كانت تقتطعها من إيرادات محاكم التحقيق مبالغ كبيرة، قابلتها خسارة نسبية كبيرة لحقت بخزانات الممالك المحليّة والمجالس البلدية التي كانت «تجبي» من الأندلسيين أنواعاً عدّة من الدفعات في شكل كفالات مالية وغرامات وضرائب محلية على الأرباح والانتاج والمبيعات وغيرها.

وكان النبلاء والإقطاعيون أكبر المتضررين مباشرة من قرارات تعميد الأندلسيين وملاحقتهم خلال تلك الفترة المضطربة. وحاول كارلوس الخامس تلطيف وقع قراراته على اقتصاد النبلاء من خلال منحهم أوقاف المساجد الأندلسية في أرغون بعد تحويلها

إلى كنائس فلم يلق هذا الاجراء قبول الجميع. وتطورت معارضة قوية لهذه السياسة واستطاع النبلاء في النهاية ثلم شفرة قرارات الامبراطور محليّاً ثم إفشال تنفيذها كمقدمة لتجميدها مدة ٤٠ سنة في قسم كبير من أرغون ومملكة غرناطة. وربما كانت حصة الدولة من الأموال والممتلكات التي صادرتها محاكم التحقيق من الأندلسيين كبيرة في البداية وعوّضت تراجع الدخل من الأراضي الميرية التي استأجرها الأندلسيون، ثم فقدوا بعد المرحلة الأولى من المصادرات والغرامات قسماً مهماً من ثروتهم. ووجدت محاكم التحقيق بعد ذلك أن عليها رفع عدد حالات المصادرة لضمان استمرار المستوى نفسه من تدفق الأموال عليها وعلى الدولة.

ونعرف أن الأندلسيين في غرناطة تعهّدوا لكارلوس الخامس بالطاعة لكن الطاعة لم تكن آنذاك العملة التي يريدها كارلوس. ففي عام ١٥٢٩ ضرب العثمانيون حصارهم الأول على فيينا، عاصمة القسم الغربي من امبراطورية كارلوس المتروكة في عهدة أخيه فرديناند، ووجد نفسه بلا جيش ولا مال لدعم دفاعات النمسا، فتدخل في الشؤون الدينية لأمراء ألمانيا فقاموا عليه مما اضطره إلى الموافقة على معاهدة «الصلح الديني» في نورمبرغ عام ١٥٣٢ للحصول على الدعم العسكري من الأمراء اللوتريين ضد العثمانيين.

وفي الوقت نفسه بدأت سفن خير الدين بربروسا اعتراض السفن الإسبانية وشن عشرات الغارات على المدن والمواقع المنتشرة على سواحل إسبانيا وإيطاليا فنظّم حملة احتل خلالها تونس عام ١٥٣٥ ثم اشتعلت الحرب مرة أخرى بينه وبين فرنسا في العام بعده. ولم يصل كارلوس إلى أوج قوته إلا عام ١٥٤٤ عندما وافق فرانسيس الأول على مساعدته ضد الأمراء البروتستانت في ألمانيا وتخلّى لكارلوس عن نابولي في مقابل إعادة دوقية برغندي. وكان قبل ذلك فشل في حملته على الجزائر ثم خسر بودابست فالمجر كلّها لصالح العثمانيين.

واقتضى تمويل كل هذه الحروب ضخ المال في الخزانة أكثر مما اقتضى ضخ مزيد من الأندلسيين المُعمدين في الكنيسة الإسبانية، إلا أن الحصول على مال الأندلسيين في مقابل اعطائهم الحرية الدينية المحدودة، لم يكن وقتها العامل الأساسي إذ كان العثمانيون والمغاربيون يعرفون ما يحصل في إسبانيا وكان حرق الأندلسيين واضطهادهم دافعاً لتنظيم مزيد من الحملات الجريئة على إسبانيا ومعاملة الأسرى الإسبان في بعض الحالات بقسوة تماثل قسوة معاملة الأندلسيين خصوصاً على يد البحّارة الأندلسيين الذين كانوا هربوا من إسبانيا إلى الجزائر وتونس.

ولا يمكن بسهولة معرفة تأثير «عامل الردع» هذا لكن لا بدّ أن يكون، إضافة إلى الأسباب التي تقدم ذكرها، لعب دوراً في انتقال سياسة كارلوس الخامس جزئياً من العقوبات البدنية إلى عقوبا ت مالية يقول مؤرخ فرنسي هو فنسان برنارد ان قيمتها بلغت٥٩٧ ,٦ بليون مرابطي بين اعتلاء كارلوس العرش ونشوب الثورة الأندلسية الكبرى عام ١٥٦٨ .

الأندلسيون ومحاكم التحقيق في عهد فيليب الثاني

أطلق صلح «كريسبي» Crespy عام ١٥٤٤ مع فرنسا يد كارلوس في التصدي للأمراء البروتستانت وأنزل بهم هزيمة منكرة في وقعة مهلبرغ Muhlberg عام ١٥٤٧ لكن الحظ خانه عام ١٥٥٢ فهرب من وجههم بعد هزيمة شنيعة. وفي العام الأخير نفسه وقف في وجه كارلوس أكبر عدوين أوروبيين له بعدما أيدت فرنسا الأمراء البروتستانت لقاء الحصول على ثلاث مناطق ألمانية محاذية لفرنسا هي ميتس وتول والفردان. وقامت حرب بين إسبانيا من جهة والفرنسيين والأمراء الألمان استمرت خمس سنوات أخفق كارلوس خلالها في استعادة المناطق الثلاث فتنازل لابنه فيليب عام ١٥٥٦ عن عرش تربّع على إسبانيا والمنطقة التي نعرفها اليوم باسم بلجيكا ونابولي ومعظم الأميركتين الوسطى والجنوبية (استكملت إسبانيا فتحهما في حدود ١٥٥٠)، وأخيراً هولندا التي كانت أغنى ممالك فيليب الثاني وأهم دولة تجارية ومالية في أوروبة.

ودفع كارلوس بإخفاقه ثمن عجزه عن فهم الدوافع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت وراء صعود حركة اللوثرية بتلك السرعة إذ كان يحاول مصالحة هدفين لم يعد ممكناً مصالحتهما آنذاك هما رغبته في إقامة امبراطورية دولية كاثوليكية مضادة للإصلاح يسيّرها سياسياً ودينياً من خلال الضغط على البابا ويكون فيها حاكماً مطلق الصلاحية وفق مفاهيم العصور الوسطى، ورغبة الأمراء الألمان في إقامة الدولة الوطنية التي يستطيعون المشاركة في صنعها وتسييرها في أجواء عصر النهضة الفكرية والحريّات الفرديّة. وإذا كان هذا الهدف يقتضي تأييد مذهب غير المذهب الكاثوليكي الذي يؤيده الامبراطور فليكن لأن هؤلاء الأمراء وجدوا أنفسهم يقاومون كارلوس والبابوية والكاثوليكية في شخص واحد هو كارلوس.

وكان كارلوس كاثوليكياً تتلمذ على يد الكاهن الذي اصبح في ما بعد البابا أدريان الرابع لكنّه لم يكن متعصباً لأن المكان الذي ولد فيه (غنت) لم يكن يعرف العصبية

السائدة في إسبانيا . ومع ذلك نجده يلجأ إلى حل قشتالي طوّرته جدته إيزابيلا القشتالية لمواجهة مشكلة في أوروبة فسيّر الجيوش إلى خصومه ومنتقديه في البداية ثم سلط عليهم محاكم التحقيق التي احرقت أول ضحاياها الأوروبيين في بروكسل عام ١٥٢٣ ، أي بعد أقل من سنتين من إهدار دم لوتر . وباتت هذه المحاكم أهم الأسلحة التي استخدمها كارلوس في هولندا ضد اللوتريين وفي إسبانيا ضد الأندلسيين .

ووجد فيليب الثاني بين يديه هذه الممالك الهائلة ومعها كل المشاكل التي عجز أبوه عن حلّها . وإضافة إلى العثمانيين الذين زادوا إلى قوتهم العسكرية البرية التي لا تُقهر قوة بحرية لا تُقهر أيضاً ، كان الفرنسيون مستعدين للتحرك ضد عدوهم الأكبر إسبانيا عند أول فرصة سانحة ، وكانت البروتستانتية تنتشر بسرعة في شمال أوروبة وبدأت تهدد بتقليص مساهمة هولندا الغنية في خزانة إسبانيا . ولم يحاول فيليب معالجة مشاكله بطريقة تختلف عن أبيه أو عن جدة جدته إيزابيلا فعزز محاكم التحقيق في هولندا وأعطاها صلاحيات واسعة وسيّر هو الآخر الجيوش لقتل الهولنديين حتى ليُقال إن القائد العسكري الإسباني دوق ألبة الملقب بـ«الحديدي» تبجح بعد عودته من هولندا إلى قشتالة عام ١٥٧٣ بأنه سبب قتل ١٨,٩٠٠ هولندي وإجبار ٦٠ ألف شخص على الفرار من البلاد . وظل الهولنديون يعانون عسف الإسبان نحو ٨٠ سنة ولم يتمكنوا من التخلص منهم إلا بعد حرب استقلال طويلة تُوّجت بإبرام صلح لاهاي عام ١٦٤٨ .

وكانت محاربة انتشار اللوترية وتفرّعها الآنابابتيستي في هولندا واحدة من الأسباب التي دفعت إسبانيا إلى ارتكاب فظائع هائلة هناك ، غير أن السبب الأهم بكثير كان استمرار السيطرة الإسبانية على الثروة الهائلة التي تمتعت بها هولندا إذ كانت الأموال التي تدخل خزانة إسبانيا من مختلف الضرائب المفروضة على الهولنديين سبعة أضعاف قيمة الفضة التي تدفقت إلى مدريد من العالم الجديد . وكانت روتردام وأنتويرب محطتين يمر من خلالهما نصف التجارة العالمية ، فيما كانت بورصة أنتويرب تؤدي في تلك الفترة الدور الذي تلعبه لندن اليوم كأهم سوق مالية في أوروبة . ولم تقتصر أهمية هولندا على قدراتها التجارية والمالية الهائلة إذ كانت أيضاً «قلعة أوروبة» ، وكانت أقاليمها تحيط بفرنسا لذا كان استمرار الوجود الإسباني فيها حاسماً . وتسبّب الخوف من خسارة هولندا في زيادة تشديد إسبانيا قبضتها الحديد فاشتكى الناس من جور محاكم التحقيق وظهرت معارضة لوجود الأيقونات في الكنائس وتطورت حركة مقاومة شعبية قادها نبيل شاب يُدعى إيغمونت Egmont وزعيمان

آخران هما وليام الأورانجي (الملقب بالصامت) وهورن Hoorn. واشتدت هذه المقاومة فأرسل فيليب الثاني دوق ألبه إلى هولندا عام ١٥٦٦ فقمع الحركة بالقوة وشكّل محاكم عسكرية بعد سنة من ذلك قررت اعدام إيغمونت وهورن عام ١٥٦٨[١]، ولم يبق من قادة الحركة الشعبية سوى وليام الأورانجي الذي سيتولى تنظيم المرحلة الأولى من التصدي للوجود الإسباني إلى حين اغتياله.

وفي العام الأخير نفسه اندلعت الثورة الأندلسية الكبرى لاسباب يتماثل عدد مهم منها مع الاسباب التي أدّت إلى الاضطرابات في هولندا. وكانت سياسة فيليب الثاني حيال الأندلسيين السياسة نفسها التي اختطها حيال الهولنديين بعناصر تضمّنت التدخل العسكري الواسع النطاق وتكثيف دور محاكم التحقيق. وكان دور القوة العسكرية حاسماً لكن في البداية فقط. فبعد سحق أي تمرد بقوة السلاح تأخذ القوة العسكرية مكاناً خلفياً مُراقباً فيما ترمي محاكم التحقيق كل ثقلها لضمان استمرار «تهدئة» كلا الأمتين الأندلسية والهولندية من خلال أساليب اتبعتها المحاكم خلال حكم كارلوس الخامس وأساليب جديدة أقرها فيليب الثاني عندما منح المحاكم صلاحيات شبه مطلقة. وتمكّن اليهود والأندلسيون دائماً تقريباً من شراء حرياتهم المحدودة من إيزابيلا وفرناندو وكارلوس الخامس، وسيستمر الأندلسيون في تقديم الثمن إلى فيليب الثاني لكنهم لن يحصلوا في مقابله على الحريات التي كانوا يحصلون عليها أيام أبيه كارلوس الذي مات عام ١٥٥٨ ومات معه تعهّده كفّ يد محاكم التحقيق عن الأندلسيين في مملكة غرناطة ومعظم مناطق أرغون مدة ٤٠ سنة.

وورث فيليب من ابيه أمبراطوريته لكنه ورث من إيزابيلا تعصبها الكاثوليكي ذا الصبغة القشتالية، ومن توركيماده تقشفه ومن خيمينس صليبيته، وبدا في قصر الاسكوريال الذي عاش فيه ملكاً ينتمي إلى العصور الوسطى أكثر من انتمائه إلى عتبات العصور الأحدث. وأمضى فيليب معظم عمره وهو يحاول إبقاء أمبراطوريته في الماضي الذي تصور وجودها فيه، وسخّر لهذا الهدف معظم قدرات ممالكه وطاقاتها المالية والبشرية. أما المواصفات التي وضعها لهذا المكان العتيق في عقله العتيق فهي المواصفات نفسها التي وضعها للعالم الذي يريده ورمز إليه بقصر الإسكوريال الذي عاش فيه. والإسكوريال (بدأ بناؤه عام ١٥٦٣) مجمّع كبير يقع على بعد ٤٨ كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مدريد يحتوي كنيسة كاثوليكية مُقببة وكلّية وديراً وقصراً تحيط به أسوار أكبر منها بالمجمع كلّه، أي عالم فيليب

[١] ألف الكاتب الألماني الأشهر غوته مسرحية عن إيغمونت عام ١٧٨٨.

الثاني كلّه. ولم يأتمن فيليب الثاني عالمه لأحد، ولم يكن يتخذ قراراً قبل التفكير فيه إلى حد الإفراط أحياناً، وإذا اتخذه فهو كتابة لا يحتمل التأويل الممكن في القرارات الشفهيّة. وكان البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية إلا أن فيليب اعتبر نفسه زعيماً للكاثوليكية في كل مكان، وأخضع كل الإرادات البابوية المتصلّة بممالكه لموافقته المسبقة فبدت البابوية في بعض فتراتها جزءاً من الممالك الإسبانية، والبابا واحداً من رعيّة فيليب الثاني.

محاكم التحقيق كذراع للسلطة

وجد الأندلسيون أنفسهم عام ١٥٦٨ مجبرين على التصدّي لاستفزاز محكمة التحقيق الغرناطية بإعلان الحرب على أكبر قوة أوروبية. وتوجد أسباب عدّة أشعلت شرارة الثورة أهمها الأوضاع الاقتصادية المتردّية. فبين عام ١٥٥٠ وعام ١٥٧٠ استولت محاكم التحقيق على أملاك ١٤٠٠ أندلسي في مملكة غرناطة وحدها، وصادرت أموال عدد كبير آخر وأوقعت بحق أعداد كبيرة أخرى غرامات مالية وعقوبات اخرى تضمّنت الحرق والسجن والجلد والعمل في القواديس. ولا نملك أي أدلة قاطعة تثبت أن الوضع نفسه لم ينطبق على مجموعات كبيرة من الأندلسيين في أرغون. فبعد قسر عدد كبير من الأندلسيين في مملكة غرناطة وبلنسية وغيرهما على التعميد صارت محاكم التحقيق تعتبر اتهام الأندلسيين بممارسة أي شعائر إسلامية أو عادات عربية من تلك الواردة في لوائح الوشاية ارتداداً عن الكاثوليكية. وكانت الخطوة الأولى التي تُقدم عليها محاكم التحقيق في حال توجيه هذه التهمة الحجز على أموال المتهم وأملاكه. ولم يكن عدم إثبات هذه التهمة يؤدي دائماً إلى رفع الحجز عن هذه الأموال والممتلكات إذ وجدت المحاكم دائماً تقريباً ممارسة معينة كانت يمكن استخدامها مسوّغاً لاستبقاء الحجز. إلا أن ثبوت هذا الارتداد كان يعني في معظم الحالات الموت حرقاً أو إعداماً، ومثله أيضاً ثبوت محاولة الأندلسيين نشر الإسلام بين النصارى الإسبان.

وفيما عهد فيليب الثاني إلى دون خوان قيادة الجيوش للقضاء على الثورة الأندلسية الكبرى (١٥٦٨-١٥٧٠)، أوكل مهمة مراقبة الأندلسيين للمحقق العام اسبينوزا الذي أمر عمّاله بأهمية متابعة أي شبهة أو وشاية ضد أي أندلسية أو أندلسي. وكان يكفي آنذاك تقدّم شاهد واحد بشهادة أو وشاية على أندلسي لاعتقاله فوراً وإيداعه سجون محاكم التحقيق وتعذيبه أو معاقبته بالعمل ثلاث سنوات في السفن، في حين

كان اتهام شاهد واحد شخصاً غير أندلسي لا يكفي. وإذا حدث ولم يعترف الأندلسيون لعمال المحاكم بالجرم المسند إليهم فإن أقل العقوبات التي كانت تطبّق بحقهم هي الجلد أو دفع الغرامات المالية الكبيرة. وكانت هذه المحاكم تفرض على السجين دفع مبلغ فوري تصرف منه جزءاً لإطعامه وتأخذ الجزء الآخر مساهمة إجبارية من السجين في تغطية نفقات محاكم التحقيق. وإذا لم يتوافر المبلغ المطلوب (أحياناً ٢٠ دوقة ذهبية) كان العمّال يصادرون أملاكه ويبيعون منها ما يكفي لتحصيل المبلغ.

وعندما نقول إن اسبينوزا أمر عمّاله بمتابعة أي شبهة أو وشاية على أي أندلسي، أو أن المحقق العام الآخر فرناندو فالديس Fernando Valdés أمر جميع الكنائس بوجوب إبلاغ محاكم التحقيق بأي معلومات تتضمن هرطقة أسرّ بها أي أندلسي خلال اداء الاعتراف للكاهن في الكنيسة، فإننا لا نريد بذلك تجنيب فيليب الثاني مسؤولية هذه السياسة الاضطهادية بحق الأندلسيين. نحن لسنا هنا حيال بطانة فاسدة حول ملك عادل لا يعرف ماذا يدور في مملكته، بل حيال ملك ذكي واثق من نفسه كان يخوض بكامل وعيه حرباً بلا هوادة ضد خصومه أياً كان دينهم لخدمة مصالحه التي رأى أنها متوافقة مع مصالح الكاثوليكية. ولا نعرف أي محقق عام عارض إيزابيلا ومن جاء بعدها. ولا نملك أي دليل على أن المحققين العامين وضعوا سياسات لم يوافق عليها الملك أو لم تكن «تفسيراً» اجتهادياً لتلك السياسات، بل يمكن القول ان محاكم التحقيق تعدّت حتى على بعض أهم حقوق الكنيسة الكاثوليكية مثل اعطاء الأمان لمن يلتجىء إلى الكنيسة، والمحافظة على سرّية الاعترافات، ووضعت قراراتها فوق قرارات البابا لأن ما أمر به المحقق العام فالديس مخالفة واضحة لأمر وجّهه البابا بولس الرابع إلى كهنة الاعتراف في الكنائس الإسبانية بتاريخ ٢٣ حزيران (يونيو) عام ١٥٥٦ خوّلهم قبول الاعترافات من دون الرجوع إلى محاكم التحقيق.

وتكشف دراسة ممارسات محاكم التحقيق في إسبانيا في القرن السادس عشر دوراً لهذه المحاكم يختلف كثيراً عن الدور الذي تصوّره البابوات الذين أعطوا هذه المحكمة شرعيّة التأسيس. فالهدف هنا لم يعد يقتصر على محاربة أعداء الكنيسة الكاثوليكية بل على محاربة أعداء الامبراطورية الإسبانية السياسيين تحت غطاء اتهامهم بالهرطقة سواء كانت هذه الاتهامات حقيقية أو مجرد اختلاق. ولم تستطع محاكم التحقيق التحوّل إلى سلطة ضمن سلطة في أي وقت من الأوقات، ولم تتعد ممارساتها ما سمحت به الدولة. فهيمنة ملوك إسبانيا على المحاكم مطلقة دائماً فإذا منعوها من التدخل في شؤون الأندلسيين امتنعت بلا جدال، وإن أفلتوها على الأندلسيين فلا

خلاص من سجونها وتعذيبها ومصادراتها. وهكذا باتت محاكم التحقيق «أداة أساسية في ضمان سلطة مطلقة»[١] لملوك إسبانيا. وليس لدينا من الحقائق ما يكفي للاستنتاج بأن كارلوس أو فيليب كانا أكثر اهتماماً بوسائل تحقيق الأهداف التي رسماها لمحاكم التحقيق من اهتمامهما بالغاية. وكانت أهداف كارلوس وفيليب كبيرة لذا كانت الصلاحيات المُعطاة إلى محاكم التحقيق كبيرة، وكلاهما، كما إيزابيلا من قبلهما، منعا البابا من «التدخل» في قرارات المجلس الأعلى لمحاكم التحقيق على الرغم من أنه هو الذي يعيّن المحقق العام رئيساً لهذا المجلس الذي كان يُطلق عليه اسم «رئيس مجلس جلالته المقدس والعام التابع لمحاكم التحقيق المقدسة».

إن هذه المهمة المنفصلة المزدوجة في آن هي التي قادت بعض المؤرخين إلى اتهام محاكم التحقيق بأنها كانت أكبر جهاز استخبارات إرهابي عرفه العالم، وإلى إفراغ معظم المحتوى الديني من مهمة محاكم التحقيق، وإلى إدانة جميع المشاركين فيها، وإلى دعوة البابا إلى الاعتذار عن كل ما حدث في الماضي. أما أهم هدف من كشف ممارسات محاكم التحقيق على الإطلاق فهو توعية الناس لكي يمنعوا قيام مثل هذه المؤسسات في المستقبل. ويمكن ان تبدأ هذه المحاكم بمجموعة مُحددة من الضحايا لكنها لا تلبث أن تكتسب زخماً بالقدرة الكامنة فيستخدمها الملوك الزمنيون والدينيون على حد سواء لإحراق أعدائهم ومصادرة أملاكهم كما حدث عندما «أقنع» الملك الفرنسي هنري الثامن البابا كليمنص بتسليط محاكم التحقيق على فرسان الهيكل الذين قال بابا قبله ان السيطرة على المناطق المقدسة في المشرق ما كانت ستستمر من دونهم ومن دون الفرق الدينية الأخرى.

محاكم التحقيق كدائرة للجباية

نعود بداية إلى التذكير والاستذكار بأهمية تجنّب التعميم فلا بدّ أن عدداً كبيراً من عمّال محاكم التحقيق كان مقتنعاً بأهمية عمله للمحافظة على وحدة الدولة والدين، وربما اعتقد كثيرون أن جهدهم ما هو إلا إسهاماً عن صدق وعقيدة في إصلاح حال الخطأة ودفعهم في اتجاه الخلاص كمقدمة لدخول الجنة. ومع ذلك لا بدّ من التذكير والاستذكار أيضاً بأن صلاحيات عمّال محاكم التحقيق تضمّنت أعظم صلاحية يمكن امتلاكها وهي تقرير الموت والحياة. وعلينا أن نفترض القداسة في جميع عمّال محاكم التحقيق بلا استثناء لكي نبعد عنهم شبهة استغلال سلطتهم لتحقيق مآرب شخصية أو

[١] Roth, Cecil. *The Spanish Inquisition.* (USA 1964), W. W. Norton & Company, Inc., p 73.

للحصول على الرشوة أو قسر النساء الأندلسيات على الرضوخ لرغباتهم الجنسية أو استغلال ضعف الأطفال للغاية نفسها. وليس في وثائق محاكم التحقيق المُتاحة للباحثين ما يثبت أن عمّال محاكم التحقيق فعلوا هذه الأشياء، إلا أن بعض الأندلسيين وجه إليهم هذه التهمة وغيرها فقالوا إنهم «ذئاب مفترسة بلا رحمة، ومحكمتهم تعجرف واختلاس ولواط وفجور وشتيمة وجحود وغرور وتكبّر واستبداد وسرقة وظلم». [1]

ومن الثابت المدعوم بالوثائق والأرقام أن العاملين في محاكم التحقيق ساهموا في اقتطاع جزء كبير من الثروة الأندلسية وتحويلها إلى خزانة الدولة أو استخدامها لتغطية نفقاتهم وربما الصرف على نشاطات الرهبانيات التي كانوا ينتسبون إليها. ويجب القول إن محاكم التحقيق لم تكن السبب في إيقاع نفسها في هذا المأزق الذي حولها إلى مؤسسة تشبه الشركة. فالسبب هو النظام التأسيسي لمحاكم التحقيق الذي فرض عليها تغطية نفقاتها ذاتياً، أي من إيرادات مصادرة أموال ضحاياها وممتلكاتهم والغرامات المالية المفروضة على الخطأة. ولم يكن تأمين التمويل الذاتي مشكلة كبيرة عندما كانت في إسبانيا محكمة واحدة لها مهمات محددة ومحدودة. لكن محاكم التحقيق في القرن السادس عشر أصبحت مؤسسة كبيرة تطلّب تمويلها مبالغ طائلة وكان عليها ان «تجبي» هذا التمويل من ضحاياها لأن كارلوس الخامس وفيليب الثاني وسّعا مهماتها لكنهما لم يوفرا الاعتمادات المالية لتغطية هذا التوسّع. ومع ذلك لم يكن تأمين التمويل الذاتي مشكلة عندما كان ضحاياها من الاثرياء اليهود أو الأندلسيين فربما استطاعت محاكم التحقيق تغطية نفقاتها طول السنة من مصادرة أموال وممتلكات ثري كبير واحد، وتحويل الباقي إلى الخزانة فأصبحت المحاكم من القنوات المهمة لتدفق الأموال على الخزانة العامة. واقتضى هذا الدور بناء كادر إداري كبير ضم جباة الضرائب ومخمّني أسعار العقار وخبراء بيع الممتلكات المحجوزة في المزادات العلنية والمحاسبين والإداريين وغيرهم. وهكذا تضخّم كادر محكمة التحقيق من بضع عشرات يوم ولادتها في عهد إيزابيلا إلى واحدة من المؤسسات البيروقراطية المهمة في إسبانيا.

ومع ذلك لم تسمح الخزانة لمحاكم التحقيق ترحيل جزء من إيراداتها إلى صندوق احتياط تستخدم أمواله عندما لا تتمكن من تغطية نفقاتها. لذا وجدت المحاكم نفسها مضطرة إلى الصرف على نفسها أولاً بأول فارتبط جزء من عملها ليس بملاحقة

---

[1] Baroja, Julio. *Los Moriscos del reino de Granada*, (Madrid 1957) p 25.

الهرطقة بل بالبحث عن مصادر التمويل لتسديد رواتب العاملين فيها والمعرّفين وأحياناً خبراء التعذيب المحترفين. وأيضاً لم تكن هذه مشكلة كبيرة عندما كانت محاكم التحقيق تصادر أموال الأثرياء، لكن مع الزمن قلّ عدد هؤلاء وبات على محاكم التحقيق مضاعفة عمليات المصادرة والغرامات للحصول على المقدار نفسه من التمويل. ووصل الأمر في بعض الحالات إلى ان جرد ممتلكات بعض الضحايا وبيعها لم يكن يغطي نفقات هذه العمليات، وتطوّرت بعد ذلك سياسة جديدة قامت على إجبار الأندلسيين على المساهمة في تغطية نفقات محاكم التحقيق في شكل «أتاوات» خاصة. ولدينا أمثلة عدّة على ذلك منها أن أندلسيين في مدن أريفالو Arevalo وديل كمبو (وكانت مركزاً مالياً مهماً) وأبلة Avila طالبوا محكمة التحقيق بعد إعلان اعتناقهم الكاثوليكية حديثاً بخفض الأتاوات المفروضة عليهم من ٥٠٠٠ مرابطي الى ٤٠٠٠ في بعض الحالات ومن ٢٠٠٠ مرابطي إلى ١٠٠٠ مرابطي في حالات أخرى مما يعني أن هؤلاء كانوا يدفعون الأتاوات على الرغم من أنهم لم يتعمّدوا وبالتالي لم تشملهم صلاحيات محاكم التحقيق. أما محكمة التحقيق في مدينة بلد الوليد «فتحصلت على أمر بإجبار الموريسكيين على دفع ضريبة مالية استجابة للحاجة الماسة التي تعيشها محكمة التحقيق في مدينة بلد الوليد».[1] وفي بلنسية «وجب على هاته المحاكم أن تعيش وعليه أجبر الموريسكيون على تسديد مبلغ ٥٠,٠٠٠ صولة بعملة بلنسية على دفعتين احداهما بتاريخ ٣٠ أيلول (سبتمبر) والأخرى بتاريخ ٣٠ آذار (مارس) من كل سنة وهذا يساوي بعملة قشتالة ٢٥٠٠ جنيه. وحتى يتمتعوا بالامتيازات هذه نفسها، وجب على موريسكيي أرغون أن يسددوا لمحكمة التحقيق في سرقسطة ما قيمته ٣٢,١٧١ صولة ودينارين».[2]

محاكم الشيطان

«سوف تُفتح إسبانيا من جديد»، كان الأندلسيون يهتفون من عتمة الاضطهاد السياسي والديني والاجتماعي الذي أحاط بهم من كل جانب، «سوف تُفتح من جديد، وسوف يفتحها عرب المغرب. وساعة النجاة قريبة وسوف تأتي من شمال أفريقية وبجّاية ووهران. وسوف تُفتح سبتة أولاً ثم سوف تُغزى إسبانيا من جديد، وسيمشي الفاتحون في خطى طارق وسينفتح الطريق أمامهم في صورة خارقة، وفي

[1] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ٥١.

[2] أعلاه، ص ١١٠.

مضيق جبل طارق سوف يظهر جسر من الحديد وسوف يعبر العرب فوقه، وسوف يفتحون إسبانيا وسوف يصلون إلى جليقية». [1]

وإلى يسار جليقية الواقعة في أقصى الشمال الغربي من إسبانيا إقليم مشهور هو الباسك تحالف أهله مرة مع الأندلسيين وهاجموا مؤخرة جيش شارلمان فمزّقوه وقتلوا رولان بعدما اجتاح جيشه العاصمة بمبلونة ونهبها. وقرب طرف المثلث الذي يجمع قشتالة القديمة ونافار وجليقية مدينة صغيرة تقع على نهر إبرة اسمها لوغرونيو Logroño، يسكنها نحو ٨٢ ألف نسمة، وربما كان العدد نصف هذا عام ١٥٧٦ عندما سلّم عمّال محاكم التحقيق إلى السلطات المدنية سيدة غرناطية اتهموها بالارتداد عن الكاثوليكية. ولا نعرف أين كانت هذه السيدة تسكن في غرناطة قبل نفيها إلى شمال إسبانيا بعد الثورة الكبرى، ولا نعرف إن كانت متزوجة ولها أولاد أم أن زوجها انتهى منفياً في مكان ما من قشتالة وانتزعت الكنيسة أولادها من بين يديها ووزعتهم على بيوت المسيحيين القشاتلة الذين اخذوا بيوت أهل غرناطة المنفيين. كل ما نعرفه عن حياة هذه السيدة الأندلسية الغرناطية أن أسقف مدينة كالهورة (قلهرة) فرض عليها توبة سرّية، ثم اعتقلتها محكمة التحقيق وأدانتها بالارتداد وسلمتها إلى السلطات المدنية «متوسلة إليها التصرف معها بكل رأفة وشفقة»، كما يرد في حاشية كل أوامر تنفيذ الإعدام بضحايا محاكم التحقيق كأن المحكمة لا علاقة لها بإعدام الضحايا.

وفي ساحة لوغرونيو نصب الجلادون المشنقة لهذه السيدة المسلمة، ثم نقلوها بعد فيضان روحها إلى المنصة المعروفة وأضرموا فيها النار. وكان مضى على استشهاد هذه السيدة ١٨٠ سنة عندما ولد في تلك المدينة مؤرخ شغلت محاكم التحقيق الإسبانية تفكيره في معظم سنوات عمره الناضج، ووضع قبل وفاته عام ١٨٢٣ مؤلفاً ضخماً من أربعة أجزاء عن محاكم التحقيق الإسبانية يُعتبر إلى اليوم مرجع مراجع تاريخ تلك المحاكم. ولنا أن نتساءل ماذا كان يدور في خلد خوان أنطونيو لورنتي Juan Antonio Llorente وهو يطالع ملف هذه السيدة الغرناطية التي قضت في مدينته. ربما كان ملفاً من آلاف الملفات التي اطلع عليها، أو مجرّد رقم في إحصاءات ضحايا محاكم التحقيق، وربما وقف في ساحة المدينة يوماً وتصور تلك المرأة الغريبة التي عاشت عمرها المقتطع في مكان غريب ولم يبق منها بعد الحرق ما يمكن دفنه. ربما تخيل سماع صراخها أو صراخ عشرات الالاف من ضحايا محاكم التحقيق، وربما نستطيع نحن أيضاً أن نتخيلها ورأسها يتدلى فوق صدرها بعد انكسار عنقها وشفتاها لا تزالان

[1] أعلاه، ص ٦٤.

مفتوحتين على آخر كلمة نطقتها. ما هي تلك الكلمة يا ترى؟ ما هو آخر شيء رأته في خيالها قبل أن تغمض عينيها للمرة الأخيرة؟ ابنها؟ ما اسم ابنها يا ترى؟ ابنتها؟ ما اسم ابنتها يا ترى؟ هل كبرت وتزوجت وأصبحت أمّاً قشتالية صالحة أم أصبحت شيئاً آخر؟

لا نعرف. لا نعرف ما هي آخر كلمة نطقها الأندلسيون الذين احرقتهم محاكم التحقيق، ولا نعرف عددهم بالضبط؟ لورنتي الإسباني الذي تمكّن من وثائق لمحاكم التحقيق لم يتمكّن منها غيره توصّل إلى أن عدد الأندلسيين الذين قضت محاكم التحقيق بحرقهم كان ٣١,٩١٢ أندلسياً وأندلسية، واستنتج أن عدد الأندلسيين الذين أوقعت بهم محاكم التحقيق عقوبات وغرامات مختلفة كان ٢٧١,١٥٠ شخصاً فيما احرقت محاكم التحقيق تماثيل رمزية لـ ١٧,٦٥٩ أندلسياً تمكّنوا من الفرار خارج إسبانيا أو اختفوا داخل تلك البلاد الشاسعة. هذه الأرقام المخيفة تعني ان مجموع ضحايا الأندلسيين، بين حرق وعقوبات، هو ٣٠٣,٣٦٢ أندلسياً وأندلسية، أي واحد من بين كل ثلاثة أندلسيين كانوا يعيشون في إسبانيا. فهل نصدّق هذا المؤرّخ، حتى بعد الأخذ في الاعتبار ملاحظات المؤرخين الأحدث على عمله، أم الكتاب الباقين الذين زعموا أن عدد الأندلسيين الحرقى كان أقل من اليهود (٢٠٠٠ شخص تقريباً[١])، وأقل من البروتستانت (مئات فقط). وإذا لم يكن لورنتي يعرف وهو الذي شغل منصب الأمين العام لمحكمة التحقيق في مدريد فمن هو الذي يزيده معرفة؟[٢]

---

[١] طبقاً للمؤرخ اليهودي غراتس. Graetz, *History of the Jews*. Philadelphia, 1897, IV, p 356
فيما يقدّر المؤرخ إدوارد بيترز عدد من أمرت محاكم التحقيق بحرقهم بين عامي ١٥٥٠ و١٨٠٠ بنحو ٣٠٠٠ شخص.. Peters, Edward. *Inquisition*. (Berkeley: University of California Press, 1989) p 87

[٢] يقول كاردياك في «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ١٠٦-١٠٧: «يبدو أن عدد من احرق من الموريسكيين نسبياً أقل من عدد اليهود والبروتستانت، ولا شك أن مرد ذلك حتماً وجود قوانين العفو التي مُنحت للموريسكيين». ويستند كاردياك في هذا الاستنتاج إلى تصنيف انتقائي ورد في بعض وثائق التحقيق فمن بين ٤٨ شخصاً أحرقوا في مرسيّة عام ١٥٦٠ كان ٢٢ بسبب اليهودية و١٢ بسبب إسلامهم و٥ بسبب لوتريتهم و٧ بسبب تعدد الزوجات واثنان «بسبب الشتم الصادر عنهما». ويضيف انه من بين ١٧ شخصاً احرقوا عام ١٥٦٣ كان عدد المتهمين باليهودية ١٦ شخصاً والإسلام واحداً فقط. ويجب أن نلاحظ شيئين مهمين: الأول أننا لا نستطيع الجزم بأن البروتستانت والمتعددي الزوجات الذي احرقوا في الحالة المُساقة لم يكونوا أندلسيين إذ اعتنق أندلسيون كثيرون البروتستانتية لأسباب عدّة وأحرقوا بسبب ذلك. ويبدو لنا أن تعدد الزوجات تقليد أندلسي وإسلامي قبل ان يكون ممارسة غيرهم. والسليم في هذه الحالة، وبعد الاعتراف بأن معظم من كتب عن محاكم التحقيق كان أكثر خبرة وإطلاعاً على عمل تلك المحاكم مني بكثير، يجب القول إننا لا نعرف فعلاً كل شيء عن محاكم التحقيق لأن قسماً كبيراً من الوثائق اختفى أو أتلف وما معظم الباقي سوى اجتهاد مبني على أدلّة بعضها عَرَضي. وحسبنا هنا القول ان جميع الأندلسيين كانوا محل شبهة محاكم التحقيق، وتوجد أمثلة كثيرة على تسلّط العمّال على جل سكان القرى التي سكنتها غالبية أندلسية.

ويقول المؤرخ أوين تشادوك إن الفرنسيين عندما دخلوا إسبانيا عام ١٨٠٨ كلّفوا لورنتي مهمة ضبط أرشيف محاكم التحقيق فاستفاد من منصبه هذا لجمع مادة الكتاب الذي ألّفه في ما بعد. وعندما انسحب الفرنسيون غادر لورنتي البلاد معهم وظل خارج إسبانيا عشر سنوات وضع خلالها مرجعه المشهور ونشره في باريس بين عامي ١٨١٧ و١٨١٨. وأثار الكتاب استياء الكثيرين من الإسبان وحظرت محاكم التحقيق تداوله على الفور. ويضيف تشادوك: «إن ما ساقه لورنتي لم يكن عرضاً بلا انحياز لكنه كان العرض الأول حتى ذلك الوقت لشخص كانت بين يديه وثائق أصلية ولذا اعتبر هذا العرض مادة لا يمكن الاستغناء عنها».[١]

وحتى مع التسليم بأن مؤرخين مثل لورنتي وهنري تشارلز ليا (١٨٢٥-١٩٠٩) من بعده ربما بالغا في تصوير فظائع محاكم التحقيق الإسبانية يجب التأكيد أنهما لم يخترعا تلك الفظائع ولم يشهّرا بتلك المحاكم لأن شهرتها كانت ملأت الآفاق آنذاك. وهكذا تبقى تركة محاكم التحقيق تركة كاثوليكية وإسبانية ثقيلة، مثل تركة الحروب الصليبية المشرقية. ومن المهم التأكيد أيضاً أن الإسبان، وحتى معظم الأوروبيين قبل صعود البروتستانتية، لم يجرؤا على انتقادها أو الحديث عن جرائمها. لكن المؤيدين كانوا كثرة أحدهم هو المؤرخ الإسباني المعاصر لتوركيماده سباستيان دو أولميدو Sebastian de Olmedo الذي يصف توركيماده بأنه «المطرقة التي تضرب الهراطقة، ونور إسبانيا، ومخلّص الدولة، وشرف رهبانيته (الدومينيكية)».[٢]

ولا يبدو لي بعيداً جداً عن المنطق والقبول إقتراح تقدير اعتباطي سنوي لعدد من حكمت عليهم محاكم التحقيق الإسبانية كلّها بالحرق بنحو ٢٠٠ شخص فقط (عشرة لكل محكمة فرعيّة) على مدى النصف فقط من حياة هذه المحاكم التي استمرت ٣٥٦ سنة بمجموع يبلغ ٣٥,٦٠٠ ضحية، وهو رقم غير بعيد عن مجموع ضحايا المحاكم من اليهود والأندلسيين. ونجد أن مجموع الحرقى في مدينة مرسيّة الصغيرة مقارنة بغيرها من المدن الإسبانية، حسب احصاءات لورنتي، كان ١٣٢ شخصاً خلال سبع سنوات فقط بين ١٥٥٧ و١٥٦٣ (أي بمتوسط سنوي قدره ١٩ شخصاً) فيما كان عدد المعاقبين ٢٢٧ شخصاً خلال الفترة نفسها.[٣]

---

[١] Chadwick, Owen. *The Popes and European Revolution*, The Clarendon Press (Oxford, 1981) pp 530-531.

[٢] Chronicon Magistrorum Generalium Ordinis Praedicatorum, fol. 80-81

[٣] Llorente. *Historica critica*... II, pp 150-153.

وتظهر وثيقة لمحكمة التحقيق في طليطلة أن محصلة الضحايا بين عامي ١٥٧٥ و١٦١٠ كانت ٤١١ شخصاً منهم ١٧٤ شخصاً اتهمتهم المحكمة بممارسة الشعائر اليهودية، و٤٧ شخصا بممارسة البروتستانتية، إلا أن عدد المتهمين بممارسة الدين الإسلامي كان ١٩٠ شخصاً وهي نسبة لا تقل عن النصف كثيراً. ويبدو أن المتهمين بممارسة الإسلام كان يشكّلون جزءاً مهماً من المحكوم عليهم بالحرق حتى بعد أكثر من ١٠٠ سنة من تغريب الأندلسيين ولدينا مثال على ذلك في ما حدث عام ١٧٢٨ عندما قضت محكمة التحقيق في غرناطة بحرق ٧٣ من نسل الأندلسيين على دفعتين: الأولى في آيار (مايو) تألفت من ٤٥ أندلسياً إلى جانب عدد آخر من المتهمين بالهرطقة، والثانية في تشرين الأول (أكتوبر) حين أحرق ٢٨ أندلسياً. وجاء تنفيذ هذه العقوبة بعد عام تقريباً من التحقيق والتعذيب خضع لهما عدد من القساوسة والعسكريين والإداريين المسلمين ومجموعة كبيرة من المسلمات بعد مداهمتهم وهم يؤدّون الصلاة في منزل أحد الجماعة.

وتنقل الكاتبة جين بليدي[١] عن مؤرخ محاكم التحقيق الأميركي المشهور هنري تشارلز ليا عثور محاكم التحقيق في غرناطة على مسجد سرّي عام ١٧٦٩. ولا تشير الكاتبة إلى مصدرها، لكن نعرف أن المؤلف الأميركي بحث جيداً في أرشيف مدينة بلنسية، ولم يجد أي إشارة إلى اعتقال محاكم التحقيق أي موريسكيين خلال فترة امتدت ٤٠ عاماً بين ١٧٨٠ و١٨٢٠.

ومن المهم جداً استمرار كل الجهود الممكنة للوصول إلى تقدير فعلي لفداحة المأساة التي تعرّضت لها الأمّة الأندلسية الشهيدة في إسبانيا. والرقم النهائي من وجهة النظر هذه بالذات ليس مهماً فربما كان إحراق امرأة واحدة فقط أو رجل واحد فقط لأنه لا يريد أن يفكّر مثل الآخرين جريمة لا يمكن تسويغها في أي مكان وزمان. وربما وجب التفريق بين شيء مثل العنف وشيء مثل القسوة. إن العنف شيء مؤسف مهما كان سببه لكنه من طبيعة الإنسان كما يبدو. أما القسوة فشيء آخر. يوجد شيء شيطاني في القسوة، ويوجد شيء شيطاني في إصرار محاكم التحقيق على قتل الأمل الذي ظل بريقه في عيون الأندلسيين قوياً يخطف الأبصار على رغم كل شيء وحتى اللحظة الأخيرة. لهذا اعتبر الأندلسيون حكّام محاكم التحقيق «حلفاء الشيطان»، ولهذا رأوا في محكمة التحقيق مكاناً يحكمه «الشيطان الذي اتخذ من الخديعة والتضليل

---

[١] Plaidy, Jean. *The End of the Spanish Inquisition*, p 65.

مستشارين له» ولهذا قال أحد الأندلسيين لعمّال محاكم التحقيق «جلالة الملكة الكاثوليكية إيزابيلا ليست موجودة في الجنة كما يقول المسيحيون بل في الدرك الأسفل من جهنم لأنها أسست هذه «المظلمة»، ومعها اليهود الذين يجب ألا يخرجوا منها بل أن يبقوا تحت رحى الطاحونة التي تطحن رؤوسهم». [١]

٥ - نهاية محاكم التحقيق

قاد محاكم التحقيق الإسبانية الأساقفة أو الكهنة على رأس مجموعة ضمّت عدداً كبيراً من القساوسة والكهنوتيين لتحقيق هدف ديني هو ضمان نقاء (وبقاء) الكاثوليكية من خلال اضطهاد المسلمين والبروتستانت واليهود. إلا أن هذه المحاكم لم تكن مؤسسات دينية في كل تاريخها الطويل فارتبط نهوض هذه المحاكم بنهوض الملوك والملكات مثلما ارتبط هبوطها بهبوطهم. ويكاد تاريخ هذه المحاكم يعكس تاريخ الملوك وليس تاريخ الكنيسة الكاثوليكية التي كانت لا تزال قوية عندما خلع نابوليون بونابرت الملك الإسباني فرناندو السابع عام ١٨٠٨ ووضع مكانه أخاه جوزيف بونابرت. وبات واضحاً للفرنسيين وقتها ان محاكم التحقيق باتت شيئاً يجب أن يعود إلى الماضي الذي أتت منه فأصدر جوزيف بونابرت قراراً بالغاء محاكم التحقيق الإسبانية في واحد من أول القرارات التي اتخذها، وأمر بمصادرة أملاك محاكم التحقيق وسجلاتها، ثم تحرّك أخوه نابوليون فاعتقل البابا بيوس السابع وصادر السجلات البابوية وحبسه في فونتنبلو إلى حين اطلاقه عام ١٨١٤. [٢]

غير أن الإسبان الذين قبلوا حكم ملوك سلالة البوربون الفرنسية في القرن الثامن عشر لم يرتاحوا إلى الملك الفرنسي جوزيف، ووجد أصحاب واحدة من أكبر الامبراطوريات التي عرفها العالم أنفسهم فجأة أمّة مقهورة مُحتلة مغلوباً على أمرها مثل الأمّة الأندلسية فبدأوا شن حرب عصابات[٣] على الفرنسيين فلم يتمكنوا من

[١] المصدر السابق، ص ١٠٤، وما سيق هنا مقتطفات من كتابات تركها مؤلفون أندلسيون، والاقتطاف الأخير يُسند إلى مؤلّف أندلسي اسمه القشتالي خيرمينو دو روخاس.

[٢] نصب بيوس السابع نابوليون أمبراطوراً عام ١٨٠٤ وسلك معه نهجاً تصالحياً لحل المشكلة الدينية في فرنسا لكنّ نابوليون زاد في مطالبه فقاومه البابا. وعندما رفض الأخير الاشتراك في الحصار على إنكلترا، ثم رفض منحه الطلاق من جوزيفين صادر نابوليون الدويلات البابوية في إيطاليا عام ١٨٠٩ فحرمه من الكنيسة. واغتاظ نابوليون فحبس البابا فلم يخرج إلا قبل سنة من هزيمة نابوليون في واترلو في ١٨ حزيران ١٨١٥.

[٣] Gurrilla بالقشتالية هي الحرب الصغيرة، وشاعت الكلمة بترجمتها العربية وهي حرب العصابات.

إخراجهم. وما حدث بعد ذلك مثال على أن الدين لم يتقدم في معظم فترات التاريخ الإنساني على المصالح. وكان الإسبان يرفضون دفن أي شخص غير كاثوليكي في مقابرهم فإذا مات أحد هؤلاء كان الحانوتيون ينتظرون جزر البحر ليدفنوا غير الكاثوليك في رمل البحر المنحسر حتى اشتكى الصيادون من أن رفات هؤلاء يُلحق النجاسة بأقدامهم.[١] وحدث في حالات كثيرة جداً أن اعتقلت محاكم التحقيق الإسبانية البروتستانت في أي مكان ومن هؤلاء بحارة وتجار ومسؤولون وأعيان أجانب كبار كانوا في سفن غرقت أو هُوجمت أو جاؤوا إلى إسبانيا والمستعمرات التابعة لها لتجارة أو في مهمة رسمية. لكن الأحوال تغيرت في القرن التاسع عشر فكان على الكاثوليك الإسبان طلب مساعدة الانكليز البروتستانت لتخليصهم من نابوليون الكاثوليكي مثلما عادوا في مطلع القرن الثامن عشر إلى الاستعانة بالفرنسيين لاخراج الانكليز من مستعمرة جبل طارق من دون أن يحقق الجانبان أي نتيجة.

وتمكن الإسبان بمساعدة الانكليز من إخراج الفرنسيين عام ١٨١٤ وعاد فرناندو إلى عرشه فأعاد تأسيس محاكم التحقيق في السنة ذاتها بموافقة البابا بيوس السابع. ووجد الملك أن معظم ممالكه الإسبانية في أميركا اللاتينية استغلت الحرب ضد الفرنسيين واعلنت انفصالها فجمع فرناندو جيشاً في مدينة قادس لإرساله لاخضاع تلك الممالك فرفض الجيش تنفيذ الأوامر وثار على الملك عام ١٨٢٠. وتحولت هذه الثورة العسكرية إلى انتفاضة شعبية واسعة النطاق، وهاجم الناس سجون محاكم التحقيق وأطلقوا السجناء وأحرقوا بعض السجلات. ولما اتسع نطاق الثورة استنجد فرناندو بالفرنسيين فدخلوا البلاد ثانية عام ١٨٢٣ وأخمدوا الثورة. وحاول فرناندو احياء محاكم التحقيق لدعم سلطته لكن الفرنسيين عارضوا الخطوة في صورة حاسمة ومنعوه من ذلك. لكن هذا لم ينه محاكم التحقيق التي استمرت تنشط بصلاحيات محدودة تحت اسم جديد هو «عُصب الإيمان» Juntas de fè.

وخلال السنوات الأخيرة من حكم فرناندو فقدت محاكم التحقيق الإسبانية قيمتها ومبررات وجودها، واستجلبت لنفسها العداء والكراهية عندما اعتقلت معلماً شاباً اسمه Cayetano Ripoll عام ١٨٢٤ واتهمته بالهرطقة وعذّبته وحكمت عليه بالحرق. وارتفعت أصوات كثيرة تطالب بالافراج عن هذا المعلم الشاب لكن المحكمة مضت في قرارها فأعدمته شنقاً في ٢٦ تموز (يوليو) عام ١٨٢٦. وكانت المحكمة تريد إحراقه

---

[١] سمح الإسبان بإقامة أول مقبرة بروتستانتية في مالقه سنة ١٨٣٠ لدفن الإنكليز الذين قاتلوا الفرنسيين إلى جانبهم. أنظر: . *Spain*, (The Mainland), Ian Robertson Ed., Benn, (London 1975) p 471

بعد ذلك لكنها لم تستطع بسبب المعارضة الأوروبية . ويقدم لنا الفرنسيون وصفاً لمشاهداتهم في قصر محكمة التحقيق في مدريد هو الأخير المتوافر . إذ دفع الفضول بعضهم إلى دخول المحكمة فطافوا في أرجائها لكنهم لم يجدوا زنازين التعذيب التي سمعوا عنها الكثير فساورتهم الشكوك من زعم دليلهم أن الزنازين غير موجودة . واكثر هؤلاء البحث إلى أن استوقفهم أنين أتاهم من تحت البلاط فنزعوه فوجدوا سلماً نزلوا عليه إلى القبو . ويزعم الفرنسيون انهم وجدوا بعض الضحايا أحياء وكانوا يعيشون على لحم زملائهم الموتى .

وفي عام ١٨٣٣ مات الملك فرناندو وتجددت الضغوط على الملكة الوصيّة لالغاء «عصب الإيمان» فاستجابت لذلك عام ١٨٣٥ . وبتلك الخطوة التي طال انتظارها أغلق التاريخ دفتره على واحدة من أسوأ الحقب التي عرفها العالم وأكثرها شروراً وشيطانية ، إلا أن ثاني أشهر محكمة تحقيق عرفها العالم وأحرقت أو اضطهدت في تاريخها الطويل عدداً من الضحايا من بينهم بعض أشهر المفكرين والعلماء في عصر النهضة الأوروبي لا تزال معنا حتى اليوم .

محكمة التحقيق الرومانية (البابوية)

في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٩٨ دعا البابا يوحنا بولس الثاني البولندي المولد مجموعة من المؤرخين والدارسين إلى حضور حلقة دراسية في روما للبحث في تركة محاكم التحقيق وتحديد مسؤولية البابوية والكنيسة الكاثوليكية عن قيام تلك المحاكم التي مزّقت المجتمعات وأججت العداء بين الأديان والمذاهب وتسببت في إحراق ألوف الابرياء ومصادرة حريات وأملاك عشرات الألوف غيرهم خلال تاريخها الاضطهادي الشرير الذي يمكن اعتباره ملازماً لتاريخ الاضطهاد المؤسساتي المنظّم الذي تبنّته البابوية آنذاك . وكان يوحنا بولس الثاني اعتذر للبروتستانت عن الأذى الذي لحق بهم في القرن السادس عشر وما بعده على يد الكاثوليك ، وكان يريد الآن نقل الكنيسة إلى الألفيّة الثالثة وقد تخلّصت من تركة محاكم التحقيق ، أو عرفت ، على الأقل ، حجم مسؤولياتها وأبعادها والتأكد من ذلك تماماً قبل طيّ تلك الصفحة السوداء . وفعل البابا شيئاً ملفتاً ، وطرح سؤالاً ملفتاً أيضاً . فتح أرشيف الفاتيكان الذي ظل مُغلقاً في الماضي في وجه الدارسين باستثناء من اطمأنت إليهم الكنيسة ، ثم سأل المجتمعين في الحلقة الدراسية إذا كان على البابوية الاعتراف بجزء من مسؤوليتها عن قيام محاكم التحقيق وتقديم الاعتذار الرسمي النهائي .

وتباينت الآراء كالعادة. فمن المؤرخين من برّأ ذمة البابوية وقال انها ليست مسؤولة عما حدث، ومنهم من قال غير ذلك. من الجماعة الأولى برز الكاتب اليهودي هنري كامن الذي نشر عام ١٩٩٨ كتاباً بعنوان: «محكمة التحقيق الإسبانية - مراجعة تاريخية» قال إنه جاء نتيجة ٣٠ سنة من البحث، مع أن هذا الكتاب الجديد (٣٤٠ صفحة) يبدو لي تحديثاً لما جاء في كتاب قديم نشره عام ١٩٦٥. وتُرجم الكتاب الأول إلى الفرنسية والإسبانية وغيرها لأنه تضمّن دفاعاً قوياً عن محاكم التحقيق، وقلص عدد الضحايا، ونقض عموماً المنهجية البحثيّة التي اعتمدها مؤرخون عظام كتبوا مجلدات كاملة عن محاكم التحقيق اعتماداً على كمّ هائل من الوثائق الأصليّة التي لم يطلع عليها كاتب من قبلهم مثل الإسبانيين خوان انطونيو لورنتي Juan Antonio Llorente، وفيديل فيتا Fidel Fita، والأميركي هنري تشارلز ليا Henry Charles Lea وغيرهم. أما الكتاب الجديد الذي أصدره كامن فهو من أكثر الكتب التي يقتطف منها المؤلفون الكاثوليك خلال دفاعهم عن محاكم التحقيق أو التقليل من ممارساتها الشيطانية أو الزعم بأن هدفها المسلمون وليس اليهود أو البروتستانت.

والخروج على الشائع والمألوف والثابت يدعو دائماً إلى الإنصات إلى قائله لأن الناس لا يسمعون إلا صوت مفصلات الأبواب الصدئة، لذا وجد كامن أن اعتذار الكنيسة البابوية عن جرائم محاكم التحقيق «ليس ضرورياً لأن الكنيسة غير مسؤولة عن معظم الاضطهاد في تاريخ أوروبة». وضرب كامن مثالاً لتأكيد رأيه فقال إن الناس كانوا يقولون إن ٣٠٠ شخص أحرقوا على يد محاكم التحقيق (في فعل إيماني واحد كما كانت محاكم التحقيق تسمّي عملية الإحراق) فإذ البحث يبيّن أن ثلاثة فقط أحرقوا فعلاً فيما جرى إحراق ٢٩٧ شخصاً ممثلين بالرموز». وفيما يرى أن أعمالاً مثل تلك التي قدمها لورنتي وليا تتمتع بأهمية كبيرة، يرى أيضاً أن البحث في الوثائق الأوليّة خارج نطاق إطارها الملائم يمكن أن يُضلّ بل انه يُضلّ فعلاً لأن ذلك يشبه محاولة وضع تاريخ الشرطة من دون معرفة الكثير عن محيط عمل الشرطة من مجتمع وقوانين ومؤسسات.

ويشترك كامن في بعض آرائه مع مؤرخين يهود كتبوا في محاكم التحقيق، مثل إيليس رفكين Ellis Rivkin وبنزيون نتانياهو Benzion Netanyahu، ويختلف في أخرى. ويرى بعض المؤلفين ان الاستنتاج بأن اليهود المتنصرين في إسبانيا كانوا يتصرفون كمسيحيين بين المسيحيين الإسبان لكنهم كانوا يعودون إلى بيوتهم فيتصرفون كيهود يجعل اولئك اليهود المتنصرين أمّة من المرائين والممالقين والمخادعين.

وهذا دافع خاص، ذلك ان مؤرخين آخرين نظروا إلى محاكم التحقيق من المنظار التاريخي المعروف والشائع ومن هؤلاء البروفسور الأميركي وليام منتر William Menter الذي رأى انه لا يمكن القول ان البابوية لم ترتكب الخطأ الذي ارتكبته (في ما يتصل بمحاكم التحقيق)، مهما كانت طبيعة الخطأ. ومضى البروفسور الأميركي مارفن لانينفيلد Marvin Lunnenfeld إلى أبعد من ذلك عندما قال إن محاكم التحقيق «كانت محاكم متوحشة، وارتكبت على الأرجح كل الفظائع التي نُسبت إليها».

ولا بأس في مخالفة الشائع المعروف ليس من منطلق تأييد الرأي بل تأييد الحق في إبداء الرأي. فهدفنا في هذا الكتاب ليس إنصاف محاكم التحقيق ولا البابوية ولا كارلوس الخامس وفيليب الثاني لأن لهؤلاء جيوشاً من المؤلفين والمؤرخين الذين نصروهم في الماضي وسينصرونهم في المستقبل، بل هدفنا إنصاف الأندلسيين من دون أي تحامل. والمشكلة هنا ليست مشكلة رأي فحسب بل مشكلة إخلاقية وإنسانية وقانونية أيضاً. إن محاكم التحقيق لم تعترف بمبدأ عام هو العدل الطبيعي بل اعتمدت الإدانة بالشبهة وبوشاية الواشين، وكان مستحيلاً على معظم ضحاياها أن يبرهن على براءته أو أن يأتي بمن يشهد معه فينتهي عادة بالاعتراف بكل ما يريد عمّال المحاكم منه الاعتراف به. إن مثل هذه المحاكم يجب ألا يقوم مرة أخرى مهما كان السبب، ولا نعرف طريقة لتحقيق مثل هذا الهدف سوى الحديث عن ممارساتها واخطائها وإخفاقها الهائل بعد كل الجهود التي صرفتها، وتوعية الناس كي يقفوا في وجه المدافعين عنها أو الداعين إلى إحيائها. لقد أوردنا شيئاً بسيطاً عن الضحايا الذين أحرقتهم محاكم التحقيق وعذبتهم وحكمت عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة وغيرها، وهناك عشرات الآلاف غيرهم تورّطوا مع هذه المحاكم وخرجوا بلا عقاب لكن جروحهم النفسانية ظلت معهم. وربما شدّت ممارسات محاكم التحقيق المسيحيين إلى الكنيسة لكنها دفعت مئات الألوف وربما الملايين للكفر بالحضارة التي تؤيّد مثل هذه المحاكم، والشعور بعبثية الحياة والحتفيّة واليأس من مستقبل الإنسانية أو صلاح البشر.

لقد انتهت الحلقة الدراسية التي دعا إليها البابا يوحنا بولس الثاني إلى اعتذار الكنيسة عما فعلته محاكم التحقيق «لأن مفاهيم العدل آنذاك لا تتفق ومفاهيم العدل الحديثة»، لكن محكمة التحقيق الرومانية (البابوية) لم تنته إلا في شكلها القديم الذي لم يواجه فقط الهراطقة البروتستانت بل علماءً ومفكرين عظاماً مثل جيوردانو برونو Giordano Bruno (١٥٤٨-١٦٠٠) وغاليليو غاليلي Galileo Galilei (١٥٦٤-١٦٤٢). ففي عام ١٩٦٥ أعاد البابا بولس السادس تنظيم المكتب المقدس (أي محكمة

التحقيق المقدسة) فأسماه «اللجنة الخاصة بتعاليم الإيمان» Congregation for the doctrine of the faith.

ولا يزال هذا الكيان معنا إلى اليوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

التركة الاخلاقية الثقيلة لمحاكم التحقيق الإسبانية

إذا كانت الأمور بخواتيمها لا شك أن محاكم التحقيق الإسبانية خسرت معظم الحروب التي خاضتها مع أصحاب الديانات السماوية الأخرى فلم تتمكن من تنصير القسم الأعظم من الأندلسيين، ولم تتمكن من قهر اليهودية التي نمت في المناطق التي هاجر إليها اليهود، ولم تتمكن من وقف مدّ البروتستانتية. وربما أمكن القول ان هذه القوى الثلاث هي التي تسببت في نهاية المطاف في تقويض أركان الامبراطورية الإسبانية وحولتها إلى دولة من الدرجة الثالثة. وفيما أدى تغريب معظم الأندلسيين إلى انهيار الاقتصاد الزراعي في أكثر الأرياف الإسبانية خصوبة خصوصاً في مناطق الشمال الشرقي حيث أرغون والجنوب حيث غرناطة، ساهمت ملاحقة البروتستانت الهولنديين والانكليز في لجوئهم إلى البحار بعيداً عن الجيوش الإسبانية ومحاكم التحقيق، وتطوير القوة البحرية التي حطمت في ما بعد الأساطيل الإسبانية وعرقلت التجارة وانتقال الفضة والذهب من أميركا اللاتينية إلى إسبانيا. وكانت المواجهة بين إسبانيا الكاثوليكية وانكلترا البروتستانتية في عام ١٥٨٨ وما بعدها من أهم أسباب إضعاف إسبانيا. كما أدى استمرار اضطهاد البروتستانت على يد الكاثوليك الفرنسيين إلى رحيل نحو ٢٠٠,٠٠٠ من الأوغنو البروتستانت إلى انكلترا وهولندا واميركا حملوا معهم بعض أفضل المهارات التي عرفتها فرنسا. أما اليهود فتابعوا امتصاص القدرات المالية لإسبانيا من منافيهم في السلطنة العثمانية وهولندا وانكلترا، وساهموا مع غيرهم من المتمولين الدوليين في إقراض الملوك الإسبان بفوائد كبيرة أثقلت كاهل الخزانة ووجدت الحكومة الإسبانية نفسها تعلن إفلاسها مرة بعد الأخرى. ولعل أشهر، وأغرب، حادثة في هذا الخصوص تلك التي وقعت في عصر إيزابيلا الثانية التي حكمت بين ١٨٣٣ و١٨٦٨ عندما اقترضت الحكومة الإسبانية من الممول اليهودي خوان الباريث منديثابال Juan Alvarex Mendizabal مبالغ ضخمة لم تستطع سدادها فعمدت عام ١٨٣٦ إلى مصادرة أموال وممتلكات الأديرة في البلاد.

وحققت إسبانيا للكاثوليكية في أميركا اللاتينية والفلبين ما لم تحققه دولة أخرى عبر المزيج القشتالي المعروف من التبشير الخالص والبطش العسكري وإرهاب محاكم

التحقيق. لكن هذا المزيج حرم الكاثوليكية من مئات الملايين من المسيحيين الأوروبيين. وخلال ٤٠ سنة من إعلان حركة الاصلاح الدينية المسيحية البروتستانتية انتشر معتنقو هذا المذهب في النصف الشمالي من أوروبة وارتفع عدد البروتستانت بمشاربهم المختلفة الكثيرة من بضع عشرات يوم قرر كارلوس الكاثوليكي إهدار دم لوتر إلى اكثر من ٣٨٠ مليون شخص.[١] إلا أن هذا الانفصال لم يكن انفصالاً دينياً فقط إذ أحدثت الحركة البروتستانتية شيئاً قريباً من الثورة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الدول التي انتشرت فيها.

ومن خلال تركيز البروتستانتية على التعليم القائم على المعارف اليونانية والرومانية، وتشديدها على أهمية العمل باعتباره «تكليفاً من الرب ومحيط إيمان الإنسان»[٢]، تحسنت انتاجية البروتستانت وارتفع مستواهم التعليمي ووضعوا الأرضية الاقتصادية والعلمية والاجتماعية التي ساهمت في المراحل التالية، وبتوافر عوامل كثيرة أخرى، في انقسام أوروبة إلى قسمين: قسم بروتستانتي متطوّر في الشمال وقسم كاثوليكي متخلف، أو أقل تطوراً، في الجنوب. وامتد هذا التباين إلى العالم الجديد واتسعت مع الزمن الهوة هناك حتى أصبح الوضع على ما نعرفه الآن: قسم شمالي يمثّل في الولايات المتحدة (نحو ٢٠٠ مليون بروتستانتي[٣]) أعلى درجات التطوّر الصناعي والاقتصادي، وقسم جنوبي، أو لاتيني، متخلف أو أقل تطوراً من الشمال بشوط كبير؛ نظام إقطاعي هنا، ونظام رأسمالي هناك. وما ينسحب على الوضع الإقتصادي ينسحب أيضاً على الوضع السياسي إذ دعم البروتستانت في الدول التي كانوا فيها أقليّة في البداية إقامة النظم السياسية الديمقراطية لحماية أنفسهم. وترسّخ هذا النظام السياسي مع الزمن فانقسمت أوروبة حتى عهد قريب إلى أنظمة

---

[١] يُقدر عدد اتباع الكنيسة النصرانية الشرقية بنحو ١٧٠ مليون شخص فيما يقدّر اتباع الكنيسة الكاثوليكية بأكثر من بليون شخص، ولها نشاط تبشيري كبير في عدد من مناطق أفريقية وآسيا. وهناك تقديرات عدّة لعدد المسلمين تراوح بين بليون و١,٣ بليون شخص. أما الجزء الباقي من أكثر من ستة بلايين شخص فيدينون بآلاف الأديان ومنها البوذية والكنفوشية والشنتو (في اليابان خصوصاً) والطاوية.

[٢] لابن خلدون مفهوم قريب من هذا حين يقول إن «الكسب هو قيمة الأعمال البشرية». «المقدمة»، طبعة دار ومكتبة الهلال (بيروت)، ص ٢٤١.

[٣] من الملفت استمرار وجود عداء قوي للكنيسة الكاثوليكية ومحاكم التحقيق في الولايات المتحدة حتى اليوم إذ تصدر دورياً طبعات جديدة لكتاب مشهور هو «كتاب الشهداء» *Book of Martyrs* وضعه عام ١٥٦٣ مدرس انكليزي روى فيه معاناة البروتستانت خلال عهد الملكة ماري الكاثوليكية زوجة فيليب الثاني. ولداعية أميركي اسمه صموئيل ديكنسون برتشارد Samuel Dickinson Burchard قول مشهور أطلقه عام ١٨٨٤دان فيه الثالوث: الرم (شراب كحولي)، والرومانية (أي الكنيسة الرومانية)، والعصيان. Rum, Romanism and Rebellion.

ديمقراطية في الشمال وانظمة دكتاتورية، أو أقل ديمقراطية، في الجنوب.

وحدث الشيء نفسه في العالم الجديد فتبنّت الولايات المتحدة نظاماً ديمقراطياً فيما ابتلي معظم دول أميركا اللاتينية بأنظمة عسكرية ديكتاتورية لم تتخلص منها إلا في عهد قريب، كما حدث تماماً في إسبانيا والبرتغال، ولا تزال حرية التعبير مكبوتة في كثير من دول أميركا اللاتينية، ولا يزال الناس يختفون بين الحين والآخر لأسباب سياسية، ولا يزال منظمو المذابح الجماعية يعيشون في تلك الدول بأمان.

وكانت المانيا البروتستانتية من بين أولى الدول التي فرضت التعليم الاجباري في المرحلة الابتدائية. وشجع انتشار التعليم والديمقراطية والانتعاش الاقتصادي على الإبداع الفردي فقدّمت دول شمال أوروبة وأميركا الشمالية عدداً كبيراً من النوابغ الذين كانوا وراء معظم الاختراعات والابتكارات التي عرفها العالم خلال السنوات المئة والعشرين الماضية.

ولم يكن إخفاق ثالوث محاكم التحقيق والسلطة والكنيسة الكاثوليكية الإسبانية في إلغاء إسلام الأندلسيين أقل من إخفاق الثالوث نفسه في وقف انتشار الحركة البروتستانتية، لذا لم يبالغ الكاتب الأندلسي محمد القصير عندما سجّل في تونس بعد تغريبه إليها في مطلع القرن السابع عشر أن الأندلسيين لم يتخلوا مطلقاً عن عقيدتهم الإسلامية بعد ١٠٠ عام من احتلال المسيحيين إسبانيا على الرغم من قيام محاكم التحقيق بإحراقهم لأنهم عرب، و«هكذا توضح عملية التغريب النهائية للأندلسيين من إسبانيا قطعاً أن محاكم التحقيق فقدت كل أمل في الانتصار على الموريسكيين وخسروا كل المعارك في حمل الموريسكيين على عبادة أصنامهم اختياراً». [1]

وكفى الأندلسيين جهادهم للمحافظة على دينهم وعروبتهم، إلا أن عدداً منهم كان يطمح إلى أكثر من ذلك بكثير فسعى إلى محاولة إقناع بعض النصارى القشتاليين بالدخول في الإسلام. ونعرف أن الخشية من إقناع الأندلسيين العبيد الأفارقة بدخول الإسلام كان السبب في مراسلات بين محكمة التحقيق في غرناطة وبلاط الملك فيليب الثاني اصدر بموجبها مرسوماً ملكياً منع الأندلسيين من استخدام هؤلاء العبيد. وتكشف إحدى وثائق محاكم التحقيق حالة مدهشة إذ أدخل عمّال محكمة التحقيق في طليطلة عام ١٦٠١ أندلسياً نعرفه باسم خيرينومو دي روخاس سجن المحكمة للتحقيق معه لكنه ما أن استقر فيه حتى بدأ حواراً مع عدد من النصارى المساجين مثله وراح يشرح لهم تعاليم الدين الإسلامي وكان «يقول لهم انه يرغب في إنقاذ

[1] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ١٠٠-١٠١.

أرواحهم، وإن الله سوف يبصرهم وينقذهم من العمى والجهل اللذين يحيطان بهم» .[1]

لقد انتهت محاكم التحقيق وصارت قصورها متاحف في إسبانيا وبعض مدن العالم الجديد وضاع قسم كبير من ملفاتها أو أتلف، وعارضت البابوية الحديثة إنشاءها لكن فقط على أساس أن ممارساتها لا تتماشى ومفاهيم العدل السائدة في العصر الحديث، وصارت أدوات التعذيب التي كان عمّالها يستخدمونها مادة غنية للمسرحيات والأفلام الفكاهية. إلا أن تركة تلك المحاكم لا تزال قائمة حتى اليوم، واستطاعت إبقاء قدر معين من سمومها في العلاقات بين أبناء الأديان المختلفة بعد مضي مئات من السنين على إنشائها. واستغل الملوك والأباطرة الدين في حالات كثيرة لتحقيق مصالحهم أو للتخلص من خصومهم إلا أن هذا الاستغلال لم يتحول إلى جهد مؤسساتي منتظم إلا في قشتالة. ونجد في كارلوس الخامس ثم في ابنه فيليب الثاني بعده محاولتين بائستين لفرض نظام ملكي متخشّب ينتمي إلى عصر الظلمات على عالم بدأ يفيض بحيوية عصر النهضة ونوره، فتقوض حلمهما بصنع المملكة الكونية الإسبانية الواحدة تحت ثقل السيف الذي حملاه وتقوضت معه أركان المملكة التي صنعاها.

إن قصة محاكم التحقيق قصة فشل في النهاية لكنها كانت قصة نجاح أيضاً لأنها ظلت حية بعد موت المملكة التي صنعتها، وكان على الفرنسيين في القرن التاسع عشر التدخل ودفعها في اتجاه تابوتها النهائي. لقد أقحم الملوك الدين لخدمة مصالحهم في الماضي وسيقحمون الدين في المستقبل لخدمة المصالح الشخصية نفسها، لكن لا نعرف حتى الآن سلالة غير سلالة ملوك إسبانيا استغلت الدين في الصورة التي نعرفها، ولا نعرف ملوكاً غير ملوك الإسبان صنعوا من رجال الكنيسة الكاثوليكية إرهابيين وخبراء في التعذيب ومصادرة الاموال والممتلكات، ولا نعرف غير ملوك الإسبان نزعوا من صدور القساوسة والكردينالات مبدأ الرحمة وزرعوا مكانه مبدأ الاضطهاد. ولا نعرف غير ملوك الإسبان حوّلوا الأديرة التي يُفترض أن تكون بيوت الله إلى بيوت لتعذيب الرجال والنساء أكثر من ٣٥٠ عاماً. ولا يضيّع الوعاظ الكاثوليك فرصة لتذكير الناس في الكنيسة وخارجها بالاضطهاد الذي تعرّض له النصارى الأوائل على يد أباطرة الرومان، ولا تفوتهم التفاصيل الصغيرة التي تروي كيف كان بعض اولئك الأباطرة يأمرون بوضع المسيحيين في المدرجات ويطلقون عليهم الأسود الجائعة ثم

[1] أعلاه، ص ٧٩.

يجلسون للتفرج على هذا المشهد المأساوي وهم يأكلون ويشربون. لكن ما الفرق بين هؤلاء الأباطرة وبين أباطرة إسبانيا؟ ألم تجلس إيزابيلا وفيليب الثاني وغيرهما أيضاً للتفرج على إحراق المتهمين بالهرطقة في اشبيلية وبلد الوليد ومعهم إسبان كثيرون جاؤوا إلى هذه «المهرجانات»؟ ما هو الفرق بين الانتهاء في أحشاء أسد جائع أو في أحشاء نار لاهبة لا سبيل إلى الهروب منها ولا أمل؟.

وربما كان اتهام ملوك إسبانيا بارتكاب كل تلك الجرائم تضييقاً لمساحة المسؤولية. لكن يجب الانتباه إلى أن الكثير مما فعلوه كان استجابة لمطالب الجماهير والكنيسة. ولنا ان نتساءل: من هو الأسقف الذي عارض حرق الناس؟ ومن هو الكاتب أو المفكّر الإسباني المعاصر لتلك الفترة الذي انتقد ممارسات محاكم التحقيق؟ سيرفانتس الذي ينتمي إلى أسرة الفكر العالمي؟ لا! سيرفانتس كتب ما يريد الرأي العام قراءته وسوّغ أعمال محاكم التحقيق وشجّعها عندما قال: «إن إسبانيا ترعى وفي أحضانها نفس العدد من الثعابين والموريسكيين».[1] لكن هذا لا ينطبق على الإسبان فقط، فقلة هي التي انتقدت محاكم التحقيق في عصرها سواء قامت في روما أو في فرنسا أو ألمانيا أو البرتغال. والذي يمكن قوله من موقعنا في مطلع القرن الواحد والعشرين ومطلع الألفية الثالثة إن الملوك الإسبان حملوا الخنجر الذي زرعوا نصله في أحشاء خصومهم وهم يرتدون العباءة الكاثوليكية وأساؤوا إلى تاريخ إسبانيا وإلى انفسهم مثلما أساؤوا إلى السلطة الدينية الكبرى التي اعطت محاكم التحقيق الإسبانية شرعية التأسيس البابوية ودعمها ونفوذها الديني والمعنوي.

وكسبت الكاثوليكية بجهد الإسبان الملايين في أميركا اللاتينية لكنها خسرت أيضاً الملايين في أوروبة بجهد الإسبان أنفسهم. وكانت محاكم التحقيق تركة ثقيلة في كل مكان قامت فيه لكنها كانت أيضاً تركة ثقيلة لإسبانيا وتركة ثقيلة للبابوية لا تزال تحاول التخلّص من شوائبها إلى اليوم. لقد تركت الأمم الكبيرة وراءها دائماً شيئاً من المعالم الحضارية التي أضيفت إلى مكنز الحضارة العالمي. حتى الرومان الذين تفوق بعض أباطرتهم على نفسه الشريرة في إظهار الوجه البشع للإنسان تركوا جسوراً وطرقات وقنوات مياه وقوانين ولغة ومعالم حضارية أخرى لا تزال حيّة بعد ١٥٠٠ سنة من انقراضهم كأمبراطورية. وكان من الممكن أن يبني ملوك الإسبان من مصادر قوتهم وتميزهم المؤسسات التي يمكن أن تساعد إسبانيا على الوقوف في وجه العواصف التي دهمتها بدلاً من التخلّع والإنهيار أمامها. لكن هؤلاء الملوك لم يبنوا المؤسسة في كثير

[1] Cervantes, Coloquio, p 319

من الحالات لأنهم كانوا أنفسهم المؤسسة، وعندما تمكنوا من بناء المؤسسة الوحيدة التي استمرت من بعدهم كانت هذه المؤسسة محاكم التحقيق.

وربما تحتّم على الإنسان أن ينسى في النهاية كي يستطيع الاستمرار لكن النسيان بلا معرفة طريق آخر إلى الوقوع في الخطأ نفسه، لذا قبل أن ينسى عليه أولاً أن يعرف حجم المأساة. ولا نستطيع القول إن المعلومات القليلة المتوافرة اليوم كافية، لذا سيستمر التذكر والتذكير والاستذكار إلى أجل غير مسمى. ومن المؤسف والمحزن معاً أن شبه جزيرة آيبرية التي قدمت للعالم في صورتها الأندلسية واحداً من أبرز الأمثلة على إمكان تعايش أصحاب الأديان المختلفة في دولة واحدة والمساهمة معاً في صنع الحضارة العظيمة في شبه جزيرة آيبرية هي نفسها التي قدمت في صورتها الإسبانية واحداً من أبرز الأمثلة على إخفاق تعايش أصحاب الحضارات والأديان المختلفة في دولة واحدة، واختيار الاستئصال بدلاً من التعايش والاضطهاد بدلاً من التسامح. إن النظر إلى هاتين التجربتين بالذات يمكن أن يقود إلى الاستنتاج بأن قراءة التاريخين الأندلسي والإسباني، بل وقراءة تاريخ شعوب كثيرة غيرهما، تثبت أن العرب وحدهم كانوا قادرين في الظروف المواتية على انشاء الدولة التي تضم اتباع الأديان السماوية الثلاثة. اثبتوا ذلك في الأندلس، واثبتوا ذلك في مملكة غرناطة، وأثبتوا ذلك في المغرب ومصر وسورية والعراق وظلوا في عمومهم أوفياء لهذا المبدأ حتى اليوم. أما تاريخ الأديان عند كثير من الأقوام الأخرى فما هو في الواقع سوى تاريخ الحروب والاضطهاد.

❋ ❋

الفصل الخامس

تغريب الأندلسيين من اسبانيا

١ – مأساة الأمّة الأندلسية قبل التغريب

تتجلّى مأساة الأمّة الأندلسية الشهيدة في انقطاعها عن باقي الأمتين العربية والإسلامية خلال صدامها مع إيزابيلا وكارلوس الخامس وفيليب الثاني ثم فيليب الثالث في مرحلة من أكثر مراحل التاريخ إضطراباً. وسيطر الصراع بين العثمانيين ومعظم الأوروبيين، بمن فيهم الإسبان، على أحداث القرنين السادس عشر والسابع عشر. لكن عين الإسبان، واسلحتهم أيضاً، كانت موجهة إلى الفرنسيين الواقفين للتوسع الإسباني بالمرصاد، وإلى البرتغاليين سعياً وراء فرصة يُمكن اقتناصها لأخذ بلدهم الصغير، وإلى عرب المغرب لاعتماد بعض مدن الساحل المغاربي نقاط دفاع متقدمة ضد العثمانيين، ثم جاءت حركة الإصلاح الديني اللوترية وبدأت تهدد ممالك إسبانيا في هولندا وألمانيا والعالم الجديد.

وكان الأندلسيون، في رأي القسم الأكبر من الإسبان، القاسم المشترك الأعظم بين كل أعدائهم. فهم مسلمون مثل العثمانيين، وعرب مثل أهل العدوة، وأنصار لفرنسا وفقاً للقول المشهور «عدو عدوي صديقي»، وإخوان الشقاء مع الهولنديين البروتستانت الذين خاضوا معركة دامية مع إسبانيا للحصول على استقلالهم استمرت ٨٠ سنة. وكان الأندلسيون في إسبانيا أقليّة كبيرة لا يُستهان بها وملكوا معرفة جيدة بأحوال البلاد ومنافذها لذا كانوا، في نظر الإسبان وعلى حد قول محدث منهم هو الدكتاتور فرانكو، «طابوراً خامساً» مستعداً للتعاون مع أعداء إسبانيا للخلاص من الاضطهاد الذي عانوا منه فتحينوا فرصهم دائماً. وفهم بعض ملوك إسبانيا هذا الوضع فحاولوا تخفيف الاضطهاد والتشدّد خلال فترات الاستقرار الداخلي والخارجي. لكن هذه الفترات كانت قصيرة جداً، وبدأ ارتفاع حدّة الضغوط ضد الأندلسيين داخلياً يواكب ارتفاع حدّة الضغوط الخارجية، ثم استقرت هذه الضغوط في مستوى مرتفع اعتباراً من بدء الحرب ضد البروتستانت في نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر. وحدث هذا لاحقاً، ففي السنوات القليلة التي اعقبت القضاء على الثورة الأندلسية الأولى لم تصل الضغوط الخارجية إلى الحد الذي كان معه التضييق الكبير على الأندلسيين ضرورياً. وكانت جماهير قشتالة آنذاك مبهورة من

سرعة استجابة إيزابيلا لمطالبها بتمزيق المجتمع اليهودي وتمتّع المجتمعات القشتالية المحيطة بمملكة غرناطة بالفورة الاقتصادية التي ولّدتها الحرب الطويلة مع المملكة العربية لذا كانت الجماهير تخرج في الطرقات وتغني: «مهما ارتفعنا ومهما علونا ستبقى إيزابيلا وفرناندو أعلى منّا».[١]

ويجب القول إن الذي كان يُناسب المجتمع القشتالي في المئة سنة التي تلت تسليم غرناطة لم يكن يناسب المجتمع الأندلسي. ويجب القول إن المجتمع القشتالي هو الذي استفزّ الأندلسيين لإعلان الثورة الأولى ثم لإعلان الثورة الكبرى. ويجب القول كذلك إن الملوك الإسبان الذين كتبوا مراسيم العفو عن الأندلسيين هم أنفسهم الذين كتبوا مراسيم العقوبات بالحبر نفسه، وإن الكاهن الذي كان يحاول أن يقنع الأندلسي في الكنيسة بفضيلة إدارة الخد الأيسر ينتمي إلى المؤسسة نفسها التي ينتمي إليها من كان يضرب الأندلسي في أقبية التعذيب تحت قصور محاكم التحقيق على خده الأيمن ثم الأيسر، ثم يركله بهذه القدم ثم تلك قبل أن يبدأ التعذيب الحقيقي بعد ذلك. كيف كان الأندلسي المسكين يستطيع أن يتصوّر الشخصيتين في شخصية واحدة وهو يرى فيهما الشيء ونقيضه؟ كيف كانت الأندلسيّة ستقتنع بقول القسيس إن الكنيسة محل الرحمة فيما هي تعرف أن الدير القريب منه قصر محكمة التحقيق التي لا تفرّق بين رجل وأمرأة، ولا شاب وعجوز؟

الحقوق والواجبات

ورأى مؤرخون أن الأزمة بين الأندلسيين ومحاكم التحقيق أزمة لها طابع ديني واضح لكنها أيضاً أزمة في شأن طبيعة الدور الذي أراد المجتمع الإسباني من الأندلسيين القيام به. إن حديث بعض المؤرخين عن مواجهة جدلية استمرت بين الإسبان والقشتاليين ١٠٠ عام لتحديد واجبات كل من الطرفين وحقوقه لا يستند إلى أرضية يمكن إثبات وجودها لأن الإسبان لم يقدموا للأندلسيين على مدى أكثر من قرن سوى خيار واحد هو التنصّر الذي لم يستطع معظم الأندلسيين قبوله. وخلال المئة عام تلك كان على الأندلسيين دائماً أن يقدموا التنازلات. لكن حتى لو قدّم الأندلسيون هذا التنازل الأخير وتنصّروا من المشكوك فيه أن يؤدي هذا إلى تغيير جذري في العلاقة التي نظر اليها بعض الإسبان من زاوية العلاقة المعروفة بين العبد والسيد. وماذا يحدث إذا استاء الإسباني من الأندلسي المُتنصر؟ سيتهمه بعدم الإخلاص في اعتناق

[١] . Tanto monta, monta tanto, Isabella y Fernando

النصرانية. وإذا استاء القشتالي من الأندلسي المخلص الإيمان بالنصرانية فبماذا سيتهمه؟ سيتهمه بأنه عربي. إذاً أين المخرج من هذه الأزمة؟ لم يكن هناك مخرج لهذا استمرت المواجهة بين الأمّتين الأندلسية والإسبانية.

وكان الأندلسيون يؤدون أعمالاً لم يتقنها القشاتلة أو تعففوا عن الاشتغال بها فهم الأطباء والبياطرة والخبّازون والحدادون والنجارون والخياطون والحذّائون وتجّار المواد الغذائية والبغّالون والفلاحون وموزعو الماء ومئات الوظائف الاخرى. وعلى مر العصور اعتاد القشاتلة حمل السلاح والاتجاه جنوباً نحو مراكز الانتاج الأندلسية والاستيلاء عليها وإغراء الأندلسيين بالبقاء فيها ليستمروا في إعمار البلاد ودفع الضرائب والأتاوات التي أغنت الخزانة. وكان الأندلسيون يؤدون هذا الدور في القرن الثالث عشر مثلما كانوا يؤدونه في القرن السادس عشر وفي عصر الخلافة القرطبية قبلهما. وها قد صدرت مراسيم التنصير وصار كل الأندلسيين في قشتالة يُعتبرون متنصرين فمن سيتولى القيام بالأعمال التي كان الأندلسيون يقومون بها إذا صار هؤلاء متساوين في الحقوق مع القشاتلة فكان من بينهم القاضي ورئيس البلدية وقادة الجيش والمسؤولون الحكوميون وانفتحت فرص شغل المناصب الرفيعة أمامهم؟ بماذا سيتميّز القشتالي عندها؟ هذا الوضع لم يكن يقلق الإسبان لأن قوانينهم واعتباراتهم كانت تحتوي آليّات ثابتة تضمن تميزهم في الهرم الاجتماعي. واعتباراً من مطلع العشرينات من القرن السادس عشر صدّرت مراسيم تعميد الأندلسيين فوضع الإسبان آليّة جديدة ميّزت بين النصراني الجديد والنصراني القديم. متى يمكن أن يصبح النصراني الجديد قديماً؟ لن يصبح في معظم الحالات نصرانياً قديماً مهما فعل لأن النصارى القدامى (الإسبان) سيكونون دائماً أقدم منه. إذاً أين المخرج من هذه الأزمة؟ لم يكن هناك مخرج لهذا استمرت المواجهة بين الأمّتين الإسبانية والأندلسية.

إن الحل المثالي القشتالي بالنسبة للأندلسيين هو إبادتهم عن بكرة أبيهم لكن تحقيق هذا الحل كان مستحيلاً لأسباب عسكرية ودولية ومحلية عدّة. صحيح أن المغاربة والعرب الآخرين والعثمانيين المسلمين لم يكونوا مع الأندلسيين في صف المواجهة الأول، إلا أن كل هؤلاء كانوا في الصف الثاني. وكان على إسبانيا أن تأخذ هذا في الاعتبار دائماً ففي ذلك الوقت لم يكن أحد في أوروبة أو الشرق الأوسط يعرف متى يمكن أن يأسره الطرف الآخر. أما الحل الثاني الذي فكّرت به السلطة بعد تسليم غرناطة فهو طرد جميع الأندلسيين كما طردت اليهود، لكنّ هذا الحل أيضاً كان مستحيلاً لأسباب عسكرية واقتصادية ودولية عدّة. الحل الذي أرتأته السلطة في

النهاية كان محاولة إجبار الأندلسيين على قبول واجبات قشتالية وحقوق أندلسية؛ على محاولة إقناع الأندلسيين بمعاملة القشتاليين معاملة نصرانية تفضيلية وقبول معاملة القشتاليين لهم كمسلمين. أي باختصار أن يتخيل الأندلسيون أنفسهم أخوة القشاتلة في النصرانية لكن أن يتصرفوا في الواقع كعبيد مسلمين. إذاً أين المخرج من هذه الأزمة؟ لم يكن هناك مخرج لهذا استمرت المواجهة بين الأمّتين، ولهذا كان تحقيق المعادلة التي أرادها الإسبان مستحيلاً. وعندما كشف الجانبان أوراق بعضهما البعض وعرف الأندلسيون الدور الحقيقي الذي كانت محاكم التحقيق تريد القيام به لمصلحة السلطة والمجتمع المدني القشتالي، لم يعد هناك خيار آخر سوى المواجهة النهائية فإمّا أن يدمّر الأندلسيون القشاتلة، أو أن يدمّر القشاتلة الأندلسيين. وكانت هذه الرغبة مُتبادلة والإصرار عميقاً والقرار نهائياً والتماثل تاماً وشاملاً باستثناء اختلاف واحد حاسم هو نوع السلاح الذي استخدمه الطرفان.

صراع الحضارات

يجب أن يكون واضحاً تماماً أن رغبة الأندلسيين في استعادة بلادهم من الإسبان اصطدمت دائماً بضعفهم العسكري لذا لم يملك الأندلسيون في أي وقت تلى انهيار غرناطة القوة التي كانت ستسمح لهم بتحقيق انتصار عسكري شامل. صحيح أن القضاء على الثورة الأولى تطلب جهداً عسكرياً كبيراً من فرناندو، وصحيح أن القضاء على الثورة الأندلسية الكبرى تطلب من فيليب الثاني حشد قوات لم يكن يتصوّر أنه سيكون في حاجة إلى حشدها إلا لقتال دولة مثل فرنسا، لكن النتيجة لم تكن أيضاً محل شك. العامل الوحيد الذي ربما كان سيغير الميزان العسكري هو تدخل العثمانيين على نطاق واسع في إسبانيا (٢٠٠-٣٠٠ ألف جندي و٣٠٠-٤٠٠ سفينة) وهذا لم يكن ممكناً بسبب المشاكل اللوجستية الهائلة التي كانت ستنجم عن مثل هذا التدخل.

وحتى عندما تجاوز العثمانيون هزيمتهم في ليبانت عام ١٥٧١ وساهموا في الانتصار العظيم الذي حققه المغاربة على البرتغال في معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ اختارت الدولة العثمانية توجيه آلتها الحربية الهائلة إلى الصفويين في إيران بدلاً من احتلال إيطاليا وارتكبت بذلك واحداً من أهم أخطائها التاريخية. وكانت إيزابيلا تعرف أن الغرناطيين لن يحصلوا على أي مساعدة مهمة من الخارج عندما جرّت الأندلسيين الغرناطيين إلى ثورة كانت تعرف أنها ستخرج منتصرة منها، وكان فيليب

الثـاني يعـرف أن العـثـمـانيين لن يتـدخلوا على نطاق واسع عندمـا جـرّ هو الآخـر الغرناطيين أنفسهم إلى ثورة ثانية كانت نتيجتها النهائية معروفة سلفاً.

وفي الفترة بين هاتين الحربين، ثم بعد ذلك باستثناء سنة التغريب، لم يكن احتكام الأندلسيين إلى السلاح ممكناً، ولم يعد احتكام القشاتلة إلى السلاح ضرورياً فاشتبك الطرفـان في حرب إبادة لا تقل ضراوة عن الحرب العسكرية السابقة كـان سلاحـها الإرادة، وكـان هدفـها الاستئصـالي واحداً وواضحاً: إمـا أن يسحق القـشاتلة إرادة الأندلسـيين أو أن يسـحق الأندلسـيـون إرادة القـشـاتلة. وبينمـا كـان السـلاح واحـداً (الإرادة) كانت الذخيرة المستعملة مختلفة ومرنة ومتغيرة استجابت لحالات بعينها في فترات بعينها.

وربما بدا لبعضنا اليوم أن صدور مراسيم ملكية وأمبراطورية وإرادات بابوية تمنع الأندلسيين من التخاطب بالعربية أو ارتداء الزي الأندلسي أو الوقوف في اتجاه القبلة أو تمنحـهم الغفران إذا اعـترفوا «بذنوبهم» الإسلامـيـة مجرد أشكال تقـيـيـدية تعرف السلطة أنها لا تستطيع فرضها على الأندلسيين. فكيف كانت السلطات ستمنع البنت الأندلسية من التخاطب بالعربية مع أمّها في البيت وهما تطبخان عشاء الأسرة؟ وكيف كانت السلطة ستعرف من يقف في اتجاه القبلة في الليل أو في الجبال بعيداً عن عيونها؟

إنّ إعادة النظر في مثل هذه القيود وغيرها المئات ستكشف هدفاً نهائياً هو إخراج الأندلسي من خندقه الإرادي الديني والاجتـماعي والحضـاري أولاً، ثم قطع حبـال الصلة واحداً واحداً مع رموزه الدينية والحضارية ثانياً، ثم إحلال الرموز القشتالية والكاثوليكية محل الرموز العربية والإسلامية. ويجب أن يكون واضحاً هنا أن قشتالة زجّت خلال أكثر من ١٠٠ عام طاقات هائلة لتحقيق هذه الغاية قادتها محاكم التحقيق بدعم شبه شامل من المجتمع القشتالي وكنيسته وملوكه وحكومته.

ولـم يكن واضعو هذه الاستراتيجية يشكّون في البداية في نجاحها لأنهم طبقوها بنجـاح شـبـه شـامل على اليـهـود وبنجـاح كـامل على المواطنين الأصليين في أميـركـا الجنوبية. لكن بدأ يتضح بعد الحرب الأندلسية الأولى أن التجربة اليـهـودية لا يمكن تطبيقها على الأندلسيين على رغم الامكانات التي خصصتها قشتالة لهذه الغاية. ووجد الإسبان بعد ذلك أن التجربة التي أدت إلى تحقيق نجاح هائل في العالم الجديد حـيث تكثلك مـلايين الهنود (الحـمـر) بجـزء بسـيط من الجـهـد المُخـصص لكثلكة الأندلسيين، لم تكن أيضاً مجدية مع الأندلسيين في إسبانيا الذين كانوا «يرجعون إلى بيوتهم من الكنيسة بعد إقامة القدّاس»، كما تقول الأندلسية خوانا هرنانديث، «وهم

يشعرون أنهم باتوا أكثر انتماءً للعروبة مما كانوا قبل الذهاب إلى الكنيسة»[1].

لماذا؟

لأن الذخيرة المعنوية والدينية والحضارية التي استخدمتها قشتالة في الحرب ضد الأندلسيين لم تكن بفاعلية ذخيرتها الحربية، لذا لم يقتنع الأندلسيون بعد ١٠٠ سنة من التبشير الاضطهادي القسري بأن الكاثوليكية القشتالية أفضل من الإسلام، وبأن اللغة القشتالية أكثر تعبيراً من العربية، وبأن لحم الخنزير أفضل من لحم الضأن، وبأن شرب الخمر أفضل من شرب الحليب بالعسل، وبأن السروال القشتالي أفضل من السروال الأندلسي، وبأن مسح المؤخرة بورقة أفضل من غسلها. وباختصار خرجت قشتالة من معركتها العسكرية ضد الأندلسيين بانتصار كبير، لكنها خرجت من معركتها الحضارية والدينية مع الأندلسيين بهزيمة كبيرة لم تعترف بها إلى بعد قرن من المحاولة فعادت ولجأت إلى الحل الوحيد الذي تعرفه جيداً وهو القضاء العضوي على خصومها بالقتل أو التغريب. وباختصار أيضاً كانت قشتالة عملاقاً عسكرياً فيما كان الأندلسيون أقزاماً، لكنها كانت قزماً حضارياً جديراً بالاحتقار في عيون الأندلسيين الذين نظروا دائماً إلى القشاتلة على أنهم محتلون لأرضهم ولم يتمكّنوا من غرناطة إلا بالخديعة والمكر.

وتتجلى هذه الرؤية في ما يخاطب به البطل الأندلسي ابن أميّة رسولاً قشتالياً قبل إعلان الثورة الأندلسية الكبرى: «الا تعرف أننا في إسبانيا، وأننا ملكنا هذه الأرض ٩٠٠ سنة؟»،[2] ثم تتجلى بعد القضاء على الثورة بما سجّله كاتب أندلسي موريسكي: «نظراً إلى عدم استطاعة (الإسبان) شد قلوب الأندلسيين الموريسكيين بعيداً عن عقيدتهم الصلبة وجلبها إلى دينهم الشيطاني (النصرانية)، فإن البعض كان يقترح إبادتنا جماعياً، فيما أراد البعض الآخر خصينا بقضيب أحمر مُحمّى في مكان من الجسم حتى لا ننسل ونفنى كأن في يدهم القدرة على تغيير ما أملته العناية الربّانية الأزليّة»[3]. وفي المقابل رأى الإسبان الأندلسيين من منظار العداوة لهم والصداقة مع أعدائهم العثمانيين والمغاربيين والبروتستانت والفرنسيين. وكان كثيرون من المخلصين

---

[1] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ٤١.

[2] Janer, Florencio. *Condicion social de los Moriscos de Espana: causa de su expulsion y consecurencias que esta produjo en el orden economico y politico*, (Madrid 1857), P 144.
والجملة هذه نقلها المؤلف من كتاب وضعه أنطونيو في فوينمايور باسم: Vida y bechos de Pio V

[3] من مخطوطة محفوظة في اكاديمية التاريخ الملكية الإسبانية جاءت في كتاب «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ٢٨، أوردناها هنا بصياغة مختلفة قليلاً.

الإسبان يطالبون بزيادة الجهد لمساعدة الأندلسيين على التنصّر وينادون بالصبر والاعتدال، إلا أن كثيرين غيرهم كانوا يرون في استمرار ذلك الجهد عبثاً ونفقات لا يمكن تسويغها. وساق هؤلاء لتأكيد استنتاجاتهم أمثلة لا تُعدّ ولا تُحصى منها مثلاً أن الأندلسيين كانوا يذهبون إلى الكنيسة لتفادي عقوبات محاكم التحقيق لكن ما أن يرفع الكاهن القربان المُقدس حتى يدير الأندلسيون ظهورهم إليه ويؤدّون حركات «مخلّة بالحياء»، بل تجرأ «أحد الكلاب الملعونين من هؤلاء الكفّار (أي الأندلسيين) اثناء قدّاس على رمي القربان المقدس بقطعة قماش قديمة فيها فضلات بشرية».[1] ووجد مبعوث لمحكمة التحقيق بعد التقاء كهنة كثيرين إجماعاً على الشكوى من «سوء أدب» الأندلسيين لكنّه خصّ السيدات الأندلسيات اللواتي كن يأتين إلى الكنيسة محجّبات ويرفعن أصواتهن خلال القدّاس أو يقرقرن أو يجلسن جلسة لا احترام فيها للكنيسة ولا لراعيها. ويجب الا يُفسر هذا على أنه احتقار للكاثوليكية بل تعبير عن احتقار أساليب الإسبان، ونوع واضح من أنواع الاحتجاج على سوء المعاملة التي كانوا يلقونها على أيديهم خصوصاً بعدما أصبحت الكنيسة رمزاً صارخاً من رموز اضطهاد الأندلسيين.

حرب الإرادة

وبدأت مناوشات هذه الحرب الحضارية والدينية منذ الأيام القليلة التي لحقت بتسليم غرناطة، ثم بدأت بعد ذلك تأخذ أشكالاً دينية وثقافية واجتماعية وعسكرية وعصيانية. ولم يعد الأندلسيون قادرين على ممارسة دينهم وثقافتهم وعاداتهم علناً فصاروا يمارسونها بعيداً عن عيون محاكم التحقيق والكنيسة والقشاتلة، ولم يكن الأندلسيون قادرين على بناء دولتهم في العلن فبنوها عبر شبكة سرية هائلة من المؤسسات الدينية والثقافية والتعليمية، تضمّنت في بعض مراحلها، وفي صورة أكثر سرّية، جمع الأسلحة والتدريبات العسكرية.

ولو كان الأمر يتعلق بقشتالة وحدها فربما كانت اندفعت إلى حرب شاملة مع الأندلسيين بصرف النظر عن النتائج العسكرية والاقتصادية التي كانت ستنجم عنها، إلا انه كان على إيزابيلا أن تأخذ في الاعتبار ليس مصالح النبلاء في قشتالة ومملكة غرناطة فقط بل أيضاً مصالح زوجها فرناندو ملك أرغون. وخلال عهد فرناندو ومن جاء بعده ظلّ الأندلسيون قوة كبيرة في أرغون اعتمد عليهم استقرار اقتصاد تلك

[1] أعلاه ص ٣٩.

المملكة ورخاء عدد كبير من نبلائها. ولم يكن إضعاف ذلك الاقتصاد واستفزاز مراكز القوى في أرغون عملاً حكيماً في الوقت الذي احتاجت فيه إسبانيا إلى المحافظة على طاقتها ووحدتها لمواجهة العثمانيين والفرنسيين وأمراء حركة الاصلاح الديني البروتستانتي في ألمانيا. وهكذا لجأت قشتالة إلى محاكم التحقيق لتفتيت إرادة الأندلسيين شيئاً فشيئاً ودفعهم إلى اليأس من الصمود إلى ما لانهاية. وقابل الأندلسيون هذا الجهد بالسعي إلى زيادة لحمتهم وفق ما تسمح به الظروف، والارتداد إلى دينهم وتاريخهم وحضارتهم وعروبتهم وكل الرموز الأخرى التي باتت أهم أسلحتهم وآخرها حتى اللحظات النهائية من وجودهم في إسبانيا.

ويوجد إجماع لدى معظم المؤرخين الذين وضعوا مئات المؤلفات عن تغريب الأندلسيين من إسبانيا في مطلع القرن السابع عشر على أن التغريب (نفي أو طرد أو إبعاد الخ . . .) قرار إسباني. إلا أن في تردد الإسبان وطول فترة التغريب وشروطه وبعض مواقف الأندلسيين أنفسهم ما يقود إلى استنتاج مختلف هو أن قسماً مهماً من الأندلسيين لم يكونوا أقل رغبة من معظم الإسبان في هجر بلادهم إلى مناطق أخرى يستطيعون فيها ليس فقط ممارسة دينهم وعاداتهم علناً بل أيضاً تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاستفادة من الفرص التي لم تكن متوافرة لهم في إسبانيا، ولن تكون متوافرة في إسبانيا مهما فعلوا. ولم يكن صعباً على معظم الأندلسيين إبراز الوثائق التي تثبت ذلك عبر ١٠٠ سنة من النهب والاضطهاد والملاحقة والتضييق الديني والفكري والاقتصادي والاجتماعي وانعدام الفرص الجيدة التي ربط الإسبان الحصول عليها بمجموعة من الشروط الدينية والعرقية انطبقت عليهم فقط.

وربما كان استنتاج بعض المؤرخين الإسبان بأن الحكومة وجدت نفسها مضطرة إلى طرد الأندلسيين الجدد «لأنهم لم يقبلوا ديننا الكاثوليكي الطاهر» جهداً ضائعاً أحد أهدافه غسل الضمير من عار تلك العملية البائسة وحشد تعاطف الكاثوليك الآخرين وتفهمهم لذلك القرار. ولا بأس في استنتاج مثل هذا لأنه يبقى مجرد رأي والرأي ليس فرضاً ولسنا مضطرين إلى الأخذ به. إلا أن الانتقاد الأول الذي يمكن أن يُوجه إليه هو العودة إلى استغلال الكاثوليكية لإخفاء الأسباب الأخرى التي كانت أهم بكثير من العامل الديني. إن الانطباع بأن الأندلسيين في إسبانيا القرن السابع عشر كانوا بقايا المحتلين المسلمين الأوائل وهمٌ في عقول بعض العرب المشارقة فقط. الأندلسي لم ير نفسه هكذا. الأندلسي رأى نفسه صاحب أرض عاش عليها ٩٠٠ سنة وصاحب بيت ضمّه وضم أباه وجده وربما جد جده إلى ما لانهاية، لذا له حق في استمرار البقاء في

إسبانيا يعادل حق الإسباني إن لم يتفوّق عليه. إن أحفاد الآيبريين والآيبريات الذين كانوا يعيشون في بلنسية وغرناطة والمرية ومرسية وطليطلة ومئات المدن الأخرى قبل الفتح العربي الإسلامي ليسوا فقط النصارى الذين كانوا يسكنون المدن نفسها في القرن السابع عشر، بل الأندلسيون أيضاً. من أين جاء جنود طارق بن زياد وموسى بن نصير بزوجاتهم؟ من الآيبريات. ومن كان أبناؤهم سوى أبناء الآيبريات اللواتي كن يعشن في شبه الجزيرة آنذاك؟

إذاً كان هناك دينان في إسبانيا هما الكاثوليكية والإسلام، لكن كانت هناك أيضاً قوميتان لكل منهما ميزات وخصوصيات متفرّدة، وبينهما دائرة تلاق محدودة أمكن من خلالها تعايش أبناء القوميتين وفق الشروط والضغوط الدينية والاقتصادية والاجتماعية التي عرضنا بعضها في مكان آخر. ولا يمكننا من موقعنا الزمني الحالي تقديم تصوّر عن طبيعة العلاقات بين الأندلسيين والإسبان لو لم تعصف المشاكل السياسية والدينية والعسكرية بممالك كارلوس الخامس وابنه من بعده في أوروبة. لكن يمكن القول ان الأندلسيين عرفوا حدودهم وقوتهم العسكرية وحاولوا التصرف كمواطنين صالحين والتعايش مع أدنى حدود الحريات الدينية والاجتماعية، وسددوا دائماً ثمن هذه الحريات نقداً أو دعماً أو تعاوناً حتى مع محاكم التحقيق. ومع ذلك فاقت الأمور في حالات عدّة حدود الاحتمال وأدت إلى ثورتين رئيسيتين وانتفاضات عدّة اشترك في إحداها نحو ١٣٠ ألف أندلسي، كما أسلفنا، إضافة إلى انتفاضات أخرى رافقت تغريب الأندلسيين سنتحدث عنها في حينها. ولو درسنا أسباب كل تلك الثورات والانتفاضات لوجدنا أن الإسبان دفعوا الأندلسيين إلى كل واحدة منها عن سابق إصرار وترصّد. فالإسبان هم الذين زاحموا الأندلسيين على اقتصادهم، وهم الذين صادروا أراضي الأندلسيين، وهم الذين أحرقوهم وسجنوهم وفرضوا عليهم محظورات بلا نهاية في لوائح بلا نهاية كان أولى بالإسبان اعتماد بعضها مثل الإغتسال مثلاً أو ارتداء قميص نظيف يوم الجمعة بدلاً من اعتبارها جريمة تستحق مصادرة الأموال.

وعندما أخفق الأندلسيون في الحصول على الحد الأدنى من الحريات علناً أعطوا لنفسهم كل الحريات التي يريدونها في السر فصار سلوك المجتمع الأندلسي أشبه بجبل الثلج العائم في البحر - قسم صغير منكشف على عيون محاكم التحقيق ومعظم الإسبان، وقسم أكبر منه بكثير تحت الماء أو في الخفاء، تحوّل مع الزمن ومع تحسّن التنظيم إلى ما يشبه الدولة الأندلسية الإسلامية العربية السرّية. وكما يفعل كل

المضطهدين، سعى الأندلسيون مدفوعين بالرغبة في البقاء والاستمرار إلى التحالف مع كل الجهات التي تستطيع المساعدة سواء كانوا أهل الساحل المغاربي أو العثمانيين أو الفرنسيين أو البروتستانت. لكن هذا حدث في مرحلة لاحقة لأن الأندلسيين حاولوا قبل ذلك مساعدة المجتمع الإسباني على تغيير تعامله معهم من دون جدوى، واتضح بعد ١٠٠ عام من التجربة عقم كل هذه المحاولات، ووصل الجانبان إلى طريق مسدود، ولم يعد احدهما قادراً على تقديم التنازلات التي يريدها الآخر لأن جعبة الأندلسيين من التنازلات كانت خوت تماماً ولم يبقَ شيء يستطيعون التنازل عنه والاستمرار في استبقاء الحد الأدنى من الكرامة والوجود.

٢ - اسباب تغريب الأندلسيين من اسبانيا
(الاعتبارات الأندلسية)

١٠٠ عام من النهب

في استطاعتنا اليوم اعتماداً على الأبحاث الجديدة المتصلة بالأندلس تقديم الدافع الاقتصادي على الدافع الديني الكاثوليكي لتفسير اجتياح الجنوب الأندلسي، بل ربما وضع الدافع الديني جانباً في الحالات التي عيّن فيها ملوك إسبانيا أنفسهم ملوكاً على الملل الكاثوليكية والإسلامية واليهودية. ويجب أن نلاحظ ونحن نتحدث عن سقوط الأندلس ان وديان أنهر دويرة وإبرة وشقّورة والوادي الكبير لم تكن فقط مواطن المسلمين بل أيضاً مواطن الثروة والانتاج. وعمل الإسبان في الزراعة والصناعة والتجارة والتمويل مثلهم مثل الأندلسيين أو اليهود، غير أن باقي الإسبان، سواء في القرن الثالث عشر أو في القرن السادس عشر، كانوا إما جنوداً في جيوش إسبانيا في العالمين القديم والجديد، أو كهنوتيين في ١٨,٠٠٠ دير وكنيسة وظّفت أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ شخص من أصل نحو ثمانية ملايين نسمة. ولم يكن هناك فرق كبير بين مهمة الجندي والكهنوتي فكلاهما كان يعتقد أنه يخدم الكاثوليكية والملك والبلاد في آن، وكلاهما كان غير منتج اقتصادياً. وحتى المشتغلون منهم بالزراعة - عماد اقتصاد كل الدول الأوروبية في تلك الفترة - كانوا ذوي انتاجية ضعيفة كما يعترف الإسبان أنفسهم، لذا لم يشجع النبلاء المزارعين الأندلسيين على العمل في ضيعهم فقط بل عملوا على تحفيزهم وحمايتهم من السلطة في الحالات التي تمكّنوا فيها من ذلك.

وكان من بين الأمّة الأندلسية، إضافة إلى ما عرضناه، الأثرياء الكبار والمتمولون

والتجار وأصحاب مصانع الحرير وتكرير السكّر والصابون وملاك الكروم والأراضي الواسعة التي يُزرع فيها الرز وآلاف المشتغلين بالتأليف والمحاماة والبيطرة والطبابة حتى أننا نجد الحاكم العام في مدينة طليطلة يشتكي الى البلاط الملكي عام ١٦٠٧ من ارتفاع عدد الأندلسيين الذين يدرسون الطب في مدرسة طليطلة ويحذر من استغلال الأندلسيين هذه المهارة لقتل المسيحيين. لكن ألا يغالط هذا الحديث السابق عن تردي أحوال الأندلسيين؟ والجواب هو النفي إذ علينا أن نتذكر أن الأندلسيين ملكوا المهارات التي مكّنتهم من تجاوز النكسات التي تعرضوا لها عبر تاريخهم. وحتى في بعض المناطق الفقيرة التي نفاهم إليها الملوك نرى كثيرين منهم يعودون إلى تحقيق مستوى مقبول من العيش، بل وبناء الثروة بفضل ما اشتهروا به من حرص في الإنفاق وقدرة على جمع المال ومهارة في إحياء موات الأراضي الزراعية التي هلكت بين يدي القشاتلة. ونجد ان الحكومة الإسبانية التي نفت معظم الأندلسيين من غرناطة بعد الثورة الكبرى وهددتهم بالقتل ان اقتربوا من المدينة، تغيّر موقفها وتسمح لهم بالعودة إلى تلك المملكة بعد عشر سنوات من النفي بأعداد كبيرة لأنهم كانوا «أصحاب الحوانيت والخبّازين والقصابين وأصحاب الحانات وحملة الماء وبهذه الطريقة يجمعون المال ويخفونه كله فلا يشتري أحد منهم العقار ولا يملكه ولذا فهم أغنياء جداً وأقوياء جداً».[١]

وتباينت حظوظ الأندلسيين الاقتصادية من مكان إلى آخر فكان وضع سكان أرغون وغرناطة أفضل من وضع الأندلسيين في مدن وقرى القشتالتين القديمة والجديدة، وكان الأكثر فقراً من الفئتين الأخيرتين سكان قشتالة الجديدة (مناطق مدريد ووادي الحجارة وطليطلة وقونقة والمدينة الملكية) إذ عاشوا في هذه الرقعة التي تُعتبر من بين أنحس بقاع إسبانيا وأجفّها في وضع نفي أو قريب من النفي، وتحت إقامة جبرية أو قريبة منها. ومع الزمن انضم إلى هؤلاء الفقراء عدد كبير من الأندلسيين الذين بدأت محاكم التحقيق تصادر أموالهم وأملاكهم لأسباب يبدو بعضها تافهاً، أو توقيع غرامات مالية في حقهم. وتحولت هذه المصادرات إلى عملية نهب منظمة انتقل خلالها قسم كبير من ثروة الأندلسيين وأراضيهم إلى الخزانة الحكومية أو صُرفت على محاكم التحقيق. ومن سلم من الأندلسيين من هذه المعرات وجدوا انفسهم مضطرين إلى تقديم مبالغ كبيرة جداً إلى الملوك ثمناً لبعض الحريات، أو تقديم مبالغ أقل الى

---

[١] Janer, Florencio. *Condicion social...* p 270. وما ورد مأخوذ من رسالة وجهها المجلس الاستشاري (مجلس الأعيان) في غرناطة إلى الملك فيليب الثاني عام ١٥٨٢. ونلاحظ من هذا الاقتطاف أن الأندلسيين بدأوا يتجنّبون شراء العقارات بعدما صادرتها محاكم التحقيق والحكومة وفضّلوا الاحتفاظ بالسيولة.

النبلاء والرسميين والمتنفذين وبعض عمّال محاكم التحقيق في شكل رشاوى وعطايا وهدايا ثمناً للسلام أو إبعاداً للشرور والتضييق وغيرها من الاسباب المماثلة كثير .

وكان من الممكن أن يعود عدد كبير من الأندلسيين إلى تحسين أوضاعهم الاقتصادية وبناء ثرواتهم المنهوبة لكن مساعيهم اصطدمت في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن بعده بتردي الاقتصاد الإسباني نتيجة عدد من السياسات الداخلية والخارجية التي اتبعها فيليب الثاني . فداخلياً أدّت طريقته في قمع الثورة الأندلسية الكبرى وما تبعها من نفي قسم كبير من الغرناطيين إلى إلحاق أضرار بالغة باقتصاد مملكة غرناطة . وساهمت القيود التي فرضها على النبلاء الأقل وزناً المعروفين باسم Hidalgos في تضييق فرص التحسّن الاقتصادي فبدأوا يهاجرون إلى العالم الجديد . كما تسبّب تدفق الفضة إلى إسبانيا في ارتفاع الأسعار ووصول التضخم الى مستويات فاحشة في وقت بدأت فيه النفقات العسكرية تسجل زيادات حادة . وبدلا من خفض الضرائب في أوقات الشدّة هذه لتعزيز السيولة وزيادة الإنفاق عمد فيليب الثاني إلى زيادة الضرائب[1] فتعمّقت الأزمة الاقتصادية ووجد فيليب الثاني نفسه مضطراً إلى إعلان إفلاسه مرة ثم ثانية .

وتوافق ارتفاع النفقات الحربية مع تغيّرات جذرية في طبيعة الاقتصاد الاسباني سببت هي الأخرى أزمات اقتصادية خانقة . وسبب ذلك أن الحركة التجارية التي قامت بين إسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد تركّزت على سد حاجات المستعمرات من الثياب (حتى لو عن طريق إجبار الهنود على ارتداء السراويل الصوفية) والقمح والزيت والخمور والمواد الأخرى المُنتجة أو المصنوعة في إسبانيا . لكن في نهاية القرن السادس عشر بدأت المستعمرات تغطي جزءاً مهماً من استهلاكها المحلي فضرب الكساد إسبانيا لأول مرة منذ اكتشاف العالم الجديد قبل ١٠٠ عام من ذلك .

وحدث شيء غريب بعدها إذ وافق انحسار صادرات إسبانيا إلى العالم الجديد ازدياد حصة هولندا التي ملكت أكبر أسطول تجاري في العالم آنذاك ، وكانت سفنها تنقل الكمية الأكبر من البضائع إلى العالم الجديد . وعصت الأقاليم الشمالية من هولندا على فيليب الثاني وأعلنت انفصالها فمنع الملك الإسباني التعامل مع السفن الهولندية عام ١٥٨٥ ، وقصر نقل البضائع على السفن القشتالية ، ثم عاد وأكد منع

---

[1] كانت الحكومة تحصّل آنذاك ثلاثة أنواع من المداخيل الضرائبية هي ضريبة الجهاد ضد المسلمين (*Cruzada*) المتأتية من تسويق صكوك الغفران التي يُصدرها البابا ، وضريبة العُشر على أرباح بيع المنتوجات (*Subsidio*)، وضريبة العُشر المستوفاة من الكنائس (*Excusado*). وكانت حصيلة الضريبة الأولى المعمول بها في صورة متقطعة منذ حرب غرناطة في عهد إيزابيلا نحو ٩١٢ ألف دوقة ذهبية سنوياً .

الهولنديين ثانية من التعامل التجاري مع المستوطنات الأميركية عام ١٥٩٥ .

ووجد الهولنديون المستقلون عن فيليب الثاني أن استمرار تجارتهم المربحة يقتضي كسر احتكار إسبانيا فبدأوا جهداً خاصاً تمكنوا بعده من فتح الأسواق في بعض المستعمرات الإسبانية وأتاحوا لحليفتهم انكلترا الاستفادة من تلك التجارة . وسعت حكومتا فيليب الثاني وابنه فيليب الثالث من بعده إلى تشجيع حركة تجارية أنشط في مستعمرات العالم الجديد، لكنهما وجدتا صعوبة في تحقيق ذلك لأن السوق بدأت تتقلص نتيجة الخلل السكاني الذي ضرب بعض تلك المستعمرات .

وبينما قدر عدد السكان المحليين المكسيكيين سنة استيطانها عام ١٥١٩ بنحو ١١ مليون نسمة، نجد أن العدد انخفض في نهاية القرن السادس عشر إلى نحو المليونين فقط . وحدث ذلك نتيجة السياسة العنصرية التي انتهجتها إسبانيا هناك وتفشّي الأمراض التي حملها الإسبان إليهم وتسخير السكان المحليين للعمل في المزارع ساعات طويلة مما أدى إلى انهاكهم وموت أعداد كبيرة منهم فتقلص الاستهلاك وارتفعت كلفة انتاج المواد والمعادن التي كانت تُنقل إلى إسبانيا .

وفي القسم الأخير من القرن السادس عشر تعرضت إسبانيا إلى جفاف خطير . وتبع الجفاف انتشار الطاعون شمال البلاد عام ١٥٩٦، ثم امتدّ الطاعون بعد ذلك جنوباً فحصد بين عامي ١٥٩٩ و١٦٠٠نحو ١٥ في المئة من السكان . وعندها ساد الذعر وارتفعت الأسعار، ونزلت بالاقتصاد ضربة عنيفة استمر تأثيرها فترة طويلة . وتحسنت التجارة مع المستعمرات في العالم الجديد بعد ذلك ووصلت أوجها عام ١٦٠٨ لكن استفادة إسبانيا كانت قليلة لأن الهولنديين والانكليز والفرنسيين كانوا ينقلون القسم الأكبر من واردات المستعمرات .

وعمل الأندلسيون في إسبانيا في كل القطاعات الانتاجية والتجارية والخدماتية، لذا استفادوا جيداً من التجارة مع مستعمرات العالم الجديد في البداية . لكنهم بدأوا يعانون من الكساد الاقتصادي وتراجع الطلب على منتوجاتهم وخدماتهم في الوقت الذي استمرت فيه السلطة ومحاكم التحقيق في مصادرة أموالهم وممتلكاتهم وفرض الغرامات المالية الكبيرة عليهم . وفي السنوات القليلة التي سبقت التغريب، كان عدد كبير من الأندلسيين يعيش في الضواحي أو في الأحياء الفقيرة من عدد كبير من المدن الأرغونية والقشتالية مثل سرقسطة وابلة وجيان وسيمانقة وطرطوشة ومرسية وطليطلة وبلد الوليد ومئات المدن غيرها . وتدلنا التجربة أن الأحقاد العرقية والدينية تبرز أكثر ما تبرز خلال الضائقات المالية والكوارث الطبيعية، لذا اتسمت العلاقات بين الإسبان

والأندلسيين في نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر بدرجة عالية من التوتر والريبة المتبادلتين.

١٠٠ عام من الاضطهاد

بين استسلام غرناطة وصدور قانون التغريب ١١٧ سنة لم تُرفع فيها المظلمة عن الأندلسيين يوماً واحداً فاتحدت السلطة ومحاكم التحقيق ومعظم رجال الكنيسة وجل الإسبان في جهد اضطهاد الأندلسيين. ونحو نهاية عام ١٥٧٠ تمكن فيليب الثاني من إخماد الثورة الأندلسية الكبرى بعد قتل ما لا يقل عن ٢٠ ألف أندلسي وأندلسية ونفي عشرات الألوف وتحويل أعداد منهم إلى عبيد في بيوت الإسبان أو مجذفين في سفنهم. ولم يبق بعد كل هذا سوى رأس مولاي عبدالله بن ابيه مُعلقاً على بوابة غرناطة حيث بقي ٣٠ سنة يذكّر بالنهاية التي تنتظر من يتحدى الملك.

وعاش عشرات الألوف من الأندلسيين في منافيهم الجديدة في القشتالتين الجديدة والقديمة أقليّة مقهورة بين غالبية متسلّطة وعانوا من المشاكل التي تعاني منها الأقليات في كل مكان إلا أنهم واجهوا أيضاً مشاكل اضافية فكان معظم الإسبان يعتبرها أقليّة مارقة على السلطة وعدوة للكاثوليكية ومستعدة للتعاون مع أعداء قشتالة في كل الأوقات. ولعبت عوامل سياسية ودينية وتاريخية واقتصادية مختلفة دورها المستمر في إذكاء الريبة بين الأندلسيين والإسبان، فلم يشعر الأندلسيون بالأمان بين القشتاليين، ولم يشعر القشتاليون بالأمان إن وجد الأندلسيون بينهم، ولم تسمح الحكومة والكنيسة ومحاكم التحقيق للفئتين النسيان والتناسي فعملت دائماً على إذكاء الشكوك وإحياء المخاوف وشحن الكره والعداوة.

ومع مرور الزمن تراكمت المراسيم والقوانين والقيود ولوائح الوشاية التي سعت في جملتها إلى فصل الأندلسي عن دينه وتاريخه وأهله ودفعه في اتجاه الكاثوليكية. وقاوم الجيل الأول قدر استطاعته فيما وجد أبناء الجيلين الثاني والثالث أنفسهم وسط عالم غير الذي عرفه آباؤهم فجهلوا الكتابة بالعربية وعجُمت ألسنتهم واختلطت عاداتهم، وسادت الأميّة وتفشّى المرض بعدما حرمتهم السلطة من المرافق العامة التي اعتادوا عليها، وأجبرتهم على التعايش مع القذارة. ومنعت السلطات معظم الأندلسيين في المنافي من مزاولة التجارة أو الاشتغال بالمهن فصاروا بغالين وحمّارين وفلاحين بالسخرة أو بأجر رمزي في مزارع القشاتلة وغيرها من وضيع المهن، وحظرت عليهم حمل السلاح (كان آنذاك رمزاً للأحرار فلم يكن ممنوعاً إلا على العبيد

واليهود)، ورأت في أبسط المظاهر الأندلسية مروقاً ومعارضة للسلطة والكنيسة.[1]

ووصلت القيود في بعض الحالات إلى حدود لا يمكن احتمالها فكان الأندلسي حين ينفرد بنفسه يتوجه إلى خالقه ويناشده المساعدة على التغلب على مخاوفه ويأسه، وصار البعض يعتقد أن الموت مسلماً كفيل وحده بتأمين الخلاص النهائي. لكن حتى هذا لم يعد ممكناً اعتباراً من عام ١٥٩١. فقبل هذا التاريخ كانت للأندلسيين مقابر خاصة لكن السلطات منعت الأندلسيين من دفن موتاهم فيها وخصصت لهم مناطق في الساحات المجاورة للكنائس التي كانت مساجد في الماضي شرط الموافقة على دفن المسيحيين فيها. ورضخ الأندلسيون لهذا الشرط على مضض لكن السلطات عادت وفرضت عليهم دفن موتاهم داخل الكنيسة نفسها. ولم يحتمل الأندلسيون هذا الوضع فعرضوا على فيليب الثالث دفع مبلغ ٣٠ ألف دوقة ذهبية لقاء السماح لهم بدفن موتاهم في مكان آخر حتى لو كان في المزابل لكنه رفض رفضاً قاطعاً.

ويلخص أحد الأندلسيين وضع أمّته بالقول: «كنا مضطرين أن نظهر لهم ما كانوا يرغبون منا إظهاره، وما عدا ذلك كانوا يسوقوننا إلى محاكم التحقيق لاتباعنا الحقيقة. لقد حرمونا من الحياة والأملاك والأبناء، وزجوا بنّا في سجون مظلمة لأتفه الأسباب. ونظراً إلى سوء أفكارهم كانوا يبقوننا هناك سنين عدّة فيما يستولون على أملاكنا التي صادروها ويستغلوننا، ثم يقولون إن لذلك الفعل مبرراً، ويخفون وراء ذلك أفكارهم السيئة وسريرتهم الضالة. أمّا أطفالنا فإنهم عندما يصبحون يافعين يربونهم على شاكلتهم ويصبحون مرتدين، وإذا كبروا يسعون إلى الهروب. وإضافة إلى ذلك كان حكام محاكم التحقيق يفتشون عن كل الوسائل للقضاء نهائياً على هذه الأمّة».[2]

وكانت هذه الوسائل بلا نهاية، وكانت العقوبات تراكمية، وكانت تتصاعد في شدّتها مع الزمن وتشمل الأحياء والأموات على سواء إذ توجد أمثلة كثيرة على نبش قبر من يُتهم بعد موته بالارتداد وجمع عظامه في كيس وإحراقها إلى جانب الأحياء في الاحتفالات التي كانت تجري بين وقت وآخر في المدن الإسبانية. كما توجد أمثلة عدّة على شمول العقاب أهل المتهم الذين تحرمهم محاكم التحقيق من التمتع بالحقوق

[1] اعتاد الأندلسيون الاجتماع أيام الجمعة عند بعضهم للأكل والرقص والغناء. وفي عام ١٥٣٨ داهم عمّال محاكم التحقيق بيت خوان البرغشي (من مدينة برغش) فوجدوا أصدقاء عنده يعزفون الموسيقى ويأكلون الكسكسي فاقتادوه ومثل أمام المحكمة التي أخذت عليه وعلى مدعويه التصرف كأنهم على أرض إسلامية والعزف بألحان غريبة واستعمال الأسماء الاسلامية. «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ٣٥.

[2] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ١٠٤-١٠٥.

المدنيـة أو تجـبـرهم على ارتداء لبـاس العـار (Sanbenito) مـدداً طويلة. [1] وفي بعض الحالات كان الدير نفسه يُستخدم كسجن. [2] ونحو نهاية القرن السادس عشر لم يعد الإرتداد وحده سبباً للحكم على المتهم أو المتهمة بالحرق إذ باتت محاولة الهروب من إسبانيا إلى العدوة أو فرنسا جريمة نهايتها الحرق، بل أن المؤرخ الكبير لورنتي يُعلمنا أن الحرق كان أيضاً عقوبة من يقرأ الكتب العربية. [3]

وتبـدّلت حظوظ فـيليب الثـاني في آخـر أيامـه فـأنزل به الفـرنسيـون والهـولنديون والإنكليز هزائم ماحقة وساء حال الإسبان في أوروبة ودارت عليهم الدوائر فاهتزت ثقتهم بأنفسهم وبحثوا عن سبب اخفاقاتهم فيمن حولهم وبرّأوا أنفسهم من جرائر ما أصـابهم وحـمّلوها لـلأندلسـيين وكـانوا يعـتـقـدون أن الله للكاثوليك فـقط مثـل الجنّة فصاروا يقولون إن هذه الهزائم عقاب من الله على وجود «الكفار» الأندلسيين بينهم. وهكذا تحوّل الأندلسيون إلى كبش فداء جاهز، وتأججت العداوة وتمحور الرأي العام ضدهم وتصلّب فرمت الحكومة من وراء تغريب الأندلسيين إلى تحقيق نصر عزيز لم تتمكن من تحقيقه في أي من صراعاتها الخارجية الكبيرة.

١٠٠ عام من المواجهة

ربما لا يوجـد وصف لصـمود الأندلسيين أكـثر من ١٠٠ عـام في وجه واحـدة من أعتى الممالك التي عرفها القرن السادس عشر، وفي وجه أكبر جهاز مخابرات ديني عرفه البشر، وواحد من أعدى شعوب الأرض سوى بأنه كان صموداً خارقاً. ويرافق هذا الوصف تساؤل دائم عن الطريقة التي استطاع بها الأندلسيون في وطنهم المُحتل التـمسّك بدينهم وعـروبتـهم بعـد أكـثر من ١٠٠ عـام من الحـرق والتـعـذيب والقـتل والاعـدامات والتـجـويع والنفي والـنهب المنظّم، وكـيف تمكّنوا من الاسـتـمـرار وسط مجتمع كان بين الجنود والكهنوتيين فيه جمهور من الوشاة الذين ترصّدوا في جيرانهم الأندلسيين كل حركة أو كلمة فرأوا فيها إما خيانة لملك إسبانيا أو عداوة للمجتمع

---

[1] ويكون عادة رداء لا يعلوه شيء مرسوم عليه صليبان أصفران من الإمام والخلف.

[2] يعرض لورنتي حال صبي اسمه دون فيليبه دي أرغون Don Felips de Aragón يصفه بأنه ابن امبراطور فاس والمغرب الأقصى كان وصل إلى إسبانيا صغيراً فكفله دون فرناندو دي أرغون نائب ملك بلنسية ابن ملك نابولي فريدريك الثالث واعتنق المسيحية لكن إسلامه ظل فيه فاتهمته محاكم التحقيق بالهرطقة والسحر وسجنته ثلاث سنوات في أحد الأديرة وقضت أن يرتدي لباس العار وهو ثوب رُسم عليه قرنان كبيران وشيطانان. Llorente, Juan Antonio. *Historica critica*...,t II, p 287

[3] أعلاه، ص ١٥٣.

الإسباني أو طعناً في «ديننا الكاثوليكي الطاهر». إن خروج أندلسية أو أندلسي مسلم واحد من إسبانيا بعد أكثر من ١٠٠ عام من الاضطهاد أمر يبعث على الدهشة فكيف بخروج مئات الألوف اعتباراً من عام ١٦٠٩؟ وبماذا يمكن أن نصف بعض الأندلسيين الذين لم يكفهم جهاداً المحافظة على دينهم وعروبتهم فنجدهم يحاولون إقناع بعض المسيحيين الإسبان بدخول الإسلام؟

ونستطيع العثور في كتب التاريخ الإسبانية ووثائق محاكم التحقيق على بعض الأسباب الظاهرة لذلك الصمود لكن الأسباب الحقيقية تكمن في قدرة الأندلسيين على الغوص في أعماقهم واغتراف الشجاعة التي مكنتهم من الصمود في البيئة العدوانية التي كانوا يعيشون فيها. وكان الإسبان يعرفون مكمن تلك القوة ومع ذلك لم يستطيعوا بعد ١٠٠ عام من المحاولة كسرها لأنهم لم يتمكنوا من اختراق عقولهم ولا قلوبهم. هذا لا يتمّ عادة إلا بالرحمة والتفهّم لكن إسبانيا ذلك الوقت لم تكن تتمتع بالقدر الكافي من الشعورين. ولا نستطيع بعد ٤٠٠ سنة من مرور تلك الأحداث أن نفهم تماماً ماذا كان يدور في خلد الأندلسيين لكن نستطيع أن نخمّن ونتصوّر المآسي التي تعرضوا لها خلال تلك الفترة المظلمة من تاريخ الأندلسيين في إسبانيا، بل من تاريخ الإسلام.

وواجه الأندلسيون مشاكل عمّت الجميع ومشاكل أكثر خصوصية انطبقت على تجمّع دون غيره، ووُجدت آلاف الحالات التي تطلّبت معالجة خاصة. وكانت المشكلة الأكبر بقاء التجمّعات الأندلسية على اتصال مع بعضها لتبادل آخر الأخبار ونقل الكتب الدينية والمساعدة على حل المشاكل التي واجهت بعض التجمّعات. ويبدو من المعلومات المتوافرة عن تلك الفترة أن الأندلسيين حلّوا هذه المشكلة من خلال إقامة عدد من أقنية الاتصالات التي كانت تتم مباشرة عن طريق إيفاد مبعوثين عن الأندلسيين، خصوصاً في بلنسية وأرغون، إلى فرنسا طلباً للمساعدة، أو إلى العثمانيين. ولعب البغالون والناشطون في النقل والتجارة بين الممالك الإسبانية داخل آيبرية دوراً ملحوظاً في تبادل المعلومات والأخبار بين التجمعات الأندلسية، وكان هؤلاء ينقلون الكتب الدينية المخبّأة في البضائع من مكان إلى آخر حسب الحاجة، أو يحملون المساعدات العينية والمالية إلى الأندلسيين المحتاجين.

وفي حالات أخرى كان الأندلسيون يؤون إخوانهم المطاردين من طرف الدولة أو محاكم التحقيق، أو الأندلسيين الفارين من منافيهم ريثما يرتّبون تهريبهم في القوارب التي كانت تنطلق ليلاً من جنوب الأندلس في اتجاه المغرب أو الجزائر، أو عبر الجبال

في اتجاه فرنسا. وربما بقي على مناطق الحدود بعض هؤلاء، وربما انتقلوا بعد ذلك الى الساحل المغاربي أو الأراضي التي تسيطر عليها الدولة العثمانية. وبما أن عقوبة معظم تلك النشاطات كانت الحرق أو الشنق أو الشغل سخرة في السفن مدى الحياة، فقد اقتضى إتمامها سرّية تامة. وكان على المكلفين إداء هذه المهمات توقّع اعتقالهم في أي مرحلة من مراحل تنفيذ مهامهم وبالتالي كتمان معرفتهم بمصادر كتبهم أو مهامهم في كل الظروف.

وكانت أوضاع الأندلسيين في إسبانيا شديدة التفاوت ففي بلنسية كانوا يُعرفون باسم «أمة المسيحيين الجدد من الأندلسيين في مملكة بلنسية». [1] وكانت ممارسات هؤلاء أبعد ما تكون عن المسيحية إذ كانت لهم مجموعة من المساجد السريّة ضمن منظمة عُرفت باسم «رابطة مساجد بلنسية». وخارج بلنسيةعملت أعداد كبيرة منهم في الأرياف فلاحين وعنّابين لحسابهم الخاص أو لدى النبلاء والمتنفذين والكنيسة، وهؤلاء سيطروا على معظم الأراضي الزراعية في إسبانيا. [2] وساعد الأندلسيين على استمرار قسم كبير من تنظيماتهم عدم وجود سلاطين وملوك وأمراء كبار يمكن أن يؤدي اكتشافهم إلى إلحاق ضرر كبير بالتنظيمات أو يمكن ان تغريهم السلطات أو تقسرهم على بيع جماعتهم. واستعاض الأندلسيون عن هذه الهرميّات السياسية التقليدية بمجالس صغيرة تمثّل مناطق معينة، مع وجود ضباط ارتباط بين هذه المجالس لتقرير القضايا الكبيرة. وكان من بين أهم هذه القضايا الحصول على المساعدة العسكرية والمالية الخارجية لمساعدتهم على التصدي لسياسات فيليب الثاني ومحاكم التحقيق، لذا كانت هناك سفارات كثيرة بين هذه المجالس من جهة وبين الفرنسيين والبروتستانت والعثمانيين. وتمكنت السلطات من كشف جانب من هذه النشاطات وأقر بعض من عذّبتهم محاكم التحقيق بوجود الاتصالات وطبيعتها لكن نطاق الضرر بالتنظيمات الأندلسية بقي محدوداً.

وساهمت هجرة الإسبان وأعداد من الأندلسيين إلى المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد والحروب شبه الدائمة التي شنّها فيليب الثاني على أعدائه في كل مكان في خفض عدد سكان بعض المناطق الإسبانية فبدأت مجموعات من الأندلسيين هجر الأرياف إلى المدن القريبة، وقامت أحياء اقتصر سكانها على الأندلسيين. وكان قسم

---

[1] La nacion de los Cristianos Nuevos de Moros del Reino de Valencia

[2] أظهرت دراسة أعدت بأمر فيليب الثاني أن قلة من المزارعين تملك الأرض التي تعمل عليها، بينما كانت الغالبية العظمى تعمل لدى النبلاء المحليين أو الأديرة الرئيسية أو الأثرياء في المدن، وكان على هؤلاء المزارعين دفع أنواع عدة من الضرائب.

كبير من هؤلاء يعيش على خط الفقر أو دونه، وتطلبت مساعدتهم جهوداً خاصة لأسباب عدّة منها توزعهم في بلد شاسع مثل إسبانيا.

دور الفقهاء الأندلسيين

برزت خلال تلك الفترة واحدة من أهم الشخصيات التي ساهمت مساهمة كبيرة في ربط المجتمع الأندلسي وفولذة إرادته ومقاومته وصموده هي شخصية الفقيه الأندلسي الذي كان يتلقى تعليماً خاصاً في مدارس سرّية قبل أن يصبح فقيهاً. وجمع هؤلاء الفقهاء إلى جانب مهمتهم الدينية مهمات اجتماعية وإنسانية كثيرة، وكانوا خيوط لحمة المجتمع الأندلسي. وإلى جانب مهماتهم الدينية كأئمة في المساجد السرّية التي انتشرت في الساحل الشرقي وبعض مناطق غرناطة وقشتالة، تولّى هؤلاء التوعية وجمع الزكاة والتبرعات من الأندلسيين وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين وتنظيم حلقات قراءة القرآن والذكر وعقد القران ورفع معنويات الناس والتخفيف عنهم ووعدهم بفرج قريب والتوصية بالتآزر والتقارب في الشدّة. وواجه الأندلسيون حالات خاصة خلال عباداتهم وتعاملاتهم اليومية فكانوا يرجعون إلى هؤلاء الفقهاء للمشورة، ويرجع هؤلاء بدورهم إلى شيوخ ومفتين في بلنسية وطليطلة يجتهدون في تقديم الحلول.

وشاع بين الأندلسيين قول مشهور لتبرير تنصّرهم الظاهر على القشاتلة وإسلامهم الذي كانوا يمارسونه بعيداً عن العيون هو: «الرداء لا يرمز إلى الراهب». وكان من الطبيعي أن تفرض الظروف تعاوناً بين الأندلسيين والإسبان غير أن «التمادي» في معاشرة الإسبان كان مأخذاً لذا انتشر بين الأندلسيين اجتهاد يقول: «إن المسلم الذي يعاشر المسيحي ٤٠ يوماً ومات خلال المدة فهو كافر ومآله جهنم».[١] وكان قسم كبير من الأندلسيين في قشتالة يعيش وسط مراقبة مستمرة وتضييق دائم، واستمر هؤلاء في التخاطب بالعربية المحكية لكن قسماً كبيراً منهم كان يجهل المكتوبة، فسُمح لبعض هؤلاء الصلاة بالقشتالية كي يفهموا معنى الكلام الذي يرددونه.

وهناك أسباب دينية واضحة وراء الامتناع عن أكل لحم الخنزير حض عليها الفقهاء دائماً، لكن هناك أسباباً صحية ونفسانية عدّة. وفيما تناول أندلسيون كثيرون الخمر كان أكل لحم الخنزير أو شراؤه مشكلة كبيرة قادت المئات إلى زنازين محاكم التحقيق خصوصاً السيدات الأندلسيات بحكم مسؤوليتهن عن إطعام الأسرة. ومن قطالونيا

[١] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ٥٠.

نقرأ قصة سيدة أندلسية جاءت قصّاب القرية فرأته يذبح خنزيراً فاشمأزت نفسها وأعربت عن نفورها بالقول إنها لن تأكل لحم الخنزير لو توّجوها ملكة على إسبانيا.[1] ومن مدينة القلعة في قشتالة لدينا قصة أخرى عن أندلسي باسم خوان هريرادور رفض الأكل من صحون قُدم عليها لحم الخنزير، ورفض استعمال سكين ذُبح بها خنزير وفضّل عوضاً عن ذلك قطع ما كان يريد أكله بأصابعه. وكانت لهذا الأندلسي كروم يصنع من عنبها الخمر لكنه لم يكن يشربها. وفي وثائق محاكم التحقيق أن بعض الأندلسيين كانوا يذهبون إلى القصاب ويشترون لحم الخنزير متظاهرين برغبتهم في تناوله في البيت إلا إنهم في الحقيقة كانوا يطعمونه للكلاب.

وتعددت سبل مقاومة الأندلسيين الطقوس المفروضة عليهم ومنها التعميد ففي الحالات التي لا يستطيعون فيها إخفاء ولادة طفل لهم كانوا يأخذونه إلى الكنيسة لتعميده ويعودون إلى البيت بسرعة فيغسلون رأسه مرات عدّة ويمسحونه برقاق الخبز ثم يقرأ عليه الفقيه القرآن ويعطونه إسماً عربياً سيظل معروفاً به بين الأندلسيين، ويُلبسونه ثوباً أبيض ويحتفلون بمقدمه على الطريقة الأندلسية بالرقص والغناء. وفي حالات أخرى نجد الأندلسيين يلجأون إلى خيالهم الخصب فتتفتق عقولهم عن طرق لا تخلو من طرافة للالتفاف على تعميد أولادهم. ويروي المؤلف بارونات قصة عن بلدة أندلسية كان أهلها الأندلسيون يعمّدون مولوداً واحداً فإذا جاءهم مولود جديد أخذوا الطفل المُعمّد سابقاً للتعميد وتركوا الجديد ويظل الأندلسيون «يستعيرون» الطفل المُعمد لتلقي التعميد كلما رُزق سكان البلدة بمولود جديد.[2]

ووجد الأندلسيون في الفقهاء سنداً يلجأون إليه في الملمات مما ساعدهم على الصبر ودعم قدرتهم على المواجهة. وقاوم الأندلسيون محاكم التحقيق والكنيسة والسلطة بأسلحة كثيرة لعل أهمها جدار الصمت الذي أقاموه بينهم وبين السلطات الثلاث لأن الاعتراف كان مقدمة لإنزال العقوبة التي لا يتحقق من دونها الغفران ما لم يصدر بذلك مرسوم ملكي أو إرادة بابوية. وكان التزام الصمت أسهل أيضاً من الكلام، واقتضابه أسلم من الاستفاضة به لذلك كانت مهمة عمّال محاكم التحقيق الذين يُرسلون إلى تجمعات الأندلسيين للتأكد من سلامة تنصّرهم وتلقي الاعترافات تنتهي بسرعة كبيرة لأن الأندلسيين كانوا لا يعترفون بارتكاب أي ذنب ولا يقرون بأي خطيئة وليس عندهم عادة ما يقولونه عن شيء. وكانت هناك استثناءات ففي بلدة

[1] Ignacio Bauer y Landauer. *Relacions y manuscritos Moriscos*, Madrid, p 60.

[2] Baronat y Barrachina. *Los Moriscos españoles y su expulsion*, Valencia, Imprenta de Francisco, 1901, tome II, p 252 .

ميرافات Miravete القريبة من طرطوشة كان رئيس الدير ضعيف السمع لذا كان جميع الأندلسيين ينتظرون دورهم للإعتراف له. وفي حالات استثنائية جداً، كما يبدو، تمكّن بعض الأندلسيين من الحج، بل ان بعضهم لم يتمكّن من أداء هذه الفريضة فأوصى ابنه بأدائها فلم يتمكن فأوصى ابنه وهكذا إلى أن تمكن أحد أحفاد الأندلسيين من أداء الحج في نحو عام ١٨٠٥، أي بعد نحو ٢٠٠ عام من موجة التغريب الأولى. ونجد من هؤلاء إسبانياً يدعى بَدية M. Badhia توجه إلى مكة لاتمام فريضة الحج عام ١٨٠٧ مع عدد من الأصدقاء المغاربة، وسجّل في كتاب نادر وصفاً دقيقاً لمشاهداته هناك، بما في ذلك وصول قوات وهّابية لأداء هذه الفريضة.[1]

ومن أشهر الحجاج الأندلسيين الحاج بوي مونسون Puey Monçon الذي انطلق من بلنسية وزار تونس ومصر والحجاز ووصف الديار المقدسة. ونظم الحاج بوي مجموعة قصائد رباعية المقاطع باللغة الأعجمية نشرها المستشرق الإسباني مريانا دي بانو. وتداول الأندلسيون في أرغون قبل تغريبهم قصيدة من تأليف الحاج بوي يقول فيها:

سافرت بفرح
بعيداً عن كل أقاربي
وتحوّلت إلى أرض العرب
لاتمام فريضة الحج

وللقيام بهذا الحج
الذي هو فريضة مهمة
من شأنها غسل كل آلام
من يقوم بمثل هذه الرحلة.[2]

---

[1] . *Arabia*, London, (1825) p 220 . ويُذكر هنا أن الانكليزي جوزيف بتس الذي أسلم بعدما أسره الجزائريون آخر القرن السابع عشر، كان من بين أول الأوروبيين الذين سجّلوا مشاهداتهم في الديار المقدسة.

[2] نقلها كاردياك (الموريسكيون الأندلسيون... ص ٣٣) عن Revue Tunisienne. أنظر أيضاً: «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»، خالد بن عيسى البلوي، تحقيق الحسن السائح، المحمدية، المغرب، ص ٩٥. وليس من السهل قراءة النصوص بهذه اللغة لأن الأندلسيين استخدموها «صورة» للعربية وليس بديلاً لها. ومن بعض مفردات الأعجمية: Alaghet Aszagheo (العيد الصغير)، Hamalaya (الحمد لله) la Zala (الصلاة)، atheuia (عاشوراء) Hizaq (النبي إسحاق) alquefniros (الكفار).

ومن الواضح أن التمسّك بالإسلام وفرائضه كان جزءاً أساسياً من حركة المقاومة لذا حض الفقهاء جماعاتهم الأندلسية على التزامه وتعليم مبادئه لأولادهم. واقتضت أهمية ضمان ارتباط المجتمع الأندلسي تنظيم اجتماعات ولقاءات كانت تتم في بيت الفقيه أو في أحد بيوت الجماعة، فيقرأ عليهم القرآن أو الحديث، أو يسرد لهم قصص الأنبياء والصحابة وتاريخهم الأندلسي. وانتبهت محاكم التحقيق في وقت مبكّر إلى الدور الذي يلعبه الفقهاء في تقوية ارتباط الأندلسيين بدينهم وعاداتهم فكانوا يلاحقون هؤلاء في كل مكان. وخلال تلك الفترة كان مجرد الاجتماع مع فقيه أو استقباله في بيت أحد الأندلسيين جريمة كبرى. وأتقن الفقهاء تفادي الاعتقال كجزء من تدريبهم إلا أن بعضهم وقع بيد عمّال محاكم التحقيق ولا بد أن هؤلاء خضعوا إلى تعذيب رهيب. ففي عام كان فقيه يقرأ القرآن لجمع من الأندلسيين في أحد منازل قرية أسكون Ascon من أعمال قطالونيا فداهم رجال محاكم التحقيق البيت فجأة واقتادوا الفقيه إلى مقر محكمة التحقيق في بلنسية ولم يره أحد بعد ذلك ولا نعرف ما حدث له.

٣ - اسباب تغريب الأندلسيين من اسبانيا

(الاعتبارات الإسبانية)

١٠٠ عام من الجهد الضائع

«كيف يأمل المرء أن يهدي إلى طريق السيد المسيح شعباً عنيداً قاوم التبشير للنصرانية والاضطهاد قرناً كاملاً، ولا يزال إخلاصه لقرآنه كما إخلاص العرب في المغرب؟ لقد كان الرهبان الذين انيطت بهم مهمة تعليم الموريسكيين مبادئ الكاثوليكية يعرفون تمام المعرفة أن هؤلاء، وإن مارسوا طقوس النصرانية، فإن هذه الممارسة لم تكن أكثر من مراءاة سببها الخوف من محاكم التحقيق. فمثلاً حين يكون عليهم الذهاب إلى الكنيسة في عيد الفصح للاعتراف، فإنهم كانوا يقدّمون أنفسهم بطريقة عالية الانتظام، لكنهم لا يعترفون بارتكاب أي ذنوب. ولم يُعرف عنهم أنهم توجهوا إلى القساوسة بطلب المساعدة حين يمرض أحدهم خوفاً من حضور القساوسة بصفتهم الرسمية، لذا تستّروا على مرضاهم وتعرض الجميع «إلى موت مفاجئ» كما كانت الأسرة تدعي وهي تمكر. أضف إلى ذلك أن عددهم لم ينقص منذ طردهم فيليب الثاني من مملكة غرناطة (عام ١٥٦٩)، بل حدث العكس وازدادوا عدداً لأنهم امتنعوا

عن اللحاق بالجيش أو حتى الانخراط في خدمة الكنيسة، وأكثروا من إنجاب الأطفال وربوهم على كره المسيحية». [١]

هذا، باختصار، هو رأي الإسبان في الأندلسيين. وهذه، باختصار، قصة الإسبان مع الأندلسيين: فيها انتصارات كثيرة لكن فيها إخفاقات كثيرة أيضاً وجهد ضائع صرفته الكنيسة ومحاكم التحقيق على كثلكة الأندلسيين. ولا بدّ أن ملايين الإسبان كانوا يشعرون بالحيرة من نجاحهم الهائل في المستعمرات في العالم الجديد حيث نصّروا الملايين، ومن إخفاقهم الهائل في إسبانيا. فبعد أكثر من ١٠٠ عام من التبشير القسري ظل الأندلسيون «لا يأخذون الماء المقدس إذا دخلوا الكنيسة، ولا يرسمون علامة الصليب. لقد كانوا مثل الشيطان وأشد أعداء المسيح... وكنا فرضنا عليهم الخوف، الا أننا نلاحظ قلة إيمانهم لحظة رفع القربان المقدس، إذ يقطّبون جباههم وينزلون رؤوسهم ويحولون وجوههم بعيداً، ويدفعون أولادهم الى البكاء ليزيدوا القاعة ضوضاء. بل هناك حادث خارق للعادة تمثّل في حمل أحدهم السبحة وهو في الكنيسة!». [٢]

إن دراسة التاريخ تقود أحياناً إلى الاستنتاج بأن الأمم المهزومة توجه نقمتها إلى الداخل لخلق التوازن النفساني المطلوب للتغلّب على روح الهزيمة، أو تغرق في الرذيلة وتمضي في طريق الانحلال الخلقي، أو تلجأ إلى موجة من الورع والتعبد وتعميق الحس الديني المشوب بالمهانة القومية. وهذا ما حدث في إسبانيا بعد هزائم نهاية القرن السادس عشر حين بدأت الكنيسة تبشّر بدعوة شاملة للخلاص من الذنوب والعودة إلى الكنيسة، وتنظر إلى الهزائم على أنها إنذار بنكبات أفدح وعقاب على ابتعاد الناس عن دينهم. وخرجت الكنيسة بعد الهزائم لتقول إن أسباب هذه الهزائم وجود عناصر في قشتالة تدعي النصرانية جهراً وتضمر الإسلام. وتقول إن طرد اليهودية من آيبرية لم يكتمل بعد، لأن أعداداً منهم بقيت في البرتغال التي ضمها فيليب الثاني إلى ممالكه بالقوة عام ١٥٨٠، وإن وجود مثل هؤلاء سبب الغضب الإلهي على قشتالة. وبارتفاع عدد المصائب التي تعرضت لها البلاد في آخر ذلك القرن، مثل الأزمات الاقتصادية وانتشار وباء الطاعون، كانت الكنيسة تضم إلى

---

١. Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, p 19 . والنص المشار اليه من وصف لرحال فرنسي هو Antoine de Brunel زار إسبانيا سنة ١٦٥٥ وضمّن مشاهداته رسالة أسماها *Voyage d`Espagne* . والنص الأصلي للرسالة في: Revue Hispaniqe, Vol. XXX, (1914), PP 119-476.

٢. Guadalajara, Marcos De & Xavier. *Memorable expulsion y justiismo destierro de los Moriscos de Espana*, Pamplona, Nicolas de Assiayn, 1613, folio 159 .

صفوفها مؤيدين جددا نادوا بنفي الأندلسيين إذا أريد لإسبانيا أن تحقق النصر الذي تريده لنفسها وللكنيسة. وتضافرت جهود رجال الدين والكتّاب لتأليب الرأي العام على الأندلسيين. فقبل بدء تغريب الأندلسيين أصدر خوان دي ريبره Juan de Ribera رئيس أساقفة بلنسية (١٥٣٣-١٦١١) أوامر إلى مطرانيته بوقف المناولة للأندلسيين بعد تقاطر الشكاوى من سوء تعاملهم مع الطقوس الكنسيّة. ودعم الكتّاب هذا الموقف فسجّلوا قبل تغريب الأندلسيين وبعده انتقاداتهم للأندلسيين ووصفوهم بأنهم ثعابين وضفادع وذئاب وعقارب وحيوانات سامة، ويمثّلون «السم والحشرات الطفيلية والنبتة السيئة في حقل كنيسة إسبانيا». [١]

واكتشف هؤلاء أن الأندلسيين لم يصبحوا نصارى في حياتهم إذ تحدثوا عن الكاثوليكية لكنهم ظلوا مسلمين ممتازين. ويلخص بارونات القصة كلّها بالقول: «لم يكن لدى الموريسكيين أي رغبة في أن يصبحوا مسيحيين، فكل ما يتمنونه هو النجاة من محاكم التحقيق». [٢] إلا أن المشكلة لم تكن دينية فقط إذ حسد القشاتلة الأندلسيين دائماً على صنعتهم وجدّهم في العمل، واستكثروا أن يتمكن هؤلاء من جمع المال بعد كل الضغوط التي يتعرضون لها. ونجد مثالاً جيداً على هذا الموقف من عرض الآتي: «إن انتاجيتهم (أي الأندلسيين) عالية جداً. وعلى رغم مجيئهم الى قشتالة (من غرناطة بعد نفيهم عام ١٥٦٩) قبل عشر سنوات فقط من دون أن يملكوا شبراً من الارض، وعلى رغم عقم تلك السنين فانهم أصبحوا متنفذين، وصار كثيرون اغنياء إلى درجة انه يمكن ان نتوقع بعد ٢٠ سنة من الآن أن يعمل المواطنون الأصليون في خدمتهم». [٣]

الأسباب السياسية

تصدى فيليب الثاني لكل من وقف في وجه حلمه في صنع المملكة العالمية القائمة على إسبانيا الكاثوليكية. وسخر لهذا الهدف آلة حربية جبّارة انفق عليها ثروات إسبانيا وفضة المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد والأموال البابوية. وحاولت فرنسا الوقوف في وجه توسّع فيليب الثاني إلا أنها انهارت بعد سلسلة من الحروب التي قامت بين ١٥٥٦ و١٥٥٩ وتنازلت له عن دوقية برغندي ونابولي. وفي هولندا

---

١ Cardona, Aznar. *Expulsion justificadas*, p100.

٢ Baronat y Barrachina. *Los Moriscos*... tome I, p 381

٣ Janer, Florencio. *Condicion social*... p 272

لم تعد سياسة فيليب الثاني مقصورة على إخضاع تلك الأقاليم الثرية وإبادة البروتستانت إذ كانت تستهدف الآن «قشتلتها» تماماً وتحطيم نبلائها الذين كان يسميهم Geuzen، أي الشحّاذون.

وكانت البروتستانتية بدأت الانتشار في انكلترا عندما اعتلت ماري تيودر العرش واختارت الكاثوليكية مذهباً رسمياً. وبما أن ماري كانت زوجة فيليب الثاني فقد ضمن انكلترا إلى صفه، وكان في استطاعته توجيه كل قوته إلى فرنسا والثوار الهولنديين. وماتت ماري عام ١٥٥٨ فخلفتها شقيقتها إليزابيث الأولى التي أعادت البروتستانتية مذهباً لمملكتها. وتقدم فيليب يطلب يد إليزابيث فماطلت وعرضت نفسها لكل الملوك الكاثوليك والبروتستانت إلا أنها لم تقبل أحداً في النهاية واشترت بماطلتها الوقت كي تستتب أوضاع الكنيسة البروتستانتية التي أخذت وقتها شكلاً مُخففاً بات يُعرف باسم «الكنيسة الانجيليكية».

وخلال هذه الفترة العاصفة من تاريخ أوروبة لم يكن قريباً من فيليب إلا القادة العسكريون من أمثال دوق ألبة واسكندر فارنيس ودون خوان. وصارت الحرب هاجس هذا الملك فراح ينفق عليها بلا حساب. إلا أن التكاليف كانت خيالية فبدأت الصدوع تظهر على سطح الاقتصاد الإسباني وانهار فجأة ووجد فيليب الثاني نفسه عاجزاً عن سداد ديونه المتعاظمة فأعلن إفلاسه عام ١٥٧٥. وعادت أوضاع فيليب المالية فتحسنت بفضل فضة البيرو، ثم استغل الاضطراب الذي اجتاح البرتغال بعد مقتل الملك سباستيان في معركة القصر الكبير (أو وادي المخازن) في المغرب فروّج أن الملكة إليزابيث أمدّت المغاربة بالمدافع والبنادق، ثم أمر دوق ألبة بدخول البرتغال فتقدم بجيشه في نهاية حزيران (يونيو) عام ١٥٨١ وسحق المقاومة الضعيفة التي أبداها البرتغاليون واحتلها واستولى على اسطولها الضخم وممالكها الهائلة في ما وراء البحار خصوصاً البرازيل.

وتعرضت سلطة فيليب الثاني في هولندا إلى هزّة عنيفة عام ١٥٨١ عندما أعلن اتحاد الأقاليم الهولندية استقلاله عن «الطاغية الإسباني كاسر القوانين». وبعد ثلاثة أعوام من ذلك دبّر فيليب الثاني اغتيال وليام الأورانجي ودفع إلى هولندا جيشاً ضخماً قاده فارنيس الذي احتل انتويرب عاصمة المال والتجارة في شمال أوروبة عام ١٥٨٤. وكانت هولندا آنذاك قوة بحرية ضخمة فأقامت امبراطورية عائمة في أعالي البحار وفي المستعمرات التابعة لها، وبدأت سفنها الإغارة على السفن والموانىء الإسبانية بمساعدة الانكليز.

وتفادت إليزابيث الأولى حرباً خفيّة مع إسبانيا لأنها لم تكن نداً عسكرياً لها، وراحت تدعم الهولنديين، ثم سلّطت على الأساطيل الإسبانية عدداً من أشهر القراصنة (يسمّيهم الانكليز مُستربحون Privateers) مثل فرانسيس دريك وجون هوكنز لنهب الذهب والفضة وعرقلة الحركة التجارية. وطلب فيليب الثاني من إليزابيث تفسيراً لهجوم القراصنة الانكليز على سفنه فماطلت في الإجابة لكنه كان توصّل إلى استنتاجه الطبيعي فقرر القضاء عليها، وأعدّ لهذه الغاية أسطولا ضخماً مؤلّفاً من ١٣٠ سفينة حربية حملت نحو ٢٧ ألف جندي وسيّره إلى انكلترا عام ١٥٨٨.

وتجمعت عوامل عدّة أدت إلى إخفاق الحملة، وكان حظ الإنكليز جيداً إذ هبت عواصف شديدة على القنال الإنكليزي، فيما تمكّن البحارة الإنكليز من اغراق بعض السفن في مناورات محددة، ولم يكن دوق مدينة شذّونه قائداً مناسباً ففقد الأسطول (الارمادا) ثلث سفنه، لكنه أكمل دورته حول الجزر البريطانية وعاد إلى قشتالة. وكلّفت هذه الحملة فيليب الثاني نحو عشرة ملايين دوقة ذهبية وبعض سمعته لكنه تابع دعم الجيوش فارتفعت النفقات العسكرية في السنوات الأولى من تسعينات القرن السادس عشر إلى ١٢ مليون دوقه سنوياً، ولم تعد فضة العالم الجديد تغطي أكثر من ربع تلك النفقات، فزاد الضرائب وأغرق مملكته في الديون التي اقترضها من الممولين الألمان والإيطاليين واليهود.

وفي عام ١٥٩٥ تحرّكت فرنسا ضد فيليب الثاني لوقف تدخل بدأ قبل خمسة أعوام من ذلك عندما لعب دوراً مهماً في المذبحة التي تعرض لها البروتستانت الأوغنو، وانضمت إلى فرنسا كل من إنكلترا وهولندا. واستمرت المعارك في البر والبحر أربع سنوات إنهار الاقتصاد الإسباني خلالها مما اضطر فيليب الثاني إلى إعلان إفلاسه مرة ثانية عام ١٥٩٨. وفي السنة ذاتها رضخ فيليب الثاني لمطالب الفرنسيين عدم التدخل في شؤونهم الداخلية بموجب صلح فيرفان Vervins، ومات قبل انتهاء العام.

الحالة العامة

كان حظ الأندلسيين أن تحمّلهم قشتالة أسباب إخفاقها على سائر الجبهات لأنهم كانوا في متناول اليد، ولأنهم كانوا أقلية تتمتع بنفوذ سياسي ضئيل جداً، ولأنهم كانوا عموماً فقراء عاجزين عن مد الحكومة تلو الأخرى بالمال الذي تريده، ولأنهم أصروا على شخصيتهم المستقلة في وجه كل الضغوط التي استمرت أكثر من قرن من

الزمن. وعندما كان الأمر يتعلق بالأندلسيين فان التاريخ القشتالي كان يعيد نفسه، فكانت المخاوف القومية والدينية والاجتماعية تجد متنفسها في اضطهاد الأندلسيين. وكانت تطورات آخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر تذكر كثيراً بوضع قشتالة في آخر سبعينات القرن السادس عشر ذلك أن متاعب قشتالة مع الهولنديين والإنكليز لم تنته، وأصبحت أرغون ثانية من أصعب الممالك التابعة لقشتالة، وتوج ذلك بإعلان الثورة هناك سنتي ١٥٩١ و١٥٩٢، ولم يكن هناك حل سوى تسيير الجيوش إلى أرغون وقمع الثورة في مدينة سرقسطة. وبما أن العمليات العسكرية كانت مستمرة مع الأتراك والساحل المغربي كان من الطبيعي أن تُثار بين الحين والآخر مسألة مساعدة الأندلسيين الجدد للعثمانيين أو المغاربة ضد إسبانيا.

وفي تلك الحقبة كانت المضاعفات النفسانية للهزائم التي حاقت بإسبانيا تفوق بأضعاف التأثير الفعلي لتلك الهزائم. ووجد القشتاليون أن الحروب التي قادتهم إلى القمة تقودهم ثانية إلى الهاوية، وربما لم يكن بين جميع الممالك التي خضعت لقشتالة مملكة تعرضت لأزمات سياسية واقتصادية شبه مستمرة مثل قشتالة ذاتها. وبينما تحسّن وضع بعض تلك الممالك الجديدة استمرت إسبانيا تعاني من مشاكلها القديمة. وكان عهدا كارلوس الخامس وفيليب الثاني مليئين بالانتصارات الهائلة والهزائم الهائلة، لكن الأب وابنه تمكّنا من المحافظة على الإمبراطورية وتوسيع رقعتها عند توافر الظروف المناسبة.

وقبل أن يموت فيليب الثاني أبلغ إلى النبلاء أن كل ما يخشاه هو أن يصبح ابنه فيليب الثالث محكوماً لا حاكماً. وتحقق توقّع فيليب الثاني بعد موته إذ راح دوق ليرما يدير شؤون البلاد، فيما تفرّغ فيليب الثالث للاستمتاع بالدنيا والجلوس أمام دييغو فلايثكويث (فيلاسكويز) لرسمه واقتناء اللوحات الفنية والمفروشات الكلاسيكية من إيطاليا وبناء القصور الفاخرة. وكانت متاعب إسبانيا وقتها أعمق من أن يحلّها دوق ليرما (أعظم لص في إسبانيا[1]) فاستمر الإفلاس والتقهقر أمام البروتستانت فطلب الصلح من الإنكليز عام ١٠٦٤، ثم توصّل مع الهولنديين البروتستانت إلى اتفاق مهين نص على التزام الطرفين هدنة تستمر ١٢ سنة اعتباراً من التاسع من نيسان (إبريل) عام ١٦٠٩، ورأى الإسبان في الاتفاقين خضوعاً كاثوليكيا من حامية الكاثوليكية للبروتستانت.

وكانت هذه التطورات كافية لتفقد قشتالة توازنها الذي قام على تحقيق الانتصار تلو

---

[1] Kinder, Herman & Hilgemann, Werner. *Atlas of World History*, Vol. 1, (London) p 243.

الآخر، وكانت دافعاً للتوقف والتفكير في حال البلاد. ولم تستطع إسبانيا النهوض لمقارعة خصومها الخارجيين فانكفأت إلى ذاتها وساد التفكير بقدرية الأحداث وعبث الأيام كما صوره بعض أهم أدباء إسبانيا. هنا ظهرت شخصية عثمان الفراش[1] المتنقل دائماً من مكان إلى آخر وهو يحاول أن يعيش ليومه من دون الحاجة لمعرفة ألم التفكير في الغد. وهنا ظهرت شخصية دون كيخوتي دي لا مانشا عام ١٦٠٥ كما رسمها سيرفانتس - عجوز، مثل صانعها، يحارب العمالقة وطواحين الهواء وسط جو من الفروسية الخيالية والأعداء الخياليين، وبطل في زمن لم يعد يحتمل بطولة ولا أبطالاً. وكانت تلك الفترة فترة تكشف الحقيقة. الحقيقة بأن إسبانيا كانت فقيرة على رغم الفضة التي تتدفق عليها من العالم الجديد؛ ضعيفة على رغم اتساع ممالكها الهائلة؛ أول من يحس بالكوارث النازلة بها وآخر من يستمتع بالمجد الذي بحثت عنه؛ أول من زرع وآخر من حصد. ومن خلال بحث قشتالة عن ذاتها المضطربة في بداية القرن السابع عشر اتضح للكثيرين مدى تدنّي الروح المعنوية وبرزت حاجة هائلة لتحقيق انتصار ما. وتصور كثيرون أن نفي الأندلسيين سيكون الانتصار الذي يعيد إليهم الشعور بالعظمة، ويرفع معنوياتهم الهابطة. وهكذا سعت إسبانيا إلى تحقيق انتصار داخلي حين عجزت عن تحقيقه في الخارج، وكان الرأي العام الإسباني أكثر من مهيأ لتحقيق هذا الانتصار وتغريب الأندلسيين.

وخلال فترة الإعداد لتغريب الأندلسيين ارتفعت أصوات تنبه إلى خطورة مثل هذه الخطوة لكنها كانت أصواتاً قليلة وكانت المشاعر متضاربة: «وقف البعض موقف إدانة لهذه القسوة المتطرفة التي كانت تبعد شعباً بأكمله عن موطنه الأصلي. لكن آخرين امتدحوا هذا العمل الذي لم يُظهر فقط تقوى ملكهم الكاثوليكي (فيليب الثالث) بل خلّص إسبانيا من هؤلاء النصارى المزيفين الذين كان أجدادهم سادة إسبانيا قروناً عدّة بينما استمروا في تعاملهم الخفي مع الأفارقة والأتراك والأعداء الآخرين للملكيّة. وكان منتقدو مرسوم فيليب الثالث ومستشاروه يقولون إن الإسبان استمروا قرونا عدة في السماح للأندلسيين العيش بينهم في أرض استعادوها، وممارسة دينهم. وكانوا يقولون أيضاً إن الإسبان سمحوا للأندلسيين بإستغلال الأرض والقيام بأعمال مختلفة لم يعد النصارى يعتادونها، لأن الإسبان كانوا شغوفين بشن الحرب. أولئك الذين

[1] الشخصية من إبداع المؤلف الإسباني ماتيو ألمان (١٥٤٦؟-١٦١٠) الذي وضع رواية اسماها «سيرة عثمان الفراش (Guzman de Alfarache) -«مرآة للحياة الإنسانية» أو «الأنذال» استقى بعض احداثها من ملاحظاته خلال مساعدة والده الذي كان جراحاً في سجن إشبيلية. وكان المؤلف وفياً لشخصية عثمان الفراش فأمضى قسماً من حياته متسكعاً، ثم ارتحل إلى جزر الهند الغربيّة مغامراً ومات في المكسيك.

تبنوا هذا الاتجاه كانوا يعتقدون أنه من غير الصواب إنزال عقاب شامل يمكن أن تخرج الدولة بعده أكثر ضعفاً وأقل صلاحاً، ما لم يكن لمثل هذا العقاب دافع قوي. لكن الذين أيّدوا المرسوم (مرسوم التغريب) كانوا أكثر عدداً، واعتبروا القرار بطولياً وصائباً. وأقرّ هؤلاء بالشرور التي يمكن أن تلحق بإسبانيا نتيجة القرار، لكنهم كانوا يرون في هذه الشرور ثمناً لا يمكن مقارنته بالأذى الذي يتهددهم إذا استمر بقاء الموريسكيين في المملكة». [1]

هل كان وجود الأندلسيين في إسبانيا سيهدد وجود إسبانيا فعلاً؟ الجواب تأكيداً هو نعم. هل كان الأندلسيون مستعدين للتعاون حتى مع الشيطان لرفع كابوس الاضطهاد عن صدورهم؟ الجواب لا بدّ أن يكون نعم أيضاً. لماذا؟ لأن إسبانيا الديمقراطية الحديثة فقط وجدت الحل لكل الأقليات في آيبرية وتوابعها عن طريق منحها الحكم الذاتي وأنهت بذلك معظم مشاكلها القديمة مع الباسك والنافاريين والقطلان. لكن هذا لم يكن ممكناً في القرن السابع عشر. كان على إسبانيا وقتها التمكّن من تغيير نفسها قبل أن تستطيع السماح للأندلسيين بالحياة والاستمرار وتحسين أوضاعهم الإنسانية والمعيشية، والتوقف عن إحراق الأندلسيات والأندلسيين ومصادرة أموالهم وأملاكهم وحرياتهم.

وبدت إسبانيا في لحظات قليلة كأنها يمكن أن تترك الأندلسيين يمارسون الحد الأدنى من الحريات الدينية والاجتماعية والاقتصادية، لكن المخاوف الداخلية التي أججها التعصب الديني والقومي، والمخاوف الخارجية التي أثارتها الهزائم العسكرية المتلاحقة لم تسمح لتلك اللحظات أن تتحول إلى وقت مجد. ولم تعد إسبانيا قادرة على الوصول إلى هذا الحل بعد ذلك لأن الكاثوليك الفرنسيين والبروتستانت الإنكليز والهولنديين كانوا بدأوا الحروب الأخيرة لتدمير قوة إسبانيا، وكانت ثورة كبيرة أخرى يشعلها الأندلسيون في إسبانيا ستؤدي إلى قلب موازين القوى. وفي النهاية ظل معظم الأندلسيين عرباً ومسلمين، لكن بين الكاثوليكية والبروتستانتية، كان الأندلسيون سيختارون البروتستانتية ليس لقناعتهم بها، بل لأنها كانت ستساعدهم على تدمير إسبانيا الكاثوليكية التي سعت إلى تدميرهم بكل الوسائل. ولا نعرف مقدار ذكاء فيليب الثالث، لكنه لا بدّ أن يكون توصل إلى هذا الاستنتاج عندما قرر تغريب الأندلسيين.

---

[1] Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, pp 18-19.

٤ - تغريب الأندلسيين الجدد

في عام ١٥٩٩ زار فيليب الثالث بلنسية لعقد قرانه إلى مرغريت النمسوية وأثيرت خلال الأفراح مسألة الأندلسيين فأصدر مرسوماً ملكيّاً بالعفو عنهم إذا اعترفوا للكنيسة بذنوبهم وخطاياهم وأصلحوا أمورهم وطلبوا المغفرة والصفح. وكتب فيليب رسالة بهذا المعنى إلى خوان دي ربيره رئيس أساقفة بلنسية أمره فيها بمباشرة تعميد من لم يتعمد بعد من الأندلسيين ومعاملتهم بالحسنى لكسب تعاونهم.[١] وفي الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) من العام نفسه أصدر البابا بولس الخامس إرادة منحت الأندلسيين عفواً عاماً عن كل خطاياهم لمدة سنة واحدة. وانقضت المهلة من دون أن يتقدم الأندلسيون للاعتراف بخطاياهم فتحرّكت محاكم التحقيق وعمّدت عدداً من الأندلسيين بالقوة. واحتج الأندلسيون على هذا الإجراء فردّت الحكومة باتهامهم بالتآمر مع الفرنسيين وتعهدهم للمغاربيين بتوفير ٢٠٠ ألف مقاتل لاحتلال بلنسية إذا تمكن هؤلاء من إرسال ٢٠,٠٠٠ مقاتل فقط، ثم أعدمت عدداً منهم شنقاً. وخلال السنوات الثماني التي اعقبت زيارة فيليب الثالث الى بلنسية استمرت مقاومة الأندلسيين للتعميد، وبدأ دوق ليرما التفكير بتغريبهم ما لم تنصلح حالهم نهائياً عاكساً رأيه هذا في قول مشهور هو: «لن تصبح ممالك إسبانيا نقيّة طاهرة إلا بإقصاء الموريسكيين عنها».[٢]

وكاتب دوق ليرما البابا بولس في شأن موقف الأندلسيين فاتفقا على توجيه دي ربيره إلى عقد اجتماع بهدف تحديد «الاجراءات المناسبة لتنصير الأندلسيين وتعميدهم وإعادة تعميد من تنصّر منهم سابقا».[٣] وبعد الاجتماع تقرر تكليف مجمع أسقفي بدراسة الاجراءات المناسبة ضم، بالإضافة إلى دي ربيره، دون كاريو الطليطلي مركيز دي كرانثيا نائب الملك في بلنسية، وأساقفة مدن أريولة وسيغوربي وطرطوشة وتسعة علماء لاهوتيين وقاضي محكمة التحقيق الدكتور بارتولو سانشيث فيما عُيّن المؤرخ البلنسي غاسبار إيسكولانو سكرتيراً للمجمع. وتحوّل هذا المجمع إلى مجلس عقد

---

[١] أنظر دراسة الدكتور محمد عبده حتاملة «موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فيليب الثالث ١٥٩٨-١٦٢١».

[٢] Regla, Joan. *Estudios sobre los moriscos*, (Barcelona 1974) p 49.

[٣] «تاريخ انتفاضة الموريسكيين وطردهم من إسبانيا وتأثير ذلك في جميع أقاليم المملكة»، لمؤلف موريسكي مجهول، الفصل العاشر، ص ١٥٤. واسم هذا الكتاب بالقشتالية: *Historia del alzamiento de los moriscos su expulsion de españa y sus consecuencias en todas las provincias del reino.*

جلسات على مدى ثلاثة أشهر اعتباراً من الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٦٠٦ أصدر بعدها قراراً بضرورة تنصير الأندلسيين ثانية وتلقينهم أصول الكاثوليكية أو تغريب من يرفض الانصياع إلى هذا القرار.

ولم يجد الأندلسيون جديداً في القرار فتجاهلوه. وعندما أصرّ الأندلسيون على موقفهم كُلف الكونت دي ميراندا قائد مملكة ليون الأعلى والراهب خيرونيمو الاتصال بالبابا بولس الخامس لشرح الأوضاع واقتراح تغريب الأندلسيين فوافق على الفكرة. وتحولت الفكرة إلى مشروع قرار أحيل في التاسع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٦٠٧ الى مجلس الدولة الاستشاري للتصديق عليه. وحدث هذا فعلاً في الرابع من نيسان (إبريل) عام ١٦٠٩ ونُشر القرار بعد ذلك بخمسة أيام. وفي هذه الاثناء كان دوق ليرما كتب إلى نواب الملك في نابولي وصقلية وميلانو طالباً إرسال السفن والقوات إلى بلنسية. وأسند مهمة تغريب الأندلسيين إلى القائد العسكري أوغسطين دي ميخيا Augustin De Mexia الذي نزل بلنسية في العشرين من آب (اغسطس)، وشرع على الفور في درس الترتيبات مع نائب الملك والقادة العسكريين.

وأيقن دي ميخيا بعد التعرف على المشاكل التي ستواجهه أن عملية التغريب لن تكون سهلة وستقتضي عدداً أكبر من الجنود. فبين عام ١٥٥٣ و١٦٠٩ زاد عدد الأندلسيين في المناطق الشرقية بنسبة ٧٠ في المئة في مقابل زيادة بين الأرغونيين قُدّرت بنسبة ٤٥ في المئة فقط. وعلى هذا يمكن أن يكون عدد الأندلسيين على الساحل الشرقي في حدود نصف مليون أندلسي حتى بعد الأخذ في الاعتبار الأعداد التي نزحت عن إسبانيا خلال نصف القرن الواقع بين التاريخين حتى كان يُقال إن الإسبان ملكوا المدن باستثناء مدينة بلنسية، لكن الأندلسيين ملكوا الأرياف.

واقترح دي ميخيا على دوق ليرما حلاً أسهل هو البدء بترحيل الأندلسيين في باقي المملكة ثم ترحيل أهل بلنسية. لكنّ دوق ليرما أصر على تغريب أهل بلنسية أولاً لكسر تجمعهم الأكبر. وتم الاتفاق وفقاً لذلك على نشر قسم من الجنود في مدن الآفاق ودانية ولقنت، وتكليف قائد قوات الأسطول بدرو الطليطلي التوجه إلى المراكز الاستراتيجية في جبال إسبادان للسيطرة على تجمعات الأندلسيين هناك ومنع باقي الأندلسيين من اللجوء إلى تلك الجبال.

وحتى تلك الفترة كان معظم الأندلسيين وقسم كبير من الإسبان يعتقدون أن الملك فيليب الثالث لن يمضي حتى النهاية في قرار التغريب. إلا أن الخطوات العملية التي بدأت حكومة دوق ليرما في اتخاذها لتنفيذ القرار أثارت مزيجاً من القلق والبهجة

على حد سواء إذ كان معظم الشارع الإسباني يؤيد طرد الأندلسيين لكن قسماً كبيراً من النبلاء والاقطاعيين الذين وظفوا أعداداً كبيرة من الأندلسيين في إقطاعاتهم وقف موقفاً معارضاً. وتبلورت مع الوقت حركة معارضة واسعة للتغريب تزعّمها رئيس الأساقفة دي ربيره نفسه. ويقترح بعض المؤرخين أن السبب الرئيس في هذه المعارضة مسؤوليته كمشرف عام على أملاك كنائس المملكة وأديرتها حيث عمل عدد كبير من الأندلسيين في زراعة الأراضي التابعة لها، إلا أن هناك أسباباً مهمة أخرى إذ كان تغريب الأندلسيين تأكيداً نهائياً على اخفاق سياساته. وكان يعتقد أن اعطاءه مزيداً من الوقت يمكن أن يكون كفيلاً بتحقيق نجاح مُعتبر في جعل الأندلسيين كاثوليكيين طيبين. وحاول دي ربيره إقناع دوق ليرما بتأجيل تنفيذ القرار وإعطاء الأندلسيين مهلة أخرى فأخفق، فاقترح الإبقاء على الأندلسيين في أرغون والإكتفاء بتغريب الباقين في قشتالة ومملكة غرناطة فأخفق أيضاً. وهنا ألح دي ربيره على توجههما معاً إلى الملك فيليب الثالث لاستسماحه استبقاء الأندلسيين في مملكة بلنسية والساحل الشرقي إلى حين استكمال نفي الأندلسيين في الممالك الأخرى، لكن دوق ليرما اعتذر وابلغ إليه أن الأمر لم يعد في يده.

وفي مطلع أيلول (سبتمبر) عام ١٦٠٩ وصل الى ميناء بلنسية ٦٢ قادساً و١٤ سفينة كبيرة (غليون) أقلّت نحو ثمانية آلاف جندي نزلوا في ميناء مدينة بلنسية وبدأوا الانتشار في النقاط الاستراتيجية من مدينة بلنسية بإشراف مركيز دي كرانثيا. وفي التاسع عشر من الشهر نفسه فرضت السلطات على الأندلسيين حظر التجول ودخل المنادون أحياءهم ونقلوا أمر السلطات البقاء في بيوتهم حتى صدور أوامر أخرى، وحذروا أن لدى الجنود أوامر بإطلاق النار على المخالفين فوراً.

وصباح الإثنين الثاني والعشرين من أيلول ١٦٠٩ الموافق للثاني من شوال سنة ٤٨٩ خرج المنادون إلى الأندلسيين وقرأوا المرسوم الملكي الآتي:

١ - على سائر الموريسكيين في المملكة رجالاً ونساءً وأطفالاً أينما كانوا أن يسارعوا خلال ثلاثة أيام من صدور هذا المرسوم إلى إخلاء منازلهم والاتجاه بإمرة مفوض الدولة المسؤول عنه، وذلك للإبحار الى المغرب على متن المراكب والسفن التي استعارتها الدولة لهذا الغرض، ومنصاعين لأوامر المفوض، آخذين معهم من ممتلكاتهم المنقولة ما يمكن حمله على ظهورهم. وتحظّر الاساءة إليهم أو إزعاجهم أثناء انتقالهم سواء بالقول أو الفعل، ويُكفل لهم تأمين طعامهم خلال مدة الإبحار. وكل من يتخلّف عن تنفيذ هذا المرسوم يعرض نفسه للهلاك المحقق.

٢ – يحق لأي إسباني صادف موريسكياً خارج منطقته أو ضالاً في الطريق بعد الأيام الثلاثة المحددة أن يستولي على ما معه. وإن أبدى الموريسكي أي مقاومة للإسباني أن يقتله أو أن يسلمه إلى أقرب مركز حكومي لكي تأخذ العدالة مجراها.

٣ –على الموريسكيين، بعد الإطلاع على نص هذا المرسوم، البقاء حيث هم إلى أن يحضر مفوض الدولة الخاص بهم وينقلهم إلى الموانئ المحددة للإبحار الى المغرب، ومن يخالف ذلك يعرّض نفسه إلى الهلاك.

٤ – يُحكم بالموت على أي موريسكي أخفى شيئا من أمواله أو ممتلكاته مما يعجز عن حمله، أو أحرق أو أتلف بيتاً أو مزرعة أو حاكورة أو شجرة أو أي ممتلكات. وتُنزل العقوبة ذاتها بأي جار تكتّم على مثل هذه الاعمال لأن المرسوم يوجب على الموريسكيين إبقاء الممتلكات التي يعجزون عن حملها فتؤول الى صاحب الاقطاعية.

٥ – لست أسر موريسكية فقط البقاء في كل بلدة تضم ١٠٠ أسرة مسيحية شرط ان تتألف هذه الأسر من كبار السن، وألا يكون ابناؤهم متزوجين، وأن يكونوا تحت رعاية الابوين. ويختار هذه الأسر أصحاب الاقطاعيات من بين أكثر السكان الموريسكيين تمسكاً بالمسيحية بهدف تعليم السكان الجدد زراعة قصب السكر وصناعة السكر وتكريره وإتقان توضيب مساكب الرز وسقيه وحصاده وسقاية الارض عامة وصيانة البيوت.

٧ – يُحظّر على المسيحيين القدماء إخفاء أي موريسكي أو مساعدته أو عدم الابلاغ عنه ان تغيّب، ويُحكم على من يُقدم على مثل هذا العمل بالشغل ست سنوات على القواديس أو أي أحكام نُقرّها.

٨ – ليعلم كل الموريسكيين أن رغبة الملك هي تهجيرهم من مملكته وليس مضايقتهم، حتى يصلوا الى الشواطئ المغربيّة بأمان. لذا يُسمح لعشرة موريسكيين في كل رحلة العودة على المراكب التي اقلتهم لابلاغ إخوانهم بسلامة الوصول وحسن المعاملة. ويُكتب إلى المفوضين والمسؤولين عن المراكب بذلك فلا يُسمح لاي جندي أو بحار بالاساءة إلى المهجرين قولا أو فعلاً.

٩ – للأطفال الموريسكيين الذين تقل أعمارهم أو أعمارهن عن الرابعة البقاء في البلاد شرط موافقة الأبوين أو الوصي على ذلك.

١٠ – يُسمح لاطفال الموريسكيين ممن تقل أعمارهم أو أعمارهن عن ست سنوات وينحدرون من آباء مسيحيين قدماء كبار السن البقاء مع أمهاتهم. كما يُسمح لأطفال الموريسكيين المنحدرين من أمهات مسيحيات قديمات البقاء في البلاد مع أمهاتهم إذا

كانت أعمارهم أو أعمارهن تقل عن السادسة فيما يُطرد الاباء.

١١ - يُسمح للموريسكيين المقيمين بين النصارى القدماء البقاء في المملكة إن لم يكونوا انتسبوا إلى رابطة الجوامع الموريسكية قبل سنتين من صدور هذا المرسوم.

١٢ - يُسمح ببقاء الموريسكيين الذين لُقنوا أسرار الكنيسة وعُمدوا بمعرفة رئيس الدير بناء على توصيات المُعرّفين (عمال محاكم التحقيق) القاطنين في مناطقهم.

١٣ - يوافق صاحب الجلالة على أن يتوجه أي موريسكي إلى أي مملكة أخرى يرغب الذهاب اليها شرط ألا يعبر في طريقه مقاطعات اسبانية، وأن يتمّ ذلك ضمن المدة التي حددها المرسوم.

هذه هي رغبة صاحب الجلالة، ومن لا ينفذ ما جاء في هذا المرسوم الملكي يعرض نفسه إلى أقصى العقوبات.

موقف الأندلسيين من النفي

خلال الشهور القليلة التي سبقت بدء التغريب كان المارّة في أحياء الأندلسيين في المدن الأرغونية والقشتالية وفي المزارع أو المصانع التي يعملون فيها يسمعون أغنية حزينة بالقشتالية لم نستطع الإهتداء إلى مؤلفها، ويمكن ترجمتها كالآتي:

يقولون إنّ علينا الرحيل
تباعاً إلى أرضنا الطيّبة
هناك الجبال وراء الجبال
من التبر والفضة الخالصة
لقد ذلّ من يبتغي طردنا
لنذهب معاً أخوتي
لنذهب معاً كلّنا
إلى الخير والوفر يا أخوتي
إلى أمّة من العُربْ مثلنا [1]

وتوضح هذه الأغنية الموجهة في شكل رسالة من الأندلسيين في أرغون إلى

[1] «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، ص ٨٣ منقولة من وثائق محاكم التحقيق.

إخـوانهم في قشـتـالة أن الأندلسـيين كـانوا يعـرفـون أن الحكـومـة تخطط لطردهم من بلادهم لكنهم لم يعرفوا تماماً تفاصيل الخطة . وعندما نزل الجنود في بلنسية أصاب معظم الأندلسيين الفزع وظنّوا أنهم جاؤوا لإفنائهم . وسيحدث هذا الإفناء لعدد كبير منهم في ما بعد لكن الدفعات الأولى التي غادرت الأندلس لم تعرف هذا إلا عندما كانت في المغرب، وكان حظها هناك، على رغم تقلّبه، أفضل من حظوظ الآخرين . ولا شك في أن معظم الأندلسيين واجه في تلك الفترة وضعاً نفسانياً صعباً . ولا بدّ أن يكون كل واحد منهم فكّر بما يعترضه في حياته في إسبانيا وفكّر بالمصاعب التي يمكن ان تعترضه في الخارج ودخل من حيرة إلى حيرة ولم يكن التوصل إلى قرار واضح سهلاً . إلا أن معظم الأندلسيين استنتجوا في النهاية أنهم وصلوا مع الإسبان إلى طريق مسدود ولم يعد التنازل ممكناً .

ويبدو أن السلطات فوجئت بتوصل معظم الأندلسيين إلى هذه القناعة في وقت مبكر، فتجددت مساعي بعض رجالات الكنيسة والنبلاء لاقناعهم بالبقاء وقبول التعميد . وكان بعض النبلاء يقولون للأندلسيين إن كل ما عليهم فعله هو الذهاب إلى الكنيسة ثم العودة إلى بيوتهم وفعل ما يريدونه بعد ذلك . غير أن هذا الحل لم يكن مقبولاً وعرضوا بدلاً منه استمرارهم في تشغيل المصانع وزراعة الحقول إذا ضمنت لهم الحكومة ممارسة عاداتهم وشعائرهم الدينية الاسلامية من دون أي مضايقات . وتأخرت عملية بدء تغريب الأندلسيين فيما حاولت مجموعة من النبلاء على رأسها دوق غندة Gandia إقناع الملك فيليب الثالث بإعادة النظر في قراره أو تأجيله لكن الطلب رُفض ولم يعد هناك مناص من الرحيل .

ويروي القس داميانو فونسيكا موقف الأندلسيين خلال اجتماع لهم آنذاك بالقول : «كان اجتماعاً عاماً للفقهاء والرؤساء، ونُصح الموريسكيون بعدم القيام بانتفاضة مسلحة . وأقر الإجتماع العام ذاك أن الطرد سيكون شاملاً، ورفضوا حتى الإبقاء على الستة في المئة منهم ليلقّنوا المسيحيين فنون الزراعة» .[١] ووصف الأب فونسيكا، الذي كان شاهد عيان لخروج الأندلسيين، ما حدث بعدها فيقول : «لقد رفضوا ليس فقط العمل وجمع العنب وقطع قصب السكّر بل اعترفوا صراحة أنهم جميعاً مسلمون . وأكد أحدهم أن كل الأندلسيين في مملكة بلنسية عرب أيضاً شأنهم في ذلك شأن عرب الجزائر . . . وكانوا يعترفون، إذا دُفعوا إلى ذلك، بأنهم عرب، وأنهم بقوا عرباً

---

[١] Fonseca, Padre Damiano de. *Relacion de lo que paso en la expulsion de los Moriscos del reyno de Valencia*, (Roma 1612) p 89.

دائماً، وأنهم مستعدون للدفاع عن دينهم ومحاججتنا به». [1]

وعندما تجاوز الأندلسيون ترددهم ومخاوفهم الأوليّة أقبل قسم مهم منهم على الاستعداد للرحيل برغبة. وحلّ محل الشعور بالقلق شعور معين بالارتياح إذ سيكون في مقدورهم أن يعودوا عرباً ومسلمين في العلن وعندما يشاؤون، وسيكون في استطاعتهم ارتداء الملابس التي يفضلونها، والاغتسال عندما يشعرون برغبة في الاغتسال، ومراقبة أولادهم يكبرون معهم بلا خوف من أن تأمر محاكم التحقيق انتزاعهم منهم لتربيتهم على المسيحية، والتخاطب بالعربية بلا خوف من حرقهم أو تعذيبهم في أقبية محاكم التحقيق أو الشغل في القواديس.

وكتب دي ربيره الى الملك فيليب الثالث في الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٦٠٩ يقول: «تجري عملية التهجير في صورة ممتازة فالظروف مواتية بما يشبه المعجزة لأن الموريسكيين يظهرون فرحتهم وسرورهم بالهجرة، والنبلاء برهنوا كذلك أنهم مغتبطون، والجميع اقتنع أن قراراتكم هي الأصوب». [2] ويكرر دي ربيره قولاً مشابهاً في رسالة اخرى عندما يقول: «علينا ان نبتهج لان جميع الموريسكيين لا يريدون البقاء». [3] ويسرد المأمور القضائي كالوسا Callosa في رسالة إلى فيليب الثالث في وقت لاحق حالة مثيرة للدهشة تخص أندلسياً كان منعزلاً عن باقي الأندلسيين فلم يشاركهم أفراحهم ولا أتراحهم. وكان هذا الأندلسي غنيّاً جداً ويملك مجموعة حواكير مزروعة بالقنب والزيتون وبيتاً كبيراً. ونظراً إلى سلوكه الجيد طوال ١٢ عاماً أبلغه مسؤولو التغريب أنه يستطيع البقاء لكنه رفض العرض وانضّم إلى المُغرّبين وتخلى عن كل ممتلكاته التي قُدرت قيمتها بنحو ٤,٠٠٠ بيزته ذهبية». [4]

بدء تغريب الأندلسيين الجدد

تضمن مخطط ترحيل الأندلسيين الجدد تجميعهم أولاً في مراكز خاصة أقيمت لهذا الغرض في بلنسية ومرسية وبرغش وغرناطة. ومن هذه المراكز شرعت السلطة المكلفة عملية الترحيل في توزيع الأندلسيين على ١٣ نقطة تسفير في الشمال والجنوب

---

[1] أعلاه، ص ٩٧.

[2] Archivo de las corona de Aragón, Consejo de Aragón, Valencia, 607, folio 26, 1609, 23 de Diciembre.

[3] «موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فيليب الثالث ١٥٩٨-١٦٢١»، ص ٢٨.

[4] Archivo de las corona de Aragón, Consejo de Aragón, Valencia, 607, folio 7, 1611, Octobre.

والساحل الشرقي هي: دانية ولقنت وقرطاجنة الخلفاء وجابية Javea وغراو ساقونتة Grao de Sangunto ومنقوفة Moncofar وابن العروس Vinaroz والآفاق Les Alfaques وجميعها على الساحل الشرقي، ومالقة وإشبيلية في الجنوب، وسومبورت Somport ورنشفالة Roncevaux وإيرون Irun في الشمال.

وتبدو هذه التقسيمات غاية في التنظيم إلا أن الفوضى سادت كل مراحل التغريب على رغم طول مراحل إعدادها. ولم تتح السلطة للأندلسيين فترة كافية للتخلص من الممتلكات الشخصية أو البضائع التي يستطيعون بيعها بموجب المرسوم فغرقت السوق بتلك المواد وانهارت الاسعار إلى عشرة في المئة من قيمتها، ولم يعد ما حصّله الأندلسيون كافياً لدفع «رسم» تغريبهم. وصباح اليوم المعهود اكتظت الموانىء بالأندلسيين، لكن الرحلة الأولى لم تنطلق إلا بعد عشرة أيام من اليوم المُحدد أصلاً. وكان على الأندلسيين انتظار عودة السفن من المغرب لنقل مجموعة أخرى من المُهجرين.[1]

وفي الثاني من تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٦٠٩ أبحرت مجموعة من السفن تحمل أول دفعة من الأندلسيين عدّت ٣٨٠٣ أشخاص من ميناء دانية (إلى الجنوب الشرقي من مدينة بلنسية) بإمرة مركيز سانتا كروث Santa Cruz. وفي الحادي والعشرين من الشهر نفسه نقلت السفن ٣٢٠٠ أندلسي آخر، وأبحرت ١٧ سفينة بعد يوم من ذلك من ميناء دانية وهي تحمل ٣٤٠٦ أندلسيين، تبعتها ١٥ سفينة اخرى نقلت ٢٤٥٦ أندلسياً. وفي السادس والعشرين من الشهر نفسه حملت تسع سفن، انطلقت من مينائي لقنت Alicante وبياخيوسا Villajoyosa ٥٦٥٤ أندلسياً، فيما جرى بعد ذلك ترحيل ١٧,٧٧٦ أندلسياً من ميناء غراو ساقونتة و٥٦٩٠ أندلسياً من ميناء منقوفة Moncofar.

وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) أبحرت من ميناء دانية مجموعة من السفن بإمرة مركيز سانتا كروث تحمل ٣٨١٩ شخصا توافق إبحارها مع تغريب ٢٥١٩ أندلسياً من ميناء لقنت. وفي الرابع من الشهر ذاته نقلت السفن ٣٢٢٥ شخصاً، كما أقلّت سفن قادها بدرو الطليطلي ٤٥٠٠ أندلسي أبحروا من ميناء ابن العروس في اليوم نفسه.

وبينما تابعت السفن نقل المُغربين على الساحل الشرقي، شرعت السلطة في تطبيق خططها لنفي باقي الأندلسيين المنتشرين في إسبانيا. وكان معظم أعمال الترحيل عن

---

[1]. Bendicho: *Cronica del Alicante*, Edicion y notas de F. Figueras, (Alicante, 1960), p 202

طريق البحر لذا نُقل الأندلسيون الذين يعيشون في أندلوثيا إلى أشبيلية ومالقة أول الأمر، بينما توجهت أعداد أقل تحت حراسات مشدّدة إلى جبل طارق وقادس. ونقل الأندلسيون الذين تجمعوا في جبل طارق إلى سبتة وتطوان وهؤلاء نجوا، لكن الأندلسيين الذين تجمعوا في قادس نقلوا إلى جزر الكناري التي كانت تسيطر عليها إسبانيا ولا نعرف مصير هؤلاء. أما أندلسيو غرناطة فنُقلوا إلى المنكب ومالقة. ونعرف أن المتجمعين في مالقة ذهبوا إلى المغرب لكن لا نعرف ماذا حلّ بالمتجمعين في المنكب. أما أندلسيو قشتالة واستريمادورا فنقل القسم الأعظم منهم إلى قرطاجنة الخلفاء، ويُرجّح أن يكون هؤلاء نقلوا إلى تونس. وتوجهت مجموعات أخرى إلى مدينة برغش ومنها إلى باب الشزري (في البيرينيه) ومن هناك إلى إيرون. وفي أرغون وقطالونيا نُقل الأندلسيون على ثلاثة محاور إلى الآفاق وسومبورت وباب الشزري. واتجه قسم من هؤلاء إلى برشلونة ومن هناك إلى ليفورنو Livorno والبندقية. ولا تتوافر أي معلومات أكيدة عما حدث لهذا القسم، لكن الأرجح أن أفراده انتقلوا بعد ذلك إلى الإسكندرية أو القسطنطينية أو الأراضي التابعة للعثمانيين في البلقان خصوصاً المنطقة التي نعرفها اليوم باسم البوسنة والهرسك.

وقسّمت السلطات الأندلسيين الذين تجمعوا في أشبيلية إلى ثلاثة أقسام فتوجه العدد الأكبر منهم إلى تونس، وانتقلت أعداد أقل إلى طنجة وأغادير. ونُقل قسم إلى مالقة توجه القسم الأكبر منهم إلى تونس عن طريق مرسيليا فيما نُقل الباقون إلى المغرب. ومن نقاط التسفير في لقنت وجابية ودانية وغراو ساقونتة ومنقوفة نقل الأندلسيون إلى وهران، باستثناء قسم صغير نقل من منقوفة إلى مستغانم. أما الأندلسيون في ابن العروس والآفاق فنقل قسم منهم إلى أرزو في الجزائر ولا نعرف وجهة القسم الأكبر ولعلها تونس.

في أقصى الشمال انتقل الأندلسيون المنفيون من إيرون على محورين: الأول إلى المغرب، والثاني إلى مدينة أورتيز Orthez الفرنسية، لكن قسماً من هؤلاء الأخيرين توجه إلى ميناء لاهافر ولا نعرف ما حل بهم. وكانت أورتيز أيضاً نقطة تجمّع الأندلسيين المُغربين من رنشفالة وسومبورت، ويبدو أن هؤلاء انتقلوا إلى تارب Tarbes ثم إلى أجد Agde ومن هناك إلى تونس. ويظهر أن بعض الأندلسيين انتقل من سومبورت إلى مدينة نيه Nay، فأقاموا هناك فترة لكنهم تابعوا رحيلهم بعد ذلك إلى تارب، كما يبدو، وسلكوا طريق المُغرّبين الآخرين.

ونعرف أن التغريب استمر متقطعاً بين ١٦٠٩ و١٦١٤، وأن الأندلسيين استأجروا

سفناً بأنفسهم لنقلهم، لكننا لا نعرف بالضبط عدد الأندلسيين الذين شملهم التغريب، ولا نعرف كل وجهاتهم، ولا نعرف لماذا أبقتهم السلطات كل تلك المدة الطويلة، ولا نعرف ماذا حلّ بكل هؤلاء. وفي بعض المعلومات أن ١٠٥٠ أندلسياً خرجوا من بلنسية بعد سنة التغريب (١٦٠٩)، وأن السلطات نقلت ٤١٦ أندلسياً عام ١٦١٠، فيما يقول الكاتب الفرنسي لابير إن السلطات رحّلت ٣٣ أندلسياً فقط بين ١٦١١و ١٦١٢.[١] ووجدتُ إشارة في دليل عن إسبانيا إلى أن آخر الأندلسيين المُرحلين من الساحل الشرقي كانوا من وادي شقورة Valle de Sequra المعروف أيضاً باسم Valle de Ricote الذي يقع إلى الشمال الشرقي من مرسية إذ بقوا هناك حتى عام ١٦١٣، أي بعد أربع سنوات من بدء التغريب.[٢]

٨ - انتفاضات الأندلسيين المُغربين

حظر مرسوم التغريب الإساءة إلى الأندلسيين أو إزعاجهم أثناء انتقالهم سواء بالقول أو الفعل، وكفل لهم تأمين طعامهم خلال مدة الإبحار، وبيّن أن «رغبة الملك تهجيرهم من مملكته وليس مضايقتهم». ويبدو أن الملك فيليب الثالث كان مُقتنعاً بضرورة معاملة الأندلسيين بالحسنى إذ كان يعتقد، ربما على حق، أن تغريب الأندلسيين هو أشدّ عقاب يمكن أن يُنزله بهم لأن قبول معظم الأندلسيين إرادة فيليب الثالث في تغريبهم كان قراراً صعباً على رغم فرحهم الظاهر بخلاصهم من أكثر من ١٠٠ عام من الاضطهاد. ولو أن السلطات التي عهد إليها فيليب الثالث تنفيذ مرسومه التزمت نص المرسوم لما اضطر ما بين ٢٠,٠٠٠ و٣٠,٠٠٠ أندلسي إلى تنظيم انتفاضاتهم التي انتهت بقتل معظم الرجال وسبي كثير من النساء والإطفال فلم يرحل من هؤلاء في النهاية إلا القليل. إلا أن السلطات التي بدأت نهب ممتلكات الأندلسيين وأموالهم لم تفكر في هذا الاحتمال في البداية، ولم تجد ضرورة للتفكير في المراحل التالية لأنّ الأندلسيين ملكوا ثروة كبيرة، حتى بعد النهب المنظّم الذي تعرضوا له، وجاء دور نهب ما بقي منها.

وإذا عدنا إلى المرسوم أعلاه لوجدنا أنه يقضي بالسماح للأندلسيين بمغادرة المملكة «آخذين معهم من ممتلكاتهم المنقولة ما يمكن حمله على ظهورهم». والعودة إلى البند

---

[١] Lapeyre, Henri. *Geographie de L'Espagne Morisque*, SEVPEN, 1959, pp, 180-187.

[٢] *Spain*, (The Mainland) p 424.

الرابع من المرسوم توضح أن الأملاك التي يشير إليها النص هي تلك العائدة للإقطاعي الذي يعمل الأندلسيون عنده، أو للأراضي الميرية التي كان المزارعون الأندلسيون يستأجرونها في مقابل مبلغ يُدفع سنوياً أو مرتين في السنة. أما الباقي فترك المرسوم للأندلسيين حق التصرف به شرط ألا يخرجوا بما لا يستطيعون حمله على ظهورهم. وفسّر مركيز دي كرانثيا المرسوم في صورة مختلفة فمنع الأندلسيين من بيع الحيوانات كبيرة أم صغيرة، والزيوت، والبيوت، والأراضي، وحصصهم في الأملاك أو المشاريع. وإذا كان الأندلسي باع ما يملكه قبل صدور هذا القرار يُعتبر عقد البيع لاغياً. والاستثناء هنا هو السماح ببيع هذه الممتلكات للنبلاء فقط ولغرض تسديد ديون الأندلسيين لهؤلاء النبلاء لا في مقابل أموال يقبضونها.[1] وقبل معظم الأندلسيين هذا القرار إضطراراً لكن البعض فضّل الالتجاء بماله أو صكوك ملكيته إلى الجبال إلى أن يجد فرصة مناسبة لمغادرة إسبانيا.

والمؤكّد أن معظم الأندلسيين دفع عشرة ريالات ذهبية أجرة تغريبهم إذ يرد في رسالة بعث بها دي ميخيا إلى الملك فيليب الثالث بتاريخ العاشر من تشرين الأول ١٦٠٩ أن ست سفن أقلعت تحمل أكثر من ٧٠٠ أندلسي دفع معظمهم أجرة نقلهم من أموالهم الخاصة.[2] و«عدّلت» الحكومة المرسوم الملكي بعد ذلك ففرضت على الأندلسيين تسديد ضريبة على الصادرات شملت كل ما أخذوه معهم، ثم عادت وفرضت على الأندلسيين الراحلين تسديد «اتعاب مرافقة» يدفعونها لمرافقيهم من الجنود والمسؤولين الآخرين إلى الحدود. ولم يجد بعض الأندلسيين «أجرة» نقله لذا لم يستطع ركوب السفينة. وعادت سفن كثيرة وليس عليها أندلسيون ليشهدوا أن أهلهم وصلوا الى وجهات النفي بأمان لذا شك بعض الأندلسيين بصدق نوايا الجنود الإسبان وآثروا الالتجاء إلى الجبال في انتظار فرصة أخرى. وفي حالات كثيرة أخرى لم يستطع الأندلسيون مغادرة البلاد لأسباب عائلية أو عاطفية أو أي أسباب إنسانية أخرى فهربوا إلى الجبال. وسعى بعض النبلاء وأصحاب المصانع وغيرهم ممن اشتغل الأندلسيون عندهم إلى اخفاء الأندلسيين ريثما يشترون لهم الوثائق التي تضمن بقاءهم ضمن من استثناهم المرسوم. وباختصار التجأ عدد كبير من الأندلسيين إلى الجبال القريبة من بلنسية أو احتمى بالنبلاء مثل دوق غندة أو دوق ماكيدا Maqueda وغيرهما ممن كانت لهم صلات جيدة مع الأندلسيين. فمثلاً رافق دوق ماكيدا جماعة

[1] Barbieri, Asenjo. *Revista de archivos primera epoca*, IV, 11974, pp 149-150.

[2] Baronat. *Los moriscos*... tome II, p 215.

من الأندلسيين على سفينة اقلتهم إلى وهران للتأكد من سلامة وصولهم.

ويبدو أن عدداً كبيراً من الأندلسيين تجمّع في ضيعة دوق غندة وبدأوا انتفاضة كبيرة وتبعهم أندلسيون آخرون في مدينة الكوي Alcoy الواقعة جنوب بلنسية. وفي الخامس عشر من تشرين الاول عام ١٦٠٩ قام بعض الأندلسيين على وكيل الشرطة في قرية دوس – اغواس Dos Aquas فقتلوه. ولم يهلّ يوم الخامس العشرين من الشهر نفسه حتى شملت الانتفاضة نحو ٢٠ قرية أندلسية في جبال بيرنيا Bernia التي كانت مسرح انتفاضة كبيرة في عهد كارلوس الخامس. وقام داعية نعرفه باسم «عمير» يستنهض الهمم ويدعو إلى انتفاضة ضد مركيز دي كرانثيا الذي منع الناس من بيع أملاكهم، فامتدت الانتفاضة إلى بلدات كونفرنتيس Confrentes وخلانثي Jalance ثم مويله دي كورتيس Muela de cortes حيث اختاروا زعيماً نعرفه باسم «الطريقي» Turigi.

وقاد «الطريقي» جيشاً من نحو ألف مقاتل قطعوا الطريق الى شاطبة واستعدوا للقاء قوات حاكم المنطقة. وبعد مفاوضات مع الحاكم طلب منه «الطريقي» أن ينقل إلى مركيز دي كرانثيا رجاءه بتأجيل تغريبه وجماعته حتى الربيع، والسماح له ولجماعته بيع ممتلكاتهم. ولا نعرف رد المركيز لكن يبدو أنه رفض الطلب فنقل «الطريقي» مقر قيادته إلى شقر Jucar وشن سلسلة من الهجمات على قوات دي كرانثيا وأوقع بها خسائر [1] لكن الجيش الإسباني طارد «الطريقي» واتباعه وشتتهم. وفي السادس من كانون الأول (ديسمبر) أرشد أحد اتباع «الطريقي» الجنود إلى المغارة التي اختبأ فيها فاعتقلوه. وبعد عشرة أيام من ذلك أركبوه حماراً وطافوا به في شوارع بلنسية حتى وصلوا إلى بوابة سان فنسينته فقطعوا يده اليمنى. وعندما رأى الطريقي يده مقطوعة نزل إليها والتقطها وحملها بيسراه وهو يصرخ ويبكي. وعذبه الجنود بعد ذلك طويلاً، ثم قطعوا رأسه وعلقوه على البوابة كما سبق وعلق الإسبان رأس مولاي عبدالله بن أبيه على بوابة غرناطة. أما أنصار «الطريقي» فطُوردوا وقُتل بعضهم وعُذب آخرون واستعبدوا وسجنوا.

انتفاضة وادي الحر

في وقت قريب من بدء انتفاضة الأندلسيين في غندة الواقعة على بعد ٦٧ كيلومتراً جنوب مدينة بلنسية، وفي كونفرنتيس التي تبعد ١٠٩ كيلومترات الى الجنوب الغربي

[1] أنظر قصة هذه المعارك في: «تاريخ انتفاضة الموريسكيين وطردهم من إسبانيا وتأثير ذلك في جميع اقاليم المملكة»، ص ١٧٥-١٨٠.

من بلنسية، ثار بين ١٥,٠٠٠ الى ٢٠,٠٠٠ أندلسي للأسباب نفسها وتحصّنوا في وادي الحر Valle de Alhar الذي ضمّ عدداً من المنابر والحصون القديمة، واختاروا طحاناً من قرية كونفريدس Confrides يدعى جيرونيمو ميليني Geronimo Millini زعيماً عليهم. ودارت بين ميليني ونائب القائد العسكري دي ميخيا مفاوضات عرض فيها النائب على الأندلسيين الأمان في حال استسلامهم فقط. ورفض ميليني وأنصاره العرض وتحصّنوا في قلعة بني موريل Castillo de Beni Maurel ومعهم عدد كبير من أفراد أسرهم. وعندما عاد دي ميخيا تقدم في اتجاه القلعة فخرج إليه الثوار ودارت معركة شرسة استشهد خلالها ميليني وجماعة من الثوار فعاد السالمون إلى القلعة وتحصّنوا فيها. وحاصر دي ميخيا القلعة واقترب جنوده من أسوارها فرمى عليهم المدافعون الحجارة فابتعدوا وضربوا حصاراً استمر ثمانية أيام قطع الجنود خلالها الماء عن المُحاصرين.

وعطش المحاصرون وجاعوا فطلبوا السلم فوافق دي ميخيا ففتح الأندلسيون الأبواب في السادس والعشرين من تشرين الثاني ١٦٠٩ واندفعوا نحو عين ماء قريبة فشرب البعض حتى شرق ومات. وساق الجنود الباقين الى الموانئ لكنهم تخلّوا عنهم في الطريق لمجموعات من الإسبان إما طوعاً أو إجباراً فنزل الإسبان على الأسرى وقتلوا منهم الكثيرين. وبلغ البؤس بالأندلسيين كل مبلغ وتخلّى البعض عن زوجاتهم وأولادهم للمسيحيين الإسبان حتى لا يموتوا قتلاً أو جوعاً في الطريق.[١] و لم يكن مصير بعض من سلم بعدها أفضل من الباقين إذ قتل الجنود عدداً كبيراً من هؤلاء قبل الوصول إلى بلنسية وأخذوا النساء والأطفال وباعوهم عبيداً[٢]، ثم حكمت المحاكم على نحو ٥,٠٠٠ أندلسي بالعمل في تجذيف السفن. وكانت الحصيلة النهائية للقتلى «بالآلاف»[٣]، لكن يبدو أن ألفين منهم تمكنوا في احدى المراحل من الفرار إلى جهات غير معلومة.[٤]

وخلال انتفاضة وادي الحر عرض مركيز دي كرانثيا على الملك فيليب الثالث أحوال الأندلسيين خلال عملية التغريب، ونقل إليه اقتراحاً من رئيس الأساقفة خوان دي ربيره بالغاء بند مرسوم التغريب الخاص بالإبقاء على ستة في المئة من الأندلسيين

---

[١] «موريسكيو بلنسية تحت وطأة...»، ص ٢٥.

[٢]. Plaidy, Jean. *The End of the Spanish Inquisition*, p 65

[٣] أعلاه.

[٤] انظر قصة هؤلاء باختصار في: Lapeyre. *Geographie ...*, pp 118-126.

في مملكة بلنسية. ووافق الملك على ذلك في رسالة بعث بها إلى دي ربيره في الثالث والعشرين من تشرين الاول ١٦٠٩ فيها الآتي: «إشارة الى ما تقولون أرى من الأنسب عدم إبقاء أي موريسكي لأن الأرض يمكن أن تُفلح من دونهم، وبذلك أصدرت أوامري، كما فهمتم من مركيز دي كرانثيا».[١] وفي التاسع من كانون الثاني (يناير) ١٦١٠ أصدر فيليب الثالث مرسوماً بالغاء بقاء نسبة الستة في المئة لكنّه استثنى منهم الاطفال دون الثانية عشرة. وغيّرت السلطات رأيها في وقت لاحق فاستبقت فقط الأطفال دون السابعة.

٦ - عدد الأندلسيين المُغربين

تواجهنا اليوم المشكلة نفسها التي واجهت جميع المؤرخين خلال القرون الأربعة الماضية وهي معرفة مصير الأندلسيين المُغربين والمناطق التي استقروا فيها إما في صورة دائمة أو في صورة مؤقتة اضطر بعدها الأندلسيون المنفيون إلى الانتقال إلى مناطق جديدة وربما مناطق جديدة بعدها أيضاً. ولكي نعرف عدد الأندلسيين الذين غرّبتهم إسبانيا في مطلع القرن السابع عشر علينا أن نعرف عدد الأندلسيين الذين كانوا يعيشون في إسبانيا قبل التغريب.

ونصطدم في الحالتين بصعوبات «طبيعية» كثيرة تعترض التوصل إلى رقم تقديري معقول منها تخلّف طرق الإحصاء في ذلك الوقت وصعوبته، وعدم استقرار قسم كبير من أفراد الأمّة الأندلسية في إسبانيا لأسباب عدّة، واستمرار نزوح أعداد كبيرة من الأندلسيين خارج إسبانيا خصوصاً إلى المغرب والعالم الجديد والمناطق الخاضعة للسلطنة العثمانية وغيرها الكثير. إلا أن هناك صعوبات «غير طبيعية» أيضاً مردّ بعضها محاولة بعض المؤلفين الإسبان والأوروبيين تقزيم أهمية الأندلسيين من خلال تقزيم عددهم. ويبدو لنا أن هذا أمر طبيعي لأن معظم المؤلفين الإسبان في تلك الفترة كانوا يخدمون جمهوراً محدوداً من القراء المعادين في عمومهم للأندلسيين، وليس من

---

[١] Baronat y Barrachina. *Los Moriscos*..., tome II, p 222.

ومن الملفت تحوّل دي ربيره بعد نشر مرسوم التغريب إلى واحد من أشدّ المدافعين عن طرد الأندلسيين بعدما كان قبل ذلك من أشدّ المدافعين عن بقائهم. وخطب دي ربيره في كاتدرائية بلنسية بتاريخ ٢٧ أيلول (سبتمبر) عام ١٦٠٩ فقال إن الأندلسيين «ليسوا سوى كفار، وإن وجودهم يُعدّ خزياً للمسيحيين.. وإنهم من هؤلاء الذين قال فيهم الرسول يوحنا المعمدان إنهم لا يعترفون بأن المسيح هو الله الحقيقي متّبعين في ذلك دين محمد». انظر: Fonseca. *Relacion*... pp 77-78.

المنطق أن نتوقع من المؤلفين الكاثوليك من جنسيات أخرى (إيطاليين وفرنسيين الخ) الوقوف في غير صف الكنيسة الكاثوليكية خصوصاً أن عدداً مهماً من هؤلاء كانوا أساساً قساوسة وكهنة. ومن بين نحو ٢٠ كتاباً وُضع خلال عملية تغريب الأندلسيين نجد قسماً كبيراً من مؤلفي تلك الكتب يدافعون عن التغريب ويعددون مسبباته كما رآها أو فسرها هؤلاء الكتّاب الذين توصلوا في جلّهم إلى ان قرار فيليب الثالث كان عادلاً وأشادوا به إشادة عظيمة ومدحوه بكثير من القصائد. وفي هذا النص عدد من الاقتطافات من كتب من هذا النوع بحثنا فيها أساساً عن المعلومات المُساقة في النصوص لكن سقنا بعض الآراء الشخصية في حالات بعينها.

وهناك استثناءات مهمة في أعمال كتّاب مثل خانر Janer وخوان انطونيو لورنتي ولويس مارمول كربخال وغيرهم ممن رأوا أنفسهم كتّاباً في المكان الأول، ومثلهم وغيرهم من الكتّاب الإسبان المحدثين أو المعاصرين. لكن يجب أن نعرف أن استنصار الأندلسيين في تلك الفترة التي سادتها رقابة مُشددة على الكتب كان في حالات كثيرة استعداءً لمنظمة مرهوبة الجانب مثل محاكم التحقيق التي كانت تحرق الناس أحياناً لمجرد قراءة كتاب أو اقتنائه ناهيك عن تأليفه، وكانت تصدر دورياً لوائح بالكتب الممنوعة وتطلب من القائمين على المراكز الحدودية تفتيش القادمين بحثاً عن كتب «تحت المعاطف أو بين الحاجيات الشخصية».

وتتبع الإشادة بقرار فيليب الثالث حتمية تحميل الأندلسيين معظم المسؤولية عن الطرد لأنهم لم يقبلوا الخيار الوحيد الذي عرضته إسبانيا عليهم وهو التنصّر، محاولة متصلة بها هي التقليل من الأذى الذي لحق بالأندلسيين خلال نفيهم أو تجاهله تماماً من خلال قنوات عدة أحداها تقليل عدد المنفيين وما حدث لهم، أو إعادة النظر في الأرقام المتوافرة وتعديلها لتكون محصلة عدد الأندلسيين المنفيين قريبة من الأرقام الخاصة بهم قبل النفي، أو العكس. وعرض مؤلفون كثيرون اجتهاداتهم في تقدير عدد الأندلسيين في مختلف مراحل وجودهم في إسبانيا ثم نفيهم، إلا أن غير كاتب عرض تلك الاجتهادات على أساس أنها «لا تقبل النقض» ومن هؤلاء فرانسيسكو كسكاليس[١] Francisco Cascales وهنري لابير Henri Lapeyre.

وتعمق الكاتبان أكثر منّا بكثير في موضوع نفي الأندلسيين الجدد، لكن الوصول إلى أرقام دقيقة يقتضي توافر وثائق مضبوطة وتنظيماً دقيقاً ولا نعرف مثل هذه الدقة في مملكة فيليب الثالث ولا في ممالك أبيه أو جدّه. ويقتضي توخي الأمانة القول إننا لا

[1] *Discursos historicos de la ciudad de Murcia*, (1611).

نعرف فعلاً ما هو عدد الأندلسيين قبل النفي ولا نعرف فعلاً عدد المنفيين ولا نعرف من وصل منهم إلى وجهته النهائية ومن استقر جثمانه في البحر وما هي وجهات كل اولئك الأندلسيين المنفيين. واقترحنا في مكان آخر، اعتماداً على مجموعة من التقديرات الاقتصادية والسكانية المُتاحة، إن عدد الأندلسيين في كل من أرغون وقشتالة ومملكة غرناطة ربما وصل إلى نحو مليون شخص على الأقل حتى بعد إخماد الثورة الأندلسية الكبرى عام ١٥٧١. كما اقترحنا أعلاه أن يكون عدد الأندلسيين في الساحل الشرقي من إسبانيا في حدود نصف مليون أندلسي قبل بدء التغريب.

ومن عشرات التقديرات الموجودة في عشرات المؤلّفات الموضوعة عن نفي الأندلسيين الجدد نأخذ من قول بيير شونو Pierre Chaunu اعتقاده أن عدد الأندلسيين الذين قطنوا المنطقة ما بين سرقسطة في الشمال ولقنت في الجنوب نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة، بينما يقدر بورونات Boronat عدد سكان بلنسية بنحو ١٦٠,٠٠٠ نسمة أو حوالي ٣٢,٠٠٠ بيت في كل واحد منها خمسة أفراد. ويرى مونيوث غابيرا Muñoz Gavire أن عدد البيوت كان نحو ٢٨,٠٠٠ (أي ١٤٠,٠٠٠ نسمة). ويقترب رويث أمانسا Ruiz Amansa في تقديراته في شأن الأندلسيين البلنسيين من تقديرات برشينا فيقول إن عددهم كان ١٦٢,٠٠٠ نسمة، ويقدر عددهم مؤرخ آخر هو تيودور يورنتي بنحو ١٤٠,٣٦٠ نسمة.[١] ويرى سالازار أن عدد المنفيين كان ٣٠٠,٠٠٠، ويقول بليدا بل ان الرقم ٣٤٠,٦٧٢، ويوضح بنالوزا أنه كان ٣١٠,٠٠٠، ويضيف لورنتي إلى هؤلاء اعتقاده أن عدد المنفيين من سائر إسبانيا كان نحو ٩٠٠,٠٠٠.[٢] أما لابير فيزعم أن أرقامه أدق الأرقام بعدد هو ٢٧٢,١٤٠[٣]، لكن الرحّالة الفرنسي أنطوان دو برونل الذي زار إسبانيا عام ١٦٥٥ يقدّر عدد بيوت الأندلسيين في مملكة بلنسية وحدها بـ ٧٠,٠٠٠ بيت أو نحو ٣٥٠,٠٠٠ شخص ويضيف: «البعض قدّر عدد المنفيين بملايين عدّة لكن لا أعتقد ان العدد بهذا الحجم إذ خلافاً لأرغون، حيث حوّل عدد مماثل من (الأندلسيين) أراضي وادي نهر أبرة إلى حديقة غناء، لا يمكن أن تضم الأجزاء الأخرى في المملكة أعدادا كبيرة في هذه الصورة».[٤]

---

[١] أنظر تقديرات أخرى في: «موريسكيو بلنسية تحت وطأة...»، ص ٢٨.

[٢] نقلت هذه التقديرات من كتاب: «الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين»، الدكتور عبد الجليل التميمي، زغوان (١٩٨٩)، ص ٦٤.

[٣] Lapeyre. *Geographie ...*, p 206.

[٤] Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, pp 19-20.

ويضع الرحّالة الفرنسي فرانسوا بيرتو Francois Bertaut الذي زار إسبانيا عام ١٦٥٩ تقديراً قريباً من تقدير لورنتي فيقول إن الأندلسيين المنفيين كانوا نحو ٩٠٠,٠٠٠ شخص[١]، بينما يقدر لين بول، الذي يعتمد على دوزي، [٢] العدد بنحو نصف مليون شخص. وهناك تقديرات كثيرة أخرى تراوح بين مليون وثلاثة ملايين شخص. ويوزّع لابير الأندلسيين المنفيين على الشكل الآتي: بلنسية (١١٧,٤٦٤)، قطالونيا (٣,٧١٦)، أرغون (٦٠,٨١٨)، قشتالة والمنشا وإستريمادورا (٤٤,٦٢٥)، مرسية (١٣,٥٥٢)، الأندلس الصغرى (٢٩,٩٣٩)، مدينة غرناطة (٢,٠٢٦)، بإجمالي قدره (٢٧٢,١٤٠) من أصل كلّي يشمل الأندلسيين الذين سمح لهم بالبقاء هو (٣٠٠,٠٠٠) شخص. [٣]ويكرر ج هـ. إليوت عموماً هذه التقديرات في كتابه «إسبانيا في ظل الأباطرة». [٤]

ويبدو أن الاجتهاد توقف الآن عند أرقام لابير التي صارت الحكومات المحلية الإسبانية تعتمدها، إلا أن المؤرخ البريطاني باري يؤكد أن وثائق اللجنة التي أشرفت على نفي الأندلسيين ليست كاملة لأنها تحدد عدد المنفيين بـ ١٠١,٦٩٤ شخصاً، باستثناء الأطفال الرضّع، مع أن دراسة التاريخ الاقتصادي لإسبانيا تقدّر الرقم بنحو ٤٠٠,٠٠٠ شخص. [٥] ويمكن أن ننظر إلى تغريب الأندلسيين نظرة إنسانية وأخلاقية كما فعل المؤرخ أميركو كاسترو فنقول إن العدد النهائي ليس مهماً فالمبدأ واحد وهو أن الإسبان «طردوا الأندلسيين بالقوة من أرض كانت لهم، وكانوا يحلمون دائماً باستعادتها». [٦]

إلا أن عدد الأندلسيين يهمّنا مهما كان تقريبياً لمعرفة حجم المأساة التي أنزلها الإسبان بهم. فمما يجب الانتباه إليه أن عدد المنفيين، حسب لابير، أقل من ثلث عددهم المُقدّر في نهاية الثورة الأندلسية الكبرى. ويمكن تفسير «العجز» بين الرقمين بالإشارة إلى استمرار عمليات الهروب من إسبانيا إلى المغرب وغيرها لكنّ الأندلسيين

---

[١] أعلاه ص ٢٣٢.

[٢] Dozy, R.P. Histoires *des Muslumans d'Espange*, (4 Volumes), Leyden,1861. (Dozy, R.P. *Spanish Islam*), Transland by F.G.Stokes, 1913 .

[3] Lapeyre. *Geographie* ..., pp 204-205.

[4] Elliott, J. H. *Imperial Spain*, p 302.

[5] Parry, J.H. *The Spanish Seaborne Empire*, (London 1971) p 235.

[6] Castro, Americo. *The Spaniards*, University of California Press (1971) p 243.

تميّزوا بتكاثرهم مقارنة بالإسبان ونفترض أن هذا التكاثر عوّض قسماً من الأندلسيين المهاجرين. وأورد عدد كبير من الكتّاب الإسبان من بينهم سيرفانتس[1] هذه الحقيقة. لكن بعض المؤرخين رأى أنه حتى نسبة الستة في المئة التي كان فيليب الثالث سيستبقيها في إسبانيا كبيرة لأنّ «القدماء والاغنياء منهم سوف يبقون، وسيوجد منهم الفقهاء وأساتذة القانون، وحتماً سوف يلقّنون أطفال أمّتهم وسيتعلمون ويستوعبون ذلك بسهولة كثيرة ثم يختلطون في ما بينهم بعد ذلك. وبما أنهم ينجبون كثيراً فانهم سيتكاثرون من جديد وسيجد ملك إسبانيا بعد سنوات عدة نفسه أمام الحيرة ذاتها».[2]

ومع أننا لا نستطيع تقديم الأدلّة على العدد الحقيقي للأندلسيين فإن الأذى الكبير الذي لحق بالاقتصاد في قسم كبير من الساحل الشرقي الإسباني ومملكة غرناطة وبعض مناطق قشتالة يعطي الانطباع بأن عدد الأندلسيين كان كبيراً جداً، وسنشرح هذا خلال عرض تأثير تغريب الأندلسيين. ويجب أن نلاحظ شيئاً مهماً في التقديرات و«الاحصاءات» التي سقنا بعضها وهي أن معظم هذا التقديرات لا يأخذ في الاعتبار مجموعة من الحقائق التي يمكن أن «تسدّ» الثغرة بين التقديرات الأعلى لعدد الأندلسيين بعد الثورة الأندلسية الكبرى وبين عددهم سنة التغريب، وتفسّر بالتالي هذا التباين الكبير في التقديرات. وسنقترح هنا أن «فرق» العدد موجود في ثلاث مساحات «مستورة»: الأولى الأندلسيون الذين بقوا في إسبانيا، والثانية الأندلسيون الذين هاجروا إلى العالم الجديد اعتباراً من نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر، ثم أخيراً الأندلسيون الذين تحوّلوا إلى عبيد إما في إسبانيا نفسها أو في مستعمرات إسبانيا في العالمين الجديد والقديم. ويدعم هذا الاقتراح حقيقة معروفة هي أن تجارة العبيد كانت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من أهم أنواع التجارة في العالم وأكبرها فشملت عشرات الملايين للاشتغال في مزارع قصب السكر في أوروبة والعالم الجديد خصوصاً كوبا والبرازيل.

وسنتحدث عن الفئات الثلاث تلك في بقية هذا الفصل لكن نود أن نشير الآن إلى أن بعض الأندلسيين نُقل من منطقة إسبانية إلى منطقة إسبانية أخرى كما حدث مع الأندلسيين الذين حملتهم السفن إلى جزر الكناري للعمل في مزارع قصب السكر. أما الأندلسيون الذين نُقلوا على السفن الإسبانية أو الذين توجهوا براً إلى فرنسا فلم

---

[1] يقول سيرفانتس في *Persiles y Sigismunda*: «جميع الموريسكيين يتزوجون وجميعهم، أو معظمهم، ينجبون الأطفال».

[2] Fonseca. *Relacion...* p 92.

يصلوا إلى وجهاتهم بالعدد نفسه. ومن تأكيدات ذلك ما يرويه المؤرخ الأميركي هنري تشارلز ليا في كتابه «الموريسكيون» عن مجموعة من ١٤٠٠ أندلسي رفض الفرنسيون إدخالهم إلى البلاد «وكان هؤلاء دفعوا مبلغ ٤٠,٠٠٠ دوقة ذهبية لقاء السماح لهم بعبور الحدود إلى فرنسا إضافة إلى تسديد ضريبة التصدير على ما حملوه من امتعتهم، لكنهم أجبروا على العودة في طريقهم إلى الآفاق خوفاً من أن ينقلوا الوباء إلى السفن فمرض عدد كبير منهم ومات من الحر». وتوجد في كتاب «تاريخ انتفاضة الموريسكيين وطردهم من إسبانيا وتأثير ذلك في جميع اقاليم المملكة»، لمؤلف موريسكي مجهول إشارة مخيفة في الصفحة ١٨٠ إلى أن نصف الأندلسيين الذين خرجوا من بلنسية لم يصلوا إلى الموانىء التي ابحروا إليها. في حين ذهب البعض إلى أبعد من ذلك فقال أن ثلاثة أرباع الأندلسيين المنفيين قضوا نحبهم في الطريق جوعاً وعطشاً ومرضاً أو تقتيلاً.

ولا يمكننا تأكيد وقوع هذه المأساة الرهيبة بالقدر المُشار إليه إلا ان مؤرخين معروفين مثل خانر أورد عدداً من الحالات التي تعرّض فيها الأندلسيون المنفيون إلى القتل والسبي والنهب، فيما قال المؤرخ الانكليزي روبرت واطسن[١] ان أكثر من ١٠٠,٠٠٠ من نحو ١٢٠,٠٠٠ أندلسي غُرّبوا من بلنسية ماتوا أو قتلوا خلال أشهر قليلة لأسباب عدة منها غرق السفن التي كانوا على متنها أو هجوم البحارة عليهم أو من الجوع والعطش والحر في شمال افريقيا. وتشير وثيقة محفوظة في أرشيف مملكة أرغون في برشلونة مؤرّخة في الخامس من شباط (فبراير) ١٦١٠ إلى ان الملاح الإسباني خوان ربيره Joan Ribera وآخرين قتلوا مجموعة كبيرة من الأندلسيين ونهبوا أموالهم أثناء عمليات النفي.[٢]

٧ - مواطن الأندلسيين الجدد بعد التغريب

الأندلسيون في إسبانيا

لا نعرف عدد الأندلسيين الذين بقوا في إسبانيا بعد التغريب الكبير إلا أن مقارنة متوسط عدد المنفيين بعددهم قبل النفي يرجّح أن يكون العدد كبيراً، إن لم يكن كبيراً

[١] Watson, Robert. *The History of the Reign of Philip the Third*, 1808.

[٢] 1610, 5 Febrero, Barcelona, Archivo de las corona de Aragón, Registro de Cancilleria, 5210, folio 6.

جداً. وإذا عرفنا أن الكنيسة الإسبانية كانت تسيطر على نصف الأراضي الزراعية الخصبة في إسبانيا، وأن أفضل المزارعين في ذلك الوقت كانوا أندلسيين فلنا أن نتوقع أن عدد من «اقنعتهم» الكنيسة بالبقاء كان كبيراً كذلك. واستثنى مرسوم التغريب نحو ٧,٠٠٠ أندلسي سمحت السلطات في بلنسية ببقائهم للقيام بأعمال الري وحصاد قصب السكّر وزراعة الرز والكرمة والبندورة (الطماطم) والفاكهة وغيرها من أنواع الخضر والفاكهة العشرات. ولا بد أن يكون عدد مهم من الأندلسيين بقي في إسبانيا ومن هؤلاء العبيد، وكذلك الأندلسيون الذين عملوا في إقطاعيات النبلاء كما فعلوا أكثر من مئة عام. ومن المُرجّح أن يكون قسم من الأندلسيين تحيّن الفرص وهاجر في الفرصة المناسبة إلى المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد، أو غادر البلاد في مراحل لاحقة إلى دول أخرى.

ويوجد اليوم في إسبانيا عدد كبير من الأسر التي تحمل أسماءً عربية ربما استبقتها عندما تنصّرت قبل النفي أو بعده. ونفترض أيضاً أن ألوفاً كثيرة قبلت التعميد بعد النفي وصارت جزءاً من الكنيسة الكاثوليكية. كما يُحتمل أن يكون الألوف «ذابوا» في المجتمع الإسباني في صورة أو أخرى خصوصاً أن البلاد دخلت مراحل عسكرية ومالية عاصفة ولم يعد الأندلسيون الشغل الشاغل للمجتمع الإسباني. وقدّم عدد كبير من الأندلسيين في إسبانيا ضحايا لمحاكم التحقيق التي ظلت تطاردهم حتى منتصف القرن الثامن عشر وأحرقت عدداً منهم كما حدث في عام ١٧٢٧. إلا أن هناك حالات كثيرة أيضاً عن إسبان ظلوا مسلمين حتى القرن التاسع عشر وربما بعده أيضاً. وقدم لنا واحد منهم وصفاً دقيقاً لمشاهداته خلال الحج في الديار الإسلامية المقدسة.

ويمكن، ونحن نتحدث عن عدد من بقي وعدد من تغرّب، أن نسلب التاريخ إنسانيته ونجرده من عواطفه وننسى أن الأندلسيين كانوا بشراً مثلنا وليس مجرد أرقام. فلكل أندلسي مأساة وقصة يرويها، ولكل رجل أو امرأة أو طفل أقارب وأصحاب وجيران تركهم وراءه مع ما تركه من ماضيه وذكرياته وأحزانه. وعاد أندلسيون كثيرون إلى بلاد لم يعرفوا الكثير عن واقعها، وساهم البعد والانقطاع في إسباغ شكل من المثالية عليها وعلى أبنائها لم تكن موجودة في الواقع. وتمكنت أسر كثيرة من الوصول إلى المغرب وغيرها بكل أفرادها، إلا أن قسما مهماً من الأندلسيين ترك وراءه أطفالاً وزوجات وحبيبات إسبانيات لم يستطعن مغادرة البلاد فعشن بقية حياتهن ينتظرن ويصلين ويأملن.

ونستطيع من موقعنا اليوم أن نرى جزءاً من صورة تغريب الأندلسيين بكل ظلمها وبؤسها وقسوتها، إلا أن أنسنة التاريخ تفترض وجود الحالة الإنسانية الموّثقة التي لا تتوافر لنا إلا في أضيق الحدود. ولا بدّ أن ذكرى الوطن ظلّت حية في خيال الأندلسيين المنفيين ولم يستطع البعض الصبر والتصبّر فعاد سراً إلى إسبانيا على رغم التعذيب والموت اللذين ينتظرناه. أما الآخرون فكان عليهم التذكر ثم النسيان ثم محاولة بناء حياتهم من جديد. ومن المؤسف أن المؤلفات الكثيرة التي وضعها الأندلسيون في إسبانيا خلال تلك الفترة انتهت في محارق محاكم التحقيق بعد العثور عليها، واغلب الباقي كتب ذات طابع ديني وارشادات وما شابه.

ومن مراكزهم الجديدة في الساحل المغاربي والقسطنطينية وفرنسا وغيرها تابع الأندلسيون مساعيهم لإضعاف إسبانيا إلى جانب جماعتين من المضطهدين معهم هم البروتستانت واليهود. ووجد هؤلاء الأندلسيون في حريتهم الجديدة فرصة للانتقام فأسسوا رباطات للجهاد ضد الإسبان ونشطوا في مهاجمة السفن والمواقع الإسبانية الساحلية من مواقع في شرشال وسلا وتونس وغيرها. واشتهر هؤلاء بجرأتهم وبطشهم فكان الإسبان يخافونهم إيما خوف، ولا يعود من اسر منهم في البر أو البحر بعد استفدائه إلا وهو لا يصدّق أنه عاد حياً أو في تمام عقله. ومن هؤلاء الروائي الإسباني سيرفانتس الذي لحقت به عاهة خلال معركة ليبانت، ثم أسره العرب وأخذوه إلى الجزائر وظل هناك سنوات حتى تم استفداؤه بمبلغ كبير.

وكان على الأندلسيين والبربر الذين استعبدهم الإسبان الانتظار طويلاً قبل أن ينالوا حريتهم. فمن المظاهر الملفتة في المدن الإسبانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وجود عدد كبير من العبيد الذين لم يشفع لبعضهم تنصّرهم وبالتالي فك أسرهم. وكتب الرحالة الفرنسي برونل الذي زار قشتالة عام ١٦٥٥ عن دهشته من هذا الوضع يقول: «مرة أخرى تسبب التجارة مع جزر الهند الغربيّة انتشار العبودية في هذا البلد. والمتجول في أندلوثيا (الأندلس الصغرى) يكاد لا يرى خدماً إلا من العبيد، ومعظمهم من الأندلسيين أو من المغاربة السود (يقصد الأفارقة). وتدعو مبادىء المسيحية إلى عتق جميع معتنقي الدين (المسيحي)، لكن هذه المبادىء لا تُراعى في إسبانيا نظراً إلى الحاجة الملحة للعمالة، سيما بعدما أخذت الفتوحات الجديدة (في العالم الجديد) تُفرغ المدن من المواطنين الذين رحلوا على متن السفن بحثاً عن المغانم بعدما سمعوا عن قصص روت الكثير عن الثروة الهائلة التي تنتظرهم هناك».[1]

---

[1] Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, p 83.

هجرات الأندلسيين إلى المغرب قبل النفي الكبير

بدأ أهم فصول قصة الأندلس من المغرب وانتهى أهم فصولها في المغرب. وكما حملت السفن الفاتحين الأوائل إلى الأندلس عام ٧١١ نجد السفن الإسبانية تحمل قسماً من الأندلسيين المنفيين إلى المغرب عام ١٦٠٩، إلا أن من عاد كان يختلف عمن ذهب في أشياء كثيرة جداً. وبين هذين التاريخين تسعة قرون لم يتوقف خلالها التفاعل بين أهل الأندلس والمغرب. وخلال كل تلك القرون تقلّبت العلاقة بين الأندلسيين والمغاربة وتعددت أشكالها فاقتربت من حد التلاحم الوثيق كما اقتربت من الشقاق العميق. وفي جميع الحالات لعبت عوامل دينية وعرقية واقتصادية وسياسية واجتماعية دورها الفاعل في رسم تلك العلاقة التي تبدلت بتبدل مسبباتها وتغيّر أزمانها. حتى إذا أسدل الستار على الوجود العربي الاسلامي في شبه جزيرة آيبرية ورث المغرب قسماً كبيراً من تركة الوجود الأندلسي التي كانت تحوّلت آنذاك في معظمها إلى خليط من المسؤوليات والأحزان والمشاركة الوجدانية.

ومنذ بداية البداية الأندلسية وجد البلديون أنفسهم في وضع فريد فرضه بعدهم الجغرافي عن قلب الوطن العربي، واضطرارهم إلى التعامل مع سكان يختلفون عنهم في كل شيء تقريبا. وكان من الملائم لشخصية قوية مثل عبدالرحمن الداخل (أمّه بربرية) أن يختط لامارته طريقاً منفصلاً عن الخلافة المشرقية وهو أمر طبيعي لأنه كان طريد العباسيين. غير أن الانفصال السياسي لم يتسع ليشمل الانفصال الحضاري والفكري ناهيك عن الارتباط الديني الذي حافظ على مضمونه العام في جميع العصور. وتوافرت للأمارة الأموية الثانية، ثم للخلافة، في الأندلس القوة العسكرية والثروة، لكن الثقافة ظلت مشرقية الطابع في المراحل الأولى ولم تستطع الانفصال عن مشرقيتها في ما بعد على رغم شعور بعض الكتاب الأندلسيين بنوع من التفوّق.

ومع ذلك قدّم ابتعاد الأندلس عن قلب الوطن العربي قدراً أكبر من حرية الاختيار التي تعاظمت بتعاظم قوتها وسيطرتها فكانت تلك الحرية واسعة خصوصاً في المراحل التي خلت من أي ضغوط شمالية مؤثرة. وانتهت المرحلة الأولى من القوة الأندلسية بزوال الخلافة، ولم يعد في مقدور أمراء الطوائف حماية أنفسهم فاستقدموا المرابطين من المغرب، ثم أطاح الموحدون المرابطين وحلوا مكان سابقيهم في المغرب والأندلس التي كانت في عدد من مراحل تاريخها تابعة للمغرب. وبعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بالمسلمين في وقعة العقاب عام ١٢١٢ بات الطريق إلى الجنوب الأندلسي مفتوحاً إلى أن اغلقته مملكة غرناطة التي زالت بدورها كمملكة عربية من آيبرية عام ١٤٩٢.

ويشتكي بعض المغاربة من أن التركيز على الأندلس سرق جزءاً مهماً من الأضواء الحضارية والثقافية من المغرب، ويشير بعضهم إلى أن تميّز تلك البلاد بكتّابها ومؤرخيها وعمارتها لا يقل عن الأندلس. ويتبع هذا شعور البعض أن الإنشغال بالأندلس غطّى جزئياً التضحيات الهائلة التي قدمها أهل المغرب على طول الزمان للمساهمة في الدفاع عن الأندلس واحتضان أهلها ودعمهم في صور شتى وتوفير الأسواق التي استوعبت المنتوجات والصناعات الأندلسية وساعدت على النهضة الاقتصادية التي سادت الأندلس في الفترات الأفضل من تاريخها. وليس كل هذا محل إنكار إلا أن الأندلس لعبت الدور نفسه في عدد من مراحلها واستوعبت قسماً مهماً من الزيادات السكانية في المغرب.

ووقفت الأندلس عسكرياً وعلى مدى قرون حاجزاً منيعاً في وجه عبور الفرنسيين والأوروبيين الآخرين الزقاق إلى السواحل المغاربية كما حدث في القرنين الرابع والخامس الميلاديين عندما غزا الوندال وغيرهم تلك السواحل. وعلى الرغم من أن ملوك الدول المسيحية انتبهوا دائماً إلى العلاقة بين إضعاف الأندلس وإضعاف المغرب وبالعكس، وبدأوا يشنون غارات بحرية مهمة على السواحل المغربيّة اعتباراً من القرن الثالث عشر. إلا أن انهيار الأندلس وضعف غرناطة فتحا الطريق أمام انتقال البرتغاليين والإسبان إلى المغرب، ثم أزال سقوط غرناطة الحاجز الأخير وبدأت مرحلة طويلة من الحروب والإغارات المتبادلة التي لا يزال بعض تأثيراتها قائماً حتى اليوم متمثلاً في استمرار احتلال إسبانيا مدينتي سبتة ومليلة المحاطتين بنحو ٦٠٠,٠٠٠ لغم شخصي.

وللمعتمد بن عباد أمير اشبيلية قول شهير عندما أجبره الأندلسيون على استدعاء المرابطين (البربر) بعدما رفض ألفونصو السادس قبول الجزية منه هو «رعي البعير ولا رعي الخنازير»، إلا أن هذا القول متصل بوضع سياسي اقتصر على المعتمد وفي حالات معينة لأن الهجرة إلى بلد الإسلام (أي عموماً المغرب بوصفه الاتجاه الطبيعي) واجب وضرورة إذا صار المسيحي حاكماً كما بالنسبة للبلاد الأندلسية التي سقطت بيد الإسبان. ووقعت هجرات معاكسة في بعض مراحل التاريخ الأندلسي كما حدث للنصارى المعاهدين في الأندلس بعدما ضيّق عليهم المرابطون في أول مراحل حكم الأندلس. ومثَلنا في هذا استدعاء نصارى غرناطة ملك أرغون ألفونصو ورجوعه بعدد كبير منهم. أما الباقون فجرى تغريبهم الى المغرب بفتوى قاضي الجماعة (قاضي القضاة) ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد. وكان أبو الوليد نفسه من بين العلماء

الذين تناولوا موضوع الهجرة إلى بلاد الإسلام فكتب في «المقدمات»: «الهجرة باقية لازمة إلى يوم القيامة، واجب بإجماع المسلمين على من أسلم بدار الحرب أن لا يقيم بها حيث تجري عليه أحكام المشركين، وأن يهجرها ويلحق بدار المسلمين حيث تجري عليه أحكامهم». وللونشريشي اجتهادات في هذا الموضوع ضمنها رسالته المسماة: «أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر» يقول فيها بضرورة هجرة المسلم من ديار الكفر للأسباب الآتية: «إعلاء كلمة الله وتنزيهها عن الازدراء بها وعن ظهور شعار الكفر عليها، وتجنب ما يحصل من ذل وصغار للمسلمين بما يكنّه الكفار السائدون، والتمكن من القيام بأداء الشعائر الإسلامية على الوجه الأكمل من صلاة وزكاة وصيام وحج وهي عبادات يقدرون أنها تتطلب جواً إسلامياً محضاً، وأنه يلحقها الإخلال والإهمال في غير البلاد الاسلامية».[1] أما الآيات التي بنى عليها أبو الوليد والونشريشي وغيرهما أحكامهما فكثيرة أوضحها قوله تعالى: «إن الذين توفتهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا».[2]

الهجرات الأندلسية الأولى

أهم هجرة أندلسية لم يكن سببها الحرب مع النصارى بل انتفاضة أهل ربض قرطبة على الحكم الربضي بن هشام (نسبة إلى ما فعله بأهل الربض)، واحراق جنده أحياءهم وانذاره اياهم بترك الأندلس خلال ثلاثة أيام. وهجر قسم من هؤلاء الحي، الذي لا يزال في قسم منه إلى اليوم بلقعاً كما أراده الحكم، إلى الاسكندرية واستغلوا اضطراب الأوضاع هناك فأخذوا المدينة وأسسوا فيها نظام حكم قريباً من الجمهوريات التي كانت معروفة في إيطاليا مثل البندقية وجنوة. وطُرد هؤلاء من الإسكندرية فأخذوا جزيرة كريت (اقريطش) وبنوا هناك دولة قوية دامت ١٣٥ سنة عُرفت باسم «الدولة الكلبية». أما الذين لجأوا إلى فاس فـ«شرعوا بها في البناء يميناً وشمالاً إلى ناحية الكدان ومصمودة وفوارة وحارة البادية والكنيف الى الرملية فسميت عدوة

---

[1] «المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب»، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشي، (طبعة ٢)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج٢، ص ١٣٨- ١٣٩.

[2] سورة النساء، الآيتان: ٩٧و ٩٨.

الأندلس». [1] وحل في فاس أيضاً عدد من سكان قرطبة بعد سقوطها عام ١٢٣٦. لكنّ الأعداد الكبيرة من الأندلسيين لم تتدفق على المغرب إلا بعدما أصدرت إيزابيلا مرسومها المشهور بتخيير الغرناطيين بين التنصر والرحيل فرحل منهم ما يُقدّره بعض الكتّاب بثلاثة ملايين شخص [2]، وتوزّعوا على المدن المغربيّة، حسب ما يُعلمنا صاحب «نبذة العصر»، فخرج أهل مالقة إلى بادس وأهل الجزيرة الخضراء الى طنجة، واهل رندة وبسطة وحصن موجر وقرية قردوش وحصن مرتيل الى تطوان وأحوازها، وأهل ترقة الى المهدية، وأهل مسنين الى الريف، وأهل لوشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة الى قبيلة غمارة، وأهل بررة وبرجة وبوله وأندراش الى ما بين طنجة وتطوان، ثم انتقل البعض منهم الى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة واهل مرينية الى أزيلة (أي أصيلة) وما قرب منها، ثم خرج اهل بلش (بلش مالقة) وشيطة وقرية شريش الى مدينة سلا، وخرج أهل طريف الى آسفي وزمور وآنفا.

ويلخّص صاحب «نفح الطيب» قصة تغريب الأندلسيين الجدد فيقول: «ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله خفية ويصلي، فشدد عليهم النصارى في البحث، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك، ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً، إلى أن كان إخراج النصارى بهذا العهد القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخرى بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس». [3]

الأندلسيون الجدد في المغرب الاقصى

المصدر العربي الوحيد الذي يتناول تاريخ الجدد من سقوط غرناطة الى الجلاء الاخير هو مخطوط محمد بن عبدالرفيع بن محمد الحسيني الجعفري المسمى: «الأنوار النبوية عن الأسر الأندلسية». والظاهر أن الجعفري أقام في تونس العاصمة وبنزرت قبل ان يترك تلك الديار الى مكة المكرمة حيث توفى عام ١٦٤٢. وما خطه الجعفري وصلنا عن طريق أبي عبدالله محمد أبو جند في كتابه: «مقدمة من تاريخ رباط

---

[1] يقدر الناصري في «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، (ج٢، ص ١٦٦) العدد بأربعة آلاف بيت (٢٠,٠٠٠ شخص).

[2] Lane-Poole, Stanley. *The Moors In Spain*, p 279.

[3] «نفح الطيب»، ج٤، ص ٥٢٧-٥٢٨.

الفتح» . وأسماء الأسر الأندلسية الواردة في المخطوط كثيرة نأخذ منها أولاً الأسر التي استوطنت الرباط وحملت اسماء عربية ومنها : التونسي، القصري، القرطبي، ابن عندون، اللوشي، الزبدي، الزهراء، التازي، السوسي، فرج، العويفر، أبي عزة، الرندة، الدقاق، الحداد، العلاني، قديرة، ابن قدور، ابن عمرو، ابن الطاهر، أبن الفقيه، ابن اللدهاق، زعنون، ابن منذبل، ابن الضيف، الحمري، العظمي، الجزولي، ابن عاشور، بشير وغيرها .

ومن الاسر التي حملت أسماءً أعجمية : آل مرينو، الدك، أشكلانط، بركاش، (ومن هؤلاء عبدالرحمن بركاش باشا الرباط سابقاً)، نكيطو، مارسيل، ملاطو، ابن الكاهية، ملين، بلانتو، ابيرو، متجنوش، طيفور، ليبارسي، كريسبو، كليطو، تمورو، زباطة، فشردو، القسطالي، القشطلو، فويون، مدون، فلوريش، غريط، بلاسيو، بلانكو، بليسيو، فرناندو، لميرو، بريطل، سرون، كولان (أحفاد سيدي كولان أحد أشراف بني كولان)، صيصينياش، كراكش، منيطة، فنيش وغيرها .

ومن الاسر التي نزلت بتطوان : القشتيلو، بني بايصة وأصلهم من مدينة بسطة، وبني أرغون الذين يرفعون نسبهم إلى الزبير بن العوّام، سالسي، القرطهي ومنهم نقيب الاشراف في الجزائر، وبني الغرناطي ويقال لهم أيضا الغرنوطي، الطويرسي وجدهم هو محمد الطويرسي وكان الوزير الأول في المغرب وأصلهم من جبال البشرات، أمية، الدلير وكان يقال لهم بنو المسوعن، زرقيق من اشبيلية، الركينة ومنهم مسلمون ونصارى، مرتيل، الصفار، مارين ومنهم المسلمون والنصارى أيضاً، الداود ومنهم محمد الداود كاتب تاريخ تطوان ومؤسس المدرسة الاهلية بتطوان، طنانة، مدينة، مولتينة وهم من ثغر المرية، اللوشي وهم من لوشة، دينمية ومنهم من سكن الرباط، منذوسة، مارشينة، عباد من سرقسطة، بلنسيانو، بلنجينة، بنايو، بنطوصة، طنادو، لبريرو، بريرو، برميخو، حنينو، دودون، الهيشو هرندو، زوزيو، الزرقو، حمامو، مطريش، غباشة، غنبازو، شابسي، شبنيالو، الشودري، شورية، شكورة، شلباطة وأسر كثيرة أحصي منها أكثر من ١٥٠٠ لقب عائلي .

الأندلسيون الجدد في تونس

نزل جمهور الأندلسيين الجدد المنفيين في تونس طبقاً للمقري بعدد ربما تجاوز ١٠٠,٠٠٠ شخص . وورد عدد كبير جداً من أسماء الأسر الأندلسية في مصادر متفرقة تعود الى مطلع القرنين السابع عشر والثامن عشر وكذلك في الدراسة التي

أعدّها جورج ماسي عن جامع تستور عام ١٩٣١، والبحث الذي نشره الدكتور رشاد الامام في المجلة التاريخية المغربيّة بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٨١. وبين عامي ١٦٠٩ و١٦١١ استقبل الوالي عثمان داي الأندلسيين المنفيين واحتفى بهم «وخصص لهم الدور والأراضي وسعى إلى توظيف خبراتهم المهنية ومعرفتهم للغة القشتالية ولاساليب الحروب البحرية التي تفنّنوا بها. وأنشأوا نتيجة ذلك مدناً عدّة ما زالت تشهد بخصوصيات العمارة الأندلسية حتى يومنا هذا، وهذا فضلاً عن ترجمتها بدقة عن اسلوب حياتهم وعاداتهم ومطبخهم وتقاليدهم».[1]

ومن الحواضر التي نزل فيها الأندلسيون أو أسسوها وسط الشمال التونسي مدينة تستور التي تقع على بعد ٦٠ كيلومتراً جنوبي غرب العاصمة تونس، وهي تُعتبر مدينة الموشحات الأندلسية المعروفة أيضاً باسم «المالوف» أو «المألوف»، أي الموسيقى الموروثة عن الأندلسيين كما هي شائعة في المغرب والجزائر أيضاً، وربما استضافت المدينة الموسيقى الأندلسية كما تعزفها جوقات إسبانية. وتقع جنوب غربي تستور مدينة تبرسق التي تضم عدداً مهماً من المباني ذات العمارة الأندلسية، وتشيع فيها الأسماء الأندلسية ومثلها أيضاً مدينة سليمان ومنزل بوزلفة وقرنبالية ودار شعبان.

ومن أسماء الأندلسيين الجدد الذين نزلوا تستور والقرى التي أسسوها على ضفتي وادي مجردة (يوجد واديان بهذا الإسم في تونس ونقصد هنا الشرقي) مثل قريش الواد وطبربة وسلوقية: شورية، ويلو، الوشرين، العنكرشة، الريشكو، يوينو، جاميلو، سحابو، الستوبري، شلبطون، فازاج، النبديكو، كريمو، مرتيل، بيروانة، الجورشي، البنتوز، شركينة، ماركو، الفرصادو، كرسيتو، بومسيت، نبارو، البرزون، مانية، ابن مارية، ديلو، طرشون خربون، حربون، البروطو، استريكو، نبارو، غبارو، الكوندي، اشكلانط، مورينو، يونو وغير هذه الأسر كثير.[2]

ومن مناطق الأندلسيين الجدد وحواضرهم في شرقية تونس مدينة زغوان التي تقع على بعد ٥٢ كيلومتراً جنوب العاصمة تونس وكانت عامرة أيام الرومان. وتضم زغوان بين ٢٥ و٣٠ ألف نسمة الآن وهي عاصمة لولاية زغوان التي هي اكبر المحافظات الزراعية في البلاد ومصدر منابع المياه التي تمدّ العاصمة. ونزل الأندلسيون

---

[1] «الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين»، ص ٦٤.

[2] اعتمدتُ في كثير من هذه الأسماء على الدراسة القيّمة التي أعدها الأستاذ فقيه محمد الباحث في المعهد الأعلى للتوثيق في الجامعة التونسية وقدمها للمؤتمر الثاني للجنة العالمية للدراسات الموريسكية الذي عقد في تونس بين ١٩و ٢٤ أيلول ١٩٨٣، وهي بعنوان: «دين الموريسكيين الأندلسيين وهويتهم ومصادر وثائقهم».

أيضاً بعض المناطق الغربيّة من البلاد مثل عين دراهم القريبة من الحدود مع الجزائر وتُعتبر من المنتجعات التي يقصدها التونسيون. وحلّوا كذلك في المناطق الساحلية الشمالية مثل قلعة الأندلس والعاليّة ورفراف ورأس الجبل وغار الملح، ومدينة بنزرت الساحلية الواقعة شمال غربي العاصمة تونس. وكان للأندلسيين في هذه المدينة المهمة حي خاص اسمه «حي الأندلس» جمع في ما بعد خليطاً من السكان. وأقام الأندلسيون في مدن وقرى هذه المناطق صناعات تقليدية أندلسية داخل البيوت مثل البلاط المُزجج والملابس والمحفورات الخشبية يقول العارفون انها تشبه ما كانوا يصنعونه في إسبانيا قبل نفيهم.

وللأندلسيين تجمّع مهم في الوطن القبلي المعروف الآن باسم محافظة نابل التي هي لسان بري يمتدّ في البحر شمال شرقي تونس. ومن الحواضر الأندلسية أو التي نزل فيها الأندلسيون مدينة نابل نفسها والحمامات وقرى كثيرة قربهما زرع فيها الأندلسيون منتوجات أصلها من العالم الجديد وحملها الأندلسيون معهم من إسبانيا مثل البندورة والبطاطا وبعض أنواع الفليفلة الخضراء والحمراء والتوابل. كما نزلت جماعات أندلسية كثيرة في العاصمة تونس وضواحيها نذكر من أسماء أسرها: صنديد، العراندي، كونينكة، مناشو، الصوردو، ابن عاشور (ومنهم في الرباط)، موريشكو، مرباح، الحجيج، العمروسي، الوافي، الكعاك، جبيس، السراج، قبادو، الباسطي، بيجار، درسول، نونية، الرحال، السبعي، ابن زكرى، يشبيل، هرميلو، الحجي، الحشائشي، الشريف، مشوش، الطره والي، وأسماء أخرى كثيرة.

ولم يقتصر نشاط الأندلسيين على الزراعة إذ شمل أيضاً التجارة. وبرع الأندلسيون في صناعات تقليدية بعينها ومن ذلك مثلاً صناعة الشاشية (الطرابيش القصيرة) التي كان الأندلسيون يعتمرونها في إسبانيا. ولهذا النشاط سوق خاصة صغيرة هي سوق «الشاوشين» في العاصمة تونس قرب جامع الزيتونة. وكانت تونس في القرنين السابع عشر والثامن عشر من أهم مصدري الطرابيش إلى الدولة العثمانية حتى تعلّم الأوروبيون صنع الطرابيش فصدّروها بكميات كبيرة إلى تركيا مما أحدث كساداً مهماً في البلاد التونسية.

الأندلسيون الجدد في الجزائر

في الفترة بين أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل القرن السابع عشر نزلت اعداد كبيرة من النازحين الأندلسيين الجدد في المدن والقرى الجزائرية وإن كان نصيب

الجزائر أقل من نصيبي تونس والمغرب. وأسس النازحون مدينة البليدة، ونزلوا أيضاً في القلعية، وشرشال والمدينة ومليانة ودلس وتنس وبجاية وبرشك وجيجل وعنابة وارزو ومستغانم وتلمسان. كما انتشر قسم منهم حول هذه المدن وفي سهول متيجة ووهران.[1] ومن بين الأسر التي نزلت في المناطق المذكورة: رامول، بني هني، برزوان، برحال، بوناتيرو، بن تشيكو، بن بكير، بن الكبابطي، بوضربة، ابن الأمين، أبن عمار، الحداد، بوساحل، شلاسة العنجدون، عدود، ابن أحمد، ابن عمر، العادل، الخياط، عائلة الشيخ أحمد ابن الركائب، ابن الأميني، سوسان، المرار، السيست. وغيرها من الاسر التي ظل بعضها محافظاً على مكانته ومعتزاً بأصوله الأندلسية حتى السنوات الأولى من بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر مثل عائلات بن رامول وبني هني وبرزوان وبرحال وبوناتيرو وبن تشيكو وبن بكير. وعثر الدكتور ناصرالدين سعيدوني على وثائق جزائرية تقدّم فكرة عامة عن النشاطات الاقتصادية للجالية الأندلسية تشمل الأشغال التجارية والمهن والصنائع التي كانت تتطلب المهارة والاتقان. ومن أسماء هؤلاء وصنعتهم: «الحوكي ابن محمد الأندلسي، والحداد محمد الأندلسي، وصانع الشواشي الحاج علي بن حسن الأندلسي، والخياط يحيى، ومعلم العيون موسى، والحاج علي بن أحمد الفهري وشركاؤه، أصحاب البطان الخاص بصناعة الشواشي في بليدة».[2]

أحوال الأندلسيين الجدد في مواطنهم المغاربيّة الجديدة

تقلبت حظوظ الأندلسيين الذين حطّوا في المغرب فوجد بعضهم عسراً شديداً في التعامل مع من حولهم. وتمكن البعض الآخر من التعايش والاندماج مع مرور الزمن فيما ندم البعض على قراره ورام إعمال الحيلة في الرجوع من حيث جاء[3] وظلّوا في غالبيتهم متعلقين أشد التعلق بالمواطن التي نزحوا منها. ويذهب بعض الدارسين إلى حد التصريح أن الجالية الأندلسية في المغرب كانت في البداية تسهل مهمة حكام الأندلس في محاولتهم السيطرة على المغرب واضعين بذلك المركب الأندلسي فوق كل

---

[1] انظر دراسة الدكتور ناصر الدين سعيدوني حول: «الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي». مجلة الدراسات التاريخية، دمشق، العدد رقم ٥، ١٩٨١ ص ٥٦-٧٦.

[2] أعلاه، ص ١٦.

[3] «المعيار المغرب»، ج٢، ص ١٣٨.

شيء. أما في المراحل التالية فيقولون إن الرغبة في الاستقلال الذاتي التي حملها الأندلسيون معهم جعلتهم يفضلون مصلحتهم قبل كل شيء ويرفضون أي وصاية عليهم حتى ولو ادى ذلك الى التعاون مع الإسبان لتحقيق هذا الهدف.[1]

ويرسم الدكتور سعيدوني صورة موجزة لوضع الجدد في الجزائر فيقول إن المنفيين عرفوا في مواطنهم الجديدة: «صعوبات جمة وأخطاراً عدّة ناتجة عن تهديد الإسبان المدن الساحلية وتصرفات الحكام وعداء البدو بالجهات الداخلية واختلاف البيئة وأسلوب العيش ومستوى الحضارة، وهذا دعا غالبية الأندلسيين الى التكتّل والبقاء فترة طويلة منعزلين عن بقية الطوائف. ومما عزز هذا الشعور بالعزلة والإنطواء تشوّقهم إلى مواطنهم الاولى بالأندلس واعتزازهم بأصولهم التي رأوا فيها نوعاً من النبل والشرف، وتفوّقهم في المعارف والمهارات على غيرهم من السكان». وينسحب هذا أيضاً، وفي حالات كثيرة كما في تونس مثلاً، على الحياة الاجتماعية والمصاهرة إذ فضّل أندلسيون كثيرون التزاوج من بعضهم فحفظ هذا استمرار التصاق المجتمع الأندلسي لكنّه زاده عزلة عن باقي الفئات. وللمشاكل التي واجهها بعض الأندلسيين وجوه اقتصادية واجتماعية عدّة إذ لا شك في أن قسماً كبيراً من هؤلاء ملكوا مهارات في مختلف النشاطات التي عملوا فيها إلا أن المزارعين منهم خاصة واجهوا أوضاعاً مختلفة عما عرفوه في إسبانيا فلم يجدوا الأرض الخصبة التي عملوا فيها في أرغون وغرناطة، ولم يجدوا الأسواق الكبيرة المماثلة للأسواق الإسبانية، ولم يكن المغاربيون يتمعتون بالقوة الشرائية الكبيرة التي تمتع بها الإسبان. وفي حالات كثيرة وجد الأندلسيون أنفسهم يزاحمون المغاربة على إمكانات إقتصادية محدودة الأمر الذي يمكن أن يفسّر أحد أسباب الجفاء بين الجماعتين، وهو جفاء له أيضاً خلفية تاريخية قديمة مردّه «إنحراف الطباع بين الأندلسيين وأهل المغرب خصوصاً البربر».[1] وجاء الأندلسيون المغرب في وقت سجل فيه عدد السكان زيادة ملحوظة لم تكن إسبانيا وقتها موجودة لامتصاص بعضها. ودفع هذا الوضع بعض المغاربة والأندلسيين إلى الانتشار في أفريقية خصوصاً السودان التي لا يزال يعيش فيها نسل قبائل مغربيّة هاجرت إليها خلال تلك الفترة.

---

[1] يقول المقري (نفح الطيب)، ج ١، ص ٢٢٨): «... ولما كان البربر بالقرب منهم (أي الأندلسيين) وليس بينهم سوى تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفوراً... فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسيا إلا مبغضاً بربرياً وبالعكس». ونجد في المصدر نفسه (الجزء السادس، ص ١٢): «وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس...». ويستخدم لسان الدين بن الخطيب (أعمال الاعلام، ص ٢٢٧) وصفاً أكثر دبلوماسية فيقول: «النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة...».

وفي النهاية لعب الأندلسيون الدور الذي لعبوه في العصور السابقة فوظفوا مهاراتهم وعلومهم لخدمة أنفسهم لكن أيضاً لخدمة المجتمعات التي انضموا إليها. ففي الماضي ساهم تدفق الأندلسيين إلى المغرب في تنشيط الصناعات وتنظيمها فعرفت مراكش وفاس مثلا تقدماً كبيراً في دباغة الجلود وتكرير قصب السكر وصناعة الخزف والأسلحة والسفن والبلاط المُزجّج الملون وغيرها من الصناعات التي كان لكل منها نقيبها وحيها الخاص بها. كما ساهم الأندلسيون في نشر حضارتهم [1] وإعمار البلاد عن طريق بناء القلاع والجسور، بل أيضاً بناء المدن كما تطوان التي عمّرها أبو الحسن المنظري الأندلسي المتوفي عام ١٥٠٤ ميلادية. وكان أبو الحسن يهاجم السفن والمدن الإسبانية وتلك التي احتلها الإسبان في المغرب خصوصاً سبتة والقصر وطنجة حتى ليقال إنه أسر منهم نحو ثلاثة آلاف استفداهم بمبالغ كبيرة.

وتحمل تونس وصف «الخضراء» من أيام الرومان الذين أغرموا بإطلاق صفات الألوان على بعض الأقاليم التي حكموها. ومن أسباب هذه الخضرة وجود قسم كبير من الأراضي التونسية في مستوى قريب من مستوى البحر (تمتد شواطىء تونس مسافة ١٣٠٠ كيلومتر) مما يسمح برشح الماء، إلا أن الأمطار الغزيرة تهطل على تونس في الشتاء مما يزيدها خضرة. ومع ذلك لا يمكن تصوّر تونس قبل مجيء الأندلسيين، ولا يمكن أيضاً فصل التأثير الذي أحدثه الأندلسيون في تونس عن التأثير التونسي المحلي سواء في الزراعة أو نمط العمارة أو المصنوعات اليدوية أو أنواع الطعام (منها سجق رفيع محشو بلحم الضان اسمه كواريس) والشراب والفنون، ولهذا التأثير أسباب تاريخية واجتماعية عدّة.

وخلال القرن الخامس كانت العاصمة تونس من أكبر المدن المغاربية، وربما وصل عدد سكانها آنذاك إلى أكثر من ١٠٠ ألف نسمة، وكانت مدينة ازدهرت فيها التجارة والصناعة والثقافة والتعليم. إلا أن تونس ومعها معظم المدن التونسية الأخرى تعرضت بعد ذلك إلى عدد من النكبات فأودت موجات من الطاعون بحياة الكثيرين، ثم امتد الصدام بين العثمانيين والأوروبيين إلى السواحل المغاربية فبدأ كارلوس الخامس سلسلة من الحملات العسكرية البحرية التي انتهت باحتلال تونس عام ١٥٣٥. وبقي الإسبان في البلاد نحو ٤٠ عاماً إلى أن تمكن العثمانيون بقيادة سنان باشا وبمساعدة التونسيين من إخراجهم عام ١٥٧٤ بعد سلسلة من الاخطاء التي

---

[1] يزعم المؤرخ هنري تيراس «أن حضارة المغرب في عصر بني مرين كانت حضارة أندلسية محضة مستوردة من العدوة الأخرى ولا دخل للمغاربة فيها» Terrace, Henri. *Histoire du Moroc*, 2, p 76.

ارتكبها دون خوان النمسوي الذي كان يحلم بموافقة الملك فيليب الثاني على تعيينه ملكاً على تونس. لكن البلاد كانت اقتربت في عهد دون خوان من الدمار الشامل وحلّ خراب عظيم بأهم مدنها مثل تونس نفسها وصفاقس والقيروان وبنزرت وسوسة (حضرموت الفينيقية). وفي عهد الداي عثمان ثم في عهد الداي يوسف من بعده بدأ جهد كبير لإعادة الإعمار. وجاء الأندلسيون تونس في وقت حاسم فصبّوا خبراتهم في الري والزراعة نحو إنهاض الأراضي الزراعية وتوسيعها وتنويع المحاصيل التي باتت تشمل الحمضيات والكرمة والمشمش واللوز وغيرها من الفاكهة التي لا تزال المناطق الساحلية الشرقية الإسبانية تزخر بها.

وساهمت هذه الجهود في تسريع إنعاش الاقتصاد التونسي لذا لم يمض على وصول الأندلسيين إلى تونس أقل من نصف قرن حتى كانت جهود إعادة الإعمار اقتربت من الاكتمال. وعرفت تونس بعد ذلك مرحلة طويلة من الاستقرار السياسي النسبي حتى تملّكتها فرنسا اعتباراً من عام ١٨٨١. واستمر الانتعاش في عهد الفرنسيين لكن جل المستفيدين منه كانوا فرنسيين أو إيطاليين أو من جزيرة مالطا وصقلية واليونان. وظل هذا الوضع قائماً حتى انتزعت تونس الاستقلال في ٢٠ آذار (مارس) ١٩٥٦ واعلنت الجمهورية بعد ذلك بسنة.

الأندلسيون الجدد في فرنسا

تطلّع الأندلسيون إلى فرنسا لمساعدتهم على التخلّص من طغيان ملوك الإسبان، وتطلّع الفرنسيون إلى الأندلسيين لمساعدتهم على إضعاف عدوتهم الرئيسية وراء البيرينيه. ودار معظم الاتصالات بين الجهتين في صورة سرّية وتبادلا سفارات كثيرة كان فيليب الثاني يعرف ببعضها. ورصدت محاكم التحقيق من اشتبهت بمسؤوليته عن الاتصالات واعتقلت البعض وعذبتهم واستخلصت منهم أسماء آخرين ونُفذّت في حق من وقع بيد المحاكم عقوبات شديدة. وكانت فرنسا، بحكم قربها، من أهم مراكز التجمعات الأندلسية في أرغون التي كانت بدورها منفذ الأندلسيين البري الوحيد للهروب من إسبانيا. فمن هناك كانوا يتابعون رحلتهم إلى المغرب أو تونس أو إلى إيطاليا ثم القسطنطينية وغيرها. ونشأ بين البروتستانت والأندلسيين تعاطف ملحوظ قام في أحد أركانه على زمالة الاضطهاد على يد الإسبان، فقدّمت هذه الجهة لتلك مساعدات كثيرة وحدث العكس.

وكانت للفرنسيين القريبين من الحدود مع إسبانيا مطامع في شمال البلاد خصوصاً

مملكة نافار التي ضمها فرناندو إلى ممالكه عام ١٥١٢ بعدما تذرّع بأن أهلها يتآمرون ضده. وكانت لهذه المملكة ملكة فرنسية هي جين دالبرت Jeanne d'Albret زوجة أنطوان البوربوني. وولدت جين ابنها هنري في مدينة بو Pauعام ١٥٥٣ فصار يُعرف باسم هنري النافاري. وعندما بدأت البروتستانتية الانتشار اختارت جماعات من الفرنسيين هذا المذهب على طريقة واحد من أكبر لاهوتيي حركة الإصلاح الديني هو الفرنسي جان كلفين، وأصبح هؤلاء يُعرفون باسم «أغنو» Huguenot. وكانت الملكة جين من هذه الجماعة لكن زوجها ظل كاثوليكياً، وأصبح هنري مع الزمن مثل أمّه وبات من أكبر زعماء الأغنو ومن أهم دعاتها ومروجيها في إسبانيا.

وقامت في فرنسا حرب أهلية دامية بين الأغنو والكاثوليك تدخل فيها فيليب الثاني ووصلت إلى أوجها عندما تعرض الأغنو إلى مذبحة مروعة عام ١٥٧٢. وعندما مات الملك الفرنسي هنري الثالث عام ١٥٨٩ خلفه هنري النافاري باسم هنري الرابع ولقي معارضة ليس من الكاثوليك في فرنسا بل أيضاً من البابوية وملك إسبانيا. واحتوى هنري الرابع هذه المعارضة عندما هجر البروتستانتية وصار كاثوليكياً عام ١٥٩٣. ولما أخذ عليه الناس هذا التحوّل الانتهازي أطلق قولاً مشهوراً لتسويغ موقفه هو: «باريس تستأهل قداساً». غير أن هنري عاد بروتستانتياً بعد ذلك ثم بدّل مذهبه أربع مرات أخرى خلال حياته. وجدّد فيليب الثاني تدخله في شؤون فرنسا بعد ذلك فاستعان هنري الرابع عليه بالانكليز والهولنديين وقُدّر له الانتصار في النهاية وأصبح واحداً من أهم ملوك فرنسا. وأرسى هنري الرابع مبدأ التسامح الديني للمرة الأولى في أوروبة عندما أصدر مرسوماً ملكياً عام ١٥٩٨ (مرسوم نانت) أعطى الأغنو حق حرية العبادة في نحو ١٠٠ تجمّع ومدينة حصينة، ومنحهم كثيراً من المزايا التي جعلتهم دولة بروتستانتية تعيش ضمن دولة كاثوليكية.

وباتت فرنسا في تلك الفترة مُتنفس الأندلسيين وملجأهم الإساسي هرباً من السلطة ومحاكم التحقيق الإسبانية. واستقبلهم الفرنسيون وساعدوهم حتى أن أخت الملك هنري الرابع، التي ظلت على مذهبها البروتستانتي، رتّبت في قصر اللوفر زواج أندلسي بأندلسية حضره عدد كبير من المدعوين. وحض الأندلسيون هنري الرابع على مساعدتهم وعرضوا عليه عام ١٦٠٢ وضع ٣٨٠,٠٠٠ أندلسي أرغوني تحت إمرته إذا قرر مساعدتهم. وجرت في إثر ذلك اتصالات لدرس طبيعة هذه المساعدة، لكنها لم تصل إلى حد التدخل العسكري. وسمح هنري الرابع لعدد كبير من الأندلسيين دخول البلاد بعد تغريبهم من إسبانيا نهاية عام ١٦٠٩ وأقاموا في مناطق عدّة خصوصاً

منطقتي لانغدوك وبروفانس الجنوبيتين. لكن مقام هؤلاء لم يطل إذ مارست الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية والبابوية ضغوطاً على هنري الرابع اضطرته إلى تغيير سياسته إزاء الأندلسيين فربط بقاءهم في البلاد بتكثلكهم، ثم بدّل رأيه وأمر بطردهم. وبدأت الأوضاع تتغير في صورة جذرية اعتباراً من عام ١٦١٠ عندما اغتال أحد الأصوليين هنري الرابع. وخلف هنري ابنه لوي الثامن الذي عيّن الكردينال ريتشليو وزيراً، وبدأ الأغنو في عهديهما يخسرون تدريجاً استقلالهم السياسي. وفي عام ١٦٨٥ ألغى لوي الرابع عشر مرسوم نانت فهرب نحو ٢٠٠,٠٠٠ من الأغنو إلى انكلترا وهولندا وتحوّل عدد كبير منهم إلى أميركا وأسهموا مساهمة كبيرة في بناء قوة الدول الثلاث.

وكان شأن الأندلسيين الذين بقوا في فرنسا بعد اغتيال هنري الرابع شأن الأندلسين في إسبانيا قبل النفي. ولم تكن في فرنسا آنذاك محاكم للتحقيق لكن السلطة والكنيسة والمجالس البلدية تولت عموماً مهمة ملاحقة الأندلسيين والتحذير من وجودهم. واستقر عدد صغير من العائلات الأندلسية المتنصّرة في مدن مثل باريس وتارب ومونبليي وغيرها، وتنقّل الآخرون مثل الغجر من أقليم إلى أقليم ومن مدينة إلى أخرى يلاحقون قوتهم أو يستجدونه. ولم ينفع بعض الأندلسيين تكثلكهم إذ رفضت الكنيسة مساعدتهم. كما لم ينفع بعض الأندلسيين التحوّل إلى البروتستانتية التي اعتبرت هذا التحوّل «وسيلة ماكرة» للحصول على المساعدة. ولم يجد الأندلسيون عطفاً ولا مساعدة في هذه الدولة التي ناصبت الإسلام والعرب العداء منذ أيام شارلمان لذا «فإن كل المتسولين من الموريسكيين وهم المعتنقون لدين آخر. وأخذوا يجوبون الكنيسة تلو الأخرى لجمع الصدقات، ودفعوا مجالس الكرادلة والمجامع الكنسية إلى اتخاذ الاجراءات لاتقاء هذا النوع من النهب». [١]

ويبدو أن بعض الأندلسيين استمر يعيش في فرنسا خصوصاً جنوبها حيث توجد أسماء من أصل عربي منهم موروا جافري المحامي الذي تقلّد منصب نائب جزيرة كورسيكا وهو الأندلسي الجعفري. ورحل عن فرنسا بعض من تنصّر من الأندلسيين على البروتستانتية إلى ألمانيا وهولندا وسويسرا. وحلّ في جنيف واحد من أكثرهم علماً ومعرفة يُقال له «السنيور أبو زيد»، ولا يزال شارع في تلك المدينة يحمل اسمه (Abouzit) إلى اليوم. ويُعلمنا الاستاذ محمد فقيه أن أسرة ابو زيد تعاطت الطب في تولوز قبل ارتحالها، وأن أبا زيد عاصر فولتير وروسو ونيوتن، وشهدوا له بسعة معارفه فكان فولتير يستعين به في عويص المسائل ويخاطبه: «صديقنا العربي».

---

١ Benoist. *Histoire de l'Edit de Nantes jusqu'à ;'Edit de Révocation en Octobre 1683*, Delt, 1693, II, 229-330 .

الإسم الذي يطلقه عدد كبير من الأميركيين الجنوبيين على العرب هو «تركو» *Turco* فخلال القرن السادس عشر الذي بدأوا فيه استخدام تلك الكلمة لم يكن هناك فرق كبير بين الأتراك (العثمانيين) والعرب. ولعل عرباً كثيرين رأوا أنفسهم هكذا في تلك الفترة إذ كانت الدولة السلطانية العثمانية تحكم باسم الإسلام، وكان لكل «ملة» زعيمها ومفتيها ولكل المفتين مفت عام ولكل الزعماء المحليين زعيم واحد أكبر من كل الباقين هو السلطان العثماني. ولم يتدخل العثمانيون كثيراً في شؤون رعايا سلطنتهم الشاسعة شرط أن يقدّم لهم هؤلاء الجنود والضرائب، لذا عاش في تلك الأراضي النصراني واليهودي والسلافي والمجري وغيرهم العشرات. ومارس الجميع أديانهم في الكنائس والأديرة والكنس، وتابعوا التمسك بعاداتهم وانهمكوا في إكثار تجارتهم ومالهم وعددهم. وسمح العثمانيون في أوقات شتّى للمبشرين بالعمل في بعض الدول العربية كما بالنسبة للدومينيك (الإخوة الواعظون أعمدة محاكم التحقيق في أوروبة والعالم الجديد) والفرنسيسكان الذين نشطوا في العراق والقدس وبيروت وفلسطين وغيرها. وكان العرب أقرب إلى العثمانيين من غيرهم لأنهم أصحاب الشرعيّة الإسلامية واللغة العربية التي كتب بها العثمانيون. وتقلّد بعض العرب مناصب رفيعة في الباب العالي، وربما قدّم آخرون الدعم بأشكاله المختلفة للعثمانيين ورأوا في حملتهم ضد أوروبة رداً على الحروب الصليبية بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر.

وتعايش الطرفان فترة طويلة ونطق العرب بالتركية وكتبوا بالعربية فيما كتب العثمانيون بالعربية ونطقوا بالتركية التي كانت لغة الدولة. وأخذ العثمانيون من العرب الرجال والمال والحضارة والفنون والذخائر الإسلامية (لا يزال معظمها موجوداً في قصر توبكابي في اسطنبول إلى اليوم) والعمارة والصناعات وغير ذلك مما لم يتقنه العثمانيون، وقدموا للعرب الحماية العسكرية التي يتقنونها. ولم تكن هذه الحماية تكلّف الكثير إذ توافرت معظم الوقت من دون أن يحرّك العثمانيون قواتهم لأنهم كانوا أقوى قوة على وجه الأرض في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وظلت هزيمة العثمانيين حلماً أوروبياً لم يتحقق إلا بعدما أهدر الباب العالي (سُمي هكذا بسبب ارتفاع مدخل البوابة إلى قصر توبكابي مقر السلطان) قوات عظيمة في حرب الصفويين. وكان العراق ساحة الحرب في معظم الأوقات فعانى ما عانى من الجهتين وتحوّلت أرضه إلى العشب الذي تقاتل فوقه الفيلان العثماني والصفوي.

وأطل القرن الثامن عشر على العالم وفيه ثلاث ممالك إسلاميّةكبيرة هي المملكة الصفوية في بلاد فارس (إيران لاحقاً)، والمملكة المغليّة في الهند، والسلطنة العثمانية. لكن هذا القرن جلب معه بداية المرحلة الاستعمارية الدوليّة التي اعقبت حرب الخلافة الإسبانية، فمزّق الإنكليز والروس المملكتين المغليّة والصفوية. وجاء بعدهما دور السلطنة العثمانية. ولم تكن مواجهة السلطنة عسكرياً ممكنة في البداية فعاث الإنكليز (المتحالفون هذه المرة مع الفرنسيين أعدائهم شبه الدائمين) في الاقتصاد العثماني فساداً، وغشّوا عملة السلطنة حتى اضطر العثمانيون إلى سحبها من الأسواق أربع مرّات متوالية، ثم أخذوا يؤلّبون السكان المحليين على الانتفاضة ضد العثمانيين فانسلخوا شعباً شعباً إلى أن جاء دور العرب.[1] ومع الزمن واستمرار هذه المساعي بدأ الضعف والفساد والشيخوخة الطبيعية تدبّ في أطراف تلك الدولة ثم في جسدها الذي بدأ يتمزّق تحت سكاكين الإنكليز والفرنسيين. ولم يأت عام ١٨٣٠ حتى كانت فرنسا احتلت الجزائر ثم تونس بعدها عام ١٨٨١. وأخذت انكلترا نصيبها فدانت لها قبرص (١٨٧٨) ومصر (١٨٨٢)، فيما تقاسمت فرنسا وإسبانيا السيطرة السياسية والاقتصادية على المغرب بحلول مطلع القرن العشرين، وكان من حظ ليبيا العاثر أن تحتلها دولة مثل إيطاليا عامي ١٩١١ و١٩١٢.

وأكمل الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى تقاسم المناطق التي خضعت للدولة العثمانية في الشرق الأوسط. فاحتل الفرنسيون (كان اسمه الرسمي الانتداب) سورية ولبنان، وسيطر الانكليز على فلسطين والعراق بعدما كانوا سيطروا أيضاً على مناطق في الخليج العربي. وكان الخوف فقط من استيلاء الروس على المدخل إلى مياه البحر الأبيض المتوسط الدافئة وراء تغيير استراتيجية الحلفاء الذين كانوا أخذوا اسطنبول وأزمير ومساحة كبيرة من تركيا، وبات مطلوباً آنذاك إيجاد دولة تستطيع الوقوف في وجه روسيا هي الجمهورية التركية التي أعلنها مصطفى كمال (أتاتورك) عام ١٩٢٣.

وفي السنة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ دفعت فرنسا ثمن بقاء تركيا على الحياد من سورية عندما اعطت انقرة لواء الاسكندرون عام ١٩٣٨. وظلت تركيا في موقع الحياد خلال عهد عصمت إنونو حتّى تأكدت تماماً من اقتراب هزيمة ألمانيا فانضمت إلى الحلفاء في السنة الاخيرة. وفي عهد الرئيس الأميركي ترومان بدأت الولايات المتحدة تقديم المال والاسلحة إلى تركيا لمساعدتها على الوقوف في

[1] مما يزعمه بعض المؤرخين إن الفرنسيين سعوا إلى إضعاف الصلة بين العرب والأتراك من خلال تكبير إظهار تميزهم اللغوي فنشط كثيرون (خصوصاً في لبنان) في جهد «إحياء» اللغة العربية من خلال الكتابات المختلفة وتجديد المعاجم وغيرها.

وجه التهديد السوفياتي أيام الدكتاتور جوزيف ستالين، وصارت عموماً في الصورة الموجودة هذه الأيام.

ويشتكي الأتراك بحرقة شديدة إلى الآن من أن العرب المسلمين في منطقة الشام كانوا شوكة في جنبهم عندما نصروا عليهم الفرنسيين والانكليز على الرغم من أن الأتراك عملوا طول تاريخهم على مساعدة المسلمين، ووقفوا في وجه المدّ الأوروبي في المغرب ومدّوا الأندلسيين الجدد بالمال والسلاح، وسهّلوا وصولهم إلى أراضي السلطنة بعد نفيهم، وأدخلوا الكهرباء إلى لبنان قبل أن تدخل إلى إيطاليا. وهذا كله صحيح إلى حد ما إلا أن وقائع التاريخ تعطي صورة مختلفة لأن الأتراك، سواء كانوا سلاجقة صغاراً أو كباراً أو عثمانيين أو أياً من الأقوام الأخرى الناطقة باحدى اللهجات التركية الإثنتي عشرة، حاربوا في معظم الأوقات لتوسيع سلطانهم وبناء مجدهم على حساب كل الشعوب الأخرى بمن فيها العرب.

والعرب اليوم من دون الإسلام مجموعة من دول الطوائف المُفككة المُستضعفة، لكن العودة إلى التاريخ تكشف أن أمّة لم تدفع ثمن تقدم أمة أخرى كما حدث في حال الأتراك والأمّة العربية. فمنذ القسم الأخير من القرن الحادي عشر بدأ المغرب (بما يشمل الأندلس) والمشرق العربيان يدفعان ثمن توغل الأتراك في الأراضي البيزنطية من خلال سلسلة من الحروب الصليبية والتوسعية التي استهدفت العرب واستمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر. وعندما توقفت تلك الحروب ظلّ الأتراك يحتفظون بمعظم ما استولوا عليه. لكن معظم الأندلس كان ضاع وقتها، وأودت الحروب الصليبية بحياة مئات الألوف في المشرق والمغرب، ومزّقت مجتمعاتهم واقتصادهم وأضعفتهم، ووضعت مصيرهم في يد جماعات من أكثر خلق الله تخلّفاً.

وفي النهاية كانت الحملات الصليبية من أكثر الحملات العسكرية إخفاقاً في تاريخ الحروب لكن الحركة التجارية والفكرية التي تطورت في أوروبة نتيجة تلك الحروب ساهمت في إقامة الطبقة الوسطى التي صنعت مستقبل تلك القارة. وخلال الإنشغال بالصليبيين تقدم هولاكو المغولي حفيد جنكيزخان واجتاح بغداد عام ١٢٥٨ وقضى على آخر الخلفاء العباسيين ثم احتل سورية. وانتهت هذه الغزوة بنجاح مصر في إبادة الجيش المغولي عام ١٢٦٠ بعدما عاد هولاكو إلى إيران في إثر مقتل أخيه، لكن بغداد التي اجتاحها هولاكو كانت صورة مجدها الغابر الذي بدأ انحطاطه قبل ذلك بثلاثة قرون. ففي عام ٨٦١ حاول المتوكل على الله (جعفر بن محمد المعتصم) (٨٢١-٨٦١/ ٢٠٦-٢٤٧) الخليفة العباسي العاشر نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق للابتعاد

عن النفوذ الشعوبي لكن ما أن عاد إلى سامراء حتى وثب عليه القواد الأتراك ومعهم ابنه وفتكوا به.

وحاول العرب احتلال القسطنطينية مرات عدّة وأخفقوا، إلا أن الإخفاق تضمّن نصراً كبيراً. صحيح أن الامبراطورية البيزنطية استعادت بعض قوتها ونظّمت الحملات العسكرية ضد العرب، لكن تلك الامبراطورية ظلّت على مدى قرون السدّ الذي حجب القبائل الأوروبية والسلافية عن بلاد العرب. وعندما أزاح العثمانيون هذا السد باحتلالهم القسطنطينية عام ١٤٥٣ كانت أوروبة مشتتة القوى، وكانت البابوية تعيش واحدة من أسوأ مراحل انحسار نفوذها، وكانت غرناطة أقوى من أن تهددها قشتالة. ولم يمض نصف قرن على سقوط القسطنطينية حتى انقلبت أوضاع أوروبة فنهضت من غفوتها وأخذت إسبانيا غرناطة، وقصم البرتغاليون العامود الفقاري التجاري الهائل الذي بناه العرب على مدى ٣٥٠٠ سنة بين تيانجين في شمال الصين وممباسا على ساحل افريقية الشرقي، قبل أن تبدأ أوروبة جهود وقف مدّ العثمانيين ثم تحقق انتصارات مهمة عليهم وتتقاسم معظم الأراضي العربية.

ومنعت السفن العثمانية البرتغاليين من دخول البحر الأحمر لتهديد جدّة والمناطق المقدسة، وأبحرت إلى موانىء الساحل الأفريقي لتشجيع الناس هناك على الثورة على البرتغاليين المحتلين، وساهمت في صد الهجمات الإسبانية والبرتغالية على المغرب سواء عن طريق احتلال بعض تلك الدول أو دعم حكامها عسكرياً ومالياً. وقدّم العثمانيون مختلف أنواع الدعم للأندلسيين الجدد الذي نظروا إليهم محررين مُحتملين ومُخلّصين من الاضطهاد على يد الإسبان. وهذا كلّه صحيح لكن الأندلسيين احتاجوا الأمتين العربية والإسلامية مرة واحدة مهمة في حياتهم خلال الثورة الأندلسية الكبرى ولم يأتهم شيء من أحد إلا في النادر. وبدلاً من أن يساعد العثمانيون الأندلسيين في محنتهم الكبرى آنذاك، نراهم يستغلون إنشغال فيليب الثاني في قمع الثورة الأندلسية الكبرى لتحييد فرنسا أولاً ثم احتلال قبرص. ولعل في الإمكان القول إن تدخلاً عسكرياً واسع النطاق في إسبانيا لحماية الأندلسيين لم يكن ممكناً في أي وقت خصوصاً بعدما نقل العثمانيون تركيزهم إلى الصفويين في إيران في أعقاب تجاوز نكسة اسطولهم في ليبانت عام ١٥٧١. ولو أن جميع الأندلسيين رغبوا في الخروج من إسبانيا آنذاك والالتحاق بأراضي السلطنة العثمانية لكانت السلطنة أكثر من سعيدة لهذا القرار خصوصاً أنها كانت في حاجة إلى المستوطنين المسلمين في الأراضي التي سيطرت عليها في أوروبة. غير أن الأندلسيين كانوا لا يزالون يعتقدون أن هناك أملاً

في أن تغير إسبانيا سياستها الاضطهادية، أو أن تُوقف هذا الاضطهاد، أو أن تخففه على الأقل، خوفاً من انتقام العثمانيين.

وفي المرحلة التي سبقت بدء تطبيق مرسوم تغريب الأندلسيين من إسبانيا كان الأندلسيون يرفعون معنويات بعضهم البعض بتداول رواية خلاصتها أن السلطان العثماني جلب جميع الأسرى المسيحيين إلى اسطنبول وأوقفهم على منصات وحمّل كل واحد منهم حزمة حطب وهدد بأنه سيحرقهم جميعاً إذا أحرق الإسبان أندلسياً واحداً. ولا نعرف عن تهديد مثل هذا لأن العثمانيين سمحوا بحرية الأديان السماوية في أراضيهم ولم يغصبوا المسيحيين على الإسلام، وكانت الكنيسة الوحيدة التي حوّلها محمد الفاتح إلى مسجد هي آجيا صوفيا التي هي متحف اليوم. إلا أن العثمانيين راسلوا ملوك أوروبة للسماح بعبور الأندلسيين إلى أراضيهم، وحموهم وأكرموهم واسكنوهم في أحد أحياء اسطنبول وخصصوا لهم جامعاً ووظفوا عدداً منهم في الجيش والإدارة والترجمة.

وفي مراحل لاحقة تنقّل نسلّ هؤلاء الأندلسيين في أراضي السلطنة، واتجه قسم منهم إلى سورية وسكن دمشق ومن هؤلاء ينحدر الصديق الكاتب السوري غسان سبانو الذين يقول إن أصل الكنية كان «سباني» وتحوّل بعدها إلى «سبانو». ولنا مثل هذا الصديق وفي صنعة الكتابة نفسها صديقان آخران من تونس أحدهما أسمر مثلنا هو عبد المجيد بيجار، والثاني أبيض أشقر مثل كثير من الإسبان هو لطفي حجّي.

٨ - تأثير تغريب الأندلسيين في اسبانيا

تغنّى الشعراء الإسبان بحكمة فيليب الثالث في تغريب القسم الكبير من الأندلسيين، وأشاد لوبي دي فيغا وسيرفانتس وفيلاسكويز[1] وغيرهم من المؤلفين والفنانين بالأبعاد التاريخية لقرار فيليب الثالث. وطغى على تفكير الإسبان شعور عميق بالانتصار، وحصدت الدولة والكنيسة وقسم كبير من نبلاء إسبانيا ثروة الأندلسيين، وكثر مال مركيز دي كرانثيا ودي ميخيا، وذهب جزء من تلك الثروة

[1] اشتهر الرسام الإسباني ديغو فيلاسكويز بعدما فاز في جائزة لاختيار أفضل لوحة لتعليقها في القصر الملكي وكانت تصوّر الملك فيليب الثالث وهو يطلب من إسبانيا الأم طرد الأندلسيين. وكانت اللوحة تلك أول لوحة تاريخية يرسمها فيلاسكويز لكنها احترقت مع أعمال فنية رفيعة في حريق نشب في القصر الملكي عام ١٧٣٤. Salas, De Javier. *Velazquez,* Phaidon Press, (London 1962) p 7
وكان لفيلاسكويز عبد مشهور يدعى باريخا Pareja وهو عربي أو أندلسي الأصل، صار في ما بعد تلميذاً له.

المنهوبة إلى دوق ليرما الذي يُقال إنه كسب من بيع بيوت الأندلسيين المنفيين نحو خمسة ملايين ريال.[1]

وكتب القائد الأعلى لمملكة ليون إلى فيليب الثالث في ٢٨ آب (اغسطس) عام ١٦٠٩ يقول: «على رغم ان المهارات القليلة التي يوظّفها المسيحيون القدماء في العمل في الأرض ستتطلب جهوداً لإعمار ما سيبقى فارغاً، فإن الاهتمام الأكبر هو إبعاد هرطقة وكفر ذاك الشعب (يقصد الأندلسيين)».[2] وبقي عدد كبير من الأندلسيين يشتغلون في الأرض إلا أن هؤلاء كانوا جزءاً صغيراً من المطلوب فدخلت الأراضي الزراعية الخصبة عصراً من البوار الذي سيستمر حتى يعتلي عرش إسبانيا ملوك سلالة بوربون الفرنسية، لكنّه سيستمر أيضاً في بعض المناطق إلى عهد قريب. ويروي المؤرخ خانر Janer في الصفحة (٣٠٥) من الكتاب الذي أخذنا منه الاقتطاف أعلاه قصة نبيلة إسبانية جاءت رئيس أساقفة بلنسية خوان دي ربيره ودموعها تسيل على خدّيها تشتكي بحرقة من أن قرار التغريب سبب خراب إقطاعيتها ودمّر قراها فلم تعد تستطيع إعمارها. ولم يمض وقت طويل على رحيل هؤلاء الأندلسيين حتى حل الكساد في بلنسية وساءت أحوال بعض النبلاء فكتب مركيز دي كرانثيا إلى فيليب الثالث يشرح حال نبلاء كثرت ضرائبهم وتراكمت عليهم أعباء شتى أنواع الديون وفقدت أملاكهم قيمتها فصاروا ينزلون إلى الحقول للعمل بأيديهم في الفلاحة وكسب قوتهم وقوت عيالهم مثل دوق غندة وغيره.[3]

وكان طرد الأندلسيين في أي مرحلة من مراحل التاريخ الإسباني بعد تسليم غرناطة سيُلحق أضراراً فادحة بالاقتصاد، إلا أن إسبانيا في بداية القرن السابع عشر كانت خسرت الضرائب التي كانت تجبيها من الهولنديين. ورحل قسم مهم من الإسبان إلى العالم الجديد مشدودين بثروات خيالية تنتظر من يصل إليها أولاً. واستمر الانفاق العسكري مرتفعاً لتمويل آلة حرب كانت لا تزال تحاول الصمود في وجه أعداء إسبانيا الذين ازدادوا قوة مع الزمن. واستفاق الإسبان من خدر النشوة بطرد الأندلسيين فإذا هم غير قادرين على إطعام أنفسهم فبدأت الحكومة تستورد القمح من شمال أوروبة، وهجر عدد كبير من الإسبان حقولهم إلى المدن فتفاقمت مشاكلها.

---

[1] «موريسكيو بلنسية تحت وطأة...»، ص ٣٥.

[2] Janer, Florencio. *Condicion social*... p 272.

[3] 1609, 29 de Octobre, Valencia, Archivo de las corona de Aragón consejo de Aragón, 607, folio 27.

وزار الرحّال العربي المشهور ابن بطوطة مملكة غرناطة في القرن الرابع عشر وأبدى إعجابه بما رأى فكتب: «رأيت العنب يباع في أسواقها (أي أسواق مالقة) بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا، وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب».[١] وكانت غرناطة لا تزال هكذا قبل نحو سنة ونصف السنة من بدء تغريب الأندلسيين فنطقت بساتينها وحقولها ومنتوجاتها بمهارة المزارعين الأندلسيين.

ولدينا وصف ممتاز عن حال غرناطة قدمه نبيل بولندي يدعى جاك سوبيسكي Jacques Sobieski زار تلك المنطقة عام ١٦١١ وكتب: «حين يصل المرء إلى أندلوثيا (الأندلس الصغرى) فإن العينين تتحيران من كثرة أشجار الزيتون والبرتقال ومساكب الرز المترامية في كل مكان كالغابات. وأجمل المناطق يقع حول غرناطة حيث أقام الأندلسيون طويلاً وجلبوا المياه من الجبال المغطاة بالثلوج مستخدمين القنوات والأنفاق لإخصاب السهول والتلال المحيطة بهم وتحويل تلك البقعة إلى واحدة من أجمل ما رأت العين في العالم».[٢]وتوقف كل هذا في غرناطة وغيرها بعد إتمام نفي معظم الأندلسيين إذ يقارن الرحالة بارتولميو جولي Barthelemy Joly بين حال بلنسية قبل نفي الأندلسيين وبعده فيقول: «بلنسية جزء آخر يحمل المتعة إلى الأبصار. وقلما يهطل المطر في تلك البقاع إلا أن السكان يستخدمون مياه الينابيع المنقولة بواسطة قنوات ضيقة من الآجر لري حدائقهم. والبقعة هذه خضراء مغطاة بالشجر والحشائش والعنب وهم يزرعون الرز في المناطق السبخة، لكن هناك أيضاً أشجار النخيل والليمون والبرتقال والتوت الذي تُستخدم أوراقه لتربية دود القز ونوع من القصب يستخرجون منه سائلاً يصنعون منه السكر[٣] . . . لكن هذه الحديقة الغناء خسرت معظم رخائها وجمالها عندما قرر الملك الراحل فيليب (الثالث) طرد الأندلسيين من مملكته، وكان عددهم فيها (أي بلنسية) يفوق عددهم في أي مكان آخر. ومن المؤكد أن مملكة بلنسية بقيت منذ تلك الحادثة في حال خراب وبقيت قرى كثيرة سكنها الأندلسيون مهجورة، وافتقدت الأرض من يرعاها».[٤]

---

[1] «تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» (رحلة ابن بطوطة)، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، دار بيروت، (بيروت ١٩٨٠)، ص ٦٦٩.

[٢] Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, p 17.

[٣] أعلاه ص ١٧.

[٤] أعلاه، ص ٢٠-٢١.

وألحقت عملية تفريغ بلنسية وأرغون وغرناطة الخراب بالزراعة وقوضت أحد دعائم الاقتصاد القشتالي لكن تأثير نفي الأندلسيين في الصناعات لم يكن أقل ضرراً إذ يقول برونل: «إن الصناعات التي عرفت الازدهار في السابق تكاد اليوم تواجه الدمار. وعوضاً عن اشتغال الإسبان بتصنيع إنتاجهم من الصوف والحرير، كما تعودوا في الماضي، صاروا يصدرون المواد الخام إلى دول أجنبية مثل هولندا وفرنسا وإنكلترا لتصنيعها والعودة على تلك الدول بأسعار مرتفعة. ولما كان الغرباء يسيطرون على الجزء الأكبر من تجارة إسبانيا فإن المدن، التي كانت حتى وقت قريب تكتظ بالصناع المهرة الذين يتاجرون ببضائعهم، خوت وذهب مجدها. فمدينة برغش التي عمرت بفضل تجارتها بالصوف القشتالي فقدت معظم سوقها، وخسرت مدينة شقوبية التي اشتهرت بصنع الملابس الجميلة نصف سكانها وانتهت إلى عوز شديد». [1] ولم تجد حكومة دوق ليرما من يملأ الفراغ الذي خلّفه الأندلسيون والمهاجرون إلى العالم الجديد ففتحت أبواب البلاد لمن أراد، وتدفق الفرنسيون على الساحل الشرقي حتى صاروا غالبيّة في بعض مناطقه. وجاء مع هؤلاء أوروبيون آخرون يبحثون عن ثروة سريعة فعم الفساد واستشرى التهريب و«بدا»، كما قال الرحالة الفرنسي جولي، «كأن كل حثالة أوروبة صبّت في إسبانيا». [2]

وحيال انهيار الاقتصاد عجز عدد كبير من النبلاء عن تسديد ضرائبهم وأعلنوا إفلاسهم في وقت احتاجت فيه حكومة دوق ليرما المال لتمويل الحروب الجديدة. إذ استغل الهولنديون الهدنة التي استمرت ١٢ سنة ووسعوا نفوذهم في الشرق على حساب البرتغاليين ودعموا مواقعهم في كل مكان استوطنوه استعداداً لمرحلة ما بعد انتهاء الهدنة. وعندما استؤنفت الحرب مع إسبانيا تحرّك الهولنديون بنشاط فانهارت بسرعة محاولات إسبانيا التصدي لهم. ولم تستطع حكومة دوق ليرما إخراج البلاد من أزماتها المتلاحقة فقامت مجموعة من نبلاء البلاط على الدوق بزعامة ابن ليرما ذاته وأطاحت به في الرابع من تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٦١٨. لكن الأبن، الذي عُرف بصفة «دوق أثدة» Uceda لم يستطع انتشال البلاد من مشاكلها، بل ازدادت تلك المشاكل حدّة. وكتب أحد النواب إلى حكومته المحلية عام ١٦٢١ يشتكي من حال الأرياف: «هجر السكان قرى كثيرة وباد بعضها وانهارت الكنائس وتقوضت المساكن، وضاع ما ورثه الأبناء عن الآباء، وتخلى الناس عن الحقول فتراهم يهيمون

---

[1] أعلاه، ص ٢٠-٢١.

[2] أعلاه ص ٢٢.

وزوجاتهم وأولادهم في الطرقات يأكلون العشب ويقتاتون بالجذور، ويبحثون عن خلاص من كل هذه الشرور». [١]

ولم ينفرد دوق أثدة بالحكم طويلاً إذ مات فيليب الثالث في ٣١ آذار (مارس) عام ١٦٢١ وخلفه فيليب الرابع الذي اختار دوق أوليباريس Olivares رئيساً لحكومته. وحاول دوق أوليباريس حشد طاقات إسبانيا لمنازلة الهولنديين والانكليز إلا أنه اصطدم باقتصاد منهار وقدرات مهزوزة. واكتشفت إسبانيا الجريمة التي ارتكبتها بحق الأندلسيين المنفيين فسجّل كاتب أسرار الملك عام ١٦٣٣ الآتي: «لم تمض إلا فترة قصيرة منذ طرد الموريسكيين. وعاد ذلك القرار على هذه الممالك بضرر بالغ، وباتت فكرة عودتهم فكرة طيبة لو يقبلون فقط ديننا السماوي». [٢]

ولم تكن تلك العودة آنذاك ممكنة فاستمر تردي الأوضاع خصوصاً في الأرياف. ومن عام ١٦٢٩ نجد الشهادة الآتية التي سجّلها الراهب بنيتو دي بينالوسا Benito de Penalosa: «الفلاحون أفقر الجميع، وهم الطبقة التي تتعرض إلى السحق والدوس بالأقدام أكثر من أي طبقة أخرى. بل يبدو أن الجميع يتآمر على تدمير الفلاحين وإفنائهم. ووصل الأمر إلى حد اعتبار كلمة فلاح صفة سيئة، فأصبحت رديفة لكلمة العبد أو الوغد أو الجلف أو الشرير أو الأسوأ من ذلك». [٣] وهكذا ذهب قسم كبير من خضرة إسبانيا، وتحوّلت بلنسية المشهورة بأشجارها وزراعاتها وانتاجها إلى «هضبة مقفرة بلقع» كما يصفها المؤرخ البلنسي إيسكولانو Escolano. ولم تكف إسبانيا مصائبها العسكرية والاقتصادية فنزل عليها الطاعون عام ١٦٤٩ وضرب أشبيلية وعصف بنصف سكانها آنذاك (٦٠ ألف نسمة).

وكان على إسبانيا الانتظار حتى بداية القرن التاسع عشر قبل أن تستعيد أراضيها بعض الحياة اعتماداً على التقنية التي وضعها الأندلسيون. والمتجوّل اليوم في الساحل الشرقي أو غرناطة سيلاحظ الجهد الهائل الذي صبّه الأندلسيون في خدمة أرضهم. فخزانات المياه التي كانت تستخدم للري تنتشر في كل مكان، وأحدها يقع قرب المنسا إلى الجنوب الغربي من بلنسية ولا تقل مساحته عن ١,٦ كيلومتر مربع. ولا تزال المياه تتدفق على حمراء غرناطة عبر قنوات بناها العرب واستقدموا عبرها المياه من الجبال.

---

[١] أعلاه، ص ٩٩.

[2] Adler, Elkan.N. *Documents sur les Marranes d'Espagne et de Portugal sous Philippe IV*, "Revue des Etudes Juives", Vol. 51,(1906) p 120.

[٣] أعلاه، ص ١٠١-١٠٢.

وسدّدت إسبانيا طعنة أخيرة إلى الوجود العربي الإسلامي فيها عندما غرّبت الأندلسيين، لكن الطعنة أدمت الجهتين في النهاية فعانى الأندلسيون ما عانوه وهبط الأذى على إسبانيا فهوى اقتصادها ثم هيبتها بين الأمم وقست على نفسها آخر المطاف بعدما قست على الأندلسيين فباتت محل سخرية الشعوب وانتقادهم. «لم يعرف الإسبان المُضللون معنى العمل الذي قاموا به إذ حمل نفي الأندلسيين إلى نفوسهم المتعة لكنهم لم يفهموا أنهم قتلوا أوزتهم الذهبية. ومرت قرون وإسبانيا مركز الحضارة ومنبر الفنون والعلوم والثقافة وكل أنواع المعارف الراقية، ولم تكن أي دولة أوروبية أخرى وصلت بعد إلى المكانة التي وصلت إليها تلك المملكة المصقولة الناضجة التي أقامها الأندلسيون. وأخفق الإشعاع الوجيز الذي رافق حكم فرناندو وإيزابيلا وامبراطورية كارلوس الخامس في الاحتفاظ بمثل ذاك التجلي الدائم. ونُفي الأندلسيون فأشعت إسبانيا المسيحية وجيزاً مثل القمر بنور مستعار ثم جاء الخسوف. ومنذ ذلك الوقت وإسبانيا لا تزال تحبو في الظلمة. إن الذكرى الحقيقية للأندلسيين لا تزال ماثلة في صورة الأصقاع المهجورة المشتكية من محل كلي حيث أنبت الأندلسيون مرة العنب والزيتون وأكواز الذرة الذهبية. وهي لا تزال ماثلة في سكان أغبياء جهلة ازدهرت لديهم العلوم يوماً. وهي أخيراً ماثلة في الركود الشامل، وفي انحطاط شعب هوى من دون أمل في ميزان الأمم واستحق المهانة التي لحقت به».[١]

نهاية الامبراطورية الإسبانية

العصر الذهبي الإسباني El siglo de oro يعني شيئين مختلفين: أولهما الفترة الممتدة بين عصر كارلوس الخامس وإبرام معاهدة البيرينيه عام ١٦٥٩ عندما تصدّت إسبانيا لمحاولات أوروبة الوقوف في وجهها. والثاني العصر الذي برز فيه أهم الروائيين والمسرحيين والرسامين الإسبان مثل سيرفانتس (١٥٤٧-١٦١٦) ولوبي دي فيغا (١٥٦٢-١٦٣٥) وفيلاسكويز (١٥٩٩-١٦٦٠) الذين تأثّر بهم أدباء وفنانون في أوروبة خصوصاً فرنسا. وخلال فترة امتدت ١٦٧ سنة عرفت إسبانيا انتصارات هائلة ونكسات هائلة. فتمكنت عام ١٤٩٢ من احتلال غرناطة، واكتشاف العالم الجديد، وطرد اليهود، وتعليم الإسبان قواعد اللغة القشتالية، وإحراز انتصارات عسكرية قوضت أي مقاومة حقيقية للسيطرة الإسبانية على القارة. وانتقلت تلك الدولة الجديدة من إنجاز إلى آخر فسيطرت في عهد كارلوس الخامس على بقاع لم يسيطر

[١] Lane-Poole, Stanley. *The Moors In Spain*, pp 279-280.

عليها أحد من قبله. ومع ذلك لم يعش كارلوس الخامس عهداً خالياً من النكسات فتورط في حروب مستمرة أنهكت موازنة الامبراطورية، وأخفق في قمع حركة الإصلاح الديني في ألمانيا وهولندا وتصومع في دير يوست ومات عام ١٥٥٨. واعتلى فيليب الثاني عرش الإمبراطورية التي ورثها عن أبيه كارلوس الخامس وحكم ٤٠ سنة وحقق هو الآخر انتصارات عظيمة ومُني بهزائم عظيمة أيضاً إذ دمّر الاقتصاد الأندلسي وقضى على الثورة الأندلسية الكبرى واوقف انتفاضة الهولنديين موقتاً وحطم الأسطول العثماني عام ١٥٧١، ثم حقق حلماً قشتالياً قديماً عندما ضم البرتغال إلى ممالكه عام ١٥٨٠. لكن هذا الملك كان أيضاً صاحب إخفاق الارمادا في القضاء على أعدائه الإنكليز والمسؤول عن انتشار البروتستانتية على رغم كل العنف والإمكانات التي وظفها لقمع تلك الحركة الدينية الأصولية. وفي قصر الإسكوريال المنتشر على مساحة ٤٠٠,٠٠٠ قدم مربع عاش فيليب الثاني أربعة عشر عاماً من حياته التي مزج فيها الملكية مع الرهبنة، ووجه قسماً كبيراً من العالم بأوامر كان يكتبها على قصاصات من الورق، ثم يبعد صورة العالم الحقيقي من حوله ويحلم بعالم واحد يحكمه ملك واحد فيه مذهب واحد هو الكاثوليكية.

ولم يتحقق حلم فيليب الثاني لكن الذي تحقق توقّعه قبل موته ان ابنه سيكون محكوماً لا حاكماً. وحمل فيليب الثالث تاج المملكة لكنه ترك الحكم لنبيل بلنسي هو فرانسيسكو دي ساندوبال ي روخاس Francisco de Sandoval y Rojas الذي عُرف في البداية بإسم مركيز دانية ثم عام ١٥٩٩ باسم دوق ليرما. وكان دوق ليرما أول الأعوان الذين حكموا قشتالة فعلياً، بينما كرس الملوك وقتهم للتمتع بما يمكن أن يقدمه المنصب لهم. وفي غياب ملك حازم نمت حكومة ضعيفة أجهضت قوى الإمبراطورية ثم جنحت إلى الهدنة مع أعدائها ونفت الأندلسيين الجدد لتحقيق نصر سياسي موهوم. ولم تنجح الهدنة في حل مشاكل الامبراطورية، كما لم تنجح عملية نفي الأندلسيين في الإبقاء على حكومة الدوق فقام ابنه عليه وأخذ مكانه. وكان إخفاق الإبن كإخفاق الأب. ومات فيليب الثالث عام ١٦٢١ فورثه ابنه ولما يتجاوز عمره السادسة عشرة. وترك فيليب الرابع الحكم الفعلي لنبيل أندلسي يدعى غاسبار دي قسمان Gaspar de Guzman، أو دوق أوليباريس. وتحلّى الدوق بخصال جيدة لكنها لم تسعف إسبانيا التي دبّت سمات الشيخوخة سريعاً في أوصالها المتشعبة.

وهكذا تبددت محاولات الدوق حشد الطاقات المبعثرة، وتطبيق برنامج إصلاح شامل، وإعادة رفع الأعمدة المنهارة التي قامت عليها الإمبراطورية. وخلال ٢٢ سنة

من حكم دوق أوليباريس استأنفت إسبانيا المعارك ضد الهولنديين وتورطت في أغلب الحروب الأوروبية وبدأت الأمور تنتقل من سيء إلى أسوأ اعتباراً من عام ١٦٢٨ عندما اشتبك الإسبان والفرنسيون في إيطاليا على منطقة مانشوا. واستمرت الحرب في إيطاليا أربع سنوات ثم امتدت إلى الحدود بين البلدين عام ١٦٣٥. وبعد أربع سنوات من ذلك تقدم الفرنسيون واحتلوا قطالونيا بموافقة أهلها فأعلنت انفصالها عام ١٦٤٠. وفي بداية العام الأخير ذاته تمكّن الهولنديون من هزيمة الأسطول الإسباني الذي حاول استعادة البرازيل، وأعلنت البرتغال انفصالها عن إسبانيا ونصّبت يوحنا الرابع ملكاً جديداً. وتوالت هذه المصائب على إسبانيا في وقت كانت فيه الجيوش الهولندية والإنكليزية تحرز الانتصار تلو الآخر وتضيق الخناق على الإمبراطورية. وحين حاول دوق أوليباريس دفع جيش بقيادة مركيز بلش لتأديب القطلان تصدى له الفرنسيون وأنصارهم في قطالونيا وأوقعوا به الهزيمة بعد ٢٦ يوماً من بداية السنة التالية. وسجل دوق أوليباريس انطباعاته عن أحداث ١٦٤٠ بالقول: «هذا العام من دون أدنى شك أسوأ عام عرفته هذه المملكة في تاريخها».

واستمر حكم دوق أوليباريس ثلاث سنوات أخرى تقوض خلالها النظامان الاقتصادي والسياسي واضطر إلى الاستقالة ومات عام ١٦٤٥ وهو على حافة الجنون. أما فيليب الرابع فحاول في البداية إدارة الحكم مباشرة لكن السلطة تسربت من بين يديه فتملكها الدون لويس دي هارو ابن أخت دوق أوليباريس، وخُيِّل للجميع وقتها ان إسبانيا تعرف الماضي لكنها تجهل أي شيء عن الحاضر أو المستقبل.

وفي لحظات اليأس الشامل شع بصيص من نور إذ قررت قطالونيا العودة إلى التاج الإسباني عام ١٦٥٢، واتفقت إسبانيا وفرنسا على إنهاء الحرب بينهما بموجب صلح البيرينيه (١٦٥٩) الذي اعترفت فيه إسبانيا ضمنياً بتراجع دورها وتقدم دور فرنسا. أما البرتغال فاختارت الاستقلال النهائي وتمكنت من استعادة البرازيل من الهولنديين، وهزمت بمساعدة الإنكليز والفرنسيين جيشين إسبانيين أرسلا لإخضاع البلاد عام ١٦٦٣، ثم هزمت جيشاً ثالثاً بعد سنتين من ذلك. وفقدت إسبانيا الأمل باستعادة البرتغال فاعترفت بها دولة مستقلة عام ١٦٦٨ مثما كانت اعترفت باستقلال هولندا قبل ذلك بعشرين سنة.

انقلاب الحظوظ

وتبدّل ملوك إسبانيا وقتها لكن حظها ظل كما كان. فبعد فيليب الرابع جاء

كارلوس الثاني الحكم مريضاً وضعيفاً مثل إسبانيا . وانتظر الجميع موت هذا الملك بين يوم وآخر ، إلا أنه خدع الجميع فلم يمت إلا عام ١٦٩٩ . وخلال تلك الفترة أبرمت القوى الأوروبية الرئيسية معاهدتين لتقاسم ممالك إسبانيا لكن كارلوس أفشل جميع المعاهدات عندما أوصى بكل ممالكه لفيليب أنجو حفيد الملك الفرنسي لوي الرابع عشر . ولما كان الاختيار غير مرض لجميع الدول ، باستثناء فرنسا ، فقد نشبت عام ١٧٠١ حرب شاملة عُرفت باسم «حرب الخلافة الإسبانية» لم تنته إلا بعد ١٢ عاماً . ويمكن اعتبار تلك الحرب أول حرب عالمية إذ شملت اليابسة كما شملت أعالي البحار . ووقف في الطرف الأول بريطانيا (العظمى) وهولندا والنمسا وبروسيا وهانوفر والبرتغال . وفي الثاني فرنسا وحلفاؤها . ودارت بين الطرفين معارك ماحقة في إسبانيا وإيطاليا وألمانيا وهولندا وبحر الشمال والمحيطات . أما الغنيمة فلم تكن تقل مساحة أو أهمية ، إذ كانت إسبانيا تسيطر قبل بدء الحرب على أميركا الجنوبية (باستثناء البرازيل) والفليبين وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبنما وميلانو ونابولي وصقلية وسردينيا والجزائر الشرقية وغيرها . ولم تتمكن فرنسا من الوقوف أمام المتحالفين ضدها ، وضعفت قواها في السنوات الأخيرة من الحرب فطلبت الصلح لكن الحلفاء غالوا في مطالبهم لذا لم تتوقف المعارك إلا بعد تغيير السلطة في بريطانيا وإبرام صلح اترشت عام ١٧١٣ .

وبموجب المعاهدة حصل فيليب أنجو على إسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد ، وأخذت النمسا ممالك إسبانيا في أوروبة ، باستثناء صقلية التي كانت من نصيب مملكة سافوي . وكان نصيب بريطانيا جبل طارق (احتلته عام ١٧٠٤) ومنورقة ونيوفاوندلاند ونوفا سكوشيا واحتكار تجارة العبيد . وغيّرت تلك المعاهدة خريطة العالم وقلبت موازين القوى وافسحت المجال لقيام عصر الاستعمار بعد ذلك . وفي سنوات لاحقة بدأت بريطانيا تتوسع على حساب حليفتها القديمة هولندا ، وتمهد الطريق لبناء امبراطوريتها المعروفة . وكانت إسبانيا دولة ثانوية عندما تركزت القوى في يد فرنسا وبريطانيا والنمسا إلى أن تغيرت الموازين عقب الحرب العالمية الثانية .

وظل مصير إسبانيا مرتبطاً بمصير فرنسا عبر الأسرة الفرنسية المالكة حتى عام ١٧٨٩ عندما قامت الثورة الفرنسية . وأخفق كارلوس الرابع (١٧٨٨-١٨٠٨) في إقناع الثورة بالإبقاء على حياة لوي السادس عشر فاصطدم مع قياداتها لكن نابوليون بونابرت استوعبه ، وأدخل إسبانيا في مخططاته التوسعية وبدأ الحرب مع بريطانيا . وفي عام ١٨٠٥ تمكن الأسطول البريطاني من تحطيم الأسطولين الفرنسي والإسباني

في معركة طرف الغار (نسبة إلى غار أو كهف قبالة البحر) فأثارت الهزيمة الإسبان فثاروا على الملك وأجبروه على الالتجاء وحاشيته إلى فرنسا. ورد نابوليون بتعيين شقيقه جوزيف ملكاً على إسبانيا فجاوبه الإسبان بإعلان ما يسمى بحرب الاستقلال الإسبانية. وحقق الإسبان بمساعدة الإنكليز والبرتغاليين انتصارات كثيرة على القوات الفرنسية. وانتهت هذه المرحلة من الوجود الفرنسي باستسلام نحو ٢٣,٠٠٠ جندي فرنسي في تموز (يوليو) عام ١٨٠٨ وفرار جوزيف. وهنا زحف نابوليون على إسبانيا بجيش يُقال إنه عدّ نحو ٣٠٠,٠٠٠ جندي واحتل مدريد. وفي عام ١٨١٢ استغل الإسبان وحلفاؤهم الإنكليز انشغال نابوليون بالحرب الفاشلة في روسيا، وحرروا العاصمة.

واستغلت المستعمرات الإسبانية في العالم نشوب حرب الاستقلال فاعلنت انفصالها عن إسبانيا، ثم فقدت مدريد آخر مستعمراتها هناك نتيجة الحرب الإسبانية-الأميركية التي اندلعت عام ١٨٩٨. وبعد ثلاث سنوات من ذلك نُصّب ألفونصو الثالث عشر ملكاً على إسبانيا. ولم يتمكن هذا الملك، الذي ينتمي إلى أسرة بوربون الفرنسية، من السيطرة على الوضع طويلاً في فترة ابتليت فيها بلاده بأنظمة عسكرية ديكتاتورية أهمها الحكومة التي شكلها الجنرال بريمو دي ربيره عام ١٩٢٣. وأمام الإخفاق في الإطاحة بالحكومة العسكرية أعلن عدد من المناطق الإسبانية تشكيل جمهوريات. وضعف تأييد الجماهير للملكية فاضطر الملك إلى التنازل عن العرش عام ١٩٣٠ وتبنّى الإسبان النظام الجمهوري. وكانت هذه الفترة عاصفة بالاضطرابات فأعلنت قطالونيا نفسها جمهورية مستقلة عن الحكومة المركزية في مدريد، وتعاظم النداء بتطبيق الحكم الذاتي في إقليمي الباسك وجليقية، وأدت سياسات داخلية مجحفة إلى اندلاع المظاهرات العمالية وأعمال الشغب التي وصلت إلى الأوج بعد اعتقال ابن الديكتاتور السابق ربيره رئيس حزب الكتائب اليميني، واغتيال كالبو سوتيلو زعيم المؤيدين لعودة الملكية.

إسبانيا في العصر الحديث

في عام ١٩٣٦ فاز اليساريون في الانتخابات العامة وشكّلوا حكومة أبعدت فرانسيسكو فرانكو (كان وقتها رئيساً للأركان) وعيّنته مسؤولاً عسكرياً في جزر الكناري. وفي تموز (يوليو) من العام نفسه قاد كبار قادة الجيش انقلاباً عسكرياً على الحكومة المدنية فتصدى لهم المدنيون وتطوّر الصدام إلى حرب أهلية دامية. وفي هذه

الاثناء استقدم العسكريون فرانكو ونصبوه رئيساً للأركان وديكتاتوراً على إسبانيا وبدأ حرباً شاملة على الجمهوريين بمساعدة ديكتاتورين مثله هما هتلر وموسوليني. واستمرت المعارك الطاحنة من مدينة إلى اخرى ومن حي إلى آخر وأحياناً من بيت إلى بيت مدة ٣٢ شهراً هيمن فرانكو في نهايتها على إسبانيا بعد مجازر رهيبة وإعدامات واجراءات انتقامية فظيعة وغريبة منها منع الباسك من النطق بلغتهم. ولم يكن نظام حكم فرانكو قريباً جداً من النظامين الفاشيين في ألمانيا وإيطاليا لكنّه لم يكن بعيداً عنهما أيضاً إذ جمع بين يديه مناصب رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة وزعيم حزب الكتائب وكان الحزب الوحيد المسموح له بالعمل.

وحكم فرانكو إسبانيا بقبضة حديد لكنه مال في آخر أيامه إلى الملكية واختار حفيد ألفونصو الثالث عشر ولياً للعهد. وعندما مات فرانكو عام ١٩٧٥، أصبح خوان كارلوس ملكا على إسبانيا وانفتحت أبواب الديمقراطية بعد مرحلة تمهيدية. واختار الاسبان آخر عام ١٩٨٢ أول حكومة اشتراكية بعدما تقلصت قوة اليمين. وفاز الإشتراكيون في الانتخابات العامة التي جرت أعوام ١٩٨٦ و١٩٨٩ و١٩٩٣ في الوقت الذي ازدادت فيه شعبية الحزب الشعبي بقيادة خوسيه ماريا أثنار فتمكن من تشكيل حكومته في الانتخابات التالية. وساهم انضمام إسبانيا إلى الاتحاد الأوروبي في تحويلها إلى قوة فاعلة بناتج محلي إجمالي يفوق ترليون دولار، وبدأ اقتصادها يخرج من الأزمات التي تلاحقت عليه أكثر من ثلاثة قرون، وجعلت البلاد واحدة من أفقر دول أوروبة شأنها في ذلك شأن البرتغال التي عاشت زمناً طويلاً من تاريخها الحديث في ظل الدكتاتورية.

وسيطرت إسبانيا والبرتغال اعتباراً من نهاية القرن الخامس عشر على عدد من المراكز على الساحل المغاربي ومنطقة الصحراء الغربيّة. وبدأت قبضتها في التراخي مع الزمن. وبنهاية عهد مولاي اسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧) انحصر الاحتلال الإسباني بمدينتي سبتة ومليلة، غير أن إسبانيا عادت عام ١٨٦٠ واحتلت الصحراء الغربيّة التي عُرفت باسم الصحراء الإسبانية. وانسحبت إسبانيا من افني عام ١٩٦٩ فيما تابعت استعمار الصحراء الغربيّة إلى أن اعادتها إلى موريتانيا والمغرب بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦. ويروي الحسن أوشن، الذي شغل منصب والي مدينة العيون عاصمة الصحراء الغربيّة ثم والي الدار البيضاء وكان في عداد «المشاة الخضر» الاوائل الذين دخلوا المدينة بعد انسحاب الإسبان في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٧٦، ما رآه بعد أكثر من ١٠٠ عام على وجود الإسبان فيها فيقول: «لم نجد شيئاً البتة- لا بنيات تحتية

ولا أرشيف ولا احصاءات ولا حتى ملفات إدارية. كان معظم الصحراويين يعيش عيشة البدو الرحل، وكان ماء الشفة (الشرب) متوافراً للضباط والمسؤولين الإسبان، وكانت هناك مدرسة واحدة وشبه مستوصف، ولم يكن عدد سكان مدينة العيون يتجاوز ٣٠ ألف نسمة موزعين بين ما كان يُسمى حي الذباب وحي الخنازير».

ويبدو من استمرار احتلال إسبانيا مدينتي سبتة ومليلة المغربيتين بعد أكثر من ٤٠ سنة من إلغاء الاستعمار وإنحساره عن معظم أنحاء العالم أن إسبانيا لا تزال تعيش حتى اليوم هاجس الدفاع عن الأندلس، الذي هيمن على تفكير ملوكها وسلوكهم منذ بداية القرن الثالث عشر، من خلال الاحتفاظ بموقع متقدم في البلاد الإسلامية. ومن الملفت إن إسبانيا، التي منحت المدينتين صفة الحكم الذاتي ومثّلتهما في البرلمان لتعقيد الإنسحاب منهما، تستند في ردها على الطلب المغربي تسليم المدينتين إلى حقها في البقاء فيهما بدعوى فتحهما وإبرام اتفاقات ومعاهدات في الماضي مع حكّام المغرب، وبأن المدينتين تمتعان بالسيادة لذا لا يسري عليهما مبدأ إزالة الاستعمار. ولإسبانيا وضع مشابه مع بريطانيا يتصل بجبل طارق. وعلى الرغم من أن الحكومات الإسبانية أثارت في الماضي مسألة إعادة الجبل إلى السيادة الإسبانية ومنعت العمال الإسبان من عبور الحدود للعمل في المستعمرة البريطانية فإنها لا تبدو مستعجلة لاستعادة الجبل لئلا يكون هذا مقدمة لإعادة سبتة ومليلة. وتستطيع إسبانيا أن تماطل إلا أن الوقت ليس في صالحها ولن تستطيع البقاء في القرن الواحد والعشرين دولة فالتة من القرن الخامس عشر متشبثة بواحد من آخر رموز الاستعمار في العالم. ويمكن أن تؤدي استعادة جبل طارق إلى تعجيل إنسحابها من سبتة ومليلة لكنها ستجد نفسها مُجبرة في النهاية على الإنسحاب من المدينتين العربيتين عاد الجبل إليها أم لم يعد.

❊﴿ انتهى ﴾❊

الملاحق والمصادر والجداول

تاريخ اهم الوقائع الأندلسية والعربية والدولية

٧١٠ م	٩١ هـ	موسى بن نصير يبعث بسرية استكشاف من ٤٠٠ راجل و١٠٠ فارس بقيادة طريف بن مالك (ملوك) النخعي في أربعة مراكب ونزوله في جزيرة بلومة التي عرفت في ما بعد باسمه طريف أو بالاسم الإسباني «طريفة» في جنوب آيبرية.
٧١١	٩٢	(٢٨ نيسان/ إبريل - ٥ رجب). طارق بن زياد والي طنجة يعبر الزقاق من سبتة الى طرف آيبرية على رأس سبعة آلاف مقاتل. طريف يلحقه بخمسة آلاف جندي.
٧١١	٩٢	(الأحد ١٩ تموز/ ٢٨ رمضان). التقاء طارق مع جيش القوط الغربيين بقيادة رودريك (لذريق) ونشوب معركة وادي برباط (بكة أو لكة) التي اسفرت عن انتصار طارق بعد قتال استمر ثمانية أيام (حتى ٥ شوال).
٧١١	٩٢	بداية مرحلة فتح الأندلس التي تستمر أربع سنوات حتى ٧١٤ (٩٥).
٧١١	٩٢	(نيسان/ شوّال). مغيث الرومي يفتح قرطبة التي أصبحت العاصمة بعد نقلها من إشبيلية في عهد الوالي أيوب بن حبيب اللخمي ابن اخت موسى بن نصير.
٧١٢	٩٣	(حزيران/ رمضان). موسى بن نصير (٦٤٠-٧١٦/ ١٩-٩٧) يعبر الزقاق (العدوة) على رأس ١٨,٠٠٠ مقاتل لاستكمال فتح الأندلس.
٧١٤	٩٥	بداية عهد الولاة الذي استمر ٤٢ سنة (حتى ٧٥٦/ ١٣٨).
٧٣٢	١١٤	(تشرين الأول/ الثاني - رمضان). موقعة بلاط الشهداء التي انتهت بهزيمة المسلمين واستشهاد عبد الرحمن الغافقي الوالي بعد ١٠ أيام من المعارك.
٧٥٠	١٣٢	نهاية الدولة الأموية في الشام.
٧٥١	١٣٣	بيان الثالث ابن شارل المعروف «بالمطرقة» يسترد مدينة نربونة من الأندلسيين.
٧٥٥	١٣٨	(١٤ آب/ ١ ربيع الأول). أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين ينزل في مدينة المنكب جنوب الأندلس.
٧٥٦	١٣٨	(١٥ أيار/ ١٠ ذو الحجة). نشوب معركة المصارة (المسارة) التي انتهت بانتصار عبد الرحمن (الداخل وصقر قريش) على الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري (جده عقبة بن نافع) والصميل بن حاتم ودخوله قرطبة.
٧٨٦	١٧٠	بداية بناء المسجد الكبير في قرطبة وهو اليوم ثاني أهم الآثار في إسبانيا بعد غرناطة ومعروف باسم «المزكيتا».
٧٨٨	١٧٢	(٣٠ أيلول/ ٢٥ ربيع الآخر). وفاة عبد الرحمن الداخل المولود في الشام سنة ٧٣١ (١١٣) من جارية بربرية اسمها راح.
٨١٤	١٩٨	(٢٨ كانون الثاني/ ٢ جمادى الثاني). موت شارلمان.
٨٤٤	٢٢٩	(آب/ أوائل ذي الحجة). هجوم النورمان (المجوس) الأول على الأندلس.

٨٤٨ ٢٣٤ استخدام ٣٠٠ مركب لفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة.

٨٥٠ ٢٣٥ مملكة أستورياس الشمالية تبدأ النمو على رغم العمليات العسكرية الاسلامية.

٨٥٩ ٢٤٥ هجوم النورمان الثاني على الأندلس في ٦٢ مركباً.

٨٨٤ ٢٧١ بدء توطين سهول نهر دويرة بنصارى الممالك الشمالية والأوروبيين.

٩١١ ٢٩٨ مملكة أستورياس تسيطر على نحو خمس شبه جزيرة آيبرية.

٩١٢ ٢٩٩ الممالك الشمالية تستكمل توطين بعض المدن وتحتل المناطق الواقعة شمال نهر دويرة وتغلق الطريق الرئيس بين سرقسطة واشترقة.

٩١٥ ٣٠٢ وقوع مجاعة خطيرة في الأندلس لحقتها ثانية في قرطبة عام ٩٦٤ (٣٥٣).

٩٣٩ ٣٢٧ وقعة الخندق عند مدينة شنت منكش وهزيمة الناصر لدين الله.

٩٨١ ٣٧٠ الحاجب المنصور يسحق القوات المتحدة لممالك ليون وقشتالة ونافار (نبارة) في المعركة التي جرت قرب روطة اليهود.

٩٨٢ ٣٧٢ يأس الممالك الشمالية من تحقيق أي انتصار على المنصور يسفر عن رضوخ ملوكها فيقدم ملك نافار (شانجة الثاني) له ابنته «عبدة» التي حملت ابنه شنجول.

٩٩٧ ٣٨٧ المنصور يخرّب مدينة شنت يعقوب (ياقب) أو «سنتياغو» شمال غربي آيبرية.

٩٩٩ ٣٨٩ المنصور يحتل مدينة بمبلونة (بنبلونة) عاصمة الباسك (البشكنس).

١٠٠٠ ٣٩٠ المنصور يهزم قوات شانجة غرسيه قرب النسور جنوب غربي مدينة سرية.

١٠٠٢ ٣٩٢ المنصور يُتوفى في مدينة سالم فيخلفه ابنه «المظفر».

١٠٠٩ ٤٠٠ بداية عهد الطوائف الذي استمر حتى دخول المرابطين عام ١٠٩١ (٤٨٤).

١٠١٣ ٤٠٣ وقوع الفتنة البربرية وتخريب قرطبة.

١٠٥٩ ٥٤١ النورمان يسلخون الجنوب الإيطالي عن الامبراطورية البيزنطية.

١٠٦٤ ٤٥٦ النورمان يحتلون مدينة بربشتر الشمالية ومقتل أو أسر بين ١٠٠ ألف و٤٠٠ ألف شخص من سكانها. ابن حيان المعاصر يصف الخطب بأنّه: «أعظم من أن يُوصف أو يُتقصى». استعادة المدينة عام ١٠٦٥ (جمادى الأولى ٤٥٧).

١٠٦٤ ٤٥٦ فرناندو الأول يحتل مدينة قلمرية ويطرد جميع المسلمين من المناطق الواقعة شمال نهر دويرة.

١٠٦٦ ٤٥٨ (١٤ تشرين الأول/ ٢١ ذو القعدة). وليام الفاتح النورماندي يهزم الانكليز في موقعة هيستنغز.

١٠٧١ ٤٦٣ السلاجقة يهزمون بيزنطة في معركة ملازجرت ويهددون الكنيسة الشرقية.

١٠٧٥ ٤٦٧ الكنيسة الكاثوليكية تحرق أول ضحايا «الهرطقة».

١٠٨٠ ٤٧٣ ألفونصو السادس يركز جهوده على احتلال طليطلة بعد الأزمة الداخلية فيها.

١٠٨١ ٤٧٤ بداية حصار طليطلة عاصمة الثغر الاوسط وإخفاق ملوك الطوائف في نجدتها.

١٠٨٥ ٤٧٨ (الأحد ٢٥ أيار/ ٢٨ محرم). استسلام طليطلة لألفونصو السادس.

١٠٨٦ ٤٧٩ (٣٠ حزيران/ ١٦ ربيع الأول). عبور سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين الى

الأندلس استجابة لطلب بعض أمراء الطوائف، لا سيما المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، بعد استفحال خطر ألفونصو السادس ومغالاته في طلب الجزية وتسليم الحصون والقلاع.

١٠٨٦ ٤٧٩ (٢٣ تشرين الأول/ الجمعة ١٢ رجب). نشوب معركة الزلاقة التي انتهت بهزيمة ألفونصو السادس وتسمية يوسف بن تاشفين «أمير المؤمنين».

١٠٩١ ٤٨٤ بداية عهد المرابطين بعد تصفية ملوك الطوائف بمن فيهم المعتمد بن عباد الذي نُفي الى أغمات وتوفى فيها. انتهاء عهد المرابطين عام ١١٢٦ (٥٢٠).

١٠٩٤ ٤٨٧ (الخميس ١٦ حزيران/ ٣٠ جمادى الأولى). السيد القنبيطور (رودريغو دياث دي بيبار) يحتل مدينة بلنسية بعد حصار استمر ٢٠ شهراً إلى حين استعادتها عام ١١٠٢ (٤٩٥) بعدما احرقتها شمانة زوجة السيد.

١٠٩٥ ٤٨٨ الامبراطور البيزنطي أليكسيوس كومينوس (١٠٨١-١١١٨) يتوجه الى البابا إربان (إربانوس) الثاني بطلب المساعدة ضد السلاجقة الأتراك.

١٠٩٥ ٤٨٨ (الاثنين ٢٦ تشرين الثاني/ ٢٦ ذو القعدة). إربان الثاني يلقي خطبته الشهيرة بعد انعقاد المحفل الكنسي في كليرمونت معلناً بداية الحروب الصليبية، ويحض بعد ذلك الأمراء والفرسان في أوروبة للنهوض بهذه المهمة.

١٠٩٦ ٤٨٩ الحملة الصليبية الأولى تبدأ بتسيير جيش من نحو نصف مليون فلاح فرنسي بقيادة الناسك بطرس الاميانى. نحو ٢٥ ألفاً من هؤلاء يعودون إلى بلادهم بعدما قتل الباقون على يد البلغار (البلغر) والسلاجقة. إتباع هذه الحملة بثانية قادها الأمراء والنبلاء استمرت حتى العام ١٠٩٩.

١٠٩٧ ٤٩١ هزيمة الشماليين في معركة كنشرة في الأندلس.

١٠٩٩ ٤٩٢ (الجمعة ١٥ تموز/ ٢٣ شعبان). الصليبيون يأخذون بيت المقدس من الفاطميين بعد حصار استمر خمسة أسابيع، ووقوع مذبحة كبيرة في المدينة يقال انها طاولت ٧٠ ألف شخص.

١١٠٨ ٥٠١ (٢٩ أيار/ ١٦ شوال). المرابطون يحققون انتصاراً مهماً في معركة اقليش (اقليج) قرب طليطلة.

١١١٦ ٥٠٩ المرابطون يستردون الجزائر الشرقية بعد سنة من احتلالها.

١١١٨ ٥١٢ (الخميس ١٩ كانون الأول/ ٤ رمضان). ألفونصو الأول «المحارب» (اذفونش ابن ردمير ملك أرغون) يحتل سرقسطة بعد حصارها.

١١٢٠ ٥١٤ (الخميس ٢٢ حزيران/ ٢٤ ربيع الأول). هزيمة أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين شقيق الأمير المرابطي علي بن يوسف في معركة قتندة (قرب سرقسطة).

١١٢٥ ٥١٨ (٧ كانون الثاني/ ٣٠ ذو العقدة). ألفونصو الأول يتجه الى غرناطة لاحتلالها بناء على طلب النصارى المعاهدين.

١١٢٨ ٥٢٣ البرتغال تعلن استقلالها عن قشتالة وتبني مملكتها في ما بعد على حساب أراضي قشتالة والأندلس.

١١٣٤ ٥٢٨ (رمضان/ تموز). هزيمة ألفونصو الأول الأرغوني في وقعة افراغه قرب لاردة.

١١٤٤ ٥٣٨ قيام ١٤ مملكة في الأندلس بعد انهيار دولة المرابطين .

١١٤٥ ٥٤٠ بداية عهد الموحدين الذي انتهى عام ١٣٢٣ (٦٢٠) .

١١٤٧ ٥٤٢ ألفونصو انريكيث البرتغالي يستولي على لشبونة (اشبونة) بمساعدة قوات صليبية من الانكليز والهولنديين والألمان فيما هي في الطريق الى المشرق .

١١٤٧ ٥٤٢ الحملة الصليبية الثانية تبدأ بتوجه الألماني كونراد الثالث والفرنسي لوي السابع الى المشرق وتستمر حتى ١١٤٩ (٥٤٤) من دون تحقيق أي نتائج .

١١٤٩ ٥٤٣ (السبت ٢٦ شباط/ ١٦ شوال) . سقوط مدينة طرطوشة على يد رامون برنجير الرابع وحلفائه من فرسان الهيكل بعد حصار استمر ٤٠ يوماً .

١١٥١ ٥٤٦ ألفونصو السابع يهاجم قرطبة وجيان لكنه يخفق في أخذهما .

١١٥٧ ٥٥٢ الموحدون يستعيدون المرية من الشماليين بعد استسلام حاميتها .

١١٦٠ ٥٥٥ البرتغالي ألفونصو انريكيث يستولي على قصر الفتح (قصر أبي دانس) بمساعدة القوات الصليبية المتجهة الى المشرق .

١١٧٢ ٥٦٧ (آذار/ رجب) . الشماليون يحتلون لاردة الواقعة في أقصى الشمال الشرقي .

١١٧٩ ٥٧٥ البابا يعترف بالبرتغال مملكة مستقلة عن قشتالة .

١١٨٧ ٥٨٣ صلاح الدين الأيوبي يهزم الصليبيين في معركة حطين ويستعيد القدس .

١١٨٩ ٥٨٥ شن الحملة الصليبية الثالثة وغرق فريدريش الأول (بربروسا) . الحملة تستمر ثلاث سنوات حتى ١١٩٢ (٥٨٨) .

١١٩٢ ٥٨٨ البابا سيلستين الثالث يرسل ابن اخته الكردينال غيورغو لحض الشماليين على القتال ويصلح بين قشتالة وأرغون وليون . بدء بناء قلعة الأرك الشهيرة .

١١٩٢ ٥٨٨ (١٢ تموز) . حامية عكا تستسلم لفيليب ملك فرنسا ولريتشارد قلب الأسد . ضرب اعناق نحو ٢٥٠٠ أسير مسلم بعد تأخر تسليم الفدية .

١١٩٣ (شباط) وفاة صلاح الدين الأيوبي في دمشق .

١١٩٥ ٥٩١ (الخميس ٦ حزيران/ ٢٥ جمادى الآخرة) . الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور يعبر الى طريف فقلعة رباح بعد استفحال خطر ألفونصو الثامن .

١١٩٥ ٥٩١ (الثلثاء ١٨ تموز/ ٩ شعبان) . هزيمة ألفونصو القشتالي في موقعة الأرك (الأركة) بعد يوم واحد من القتال .

١٢٠٤ ٦٠٠ القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ومقر الكنيسة الشرقية التي استعصت على العرب بعد حصارها عام ٦٧٣ (٥٣) و٧١٧/ ٧١٨ (٩٨/ ٩٩) تسقط بأيدي الصليبيين الغربيين بتحريض النورمان والبندقية .

١٢١٠ ٦٠٦ (١٦شباط/ ٢٠ شعبان) . البابا أنوصان الثالث يأمر رودريغو خيمينث دي رادا ، رئيس أساقفة طليطلة الجديد بحض ألفونصو الثامن على قتال الموحدين .

١٢١١ ٦٠٧ (أول ايلول/ ربيع الأول) . الذعر يدب في الممالك المسيحية بعد سقوط قلعة شلبطرة بيد محمد الناصر لدين الله لكونها حامية الجناح اليميني لقشتالة .

١٢١٢ ٦٠٩ (٢٠ حزيران/ ١٩ محرم) . قوات قشتالية وأرغونية وفرنسية وألمانية تخرج من طليطلة استعدادا للقاء الموحدين والأندلسيين .

١٢١٢ ٦٠٩ الحملة الصليبية التي عرفت باسم حملة الصبيان تنتهي برجوع صبي فرنسي واحد من أصل ٣٠٠,٠٠٠ و٢٠٠ صبي ألماني من اصل ٢٠,٠٠٠.

١٢١٢ ٦٠٩ (الإثنين ١٦ تموز/ ١٥ صفر). القوات الشمالية-الأوروبية المتحدة تحقق انتصاراً ساحقاً على الموحدين والأندلسيين في معركة العقاب بعد قتال استمر يوماً واحداً في سهل جنوب غربي حصن العقاب. إتباع هذا النصر باحتلال بياسة وأبدة.

١٢٢٣ ٦٢٠ قيام دولة بني الأحمر في غرناطة واستمرارها حتى عام ١٤٩٢ (٨٩٧).

١٢٢٨ ٦٢٥ الحملة الصليبية الخامسة تستمر سنة واحدة يحتل خلالها فريدريش الثاني القدس وبيت لحم والناصرة بموجب معاهدة مع السلطان الكامل.

١٢٣٠ ٦٢٧ احتلال مدينة ماردة الواقعة شرق بطليوس.

١٢٣٠ ٦٢٨ (الاثنين ١ كانون الأول/ ٢٤ محرم). الأرغوني خايمي الأول «الغازي» (جايمش بن بطرة بن جايمش) يحتل جزيرة ميورقة بمساعدة الإيطاليين والفرنسيين.

١٢٣١ ٦٢٨ اعتراف الأندلسيين بسيادة خايمي الأول على جزيرة منورقة ودفع الجزية له.

١٢٣٥ ٦٣٢ غيلين رئيس أساقفة طركونة والأمير البرتغالي بدرو يحتلان جزيرة اليابسة.

١٢٣٦ ٦٣٣ (الأحد ٢٩ حزيران/ ٢٣ شوال). فرناندو الثالث (فراندة أو هراندة) بن الفنش (الهنشة) الذي لقب فيما بعد بـ«القديس»، يحتل مدينة قرطبة عاصمة الخلافة القرطبية البائدة ويطرد معظم سكانها.

١٢٣٦ ٦٣٣ القوات البرتغالية تحتل مدينة طبيرة في اقصى الجنوب وتستكمل بذلك السيطرة على سائر المناطق التي تتألف منها البرتغال اليوم.

١٢٣٧ ٦٣٤ (الخميس ١٣ آب/ ٢٠ ذي الحجة). موقعة أنيجة (انيشة) تسفر عن سقوط حصن أنيجة على يد خايمي الأول ويشدّد بعدها الحصار على بلنسية.

١٢٣٨ ٦٣٦ (الثلاثاء ٢٨ ايلول/ ١٨ صفر). بلنسية، كبرى قواعد شرقية الأندلس، تسقط بيد خايمي الأول بعد حرب استمرت خمس سنوات (منذ ١٢٣٣/ ٦٣١).

١٢٤٣ ٦٤١ سقوط مدينة دانية جنوب شرقي بلنسية على يد خايمي الأول.

١٢٤٣ ٦٤١ (الأحد ٥ تموز/ ١٦ محرم). خايمي الأول يحتل مدينة مرسية للمرة الأولى.

١٢٤٦ ٦٤٣ فرناندو الثالث يحتل مدينة جيان شرقي قرطبة.

١٢٤٧ ٦٤٤ فرناندو الثالث يحتل مدينة شاطبة ويطرد سكانها.

١٢٤٨ ٦٤٦ الحملة الصليبية السادسة تؤدي الى أسر لوي التاسع في المنصورة (مصر) عام ١٢٤٩ (٦٤٧) ومعه جميع أفراد جيشه.

١٢٤٨ ٦٤٦ إشبيلية تسقط بيد جنود فرناندو الثالث ومساعدة مهمة من قوات محمد (الأول) بن يوسف بن الأحمر بعد حصار استمر سنة ونصف السنة ويطردون غالبية سكانها في ٢٣ تشرين الثاني (الاثنين ٥ شعبان).

١٢٥٣ ٦٥١ مملكة أرغون تستكمل احتلال نصيبها من الأراضي الأندلسية وتحوّل أنظارها الى البحر الابيض المتوسط (البحر الشامي) لبناء امبراطوريتها.

١٢٥٤ ٦٥٢ خايمي الأول يلغي كل الديون التي قدمها اليهود إلى مملكة أرغون وسط موجة من السخط على اليهود بتأليب من البابوية.

١٢٥٤ ٦٥٢ ملك فرنسا لوي التاسع يعود الى بلاده من الحروب الصليبية في المشرق ويطرد اليهود من معظم أنحاء فرنسا.

١٢٥٨ ٦٥٦ انهيار الخلافة العباسية بعد اقتحام هولاكو بغداد ومقتل المعتصم آخر الخلفاء.

١٢٦٠ ٦٥٨ (الجمعة ١٠ أيلول/ ٣ شوّال). ألفونصو العاشر ينقل الحرب الى المغرب ويهاجم مدينة شالة (سلا) وهي ضاحية من الرباط اليوم.

١٢٦٢ ٦٦٠ ألفونصو العاشر يقتحم مدينة لبلة الجنوبية ويطرد سكانها.

١٢٦٤ ٦٦٢ (حزيران). المسلمون ينظمون انتفاضة شاملة في الجنوب ويستردون مرسية.

١٢٦٦ ٦٦٤ (الأحد ٣١ كانون الثاني/ ٢٣ ربيع الأول). خايمي الأول يأخذ مرسية صلحاً لابنته زوجة ألفونصو العاشر.

١٢٧٠ ٦٦٨ الحملة الصليبية السابعة تنتهي بإصابة الملك الفرنسي ومعظم أفراد جيشه بالطاعون وموتهم في تونس.

١٢٧٥ ٦٧٤ طرد أعداد كبيرة من أندلسيي مرسية مما ألحق خرابا كبيراً بالمنطقة.

١٢٧٥ ٦٧٤ (السبت ٧ أيلول/ ١٥ ربيع الأول). السلطان المريني المنصور يحقق انتصاراً مهماً على جيش قشتالة.

١٢٨٧ ٦٨٦ سقوط جزيرة منورقة بأيدي جنود أرغون.

١٢٩١ ٦٩٠ المماليك يستردون عكا ويلحق بذلك تخلي الصليبيين عن بيروت وصور وصيدا وانتهاء مرحلة الحروب الصليبية ضد المشرق في شكلها القديم.

١٢٩٩ ٦٩٩ قيام الدولة العثمانية واستمرارها حتى عام ١٩٢٠.

١٣٤٠ ٧٤١ (٣٠ تشرين الأول/ ٧ جمادى الأولى). انهزام المسلمين في وقعة طريف الأندلسية التي استخدم فيها لأول مرة في أوروبة نوع من المدافع عرفت بالانفاط.

١٣٤٢ ٧٤٣ بدء حصار مدينة الجزيرة الخضراء في حملة اشتركت فيها قوات أوروبية كثيرة إذ حاصرها القطلان وأهل جنوة من البحر وهاجمها فيليب الثالث النافاري وايرل داربي وسالزبوري الانكليزيان من البر فيما قدم بابا روما المال لتمويل العمليات القتالية. أول أنواع المدفعية التي عرفت في أوروبة تُستخدم في دكّ أسوار المدينة.

١٣٤٤ ٧٤٤ (الخميس ٢٥ آذار/ ٩ ذو الحجة). استسلام الجزيرة الخضراء وبقاء جبل طارق بأيدي قوات المرينيين.

١٣٤٧ ٧٤٨ (تشرين الأول). سفينة تابعة لجنوة تعود من ميناء كافا في شبه جزيرة القرم وهي تقل بحارة اصيبوا بالطاعون (الموت الأسود) المنتشر في الشرق. الطاعون الذي انتقل الى اوروبة واستمر ثماني سنوات حتى ١٣٥٤ (٧٥٥) يسبب موت نحو ٦٠ مليون شخص منهم ٢٥ مليوناً في أوروبة. ارتبط انتشار الطاعون باليهود مما أدى إلى ذبح الكثيرين بين ١٣٤٨ و١٣٥١.

١٣٤٩ ٧٥٠ ألفونصو الحادي عشر يحاصر جبل طارق لكنه يصاب وجنوده بالطاعون.

١٣٧٤ ٧٧٦ غرناطة تستعيد جبل طارق وتضمه إلى مملكتها.

١٣٨٥ ٧٨٨ انتصار البرتغال على قشتالة في معركة الجبروت.

١٤٠٢ ٨٠٤ (الخميس ٢٠ تموز/ ١٩ ذو الحجة). تيمورلنك يأسر السلطان العثماني بيازيد.

١٤١٥	٨١٨	البرتغاليون يحتلون مدينة سبتة في الطرف المغربي.
١٤٥٣	٨٥٧	(الخميس ٢٩ أيار/ ٢٠ جمادى الأولى). محمد الثاني يحتل القسطنطينية.
١٤٦٢	٨٦٧	تجدد القتال بين قشتالة وغرناطة بعد سلم، وسقوط جبل طارق.
١٤٧٤	٨٧٩	إيزابيلا تعتلي عرش قشتالة.
١٤٧٤	٨٧٩	البابا سيكستوس الرابع يحض إيزابيلا على انشاء محكمة تحقيق بابوية للقضاء على «الهراطقة» والمحافظة على نقاء الكاثوليكية.
١٤٧٨	٨٨٣	سيكستوس الرابع يوافق على إنشاء محكمة تحقيق قشتالية.
١٤٧٩	٨٨٤	فرناندو الخامس زوج إيزابيلا يرث عرش مملكة أرغون فتتوحد المملكتان.
١٤٧٩	٨٨٤	(السبت ١٣ تشرين الثاني/ ٢٨ شعبان). البابا سيكستوس الرابع يصدر إرادة بابوية خاصة في شأن حملة صليبية تسمح لإيزابيلا بتسويق صكوك الغفران لتمويل الحرب ضد مملكة غرناطة.
١٤٨٠	٨٨٥	إيزابيلا تصدر مرسوماً يأمر سكان قشتالة وليون بالتعاون مع محاكم التحقيق.
١٤٨١	٨٨٦	اندلاع الحرب بين غرناطة وقشتالة بعدما رفض أبو الحسن علي بن سعد تسليم بعض المراكز العسكرية ودفع الجزية، وهاجم مدينة الزهراء واستردها.
١٤٨١	٨٨٥	(الثلاثاء ٦ شباط/ ٧ ذو الحجة). الاحتفال بإحراق أول مجموعة من ضحايا محاكم التحقيق ليصل العدد في نهاية السنة إلى ٢٩٨ شخصاً.
١٤٨٢	٨٨٧	(محرم). فرناندو يستولي على مدينة الحمة (الحامة) قرب غرناطة.
١٤٨٣	٨٨٨	فرناندو يحتل مدينة الزهراء بعد نحو سنتين من استعادتها.
١٤٨٥	٨٩٠	فرناندو يحتل مدينة رندة.
١٤٨٧	٨٩٢	فرناندو يحتل مدينة مالقه بعد حصارها واستخدام المدافع لدك أسوارها. سكان المدينة ينتهون قتلاً أو سبياً عن آخرهم.
١٤٨٧	٨٩٢	تأسيس محكمة تحقيق في مملكة أرغون (برشلونة) على رغم المعارضة القوية.
١٤٨٨	٨٩٣	فرناندو يشدد الحملة على غرناطة ويبدأ نشاطا عسكرياً جديداً احتل خلاله مدن بسطة والمرية ووادي آش.
١٤٩٠	٨٩٥	(نيسان). بداية حصار مدينة غرناطة بعد إحراق مرج غرناطة والحقول.
١٤٩٠	٨٩٥	توركيماده المحقق العام لمحاكم التحقيق يبدأ حملة ضد اليهود باحراق كتبهم.
١٤٩١	٨٩٧	(٢٥تشرين الثاني/ ٢١ محرم). توقيع معاهدة تسليم غرناطة.
١٤٩٢	٨٩٧	(٢ كانون الثاني/ ٢ ربيع الأول). استسلام مدينة غرناطة.
١٤٩٢	٨٩٧	(الجمعة ٣٠ آذار/ ١ جمادى الثانية). إيزابيلا تصدر مرسوماً بطرد اليهود الذين يختارون البقاء على دينهم خلال أربعة أشهر.
١٤٩٢	٨٩٧	(٣ آب). الجنوي كريستوفر كولومبوس يغادر قشتالة في رحلته الأولى ويكتشف (١٢ تشرين الأول) سان سلفادور حاليا، ثم يقوم بأربع رحلات خلال السنوات العشر التالية.
١٤٩٣	٨٩٨	(٨ تموز/ يوليو-٢٣ رمضان). أبو عبد الله الصغير يوافق على ترك وادي آش.

١٤٩٦	٩٠١	طرد اليهود من البرتغال في إثر ضغوط من قشتالة .
١٤٩٧	٩٠٢	قوات قشتالة تنقل الحرب الى الساحل المغربي وتهاجم مدينة مليلة .
١٤٩٨	٩٠٣	وفاة المحقق العام توركيماده .
١٤٩٩	٩٠٤	(تشرين الثاني) . اندلاع الثورة الأندلسية الأولى .
١٥٠٠	٩٠٥	(أذار) . فرناندو الخامس يتسلم إدارة دفة قتال الثوار الأندلسيين ويتوجه بجيش كبير الى جبل البشرة .
١٥٠١		اندلاع الثورة في الجبل الأحمر وإرسال القائد ألونثو دي أغيلار لإخمادها الا إنه يتعرض إلى كمين ويُقتل مع جنود كثيرين .
١٥٠٢		١٢ (شباط) . إيزابيلا تصدر مرسوماً يخيّر الأندلسيين بين الرحيل أو التنصّر .
١٥٠٢		(نيسان) . عدد الأندلسيين الذين غادروا غرناطة يصل الى ٣٠٠ ألف شخص .
١٥٠٤		وفاة إيزابيلا .
١٥٠٧		الكردينال خيمينس ، مضطهد الأندلسيين ، يصبح محققاً عاماً لمحاكم التحقيق .
١٥٠٨		فرناندو الخامس يصدر مرسوماً يقيد حريات الأندلسيين .
١٥٠٩		خيمينس يقود هجوماً على وهران يسفر عن مقتل الآلاف .
١٥١٥		خيمينس يشكّل محكمة تحقيق في وهران .
١٥١٦	٩٢١	(الإربعاء ٢٣ كانون الثاني/ ١٩ ذو الحجة) . موت فرناندو .
١٥١٧		كارلوس الخامس يصبح ملكاً على قشتالة وأرغون .
١٥١٧		(٣١ تشرين الأول) . مارتن لوتر ينشر أطروحاته الدينية .
١٥٢١		الرعاع في بلنسية يجبرون الأندلسيين على التنصّر عقب اندلاع ثورة المدن .
١٥٢٥		صدور مرسوم جديد خاص بالأندلسيين يؤكد قيود مرسوم عام ١٥٠٨ .
١٥٢٦		تأسيس محكمة للتحقيق في غرناطة .
١٥٢٩		(أيار) . احراق أول مجموعة من الأندلسيين المتهمين بـ«الهرطقة» .
١٥٥٦		كارلوس الخامس يتنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني ويموت بعد سنتين .
١٥٥٩		(١٤ كانون الأول) . احراق الأندلسي البروتستانتي خوان غونثاليث مع اختيه في اشبيلية بعد تعذيبهم .
١٥٥٩		اكتشاف خليتين للبروتستانت وإحراق الهراطقة في بلد الوليد وإشبيلية .
١٥٦٧		(الأول من كانون الثاني) . فيليب الثاني يصدر مرسوماً يحظر على الأندلسيين التخاطب بالعربية أو مزاولة أي شعائر أو عادات إسلامية .
١٥٦٨	٩٧٥	(الخميس ١٥ نيسان/ ١٧ شوّال) . اندلاع الثورة الأندلسية الكبرى .
١٥٦٨		(٢٤ كانون الأول) . الثوار الأندلسيون يشنون هجوماً مباغتاً على غرناطة ويوقعون خسائر كبيرة بحاميتها .
١٥٦٩		(٦ نيسان) . دون خوان النمسوي يغادر مدريد إلى غرناطة لتولي مهمة قمع الثورة الأندلسية الكبرى التي عمّت الجنوب .

١٥٦٩	٩٧٧	(السبت ١٨ حزيران/ ٣ محرم). الثوار الأندلسيون يحاصرون مدينة سيرون في وادي نهر المنصورة ويتمكنون في ما بعد من احتلالها.
١٥٦٩		(٢٣ حزيران). فيليب الثاني يصدر مرسوماً بنفي أهل غرناطة الى الشمال.
١٥٧٠		(بداية أيلول). اربعة جيوش تنطلق لابادة الثوار وتتمكن بحلول منتصف تشرين الأول من دحر التجمعات الرئيسية في معاقل الثورة.
١٥٧٠		(الخميس ١٩ تشرين الأول). فيليب الثاني يصدر مرسوماً يخول فيه الجنود قتل الثوار الأندلسيين وسبي نسائهم.
١٥٧٠		(٢٨ تشرين الأول). فيليب الثاني يصدر مرسوماً بنفي الأندلسيين من الجنوب.
١٥٧١		(قبل انتصاف السنة). قوات فيليب الثاني تتمكن من إطفاء آخر جذوات الثورة الأندلسية الكبرى واتباع ذلك باعمال انتقام وتنكيل بشعة.
١٥٧١		(٧ تشرين الأول). دون خوان يهزم الأسطول العثماني في معركة ليبانت.
١٥٧٢		(٦ تشرين الأول). فيليب الثاني يصدر مرسوماً خاصاً بمنع الأندلسيين من استخدام اللغة العربية.
١٥٨٨		(٢١ تموز). الأسطول الانكليزي يهاجم الأرمادا وتؤدي العواصف الى إخفاق مهمة الأسطول القشتالي في كسر انكلترا.
١٥٩٤		محاكم التحقيق الإسبانية تعتقل ٩٦ أندلسياً.
١٥٩٦		الحكومة القشتالية تعلن إفلاسها للمرة الثانية خلال ٢١ سنة.
١٦٠٩		بدء نفاذ معاهدة الهدنة بين الهولنديين والإسبان.
١٦٠٩	١٠١٨	(الخميس ٩ نيسان/ ٤ محرّم). صدور مرسوم نفي الأندلسيين من إسبانيا.
١٦٠٩		(أيلول). وصول ثمانية آلاف جندي اسباني على متن السفن لترحيل الأندلسيين ابتداء من أندلسيي بلنسية.
١٦٠٩		الثاني من تشرين الأول (اكتوبر). إبحار مجموعة من السفن من ميناء دانية تحمل أول دفعة من الأندلسيين عدّت ٣٨٠٣ أشخاص.
١٦٠٩		٢٥ تشرين الأول. الأندلسيون ينظمون انتفاضة شملت ٢٠ قرية.
١٦٠٩		٢٦ تشرين الثاني. مقتل عدد كبير من الأندلسيين وسبي نسائهم وأولادهم بعد القضاء على انتفاضتهم.
١٦١٠		وثيقة من طليطلة تشير الى ان عدد الأندلسيين الطليطليين الذين وقعوا ضحية محاكم التحقيق بلغ منذ عام ١٥٧٥ نحو ١٩٠ أندلسياً.
١٦٢١		٣١ آذار (مارس). موت فيليب الثالث.
١٧٢٨		(أيار). احراق ٤٥ أندلسياً بعد اتهامهم بالهرطقة.
١٧٢٨		(٢ تشرين الأول). احراق ٢٨ أندلسياً أحياء.
١٧٦٩		العثور على مسجد كان بعض الأندلسيين يستخدمونه للصلاة سراً.
١٧٨٠		(حتى عام ١٨٢٠) وثائق محاكم التحقيق تخلو خلال الأربعين سنة بين التاريخين من أي أسماء أندلسية معروفة.

١٨٠٨ جوزيف بونابرت شقيق نابوليون يصبح أمبراطوراً على إسبانيا ويلغي محاكم التحقيق ويصادر ممتلكاتها وأرشيفها ويضعه في عهدة المؤرخ الإسباني خوان انطونيو لورنتي مؤلف «دراسة نقدية تاريخية في محاكم التحقيق الإسبانية». فرنادو السابع يحيي محاكم التحقيق بعيد رحيل الفرنسيين عام ١٨١٤.

١٨٢٠ الإسبان يهاجمون قصور محاكم التحقيق بعد ثورة شعبية ويحرقون الملفات.

١٩٣٥ الوصيّة على العرش الإسباني الملكة كريستينا تصدر أوامرها بحل عصبة الإيمان junta de fè التي لم يعد لها عمل بعد الغاء محاكم التحقيق.

١٩٩٨ ١٩ تشرين الأول. البابا يوحنا الثاني ينظم حلقة دراسية في روما للبحث في تركة محاكم التحقيق وتحديد مسؤولية البابوية.

عهود الولاة والأمراء والخلفاء والملوك والاباطرة

أ-الولاة : وكان حكمهم ٤٢ سنة ميلادية بين ٧١٤ و٧٥٦ (٩٥-١٣٨) وهم :

عبد العزيز بن موسى بن نصير	ذو الحجة ٩٥-رجب ٩٧	٧١٦-٧١٤
أيوب بن حبيب اللخمي	رجب ٩٧-ذو الحجة ٩٧	٧١٦
الحر بن عبد الرحمن الثقفي	ذو الحجة ٩٧-رمضان١٠٠	٧١٩-٧١٦
السمح بن مالك الخولاني	رمضان ١٠٠-ذو الحجة ١٠٢	٧٢١-٧١٩
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	ذو الحجة ١٠٢-صفر ١٠٣	٧٢١
عنبسة بن سحيم الكلبي	صفر ١٠٣-شعبان ١٠٧	٧٢٥-٧٢١
عذره بن عبد الله الفهري	شعبان١٠٧-شوال ١٠٧	٧٢٥
يحيى بن سلمه الكلبي	شوال ١٠٧-ربيع الأول ١١٠	٧٢٨-٧٢٥
حذيفة بن الأحوص القيسي	ربيع الأول ١١٠-شعبان ١١٠	٧٢٨
عثمان بن ابي نسعة الخثعمي	شعبان ١١٠-محرم ١١١	٧٢٩-٧٢٨
الهيثم بن عبيد الكلابي	محرم ١١١-ذو القعدة ١١١	٧٣٠-٧٢٩
محمد بن عبد الله الاشجعي	ذو القعدة ١١١-صفر ١١٢	٧٣٠
عبد الرحمن الغافقي (٢)	صفر ١١٢-رمضان ١١٤	٧٣٢-٧٣٠
عبد الملك بن قطن الفهري	رمضان ١١٤-شوال ١١٦	٧٣٤-٧٣٢
عقبة بن الحجاج السلولي	شوال ١١٦-صفر ١٢٣	٧٤١-٧٣٤
عبد الملك بن قطن الفهري (٢)	صفر ١٢٣-ذو القعدة١٢٣	٧٤١
بلج بن بشر القشيري	ذو القعدة١٢٣-شوال ١٢٤	٧٤٢-٧٤١
ثعلبة بن سلامة العاملي	شوال ١٢٤-رجب ١٢٥	٧٤٣-٧٤٢
أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	رجب ١٢٥-رجب ١٢٧	٧٤٥-٧٤٣
ثوابة بن سلامة الجذامي	رجب ١٢٧-آخر ١٢٨	٧٤٦-٧٤٥
عبد الرحمن بن كثير اللخمي	ربيع الأول ١٢٩- ربيع الثاني ١٢٩	٧٤٦
يوسف بن عبد الرحمن الفهري	ربيع الثاني ١٢٩-ذو الحجة ١٣٨	٧٥٦-٧٤٦

ملاحظة : اغتيل عبد العزيز بن موسى بن نصير فيما استشهد أربعة ولاة في غالة (فرنسا) هم السمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبد الرحمن الغافقي (في ولايته الثانية)، وعقبة بن الحجاج السلولي.

ب-الأمراء والخلفاء: وكان حكمهم ٢٥٧ سنة ميلادية بين ٧٥٦ و١٠١٣ (١٣٨-٤٠٣) وهم :

عبد الرحمن الأول (الداخل)	١٧٢-١٣٨	٧٨٨-٧٥٦
هشام الأول (المرتضى أو الرضا)	١٨٠-١٧٢	٧٩٦-٧٨٨
الحكم الربضي (الأول)	٢٠٦-١٨٠	٨٢٢-٧٩٦
عبد الرحمن الأوسط (الثاني)	٢٣٨-٢٠٦	٨٥٢-٨٢٢
محمد بن عبد الرحمن	٢٧٣-٢٣٨	٨٨٦-٨٥٢

المنذر بن محمد	٢٧٣-٢٧٥	٨٨٦-٨٨٨
عبد الله بن محمد	٢٧٥-٣٠٠	٨٨٨-٩١٢

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) حفيد الأمير عبد الله وفي عهده اعلنت الخلافة

سنة ٩٢٩ ميلادية (٣١٦ هجرية)	٣٠٠-٣٥٠	٩١٢-٩٦١
الحكم الثاني (المستنصر بالله)	٣٥٠-٣٦٦	٩٦١-٩٧٦
هشام الثاني (المؤيد بالله)	٣٦٦-٤٠٣	٩٧٦-١٠٠٩
جـ-عهد الطوائف	٤٠٠- ٤٨٤	١٠٠٩-١٠٩١
د-عهد المرابطين	٤٨٤-٥٢٠	١٠٩١-١١٢٦
هـ-عهد الموحدين	٥٤٠-٦٢٠	١١٤٥-١٢٢٣

و- سلاطين غرناطة: وكان حكمهم ٢٦٩ سنة بين ١٢٢٣ و١٤٩٢ (٦٢٠-٨٩٧) وأهمهم:

محمد (الأول) بن يوسف بن الأحمر	٦٣٥-٦٧١	١٢٣٨-١٢٧٢
أبو الحسن علي بن سعد (الغالب بالله)	٨٦٨-٨٨٧	١٤٦٣-١٤٨٢
أبو عبد الله محمد ١١ (الملك الصغير)	٨٨٧-٨٨٨	١٤٨٢-١٤٨٣
أبو عبد الله محمد ١٢ (الزغل)	٨٨٨-٨٩٢	١٤٨٣-١٤٨٧
أبو عبد الله محمد (المرة الثانية)	٨٩٢-٨٩٧	١٤٨٧-١٤٩٢

* * *

أهم حكام الدويلات والممالك الشمالية والإسبانية

أستورياس وليون : ينسب حكّام أستورياس وليون أنفسهم إلى بلايو Pelayo القوطي الذي فر بعد الفتح وحكم مجموعة من الاتباع. خلف بلايو ابنه فافيلة Fafila لكن الأخير لم يترك عقباً. تزوجت أخته أرمسندة ألفونصو Alfonso ابن بطرة Pedro فكان مؤسس أول دُويلة شمالية حقيقية وهو :

ألفونصو الأول «الكاثوليكي»	١٢١-١٤٠	٧٣٩-٧٥٧	Alfonso I
فرويلة الأول	١٤٠-١٥٩	٧٥٧ -٧٧٥	Fruela I
ألفونصو الثاني (أذفنش الثاني)	١٧٥-٢٢٧	٧٩١-٨٤٢	Alfonso II
ردمير الأول	٢٢٧-٢٣٦	٨٤٢-٨٥٠	Ramiro I
اردون الأول	٢٣٦-٢٥٢	٨٥٠-٨٦٦	Ordono I
ألفونصو الثالث (أذفنش الثالث)	٢٥٢-٢٩٧	٨٦٦-٩١٠	Alfonso III
غرسيه الأول	٢٩٧-٣٠١	٩١٠-٩١٤	Garcia I
أردون الثاني	٣٠١-٣١٢	٩١٣-٩٢٣	Ordono II
ردمير الثاني	٣٢٠-٣٣٩	٩٣٢-٩٥٠	Ramiro II
ردمير الثالث	٣٥٥-٣٧٥	٩٦٦-٩٨٥	Ramiro III
ألفونصو الخامس	٣٨٩-٤١٨	٩٩٩-١٠٢٧	Alfonso V

نافار : إحدى مملكتين كانتا تابعتين لليون ثانيتهما قشتالة . انتقل مركز الثقل الى نافار ومن ملوكها :

سانشو غرسيه (شانجة غرسيه) الأول	٢٩٣–٣٥٩	٩٠٥–٩٢٦	Sancho Garces I
غرسيه سانشو (الأول) الذي حكم تحت وصاية أمه المسماة «طوطة»، وربما كانت عمّة الخليفة عبد الرحمن الناصر في الأمومة	٣١٤–٣٥٩	٩٢٦–٩٧٠	Garcia Sanchez I
سانشو غرسيه الثاني (أبركة)	٣٥٩–٣٨٥	٩٧٠–٩٩٣	Sancho Garces II
سانشو غرسيه (الثالث أو الكبير)	٣٩٠–٤٢٦	١٠٠٠–١٠٣٥	Sancho Garces III

اشتدت المنافسة بين ممالك الشمال في السنوات الأخيرة من حكم سانشو غرسيه الكبير فقسّم المملكة بين ابنائه الأربعة كما جرت عليه في ذلك الزمان . بسط ابنه الأكبر فرناندو الأول (فردلند) Fernando I سيطرته على ليون وجليقية وقشتالة، وحصل ردمير على أرغون، وأخذ غنصالو Gonzalo أواسط البرت (البيرينيه) لكن الابن الرابع اغتيل . وأدى انتزاع منطقة الروخة الخصبة الواقعة شمال نهر إبرة جنوب غربي بامبلونة (بنبلونة) الى عزل مملكة نافار، فانحصر تأثيرها في الأندلس بطرق مباشرة اعتباراً من سنة ١٠٥٤ (٤٤٦) . وقسّم فرناندو الأول مملكته على أولاده الثلاثة فأخذ ألفونصو السادس (الفنش) أستورياس وليون، وحصل سانشو (شانجة) على قشتالة، بينما كانت جليقية والقسم الأعلى، مما عرف باسم البرتغال في ما بعد، من نصيب أصغر الابناء غرسيه . وأدى اغتيال الأخوين لاحقاً إلى انفراد ألفونصو السادس بحكم المملكة كلها . وطرأت تغيرات عدّة على جغرافية الممالك الآيبرية الشمالية ونفوذها إلا أن الأهمية انحصرت بمملكتي قشتالة وأرغون وهكذا تكون فترة حكم الملكين الرئيسيين السابقين :

قشتالة :

فرناندو الأول (فردلند)	٤٢٦–٤٥٨	١٠٣٥–١٠٦٥	Fernando I
ألفونصو السادس (الفنش)	٤٦٥–٥٠٢	١٠٧٢–١١٠٩	Alfonso VI
ألفونصو السابع (البرجوني)	٥٢٠–٥٥٢	١١٢٦–١١٥٧	Alfonso Raimundex VII
ألفونصو الثامن «النبيل»	٥٥٣–٦١١	١١٥٨–١٢١٤	Alfonso VIII
فرناندو الثالث (فراندة)	٦١٤–٦٥٠	١٢١٧–١٢٥٢	Fernando III
ألفونصو العاشر «العالم»	٦٥٠–٦٨١	١٢٥٢–١٢٨٤	Alfonso X
ألفونصو الحادي عشر	٧١٢–٧٥١	١٣١٢–١٣٥٠	Alfonso XI
إيزابيلا (ازابل)	٨٧٩–٩١٠	١٤٧٤–١٥٠٤	Isabella

أرغون :

سانشو ردمير (شانجة بن رد مير)	–٤٨٧	–١٠٩٤	Sancho Ramirez
ألفونصو الأول (المحارب)	٤٩٧–٥٢٨	١١٠٤–١١٣٤	Alfonso I
رامون برنجير الرابع (رمند بن بلنقير)	٥٢٥–٥٥٨	١١٣١–١١٦٢	Ramon Berenguer IV
ألفونصو الثاني (الفونش الثاني)	٥٥٨–٥٩٢	١١٦٢–١١٩٦	Alfonso II
بدرو (بطرة) الثاني «الكاثوليكي»	٥٩٣–٦١٠	١١٩٦–١٢١٣	Pedro II
خايمي (جايمش) الأول «الغازي»	٦١٠–٦٧٥	١٢١٣–١٢٧٦	Jaime I
فرناندو الخامس (الثاني)	٨٨٤–٩٢٢	١٤٧٩–١٥١٦	Fernando V

البرتغال :

انفصلت البرتغال عن قشتالة سنة ١٠٩٤ (٤٨٧) واستقلت سنة ١١٢٨ (٥٢٢)، ثم كرس البابا كيانها كدولة مستقلة سنة ١١٧٩ وسمح لأمرائها أن يتكنّوا بوصف الملوك ومن أهم هؤلاء :

ألفونصو إنريكيث (ابن الرنك)	٥٣٣-٥٨١	١١٣٩-١١٨٥	Alfonso Enriquez
سانشو الأول (شانجة)	٥٨١-٦٠٨	١١٨٥-١٢١١	Sancho I
ألفونصو الثاني (الفونش)	٦٠٨-٦٢٠	١٢١١-١٢٢٣	Alfonso II

إسبانيا:

كارلوس الخامس (الأمبراطور)	٩٢٥-٩٦٣	١٥١٩-١٥٥٦	Carlos V
الملك فيليب الثاني	٩٦٣-١٠٠٦	١٥٥٦-١٥٩٨	Felipe II
الملك فيليب الثالث	١٠٠٦-١٠٣٠	١٥٩٨-١٦٢١	Felipe III

اهم المحققين العامين في إسبانيا

توماس دي توركيماده	١٤٨٣-١٤٩٨	Tomás de Torguemada
دييغو ديثا	١٤٩٩-١٥٠٤	Diego deza
فرانسيسكو خيمينس (قشتالة فقط)	١٥٠٧-١٥١٧	Franciso Jimenes de Cisneros
أدريان الأترشتي (أرغون ثم إسبانيا)	١٥١٦-١٥٢٢	Adrian of Utrecht
ألفونصو مانريك (إسبانيا)	١٥٢٣-١٥٣٨	Alfonso Manrique
فرناندو فالديس	١٥٤٧-١٥٦٦	Fernando Valdés
دييغو إسبينوزا	١٥٦٦-١٥٧٢	Diego Espinosa
غاسبار دي غيروغا	١٥٧٣-١٥٩٤	Gaspar de Quiroga
خوان دي زونييغا	١٦٠٣-١٦٠٨	Juan de Zuñiga
برناردو دي ساندوبال ي روخاس	١٦٠٨-١٦١٨	Bernardo de Sandoval y Rojas
خوان دي كامارغو	١٧٢٠-١٧٣٣	Juan de Camargo
رامون جوزيف يث آرثي أي رينوسو	١٧٩٨-١٨٠٨	Ramon Josef de Arce y Reynoso
خيرونيمو كاستييون ي سالاس	١٨١٨-١٨٣٤	Gerónimo Castellon y Salas

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

مصادر البحث العربية

● **«دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها»** . الدكتور احمد بدر .

● **«التاريخ الاندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»** . الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، (١٩٧٦) .

● **«البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»** . أبو عبدالله محمد المراكشي ابن عذاري . (جزءان) . تحقيق ج . س كولان ، وليفي بروفنسال ، «طبعة بيروت» .

● **«العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر»** . ابن خلدون ، (بيروت ١٩٦٨) .

● **«صورة الأرض»** . أبو القسام ابن حوقل النصيبي . (ليدن ١٩٣٨) ، وأعادت طباعته دار صادر ، بيروت .

● **«تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين»** . الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، (بيروت ١٩٧١) .

● **«الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية»** . مجهول المؤلف .

● **«نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»** . المقري ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، (بيروت ١٩٦٨) .

● **«نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين»** . محمد عبدالله عنان ، (القاهرة ١٩٦٦) .

● **«أزهار الرياض في أخبار عياض»** . شهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني (المقري) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، (القاهرة ١٩٢٩-١٩٤٢) .

● **«نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر»** . مجهول المؤلف ، (العرائش ١٩٤٠) .

● **«أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر»** . ابو العباس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي ، (مدريد ١٩٥٧) .

● **«تاريخ افتتاح الأندلس»** . أبو بكر محمد بن القوطية ، (بيروت ١٩٥٧) .

● **«تاريخ الادب الاندلسي – عصر سيادة قرطبة»** . الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، (بيروت١٩٦٩) .

● **«الذخيـرة في محـاسن أهـل الجـزيرة»** . ابو الحسن علي بن بسـام الشنتـريني ، (القـاهرة ١٩٣٩) .

● **«الإحـاطة في أخبـار غـرناطة»** . لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، (القاهرة ١٩٧٤) .

● **«المعجب في تلخيص اخبار المغرب»** . محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان ، (القاهرة ١٩٦٣) .

● **«صفة جزيرة الأندلس» (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)** . أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، (القاهرة ١٩٣٧) .

● **«دولة الاسلام في الأندلس»** . محمد بن عبدالله عنان ، (القاهرة ١٩٦٩) .

● **«المقتبس في أخبار بلد الأندلس»** ، ابن حيان ، (بيروت١٩٧٣) .

● **«تاريخ أوروبا –العصور الوسطى»** (القسم الأول) . فيشر . ترجمة محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريني ، (القاهرة ١٩٦٦) .

● **«العرب في إسبانيا»** . استانلي لين–بول ، ترجمة علي الجارم ، (القاهرة ١٩٦٠) .

● **«تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس»** . الدكتور عبد العزيز سالم ، (بيروت ١٩٦٢) .

● **«الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال»** . محمد عبدالله عنان ، (القاهرة ١٩٦١) .

● **«الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية»** . شكيب ارسلان ، (فاس ١٩٣٦) .

● **«مذكرات الامير عبدالله ، آخر ملوك بني زيري بغرناطة»** . عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، (القاهرة ١٩٥٥) .

● **«فجر الأندلس – دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية – ٧١١–٧٥٦»** . الدكتور حسين مؤنس ، (القاهرة ١٩٥٩) .

● **«أثر العرب في الحضارة الأوروبية – نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة»** . جلال مظهر ، (١٩٦٧) .

● **«الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية»** . كريم عجيل حسين ، (بيروت ١٩٧٦) .

● **«حضارة العرب في الأندلس»** . ا . ليفي بروفنسال ، ترجمة ذوقان قرقوط ، (بيروت) .

● **«رحلة الأندلس»** . الدكتور حسين مؤنس ، (القاهرة ١٩٦٣) .

● **«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»** . أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، (بيروت ١٩٦٨) .

● **«بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس»**. أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، (القاهرة ١٩٦٧).

● **«مقدمة ابن خلدون»**. تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، (القاهرة ١٩٦٥).

● **«مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام»**. محمد عبدالله عنان، (القاهرة ١٩٥٢).

● **«تاريخ مسلمي إسبانيا»**. ر. دوزي، ترجمة الدكتور حسن حبشي، (القاهرة ١٩٦٣).

● **«تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس»**. الدكتوران السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، (بيروت ١٩٦٩).

● **«تاريخ اليعقوبي»**. جزءان. دار بيروت، (بيروت ١٩٨٠).

● **«تاريخ فلسطين السياسي في العصور الإسلامية»**. الدكتور فاروق عمر، (١٩٨٣).

● **«أخبار الزمان»**. أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. دار الأندلس، بيروت.

● **«أسد البحار ابن ماجد»**، رشدي صالح، دار القدس، (بيروت ١٩٧٤).

● **«تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»** (رحلة ابن بطوطة)، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، دار بيروت، (بيروت ١٩٨٠).

● **«المسالك والممالك»**، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر أبو عبيد البكري، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، (القاهرة ١٩٦١).

● **«التكملة لكتاب الصلة»**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ابن الابار)، (القاهرة ١٩٥٦).

● **«المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب»**، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشي، (طبعة ٢)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

● **«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»**، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، ج٢ و٣، (الدار البيضاء ١٩٥٤).

● «**أخبار مجموعة**»، لمؤلف مجهول، من منشورات «دار اسامة» (دمشق) وهي مُصوّرة عن النسخة المطبوعة في مدريد عام ١٨٦٧.

● **«تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»**، خالد بن عيسى البلوي، تحقيق الحسن السائح، المغرب.

Selected Bibliography

Abu-Nasr, Jamil M., *A History of the Maghrib*, Cambridge, 1971.
Adler, Elkan.N. *Documents sur les Marranes d'Espagne et de Portugal sous Philippe IV*, " Revue des Etudes Juives", Vol. 51, 1906.
Aguil i Fuster, Mari, *Catlogo de obras en lengua Catalana impresas desde 1474 hasta 1860*, (Barcelona 1977).
Aguilar, Gaspar. *Expulsion de los Moros de España por la S.C.R. Magestad del Rey don Felipe Tercero,* Valencia, Pedro Patricio Mey, 1610.
Agull Pascual, Benjamin. *Los restos del rey moro Zeit abu Ceid*, (Valencia 1978).
Ahmad, Aziz. *A History of Islamic Sicily*, Islamic Surveys, 10, (Edinburgh 1975).
Alareon, Maximiliano & Ramon Garcia Linares. *Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Argon*, (Madrid 1940).
Albaigs i Olivert, Josep M., *Diccionari de noms de persona, (*Barcelona 1980).
Alcobendas, M. "*Málaga*". Ed. Anel, S.A., (Granada 1984).
Ali, Ahmed, Al-Quridentitat. *Historia i llengua*, (Valencia 1985).
Alomar Esteve, Gabriel, *Historia de las Islas Baleares*, (Palma de Mallorca 1979).
Altamira y Crevea, R. *Historia de España y de la civilización Española*, 3rd Ed., 4 Volumes, (Barcelona 1913).
Altamira, Rafael. *A History of Spain*, D. Van Nastrand Co., (New York 1949).
Amades, Joan. *Folklore de Catalunya*, 3 vols., (Barcelona 1979).
Amades, Joan. *Las danzas de moros y cristianos*, (Valencia 1966).
Amador de los Rios, Jos, *Historia social, politica y religiosa de los judos de Espaa y Portugal*, (Madrid 1973).
Amador de los Rios, Rodrigo, *Murcia y Albacete*, (Barcelona 1981).
Amari, Michele. *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 3 vols., (Catania 1933-1937).
Anales del Centro de Cultura Valenciana, vols. 13, (Valencia 1952).
Andalucia medieval. Actas del Congreso (I) de Historia de Andalucia (1976) 2 vols., (Cordoba 1978).
Arabia, (London 1825).
Ari, Rachel. *España musulmana* (siglos VIII-XV). vol. 3 of Historia de España, ed. M. Tuon de Lara, (Barcelona 1982).
Arie, Rachel. *Acerca del traje musulman en España, desde la caida de Granada hasta la expulsion de los Moriscos*, Revista del Instituto de Estudios islamicos en Madrid, vol. XXX, 1965-1966, PP 103-229.
Armstrong, Karen. *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World.* (Doubleday 1991.)
Asso, Ignacio de. *Historia de la economa politica de Aragón*, (Zaragoza 1947).
Atienza, Julio de. *Diccionario nobiliario*, (Madrid 1959).
Atkinson, William C., *A History of Spain and Portugal*, (Baltimore 1960).
Atlas histrico y geografico de Africa española, (Madrid 1955).
Ayala, Arzobispo Martin de. *Catecismo para instruccion de los nuevamente convertidos de Moros*, (Valencia 1599).
Baker, Derek. *Medieval Women*, (Oxford 1978).

Bakri, Abu `Ubayd al. *Geografia de España (Kitab al masalik wa-l-mamalik)*, (Zaragoza 1982).
Ballesteros-Beretta, Antonio. *Alfonso X el Sabio*, (Murcia 1963).
Banks, Arthur. *Atlas of Ancient and Medieval Warfare*, (New York 1982).
Baroja, Julio. *Los Moriscos del reino de Granada*, Instuituto de Estudios politicos, (Madrid 1957).
Baronat Y Barrachina, Pascuel. *Los Moriscos españoles y su expulsion*, (Valencia 1901).
Basaez Villaluenga, Ma. Blanca. *La aljama sarracena de Huesca en el siglo XIV*, (Barcelona 1989).
Bataller, Adelita. *La expulsion de los Moriscos: su repercusion en la propiedad y la problacion en la zona de los riegos del Vernisa*, (Valencia 1960).
Bauer Y Landauer, Ignacio. *Relaciones y manuscritos Moriscos,* Madrid editorial ibero-africano-americana, s.d.
Beltr n Martnez, Antonio, *Arte rupestre levantino*, (Zaragoza 1968).
Beltr n, A., et al. *Historia de Zaragoza*, (Zaragoza 1976).
Ben David, Abraham. *Sefer ha-Kabbalah* (Libro de la tradicin), (Valencia 1972).
Benardete, Mair J. *Hispanic Culture and Character of the Sephardic Jews*. New York: Hispanic Institute, 1952.
Bendiner, Elmer. *The Rise and Fall of Paradise: When Arabs and Jews Built a Kingdom in Spain,* (New York 1983).
Benito Ruano, Eloy. *Los orgenes del problema converso*, (Barcelona 1976).
Bennassar, Bartolom, *The Spanish Character: Attitudes and Mentalities from the Sixteenth to the Nineteenth Century*, Berkeley, 1979.
Bentez Sanchez-Blanco, Rafael. *Moriscos y cristianos en el Condado de Casares*, (Cordoba 1982).
Berger, Adolf, *Encyclopedic Dictionary of Roman Law*, (Philadelphia 1953).
Bernab Pons, Luis F., *El c ntico isl mico del morisco hispanotunecino Taybili*, (Zaragoza 1988).
Bernard, Agustin. *Afrique du Nord*, (paris 1925).
Berque, Jaques. *Arabies*, (Paris 1980).
Bertaut, Francois. *Journal Du Voyage d'Espagne*, (1659), Revue Hispanique, Vol.,XLVII, 1919.
Bet Belenguer, Emilio. *Castillos valencianos*, (Valencia 1984).
Biarns i Biarns, Carmel, *Moros i moriscos a la Ribera de ls Guerra de Granada*, (Madrid 1970).
Bleye, Pedro Agudo. *Manual de historia de España*, (Madrid 1963).
Bohlander, Richard E., ed. *World Explorers and Discoverers*. Macmillan, 1992.
Boulnois, Luce. *The Silk Road*, E.P. Dutton, and Compan, (New York 1966).
Bramon, Dolors, *Contra moros i jueus*, (Valencia 1981).
Brentano, Robert, Ed. *The Early Middle Ages (500-1000)*, The Free Press, (New York 1964).
Brockelmann, Carl, ed. *History of the Islamic Peoples*, Routledge & Kegan Paul, (London 1980).
Brown, Edward Granville. *Arabian Medicine*, Harvard University Press, (Cambridge 1921).

Bruce, Steve. *A House Divided: Protestantism, Schism, and Secularization*. Routledge, 1990.
Brunel, Antoine de. *Voyage d'Espagne*, Revue Hispanique, Vol. XXX, 1914 (PP 119-376).
Burkhardt, Titus. *Moorish Culture in Spain.*: McGraw Hill Publ., 1972.
Burns, Robert. *The Crusader Kingdom of Valencia*, Harvard University Press, (New York 1967).
Cabanelas Rodrigues, Dario. *El Morisco granadino Alonso del Castillo,* (Granada 1965).
Cagigas, Isidoro de las. *Los mozarabes*, Escelier, (2 Volumes), (Madrid 1948).
Carvajal, Luis del Marmol. *Historia del rebelion y castigo de los Moriscos del reino de Granada*, Sancha Madrid, 1797, (2 Volumes).
Cardaillac, Louis. *La passage des Morisques en Languedoc*, (Monpellier 1970).
Caro Baroja, Julio. *Los moriscos del Reino de Granada*, Madrid, 1976.
Caro Baroja, Julio. *Los Moriscos Aragóneses segun un autor de comienzos del siglo XVII, Razas, pueblos y linajes*, Revista de Occidente, (Madrid 1957).
Carrasco Urgoiti, Ma. Soledad. *El problema morisco en Aragn al comienzo del reinado de Felipe II*, Chapel Hill, 1969.
Carrasco Urgoiti, Maria de la Soledad. *El moro de Granada en la literatura,* Revista de Occidente, (Madrid 1956).
Contreras, J. *La Inquisicion de Aragón: estructura y oposicion (1550-1700).* Estudios de Historia Social, (Madrid 1977).
Casey, James. *The Kingdom of Valencia in the Seventeenth Century,* (Cambridge 1979).
Castro, Americo. *The Spaniards: An Introduction to their History.* Berkeley: Univ. of California Press, 1971.
Castro, Amrico. *The Structure of Spanish History*, Princeton, 1954.
Chadwick, Owen. *The Popes and European Revolution*, The Clarendon Press (Oxford 1981).
Chaunu, Pierre. *Minorites et conjoncture, L'expulsion des Morisques en 1609*, Revue Historique, CCXXV, 1961.
Chejne, Anwar G. *Islam And The West: The Moriscos - A Cultural and Social History*, State University of New York Press, 1984.
Circourt, Count Albert de. *Histoire des Arabes en Espane*, (3 Volumes).
Conde, Jose. *Historia de la dominación de los arabes en España*, (Barcelona 1844), (3 Volumes). (*History of the dominion of the Arabes in Spain,* Translated by J.Foster, London 1854).
Cortes Peña, Antonio Luis. "*El problema morisco"*. Historia 16. Nº 190, Ed. Información y Revistas S.A. Madrid, Febrero de 1992.
Cossio, J.M. de. *Autobiografias de Saldados*, Estudio Preliminar, Biblioteca de Autores españoles, Vol, XC, 1956.
Cutler, Allan Harris. *The Jew as Ally of the Muslims*. Notre Dame, Ind,: University of Notre Dame Press, 1986.
De La Cierva, Ricardo. *Historia General de España.*Tomo V. Ed. Planeta, (Madrid 1979).
De Montequin, F. *Compendium of Hispano-Islamic Art and Architecture,* St Paul, (Minnesota 1976).

Defourneaux, Marcelin. *Daily Life In Spain In The Golden Age*, George Allen & Unwin Ltd., (London 1970).
Dillenberger, John, and Welch, Claude. *Protestant Christianity*, Macmillan, 1988.
Donghi, Tulio Halperin. *Un conflicto nacional en el siglo de oro, & Moriscos y Christianos Viejos en Valencia, Cuadernos de Historia de España*, Vols., XXIII & XXIV, 1955-1957.
Dozy, R.P. *Histoires des Muslumans d'Espange*, (4 Volumes), (Leyden1861). (Dozy, R.P. *Spanish Islam*, Transland by F.G.Stokes,1913.
Dzielska, Maria. *Hypatia of Alexandria*, Harvard University Press, (Cambridge 1995).
Elliott, J.H. *Imperial Spain (1469-1716)*, (London 1963).
Epalaza, Miguel de, et Petit, Ramon. *Estudes sur les Moriscos andalous en Tunisie,* Madrid-Tunis, Direccion General de Relaciones Culturales, 1973.
Epalaza, Miguel de. *Recherches recentes sur les emigrations des Moriscos en Tunisie,* Cahiers de Tunisie, XVIII, nos 69-70, 1970.
Fisher, H.A.L. *A History of Europe*, Vol 1, Fontana, Great Britain, (1979).
Fita, Fidel. *La Inquisición de Torquemada in Boletin Acad. Hist.*, XXIII, (Madrid 1893).
Fonesca, P. Damian de. *Justa expulsion de los Moriscos de España*, Roma, Iacomo Mascardo, 1612.
Galmes De Fuentes, *Alvaro. El libro de las batallas, (narraciones caballerescas aljamiado-moriscas*, Oviedo, Universidad de Oviedo, 1967.
Garcia, Arenal, Mercedes. *Los Moriscos*, (Madrid 1957).
Garrad, K. *The Causes of the second Rebellion of Alpujarra.* (Unpublished).
Gayanogs, Pascual. *Language and Literature of the Moriscos*, British and Foreign Review, VIII, pp 63-95.
Gaztambide, Jose Goni. *Historia de la Bula de la cruzada en España,* (Vitoria 1958).
Gaztambide, Jose Goni. *The Holy See and the Reconquest of the Kingdom of Granada*, (1479-1492), R. Highfield ed., Spain in the Fifteenth Century 1369-1516, (London 1972).
Gil, Panlo, & Ribera, Julian, y Sanchez (Mariano). *Coleccion de textos aljamiados*, Conras Hermanos, (Zaragoza 1889).
Glick, T.H. *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages*, (Princton 1979).
Gonzalez Doria, Fernando. *Diccionario Heráldico y Nobiliario de los Reinos de España*. Ed. (Bitácora 1987).
Guillaume, Alfred. *Islam*, Penguin Books, 1982.
Harvey, J.H. *The Cathedrals of Spain.*
Harvey, L.P. *The Literary Culture of the Moriscos (1492-1609),* (Oxford 1958).
Harvey, L.P. *The Moriscos and Don Quixote*, University of London King's College, 1974.
Hawley, Donald. *The Trucial States*, (Londo, 1970).
Hitos, F.M. *Martires de la Alpujarra en la rebelion de los Moriscos en 1568*, (Madrid 1935).
Hitti, Philip. *History of the Arabs*, Macmillan Student Editions, 1974.
Hoff, Mary K., and Rodgers, M. M. *Oceans*. Reprint. Lerner, 1993.

Hole, E. *Andalus: Spain under the Muslims*, (London 1958).
Housely, Norman. *The Latter Crusades*, Oxford University Press, 1992.
Ignacio Bauer y Landauer. *Relacions y manuscritos Moriscos*, Madrid, editorial Ibero-Africano-American.
Irving, Washington. *The Conquest of Granada.*
Irving, Washington. *Treasures of the Alhambra*, (Barcelona 1979).
Jackson, Gabriel. *The Making of Medieval Spain*, (London 1972).
Janer, Florencio. *Condicion social de los Moriscos de España: causa de su expulsion y consecurencias que esta produjo en el orden economico y politico*, (Madrid 1857).
Joly, Barthelemy. *Voyage díEspange (1603-1604)*, Revue Hispanique, Vol XX, 1909, (PP 460-618).
Kamen, Henry. *The Spanish Inquisition*, New American Library, (New York 1965.)
Kaplan, Marion. *The Portugese*, Viking, 1991.
Kayserling, Meyer. *Christopher Columbus: The Participation of the Jews in the Spanish and Portuguese discoveries*, Sepher Hermon Press, (New York 1968).
Kinder, Herman & Hilgemann, Werner. *Atlas of World History*, Vol I, (London 1980).
Koenigsberger, H.G. & Mosse, George L. *Europe in the Sixteenth Century,* Longmans, Green & Co., Ltd., (London 1969).
Kubler, G. 7 M. Soria. *Art and Architecture in Spain and Portugal and Their Dominions*, *(1500-1800).*
La Rigaudiere, E. *Historire des persecutions religieuses d'Espagne: Juifs, Mores et Protestants*, (Paris 1860).
Lacarra, J.M. (Ed.). *La reconquista española la repoblacion del pais*, (Saragossa 1951).
Lane-Poole, Stanley. *The Moors In Spain*, (The Story of the Nations), T. Fisher Unwin, 4th Ed., (London 1890).
Lapeyre, Henri. *Geographie de I'Espagne Morisque*, (Paris 1959).
Lea, Henry Charles . *A History of the Inquisition of the Middle Ages.* (3 volumes). (New York 1888); revised 1906
Lea, Henry Charles. *The Moriscos of Spain: Their Conversion and Expulsion,* (London 1968).
Lewis, Bernard. *The Jews of Islam*, Princeton University Press, 1984.
Lincoln, Joseph. *An Itinerary for Morisco Refugees from Sixteenth Century Spain*, Geographical Review, New York, XXIX, 1939.
Lynch, John. *The Hispanic World in Crisis and Change, 1598-1700 (A History of Spain)*, Blackwell Pub., (1994).
Machiavelli, Niccolo. *The Prince*, (translated by Henry C. Mansfield), The University of Chicago Press, (Chicago 1985).
Marco, Joaquin. *Diccionario Enciclopédico Salvat*. (Barcelona 1991).
Mariana, Juan de. *Historia general de España*, (Toledo 1601). (Madrid 1817-1822), (20 Volumes).
Marques, Antonia. *Literature e Inquiscion en España (1478-1834)*, (Madrid 1980).

Martinez Montavez. Pedro. *Al-Andalus, España, en la literatura árabe contemporánea.* Ed. Arguval. (Málaga 1992).
Marty, Martin E. *Protestantism in the United States*, Macmillan, 1986.
Maxwell, Sir W.Stirling. *Don Juan of Austria*, Part 1.
Mayer, Hans E. *The Crusades*, (Oxford 1988).
Mazaheri, Aly. *La vie quotidienne des musulmans au moyen age*, Hachette, (Paris 1951).
Mendoza, Hurtado de. guerra de Granada.
Merriman, Roger Bigelow. *The Rise of the Spanish Empire in the Old World and the New.* Cooper Square Publ., (New York 1962).
Michael Brett & Werner Forman. *The Moors: (Islam in the West)*, Orbis, 1980.
Michener, James. *Iberia*, Random House, (New York 1968).
Monter, W. *Frontiers of Heresy*: *The Spanish Inquisition from the Basque Lands to Sicily*, (Cambridge 1990).
Morris, Christoper. *The Tudors*, Fontana/Collins, (London 1955).
Nasr, Seyyid Hossein. *Science and Civilization in Islam*, Harvard University Press, (Cambridge 1968).
Neuman, Abraham A. *The Jews in Spain*, Octagon Books, (New York 1969).
Ortiz, Antonio Domingues. *The Golden Age of Spain*, Weidenfeld & Nicolson, London.
Ortiz, Luz. *Moros y cristianos: los moriscos de Albaida*, García-Bustelo, (Valencia 1998).
Osen, Lynn M. *Women in Mathematics*. United States, Massachusetts Institute of Technology Press, 1974.
Ozment, Steven E. *Protestants*: *The Birth of a Revolution.* (Doubleday 1992).
Parry, J.H. *The Age of Reconnaissance*, The World World Publishing Company. (Cleveland 1963).
Parry, J.H. *The Spanish Seaborne Empire*, (London 1971).
Payne, Robert. *The Dream and the Tomb: A History of the Crusades*, Stein & Day, 1984.
Perl, Teri. *Biographies of Women Mathematicians and Related Activities.* United States, Addison-Wesley, 1978.
Peters, Edward. *Inquisition*, University of California Press, (Berkeley 1989).
Pidal, G.Menendez. *Los camions en la historia de España*, (Madrid 1951).
Plaidy, Jean. *The End of the Spanish Inquisition*, (London 1961).
Plaidy, Jean. *The Spanish Bridegroom*, (London 1976).
Plaidy, Jean. *The Spanish Inquisition*, The Citadel Press, (New York 1967) .
Porter, Charlotte. *The Scientific Cosmos of Columbus: an Overview Proteus*, 1992.
Prescott, William Hickling. *History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic*, 10th Ed., Paris, 1842 (3 Volumes).
Prescott, William Hickling. *History of the Reign of Philip the Second, King of Spain,* Phillip, Sampson & Company, Boston, 1859 (3 Volumes).
Provencal, E. Levi. *Histoire de L'Espagne Musulmane*, (Leyden-Paris 1950).
Randles, W. G. L. *De la terre plate au globe terrestre: une mutation epistemologique rapide,* 1480-1520, Librarie Armand Colin, (Paris 1980).
Reed, Jan. *The Moors in Spain and Portugal.* Totowa. N.J.: Rowman and Littlefield, 1975.

Regla, Juan. *Historia de España Ilustrada*. Ed. Ramón Sopena. (Barcelona 1968).
Revista Lamalif. *Número 5. Diciembre. Ed. Alqibla*. (Almería 1992).
Ribera Y Tarrago, Julian, y Asin Palacios, Miguel. *Manuscritos arabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta*, Imprenta Iberica, (Madrid 1912).
Ricard, Robert. *Indiens et Morisques, Etudes et documents pour l'histoire missionnaire de l'Espagne et du Portugal*, (Louvain 1931).
Rice, Tony. *Ocean World*. Millbrook, 1991.
Riley-Smith, Jonathan. *The Atlas of the Crusades*. Facts on File, 1990. *The Crusades: A Short History*. 1987. Reprint. (Yale 1990).
Robles, F. Guillen. *Catalogo de los manuscritos arabes existentes en la biblioteca nacional de Madrid*, (Madrid 1889).
Roth, Cecil. *The Jewish Contribution to Civilization*. Cincinnati, Ohio: Union of American Hebrew Congregations, 1940.
Roth, Cecil. *The Spanish Inquisition*, W. W. Norton & Company, (USA 1964).
Rowdon, Maurice. *The Spanish Terror*, Constable and Company, (London 1947).
Rule, William Harry. *History of the Inquistion*.
Salas, De Javier. *Velazquez*, Phaidon Press, (London 1962).
Sanchez Perez, A. *Los Moriscos de Hornachos, corsarios de Sale*, Revista de Estudios Extremenos, XX, (Badajoz 1964).
Sordo, E. and Swaan, Wim, *Moorish Spain*, (London 1963).
Spain, (*The Mainland*), Ian Robertson Ed., Benn, (London 1975).
Steffens, Bradley. *The Children's Crusade*. Lucent Bks., 1991.
Tarrida Del Marmol. *Les Inquisiteurs d'Espagne* , (Paris 1807);
Terrasse, Henri. *Islam d'Espagne*, plon, (Paris 1958).
Thomson, A & Ata'ur-Rahim. *Islam In Andalus*, Ta-Ha Publishers, (London 1996).
Vaillant, G.C. *Aztecs of Mexico*, Pelican, (London 1965).
Vicens Vives, Jaime. *Approaches to the History of Spain*, Univ. of California Press, (Berkeley 1967).
Vives, Jaime Vicens ed. *Historia economica de España y America*, (Barcelona 1957-1959).
Vives, Jaime Vicens. *Historia Economica de España*, 3d ed. (Barcelona 1964.)
Vives, Jaime Vicens. *Manual de Historia economica de España*, (Barcelona 1959).
Watson, Robert. *The History of the Reign of Philip the Third*, 1808.
Watt, W. Montgomery and Cachia, W. *History of Islamic Spain*, (Edinburgh 1965).

لائحة مختصرة بالباباوات المنتخبين والمعارضين

(الرقم التسلسلي والإسم والولاية بالتأريخ المسيحي- المعارضون بالخط المائل)

1 Peter (32-67)
37 Damasus I (366-83)
55 Boniface II (530-32)
102 Gregory IV (827-44)
114 Stephen VII (896-97)
117 John IX (898-900)
126 John XI (931-35)
139 Gregory V (996-99)
157 Alexander II (1061-73
158 Gregory VII (1073-85)
160 Urban II (1088-99)
161 Paschal II (1099-1118)
162 Gelasius II (1118-19)
163 Callistus II (1119-24)
164 Honorius II (1124-30)
165 Innocent II (1130-43)
166 Celestine II (1143-44)
168 Eugene III (1145-53)
169 Anastasius IV (1153-54)
170 Adrian IV (1154-59)
171 Alexander III (1159-81)
172 Lucius III (1181-85)
173 Urban III (1185-87)
174 Gregory VIII (1187)
175 Clement III (1187-91)
177 Innocent III (1198-1216)
178 Honorius III (1216-27)
179 Gregory IX (1227-41)
180 Celestine IV (1241)
181 Innocent IV (1243-54)
182 Alexander IV (1254-61)
184 Clement IV (1265-68)
185 Gregory X (1271-76)
186 Innocent V (1276)
187 Adrian V (1276)
188 John XXI (1276-77)
189 Nicholas III (1277-80)
191 Honorius IV (1285-87)
192 Nicholas IV (1288-92)
193 Celestine V (1294)
194 Boniface VIII (1294-1303)
195 Benedict XI (1303-04)
196 Clement V (1305-14)
202 Gregory XI (1370-78)
213 Sixtus IV (1471-84)
214 Innocent VIII (1484-92)
215 Alexander VI (1492-1503)
216 Pius III (1503)
217 ulius II (1503-13)
218 Leo X (1513-21)
219 Adrian VI (1522-23)
220 Clement VII (1523-34)
252 Pius VII (1800-23)
263 Paul VI (1963-78)
264 John Paul I (1978)
265 John Paul II (1978—)

St. Hippolytus	*217*
Felix II	*355*
Ursinus	*366*
Eulalius	*418*
Dioscorus	*530*
Constantine	*767*
Anastasius	*855*
Gregory	*1012*
Clement III	*1080*
Sylvester IV	*1105*
Gregory VIII	*1118*
Victor IV	*1138*
Victor IV	*1159*
Calistus III	*1168*
Innocent III	*1179*
Nicholas V	*1328*
Clement VII	*1378*
Benedict XIII	*1394*
Alexander V	*1409*
John XXIII	*1410*
Felix V (IV)	*1439*

المصدر: الموسوعة الكاثوليكية ومصادر أخرى.

اهم المدن والمواقع والاعلام

Aben Abou	عبد الله بن أبيه
Aben Hummeya	ابن أمية ، زعيم أندلسي
Abencerrage	بنوالسراج (من غرناطة)
Abubacer	ابن طفيل الفيلسوف
Adra	عدرة ، مدينة
Adrian Utrecht	أدريان الاترشتي
Africanus, Leo	حسن الوزان ، مكتشف
Aguilar de la Frontera	اغيلار ، مدينة
Aguilar, Alonzo Y	الونثو دي أغيلار (بلاي)
Aguilar, Gonzalo	غونثالو القرطبي
Alacala de Guadaria	قلعة الوادي
Alange	الحنش ، قلعة
Alarcos	الأرك ، الأركة ، معركة
Albacete	البسيط ، مدينة
Albaicin	رباض البيازين ، غرناطة
Albarracin	بنو رزين ، مدينة السهلة
Alberca	البركة (في مرسية)
Albufera	البحيرة
Alcacer de Sal	قصر الفتح(أبي دانس)
Alcaiceria	القيصرية ، سوق الحرير
Alcala	القلعة ، مدينة وجامعة
Alcala la Real	قلعة يحصب
Alcaraz	الكرسي ، مدينة
Alcira	جزيرة شقر ، قرب بلنسية
Alcoy	الكوي
Alcuadete	القبذاق ، قرب جيان
Aledo	لييط ، حصن
Alegria	القرية ، بلدة
Aleman, Mateo	ماتيو ألمان (مؤلف)
Alemunecar	المنكب
Alferez	الفارس
Alfonso	الفونصو ، الادفنش
Alfonso I (Aragón)	اذفونش بن ردمير
Alfonso I (Asturias)	الفونصو ١ (الكاثوليكي)
Alfonso II (Aragón)	الفونصو الثاني
Alfonso II (Asturias)	الفونصو «الطاهر»
Alfonso Raimundez	الفونصو بن رمند
Alfonso VI (Leon)	الفونصو السادس الليوني
Alfonso VII (Leon)	اذفونش ابن رمند
Alfonso VIII	الفونصو الثامن
Alfonso X (el Sabio)	الفونصو العاشر «العالم»
Alfonso Enriquez	الفونصو ابن الرنق
Alfunt	طرف الفنت ، قرب المرية
Algarve	الغرب ، جنوب البرتغال
Algeciras	الجزيرة الخضراء ، مدينة
Alhama	الحمة (الحامة) قرب غرناطة
Alhendin	همدان ، مدينة
Alhondiga	الخندق ، مدينة
Alicante	لقنت ، مدينة
aljamiado	الأعجمية ، لغة
Almaden, Sierra de	جبل المعدن
Almanzora, Cuevas de	المنصورة ، مدينة
Almara	المعرض ، وادي
Almenara de Madina	المنارة ، مدينة
Almería	المرية ، (مدينة المرأى قديماً)
Almodovar del Rio	المدور ، نهر ووادي
Alpujarras, las	جبل البشرة (البشرات)
Alva	البة ، مدينة
Alvar Hanez	البار هانش (البر هانس)
Amaya	أماية
Ampurias	امبرياس ، امبورش
Andalucia	الأندلس ، الاندلس الصغرى
Andarax	اندرش ، مدينة في الجنوب
Andorra	اندورا ، قائمية في البيرينيه

Antequera	انتقيرة
Aquila	وقلة ابن غيطشة
Aquitania	اقيطانية ، اكيتانيا (فرنسا)
Aragón	ارغون ، اراغون ، مملكة
Aranjuez	الرجوز ، الرنجوز
Arcos de la Frontera	اركش ، اركوش
Ardabas	ارطباش ، ارطباس
Arianzon	الرنسون ، نهر ووادي
Arinsol	فحص الرنسول
Arjona	ارجونة ، نرجونة ، مدينة
Arzila	أصيلا ، في المغرب
Asepuva	شيبة ، جبل
Asma	اسمة ، مدينة
Asperi	اشبيرة ، ممر في البيرينية
Astorga	اشترقة ، مدينة
Asturias	اشتورش ، استرياس
Atienza	أنيجة ، انيتشة ، مدينة
Audencia	المحكمة العليا
Avenpace	ابن باجة
Averros	ابن رشد (الفيلسوف)
Avignon	ابنيون ، افنيون
Avila	ابلة ، مدينة
Axarquia	الشرقية ، مدينة
Babastro	بيشتر ، جبل
Badajoz	بطليوس ، مدينة
Baeza	بياسة ، مدينة
Baliunech	بنيوش ، بليونش ، مدينة
Barbastro	بربشتر ، مدينة
Barbate	برباط ، نهر في الجنوب
Barbitania	بربطانية ، بربطانة
Barcelona	برشلونة ، مدينة
Basque	باسك ، اقليم في الشمال
Baza	بسطة ، مدينة
Beas	بيش ، مدينة
Beja	باجة ، مدينة
Belalcazar	غافق ، مدينة

Berchules	برشل ، بلدة في الجنوب
Berja	برجة ، مدينة
Biscay	بسقاية ، بسكاي ، خليج
Boabdil	الملك عبد الله الصغير
Boissonade	بواسوناد ، مؤرخ قديم
Bombezar	وادي قيس
Bordeaux	بوردو ، برذويل
Burgo	برغه ، قرب رندة
Burgos	برغش ، برقش ، مدينة
Cabo de Gata	رابطة القبطة ، قرب المرية
Cabra	قبرة ، مدينة
Caceres	قاصرش ، قشرش
Cadiz	قادس ، مدينة
Calahorra	قلهرة ، قلهورة ، مدينة
Calatanzor	النسور ، مدينة وقلعة
Calatrava la Vieja	قلعة رباح
Calpe	كالبى ، اسم قديم لجبل طارق
Caniles	قنالش ، قرب بسطة
Cantabrica	قنتبرية ، سلسلة جبال شمالية
Capitan General	الحاكم العسكري (العام)
Carcasona	قرقشونة
Carlos V	كارلوس الخامس ، شارلكان
Carmona	قرمونة
Cartagena	قرطاجنة الخلفاء
Carteia	قرطية ، برج قرطجنة
Carvajal	كربجال
Castile, le Vieja	قشتالة القديمة
Catalonia	قطالونيا ، مملكة
Cerdana	شرطانية
Ceuta	سبتة
Charlemagne	شارلمان ، قارلة
Cherchel	شرشال
Chinchilla	جنجالة
Cid, el Campeador	السيد القنبيطور
Cintra	شنترة
Cisereus	الشرزي ، شرزوا ، في البيرينيه

Cisneros, Jimenez de	خمينيس دي سيسنيروس
Ciudad Real	المدينة الملكية
Ciudad Rodrigo	السبطاط ، مدينة لذريق
Clavijo	كلاييخو ، وقعة
Comarex	قمارش
Combra	قلمرية ، قلنبرة
Comes	قومس ، قمص
Consuegra	كنشرة
Contreras, Alonso de	الونصو دي كونتريرس
Cordova	قرطبة
Coria	قورية
Covadonga	صخرة بلاي
Crete	كريت ، اقريطش
Cuenca	قونقة
Cuevas del Almanzor	المنصورة ، مدينة
Cutanda	قتندة ، وقعة
Denia	دانية ، دانة
Denmark	الدنمارك ، الدانامرشة
Diezma	دجمة
Don Juan de Austria	دون خوان النمسوي
Don Quixote	دون كيخوتي ، كيشوت
Doroca	دروقة
Duero	دويرة ، نهر ووادي
Ebro	ابرة ، نهر ووادي
Ecija	استجة ، قرب غرناطة
Egilona	أيلة ، زوجة لذريق
Elche	إلش
Ello	اية
Elvira	البيرة
Escolano	ايسكولانو ، مؤرخ بلنسي
Escorial, el	الاسكوريال
Espeja, la	شيجة
Espejo (Cordova)	شيجة قرطبة
Espinosa	اسبينوزا ، الكردينال
Estremadura	استريمادورا ، اقليم
Etepona	اشتبونة
Evors	يابرة
Fajardo	فخاردو ، اسم قشتالي
Felipe II	فيليب الثاني
Fernando	فرناندو (فراندة ، هراندة)
Fernando I (Aragón)	فرناندو الأول
Fernando I (Castile)	فرناندو القشتالي
Fernando II (Leon)	فرناندو «الببوج»
Fernando III (Castil)	فراندة ابن الهنشة
Fernando IV (Castile)	فرناندو الرابع
Fernando V (II)	فرناندو الكاثوليكي
Ferrant Martinez	فيرانت مارتينث
Fraga	افراغة ، وقعة
Franxinetium	جبل القلال
Fraxiliana	فركسالة (فرجالة) ، مدينة
Frigiliana	فرجالة (فركسالة)
Fuengirola	سهيل ، جنوب غربي مالقة
Fuente de Cantos	لفنت ، مدينة
Fuerta de Algeciras	باب الجزيرة
Galicia	جليقية ، مملكة
Galleg	جلق ، نهر
Gandia	غندة ، ودوق غندة
Gaspar d'Avalos	غاسبار دا فالوس
Gaucin	غصن (غصين) ، قرب رندة
Gaulia (Francia)	غالة ، غاليش ، فرنسا
Generalife	جنة العريف (غرناطة)
Genil	شنيل ، نهر في الجنوب
Gerona	جرندة ، جيروندة ، مدينة
Gevaudon	جيفودون ، شاعر
Gibraleon	جبل العيون
Gibralfaro	جبل فارو ، قرب مالقة
Gibraltar	جبل طارق
Gijon	جيجون (خيخون)
Giralda	الجيرالدا ، مئذنة اشبيلية
Gonzalo de Cordoba	«القبطان العظيم»
Granada	غرناطة
Grao de Sangunto	غراو ساقونتة

Guadaira	الوادي ، قرب اشبيلية	Janda	الخندق ، نهر وبحيرة
Guadajara	وادي الحجارة ، مدينة	Jativa	شاطبة ، مدينة
Guadalete, Rio	نهر لكه (بكه)	Javea	جابية
Guadarrama, Sierra de	جبال الرمل (الرملة)	Jerez de la Frontera	شريش ، مدينة
Guadatin	وادي التين	Jiemena	شمانة ، خمانة ، زوجة السيد
Guadelquivir	نهر الوادي الكبير	Juana la Loca	خوانا المجنونة
Guadiana	وادي آنة	Juderia, barrio de la	حي اليهود
Guadix	وادي آش	Júcar	شقر ، نهر ووادي
Guazalete	وادي سليط	Julian	جوليان ، اللبان ، يليان
Gudiel, Alonzo Fray	فراي الفونصو وديل	Lago	البحيرة
Guéjar	وجار ، مدينة	Lamax	اللاشة (الآشة) ماشة
Guerrero, Pedro	بدور غيريرو	Lanjaron	عنجر
Henares	هنارس ، نهر	Laroles	لورة
Hornachuelos	هرناش ، مدينة	Las Navas de Tolosa	وقعة العقاب
Hrosuitha	روسفيتا ، راهب	Lecrin	القرن ، وادي
Huebro	وبرة	Lemago	لميقة
Huelva	ولبة	Leon	ليون
Huesca	وشقة	Leon, Luis de	لويس الليوني
Huete	وبذة	Lerida	لاردة
Iberia	آيبرية ، أبارية	Lerma	ليرما ، مدينة ودوق
Ibiza	اليابسة ، جزيرة	Les Alfaques	الآفاق
Inox	أنوش	Librilla	لبرالة ، قرب مرسية
Inquisidor General	المحقق العام	Lisboa	لشبونة ، اشبونة
Irun	إيرون	Llegaron	القرون
Isabella de Solis	زوجة أبي الملك الصغير	Loja	لوشة
Isabella I	ايزابيلا (ازابل)	Lorca	لورقة ، جنوب غربي مرسية
Isla de las Palomas	جزيرة بلومة (طريف)	Lucainena	لقينة
Islas Baleares	الجزائر الشرقية (البليار)	Lucena	اللسانة ، اللشانة ، مدينة
Italica	طالقة ، قرب اشبيلية	Lugo	لك ، مدينة
Iznajar	حصن آشر قرب قرطبة	Lyon	ليون ، لوذون (في فرنسا)
Iznalloz	حصن اللوز ، مدينة	Madrid	مدريد ، مجريط
Iznatoraf	حصن الطرف	Maimonides, Moses	موسى ابن ميمون
Jaca	جاقة ، ممر	Malaga	مالقة
Jaen	جيان ، مدينة	Mallorca	ميورقة
Jaime	خايمي (جايمش ، جاقم)	Mantanza	منتزه
Jalon	شلون ، نهر	Maracena	مرشانة

Marbella	مربلة (ماربيا الحديثة)
Marranos, Los	اليهود «الخنازير»
Matamoros	ذباح الاندلسيين ، سنتياغو
Medina Azahara	المدينة الزهراء
Medina Sidonia	مدينة شذونة
Medinaceli	مدينة سالم
Menorca	منورقة
Mexia, Don Augustin	ميخيا ، دون أوغسطين
Mino, Rio	مينية ، نهر
Mirones	ميرون ، قائد قشتالي
Mojácar	مجقار
Moncofar	منقوفة
Mondego, Rio	منديق ، مندق ، نهر
Mondejar, Marquis de	مركيز مندخار
Montiel	مونتيل ، بلدة
Moreria	حي المواركة (بلنسية)
Moriscos, los	المواركة (الموريسكيون)
Moro	العربي ، الأندلسي
Moron	مرور (مورور) ، مدينة
Motrill	مطريل ، مدينة
Mozarabes, los	المستعربون
Mudejares, los	المدجنون
Murcia	مرسية
Murviedro	مربيطر
Naples, Napoli	نابولي (نابل)
Narbona (Narbonne)	نربون ، نربونة ، أربونة
Navarre	نافار ، نبارة ، نبرة
Navas de Tolosa, Las	العقاب ، وقعة
Nerja	نرجة ، مدينة في الجنوب
Nicaia	نيقيا (أرنيق التركية)
Niebla	لبلة
Níjar	نجار ، مدينة في الجنوب
Normandos, Los	النورمان (الاردمانيون)
Nuno de Lara	دننة ، ذو النونة ، ذنونة
Ocampo	أوكامبو ، مؤرخ
Ocsonoba	أكشبونة
Olivares,Conde-Duqu	دوق اوليبارس
Olumundo	المند (ابن غيطشة)
Orense	أورية
Oreto	أوريط
Orihuela, Auriola	أريولة
Orinse	أورنسة
Orthez	أورتيز
Orx	أرش
Osma	أكشومة
Ostragoths	القوط الشرقيون
Oviedo	أوبيط ، مدينة ، حصن
Padul (es)	بادول ، البذول ، مدينة
Palencia	بلازيا (في الشمال)
Palermo	باليرمو (بلرم)
Pallares	بلد بليارش
Pamplona	بمبلونة ، بنبلونة
Pechana	بشانة
Pechina	بجانة ، لبجانة
Pedro	بدور ، بطرة ، بطر الخ
Pedro I (el Cruel)	بطرة بن الهنشة «القاسي»
Pedroche	فحص البلوط
Pelayo (Pelagius)	بلايو ، بلاي ، بلي ، بلاغيوس
Peñón de Inox	حصن أنوش
Peña de Pelayo	صخرة بلايو
Pirineos (Pirenaica)	البرينيه ، البرت ، البرتات
Portugal	البرتغال ، برتقال ، برطقال
Priego	باغو
Puerta de la Estatua	باب الصورة (قرطبة)
Puig de Cebolla	أنيشة ، وقعة
Pulgar, Hernando del	هرناندو ديل بلغار
Purchena	برشانة ، مدينة في الجنوب
Quesada	قيجاطة ، قرب جيان
Quixot, Don	دون كيخوتي ، كيشوت
Rahabatalcadi	رحبة القاضي (بلنسية)
Ramiro	روميرو ، ردمير الخ
Ramon Berenguer I	رامون برنجير الأول

Ramon Berenguer V	رامون برنجير الرابع	Sarria	بشارة
Randazzo	الرنداح ، الرنداج	Secunda, Xecunda	شقندة
Rayya, Reyo	ريّة	Segovia	شقوبية
Reconquista, La	حرب الاسترداد (إسبانية)	Segura	شقورة ، نهر ووادي
Regio	رية ، اقليم ، مدينة	Serin	سرية
Reina, Casiodoro de	كاسيودورو دي رينا	Seron	سيرون
Requesens	ريكويسنس ، قائد إسباني	Sesa, Doque de	دوق سيسه
Ribera, Juan de	خوان دي ريبره	Sevilla	اشبيلية
Ricote, Valle de	شقورة ، وادي ونهر	Sidonia, Rio de	نهر شذونة
Rodana	رودنة ، وادي	Sierra Almaden	جبل المعدن
Rodrigo	روديغو ، لذريق ، ردريق .	Sierra Alpujarras	البشرات ، البشرة ، جبال
Rodrigo Diaz de Vivar	القنبيطور ، (السيد)	Sierra Bermeja	الجبل الأحمر
Rohne	الرون (رودنة) ، نهر	Sierra Morena	جبل الشارات
Roncesvalles	رنشفالة ، ممر في البيرينيه	Sierra Nevada	جبل الثلج (شلير)
Ronda	رندة	Siguenza	شفونة
Rorre de Oçama	برج اسامة (قرطبة)	Silves	شلب في البرتغال
Rueda de Jalon	روطة اليهود	Simancas	سيمانقة ، سيمانتقة
Sado, Rio	شطبر ، نهر	Somport	سومبورت
Sagrajas	الزلاقة ، وقعة	Soria	سرية ، مدينة
Sagunto	ساقونته ، سغونتم القديمة	Tablada	طليطاطة من ضواحي اشبيلية
Salado, Battalla del	طريف ، وقعة	Tajo	تاجه ، نهر
Salamanca	شلمنقة ، سلمنتقة	Talamaca	طلمنكة
Sale	سلا ، سالة ، شالة	Talavera del la Reina	طلبيرة ، مدينة
Salobrena	شلوبانية ، شلوبين	Talavera, Hernando	هرناندو طلبيره
Saltex	شلطيش	Tarazona	طرسونة
Salvatierra	شلبطرة ، قلعة	Tarbal	طربال
Sancho	سانشو ، شانجة الخ	Tarifa	طريف ، طريفة
Sancho I (Castile)	سانشو الاول القشتالي	Tarragona	طركونة
Sancho II (el Fuerte)	سانشو الثاني «القوى»	Templares	فرسان الهيكل ، المعبد
Sancho IV (Valients)	سانشو الرابع «الشجاع»	Tendilla	تندلة (مركيز مندخار)
Sanchuello	شنجول	Teruel	ترويل ، طرويل
Santa Maria de Albarracin	شنتمرية الشرق	Theodemir (Tudmir)	تدمير (مرسيه في ما بعد)
Santaren	شنترين في البرتغال	Tocina	طشانة
Santaver	شنتبرية ، شنت برية	Toledo	طليطلة
Santiago	شنت يعقوب ، ياقب	Tolosa	طلوشة ، طلوزة
Sargossa	سرقسطة	Torquemada,Tomás de	توماس دي توركيماده

Torrencilla de Camer	ترجلة	Vascuence	البشقية ، لغة الباسك
Torrox	طرش ، مدينة في الجنوب	Vega	مرج (خاصة مرج غرناطة)
Tortosa	طرطوشة	Velez	بلش
Toulosa (Toulouse)	تولوز ، طولوشة ، طلّوزة	Velez Malaga	بلش مالقة
Trafalgar, Cape	طرف الغار	Vera, La	البيرة ، مدينة
Tudela	تطيلة	Villajoyosa	بلد الجوز ، بياخيوسا
Turigi	الطريقي ، زعيم أندلسي	Vinaroz	ابن العروس
Turrilas	طريلة	Visigoths	القوط الغربيون
Tuy	تودي	Vivar, Rodrigo Diaz de	السيد القنبيطور
Ubeda	أبدة	Vivarrambla	باب الرملة (في غرناطة)
Ubrique	ابريق ، مدينة	Vizcya	خليج بسقاية
Ucles	اقليش ، اقليج ، وقعة	Witiza	غيطشة ، الملك
Ultimo Suspiro	بوابة أبي عبد الله الصغير	Xeres	شرش ، مدينة في الجنوب
Urraca	أراكة	Ximenes (Cisneros)	خيمينس ، خيمينث
Valencia	بلنسية ، مدينة ومملكة	Zagal	الزغل ، أحد ملوك غرناطة
Valladolid	بلد الوليد ، مدينة	Zagra	حصن الصخرة في غرناطة
Valle de Alhar	وادي الحر	Zamora	سمورة ، مدينة
Valle de Ricote	وادي شقورة	Zaragoza	سرقسطة
Válor, Fernando de	ابن أميّة	Zegri	الزيري ، من أعيان غرناطة
Vascones	الباسك ، البشكنش	Zocodover	سوق الدواب (طليطلة)

المؤلف

ولد عادل بشتاوي في مدينة الناصرة (فلسطين) عام ١٩٤٥، ونشأ في بيروت ودمشق. درس اللغة الانكليزية وآدابها في جامعة دمشق وفقه اللغة الانكليزية في جامعة لندن. وعمل مراسلاً لعدد من الصحف العالمية ومحطات التلفزيون العربية والدولية، وأجرى مقابلات صحافية وتلفزيونية مع عدد كبير من الزعماء السياسيين، وساهم في انتاج واخراج عدد من الافلام الوثائقية منها «المسلمون على طريق الحرير» (خمس ساعات). شغل منصب مدير التحرير المركزي في وكالة انباء الامارات، وهو من مؤسسي صحيفتي «الشرق الاوسط» و«الحياة».

من كتب المؤلف

- «حدائق اليأس»، (رواية). المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت ٢٠٠٠).
- «زمن الموت والورود»، (رواية). المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت ١٩٩٩).
- «بقايا الوشم» (رواية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت ١٩٩٨).
- «العاشقة». (مجموعة قصصية)، دار الامل، (دمشق ١٩٨٧).
- «ثورة اهل البحر». (مجموعة قصصية)، دار المجد، (دمشق ١٩٨٦).
- «زائر من عالم غريب». (مجموعة قصصية)، دار الجيل، (بيروت ١٩٨٥).
- «وسنصرخ حتى الفجر». (رواية قصيرة)، دار اسامة، (دمشق ١٩٨٤).
- «موسم الرعب». (مجموعة قصصية)، مكتبة اسامة، (دمشق ١٩٨٣).
- «الأندلسيون المواركة»، (تاريخ). (القاهرة ١٩٨٣)، (دمشق ١٩٨٥/ ١٩٨٨).
- «لا تقتلوا الكناري». (مجموعة قصصية)، دار الأمل، (دمشق ١٩٨٢).
- وكتب اخرى.

A. S. Bishtawi

The Martyrdom of the Andalusian Nation

Part I

100 Years of Persecution and Confrontation